2020
2.1.2020

عاشق الصحراء

جورج أوغست والين، حياته ومذكراته

كاي أورنبيري

ترجمة: مارية باكلا



عاشق الصحراء

جورج أوغست والين: حياته ومذكراته

تأليف: كاي أورنبيري

ترجمة: مارية باكلا

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS207 .A2812 2012

[Aavikon vaeltaja]
عاشق الصحراء : جورج أوغسطين والين، حياته ومذكراته / تحرير: كاي أورنبيري ؛ ترجمة: مارية باكلا.- ط.1.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2012
ص. ؛ سم.
ت د م ك 978-9948-01-977-0
ترجمة كتاب : Aavikon vaeltaja: elama ja paivakirjat
1.- مذكرات -2 Wallin, Georg August,1811-1852. الاستشراق والمستشرقون. 3. شبه الجزيرة العربية-- تاريخ-- 1843-1850 . 4. شبه الجزيرة العربية -- وصف ورحلات. أ. باكلا، مارية. ب. Ohrnberg, Kaj.
ج.العنوان.

«دعم ترجمة هذا الكتاب برنامج التبادل الأدبي الفنلندي (فيلي)»



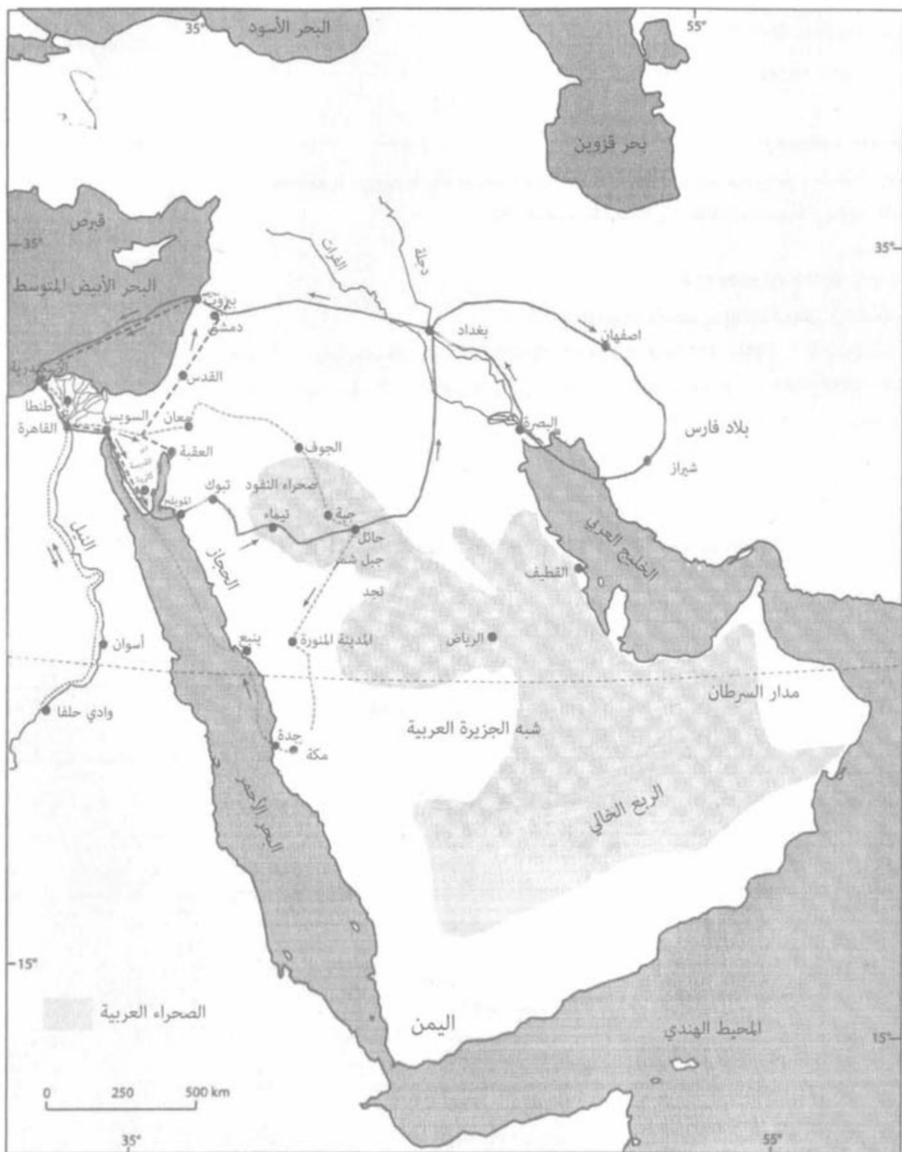
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إصدارات
esdarat
دار الكتب الوطنية

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@adach.ae
www.adach.ae



- خط سير جورج أوغست والين:

رحلة مصر السفلى والعليا

الرحلة الصحراوية الأولى 1845- 1846

الرحلة الصحراوية الثانية 1846- 1847

الرحلة الصحراوية الثالثة 1847- 1849

مقدمة المترجمة

أضع بين يديك كتاباً يحمل تجارب رحالة فنلندي عشق الصحراء، وعشق البدو لدرجة أنه ترك سهولة العيش في بلاده فنلندا، وسافر إلى الشرق لينهل من منابع لغته ودينه وحضارته. إنه رجل ترك العيش بين أهله وإخوانه، وآثر على ذلك مرافقة الشرقيين من مختلف الفئات والشرائح والمستويات التعليمية، وبالخصوص مرافقة البدو والعيش بينهم. كان يسجل ملاحظاته ومذكراته أولاً بأول، ويتأمل حياة الشرقي بما فيها من حلو ومر. ولأول مرة تصلك هذه المذكرات باللغة العربية حتى ترى من خلاها كيف كان الغربي ينظر إلى حياة الشرقيين في القرن التاسع عشر. هذا الغربي المستشرق يعشق حيناً وينفر حيناً. وعلى الرغم من أن كلمة (استشراق) وكلمة (مستشرق) عادة ما تثير تحفظاً عند المجتمع الشرقي لما يرتبط بها من أفكار مسبقة سلبية في غالبها؛ إلا أنها تعطينا فكرة أوضح عن أنفسنا لأنها قد تكون أكثر موضوعية من نظرتنا نحن، فقد يرى المرء في عيون الآخر ما لا يراه في مرآته، لننظر إلى صورتنا في مرآة الآخر حتى نتعلم كيف نتعامل معه ومع أنفسنا.

قد تجد بين طيات هذا الكتاب أحكاماً قاسية عن الشرق والشرقيين؛ ولكنك ستجد فيه أيضاً أفكاراً تغني طريقة تفكيرك، وتجعلك تنظر إلى موضوعات شتى من زاوية مختلفة. وذلك لأن سلوكيات الشرقيين عامة والعرب خاصة لا يمكن أن تُلاحظ موضوعياً من قبل الذات فحسب، بل لا بد من إسهام ملاحظات العين الأجنبية حتى تقود المقارنة بين وجهتي النظر هاتين إلى تكوين حكم موضوعي. لقد سبق لابن خلدون أن أصدر

حكمه القاسي على العرب، وهو المؤرخ الذي لا يشك أحد في نزاهته، كما قدم مونتسكيو وصفاً قيماً للغرب من خلال عين أجنبية في مؤلفه «الرسائل الفارسية»، وهاهو والين لا يختلف كثيراً عن هذا المنهج، على الرغم من أنه رحالة مستشرق. ويبدو جلياً من هذا الكتاب أنه يُكوّن أحكامه تدريجياً ويصححها ويدققها، انطلاقاً مما يلاحظه ويفهمه، وهذا في حد ذاته دليل لا غبار عليه على توخيه النزاهة، كما أنه لا يدين الأفكار والمعتقدات وإنما ينتقد التصرفات.

قد يكون هذا الكتاب أصعب عمل ترجمته إلى الآن نظراً لأسلوبه ولغته القديمين، ونظراً لأنه يحتوي على العديد من اللغات. ففضلاً على اللغة الفنلندية التي هي لغته الرئيسية، تتخلله جمل بالسويدية والألمانية والفرنسية واللاتينية والروسية والتركية والفارسية. ورغم إلمامي باللغات الخمس الأولى إلا أنني لا أنكر أن اختلاف اللغات داخل النص الواحد يتطلب وقفات كثيرة. هذا بالإضافة إلى كثرة الإشارات الجغرافية التي توخيت الدقة فيها قدر الإمكان. فبما أن والين كان يكتب أسماء الأماكن والقبائل بحروف سويدية لا تعرف حاؤها من هائها، ولا تعرف عينها من همزتها، ولا ضمها من كسرها، فإن البحث عن الاسم العربي لهذه الكلمات كان يتطلب جهداً وعملاً مضنياً أتمنى أن أكون توفقت فيه أو في معظمه على الأقل. وقد تركت الكلمات المصرية والبدوية والفارسية التي استعملها والين كما كتبها تماماً مع تبيينها بخط مائل. وأضفت بعض الهوامش لشرح الكلمات الأجنبية، ولتوضيح بعض الأمور التي اعتقدت أنها قد لا تكون معروفة للجميع.

وإضافة إلى ذلك، فإن هذا الكتاب يحتوي على معلومات قيمة ليس فقط بالنسبة للإثنولوجيين وإنما أيضاً بالنسبة للذين يهتمون بإشكالات شخصية العرب الشرقيين المسلمين من الناحية النفسية والتحليلية النفسية، وكذا بالنسبة للذين يهتمون ببنية العقل العربي نظرياً وعملياً

وآليات اشتغالها عبر السلوكيات والمواقف والعلاقة مع التراث.

عزيـزي القارئ، لا تنس وأنت تقرأ هـذا الكتاب أنه عبارة عن مذكرات ورسـائل. ومـا أكثر جرأتنـا عندما نكتـب مذكراتنا. لذا تذكر هذه المسـألة رجاء عندما تقابلك تعليقات مقلقة، أو كلمات غير صحيحة سـمعها والين وأخطأ فهمها، أو جملاً قصيرة للغاية تكاد تكون مزعجة.

أود التعبير عن عميق شـكري وامتنانـي للعلامة الدكتور **كاي أورنبيري** على توجيهاته وإرشـاداته لـي، وعلى صبره الأيوبي فـي التعامل مع مئات الرسـائل الإلكترونيـة التـي تلقاهـا منـي منـذ بـدأتُ ترجمة هـذا الكتاب، وإجابتـه بمنتهى الدقة والسـرعة على آلاف الأسـئلة التـي أمطرته بها. ولا يسـعني كذلـك إلا أن أعبر عن خالص شـكري وامتنانـي وتقديري لجهود أسـتاذي القدير **محمد الهلالـي** في عملية التنقيح اللغـوي، إذ يرجع له كل الفضـل فـي خـروج الكتاب بهذه الحلة، فشـكراً وألف شـكر. كما أشـكر الدكتـور **عـوض البادي** على ملاحظاتـه وتعقيباته على بعض أسـماء قبائل الجوف، وعلى اهتمامه الشديد بالعمل.

أتمنى لكم قراءةً ممتعةً وأعصاباً حديديةً!

مارية باكلا

أطلنطا في فاتح يناير *2011*

مقدمة الكاتب للقارئ العربي

من الصعب تخيل محيط أكثر استعصاءً وأكثر تحدياً من صحراء شبه الجزيرة العربية. ومن الصعب تخيل نمط حياة أقسى وأكثر تقشفاً من رعي الإبل في تلك الصحراء، على الرغم من الظروف الطبيعية، أو ربما بسببها، ظَهَرَ في أوروبا منذ بداية القرن التاسع عشر إلى أواخر القرن العشرين مستكشفون ومستشرقون وقعوا في غرام العرب، وهاموا حباً بشبه الجزيرة العربية. إن «النبيل المتوحش» أصبح بالنسبة لرومانسيي القرن التاسع عشر جزءاً لا يتجزأ من تهربهم من واقعهم: الحرية والفضيلة والمثالية لم تكن شيئاً مما أمكن للإنسان الثقافي بلوغه، بل إنه لا يمكن أن يجدها إلا عند أقوام يعيشون حياة بسيطة في أحضان الطبيعة.

ثمة أربعة كتب مهدت الطريق للمسافر الرومانسي في القرن التاسع عشر. وما كان بالقدر نفسه من الأهمية، هو أن هذه الكتب استقطبت جمهور قراء شغفوا بالمنشورات والكتب الجذابة التي تأخذهم إلى العالم الغرائبي الشيق، وإلى مناظره الطبيعية المألوفة. كُتب السفر الرومانسي هذه كانت هي: ألف ليلة وليلة، الكتاب المقدس، حج شيلد هارولد، ووصف مصر الذي كتب على يد العلماء الفرنسيين الذين رافقوا نابليون إلى مصر من عام 1798 إلى عام 1801. بهذه اللوحات المرسومة مسبقاً على الهودج المسرج على ظهر جمالهم، خرج بعض تهريبيي أوروبا الصناعية، فأنتجوا بعض أفضل أدب الرحلات في القرن التاسع عشر. إن المسافر الرومانسي في الواقع كما يقول السير أشعيا برلين، «هو الأجنبي، والمغامر، والخارج على القانون، وهو شخص يتحدى المجتمع ويتحدى القِيَم المسلَّم بها،

ويتبع قيمه الخاصة قد يكون ذلك بالذات هو ما يجعله يلقى حتفه، ولكن ذلك أفضل من المطابقة، والاستعباد، والرداءة». وكان النموذج المثالي لهذه القيم هو الفوضوي الذي لم تفسده الحضارة: البدو.

وكان الفنلندي جورج والين أغسطس (1811–1852) واحداً من هؤلاء الرحالة الرومانسيين الذين غيروا مفاهيم أمة بأكملها حول هذه المناطق الغريبة وغير المعروفة في ذلك الوقت من خلال كتاباتهم عما عاشوه وخبروه في مصر وشبه الجزيرة العربية. استغرقت رحلاته في مجموعها سبع سنوات (1843–1850). وكان أهمَّ إسهام علمي لهذه الرحلات ملخصٌ عن رحلتين قام بهما في شبه الجزيرة العربية (إحداها دامت أحد عشر شهراً كان يستخدم خلالها اسم عبد الوالي، وهو الاسم الذي نقش أيضاً على شاهد قبره، والأخرى دامت ثمانية عشر شهراً كان اسمه خلالها هو عبد المولى). كما يمكننا أن نقول إن والين وجد ضالته المنشودة على المستوى الشخصي كذلك؛ فمذكراته ورسائله التي كان يبعثها إلى فنلندا هي دليل ساطع على حبه الكبير للبدو، وعن حلمه غير الواقعي بالاستقرار بينهم إلى آخر يوم من أيام حياته.

حُبِيَ والين بأعظم المواهب التي يمكن أن يتمتع بها المستكشف – فهو يتمتع بفهم بديهي للناس الذين التقى بهم، إضافة إلى تعاطفه معهم. وكانت عبارة «أبناء الصحراء الأحرار العفويون» هي العبارة المفضلة لديه في كتاباته عن البدو. وكان أكثر ما جذب والين إليهم على وجه التحديد هو أن الصحراء لم يكن فيها عبد ولا سيد، والبدوي يصبح أخاً شقيقاً فوراً وللأبد. إن كرم الضيافة – الذي يعد أحد الشروط الأساسية للبقاء على قيد الحياة داخل الصحراء – هو شيء مقدس عند البدو لا تنتهك حرمته: «فالبخل عندهم هو أسوأ الشرور، والبخيل هو من لا يعطي كل شيء، أو على الأقل كل ما لا يستطيع إخفاءه. والشطارة هي أن تمتلك أقل قدر ممكن». وفقر البدو هو أحد العوامل التي جعلت البدو قريبين

مـن الفنلنديـن في قلب والين. «إن من طبع العربي أن يحب الفقر نوعاً ما، مثـل الفنلندي تماماً. وأنـا باعتباري ابناً لفنلندتنا الفقيرة وبوصفي شـخصاً ترعرع فيها؛ أعتبر نفسي أخاً لابن الصحراء النبيل الفقير وابنا للقبيلة نفسها تقريبـاً». وقـد كتـب والين بعد عودتـه إلى فنلنـدا - وأثناء تخطيطـه للقيام برحلة جديدة - أنه مسـتعد لتقديم تضحيات أكبر من أجل العودة إلى ديار أحبته البدو، وكانت أخلص أمنياته هو أن يسـمح الله له بوضع رأسـه على رمال الصحراء ليخلد ثمةَ للراحة الأبدية.

لقـد كان حبه للبدو هو حـب للصحراء أيضاً: «لا أدري ما مصدر ولعي بالصحـراء، فأنا أعرفها بما يكفـي لكي لا أتوقع منها إلا الجوع، والعطش، والشـمس الحارقة، وانعـدام الظل، والخوف من أن يُلقـي أصدقائي البدو بقبضتهم علي، وينهبونني بلا رحمة، ويتركونني لأموت جوعاً، أو يتركونني أتخبـط وحدي وأقـاوم الطبيعـة التي تضاهي في قسـوتها أبنـاء الصحراء. ولكنني أفضل أن أترك ورود بلاد فارس، وترف بغداد الإنجليزية، وأطباق اللحم المصرية لأذهب إلى الصحراء».

وعلى الرغم من حب والين للصحراء وللبدو، وحبه أحياناً لحسناوات بدويات كُنَّ يجذبنه كالحوريات، ويجعلنه يفكر في الاسـتقرار معهن مدى الحيـاة؛ إلا أنه كان يـدرك صعوبة نمط الحياة البدوية، بل اسـتحالتها على مـن لم يولدوا فـي الصحراء: «ومن الناحية العملية ربما لا أسـتطيع تحمل حيـاة الصحـراء وربما لا يسـتطيع أحد فهم ظروفهـا فهماً تامـاً إلا إذا كان قـد ولد وشـب فيها كما أننـي كنت قد اطلعت عن قـرب على عيوب البدو ونقـاط ضعفهـم لدرجة تجعلني أعتقد أن الحياة وسـطهم سـتصبح صعبة على المدى البعيد».

لقـد حوَّل معظـم الرومانسـيين مناظر شـبه الجزيرة العربيـة إلى مناظر أدبيـة، وربما إلى طبيعـة داخلية، أو كما يقول ويليام بولـك: «إن الصحراء تغيِّر من يأتون إليها مثل مغناطيس قوي. لقد شعر العديد من المسافرين بأن

تجربتهم تكاد تكون تجربة صوفية. وأحس بعضهم الآخر أنها تشكل تحدِّياً لإنسانيتهم، ولقدرتهم على البقاء في حد ذاتها. وجد بعضهم فيها سلاماً وبعضهم وجد فيها اليأس. وقد خلق البعض من تلك الموارد الداخلية آثاراً أدبية وفلسفية ودينية. ربما لا تعدو الصحراء أن تكون عدسة مكبرة، وشيئاً يُمَكِّن المرء من تقديم كتابات خلاقة تعبر عن ماهيته الحقيقية». أحبُّ أن أعتقد أن الأمر هكذا أيضاً في حالة والين، ولكنني سأترك الحكم على هذا الأمر وعلى محتوى هذا الكتاب للخبراء الحقيقيين: العرب.

مقدمة الكتاب

«جورج أوغست والين» مُسْتَكشف فنلندي شغل كرسي أستاذ اللغات الشرقية في جامعة هلسنكي الفنلندية. وقد توفي في مدينة هلسنكي يوم السبت 23 أكتوبر/ تشرين الأول عام 1852 وهو يحضر لرحلة استكشاف جديدة. وقد ظل سبب الوفاة مبهماً حسب كل ما وصل إلى علمنا من معلومات. وفي يوم الأربعاء التالي، نشرت جريدة «هلسينغفورس تيدننغر» قصيدة شعر نظمها زكرياس طوبليوس بعنوان: «اذهب يا من جاب طريق الحياة». وقد أراد طوبليوس من خلال هذه القصيدة تكريم «والين»، وابن جيله «ماتياس ألكسندر كاسترين» الذي كان قد أسلم الروح في السنة نفسها:

أثر كاسترين انمحى
من الزمان ردحا
وأثر والين مثله
ذرت الرياح ذكره

صدقت هذه الأبيات حرفياً؛ إذ إن «والين» حل وارتحل في شبه الجزيرة العربية، ولم يخلف وراءه سوى آثار على الرمال، وبهذا فإن أفكار طوبليوس المجازية قد استبقت الأحداث. وقد ذاع صيت هذا الباحث الفنلندي، وبلغ ذروة الشهرة بعد وفاته مباشرة، حيث أسالت رحلاته مداداً كثيراً، وغصت بها إصدارات المستشرقين الأنكلوساكسونيين والألمان والفرنسيين.

وقـد كان «واليـن» أول من جمع أشـعار البدو في شـبه الجزيرة العربية، وأول من سـجل ملاحظاته على لهجاتهم، كما أن نظرياته في علم أصوات اللغة العربية (الفونيتيقا) ظلت تحظى باحترام كبير لغاية القرن العشرين.

كمـا أن واليـن كان أول مستشـرق انكـب علـى دراسـة اللغـة الدارجـة الحيـة، والوحيد الذي كان يلـم بمورفولوجيا وفونولوجيا هـذه اللغة. غير أن المقالات المتعلقة بأبحاث والين لاقت ما تلاقيه البحوث عامة؛ إذ هبت رياح التطور فغطتها برمال البحوث الجديدة، وهذا يفسـر فكرة طوبيليوس بعض الشيء.

لا تذكـر الإصـدارات الدولية المتخصصة في تاريخ علمي الاستشـراق والاستكشـاف والين حالياً إلا في جملة أو جملتين، أوتمر على ذكره مرور الكرام في الحواشي.

إن ما لم يفقد قيمته من أسفار والين، ولم يأكل عليه الدهر ويشرب، حتى بالمقاييس الدولية؛ هو المذكرات التي دونها خلال رحلاته، والرسائل التي بعثهـا إلـى وطنه فنلنـدا. وقد كان والين فـي وصفه لظروف الحياة في شـبه الجزيـرة العربية ولجغرافيتها، في أغلب الأحيـان الأول والوحيد الذي أتى على ذكر قبائل وأماكن معينة.

لقـد مهـد والين مـن خـلال متابعته لحيـاة سـكان المنطقة مـن الداخل ودون أن يعـرف لطريقـة بحث يطلق عليهـا باحثو زماننا اسـم « الملاحظة المشارِكة» (أو الملاحظة بالمشارَكة). وبما أن والين كتب باللغة السويدية فقد ظلَ القســم الأكبر مـن إرثه الأدبي ذاك بعيداً عـن متناول من لا يعرفون اللغات الإسكندنافية من الباحثين، ومن هواة أدب الأسفار.

طالما اسـتغربت فنلندا مجال أبحاث والين عندما كان على قيد الحياة؛ أما بعد مماته فلم يتعد الاهتمام بشـبه الجزيرة العربية حدود أوسـاط معينة، فاسـم والين بالنسـبة للكثير من فنلنديـي أيامنا هذه لا يعدو أن يكون اسـماً نكرة من الماضي البعيد.

أما الإصدار الذي تضمن أكبر عدد من رسائل والين ومذكرات رحلاته حتى الآن فهو الذي حققه س.ج. إلمجرن في سنوات (1864-1866) بعنوان «مذكرات رحلات والين في الشرق لسنوات 1843-1849». وإلمجرن هذا لم يكن يعرف اللغة العربية ولذلك اضطر لتجاهل كثير من المواد التي وردت بهذه اللغة في النصوص. بالإضافة إلى ذلك فقد مارس رقابةً على الفقرات التي اعتبرها غير لائقة كما أدخل تعديلات، على أسلوب سرد والين الفريد من نوعه، والمفعم بجمالية منقطعة النظير.

ونشر كنوت تالكفيست - الذي كتب حياة والين والذي يعد أهم عالم استشراق في عصره، مجلداً عام 1905، جمع فيه عدداً من نصوص والين التي لم يسبق نشرها بعنوان «رسائل والين ومذكراته»، وذلك تكميلاً للعمل الذي حققه إلمجرين. وعلى الرغم من أن تحقيقه لا غبار عليه؛ إلا أنه لم يشمل غير قدر يسير من المادة المتوافرة.

وبما أن شخصية والين تتمتع بالكثير من الرومانسية وروح المغامرة؛ فإنه من الغرابة بمكان حقيقة أن كتاب حياة والين المقتضب الذي ألفه كنوت تالكفيست (والذي نشر بالفنلندية عام 1903 وبالسويدية عام 1905) ظل يتيماً في بابه.

ومخطوطات رحلات والين في الشرق التي لم تر نور النشر إجمالاً محفوظةٌ في مكتبة جامعة هلسنكي (المكتبة الوطنية). ومن ضمن هذه المخطوطات نجد مذكرات والين للسنوات (1845-1849) التي كتبها باللغة السويدية بحروف عربية، وتفاصيل ذات قيمة أكاديمية كبيرة كالأحوال الجوية في شبه الجزيرة العربية للسنوات (1845-1848)، مراسلاته باللغة العربية، وكذا رسائله التي بعثها لمعاصريه من علماء اللغة العربية والتي تُحفظ الآن في مكتبات أوروبا المختلفة.

اشتغلتُ سنوات على إرث والين الأدبي، وعملت جاهداً حتى

أوفِيَ نصوصه حقها قدر المستطاع للخروج «بتحقيق نقدي» لها. ولا يعتبر إنجاز كهذا واجباً ثقافياً تاريخياً فحسب؛ وإنما هو شرط لا غنى عنه كي نستطيع ترجمة رسائل والين ومذكراته، أو على الأقل مختارات منها، إلى لغات العالم وجعلها في متناول المستعمل الأكاديمي. وقد وَعَدَتْ دار نشر «سفنسكا لتراتورسكابت» بنشر كل ما بقي من العمل المحرر باللغة السويدية. وستتكون مجموعة الأعمال من خمسة أجزاء وسوف أقدم مخطوطة الجزء الأول منها للناشر في غضون سنة 2008.

لقد اقتُرح علي في فترة من الفترات تدوين حياة والين. وبما أن المعروف عن الجوانب الأخرى من حياة والين قدرٌ يسير نسبياً، فقد اقترحت اقتراحاً آخر: بما أن حياته بالنسبة للأجيال القادمة تزداد أهمية في وصفه لرحلاته، فأسلوبه في السرد يُبرز شخصيته بحيوية أكبر، فلِمَ لا أترك والين يقص بنفسه كل ما يمكن قصه، ويقدم معلومات تكميلية في إطار وصفي؟

يوجد وصف والين لرحلاته في رسائله التي بعثها لوطنه فنلندا من جهة، وفي مذكراته التي بدأ تدوينها منذ وصوله إلى مدينة ترافموند الألمانية في الحادي عشر من شهر آب/ أغسطس 1843من جهة أخرى. وقد كان المرسَل إليهم من المقربين إليه: أمه يوهانا مارية أهرنبرغ (1779-1854)، وأخته الصغرى نتاليا (1818-1881)، وابن عمه وصديق طفولته كارل فون هارتمنسدورف (1814–1858)، ورفيق صباه فرانس إدوارد كونرادي (1812-1888)، وأستاذاه البروفيسور جابريال غيتلين في هلسنكي، ومحمد عياد الطنطاوي (1810-1861) في سان بترسبورغ.

كانت الرسائل تُبعث عبر البريد الدبلوماسي، إذ كان والين يودعها القنصليات الروسية المحلية لتنقلها هي في ما بعد إلى سان بترسبورغ ومنها إلى فنلندا. كانت الرسائل تتنقل من مكان لآخر ببطء، وكان وصولها غير مضمون. وقد ضاعت الكثير من الرسائل في الطريق، أو بقيت تنتظر في سان بترسبورغ جراء إهمال الموظفين الروسيين.

في شبه الجزيرة العربية، كان والين يقدم نفسه على أنه مسافر مسلم، ولذلك لم يكن بإمكانه أن يدون رؤوس الأقلام باللغة السويدية دون أن يَكشف خلفيته الأوروبية. وهكذا، فقد أخذ يكتب السويدية بحروف عربية. وصارت رؤوس الأقلام، التي اقتصرت في البداية على التواريخ والمسافات المقطوعة والأحوال الجوية وأسماء الأماكن، مذكراتٍ كلما سنحت له الفرصة، وكان يختار منها بعض المقتطفات ليضمنها الرسائل التي يبعثها لفنلندا فيما بعد.

وقد نشر «غيتلين» مقتطفات من وصف والين في الجرائد الوطنية سويدية اللغة. يبدو أن الطرفين كانا قد اتفقا على الأمر مسبقاً، لأن والين كان يبعث لغيتلين بمذكراته أيضاً وكان يتوخى الحذر في كتابتها مخافةَ وقوعها في أيدي أطفاله، خاصة وأنها كانت تحوي إشارات مباشرة إلى قصص غرامية. لذلك لجأ والين إلى كتابة مثل تلك الإشارات باللغة الانجليزية التي كانت، من منظور أوروبي عام، لغةً لا يعرفها إلا القليلون في بداية القرن التاسع عشر في حين كانت الفرنسية لغة الطبقات الراقية والألمانية لغة العلماء.

ذهب والين في رحلته اليتيمة إلى الشرق الأوسط في تموز/ يوليو عام، 1843 وعاد إلى فنلندا في شهر حزيران/ يونيو عام 1850. عاش مدة طويلة في القاهرة، وزار القسطنطينية والإسكندرية والقدس وبيروت ودمشق والبصرة وبغداد وشيراز، أي أنه زار أماكن لم يطأها إلا القليلون من الأوروبين وبعض الفنلنديين قبله. وفي منتصف القرن التاسع عشر، كانت فكرة المثقفين الفنلنديين عن تلك المناطق في معظمها تنبني على ما جاء به والين.

يُعَدُّ وصف والين لرحلاته في مصر وشبه الجزيرة العربية وأرض فارس أهم شيء من منظور دراسات الشرق الأوسط عامة، وحياة البدو وظروف معيشتهم خاصة، وكذا من منظور تاريخ الاستكشاف، وذلك نظراً لأسباب

سـأذكرها لاحقاً. وهـذه المختارات التي نضعها بين يديـك تنبني على هذا الأساس نفسه.

طريقة التحقيق المتبعة:

تم تقسيم النصوص المُدرَجة في هذا الكتاب إلى خمسة أجزاء، قسمتها هـي الأخرى إلى أجزاء أصغر حرصاً علـى راحة القارئ. أول هذه الأجزاء يحكي عن إقامة والين في سـان بترسـبورغ ودراسته بها، ويُكوِّن في الوقت ذاتـه صورةً حول شـخصيته كفـرد. وتأخذنا رحلتـه باتجـاه البحر الأبيض المتوسط والعالم الإسلامي عبر أوروبا إلى زمن كانت مدة السفر فيه تقاس بالأسابيع والشهور لا بالساعات.

تزامنـت فترة إقامة واليـن في مصر مع وقت متميز لسـببين اثنين: الأول أن العقد الرابع من القرن التاسـع عشر يمثل من جهة، بداية علم المصريات الـذي تزايد فيه الاهتمام العلمي بالآثار المصرية القديمة في العالم بأسـره. ومـن جهـة أخـرى، فـإن العالم الإسـلامي كان في تلـك الفتـرة يعيش فترة تحول: فالرهان الذي فرضته أوروبا والأوروبيون على نمط الحياة التقليدي يستدعي ردوداً.

انبنت سمعة والين بوصفه مستكشفاً على رحلاته بصحراء شبه الجزيرة العربيـة. وتعتبـر مذكراتـه وملاحظاته عربون حب وإجـلال لبدو الصحراء ورُحَّلهـا ولنمـط حياتهم القاسـي. إن هـذه الملاحظات، في نظـر الأجيال اللاحقـة، هي الجزء الذي لا يفنى من إنتاج واليـن الأدبي. أما الأجزاء التي تتحـدث عـن الفتـرة الأخيـرة، فتصـور رحلة والين فـي بلاد فـارس. ويعد الإسـهام الأساسـي لهذه الأجـزاء، باعتباره كاشـفاً عن التصـورات العامة لتلـك الفتـرة، هي مقارنـة والين بيـن العرب والفـرس، وبين اللغـة العربية واللغة الفارسية، وبين المذهب الشيعي والمذهب السني.

كان مستكشـفو القرن التاسع عشر في الشرق يبحثون دائماً، من الناحية

الواقعيــة، عــن تجــارب جنسـية كذلك، كما يقـول المفكر إدوارد سـعيد (1935 – 2003)، ووالين لا يشـذ عن هذه القاعدة فقد كانت النسـاء مركز اهتمامه طول حياته. وهذا يبدو كذلك من خلال ما دوَّنه من ملاحظات، كما أننا قـد اخترنا مقتطفات مما دونه باللغة الانجليزيـة وترجمناها وأدرجناها هنا.

إن النصوص المترجمة إلى الفنلندية هي عامة من النصوص التي حققها كل مـن إلمجرين وتالكفسـت. وقد قارنـا النصوص المقتطفـة من إصدار إلمجرين برسائل والين ومذكراته الأصلية، وصححنا الأخطاء الواردة فيها وأعدنا إدراج النصوص التي مورسـت عليها الرقابة. كما أننا أدرجنا بعض المواد التي لم يسبق نشرها من قبل.

كاي أورنبيري

هلسنكي، 14 ماي 2007

الخلفية والمنطلق

بـدأت الدراسـات الشـرقية فـي أوروبـا فـي النصـف الثاني مـن القرن الثامـن عشـر، وكانت في البدايـة تُعنى على وجه الخصـوص بالفيلولوجيا وبعلم اللغات الشـرقية. وقد وضع رواد الدراسـات الهندية آنذاك بين يدي الأوروبيين الأدب السانسـكريتي الغني الذي توَّلَّدَ عنه ولَعٌ حقيقيٌّ بالشرق، كما تولَّدَ عنه علم اللغة المقارن. كانت طريقة دراسة الثقافات تتم في المقام الأول من خلال النصوص وترجماتها وتفاسـيرها وتأويلها. وكان الباحثون منهمكيـن بقواعـد اللغة في الحدائق الفرنسـية، صارفيـن اهتمامهم كلياً أو جزئياً عن الميادين الثقافية الأخرى. وكان المستشـرقون يعتبرون أنفسـهم مترجمين ويأخذون على عاتقهم ترجمة الثقافات الأجنبية إلى لغة مفهومة.

ولكـن الهند كانت بعيدة، ولـم يكن إلا للقليلين فكرة عنها، أما زيارتها فلـم تُتَـح إلا لعـدد أقـل، لهـذا فإن صـورة الشـرق التي ترسـخت في ذهن الأوروبيين في العصر الرومانسـي هي صورة العالم الإسـلامي في الشـرق الأوسط.

الرحـلات التثقيفية التي كان شـباب الطبقة الراقيـة الإنجليز يقومون بها إلى إيطاليا خلقت ما سُـمِّي بالرحـلات التعليمية التي انتهت باندلاع الثورة الفرنسـية، وتحول أوروبا إلى مسرح لحروب متتالية. من ذاقوا مذاق السفر أخذوا يسافرون إلى أماكن أخرى، فعوَّضَ حوضُ البحر الأبيض المتوسط والعالم الإسـلامي تلك الرحلات التعليمية. امتدت الرحلات من المغرب إلـى بلاد فـارس وكان جوها العـام جو ألف ليلـة وليلة، وجو عالم الشـعر الفارسي، ومظهرها الخارجي هو المنظر الغرائبي للقاهرة والقسطنطينية أو

مظهر طبيعة صحراء شبه الجزيرة العربية الرومانسي الجامح.

وقد جعلت الرومانسية واستيقاظ الحس الوطني الفنلنديَّيْن اهتمام الفنلنديين يتوجه بشكل يكاد يكون كلياً إلى سيبيريا والبلدان التي تسكنها الشعوب ذات القرابة مع الشعب الفنلندي.

ورأت كاليفالا[1] النور من خلال رحلات جمع الأشعار التي بدأها إلياس لونروت (1802 – 1884) إلى أرض الأشعار «فِيَنا» سنة 1828، كما أن الأكاديمي أندرياس يوهان شيوغرن (1794 – 1855) الذي انتقل إلى مدينة سان بترسبورغ قد حل وارتحل بشكل واسع بين الشعوب الفنلدية- الأوغورية (الفينوأوغورية).

كان حلم شيوغرن أن يقوم برحلة بحث واسعة عن شعوب ولغات سيبريا. وقد وافقت أكاديمية علوم سان بترسبورغ على تمويل هذه الرحلة سنة 1838. غير أن صحة شيوغرن تدهورت خلال الرحلات السابقة لدرجة أنه ارتأى الاعتذار عن المهمة. وأثناء التباحث بشأن أنسب شخص للقيام بهذه المهمة، اقتُرِح اسم ماتياس ألكسندر كاسترين من فنلندا (1813 – 1852) وكذا اسم جورج أوغست والين وكلاهما حاصل على الإجازة عام 1836 وكان تخصصهما اللغات الشرقية. ودفع صدور كالفالا عام 1835، ووصايا لونروت وسنلمان بالتوجه بالبحث إلى مواضيع ذات اهتمام دولي أكبر، كاسترين إلى أن يُحَوِّل اهتمامه للغات شمال أوراسيا وشعوبها. وقد تم تكليفه بالمهمة عام 1843.

كان لهذا الاختيار أسباب وجيهة ذلك أنه لم يكن لأحد أن يعرف أكان جورج أوغست والين يتكلم اللغة الفنلندية وهو من مواليد أرخبيل أولاند الناطقة بالسويدية. ولد والين في 24 من أكتوبر/ تشرين الأول عام 1811 لأبيه إسرائيل والين (1777-1839) الذي كان مُوَثِّقا، ولأمه يوهانا مارية التي سلف ذكرها. كانت الأسرة تتألف من سبعة أطفال، وكان جورج

---

(1) كاليفالا هي ملحمة شعرية من الفولكلور الفنلندي.

أوغست رابعهم. يبدو أن عادة الإبحار لسكان أرخبيل أولاند قد جعلت ثلاثة من إخوة والين الراشدين يركبون البحر. الأخ الأكبر كارل أوغست (ولد عام 1807) كان يحلم بالعمل ضابطاً في القوات البحرية السويدية غير أن القدر لم يمهله إذ توفي سنة 1828 عندما سقط من صاري باخرة في جبل طارق. أما الأخ الأصغر برور أوغست (ولد عام 1820) فقد خدم في الجيش الروسي وانتهى به الأمر مالكَ أرض في مدينة سمولنسك الروسية ومات بها عام 1868.

وقد نُصِّب والد والين مديرَ حسابات إقليمَيْ توركو وبوري، فانتقلت الأسرة لتعيش في مدينة توركو حيث دخل جورج أوغست المدرسة الكاتدرائية. وبعد الحريق الذي شب في مدينة توركو سنة 1827، انتقلت المدرسة إلى مدينة راوما وانتقل إليها والين كذلك. كانت أسرة والين قد انتقلت قبل ذلك إلى العاصمة هلسنكي عندما عُيِّنَ والده في منصب مدير حسابات. لحق بهم جورج أوغست عام 1828 وحصل على شهادة البكالوريا في ربيع العام الموالي.

إن معلوماتنا عن حياة والين وأعماله قبل مجيئه إلى هلسنكي ناقصة، ومن الواضح أنها حُبِكت على ضوء مراحل حياته الموالية. يبدو أنه لم يكن يميل كثيراً للتمدرس، ويقال إن أساتذته لم يتنبؤوا له بآفاق مستقبلية جيدة.

في حزيران/ يونيو 1829، تسجل والين في جامعة ألكسندر القيصرية حيث درس اللغات الكلاسيكية والشرقية. لا نعرف السبب الذي جعله يهتم بلغات العالم الإسلامي: العربية والفارسية والتركية. كان من الممكن دراسة اللغة العبرية في فنلندا منذ سنة 1640 عند تأسيس أكاديمية توركو. وكان من مهام أستاذ اللغتين اليونانية والعبرية تدريس اللغة العربية كذلك. كانت اللغة العربية تُعَد لغة مُساعِدةً للغة العبرية في فهم الكتاب المقدس. لكن أستاذ تلك اللغات آنذاك لم يعِد بتدريس قواعد اللغة العربية قبل سنة 1709.

كان أستاذ والين الأول في اللغة العربية هو مساعد كرسي اللغات الشرقية إفار أولريك والينيوس (1793-1874) ولكنَّ ما أثر حقيقة في مستقبل والين هو تنصيب جبريال غيتلين (1804-1871) بروفيسوراً للغات الشرقية سنة 1835 ومحاضراته في اللغتين العربية والفارسية.

وطد والين عرى الصداقة مع أستاذه الذي لم يكن يكبره إلا بسبع سنين ودامت صداقتهما مدى حياتيهما، وربما كان الأستاذ صديقه الوحيد خلال فترة الدراسة كلها. وبالإضافة إلى اللغات التي ينبغي دراستها لنيل الشهادة، انكب والين بشغف على دراسة الألمانية والفرنسية والإنجليزية رغم أن هذه اللغات لم تكن تندرج ضمن ما ينبغي دراسته لنيل الشهادة. وقد اضطر لدراسة اللغة الروسية كذلك لأنه كان ينوي متابعة داراساته العليا لاحقاً في جامعة سان بترسبورغ.

لحسن حظ والين، كان والداه يعيشان في هلسنكي وربما كان يعيش معهما خلال فترة دراسته، غير أن أسرته لم تكن ميسورة، ولذلك فقد كان والين يعمل بين الحين والآخر معلماً خاصاً لأبناء البروفيسورات. وعندما توفي والد والين سنة 1839، أُعلن عن إفلاس التركة. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على صعوبة الحالة المادية لأسرته.

كان البحر محل اهتمام والين بطبيعة الحال لكونه ينحدر من أرخبيل أولاند، إذ كان الإبحار والسباحة من الهوايات المقربة إلى قلبه صيفاً. بالإضافة إلى أنه كان يملك أذناً موسيقة، وكان يعزف على أكثر من آلة موسيقية نذكر من بينها المزمار والقيثارة والتشللو والبيانو. وعندما كان يسافر إلى الشرق الأوسط، كان دائماً يحاول تعلم العزف على آلات محلية. وعلى الرغم من أن والين بدا منذ صباه نافراً من العلاقات الاجتماعية ومن المجتمع الطبقي، إلا أنه كان يشترك في حفلات الطلبة بحماس شديد لدرجة أنه مَثُل أكثر من مرة أمام اللجنة التأديبية للجامعة. وفي خريف 1834، ترأس والين اجتماعاً اعتُبِر غير قانوني آنذاك مما أدى إلى فصله

وستة طلبة آخرين كانوا ممن دَعَوا لحضور الاجتماع، ومن بينهم ماتياس ألكسندر كاسترين، من الجامعة لدورة الخريف 1835.

قضى والين عطلته الإجبارية بخريفها وصيفها في أرخبيل أولاند. ثم حدث حينها حادث كاد يقضي على مستقبله الأكاديمي قبل بدايته. كان والين قد خرج يقطف التوت البري مع زوجة قسيس مدينة سالتفيك وكانت زوجة القسيس هذه تشتهر بكونها امرأة لعوباً. ولأن القسيس كان يشك في زوجته، تبعهما وضبطهما متلبسين فنشأ بين الرجلين عراك أوسع فيه والين القسيس ضرباً فاضطر صاحبنا فيما بعد إلى أن يدفع مبلغاً كبيراً من المال للقسيس حتى يتنازل عن نيته في إعلام الجامعة بالموضوع. لو كان خبر الحادث قد وصل إلى علم الجامعة لكان الفصل المؤقت قد تحول إلى فصل نهائي من الجامعة.

إن صفة والين التي انتبه لها معاصروه خلال فترة الدراسة هي ميوله للخمول. عندما تخرج والين من الجامعة عام 1836، قضى عطلة طويلة وصفها تلميذه، الذي أصبح فيما بعد بروفيسوراً للغات الشرقية ڤلهلم لاجوس (1821 – 1909) كما يلي:

«قضى الصيف في الأرخبيل مبحراً وعازفاً على آلة التشللو التي كان قد بدأ يعزفها بشغف. كان يتمتع بهذا الفراغ الرائع متجرداً من كل ملابسه ومتكاسلاً تحت الشمس، وعلى جانب الشاطئ الصخري المحمي من الأمواج والرياح».

يذكر والين في مذكراته مرات عديدة استحسانه لميول الشرقي للخمول ولتأمل محيطه دون فعل شيء. ويعتقد جوران شيلدت أن والين قد تحول إلى شرقي خلال رحلاته، وأنه «تغير خطوة خطوة من مواطن ينتمي إلى الطبقات الوسطى وينحدر من مدينة صغيرة من شمال أوروبا، ومن رجل جامعي إلى عالم مسلم ومواطن عالمي». غير أنه من الممكن أن نستشف أن بذرة هذا التغيير كانت فيه قبل شده الرحال.

طالت سنوات دراسة والين سبع سنوات. حصل على الإجازة في الفلسفة في نيسان/ أبريل سنة 1836 وبعد ذلك بدأ، دراساته العليا في العربية والفارسية تحت إشراف جابريال غيتلين. وفي حزيران/ يونيو عام 1839، نشر والين أطروحة منصب محاضر جامعي بعنوان «الاختلافات الأساسية بين اللغة العربية المعاصرة واللغة العربية الكلاسيكية» فعُيِّن بعد عشرة أشهر من ذلك محاضراً جامعياً في اللغات الشرقية.

إن شغف والين باللغات الحية، التي كان يتعلمها بسهولة كما شهد له بذلك معاصروه، يبدو جلياً من خلال موضوع أطروحته. ففيها يقارن بين اللغة العربية الكلاسيكية وبين اللغة المحكية. وقد وصف تعلم اللغات الحية في إحدى رسائله بقوله:

(من الواضح أنني، وأنا أحاول تعلم لغات أجنبية، قد لاحظت صدق مارتن لوثر حين قال: لا ينبغي لمن يرغب في تعلم اللغة الألمانية أن يحدق في الحروف اللاتينية، بل عليه التوجه إلى السوق والاستماع إلى الأولاد وهم يتجادلون، وإلى الأمهات وهن يثرثرن مع أولادهن وما إلى ذلك).

خَوَّلت درجة محاضر جامعي لوالين التدريس في الجامعة دون الحصول على راتب. وقد سافر في شباط/ فبراير 1840 إلى سان بترسبورغ للبحث عن إمكانية الالتحاق «بالوظيفة الروسية». لسنا ندري ما الذي قصده والين بمقولته تلك. باعتبار قدراته اللغوية الواسعة، يمكننا أن نفترض أنه كان يروم وظيفة في وزارة الخارجية تسمح له بالسفر إلى بلاد الشرق، وأياً كان ذاك المرام، فإن صاحبنا لم يبلغه.

وقد سبق فنلندیان اثنان والين إلى الشرق الأوسط وهما: بيتر فورسكول (1732-1763) وفلهلم روس (ولد نحو 1718 – 1766).

درس بيتر فورسكول، الذي وُلد في هلسنكي، اللغة العربية في جامعة أوبسلا وتابع محاضرات ليني. وفي سنة 1761، أتيحت لفورسكول فرصة الالتحاق بالبعثة الاستكشافية التي موَّلها ملك الدانمارك فريدرك الخامس والتي قصدت ما يسمى بالجزيرة العربية السعيدة أي اليمن. كان هدف البعثة الاستكشافية التعرف على نباتات العهد القديم وحيواناته وظروفه الطبيعية ومحاولة فهم عادات الإسرائليين القدماء وأوضاع معيشتهم عن طريق ملاحظة حياة البدو. وعلى الرغم من أن فورسكول انضم للبعثة كعالم طبيعة، إلا أنه برز فيها باعتباره أهم عالم لغة عربية، وقد مات بالملاريا في قرية يمنية تدعى يريم.

جعلت رحلة فورسكول الاستكشافية التي حظيت بنصيب وافر من الاهتمام الإعلامي المحاضَر الجامعي ڤلهلم روس يفكر في الحج إلى أرض الميعاد. وبالفعل، سافر في نيسان/ أبريل 1763 من مدينة توركو صوب حوض البحر الأبيض المتوسط قاصداً القدس. غير أنه لم يصل إليها أبداً، لأن المنية وافته في صحراء قريبة من دمشق في صيف 1766.

ماذا كان والين يعرف عن سابقيه؟ وهل كان لمصيرهم تأثير في خياراته؟ لم يأت أحدٌ من معاصري والين على ذكر روس في سياق الحديث عنه. أما عن تأثير فورسكول على والين، فيبقى السؤال مطروحاً بشأنه. كتب الآنف الذكر ڤلهلم لاجوس حياة فورسكول سنة 1877، وذكر أن هذا الأخير كان إلى حدٍّ كبير مثل والين الأعلى. من المحتمل طبعاً أن والين قد أتى على ذكر فورسكول عندما كان مدرس لاجوس الخاص وهو في الرابعة عشر من العمر سنة 1835.

أول زيارة لمدينة سان بترسبورغ

رسالة أرسلت في بداية شهر مارس عام 1840 من مدينة سان بترسبورغ

أمي العزيزة!

قضيت أربعة أيام أتجول في ربوع مدينة سان بترسبورغ المترامية الأطراف، أتعجب من كل ما رأته عيناي فيها من أمور فريدة ومُتَميِّزة. لم أر في حياتي كلها مدينة يمكنها أن تنافس هذه المدينة. لا يمكن مقارنتها بمدينة هلسنكي ولا بما لا يزال محفوراً في ذاكرتي عن مدينة ستوكهولم. لا، لا يمكن مقارنة هذه المدينة حتى بستوكهولم بأي حال من الأحوال. أعتقد أن الحياة هنا بصفة عامة وعلى عدة أصعدة ستكون حياة سعيدة ومثيرة للاهتمام. لم أتمكن حتى الآن من التعرف على حياة المدينة بعمق، ولم أتمكن حتى الآن إلا من رؤية جزء بسيط من مظهر المدينة الخارجي فقط. ولكنني اليوم اتفقت بالفعل مع أحد الأهليين على الذهاب إلى عرض مسرحي لمشاهدة عرض الباليه للراقصة تاكليوني. إن المسارح مكتظة هذه الأيام، فالعروض تقام صباح مساء، بل وحتى ثلاث مرات في اليوم. يستمتع الناس هنا بوقتهم في إحدى الساحات المحلية الكبرى التي تعج بالأرجوحات ذات الحركة الدائرية والآلاف من وسائل الترفيه المختلفة الأخرى. ربما يكون هذا هو التوقيت الأنسب للمجيء إلى هنا لأن الناس يقضون معظم وقتهم في الترفيه عن أنفسهم خلال الأسبوع الذي يسبق فترة الصيام. أحس أغلب الوقت أنني مفعم بالحيوية والنشاط، وقد كان العديد من الناس الذين تعرفت عليهم مصدر سعادة كبيرة. وكثيراً ما كنت ألتقي

فـي الشـارع بمحض الصدفـة بالعديد من معارفي من الروسـيين الذين لـم أرهـم منذ زمن طويـل. أرى هنا وجوهاً فنلندية باسـتمرار بالإضافة إلى وجوه تشمل جميع الجنسـيات وسط الجماهير الروسية التي لا تعد ولا تحصـى والتي تملأ الشـوارع. ويُخيَّل إلي أن المرء يسـمع اللغتين الفنلندية والسـويدية أكثر من أي لغات أجنبية أخرى هنا. ولكنني لم أر بعد إلا القليل جداً، لذلك فإنني لا أجرؤ على أن أخوض في هذا الأمر أكثر من هذا القدر.

مـرت رحلتي إلى هنا على أحسـن وجـه. وفي أول نُـزُلٍ نزلت فيه، حظيت بصحبة رفيق من رفاق الجامعة وهو شاب يدعى وولجشتدت. وعند وصولنا إلـى مدينة (بورفو)، ذهبنا لزيارة رونبري. وعندما اتضح لنا أن يوم وصولنا كان يوماً كبيسـاً، قررنـا البقاء في المدينة وقضاء هذا اليوم الإضافي بها. في مدينة لوفيزا، التقيت ببارك ثم واصلنا السفر إلى فيبـوري حيث بقينا يوماً واحداً عند أهرنبيـري. وقد حالفنا الحظ لغاية هـذا اليوم بطقس من أجمل ما يكون ومن أحسـن مـا يمكننا أن نتمنى. ولكننا عندما غادرنا فيبوري مسـاء يوم الخميس، ساء الجو وبرد كثيراً، ولكنني كنت مسـتعداً اسـتعداداً جيداً بحيث لـم أعانِ من سـوء الطقس على الإطلاق.

وقـد وصلنـا إلـى هنـا أخيراً فـي وقـت متأخر مسـاء يـوم الجمعة، واسـتقررنا في نُـزُلٍ ألماني وقـد كان اختياراً جيداً لا يمكـن الندم عليه فالألمان عادة ما يكونون أناسـاً طيبين وجيدين حيثما التقى بهم المرء. وقـد تجولنا هنـا طيلة يوم السـبت؛ فزرنا كنيسـة روسـية فخمة عظيمة ورأينا الكثير من الأشياء الصغيرة المختلفة. وفي صباح يوم الأحد، تابع صديقي رحلته إلى وجهته، وهي مدينة صغيرة خارج سـان بترسـبورغ. كمـا قمت بعدد مـن الزيـارات لمجموعة من المعارف للسـلام عليهم فتلقيـت اسـتقبالاً جميـلاً ومهذبـاً لدرجة أنني لـم أكن أتوقع شـيئاً من

ذلك القبيل. تناولت وجبة العشـاء عند السيد (شوغرن)[1] وهو فنلندي يعمل في الأكاديمية الروسية. وقد مر الوقت عنده بسرعة بفضل زوجته المرحة الثرثارة أخت لوريل. شـربت عندهم الشاي وعدت إلى البيت فـي وقت متأخر. وفي اليـوم التالي، تناولت وجبة الغداء عند مستشـار الدولة السـيد فرايهـن وهو عالم ألماني فذ من أبـرز العلماء في العالم، وقـد عاملنـي بعظيـم اللطـف والكـرم. وقـد تعرفـت علـى الكثير من الأشخاص المميزين خلال هذه الفترة القصيرة التي قضيتها هنا. أعتقد أنني لن أندم أبداً على هذه الرحلة، غير أن بقائي هنا لمدة أطول لا يزال أمراً مفتوحاً تماماً. يبدو أنني لن أتمكن من البقاء هنا لمدة طويلة. أتزود بالصبـر الجميل فيما يتعلق بهذا الموضـوع وأنتظر بهدوء ما تحمله لي الأيام القادمة.

سـكنت حتى الآن في النزل نفسـه الذي حللت به أول الأمر، ورغم أن هـذا المـكان ليس أكثـر تكلفة من النـزل المماثلة، بـل إنه لا يكلف ما يكلفه فوهسـي أو غيره من النزل الفنلنديـة الجيدة، إلا أنه أكثر نظافة وجوْدَة. ومع هذا، فإنني لجأت إلى سيدة فنلندية تقيم هنا واتفقت معها على أن انتقل للعيش عندها. وعلى الرغم من أن المقام عندها لن يكون مقاماً رفيع المستوى، إلا أنه سيكون رخيصاً جداً. وقد لاحظت أنه من الممكـن العثور على سـكن بسـعر رخيص كما في هلسـنكي إذا عرف الإنسان كيف يدبر الأمر.

(1) الكاتب يستعمل لقب «مستشار أكاديمي» عند حديثه عن «شيوغرين» وهو لقب يعطى لمن قدم خدمات جليلة للمجتمع رغم أنه لا يتعلق فعليا بأي نوع من الاستشارة.

رسالة أرسلت في 21 مارس عام 1840 من مدينة سان بترسبورغ

أختي العزيزة!

لقد جئت إلى هنا في أنسب وقت ممكن. كان الصخب والضجة عند وصولي يملآن المكان هنا في الأيام الأخيرة السابقة لعيد ثلاثاء المرافع[1]. وقد تجمع في الساحة الكبرى التي تسمى ساحة إسحاق عدد من الفرسان البارعين والبهلوانيين ومختلف أنواع المحتالين الذين نصبوا لهم أكشاكاً. كما تجمع في الساحة عدد من الملتحين الروسيين الذين أعدوا علباً من الكرتون وضعوا فيها كمّاً لا حد له من الحلويات، وفطائر الزنجبيل، وغلايات الشاي الروسية، إضافة إلى القمح والألعاب وكل ما يمكنك تخيله. كما كان في الساحة كذلك هضبتان كبيرتان من الثلج. وكان في الساحة جماهير غفيرة جداً لدرجة أن الناس كانت تنساق إلى الأمام بفعل التدافع. لم يكن المرء بحاجة للسير، ولا كان المرء حتى قادراً على المسير، حيث كانت على الجوانب عربات يجرها حصان أو اثنان، ومنها ما كانت تجره الخيول في ثلاثة صفوف بستة أحصنة أو بأربعة. وكان ثمة عربات بحصانين أو بحصان واحد وكل تلك العربات كانت تسير قدماً في تناسق وتناغم الخطوة تلو الأخرى إذْ يُخيل للمرء أن لا نهاية لطوابير العربات تلك.

ومن بين العربات التي مرت بنا كانت قافلة تتألف من عشرين عربة تجرها ستة أحصنة تقل تلميذات مدرسة «سمولنا» للآنسات النبيلات. أما سائقوا تلك العربات والخدم المرافقون لهم فكانوا يرتدون زي خدم القصر القيصري، بل إن العربات نفسها كانت من عربات القصر! ولم يقع بصري على الكثير من الجميلات من بين راكبات العربات. بل وإنني كنت قد لاحظت من قبل أن سائقات العربات التي تجرها أربعة أو ستة أحصنة عادة ما تكون على قدر من القبح. غير أنني انتبهت فيما

(1) أحد الأعياد الدينية المسيحية.

بعد إلى أن هذا لا ينطبق على فتيات مدرسة «سمولنا» وذلك أنني في الآونة الأخيرة كنت قد زرت مدرسة «سمولنا» مع السيدة «طافاستي» التي تعيش هنا أجمل أيام حياتها. وقد ذهبت لزيارة ابنتها فحصلت بذلك على فرصة لرؤية ما لم أره من قبل. يبدو أن المعلمات لم يأخذن معهن إلى تلك النزهات إلا أكثر الفتيات قبحاً! ذلك لأنني رأيت من بين الفتيات اللاتي كن في قاعة المدرسة الفسيحة البديعة الكثير من الفاتنات اللاتي كن يتجاذبن أطراف الحديث مع من جاء لزيارتهن من آباء أو أقارب أو يتمشين جئية وذهاباً مجموعات مجموعات.

في هذه المدرسة، كما هو الأمر في كل الأماكن الأخرى هنا، لكل فصل دراسي زي موحد خاص به. ويُسمى كل فصل وفقاً للزي الذي يرتديه تلاميذه، ومن ثمة تجد الفصل البني، وهو أدنى فصل، وترتدي سائر بناته زياً موحداً بنياً. وكلهن ماكرات صغيرات قُص شعرهن قصة قصيرة، وعندما ينظر المرء إليهن عبر السياج الفاصل بين التلميذات وبين زوارهن فإنهن لا يكدن يتميزين في مظهرهن عن الأولاد. كما أن هناك فصولاً أخرى بأزياء موحدة أخرى كالزي الأزرق والزي الأبيض وغيره.

وكان لباسهم على وجه عام لباساً على قدر كبير من الجمال وعلى قدر كبير من التواضع كذلك فهن لم يكن يرتدين مَشَدّات[1] وكانت البراءة بادية عليهن جميعاً، غير أنهن كن يبدون، لنفس السبب، فتيات عاجزات يتصرفن تصرفات خرقاء في بداية تمدرسهن.

كان كل شيء يبدو لي كأنه نظام دَيْرِ راهبات. جمع غفير من الفتيات الصغيرات حبيسات مدرسة داخلية مدة لا تقل عن تسع سنوات في كثير من الأحيان عشر سنوات أو إحدى عشرة سنة: لا

(1) كورسيه: مشد مكمل للزي النسائي انتشر في أوروبا في القرن الخامس عشر وكان يلبس أعلى التنورة النسائية.

يستطعن الخروج للتنزه إلا مرتين في السنة فقط في عربات القصر القيصري ولا يستطعن رؤية عائلاتهن إلا مرتين فقط في الأسبوع. وحتى تلك الزيارة تتم عبر سياج يفصل الفتيات عن زوارهن! غير أن الطريقة التي كان الزوار يمسكون بها تلك الأيادي الصغيرة، والقبلات على اليدين والشفتين وبعض اللمسات الْمُقَزِّزة على مرأى من كل الحاضرين إنما تدل على قدر الفرحة التي كانت تغمر التلميذات وأقاربهن. حشود الزوار غالباً ما تحول دون الوصول إلى السياج فيضطر الكثير من الآباء والأمهات إلى أن يكتفوا بتبادل النظرات مع أطفالهم عن بعد.

لم يكن هناك زوار كثيرون عندما زرت المكان يوم الخميس الماضي. وقد رأيت من بين الزوار ضابطاً شاباً يتجول في المكان مراقباً ومُراقَباً في الوقت نفسه. في الواقع، لا يمكنني أن أُؤكِّد إن كانت الأعين ترقبه بعناية شديدة، ولكن ما يمكنني تأكيده هو أنه كان مثلي تماماً يوزع النظرات على من حوله طيلة الوقت. دعيني أعود مرة أخرى للحديث عن ساحة القديس إسحاق حيث رأيت تلميذات مدرسة «سمولنا» لأول مرة، فأنا أريد أن أذكر لك أنني كنت أتوق لرؤية الاحتشادات البشرية التي كنت أتصور وجودها في المدن الكبرى والتي كنت قد رأيتها بالفعل يوماً في هلسنكي. لقد تدفق إلى هذا المكان موجات بشرية متنوعة من مختلف الأجناس والطبقات وكأنها تموجُ هنا وهناك دون أن تظهر في المكان علامات الفكاهة أو المرح أو الاندفاع على الإطلاق بل إن كل شيء كان يسير في سلاسة تامة. لم يشذ عن ذلك إلا مهرج أبله كان يظهر بين الفينة والأخرى من على سطح أحد الأكواخ فيجعل الناس يضحكون ولو أنه لم ينجح في جعلهم يقهقهون. كما كان في المكان رجلان يحملان علب كعكٍ ينقلانها ذات اليمين وذات الشمال، وكان بعض الأولاد يرقبونهما باهتمام ويقهقهون كلما نجح

الرجـلان في إيجاد جملة حذقـة مضحكة تروق لهم. لكـن الجو العام كان يتميز بسلاسة وتناغم.

يـوم السـبت بالخصوص، خـرج جميـع الناس إلـى الهـواء الطلق يُغريهـم الجـو الجميل. وكانت كل الأرجوحات وكل الأكشـاك غاصة بالناس. تسلقت إحدى الأكوام الثلجية ووقفت أعلاها أشاهد الحشود البشـرية المنتشرة أسفل الكومة وأستحسـن كثرة العربات. كان المنظر بديعاً. ومع انصرام يوم السـبت، اضمحل كل شيء إذ هدمت الأكشاك ونقلـت، وتغيـر حال الناس من مرح إلى ما يشـبه الاضطـراب. فقد بدأ وقـت الصيـام الآن، وقت الندم والتّوبة، وولّى وقت التسـلية وانقضى. أما أنا فقد أُتيحت لي فرصة حضور حدث مسلٍّ ضخم وهو استعراض عسـكري لحوالـي خمسـين ألـف جندي نُظِّـم في هـذا المكان نفسـه على شـرف القائد العسـكري «باسـكيفيتش»[1]. وقد أثـار هذا العرض اهتمامي بشـكل خاص جداً. لا أسـتطيع أن أصف النظام والتميز الذي أبـداه الجنود المشـاركون في ذلك الاسـتعراض العسـكري والذي بدا أيضاً من عيون حشـود المتفرجين الشاخصة أبصارهم في أزياء الجيش الفاخرة وفي أعداد الجنرالات الكبيرة وفي الامبراطور نفسه أولاً وقبل كل شيء. كل هذه العوامل جعلت المناسبة مناسبةً شديدة الإثارة. وقد سبق لي أن رأيت عائلة الإمبراطور من قبل خلال عرض سـابق سُـمي عرض «القراصنة».

كمـا أنني قـد زرت متحف الإرميتـاج ولوحاته البديعة وتشـكيلاته الفـذة المتنوعـة غير أن فهـم اللوحات لدرجـة التمتع بهـا يتطلب وقتاً طويـلًا، هـذا بالإضافـة إلا أنني لـم أتعـود على التفرج علـى اللوحات. وسـأذهب يوماً ما لزيارة متحف «كونستاكاميرا» وأكاديمية الفنون أيضاً

---

(1) قائد عسكري من أصل بولندي خدم في الجيش الروسي.

وكذلك «تسارسكويي سيلو»[1] والسكك الحديدية أيضاً، وعندها أكون قد رأيت أهم المعالم على الأرجح. الوقت يمر بسرعة هنا، ولا أدري كيف يمكنني أن أجد وقتاً للقيام بكل ما أريد القيام به. وقد تعرفت على الكثيرين من المحليين والأجانب على السواء. وقد تركت محل سكناي الأول وانتقلت منذ مدة طويلة للعيش مع رجلين محليين اسم أحدهما «سيينفارل»، واسم الآخر «كراتشوف» وهما شابان رائعان يخدمان هنا في الكتيبة العسكرية. لا أعرف بعد إن كنت سوف أطيل المقام هنا أم لا. ذلك أن المماطلة من شيم هذا المكان، ويبدو من الصعب الحصول على أي شيء أو قضاء أي حاجة. وقد قررت أنني لن أنتظر أكثر من بضعة أيام، وإذا لم أحصل بعد ذلك على رد – أو إذا حصلت على جواب سلبي وهو ما سيحصل على الأرجح على ما يبدو – فإنني سأعود في نهاية الأسبوع المقبل على القدر نفسه من السرور والاستياء بسبب عدم تحقق ما خططت له.

رسالة أرسلت في 29 أبريل عام 1840 من مدينة سان بترسبورغ

أمي العزيزة!

قررت في آخر المطاف مغادرة هذا المكان في أقرب وقت ممكن، وذلك لأن ما خططت له عند مجيئي لم يتحقق لحسن حظي ربما. وقد اكتشفت أن الأمور هنا مختلفة تماماً عما تصورت في البداية. ولكنني على الأقل قد أدركت أن بإمكاني أن أتعلم هنا الكثير من الأمور التي لا تسنح لي فرصة تعلمها في فنلندا والقيام بالكثير من الأشياء التي لا يمكنني القيام بها في البلاد. الآن وقد عقدت آمالاً بأن أتمكن من البقاء هنا لبضع سنوات، نويت استغلال هذه الفرصة لمتابعة دراستي هنا وتعلم ما لا يمكن تعلمه في بلادنا. في الوقت الراهن، ليس لي هنا

---

(1) مدينة روسية.

شغل ولا شاغل، فالجامعات هنا وفي كل مكان بصدد إغلاق أبوابها. لذلك، فإنني سوف أعود إلى هلسنكي لقضاء فصليْ الربيع والصيف هناك. وسأعود في الخريف إلى هنا لسنة أو سنتين.

والآن، أخشى فيما أخشاه أن الجو في الوقت الحالي هو أسوأ جو ممكن فيما يتعلق بحالة الطرق. ولكن، وبما أنني لست على عجلة من أمري، فإنني قد أقضي بضعة أسابيع في فيبورج وربما أمرُّ على إيماترا أيضاً. وآمل أن يُحسِّن جو الربيع الجميل - الذي تمتعنا به هنا على الأقل - من حال الطرق ويجعلها صالحة للاستعمال نوعاً ما.

أصعب شيء هو التمكن من الخروج من هنا، وذلك لأن الجليد في نهر النيفا قد ذاب ونحن ننتظر أن يذوب جليد بحيرة لادوغا في الأيام المقبلة بحيث إن بعض الجسور ستكون مرفوعة. غير أنني آمل أن أستطيع مغادرة المكان هذا الأسبوع بالفعل بحيث أتمكن من القدوم إلى البيت في الرابع عشر من الشهر الجاري على أقصى تقدير. أما فيما عدا ذلك، فقد كنت بخير طيلة مقامي هنا، وقد هنئت واستمتعت بإقامتي في مدينة سان بترسبورغ على الرغم من أنني أدرك أن المرء يمل هذه المدينة عاجلاً أو آجلاً. هكذا يقول كل من التقيت بهم هنا من المحليين والأجانب على السواء. وقد جفت كل الأماكن هنا تماماً ومنذ زمن طويل، بحيث تخيم على سمائنا سحب كثيفة من الغبار وخاصة في الساحات الكبيرة. ويبدو أننا لن ننعم طوال فترة الصيف هنا بأي ريح تلطف الجو.

لقد انقضى الآن وقت الصيام وبدأت الاحتفالات الكبرى مرة أخرى. الشوارع الكبرى في هذه الأيام شديدة الازدحام بحيث يكاد يكون السير إلى الأمام من ضرب المستحيل. وقد نظم في عيد الفصح استعراض عسكري جميل رغم صغره، شارك فيه الإمبراطور

نفسه والعديد من الرجالات المهمة. وقد امتلأت ساحة القديس إسحاق الواسعة بجميع ما يسر العين رؤيته من مختلف الأرجوحات، بالإضافة إلى عدد من الأكشاك، ومن الباعة الْمُلْتحين الذين يبيعون مختلف أنواع السكاكر وفطائر الزنجبيل وهم يملؤون الجو صياحاً ومرحاً. ولكنني مع حلول الربيع، بدأت أشتاق إلى جبالنا وبحرنا. أمي، إذا كنت لم تبيعي بعد قاربي الصغير، فأرجو ألا تبيعيه من فضلك! وذلك لأنني أود أن أقضي بعض أيام الصيف على جزيرة من الجزر إذا أمكن. وعلى كل حال، سيكون من الأفضل أن يكون عندنا قارب. وقد سمعت من «بولطوس» الذي جاء إلى هنا منذ مدة طويلة أنك يا أمي قد أعدت فرش غرفتي القديمة وجعلتها غرفة للضيوف. لا تزعجي نفسك يا أمي بإعادتها إلى ما كانت عليه من أجلي. فلنتدبر الأمر عندما أعود.

رسالة أرسلت في 6 ماي عام 1840 من مدينة فيبوري

أمي العزيزة!

مساء الأحد الماضي، التقيت شاباً يُدعى «ساندستروم» يعمل في مسح الأراضي، وقد بلغتني تحياتكم وكذا استياءكم من قلة رسائلي، وأخبرني بأنك يا أمي لم تتلقي مني إلا رسالة واحدة فقط مع أنني كتبت لكم ثلاث رسائل، وكتبت لكالي هارتمانسفورد رسالة واحدة. لا أدري ما تفسير هذا الأمر. ربما تكون الرسائل الأخرى قد بقيت في مكتب البريد في هلسنكي. كيفما كان الحال، أنا الآن أخيراً في طريق عودتي للبلاد من مدينة سان بترسبورغ، وأنا الآن في فيبوري عند كالي أهرنبري الذي سيتزوج قريباً. لم يعد لي الآن في فصل الربيع شغل في مدينة سان بترسبورغ. وأود أن أقضي الصيف في هلسنكي أو في المناطق الريفية المحيطة بها، ومن ثم العودة في فصل الخريف

إلى ســان بترسبورغ للدراســة بجدية، وذلك أن الدراسة هنا تناسبني كثيراً.

علـى أي حـال، خطتي الأوليـة التي كانت أن أقبـل وظيفة دائمة في روسيا قد تغيرت الآن. يبدو لي أن أمامي آفاقاً أفضل، وأنا سعيد للغاية بذلك.

قـد أبقـى هنا في فيبـوري بضعة أيام أخـرى ثم أواصـل الرحلة عبر إيماتـرا حتـى أرى ذلـك النهـر الذي فـي المنطقة حيث يكون مسـتوى الميـاه فيـه في هـذا التوقيـت بالضبط قد بلـغ أقصاه. وبعد ذلك سـآتي مباشرة إلى هلسنكي.

رسالة أرسلت في 12 سبتمبر عام 1840 من مدينة سان بترسبورغ

أمي العزيزة!

مضى على وصولي إلى سان بترسبورغ أكثر من أسبوع، لكنني لم أكتب بعـد أي شـيء، لا عن رحلتـي، ولا عن مقامـي هنا، ولا عـن أحوالي. رحلتي من هلسـنكي إلى غاية شـاطئ فيبوري مرت على أحسن ما يرام من حيث المتعة والراحة. عندما افترقنا في ميناء هلسـنكي عند رصيف السـفن أخذ الضبـاب يختفي تدريجيـاً وبدأت جزر هلسـنكي الجميلة تظهـر عندمـا أشـرقت شـمس الصبـاح المتوهجـة. وكان البحـر هادئاً طيلـة اليـوم لدرجة أنني لـم أرَ أي تموجات على سـطحه المتلألئ. ثم وصلنا إلى أرخبيل بديع جداً في منطقة بورفو وقت الغداء. وذهبت فور وصولنـا عند غورنبيـري الذي كان قد عاد لتوه مـن البادية تاركاً زوجته وراءه هناك. وهو ما يفسر أن بيته في المدينة كان على قدرٍ من الفوضى وانعـدام الترتيب. وقد تناولت في بيته وجبة العشـاء، وكانت عبارة عن بطاطـس طريـة وعصيـدة مقلية. فيما عـدا ذلك، كانت الوجبة سـاخنة وعادية.

وفي الساعة الثانية غادرنا بورفو مع المزيد من المسافرين، معظمهم أولاد صغار في طريقهم إلى مدرسة لوفيزا، وذلك لأن المدرسة الإعدادية في بورفو لا تُعلِّم الانضباط كما أخبرونا بأنفسهم، ولأنهم لا يريدون أن يصبحوا غير منضبطين.

بشكل عام، كان رفاق السفر لطيفين جداً وممتعين على الرغم من كونهم مختلفين جداً. ومن بين من رافقنا في سفرنا عمال ورشة خياطة بأكملها وذلك لأنهم نقلوا ورشتهم إلى لوفيزا. ومع حلول المساء ذلك اليوم، كما حدث بعد ذلك في كثير من الأحيان فيما بعد، حاول عامل مطعم السفينة أن يرفه عنا بتصفيره الذي رافق به عزفه على الغيتار، وهو يعرض علينا مهاراته بحماس شديد. كما أن عامل الخزف الذي انضم إلينا في بورفو أدخل علينا الكثير من المرح كذلك. فقد كان قد جلب معه قدراً كبيراً من الخمر كان يشرب منه طيلة الوقت سراً، وذلك لأنه كان جالساً في مقدمة السفينة إلى أن انتبه مُوجِّهُ الدفة أخيراً إلى أن الرجل في حالة سكر إلى حد ما. حينها بدَّلنا زجاجة الخمر التي كانت معه بأخرى مليئة بمياه البحر. وقد شرب من هذه الزجاجة بشهية غير أنه لم يستطع أن يفهم ذلك المذاق الجديد، فأخذ يتجهم ويقطب جبينه ويظهر أغرب أنواع التكشيرات الممكنة مما أضفى جواً من المرح على كل المسافرين الذين تجمعوا حوله.

وهكذا وصلنا في وقت متأخر من الليل، في جو من اللعب والمرح الذي خلقه عامل الخزف إلى لوفيزا حيثُ كان بانتظارنا كل نبلاء المدينة ربما، وخاصة تلك النساء اللاتي يفضلن أن يظهرن في الليل حتى يخفين فسادهن الأخلاقي بغطاء الظلام حسب ما قاله أحد سليطي اللسان من سكان لوفيزا. والحقَّ الحقَّ أقول أنني رأيت هناك الكثيرين من الفاسدين. لكن حظي أكرمني بأحد المعارف الذي استقبلني بكرم

كبير وقدم لي وجبة العشاء ومكاناً للمبيت وغير ذلك من وسائل كرم الضيافة.

وفي صباح اليوم التالي، في الساعة الخامسة على ما أعتقد، غادرنا لوفيزا متابعين الرحلة مرة أخرى. وقد كان أغلب من رافقونا في سفرنا آنذاك قد فارقونا. جميع الأولاد بقوا في لوفيزا بهدف الدراسة وتعلم حسن الخلق، وكذلك غالبية النساء اللواتي لم ينزلن من السفينة في بورفو، وكذا أولئك اللواتي انضممن إلينا هناك، ربما حتى يخبئن فسادهن الأخلاقي عند الفاسدين الآخرين.

لا بد أن عامل الخزف المرح، الذي أمتعنا بسكره وبأغانيه، لا يزال يتابع نومه في لوفيزا حتى يصحو من سكره. غير أننا لم نترك الجو العام يتردى بل واصلنا رحلتنا.

كانت رفقتنا قد تضاءلت بالتأكيد، ولكننا نحن الباقون على متن السفينة حصلنا على مساحة أكبر للنوم لطرد الملل بعيداً عنا، إذا اقتضت الضرورة. لم ينضم إلينا الكثير من المسافرين من لوفيزا، وقد تركنا وراءنا الآن ذلك الأرخبيل الجميل الذي كانت شواطئه حتى الآن محطَّ إعجابنا ومصدر متعتنا، ولو أنها لم تكن كثيفة ومبتهجة مثل الشواطئ المحيطة بهلسنكي، ولكنها كانت دائمة الجمال رغم أنها أكثر جدية وأقل ابتساماً. لهذا السبب، شرعنا – نحن الباقين على متن السفينة – في التواصل بشكل أكبر، وسرعان ما لاحظنا أن القبطان شاب من أرقى ما يكون. وقد أخذ يرفه عنا بحكايات عن رحلاته البحرية المختلفة.

كان على متن السفينة رجل من مدينة سان بترسبورغ يجلس وحده دون أن ينبس ببنت شفة منذ انطلاق رحلتنا من هلسنكي، وقد ظننت صمته راجعاً إلى كونه لا يعرف إلا اللغة الروسية. وهكذا، أخذت أحاول التواصل معه بلغتي الروسية المتواضعة، وسرعان ما اكتشفت أنه يعرف نصيباً معقولاً من اللغتين الفرنسية والألمانية. وقد أخبرني

بأنه يعمل سكرتيراً لألكسندر منشكوف[1] وبأنه قد سافر إلى ألمانيا وإيطاليا. وفضلاً عن ذلك، فقد كان رجلاً طلق المحيا ورفيق سفر حسن. لست أدري إن كان كل ما قاله صحيحاً على الرغم من أنه لم يكن شخصاً متبجحاً. لا أستطيع أن أجزم في أمره بعد، ولكنني أرجو أن أتحقق من الأمر في وقت قريب. وهكذا وصلنا إلى «هامينا» وقت العشاء، دون أن نشتاق بشكل خاص إلى برفقة سفرنا الأولى. وقد بُنيت في «هامينا» بالفعل الكثير من المنازل الجديدة بعد الحريق، ولازال الكثير من أعمال البناء بها تسير بوتيرة سريعة. تناولت وجبة عشاء متوسطة الجودة رغم أنني دفعت مقابلها روبلا ونصف. وبعد ذلك، ذهبت للقاء «أهلشتوب»، وذلك لأن الوصول إلى بيته كان أسهل علي من البحث عن منازل معارفي الآخرين. ولم أزر أي مكان آخر في المدينة رغم أنني أعرف عدداً لا بأس به من الناس هنا. خرجنا في الساعة الرابعة ولكننا لم نبق لقضاء نصف يوم وليلة في هذه المدينة المحروقة، بل أبحرنا في المساء نحو ثلاثة أميال في اتجاه الأرخبيل حيث بقينا لقضاء الليلة في أحد قُرَاه.

كان الجو لطيفاً، وكانت ليلةً سماؤها مرصعة بالنجوم: كان المكان جميلاً، ولكن سكانه كانوا أهل فظاظة وقذارة. بعد أن جبنا أرجاء القرية طولاً وعرضاً بحثاً عن طعام دون جدوى، نجحنا أخيراً، بعد طول مساومة في الأسعار، في اقتناء بعض البطاطس والحليب والبيض وحضرنا منها لأنفسنا عشاء فاخراً. غير أن وقت الراحة لم يكن على القدر نفسه من الجودة إذ إن البق الذي كان يبحث عني بالخصوص حرم جفني النوم. غادرنا القرية في وقت مبكر، بحيث وصلنا إلى فيبوري مرة أخرى في وقت العشاء. وفي الطريق، اتفقت أنا وفرانكل مع القبطان ومع الرجل المنحدر من سان بترسبرغ على القيام برحلة

(1) قائد عسكري روسي.

إلى إيماترا. غير أن خطتنا لم تُوفَّق لأننا لم نستطع الحصول على عربة. عوضاً عن ذلك ذهبنا في نزهة استجمام إلى تراتغشود وقد كانت نزهة مخيبة للآمال عكس مونريبوس التي كانت مكاناً بديعاً للغاية. وقد فارقنا الرجل السانبيترسبورغي مساء يوم الجمعة، لأنه كان مضطراً للوصول إلى مدينته سان بترسبرغ صباح اليوم الأحد.

يوم السبت، أبحرت سفينة «هلسينغفورس» والآن تبقى من الرحلة الجزء الأصعب منها. أعتقد أن الرحلة البحرية بأكملها كانت لطيفة جداً: الطقس الجميل، والأرخبيلات الخلابة، وما في مخيلتنا من ذكريات متعلقة بالأماكن العزيزة التي مررنا بها مثل «الاما» و«خليج السويد»، ورفقاء السفر. كل هذه الأشياء حُفرت في ذاكرتي حفراً، ولا أعتقد أن بإمكاني أن أكون أكثر سعادة لقيامي بهذه الرحلة.

ولكن لابد لكل حلو من مرارة تفسده، وهو ما حدث لي الآن. مع اقترابنا من بورفو أخبرني القبطان أنه سيقوم برحلة إضافية إلى فيبوري في السابع من سبتمبر. كنت أتمنى لو أنني علمت بذلك فيما قبل لكنت بقيت في هلسنكي بطبيعة الحال حتى ذلك الوقت. كدت أهم بالعودة من بورفو في الحين. ومنذ أن سمعت ذلك الخبر وأنا أشعر بانزعاج شديد يرافقني باستمرار. وذلك لأنه كان بإمكاني قضاء وقت من أروع ما يكون في هلسنكي في هذه الأيام الجميلة والدافئة. ولم أستطع استعادة مزاجي الجيد طيلة مقامي في فيبوري. كيف لا وقضاء الوقت عند من تزوج لتوه أقبح من قضاء الوقت عند من خَطَب لتوه.

بعد أن انتظرتُ العجوزَ «مولر» ستة أيام في فيبوري دون جدوى وعندما أخذ الملل يعرف طريقه إلى رفقاء سفري، سافرنا مساء يوم الثلاثاء، ووصلنا مساء يوم الأربعاء إلى سان بترسبرغ في أنسب وقت، وذلك لأن المدينة كانت مزينة بأضواء الأعياد. ورغم أن المنظر لا

يختلف عما تعودنا على رؤيته في هلسنكي، إلا أن هذه المدينة الكبيرة تبدو الآن جميلة جداً، وذلك لأن شوارعها المضاءة تنعكس على سطح نهر «النيفا». كانت الأيام الأولى هنا حارة جداً لدرجة أنني فضلت ألا أخرج على الإطلاق. لذا كنت أقضي كل وقتي تقريباً مستلقياً على السرير في منزل أصدقائي القدامى فقد جئت لأسكن عندهم.

يوم الثلاثاء عصفت بالمكان عاصفة رعدية رهيبة، ومنذ ذلك الحين، أصبح الطقس خريفياً تقريباً. كما ظهر على فخذي دُمَّلٌ كبير جعلني سجين السرير مرة أخرى مدة أربعة أيام. وقد بدأ يلتئم الآن بعدما عالجته بإصرار بالعسل. ليس لدي بعد ما أحكيه عن هذا المكان. نسيت أن أخبرك بأنني أصبت بالحمى فجأة يوم الأحد وأنا في فيبوري وكانت حالتي سيئة للغاية، ولكنني أخذت بنصيحة «كالي» بتناول حبتين من دواء القيء وقد تحسنت حالتي مع حلول المساء، ففارقتني الحمى منذ ذلك الحين.

وماذا عن عائلة «مولر»؟ أين هم؟ سألت عنهم قبل بضعة أيام، ولم يكونوا قد وصلوا بعد حينها. كم أود أن أعرف إن كان السيد «مولر» يستطيع إحضار بذلتي إلى هنا؟ كم أود أن أعرف منك يا أمي في أقرب وقت ممكن. كما أنني نسيت ختمي في هلسنكي وأتمنى أن تستطيعي إرساله إلَيَّ إلى هنا. إن لم تجدي أحداً تبعثينه معه فإن «ستينفيك» قد يستطيع إحضاره.

شقتنا هنا جيدة جداً، ولكنني قد أضطر للذهاب للعيش مع رفاقي القدامى. وذلك لأنه بوصولي الآن ليس في الشقة مكان كافٍ. ولذلك، ربما سيكون علينا الانتقال إلى مكان آخر بعد حين.

رسالة أرسلت في 31 أكتوبر عام 1840 من مدينة سان بترسبورغ

أمي العزيزة!

أنوي إرسال هذه الرسالة مع ضابط شاب اسمه «فورويلم» أخبرني أنه سيغادر إلى هلسنكي اليوم أو غداً. ولكن، بما أنني لست متأكداً تماماً مما إذا كان لا يزال هنا أو أنه قد غادر بالفعل. في الحالة الأخيرة، ستضطر رسالتي إلى انتظار يوم البريد المقبل. ليس مضموناً أن تصل هذه الرسالة مع ذلك المسافر إلا أنني أنوي المحاولة على أي حال. إذ إن الحظ لم يكن حليفي على سبيل المثال عندما بعثتِ رسالتك الأخيرة مع «ستيفن». فقد سمعت من أحد معارفي أنكِ بعثتِ مع «ستيفن» رسالةً وسترة صوفيةً غير أن «ستيفن»، ورغم حصوله على عنواني من أحد معارفي، لم يحضر لي الرسالة ولا السترة. أما الرسالة الأولى التي بعثتِها لي فقد وصلتني وكذلك الشأن بالنسبة لرسالة نتاليا.

وقد زرت عائلة «مولر» ذات ليلة واستمعت هناك إلى عزف بيانو لم أسمع مثله من قبل أبداً. كما لقيت من هذه العائلة ترحيباً حاراً، وقد جلبوا لي بذلتي وختمي. لم أزرهم بعد ذلك، ولكنني أفكر في الذهاب يوم الثلاثاء – وهو يوم عطلة – لزيارتهم إذا ترك لي هذا الدُّمَّلُ الذي على فخذي مجالاً لذلك. فقد عانيت منه كثيراً في الأيام الأخيرة إذ ظهر في فخذي بجوار الدمل السابق تماماً متسبباً بآلام شديدة ومستمرة. ولكن عجين العسل الذي عالجته به قد جعله ينتفتح الآن مما خفف الألم كذلك. كما عانيت لبضعة أيام من الإسهال أيضاً. وهو أمر لا يسلم منه أي غريب في هذه المدينة. فمياه القنوات هنا ليست في أفضل حالاتها. أفضل ما في الأمر هو أنني لم أعانِ من الأمر وقتاً طويلاً. أما فيما عدا هذا، فقد كنت بخير وبصحة جيدة على الرغم من أن الطقس هنا كان من أقبح ما يمكن تخيله: مطر وثلج ورطوبة وضباب.

شقتنا الجديدة جيدة ومريحة، رغم أنها في منطقة صاخبة وغير

هادئة. وذلك لأن ساحة البيت هي تقاطع شارعين يجوبهما عدد من العارضين والمغنيين والسحرة والباعة المتجولين. ولكن في هذا الأمر جوانب إيجابية كذلك فمن النادر على سبيل المثال أن نتناول وجبات العشاء دون موسيقا مصاحبة. أحياناً تكون موسيقا جيدة وأحياناً أخرى تكون أقل جودة. ونحن نتناول الوجبة التي تحضرها لنا الخادمة على الساعة الثانية تقريباً وهي وجبة جيدة تقضي تماماً على الجوع. وأكلتنا المفضلة نحن الثلاثة هي العصيدة التي نتناولها ثلاث مرات في الأسبوع وفقاً لنظامنا الغذائي الجديد. في البداية، كنا نأكل العصيدة كل يوم، وكانت عصيدةً من الحنطة السوداء دائماً. ولكننا اليوم تركنا الخادمة للمرة الأولى تحضر عصيدة من الطحين. وعلى الرغم من أن هذه العصيدة كانت أخف بكثير إلا أن طعمها لذيذ جداً. كما أننا نتناول حساء اللحم مرة في الأسبوع، وحساء الكرنب مرة في الأسبوع، وحساء البازلاء مرتين في الأسبوع وهي الأكلة التي تفوق كل أكلة أخرى. وبالإضافة إلى ذلك، فإننا نرافق كلاً من هذه الأكلات بالبطاطس دائماً، إما مسلوقة أو مقلية، سمك الرنكة والرنجة، مع اللحم أو الشحم. هذا هو نظامنا الغذائي الذي لم نغيره بعد. وإذا تمكنت خادمتنا – التي تحب الطبخ حباً جماً مثل سائر الروسيين عامة – من اختراع أكلة جديدة وجيدة ورخيصة فإننا نقبلها بصدر رحب فلسنا ضد الأطباق الجديدة بالطبع. ونحن نشرب الشاي صباح مساء. ولكننا اليوم تركنا الخادمة تقدم لنا حليباً مغلياً بدل الشاي وأعجبنا مذاقه، غير أن الحليب هنا مكلف هذه الأيام، فثمن كوبين عاديين من الحليب يبلغ أربع عشرة كوبيلاً[1]. أسوأ ما هنا هي الزبدة التي لم أستطع بعد التعود عليها، ولذلك فأنا أقلل استعمالها.

بعد وصولي إلى هنا بقليل، كما قد يكون قد وصل إلى علمك يا

---

(1) الكوبيل هو جزء من الروبل. في الروبل 100 كوبيل.

أمـي، وصلت ماريا عروس القيصر إلى هنا فنُصبت الأضواء الاحتفالية التي استمرت مدة ثلاث ليال، والتي كانت شديدة البريق بحيث إنني أنا شـخصياً لم أر فيها جمالاً. لم أستطع رؤية وصول العروس وذلك لأن الحشـود التي كانت في الشوارع كانت ضخمة جداً لدرجة أنني لـم أبالِ بحشـر نفسي وسـطها في أي مكان. حتى أيامَ الإنارة الاحتفالية نفسها، كانـت الحشـود في الشـوارع بأعـداد مهولـة لدرجة أنني أنـا وصديقي أنقذنـا العديد من النسـاء والأطفـال الذين كانوا قد عُصِـروا بين الناس إلـى أن ازرقت وجوههم وفقدوا القدرة على الكلام. وقد فرحت كثيراً عندما أتيحت لي فرصة الذهاب إلى المسرح لمشاهدة «الدون جوان». أمـا «تاغليون» فلم تعد لدي الرغبة للذهاب لمشـاهدتها رغـم أن الناس هنا يسارعون لمشاهدتها.

نـادراً ما أذهـب لزيارة عائلات هنـا. عائلة «مولر» علـى بعد نصف ميـل من بيتي. أمـا بيت «أماليا طافاسـتي» فأبعد من ذلـك. الحق أقول لـك، ليس هنا مـكان أرتاح فيه. «كروس» يسـكن في البنايـة المجاورة وأنا أزوره كثيراً. وأنا أقضي برفقته ورفقة زوجته الألمانية سـهرة ممتعة دائمـاً. أكثر مكان أرتاح فيه هو بيتـي ولذلك فإنني أقضي معظم أوقاتي في البيت. غير أنني مع ذلك أنال قسـطاً كافياً من الرياضة والحركة لأن الجامعـة التي أذهـب إليها أربع مرات في الأسـبوع على مسـافة بضعة أميال والمؤسسة الأخرى التي أذهب إليها كل يوم على بعد ميل تقريباً.

رسالة أرسلت في 2 ديسمبر عام 1840 من مدينة سان بترسبورغ

أمي العزيزة!

ليـس لـدي جديد أخبرك بـه يا أمـي، ولكن لـن يفوتنـي أن أخبرك بأن الرسـالة التـي بعثتها مع «سـتيفن» قـد وصلتنـي وكذلك الرسـالة التي بعثتهـا عبـر البريد. وقد وصـل الطرد الذي بعثته مع «سـتيفن» يوماً بعد

أن أرسلت إليك تلك رسالة التي أشتكي فيها من تأخر المسافرين في إيصال الرسائل والطرود. وقد سررت كثيراً عندما قرأت في رسالتك التي جاءت عبر البريد بأن قضية الإفلاس قد حلت أخيراً لصالحك، وبأنك تستطيعين الآن التصرف في ممتلكاتك.

أنا أيضاً أود أن أحتفظ أو آخذ بعض ما تركه أبي إن أمكن. وأكثر ما أود الحصول عليه هو أسلحة أبي الكبيرة. لا أعتقد أنني سأشق طريقي في الحياة بقوة السلاح والبارود، ولكنني أعتقد أنه من العار ألا يملك الرجل سلاحاً للدفاع عن نفسه إن اضطرته الحاجة إليه. ربما لم تعد الأسلحة موجودة فربما تكونين قد نظمت مزاداً علنياً بالسرعة المعهودة. من يدري، فقد أحصل على مثل تلك الأسلحة في مكان آخر فأقتنيها. أما عن «ستيفن» والطرد الذي أرسلت معه، فإن الذنب لم يكن ذنبه في أنني حصلت على الرسالة والسترة الصوفية بعد زمن طويل: فقد كان في رحلة طويلة إلى كل من «هامينا» و«فيبوري»، وعند عودته إلى هنا أرسل إلي خادمه مراراً غير أن هذا الأخير لم يجدني. وفي الأخير جاء «ستيفن» إلي بنفسه.

وقد وصلتني السترة الصوفية في الوقت المناسب، فقد كنت قد بحثت في خزانة ملابسي لأتأكد إن كنت قد تركتها في المنزل. أحب تلك السترة لأنها مناسبة في البيت فيما أستعمل سترة غيرها عند الخروج. فكل ما يمكن قوله عن الجو هنا هو العياذ بالله، ولا سيما هذا الخريف التعيس الذي لا أجد ما يكفي من الكلمات لوصفه. أما الشوارع الروسية المشهورة بنظافتها فقد أصبحت من القذارة بمكان بعد هطول المطر لدرجة أن الناس هنا يفضلون البقاء داخل بيوتهم إذا أمكن ذلك. وفيما بين فترات التساقطات المطرية، مرت علينا فترة من البرد القارس نزلت فيها درجة الحرارة تحت الصفر. والبرد هنا مختلف عن البرد في فنلندا. فالبرد هنا كثيراً ما يجلب معه ضباباً رطباً

فظيعاً. وفصل الشتاء قد وصل إلى هنا بالفعل منذ أسبوع أو يزيد. أما نهر النيفا، فقد تجمد منذ مدة طويلة. فمنذ أن وصل إليه الجليد من بحيرة لادوغا، تجمد على الفور فرفعت الجسور التي عليه في الوقت المناسب تماماً ذات يوم أحدٍ، عندما كنت ذاهباً في الصباح الباكر إلى جزيرة فاسليفسكي للقاء «هيلمكس». وعندما كنت في طريقي إلى المنزل وقت العشاء، كان الجسر قد رُفع فاضطررت لعبور النهر في قارب صغير، فكانت رحلة شاقة جداً بحيث كان علي التجديف وسط قطع الجليد الكثيرة الطافية والمختلطة بالطين.

وقد أصبح التنقل بين أجزاء المدينة التي يفصل بينها النهر خلال الأيام الموالية في صعوبة متزايدة، إلى أنْ بنوا على النهر جسراً خشبياً واسعاً إلى حد ما في نهاية المطاف، ولكنه كان دائماً غاصاً بالناس لدرجة أن المرور على هذا الجسر كان أصعب من التحرك إلى الأمام في الأسواق المحلية. كان الوقوف على الشاطئ لمشاهدة الحشود الغفيرة الكثيرة الانشغالات وهي تمضي مسرعة كالنمل أمراً ممتعاً. منظمو السير اللعينون يتجمعون كالعادة بأعداد كبيرة على كلا الجانبين في الأماكن التي يعتقدون بأن الناس أكثر حاجة إليهم فيها فيضطر كل من يمشي في المكان الخطأ إلى عبور نهر النيفا سيراً على الاقدام. كما كان أصحاب المزلاجات يجرون القرعة بين الراجلين لاختيار من يحالفه الحظ لركوب المزلاج وراءهم.

ولكن الأمور الآن أكثر تنظيماً مما كانت عليه في السابق - لسوء حظ مقدمي خدمات النقل بالمزلاجات - فلم يعد أحد بحاجة إلى خدمات أولئك الرجال الخاملين بعرباتهم ذات الأربعة أو الستة أحصنة. وأعتقد أن الناس هنا قد عبرت نهر النيفا بالمزلاجات لمدة شهر تقريباً على الرغم من أن الجو لم يكن مناسباً بالقدر الكافي، وهذا ليس بسبب قلة الثلوج وإنما لأن الناس هنا يستعملون العربات ذات

العجلات - ولا سيما الكبيرة والمغطاة منها - في الشتاء كذلك. وهكذا، فإن الثلوج المتطايرة من العجلات تملأ زوايا الشوارع طول الوقت، مما يجعلك تغرق في الثلوج إلى الكعبين وأنت تقطع الطريق.

الحياة هنا هنيئة مادام للمرء عمل جيد، ولكن فليكن الله في عون من يأتي إلى هنا بغرض النزهة والتسلية، إن كان قادماً لقضاء مدة طويلة على الأقل. لا يمل الإنسان أي شيء في العالم بالسرعة التي يمل بها من مباهج هذه المدينة! وقد بحثت أنا أيضاً عن وسائل للترويح عن نفسي هنا، وقد ذهبتُ مرةً واحدةً إلى المسرح لمشاهدة «دون جوان». والحق يقال إنني لم أستمتع بهذا القدر منذ وقت طويل. غير أن هذه المسرحية الرائعة المعروضة في قاعة مسرح ضخم لم تحظ إلا بما لا يزيد عن مئة متفرج! أما عروض «تاغليون» حيث القفز الروسي والفرنسي الخليع، فإن الناس هنا يسارعون لمشاهدتها. يبدو أن صفات الخلاعة والعبث هي الطابع العام للناس ولكل ما يجري هنا. يبدو أن الإنجليز هم الوحيدون ربما الذين لم يصابوا بالعدوى. وقد حضرت اجتماعاتهم الكنسية كل أحد تقريباً بسعادة وخشوع كبيرين.

يبدو أن الشقة التي سكنَّا فيها حتى الآن باردة جداً على الرغم من ورق الحيطان الفرنسي الملون الذي يزين حيطانها. وربما يكون هذا الورق هو ما خدع رفاقي وأوهمهم بأن الحيطان في حالة جيدة. لذلك، فإننا على الأرجح لن نستطيع العيش هنا فترة أطول من نهاية الشهر الجاري. ولقد أرسلنا بالفعل خادمتنا في رحلة استطلاع، ويبدو أن ثمة العديد من المنازل في هذه الناحية وسوف نذهب لرؤيتها في أقرب وقت ممكن. نتمنى أن نجد في العمارة نفسها التي سنسكن فيها سيدة يمكنها أن تعد لنا الطعام. فرغم أن نظامنا الغذائي الحالي جيد، إلا أن مهارات خادمتنا الحالية في مجال الطبخ محدودةٌ جداً إضافة إلى أن

مفهوم النظافة والنظام عندها مختلف عن مفهومنا نحن مما جعلنا نمل من الوضع. سنرى ما إذا كنا سنجد خادمة مناسبة.

ما زلت أجد صعوبة في أن أصدق أن «باسيوس» خطب الآنسة «مارتن». ولكن إذا كان هذا الخبر صحيحاً فقد يكون الأمر قد نُظِّمَ بخفة ظل. صحيح أن «باسيوس» يحتاج أكثر من أي شخص آخر إلى زوجة حتى يُحافظ على نظام حياته غير أنني لم أكن لأصدق أبداً أن بإمكانه بالفعل الحصول على زوجة. كما أنني لا أستطيع أن أصدق كذلك خطبة شقيقه للآنسة «فرانكلين» ». ولكن إذا كان هذا الخبر صحيحاً فإنني أتمنى لكليهما السعادة والتوفيق والنجاح في مشاريعهما الجديرة بالثناء. وأنا لا أحسد أياً منهما.

كنت أنوي الكتابة لأختي «أوغوستا» قبل حلول عيد الميلاد على أي حال، ولذلك فإنك لا تحتاجين يا أمي أن تحثيني على الكتابة. فرحة الاحتفال بعيد الميلاد على الأبواب. وحتى إن لم يأت العيد لك ولأختي بفرح عارم، فأتمنى أن يأتي لكم بأوقات سلام وراحة وأكبر قدر من السعادة الممكنة التي يشعر بها المحتفلون بالعيد ممن لم يعودوا أطفالاً. أفترض أنكما لن تأكلا عصيدة العيد في المنزل وحدكما، خاصة الآن وقد فارقنا أوغست [«والين» نفسه]. أفترض أنكما ستقضيان ليلة العيد عند «فورسين» وأتمنى أن أتمكن أنا كذلك من الالتحاق بكم. ذلك أن هذا هو عيد الميلاد الثاني الذي أقضيه بعيداً عنكم. عيد الميلاد الأول قضيته غارقاً في نشوة الشباب وغبطته في مزرعة «سويتيا». وسأقضي عيد الميلاد هذا العام وحدي مع أصدقائي. ومن الأكيد أنه ينبغي أن يكون على طاولتنا طبق كبير من عصيدة الأرز، ولحم الخنزير، والخردل، والفطائر وما إلى ذلك. كما ينبغي أن يكون كل شيء من أفضل ما يكون. إلا أن كل هذا وكل شيء آخر ليس ذا قيمة بالمقارنة مع فرصة قضاء ليلة العيد معكم. ولكن الله تعالى قادر

علـى أن يجمعنا مرة أخرى، كما ينبغي علي أنا الآخر أن أحاول تحقيق ذلك بنفسي.

إذا كان «ستينفيك» قادماً إلى هنا فأرجو أن تُرسلوا لي معه رزنامة! كم أود الحصول على واحدة وإذا لم تستطيعوا أن تبعثوها معه، أرجو إرسالها مع شخص آخر إذا أمكن ذلك! كنت أتمنى من صميم فؤادي أن أكون الآن في هلسنكي، حيث توجد آنسات فرقة «ريتماير» للأوبرا بممثلاتها اللواتي يغنين على درجة عالية من الكفاءة، وقد سعدت كثيراً بالتعرف عليهن في فصل الصيف الماضي كما أنني تعرفت على والدهن. يا لهذا الشعور بالتعاسة الذي يصاحبني طول الوقت: ما إن أسافر حتى تنتابني رغبة بالعودة إلى المكان الذي تركته ورائي. كم سيتبجح الحرس الفنلنديون أمام السيدات! والآن سوف أتوقف عن الكتابة أخيراً. أتمنى لكم بداية عيد سعيدة، هذا إن لم أكتب لكم مزيداً من الرسائل قبل ذلك. اليوم وغداً أيام عيد هنا. وقد قررت أن أكرس كامل هذين اليومين للقيام ببعض الزيارات التي لم أقم بها مدة شهرين كاملين.

رسالة من سان بترسبورغ 5/ 1/ 1841

أمي العزيزة!

توصلت للتو برسالتك السابقة كما توصلت برسالة «بولطوس» كذلك رغم أنني قد انتقلت إلى سكن آخر قبل شهر، ولكن بما أن بيتنا قريب جداً من البيت السابق، فإن ساعي البريد رأى أن البحث عني أمر يستحق الجهد وذلك مقابل عشرة كوبيلات.

نحن الآن نسكن عند أرملة بولندية شابة. وقد وضعت تحت تصرفنا غرفتين كبيرتين وجميلتين، وهما دافئتان جداً في أغلب الوقت. هذه السيدة تهتم بتوفير التدفئة وبتحضير وجبات العشاء اللذيذة التي تتألف

مـن ثلاثة أطبـاق بل وحتى أربعـة أحياناً. ولكن، وعلـى الرغم من هذا كله، فإننا نفتقد عصيدتنا وبطاطسـنا. هنا، وجباتنا تتألف إما من حسـاء اللحم، أو حسـاء الملفوف، ومرة أخرى اللحوم، واللحوم دائماً وأبداً. ورغـم أن وجبـات اللحوم لذيذة إلا أننا نشـتاق أحيانـاً إلى وجبات من نوع آخر. هـذه الأرملة طيبة وكريمة ومهذبة جداً. وهي كثيراً ما تدعونا لتناول القهوة أوالشاي عندها.

وفي الشـقة المجاورة، يسكن «كروسـل» الذي اكتسب شهرة كبيرة هنا في مجال جراحة العيون. وتسـكن بجواره مُوَلِّدةٌ مع ابنتها الشـابة. هـذه الأخيرة فتاة مخطوبة ومتعلمة، وهي تتحدث الفرنسـية والألمانية والروسـية وتعـزف علـى البيانـو وغيـره وهو أمر شـائع جداً هنـا. وقد اسـتضفنا هذه الشـابة، واسـتضفنا معها صاحبة البيت الذي نسـكن فيه لتناول الشاي عندنا من قبيل المجاملة. وقد قبلتا الدعوة وقضتا المساء كلـه عندنا نتجاذب أطراف الحديث. وقد تسـامرنا مع مضيفتنا بشـكل خـاص، فسـرعة بديهتهـا فريدة مـن نوعها. وهـي أم لولديـن صغيرين أصغرهما سناً في الثانية أو الثالثة من عمره، وهو طفل صعب الطباع لا يترك لنا مجالاً للراحة لا في الصباح ولا في المساء، وينفجر باكياً لأتفه الأسـباب. أمـا الطابق السـفلي ففيه ورشـة لا يتوقف الطَّـرْقُ فيها طيلة اليـوم وبلا هوادة، بحيث إن عزف البيانـو وصوت المغنيين المتجولين الـذي كان يقلق راحتنا في المسـكن السـابق قد تغيـر الآن إلى أصوات المطرقـات وصياح الأطفال. ولكن أين يمكـن للمرء أن يجد جميع ما يريـده؟ المكان هنـا دافئ ومريح على الأقل وقد ارتحـت كثيراً فيه منذ انتقالنا إلى هنا، أي منذ أربعة أسـابيع. وقد كنت أنوي الكتابة إليك منذ انتقالنـا إلى هـذا البيت وإعطاءك عنواني الجديـد، إلا أنني أجلت ذلك مرات عديدة ولـم أستطع الكتابة إلا هذه الليلة، وهي توافق هنا ليلة عيد الميلاد حسب التقويم الروسي.

وصلتني دعوة من السيد «شوغرن»[1] لقضاء هذا المساء عنده. أما ليلة عيد الميلاد حسب تقويمنا نحن - الأمر الذي لا يكاد الروسيون هنا يعرفون عنه أي شيء - فقد قضيتها في مدينة «بوشكين» مع «شتيرنفال» عند ابن عمه - وهو ضابط شاب - كما كان برفقتنا الملازم «كارلستيد» من هلسنكي، وكذلك زائر بولندي يقضي بضعة أيام عند ابن عم «شتيرنفال». وهكذا استمتعنا بليلة عيد الميلاد في جو من الغناء والدردشة والمصارعة، وما إلى ذلك من أمور الشباب. أما وجبة عشاء عيد الميلاد فكانت وجبةً فنلندية قحة نمنا بعدها على الأرض على نضائد رُصَّت لنا جنباً إلى جنب. بقينا عند ابن عم «شتيرنفال» يوم عيد الميلاد كذلك، وقضينا اليوم بالطريقة نفسها حتى المساء، ثم عدنا إلى بيوتنا بالقطار في ما يقرب من نصف ساعة. سنرى إذا كنت سأحظى بنصيب من المرح هذه الليلة! فقد سافر رفيقنا الثالث «غراتشوف» إلى بيته في لوفيزا لقضاء عيد الميلاد مع عائلته. وقد راودتني كثيراً أنا أيضاً الرغبة في السفر حتى «فيبوري» على الأقل، ولكن الله وحده يعلم ما الذي جعلني أعدل عن الفكرة وأبقى هنا أنا و«شتيرنفال».

العُطل هنا ليست على قدر كبير من المتعة، ولكنها ليست سيئة أيضاً. فهي تمضي بالتدريج يوماً بعد آخر. نحن نترقب الآن وصول زميل ثالث من فنلندا عما قريب، ومعه كيس ضخم من الطعام الذي طلبنا منه إحضاره؛ من زبدة ولحم مُدَخَّنٍ ومُقَدَّدٍ. وقد وعدَنا بالفعل بأن يجلب ما طلبناه. لدينا الآن كمية وفيرة من الزبدة ولحم الخنزير. وما يسمى بسوق التبن على مرمى حجر من بيتنا. كما أن الشوارع المحيطة بهذا السوق مكدسة هذه الأيام بالزبدة واللحوم الحمراء ومختلف أنواع لحوم الطيور: إذ ترى العربات ذات المزلاجات وحولها الخنازير

(1) الكاتب يستعمل لقب «مستشار أكاديمي» عند حديثه عن «شيوغرين» وهو لقب يعطى لمن قدم خدمات جليلة للمجتمع رغم أنه لا يتعلق فعليا بأي نوع من الاستشارة.

المعلقة، كما تجد عربات أخرى عليها أكوام مُكوَّمةٌ من المزيد من شتى أنواع اللحوم الحمراء وسائر أنواع الطيور. وكل هذا وسط غابة أشجار السرو[1]. يا إلهي كم يسرقون هنا! وقد رأيت بالأمس كيف تم القبض على ست نساء وكيف سُحبن إلى قسم الشرطة وهن مكبلات كل ثلاثة على حدة. نسمع هنا باستمرار عن قصص السرقة والنهب. ورغم أن بعض تلك القصص فظيعة للغاية إلا أنني أصدق كونها حقيقية. وقد قيل أن مجموعة من الروس في الأيام الأخيرة قد حملت أحد رفاقها في تابوت إلى الكنيسة، ثم تسلل منه هذا الأخير في الليل، ونهب الكنيسة بالتعاون مع رفاقه المجرمين. وقبل بضعة أيام، سُرقت محفظة «فرانكلين» من جيبه عندما كنا معاً في المسرح. لحسن الحظ، لم يكن فيها سوى عدد من بطاقات الزيارة.

وقد ترددت كثيراً على المسارح في الأيام الأخيرة. وتزور المدينة حالياً الآنسة «هاينفيتر»، وهي مغنية عظيمة رأيتها واستمعت إلى غنائها بإعجاب كبير، خاصة وهي تغني في أوبرا «القناص الساحر»[2]. لا أعتقد أنني سمعت صوتاً كصوتها من قبل. وقد رأيت عدداً من المسرحيات الفرنسية أيضاً، وهي تتميز بالتأكيد برُقي ورزانة في الأسلوب، وهو أمر لا يلاحظ في أي مكان آخر. ولكن، سرعان ما يتعب المرء من مجرد المجاملة والرقي. لقد زرت عائلة «مولر» مرتين بعد أن راسلتك يا أمي. في المرة الأولى كان السيد «مولر» وحده في المنزل فاستمتعنا بالرفقة معاً لمدة ساعتين دون أن نمل. وقد كانت بناته الثلاث حينها في المسرح.

فيما عدا ذلك، نلت قسطاً كبيراً من الحركة هذه الأيام، وخاصة أن الجو كان بديعاً بشكل خاص طوال هذه الفترة الطويلة. أزور بين الفينة

---

(1) الشجرة المستعملة في عيد الميلاد.

(2) وهي أوبرا من الفولكلور الألماني تسمى بالألمانية Der Freischütz.

والأخرى إحـدى العائلات الإنجليزية، وأنا أسـتمتع برفقة هذه العائلة أكثـر مما أسـتمتع في أي مكان آخـر من الأماكن التي زرتهـا. أبناء هذه العائلـة لا يتكَلَّفون ولا يفرضـون رغبتهم على أحد، وللجميع حرية أن يفعلوا أو ألا يفعلوا ما يشـاؤون، وحريـة أن يتحدثوا متى طاب لهم، أو أن يلتزمـوا الصمـت متـى أرادوا، وبالقـدر الذي يريدون. هذه الأسـرة تتكـون من والدين مسـنين ومـن ابن في عمري تقريبـاً. دخلت مرة إلى مطبخهـم فوجدتـه بنظافة ونظام لـم تقع عليهما عيني قط. هناك أشـعر وكأننـي في بيتـي تماماً، وأنا أفضل هذه العائلة مـن بين كل من أعرفهم هنـا. كما أن زيارة كنيسـتهم هـي بالفعل متعة حقيقيـة. هناك تلاحظ أن عبادتهـم خاشـعة: كنيسـة منظمة جـداً ومتواضعـة جداً. ورغـم أن آلة الأورغ فـي هـذه الكنيسـة صغيـرة، إلا أنها حسـنة. إيقاعات الأناشـيد الدينية بديعة؛ خشـوع الشعب وتفانيه في العبادة منقطع النظير، وكل ما في المكان يسـمو بالإنسـان، وليس ثمة ما يزعج راحـة البال. نعم، لا مثيل للإنجليز.

في فاتح يناير، ذهبت لزيارة رفيق سفري «فرانكلين» لأتمنى له سنة جديدة سـعيدة، ولكي يفحص أسـناني، الأمر الذي كثيراً ما وعدني أن يفعله. وقد فحص أسـناني بالفعل فوجد أن أحداها متسوسة ونصحني بخلعهـا، وذلـك لأنها عديمـة الفائدة تماماً في فمـي. أصبت بهلع كبير لسـت أدري سببه، إلا أنني استطعت أخيراً السـيطرة على نفسي فتركته يخلع السـن المتسوسـة. لم تُخلع السـن بسـهولة كما كان «فرانكلين» يعتقد أول الأمر، وذلك لأن جذرين كبيرين وقويين من جذورها قاوموا بشراسـة مما تسـبب لي في ألم شـديد حيث إنني اضطررت أن أمسـك ركبتـي بكلتا يدي. ومنذ ذلك الحين، وأنا أحس أن ذقني يؤلمني قليلاً. ولكنني الآن على الأقل أستطيع مضغ الأكل على الجانب الآخر، وهو ما لم أتمكن من القيام به على الإطلاق لأكثر من عامين.

قبل بضعة أسابيع كتبت إلى «أغوسطا» رسالة بعثت لها فيها عنواني وطلبت منها فيها أن ترسله لكِ في أقرب وقت ممكن. وأعتقد أنها لم تكتب إلي بعد ذلك. كنت قد طلبتِ مني إبداء رأيي بخصوص بيع الكتب، غير أنني حقاً لا أعرف بم أشير عليك. أعتقد أن الوقت المناسب سوف يكون شهر شباط/ فبراير. من الممكن بطبيعة الحال بيع بعض الكتب بثمن أقل ربما، ولكن من يريد تكلف عناء بيع بعض الكتب فقط؟ ولعل الأفضل أن تباع كل الكتب دفعة واحدة. ولكن قد يكون من الضروري تحضير قائمة بكل الكتب نتركها في مكتب كاتب رئاسة الجامعة قبل فترة وجيزة من المزاد العلني حتى يتسنى للناس الاطلاع عليها. لا أعتقد أن لدى «كونراد» الوقت للقيام بذلك، لكنه قد يتمكن من اختيار شخص يمكنه التكفل بالأمر. ربما يستطيع «لاغوس» التكفل بالموضوع مقابل مبلغ بسيط؟ فتحضير قائمة بالكتب ليست مهمة صعبة. ولكن ينبغي أن يكون في المزاد نفسه شخص خبير حتى لا تباع أفضل الكتب بأثمان بخسة. لا ينبغي توقع ربح كبير من المبيعات، لأن الناس ببساطة لا تشتري الكتب التي تباع في المزاد بأثمان جيدة. ما العمل؟ فأنتِ يا أمي على كل حال لا تستفيدين من تلك الكتب شيئاً. المهم هو تحضير قائمة بالكتب وتحديد تاريخ يوم المزاد العلني. كما يمكن تحضير عدة نسخ من تلك القائمة، وهي مهمة يمكن أن يقوم بها أحد الطلبة. وعلى أي حال، يمكنك يا أمي أن تتشاوري مع «كونراد» أو مع «بيغدين» في الأمر.

سرني غاية السرور أن أسمع أن «كنوت مونك» قد خطب تلك السيدة الرائعة، فهو يستحق الحصول على أفضل العرائس. اليوم السادس من الشهر الجاري هو يوم عيد الميلاد هنا. وعندما قيل لنا بأن البريد لا ينقل خلال هذه الأيام، بقيت رسالتي تنتظر حتى التاسع من الشهر. ومع ذلك، فإنني تلقيت للتو رسالتك الأخيرة. وقد قضيت ليلة

عيد الميلاد عند «شيوغرين» في جو إن لم أصفه بالممتع فإنني سأصفه بالمرِح نسبياً. أما أيام العطل الأخرى فقد قضيتها في البيت.

رسالة من سان بترسبورغ 25/ 2/ 1841

أختي العزيزة!

مرة أخرى، قضيت عيد ثلاثاء المرافع[1] في أجواء صاخبة، وتجولت في هذا السوق المحلي الشاسع أتدافع وأتزاحم مع الناس لأفتح لنفسي الطريق وسط حشود تحيط بها هضاب من الثلوج. كما تفرجت على فتيات مدرسة «سمولنا» اللاتي استطعن الآن الخروج لأول مرة من أسوار ديرهن، وسيتمكنَّ من الخروج مرة أخرى وأخيرة في أسبوع عيد الفصح ليتفرجوا على الناس وليتفرج الناس عليهن. لم يعد يزعجني الآن التفرج على الناس وهم يستغلون كل فرص المتعة، وكل إمكانيات تَسْمينِ أنفسهم حتى يستطيعوا تحمل الصوم والعيش على شحومهم لمدة سبعة أسابيع من الصيام إلى أن يتمكنوا بعد ذلك من تجديد حيويتهم. لقد تجمع كل سكان سان بيترسبورغ يومي الجمعة والسبت في ساحة إسحاق الكبرى. الأثرياء والميسورون منهم يترنحون في أحسن الثياب ليتفرجوا على الناس وليتفرج الناس عليهم. عربات تجرها ثلاثة صفوف من الخيول تجوب الشارع جيئةً وذهاباً وبين تلك العربات ضباط شباب وسيمون على صهوة أحصنتهم يتغزلون بمن تركبن العربات التي على جانبهم الأيمن وأولئك اللاتي في العربات على جانبهم الأيسر.

اللحى الروسية منظر مضحك بالمقارنة مع السيدات الروسيات اللاتي يرتدين أجمل الثياب، ويتزينَّ بأحسن أنواع الزينة، ويبدين جمالهن إلى أقصى حد. وقد راقبتُ سيدة روسية كانت قد أتتْ إلى هذا

(1) أحد الأعياد الدينية المسيحية.

السـوق ثلاثة أيام على التوالي مسـتقلة عربتها. فـي اليوم الأول، كانت ترتـدي فروا أبيض جوانبه من الحرير؛ وفـي اليوم الثاني، كانت ترتدي ثوبـاً مـن الخميلة الحمـراء؛ وفي اليـوم الثالـث حلةً باللونيـن الأزرق والأحمـر. إضافة إلى هذا، فقد كانت ترتـدي قبعة مختلفة في كل يوم، وكانـت القبعـات مزينة بالريـش أو غيره. كما رأيت هناك «ترافيرسـي» وبناتـه أيضـاً. كان فـي المكان عـدد لا يعد ولا يحصى مـن المتفرجين مـن مختلـف الطبقـات الذيـن كانـوا يوزعـون إرشـاداتهم وتنبيهاتهم للسـائقين. وفي مركز السـاحة، كانت هضبة من الثلج، ومختلف أنواع الأرجوحـات، وأماكن التسـلية التـي تعج بالبهلوانييـن ومختلف أنواع المحتالين وغيرهم ممن يعرضون للناس مواهبهم وحيلهم.

وكان الحشـد الـذي يحيـط بهضـاب الثلـج غفيـراً جـداً لدرجة أن الاقتـراب منها كان ضرباً من المسـتحيل. كان النـاس هناك قد تجمعوا ليتفرجـوا علـى المتزحلقيـن وليشـاهدوا كيـف يتمكنـون مـن نـزول الهضبـة. وإذا ما انحـرف أحدهم قليلاً أو وقع، ارتفعـت عاصفة رهيبة مـن القهقهـة. وهذا ما حـدث مـراراً وتكـراراً وذلك لأن النـاس كانوا فرحين ولأن معظمهم كانوا مخمورين قليلاً. مرتادوا هضبة الثلج كانوا كثيرين جداً، لذلك فإن المتزلجين في العديد من الحالات كانوا يقعون مما يتسـبب في ارتفـاع ضحكات الجمهور الصاخبـة، وخاصة إذا كان المتزلج امرأة. كانت الحشـود تتجول بين هضبة الثلج وأماكن التسـلية في ازدحام شـديد. كان معظم المحتشـدين رجالاً يرتدون معاطف من فرو الغنم، يشترون من الباعة مختلف أنواع الحلويات المحلية، وفطائر الزنجبيل، والكعك والشـاي، وما إلى ذلك. الأغرب على الإطلاق هو يـوم الأحد عندما يودع النـاس بعضهم ويطلبون المغفـرة من بعضهم. عندهـا يقف الملتحون يُقبِّلون بعضهم ويمسـحون لحاهم اللزجة وهم يبكـون ويطلبون من بعضهم السـماح عما بدر منهـم ويتمنون لبعضهم

القـوة والقـدرة علـى تحمـل الصيـام. الناس هنـا يحتفلون يـوم الأحد بأفضل السـبل: وبحلول المسـاء، تمتلئ الشـوارع بأغاني الموسـيقيين السكارى، فيما يرتمي الكثيرون على الأرض في أحضان الثلج المبلل. وابتداء من صباح يوم الاثنين، يكون كل شـيء هادئاً، وتكون الشـوارع فارغـة أكثر مـن المعتاد بحيث لا ترى الناس فيها إلا نادراً وهم عائدون مـن الصاونا، وهو مـكان يذهب إليه الجميع الآن ليغتسـلوا. جميع من يلتقي بهم المرء في الشارع في حالة من الضعف والتعب. هكذا يحتفل النـاس بعيد ثلاثـاء المرافع في الخارج، ويقال إنهـم يحتفلون به بنفس الطريقـة داخل البيـوت كذلك. الأكل هو الأمر الرئيسـي. ولذلك، فإن عدد المرضى في المستشفيات يرتفع عادة.

في المسـارح عرضان يومياً طيلة الأسـبوع، وعادة ما يملأ الجمهور القاعة كلها. غير أنني هذا الأسـبوع لم أحضر إلا بعض العروض. ذلك أننـي حضـرت الكثير جـداً من العروض مـن قبل، ولـم تفتني عروض الأوبـرا الألمانيـة إلا نـادراً. بل إنني كثيـراً ما ذهبت لعـروض الأوربرا الروسـية كذلـك. مـا زالـت الآنسـة «هاينفيتـر» تغنـي هنـا. إن رؤيتها والاسـتماع لغنائها متعة ما بعدها متعة. لا أعتقد أنني سمعت صوتاً في جمال صوتها من قبل، ولا رأيت ممثلة في موهبتها. بالإضافة إلى هذا، فإن جميع آليات المسـرح السـاحرة الرائعة التي يمكن رؤيتها هنا أمور تسـتحق المشـاهدة، خصوصاً عندما يكون دخـول العروض بالمجان، كمـا هو الأمر في حالتي. لا عجب يا شـقيقتي العزيزة أنك اسـتهجنتِ الشـياطين التي في مسـرحية «دون جوان»، إلا أنني أنا شـخصياً أفضل أن أشاهد عرضاً تبدو الشياطين فيه منذ الوهلة الأولى شياطيناً، على أن أشـاهد عرض الشيطان «روبرت» ببناته الكاسيات العاريات المنبعثات مـن القبـر اللاتي ترقصن وتقفزن بأسـوء صورة يمكـن تخيلها. الأوبرا الروسـية هنـا ضعيفة جداً، وليسـت الأوبـرا الألمانية هـي الأخرى من

أفضل الأوبرات. لقد أشرفت العروض المسرحية الآن على الانتهاء وحان موعد بدء الحفلات الموسيقية. وقد تلقيت وعداً بأنني سأحصل على بطاقات دخول هذه الحفلات بالمجان، ولكنني لا أعرف بعد إن كنت سأتردد على تلك الحفلات أم لا. وقد حضرت حفلة راقصة عند القس السويدي «زانتي»، وكانت الحفلة في بيته شبيهة تماماً بما نفعله عندنا، إلا أن معظم من كانوا في الحفلة سيدات متزينات بالحرير والمخمل علاوة على كونهن بشعات جداً. رقصت رقصة فالس واحدة فقط، وبعد ذلك بوقت قصير، نظم القس الفنلندي «سيرين» حفلة راقصة أخرى غير أنني لم أرد الذهاب إليها.

كنت في بيت «زانتي» مؤخراً فالتقيت بصهر السيدة «إكبوم» الذي دعاني لزيارته في بيته في البادية، وقد بدا لي رجلاً لطيفاً. وقد طلب السيد «مولر» مني أن أكتب إلى «لاورا بولاندر» رسالة باللغة السويدية، يعبر السيد مولر لها فيها عن حزنه وأسفه لأنه لا يتلقى منها رسائل إلا نادراً. وقد وعدته بكتابة الرسالة إلا أنني لم أزرهم منذ خمسة أسابيع. على أي حال، عندما تتلقى «لاورا» رسالة كهذه، فإنها ستكون مني على الأرجح. ينبغي أن أكتب رسالة إلى «بولطوس» أخبره فيها أنني مرضت لبضعة أسابيع، ذلك أنني لم أفعل بعدُ ما طلبه مني. ولذلك أود أن أخبره بأنني لم أتمكن من الخروج بسبب مرضي. - لم أتوصل من «أوغوسطا» بأي رسالة منذ زمن طويل. هلا كتب أحدكم إليها ليشكرها على الرسالة السابقة، ويخبرها بأنني سأراسلها في أقرب فرصة ممكنة. سوف أرسل هذه الرسالة غداً مع «شوبيرت» الذي سيأتي إلى هلسنكي قريباً لحضور حفلة موسيقية.

الدراسة في سان بترسبورغ

زار والين سان بترسبورغ فجاءته فكرة العودة إليها لمتابعة دراساته العليا بها. كانت سان بترسبورغ في النصف الأول من القرن التاسع عشر إحدى مراكز أوروبا الرائدة في الدراسات الشرقية، وقد استفاد المستشرقون الفنلنديون كذلك مما وفرته هذه المدينة من إمكانيات للدراسات العليا. في دورة خريف 1840، حضر والين، وبشكل مكثف، محاضرات اللغة والأدب العربيين التي كان يدرّسها المستشرقان المشهوران أوسيب جوليان إڤانوڤيتش سنكوڤسكي (1800 – 1858) وبارنهارد دورن (1805 – 1881) وكذا محاضرات اللغة التركية التي كان المحاضر أنطون موهلينسكي يُلقيها والذي توفي عام 1877.

وجد والين في المعهد الشرقي التابع لوزارة الخارجية أهم من أثر فيه داخل الفصل الدراسي وخارجه، من منظور مخططاته المستقبلية، وهما ميرزا إسماعيل محاضر اللغة الفارسية، ومحمد عياد الطنطاوي (1810 – 1861) محاضر اللغة العربية.

رسالة من سان بترسبورغ 9/ 10/ 1841

أمي العزيزة!

بعد أن افترقنا على شاطئ هلسنكي، خرجنا من المدينة مُبحرين، واجتزنا «فيلينكي» بمسافة قصيرة. ولكن الريح المعاكسة القاسية أعادتنا إلى المدينة مرة أخرى بعد ذلك فاضطرتنا لقضاء ليلتنا على أكياس من التبن، ولكن في غرفة دافئة على الأقل. لم أكن بخير رغم

أنني شربت الكثير من الشاي ذلك المساء. وفي صباح اليوم التالي، أي الثلاثاء، غادرنا المدينة مجدداً ووصلنا ما بين الساعة الواحدة والثانية عشرة إلى «بورفو». حينئذ، كان «رونبري» في الثانوية يشرف على أحد الامتحانات ولذلك لم أستطع رؤيته. وعندما أكد القبطان بأن الوقت لن يسعفنا للوصول إلى لوفيزا يوم الثلاثاء، فارقتُ المجموعة وتابعتُ سفري برّاً، ولكنني كدت أنسى حقيبة سفري في السفينة. وصلت إلى لوفيزا في نحو الساعة الخامسة. وكانت «الكاسحة»، وهو اسم السفينة، لم تصل بعد حينها.

قضيت المساء وسط مجموعة كبيرة من الناس، لا أعرف منهم إلا بعضهم، وذلك في حفلة عيد ميلاد شخص يسمى «ساكسدورف»، ولكنني لم أستمتع في هذه الحفلة البتّة. وركبت مساء يوم الأربعاء سفينة «الكاسحة»، التي كانت قد وصلت وقت العشاء إلى لوفيزا بقيادة القبطان «هيلت». ركبت إذن «الكاسحة»، ووصلت على متنها إلى الباخرة التي كنت أنوي أن أستقلها وكانت قد أبحرت وابتعدت عن المدينة بما يقرب من خمسة أميال. ابتُلينا تلك الليلة بعاصفة مطرية قوية، فعلى الرغم من أن أربعة بحارين مفتولي العضلات كانوا يجدفون بكل ما أوتوا من قوة، إلا أننا لم نتمكن إلا بمشقة الأنفس من الوصول إلى السفينة. وفي الصباح، تناولت وجبة فطور جيدة تتكون من ثلاثة أطباق مختلفة عند «بارك» كما حصلت منه على علبة سُعوطٍ كهدية. وفي صباح يوم الخميس، خرجنا من لوفيزا وأبحرنا إلى غاية الساعة الثالثة أو الرابعة تقريباً. وعندها واجهَنَا بحرٌ هائجٌ لم يعتقد قائد السفينة بأننا سنتمكن تجاوزه قبل حلول الظلام. لذلك، كنا مضطرين لإنزال المرساة والبقاء في مكاننا. استمرت العواصف والضباب إلى يوم الجمعة، بحيث بقينا في المكان نفسه والمرساة منزلة طيلة اليوم. وفي صباح يوم السبت، تمكنا أخيراً من مواصلة الرحلة ووصلنا إلى

«بيوركشوند». وهناك أخذت منا عملية تحميل الأخشاب اليوم بكامله.

وهكذا واصلنا رحلتنا صباح يوم الأحد، وبالكاد تمكنا من الاقتراب من سان بترسبورغ مع حلول المساء. غير أننا لم نتمكن من النزول قبل صباح يوم الإثنين في الساعة العاشرة. أما الأمتعة التي خضعت لمراقبة الجمارك فلم نستعدها إلا يوم الأربعاء. كما ترين يا أمي، فقد كانت الرحلة بطيئة ومليئة بالمتاعب، فضلاً عن الإجراءات الاعتيادية للجمارك المتعلقة بالأمتعة. ليس لدي حتى الآن شقة مناسبة، ولكنني أتمنى أن أتمكن من الحصول عليها هذه الأيام. سوف أكتب إليكم بعد ذلك لأرسل لكم عنواني.

عندما تأتي سفينة «الكاسحة» المرة القادمة إلى هلسنكي، أرجو أن تحاولوا البحث عن علبة «عُطُوسٍ» نسيتها على متنها. اسألوا عن السيد «لوفمان»، وأعطوه العلبة حتى يجلبها لي معه. لا داع لإرسال علبة تخزين التوابل فهي ليست ضرورية. سأتوقف الآن عن الكتابة، ولكنني سوف أكتب لك مرة أخرى في وقت قريب.

رسالة غير مؤرخة كتبت في خريف عام 1841 من سان بترسبورغ

كثيراً ما أزور رجلاً فارسياً يسمى إسماعيل كان عوناً كبيراً لي، ويمكنه أن يساعدني أكثر وأكثر بمرور الأيام. ولكنه رجل له طريقة خاصة في التعامل مع الآخرين، وما من وسيلة لجعله يغير عاداته. وهو شخص متفتح جداً، ويقبل أن يشرب جرعة من النبيذ بكل سرور، وهو يعرف لغته جيداً، ويعرف الدين الإسلامي أفضل من أي شخص هنا. وهو رجل يحسن الكلام، بل إنه يمتلك من مهارات هذا الفن الشيء الكثير. وأنا غالباً ما أجلس معه ثلاث أو أربع ساعات متتابعة على مدار الأسبوع. ولست بحاجة لأن أفعل أي شيء إلا الاستماع إليه، وهو لا يكرر ما قاله إلا نادراً. كما أنه يستطيع أن يستشهد بآية ما عن أية كلمة أو أية فكرة تطرق لها.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد دأبت على العمل ثلاث مرات في الأسبوع في المنزل مع الطنطاوي. وقد ترجمت من كتاب المبتدئين نصفه تقريباً، وهو الكتاب الذي رأيتِه عندي الصيف الماضي. كما أنني أشرفت أيضاً على نهاية ترجمة كتاب «شيلر» «Der Neffe als Onkel» إلى اللغة العربية. وقد بدأنا الآن سلسلة محادثات كل مساء، بحيث نتكلم مساءَ يوم بالألمانية فقط، إذ إن الطنطاوي بدأ يحرز فيها تقدماً تدريجياً، وفي المساء الموالي نتحدث باللغة العربية فقط - وذلك بالاستفادة من معرفة كلينا بالأدب - وهكذا دواليك.

يوماً بعد يوم أزدادُ احتراماً لطبعه الطيب وشبه الطفولي نوعاً ما، فضلاً عن كياسته وصراحته. كما أننا لم نعد نتعامل بالجدية التي تفرضها علاقة المعلم بالطالب، بلِ إننا أصبحنا نتعامل كالأصدقاء.

فنحن نشرب الشاي معاً أولاً، ثم نرتمي في ديوانه الكبير، وفي أحضان قصصه التي لا تنضب عن بلده العزيز على قلبه مصر، وعن القاصين والمغنين والراقصين ومختلف أنواع المباهج الأخرى. وقد زادت كل هذه الأمور من رغبتي في الذهاب إلى هناك، هذا إذا كان من الممكن لرغبتي تلك أن تزيد عن الحد الذي بلغته. ولا أعرف أبداً كيف سأتحمل وقع قرار منحة السفر التي طلبت الحصول عليها، وهو القرار الذي لا بد له أن يَبْلغني ذات صباح في الأيام القادمة. فإذا كان الجواب بالنفي، فأخشى ما أخشاه هو أن تخور قواي حزناً وحسرةً، أما إذا كان الجواب بالإيجاب فأخشى ما أخشاه هو أن يندفع قلبي خارجاً من صدري.

أما المعهد فقد ترددت عليه مرات قليلة، ولكنني بعد ذلك لم أعد أجد في نفسي أي رغبة للذهاب إليه، وهو أمر لاحظت أنني ندمت عليه فيما بعد، إذ كان بإمكاني الآن الاستفادة كثيراً من دروس «لاميزون» الذي عاد مؤخراً من بلاد فارس. لقد استطاع الطنطاوي التغلب إلى

حد كبير على التقاعس الذي يميز الكثير من المسلمين، وهو حالياً لا يخفيني أي شيء بحيث يرد على جميع الأسئلة التي أطرحها عليه، حتى تلك التي قد يعتبرها المسلم المتعصب أسئلة حساسة. ويمكن قول الشيء نفسه عن إسماعيل، فهو رجل أكن له كل تقدير واحترام في الغالب، رغم أنه يعيش هذه الأيام ظروفاً سيئة للغاية يتحاشاه بسببها أبناء بلده. أنا عاكف هذه الأيام على قراءة الرسائل التي تلقاها الطنطاوي من أصدقائه في مصر. وقد قررت أن أكتب هذه الرسالة باللغة العربية كثمرة لهذا الجهد، إلا أن ذلك كان سيتطلب مني وقتاً أطول وهدوء بال أكثر مما أنا عليه في الوقت الراهن.

رسالة من سان بترسبورغ 17/ 11/ 1841

أمي العزيزة!

لا أبد أنكم استغربتم كثيراً من صمتي الطويل، ومن أنني لم أخبركم عن أحوالي إلا بشكل مقتضب جداً فور مجيئي، فما حدث هو كالتالي: كان علي أن أكتب إلى «باصي» في 27 تشرين الأول/ أكتوبر فضممت إلى رسالته رسالةً أخرى كنت قد كتبتها لك يا أمي. ولكنها لم تصلكِ. فلقد نسيت أن أكتب العنوان رغم أنني قلّبتُ الرسالة من كل الجوانب محاولاً التحقق من أن كل شيء على ما يرام قبل أن أضع عليها الختم إلا أنني نسيت أهم شيء. وبعد ذلك، وصلتني رسالة من «باصي» يخبرني فيها بأنه سيحتفظ بالرسالة إلى أن أبعث له العنوان الذي ينبغي له تسليمها إليه. غير أن الوقت لم يسمح لي حتى الآن بإرسال العنوان إليه، ولذلك فإنني أخبرك الآن بالأمر. إن «باصي» يسكن في ثكنات الحرس الفنلندي في الطابق الثالث في الغرفة التي في الزاوية والتي تطل على البحر.

كنت أريد أن أكتب لك صباح يوم السبت الماضي، ولكنني انشغلت

بأعمال أخرى. ستعرفين، عندما تقرئين الرسالة التي مع «باصي»، بأنه لم يكن ثمة أي سبب يجعلنا نرضى بالشقة التي كنا نسكن فيها، وهو ما اتضحَ لنا أكثر فأكثر يوماً بعد يوم، وخصوصاً عندما أصبح الطقس أكثر برودة قليلاً. كان علينا أن نوقد النار بأنفسنا مدة ثلاثة أو أربعة أيام باستعمال عيدان مبللة حصلنا عليها من لحاء الشجر. حاولنا أن نشتري بأنفسنا حطباً ونجحنا في البداية قبل أن تقف بعض المشاكل بعد ذلك عائقاً دون ذلك عندما أرسلنا العجوز «قسطنين» للقيام بهذه المهمة. وهكذا لم يعد بوسعنا إلا أن نلف أنفسنا بأكبر عدد ممكن من الملابس لنبقى دافئين. علاوة على ذلك، حاولنا ما أمكن البقاء خارج المنزل. وقد بدأنا نفقد أعصابنا - ولا سيما صديقي - ونتشاجر مع صاحبة المنزل، لكن ذلك لم يجد نفعاً. في الحقيقة، لا يمكننا أن نلوم إلا أنفسنا لأننا استأجرنا من هذه الروسية. كان من المفترض بنا الآن أن نعرف الروسيين حق المعرفة، وألا نقع في فخ التعامل معهم، ولكننا تركنا مظهر هذه الروسية الودود يخدعنا.

وهكذا وجدنا أنفسنا مرة أخرى، وبعد مرور شهر واحد، مضطرين للبحث عن سكن جديد. وعندما لم نتمكن من العثور على أي شقة تناسب كلينا، اضطررنا إلى أن نفترق. ولذلك، فأنا أعيش وحدي حتى الآن في بيت سيدة ألمانية ولدت في «تالين» وجاءت إلى هنا إثر زواجها. وهي الآن أرملة تعيش هنا مع ابنها وابنتيها. وهي سيدة ودودة للغاية، تهتم بتدبير أموري كاملة. فهي تحَضِّرُ لي حتى وجبة العشاء التي أتناولها إما في الجانب الذي تسكن فيه هي أو أتناولها وحدي في غرفتي. وتتكون الوجبة من طبقين مختلفين بل وحتى من ثلاثة أطباق أحياناً. كل هذه الأطباق معدة بعناية، لذيذة، ووفيرة. هذا بالإضافة إلى قهوتها الفذة التي تحضرها لي فتستهويني لاحتساء فنجان منها كل مساء. في الصباح، أشرب كأساً من الحليب الساخن وأستمتع كثيراً

فـي شـقتي الجديدة هـذه. لكنني أشـعر بشـعور غير مريـح عندما أريد الانتقـال إلى غرفتي لأنني أضطر إلـى أن أذهب أولاً إلى المطبخ، ومن ثـم المرور بغرفة صاحبة البيت التي تسـكن فيها ابنتاهـا معاً إضافة إلى امرأة أخرى من أقارب السـيدة «فاغرشتروم» أصلها من هلسنكي. هذه المرأة عاشـت هنا أربعين عاماً ويبـدو أنها تعمل هنا خادمة. وهي امرأة لطيفة وودودة، كبيرة الحجم وسمينة البدن.

الابنـة الكبـرى لصاحبة المنـزل تبلغ من العمـر ثمانية عشـر ربيعاً، والأخرى بنت اثنتي عشـرة سنة. البنت الصغرى فتاة جميلة، خصلات شـعرها شـقراء، ولكنها خجولة قليلاً مثل أختها. عندما تتجمع النسـاء كما في هذه الحالة، من الطبيعي أن ينشـأ جو من الثرثرة وكثرة الكلام، وهـذا مـا يزعجني غالباً. في ما عدا ذلك، أنا سـعيد جـداً. ما إن انتقلت إلى المنزل الجديد يوم السـبت واسـتقررت فـي غرفتي وتناولت وجبة العشـاء، حتى خرجت للاسـتمتاع باليوم الأول من أيام الشتاء، ولشراء بعض أغراض البيت الصغيرة المتعلقة بمائدة الشـاي في المقام الأول: فقد اشتريت مفرشاً ملوناً لأغطي به مكتبي القديم الذي أكل عليه الدهر وشـرب وترك عليه من علاماته ما ترك. كما اشـتريت كذلك طقم شاي يتألـف من إبريـق شـاي وفنجانين كبيرين. طقم الشـاي أبيـض كالثلج وجميـل جداً إلا أنه لم يكلفنـي أكثر من روبلتين اثنتيـن. بالإضافة إلى هذا، فقد اشـتريت سكراً وشـاياً، ودهان تلميع الأحذية، وما إلى ذلك. وعندما عدت إلى المنزل حاملاً مقتنياتي، وضعت إبريق تحضير الشاي - الذي كنت قد اقترضته من صديق لي - على النار، ودعوت صاحبة البيت وإحدى بناتها إلى غرفتي لتناول الشاي الذي حضرته والذي كان شاياً ممتازاً بلا فخر. كما سبق أن ذكرت، فصاحبة البيت هي سيدة طيبة يهمهـا أن تكون إقامتي مريحة. وهي مـن جهة أخرى تفرح كثيراً عندما أمدح قهوتها وطعامها. وهي تقول بين الفينتة والأخرى بأنها لا تحسـن

إعداد الطعام ولا تستطيع الحديث كسيدات المجتمع الراقي وما إلى ذلك. أعتقد أنها تقول ذلك فقط حتى تستمع لثنائي عليها ولدفاعي عنها من انتقاداتها لنفسها. وأنا أغتنم الفرصة لمجاملتها بعبارة أو اثنتين. وهكذا فعلاقتنا طيبة للغاية.

منذ فترة، زارتني عائلة «مولر»، وعندما جلست أدردش مع رب العائلة بمعزل عن الآخرين - إذ كان عدد الزوار كبيراً -، فوجئت بالابنة الصغرى لعائلة «مولر» تدخل منزلي وهي تضع ذراعها في ذراع شاب قدمته لنا على أنه خطيبها. وكان هذا الشاب صغيراً جداً بل إنه لا يزال صبياً تقريباً. لا يمكنني القول بأن العين تقر بمظهره. اسمه «ديميتربيف»، وهو موسيقي مشهور على ما يبدو. وفي وقت لاحق، عزف الخطيبان الشابان معاً بعض الثنائيات. وعلى الرغم من أن الموسيقي الشاب عزف عزفاً جيداً، إلا أنني سمعت من يعزفون عزفاً أفضل بكثير. أما الفتاة نفسها فيبدو لي أنها لم تُشْفَ تماماً بعدُ من مرضها. كما أنني لا أعتقد أن زواجها هذا أمر تحسد عليه. أما السيد «مولر» فبدا عادياً - أو ربما تكون حدبته أكبر قليلاً من ذي قبل - كما أنه كان مسحوراً بعزف ابنته ومسحوراً أكثر بعزف صهر المستقبل. متعه الله بعزفهما وثنائياتهما!

أشكرك على السعوط والرزنامة التي أرسلتها لي مع «إيلسين». وقد ذهبت لزيارته بضعة أيام فقط بعد عودته. وقد أخبرني بأنك أرسلت معه رسالة كذلك، لكنه لم يجدها. أقضي عنده وقتاً لطيفاً جداً، ولكن المسافة الطويلة التي يبعدها بيته عن بيتي تجعلني لا أجرؤ على الذهاب إلى هناك في كثير من الأحيان. لقد رأيت «كالي فورسمان» مرة بعد عودته وذلك عند «لويف» ذات مساء. ولكنني لم أذهب إلى هناك منذ ذلك الحين. حينئذ لم يكن قد حصل على لباسه العسكري بعد، ولكنه كان سيحصل عليه في اليوم الموالي على ما أعتقد. كان يوم

السبت هنا أول يوم شتائي حقيقي، كان الثلج قد نزل يوم الجمعة وفي الليلة الموالية كذلك لدرجة أن معظم الناس استعملوا المزلاجات يوم السبت، ومنذئذ أصبح الجو شتائياً. ارتفعت بالأمس درجة الحرارة قليلاً، ولكنها عادت ونزلت في الليل إلى ما تحت الصفر، وعاد الجو جميلاً مرة أخرى. أرفق مع هذه الرسالة إبرة حياكة. لم يكن لبائع إبر الحياكة الذي اشتريت منه إبر من هذا النوع الآن، لكن له إبراً أطول تستخدم دون ذراع. في الأسبوع القادم من الأرجح أن يكون له المزيد من هذا النوع الذي أرفقه مع هذه الرسالة. أرجو أن تخبريني هل هذه الإبرة مناسبة؟ الأفضل أن تكتبوا على ظهر الرسائل التي تبعثونها إلي ما يلي: «تُترَك في مكتب الجوازات الفنلندي للسيد «نيغرين»». - أما «بولطوس» فلم أعد أستطيع إرسال طلباته، لأن سفينة «الكاسحة» لم تعد تأتي إلى هنا.

طلب المنحة والسفر عبر أوروبا

كان عمر الطنطاوي هو نفس عمر والين، وقد نشأت بينهما علاقة فاقت علاقة الطالب بأستاذه، وتحولت إلى صداقة حميمة دامت طول حياتيهما. فالطنطاوي، خريج جامعة الأزهر ذائعة الصيت، كان قد تلقى دعوة للتدريس في معهد سان بترسبورغ للدراسات الشرقية كبروفيسور للغة العربية به. كما أن حكاياته المسائية لوالين عن مصر أيقظت فيه رغبة شديدة في التعرف على العرب والثقافة الإسلامية في منبتها. وعندما أُعلن في جامعة ألكسندر عن إمكانية طلب منحة السفر للباحثين الشباب في خريف 1841، قام والين بطلبها من سان بترسبورغ.

ذكر والين في مخطط سفره الملحق بطلب المنحة أن دراسة لهجات اللغة العربية فرع مهمش من فروع العلم. وأنه ينوي إصلاح الوضع بالسفر إلى مصر إذ إن الأوروبيين يُستَساغُون فيها أكثر مما يستساغون في البلدان الإسلامية الأخرى، كما أن الأدب والفيلولوجيا العربيين بها لا يزالان يمارسان بشكل جاد. إضافة إلى كون اللهجة المصرية هي اللهجة التي أتقنها أكثر من بين اللهجات العربية. «بعد أن أدرس في الإسكندرية [...] ومنطقة الدلتا لمدة شهر تقريباً، سأسافر إلى القاهرة لدراسة علم اللغة العربية على يد علماء العرب، وللتعرف على طريقة التدريس الشرقية التي تختلف تماماً عن طريقة التدريس عندنا. سأتابع طريقي من القاهرة لأقطع مصر على طول نهر النيل هناك حيث اللهجات المتعددة أو الآثار القديمة تشد انتباهي. قد أُعَرِّجُ بين الفينة والأخرى على بعض المناطق الداخلية من جهتي النيل. أتمنى أن

يسعفني الوقت لأَصِلَ بعد شهرين إلى أسوان، ومنها سأولي وجهي يميناً في اتجاه شاطئ البحر الأحمر لأبحر نحو اليمن. سأبقى في سبأ وفي المنطقة المحيطة بجبل خاسم نحو ستة أشهر محاولاً قدر المستطاع أن أُكَمِّل المعلومات التي جمعها فرسنل عن اللغة الحميرية. بعد ذلك، سأقتفي طريق القافلة إلى مكة معرجاً على اليمين حتى أستطيع تتبع فترة ذوبان اللغة الحميرية في اللغة العربية. أتمنى أن أستطيع البقاء في مكة والمناطق المحيطة بها نحو شهر من الزمن. أعتقد أنني حينئذ سأكون قد تعلمت اللغة بالقدر الكافي، وسأكون قد أحرزت معرفة حسنة بالعادات الإسلامية بما يكفي لأتجرأ على الترحال في صحراء شبه الجزيرة العربية دون أن يُكتَشف أمر كوني غريباً عنها. سوف أجمع معلومات لغوية وجغرافية وتاريخية عن هذا البلد الذي ظلت معرفة الأوروبيين به شبه منعدمة لحد الآن. سوف أذهب من مكة مع إحدى القافلات إلى الدرعية لأبقى بها لمدة شهر تقريباً فأزور اليمامة والعريض، وأعيش بين الوهابيين للتعرف على المذهب الوهابي وتعاليمه. سأتابع طريقي من الدرعية إلى القطيف أو إلى إحدى المناطق الشاطئية في الخليج العربي فأذهب منها إلى البصرة إما بحراً أو براً عبر الصحراء. وبعد قضاء بعض الوقت فيها، سأرجع إلى الصحراء مع إحدى القوافل صوب المدينة ثم أبقى في العدوة والمناطق المحيطة بها لبعض الوقت. وبعد أن أمكث في المدينة نحو شهر من الزمن، سألتحق بإحدى القوافل إلى فلسطين فأبقى فترة في القدس، وفي تلك البلدان ذائعة الصيت، ثم أتجه نحو أقرب موانئ حوض البحر الأبيض المتوسط لأبحر منها إلى القسطنطينية. لا أستطيع أن أحدد مدة رحلتي في الصحراء لأن هناك اختلافات كبيرة في ما وصفه من عبروا تلك المنطقة وما ذكروه عن طول المسافات الفاصلة بين مكان وآخر....»

وختم والين مخططه بشكل جميل واعداً أنه، إذا ما تبقى من المنحة

قـدر من المال، فإنه سيسـافر إلى قبائل التتار لجمـع مواد لغوية للبحث في إمكانية وجود قرابة لغوية بين اللغة التتارية واللغة الفنلندية.

ألحـق واليـن بطلـب المنحة رسـالتيْ توصيـة؛ الأولـى بالعربية من الطنطـاوي، والثانيـة باللاتينيـة مـن موهلينسـكي. التوصيتـان كلاهمـا أشـادتا بوالين كثيراً. كان والين، حسـب شـهادة الطنطاوي، «قد وصل إلى مستوى اسـتثنائي في إتقان اللغة العربية قراءة وكتابة وتحدثاً». كان سـتة باحثين شـباب قد طلبوا المنحـة، التي كان يُعلـن عنها كل خمس سـنوات، وهم: كاسـترين، محاضر اللغات الفنلندية والشمال أوروبل؛ سـيجنيوس، محاضر التاريـخ؛ وجيلدين، باحث اللغات الكلاسـيكية؛ وعالم الكيمياء موبيرغ؛ ووالين؛ وعالم الطبيعة فيرزين.

اندهـش المتنافسـون ونـاس ذلك الوقت كثيـراً عندما قـررت لجنة المِنَـح فـي اجتماعها فـي الثالث من تشـرين الثاني/ نوفمبـر 1841 أن تكـون المنحة مـن نصيب واليـن. كان اهتمـام الأكاديمييـن الفنلنديين آنـذاك يكاد يكـون منصبـاً بالكامل على سـيبريا «مركز أبحـاث العلوم الإنسانية الفنلندية». لذلك فإن قرار اللجنة، إضافة إلى كونه مفاجئاً، قد اعتُبر مخطئاً ومجحفاً.

وبعد عودته من سان بيترسبورغ ما بين خريف سنة 1842 وصيفها، طلـب واليـن من لجنـة المنـح الإذن بتأجيـل الرحلة بسـنة. خلال تلك السـنة، تفرغ والين لدراسـة الطب في المعهد السـريري التابع للجامعة حتى يتمكن من ممارسة الطب أثناء رحلته الصحراوية. كما أن الجامعة كلفتـه بمهـام عديدة فلـم يكن سـفر أحدهم إلى شـبه الجزيـرة العربية بالأمـر العادي الذي يحـدث كل يوم! كُلِّف والين بتزويد علماء الطبيعة بجماجم وهياكل عظمية حيوانية وبإرسال كائنات يحفظها في الكحول ومـا إلى ذلك. كما كلـف بأن يقتني مخطوطـات ومطبوعات عربية من القاهـرة ويبعثها إلى مكتبة الجامعة. كانـت المخطوطات والكتب التي

كان واليــن يبعثهــا تصل إلى هلســنكي عكس الكائنــات المحفوظة في الكحــول التي كان يبعثها عبر أوديســا، إذ إن التلف أصاب تلك الأخيرة لأن رجال الجمارك كانوا يشربون كحولها.

كان واليــن يأمــل، لغاية يوم ســفره، أن يرافقه أســتاذه الطنطاوي إلى القاهــرة غيــر أن أمله هذا لم يتحقــق. وفي تموز/ يوليــو 1843، حضر الطنطاوي إلى هلســنكي عبر العاصمة الإســتونية طالين فاستطاع والين أن يُمضــي العشــرة أيــام المتبقيــة قبــل ســفره برفقــة صديقــه المصري. وأخيــراً، عندمــا انطلقت باخــرة والين بعد تأجيــلات متوالية في 28 من تموز/ يوليو، كان الطنطاوي آخر من تمنى لوالين رحلة سعيدة.

إن بداية الرحلة لم تكن ســعيدة بأي حال من الأحوال. في مذكرات والين فراغ طوله ســتة أســابيع من الثانــي من أيلول/ ســبتمبر إلى الثاني عشر من تشرين الأول/ أكتوبر. رسائله إلى والدته وأخته مُؤرَّخة بتاريخ 20 و21 مــن تشــرين الأول/ أكتوبــر. في فاتــح أيلول/ ســبتمبر، التقى والين برجل مرح ينحدر من مدينة بوردو ويعرف اللغة العربية في مقبرة الأب لاشيز فاتفق معه على أن يلتقيا في اليوم الموالي. لا نعلم أي شيء آخر مهم عن هذه الحادثة غير أن والين نفســه يعود لذلك الموضوع في آخر يوم من شــهر كانون الأول/ ديســمبر وهو في الإســكندرية ليراجع حسابات السنة المنصرمة قائلاً: «ثم جاء ذلك اليوم العاصف في باريس فأخــذ منــي شــجاعتي وحماســي، ولعــل الأثر الــذي خلفه فــي حياتي ســيلازمني لفترة ليست بالقصيرة.» **كل هذا يشــير إلى أن والين تعرض لعملية سطو عنيفة كادت تزهق روحه.**

رسالة من مرسيليا إلى غابرييل غيتلين في 21/ 10/ 1843

قضيــت الصيــف بطولــه في البيت مســتلقياً مســترخياً ومنتظــراً فرصة الســفر إلــى ألمانيا. وقد ســررت كثيراً بلقاء شــيخي الطنطــاوي وقضاء

الأيام العشرة الماضية - التي طال انتظاري لها - معه ومع رفيق سفره «دي ميزون». ولكن، حتى لقاؤنا هذا لم يكن كافياً لتهدئتي وتخفيف الشعور بنفاد الصبر في انتظار هذه الرحلة. هذا الشعور بنفاد الصبر قلص قليلاً مقدار الفرح والاستفادة التي كان من الممكن أن أنالهما من زيارة الشيخ لي. وقد كان الشيخ كعادته مبتهجاً مرحاً فحظي لذلك - كما يحصل في كل مكان - بشعبية كبيرة لدى الجميع. وقد أعجبته مدينتنا وشعبنا ومناخنا، ووجد تشابهات بين ما يوجد هنا وما في بلده، ووعد بألا تكون هذه آخر زيارة لنا. وقبل أيام قليلة من سفري، سافر «دي ميزون» في رحلة ترويح عن النفس داخل فنلندا عزم خلالها على زيارة «طامبيري»، «هامين لينا» وربما غيرها من المدن والأماكن أيضاً. وأخيراً، وبعد تأجيل موعد رحلتي المرة تلو الأخرى كما يحدث دائماً، ركبت السفينة المعنية مساء يوم 28 تموز/ يوليو وقد كان الشيخ وعائلتي قد جاؤوا لوداعي. وقد ودعني الشيخ على الطريقة الأوروبية إذ صافحني ثم قبلني بشفتيه اللتين تكادان لا ترى من فرط كثافة لحيته. ولكنه قرأ السلام علي باللغة العربية قائلاً: «مع السلامة» ثم كان آخر من تمنى لي حظاً سعيداً في رحلتي على ساحلنا. ولا يفوتني أن أشير إلى أنني نسيت مصحفي الذي كنت أود قراءته خلال السفر، كما نسيت غيره من الأغراض الأخرى على مكتبي في المنزل، بما في ذلك علبة العطوس، وقد شعرت بأن ذاك كان نذير شؤم. وفي البحر تبدد الشعور بالفرح والابتهاج، وحل محله أربعة عشر يوماً من دوار البحر في بحر البلطيق إلا أنني في أغلب الوقت لم أشعر بالملل.

مذكرات 11/ 8/ 1843

يـوم الجمعـة الحـادي عشـر مـن آب/ أغسـطس وصلنـا أخيـراً إلـى «طرافمونـد[1]» وهـي مدينـة هادئـة جميلـة مشـهورة بحماماتهـا، لهـا مناظـر بانوراميـة علـى بحر البلطيـق وكذا علـى شـواطئ «مكلنبورغ» و«هولشـتاين» الجميلـة الخصبـة. أكلت وجبـة فطور غنيـة، رفع رفاق سفري خلالها كؤوس الشامبانيا وشربوا نخبي مرحبين بي لكوني أزور الأراضي الألمانية لأول مرة. وبعد ذلك، ذهبنا نحن السـتة جميعاً، بما فـي ذلك الربان «لانـج»، بالعربة إلى «لوبيك» ووصلنـا في وقت مبكر مـن صبيحة اليوم. بـدا لي غريبـاً أن أرى مناظر ألمانيـا الغنية وحقولها الخصبـة ووجـوه شـعبها المبتهجة الراضيـة، لأنني متعـود على مناظر فنلنـدا الفقيـرة وصخورهـا العاريـة، وعلى وجـوه الفنلنديين العابسـة المتجهمـة. ومـع هـذا، فإنني لم أشـعر من قبل بـأن فنلنـدا عزيزة على قلبي مثلما أشـعر بذلـك الآن. كانت «لوبيك» مثلمـا تصورتها إلى حد مـا، بدا لي جميع الناس متشـابهين وكأنهم مصنوعون من قالب واحد، الرجال مجدُّون ومراعـون للمواعيد وطبيعيون، نزيهون وصدِّيقون[2]، والنسـاء جميلات، وفيهن جميعاً شيء من الملامح اليهودية، ويشبهن إلى حد ما «جوليا شيفر» أو أخواتها حيث تجد كل الدرجات المختلفة مـن الجمال الأنثـوي في الألمانيـات اللاتي رأيتهن حتـى الآن. معظم الألمانيات عاديات الجمال أو قبيحات كما هو الأمر في كل مكان، إلا أنهن إلى حد ما، أصح وأسـمن بدناً من نسـائنا. وهن علاوة على ذلك، مرحات تظهرن تعابير وجه ذات إيحاءات. ولكن أخشـى ما أخشـاه أن تكون حال نزاهة الألمان وصدقهم كحال قوة الشـمال عند السـويدين. لـم أقـم إلا بجولة صغيـرة في «لوبيك» واندهشـت من ضيق الشـوارع

(1) Travemünde.

(2) الكاتب استعمل عبارة ألمانية: treuherzig und bieder.

ومن أسلوب العمارة القوطية القديمة فيها. وفي المساء، ذهبت مع «شتاودينغر» إلى أحد المسارح المتنقلة وقد قضيت وقتاً ممتعاً ليس لجودة العرض نفسه لأنه على العكس تماماً، كان عرضاً سيئاً جداً، بل لأن المتعة نتجت عن الترتيبات. استمتعت كثيراً بالجلوس في الخارج وسط مجموعة كبيرة ندخن السيجار، أو نشرب الجعة، أو نفعل أي شيء يحلو للمرء فعله ومشاهدة العرض في الوقت نفسه. كانت النساء يجلسن ثلاثةً ثلاثةً أو أربعةً أربعةً حول طاولات صغيرة مستطيلة الشكل يحكن الجوارب ويأكلن البوظة أو شيئاً آخر. وخلال هذا الوقت كله، كانت ثمة عروض معينة على المسرح فإما مسرحية، وإما عزف أوركسترا في اللحظات الفاصلة بين العروض. فإذا لم يحلُ للمرء الاستماع إلى الموسيقا، التي كانت جيدة لحد ما رغم أنها لم تكن شيئاً خارقاً للعادة، فيمكنه الذهاب في جولة إلى حديقة صغيرة جميلة جداً على شاطئ «ترافي». بشكل عام، كان الجو سلساً جداً: كان الجميع يفعلون ما يحلو لهم، ويتركون الآخرين يفعلون ما يشاؤون. وهكذا، قضيت ليلة ممتعة حقاً وبسعر قدره روبل واحد فقط.

8/12

وصلنا إلى «هامبورغ» بعربة البريد، وكنا ستة فنلنديين في عربة واحدة. كانت هذه المنطقة كذلك مزدهرة وبهيجة، ومزروعة ومُشَجَّرة بشكل جيد. غاباتها واسعة جميلة وحقولها خصبة خضراء. ترى فيها هنا وهناك جداول ونهيرات تصب في نهر «ترافي» وليس فيها جبال. رغم أنني وقعت أسير جمال هذه المناظر، ورغم أن عيني انشغلتا بما رأتا، ولم تفارقا الحقول التي مررنا بها أول الأمر، إلا أنني شعرت بالملل في نهاية المطاف فرفعت نظاراتي ووضعتهما على جبهتي. ولم أتركهما تقعان على عيني مرة أخرى إلا عندما مررنا بالمزارع الجميلة التي

انتشرت على طول الطريق بأعداد كبيرة، أو عندما كان بصري يقع على عش لقلاق. وتحظى اللقالق في ألمانيا بحب واحترام كبيرين، بل إنها تعتبر بمثابة الروح التي تحمي المنزل، حيث يسمح لها ببناء أعشاشها على السقوف. وقد كنت متعباً جداً عند وصولي إلى «هامبورغ» بعد تلك الرحلة - في عربة البريد - التي وإن لم تدم إلا ست ساعات فقط إلا أنها كانت مرهقة جداً. ذهبت بعدها أتجول في أنحاء المدينة، ولاحظت على الفور أنها مختلفة تماماً عن «لوبيك». فقد كانت بعض الأماكن فخمة وسنية وكأنها سان بيترسبورغ لا ينقصها إلا نهر «النيفا» الرفيع. لكن نهري «ألستر» و«الإيلب» كانا في حالة يرثى لها، بحيث تتدفق فيهما مياه قذرة بنية اللون. ولا سبيل بالطبع لمقارنة القنوات هنا بقنوات سان بترسبورغ. أما شارع «يونغفيرنشتيد» الذي يكثر مدحه فلم أجد فيه ما هو خارق الجمال ولو أن البيوت على جنبيه جميلة وأنيقة. ولكن ما يميز «هامبورغ»، وربما جميع المدن الألمانية أكثر من أي مكان آخر هو الشوارع الجميلة المخصصة للمشاة والحقول الخضراء المنتشرة في كل مكان. والمحلات التجارية في «يونغفيرنشتيد» بديعة ولكنها قليلة. وكان أول من اشتريت منه شيئاً هو بائع الكتب القديمة الذي طلب ماركين وثمانية بنسات كثمن لترجمة «رايسكي» لكتاب «أبي الفداء» ولكنه وافق على الفور على تخفيض الثمن إلى مارك واحد واثني عشر بنساً. يبدو أنه من الممكن جداً أن يقع المرء ضحية غش الألمان أيضاً تماماً كما هو الحال مع الروس. تجولت في المكان اليوم كله طولاً وعرضاً في ناحية «يونغفيرنشتيد» بشكل خاص ثم ناحية الجدار، ورأيت الكثير من الناس - رجال ونساء - وكانوا في نظري متشابهين جداً وكانوا recht knotig[1] كما يقول الألمان. كما التقيت هنا باثنين من الأرمن وتحدثت معهما بالفارسية، ولاحظت

(1) أجلاف.

أنهما كانا أكثر إثارة للاهتمام من كل من رأيت هنا.

8/14

جاء «إينغمان» لزيارتي في وقت مبكر من الصباح فشربنا القهوة معاً ثم ذهبنا عند «باسيوس»، ثم ذهبنا معه إلى مكتبات الكتب القديمة التي غالباً ما يجد المرء فيها كتباً ممتازة. وقد وجدت الآن كذلك الترجمة الألمانية لكتاب «تاريخ الهون[1]» لصاحبه «دي جينياس». وفي فترة ما بعد الظهر، ذهبت مع «إينغمان» إلى «همبرغر بيرغ» حيث تصل تكلفة أفضل المقاعد في مسرح الشعب إلى أربعة شيلنات. وتفرجنا هناك على مسرحية «السيدة البيضاء» التي تخللتها بعض الإضافات المتمثلة في عروض غنائية رافقتها أوركسترا القيثارات والنايات. وكانت عازفة القيثارة تمضغ قطعة خبز أثناء عزفها وكان حولها قطيع من الأطفال الصغار. كان صوت الناي فظيعاً للغاية. ومع ذلك، لم يكن كل شيء رديئاً ولا مهترئاً إلا الحد الذي تصورته فيه. بعد ذلك، ذهبنا لمشاهدة مسرحية «بولوتشينيلي كاستن[2]» التي كانت مسلية جداً حتى إنني في كثير من الأحيان كنت أكاد أنفجر من الضحك. ثم التقينا مع «شتاودينغر» بعد ذلك وذهبنا نحن الثلاثة إلى مسرح «أوفن» وشاهدنا مسرحية مملة للغاية. بعد ذلك ذهبنا إلى المنزل مروراً بطرق ملتوية لأننا لم نكن على عجلةٍ من أمرنا.

8/19

(1) Histoire des Huns.

(2) مسرحية ساخرة.

ركبت باخرة اسمها «هافر» على الساعة الخامسة. كان «شتاودينغر» يرافقنا إلى الميناء، يبدو أنه سيكون آخر فنلندي أراه مدة طويلة. كانت الدموع قريبة جداً من الجفون عندما توادعنا. ما إن صعدت إلى السفينة حتى اخترت لنفسي سريراً وضعت عليه كل أغراضي، وألقيت نظرة على محيطي. كانت السفينة في نظري عادية جداً، وكانت مقصورة الدرجة الثانية - التي أخطأت باختيارها - وسخة ومهترئة. أحسست على الفور بندم شديد لأنني بخلت بخمسة وعشرين فرنكاً (فرق الدرجة الثانية عن الأولى) عندما لاحظت أنني لا أستطيع التجول في جميع الأرجاء كما أحب، ولا الذهاب إلى مؤخرة السفينة. تحركت السفينة في الساعة السادسة ولم تصل إلى نهر «الإيلب» إلا بمشقة الأنفس، وذلك لأن الوقت صادف وقت المد بالضبط فارتفعت المياه أمامنا مباشرة بشكل مائل. شواطئ «الإيلب» جميلة: على الضفة اليمنى ربوة رملية زرعت عليها أشجار، أما الضفة اليسرى فهي سهل منخفض لكنها خضراء وخصبة. و«بلانكنيس» هي قرية جميلة جمالاً غير عادي، وكذلك كانت الأماكن الأخرى العديدة التي مررنا بها. ولكن، ولأنني لم أتمكن من النوم في الليلة السابقة، زيادة على أنني كنت سيء المزاج للغاية (لسببين أولهما أنني أدركت أنني الآن وحيد تماماً، وثانيهما أنني اشتريت تذكرة الدرجة الثانية في الباخرة، وضمنت بذلك لنفسي برفقة سيئة كما يبدو) ذهبت بعد ذلك بقليل للنوم، ولم أستيقظ إلا عندما أصبحنا في عرض البحر في منطقة «هيلجولاند» تقريباً.

وهكذا استمرت الرحلة دون انقطاع ليلاً ونهاراً ضد اتجاه الريح في معظمها إلى أن صاحبتنا ذات يوم رياح شمالية ممتازة. وقد كان جميع البحارة الفرنسيين مهذبين وودودين، ويبدو أنني حظيت عندهم بمكانة جيدة عندما شرعت أوزع عليهم عن طيب خاطر سيجاراتي التي كنت

قد اشتريت من هامبورغ كمية أكبر منها مما يسمح بإدخاله إلى «هافر». وقد روح عني بصفة خاصة ولد صغير لا يتعدى عمره الثلاثة عشر ربيعاً، إذ كان مرحاً ومضحكاً، ويتنقل من مكان إلى آخر ويحبك حيله للجميع وبشكل خاص لبحار عجوز كان قد أسرَّ لي ذات ليلة مشتكياً بأنه قضى عشرين عاماً من عمره في عرض البحر دون أن يتمكن من توفير أي شيء، وبأن القدر طالما حال بينه وبين السعادة. كما أضاف بأن حظه التعيس في نهاية المطاف ابتلاه بفكرة الزواج منذ ثلاثة أشهر، إلا أنه الآن صفر اليدين لا يملك ما يُعيل به زوجته. كان البحار الصغير يقف طول الوقت على مقربة من العجوز، ويومئ له بإيماءات مختلفة كأن يضع أصابعه على جبهته ويصنع منهما ما يشبه قرون الحيوان، وهي إشارة مُشينة عند الفرنسيين. أخبرني البحار العجوز بعد ذلك بأنه قد تزوج إحدى بنات الليل.

ثمة أمر يحب جميع البحارة جداً أن يتحدثوا عنه وهو معبودهم «نابليون» والعبقرية الفرنسية، وكيف أن الفرنسيين هم من اخترع كل شيء في الحقيقة، ثم نفذ الإنجليز في وقت لاحق اختراعاتهم تلك. لقد تم اختراع كل شيء في فرنسا وقبل أن تخطر تلك الأفكار على أي دولة أخرى. فكل الأفكار مستمدة أصلاً من الفرنسيين، ولو أن هؤلاء لم يكلفوا أنفسهم عناء تنفيذ أفكارهم. ومن ثَمَّ فإن في فرنسا أفضل ما يوجد على وجه الأرض. وهذا ما كانت عليه باخراتهم ومحركاتهم كذلك. وحتى في هذه الباخرة التي أركبها الآن - «الهافر» - كانت الآلات مصنوعة بشكل جيد، وبدا أنها تعمل بطريقة جيدة جداً. وعندما سألت في أي مدينة فرنسية بنيت هذه السفينة؟ جاء الجواب الاضطراري: «في ليفربول». كان جميع البحارة مهذبين وودودين للغاية عموماً، كما كانوا دائماً على استعداد للدردشة، أشخاص محترمون للغاية ولكنهم ببساطة مرحون ومبتهجون على الطريقة

الفرنسية، ورغم أنهم لا يعرضون خدماتهم على الركاب أبداً، إلا أنهم لا يحاولون أيضاً التقرب من أي شخص تقرباً كبيراً. وهم من حيث المظهر لا يبدون كسُّكان الجنوب على الإطلاق بل على العكس، فإن ملامحهم في نظري شبيهة جداً بملامح سكان أوروبا الشمالية. معظمهم تقريباً من نورماندي. وصلنا ظهر يوم الإثنين إلى «كاليه»، وقفتُ على سطح السفينة في وقت متأخر من الليل أشاهد على الجانب الأيمن بريطانيا العظمى التي تبدو كمرتفع عال من بعيد، وعلى مضيق دوفر بدت منارتان ذواتا ضوء ثابت تقفان قبالة منارتين أخريين على الساحل الفرنسي. كانت منارتا «كاليه» بضوئهما الوَمَّاض ومنارتا «بولوني» بضوئهما الثابت (على ما أذكر) من جهة، وكانت السماء وضاءة ومليئة بالنجوم من جهة أخرى، هذا بالإضافة إلى الجزء السفلي من قوس السفينة ذي اللون الفضي المتألق، الذي كانت تتطاير منه حبات ضوء ماسية ومَّاضة في الهواء - كان المنظر جميلاً وجذاباً جداً لدرجة أنني كنت أود أن أرتمي في أحضان البحر كما يرتمي الطفل في أحضان أمه. ولكن، على الجانب الأيسر أيضاً تألقت نجمة الجنوب بلطف حزين جداً، ولكن بوضوح تام بالمقارنة مع نجمة الشمال التي كانت تلمع باهتة في الجهة المقابلة. شعرت بأن الشمال والجنوب يتجاذبانني عندما نزلت إلى مَقصورتي لأنام.

8/22

بعد الظهر، كنا على مشارف «الهافر» في وقت مبكر، إلا أننا لم نتمكن من دخول الميناء لأننا وصلنا وقت الْجَزْر فلم يكن في النهر ماء على الإطلاق. لذلك، كان علينا أن نقوم بجولات إلى أن عاد الماء إلى النهر حوالي الساعة السادسة والنصف فتمكننا من دخول الميناء الذي كان يعج بشتى أنواع السفن. دخلنا الميناء في طقس سيء للغاية وسط

الأمطار الغزيرة، ثم ذهبنا إلى مبيتنا «فندق دي لا نوستغي». وبما أن الطقس بقي سيئاً، فإننا لم نتمكن من الخروج مطلقاً. كان رفيق غرفتي هو أحد رفاق سفري وهو على ما أعتقد صانع قفازات من «فيينا»، وهو شاب بشوش يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً.

8/23

أصبح الطقس جميلاً إلى حد ما، لذلك ذهبنا على الفور لإحضار جوازات سفرنا، ولأخذ أغراضنا من الجمارك. وقد كان مفتشو الجمارك قاسين جداً، لكنهم في الحقيقة عاملوني أنا بلطف شديد، وكانوا طول الوقت مهذبين وودودين تجاهي بالقدر الذي تسمح به الودية الفرنسية. عندما جمعنا كل أغراضنا، لم نحصل إلا على حمولة صغيرة فقط في عربة اليد العادية الصغيرة، وبعد أن نقلها أحد الحمالين إلى الفندق الذي يقع على مرمى حجر من الجمارك، خرجنا لمشاهدة ميناء المدينة الرائع والسفن الفذة القادمة من شتى أنحاء العالم التي كانت تستعد لمغادرة الميناء إلى وجهات مختلفة. ثم قمنا بعد ذلك بجولة صغيرة في هذه المدينة الجذابة والجميلة جداً. الشوارع مستقيمة بشكل عام، واسعة نسبياً ومعظمها مُعبَّدة بشكل جيد. المنازل جميلة، ولا تطل على الشارع كمنازل المدن القديمة الألمانية، بل إن واجهة المنازل الخارجية هنا مجصصة وأنيقة دائماً. ولكن في بعض الأماكن، كانت الأروقة والممرات الفاصلة بين المنازل ضيقة مثلما هو الحال في «هامبورغ»، ولو أنها هنا أكثر نظافة ونظاماً نظراً لكون الشوارع أوسع والتصميم أفضل.

ذهبنا للسباحة في المحيط، كان المحيط الأطلسي بأسره أمامنا، ثم أخذَتْ موجاته القوية ترتفع باتجاه الشاطئ. كانت المياه مالحة ملوحة شديدة، بحيث بقي طعمها القوي في فمي لوقت طويل بعد ذلك. أعطتنا

السباحة شعوراً مقوياً للغاية. وكان أكثر شيء أمتعني في الأمر هو أن النساء والرجال كانو يسبحون معاً دون أي حاجز يمنع الرؤية: كان ثمة حشد من الرجال في الوسط، وعلى الجانبين جماعة من النساء. لكن النساء كن يرتدين لباس سباحة محتشم حيث لم يظهر من جمالهن إلا الوجه والساقين والذراعين. معظم النساء كن يرتدين لباس سباحة أسود اللون، ولكن بعضهن كن يرتدين ما يشبه اللباس التركي، وهو زي مزركش ساحر. وكان الرجال كذلك يرتدون لباس سباحة صغير، وثوباً يغطي وسطهم. كان المسبح جميلاً، وكان على سطحه ممر يطل على البحر وعلى جزء من المدينة. وكانت الحديقة التي شكلتها الساحات المحيطة بالمسبح من كل جانب صغيرة ومجهزة تجهيزاً حديثاً بكل أنواع الآلات الرياضية. لا يمكنني أن أقول بأن ثمة مكاناً آخر أمتعني أكثر من «الهافر». قلت في نفسي لو كان لي يوماً ما من الوقت والمال ما يكفي، لقضيت الصيف هنا سابحاً، ولكنني عندها أريد أن أسكن فوق التلة مع زوجتي، أو أختي، أو...

يبدو الناس هنا سعداء ومحترمين، النساء جميلات وأنيقات. يا للفرق الشاسع بينهن وبين الألمانيات الخشنات! حتى منظفة غرفتنا العجوز التي قد تكون في الأربعين من عمرها، والتي جاءت في الليلة الأولى لترتب أسرتنا فكلمتنا بلغتها الفرنسية بطريقة كادت تسلب بها قلبي تماماً؛ إذ لا يوجد في بلادنا ما يشبهها حتى في أحسن المجتمعات. في هامبورغ، كانت منظفة غرفتي فتاة شابة قد تكون في الثامنة عشر من عمرها، وكانت غاية في الجمال. ولكنها كانت خرقاء ووسخة لدرجة أنني كنت أوجه نظري إلى مكان آخر عند رؤيتها. كل النساء اللاتي رأيتهن في الشوارع هنا يتميزن بهذه الأناقة والرشاقة نفسها، وبالحسن المغري نفسه، رغم أنهن لسن جميلات بالضرورة ولا يرتدين ملابس فاخرة. بل على العكس تماماً، فهن يرتدين ملابس

متواضعة وعادية، ويضربن في الأرض في الشوارع المبللة بالمطر فيرفعن تنانيرهن إلى الركبتين بلا حرج. وهن يعملن بائعات في المحلات التجارية الفخمة الملونة التي تفوق محلات سان بترسبورغ جمالاً. المحلات هنا غالباً مغرية جداً لدرجة أنني لا أجرؤ على الذهاب للتسوق فيها، لأنني بالتأكيد لن أستطيع رفض شراء أي شيء قد تعرضه علي البائعة.

8/24

في وقت مبكر من صباح اليوم، في الساعة السادسة، ركبنا باخرة البريد «لاسين». رغم أن المطر كان قد توقف، إلا أن الطقس كان ضبابياً والرياح كانت قوية. كان عدد المسافرين كبيراً لا يقل عن مئة شخص. وكانت القناة عند خروجنا هادئة، وكانت على وجوه الجميع سمات النشاط فأخذ كلٌّ يجهز كرسيه في مكانه ثم يجلس عليه. ولكن، ما إن خرجنا من الميناء حتى ضربت موجة كبيرة جانب سفينتنا بقوة! سقطت كل الكراسي بمن عليها. وهكذا ارتفع صوت الأطفال بالبكاء، وارتسمت على وجوه النساء تعابير الهلع. ولكن القبطان المتجهم صاح في الجميع موزعاً أوامره، وتمكنا أخيراً من الدخول شيئاً فشيئاً إلى مصب نهر السين الجميل الذي لا يبعد عن «الهافر» إلا بما يقرب من نصف ساعة أو ساعة كاملة. كان البحر هائجاً جداً خلال هذه الرحلة فأصيب الكثيرون، رجالاً ونساء، بدوار البحر فأخذوا يتقيؤون بكل ما أوتوا من قوة في البحر وعلى ظهر السفينة. وكانوا يستلقون على قيئهم وقيء غيرهم شاحبين وغير مبالين بآداب السلوك. كان المنظر سخيفاً خاصة عندما ارتطمت الموجة الأولى بالسفينة فسقط الجميع فجأة. سرعان ما وصلنا إلى نهر «السنين» الذي لم تكن أمواجه بعلو أمواج البحر، فحاول الجميع استعادة حيويتهم وشرب كوب من

الماء والسكر للتخلص من طعم المرارة في أفواههم، ثم وقفوا بنظام ينظرون إلى اليابسة؛ إلى مناظر ساحل نورماندي الممتد على طول جنبات النهر. الفرق الوحيد هو أن الأراضي هنا مزروعة بكثافة أكبر، والهضاب الرملية مغطاة بالشجيرات وبالغابات.

وصلنا في منتصف النهار إلى «روين»، فذهبنا على الفور لترتيب أمور أغراضنا حتى يتم تسليمها عن طريق السكة الحديدية، ثم ذهبنا بعد ذلك لرؤية الكاتدرائية الكبيرة التي لم يسعفنا الوقت لرؤيتها من الداخل فاكتفينا بمشاهدتها من الخارج فقط الآن. ويقال إنها أكثر الكاتدرائيات شهرة في فرنسا، وأول ما يشد انتباه الأمر في هذه الكاتدرائية هو برجها المرتفع المصنوع من معدن مثقب بشكل متقن؛ وكذلك النقوش المماثلة التي على جميع الجدران الخارجية. كل شيء رقيق للغاية وناعم للغاية لدرجة أن المرء قد يعتقد أن النسيم وحده قادر على كسر البرج. هذا المكان مختلف جداً عن كنائس هامبورغ ولوبيك حيث كل شيء بدا لي ثقيلاً وغريباً زيادة عن اللزوم.

انطلق بنا القطار عند الساعة الثالثة. يبدو أن محطة السكك الحديدية نفسها في «روين» لا تزال مجرد محطة مؤقتة ولكن، عدا ذلك، كل شيء بدا جميلاً وفي حالة جيدة. أكثر ما أثار تعجبي خلال الرحلة هو السرعة الكبيرة التي كان القطار يخترق بها الأنفاق المحفورة داخل الأكوام الرملية الكبيرة. وقد استغرق مرور القطار داخل أطول تلك الأنفاق المعتمة سبع دقائق ونصف دقيقة من الظلمة حالكة السواد، مرت بنا خلالها عربة بخارية أخرى بسرعة رهيبة مصدرةً هديراً، كما أن محركها أضاء طريقنا الضيق والمظلم بألسنة اللهب المنبعثة منه. لقد كان ذلك مخيفاً حقاً بحيث تبادرت إلى ذهني على الفور قصة ألف ليلة وليلة، والسندباد عندما نزل في سرداب تحت الأرض وبقي تحت رحمة النهر هناك.

وصلنا إلى باريس في نحو الساعة التاسعة. وفور نزولنا من العربات، تم تجميع كل أمتعتنا في غرفة كبيرة وتم تنظيمها حسب مكان جلوس أصحابها. استطعنا لحسن الحظ استلام حقائبنا بسرعة وبدون تأخير رغم أن الزحام والتدافع والضوضاء كان شيئاً فظيعاً للغاية. ولكن، ما إن استلمت حقيبتي الصغيرة وأمسكت بيدي كيسي، حتى جاء رجل وانتزع مني حقيبة سفري بقوة ثم فعل الشيء ذاته مع رفاقي أيضاً، ثم دعانا إلى تحميل أمتعتنا على ظهره. وعندما سألته ما علاقته بنا وبأمتعتنا، بدأ يتذمر ويشتكي من لقائه مع أشخاص لا يفهمون أي شيء. وهكذا، ودون أي شروحات، أخذ معه أمتعتنا بعد أن سقطت على الأرض عدة مرات وهو يحاول تحميلها على ظهره. وفي إحدى تلك المرات، عاجل أحد موظفي الجمارك الذي كان واقفاً بجوارنا أمتعتنا بركلة قوية. كنت أتابع الموقف من الخلف، وعندما وصلنا في آخر المطاف، سألت الرجل - وأنا لا أزال أتميز من الغيض - من يكون وما الذي ينوي أن يفعله بالضبط، إلا أن سؤالي لم يُجْدِ في شيء، حيث لم يكن من الرجل إلا أن ضحك وتذمر مرة أخرى من عدم فهمي للموقف. وهكذا أخذ أمتعنا ووضعها في عربة ثم طلب منا ركوب تلك العربة نفسها. وبعد ركوبنا، طلب منا أن نتكرم وندفع فرنكاً واحداً، وهذا ما فعلناه بالفعل. ثم كان علينا أن ندفع لرجل آخر دانقاً أو دانقين. وبعد ذلك، سُئلنا عن وجهتنا. وما إن ذكرت اسم «فندق دي لوكسمبورغ» الذي كان «إنغمان» قد نصحني بالإقامة فيه حتى جاء الأمر سريعاً: «تحرك!». وهكذا سرنا في شوارع باريس، واستغرقت الرحلة إلى هناك نصف ساعة تقريباً. خلال هذه الرحلة، مررنا عبر صفوف من المحلات الرائعة، وقد كان لكل ما شاهدناه تأثير كبير في نفوسنا.

مباشـرة بعـد أن شـربنـا القهوة، خرجنا نتجول في نحو الساعة الثامنة، تمشـينا على طول شارع «دي لا هارب» حيث الفندق الذي نسكن فيه، ثم عبرنا جسـر «مايكل»، إلى وسط المدينة، ومن ثمة تنزهنا على طول الشـارع السـاحلي إلـى كنيسـة «نوتـردام»، وتفرجنا عليها مـن الداخل والخــارج. وبعـد ذلك، صعدنـا إلــى البـرج وألقينـا منه نظرة شـاملة علـى منازل باريـس ومعالمها الأثرية التـي لا نهاية لها، والتي بدت في البداية مجرد خليط من أشياء كثيرة. وبعد ذلك، تجولنا في عدة شرفات وأماكـن آلات الأرغن وعـدة زوايا صغيرة أخـرى. كان الأمر ينتهي بنا منهـا إلـى أبواب مغلقة كنـت أتخيل أنها تؤدي إلـى أروقة متعرجة. من المؤكد أننا كنا سـنكون سـعداء جداً لو أننا اسـتطعنا التجوال هنا لمدة أسبوع كامل حتى نكشف أسرار كل متاهات وسراديب «كازيمودو[1]». ولكننـي الآن هنـا مجـرد متفـرج وحسـب، وليس لدي مـن الوقت إلا سـاعات قليلـة. كانت عينـاي تبحث عــن «كازيمودو» فـي كل أرجاء المـكان، ولكنهمــا لـم تريـا إلا فرنسـيين غايـة فـي التهذيـب واللياقة سـمحوا لنا بدخول البـرج مقابل بقشـيش قليل. لاحظت أن ثمة رساماً كان يتجـول خـلال القداس ينســخ الصــور البـارزة التـي كانت تملأ الجدران.

وبعـد ذلـك قمنا بجولة في قصـر «التويلري» وفـي حديقته، ومررنا بسـاحة الكونكورد التي نصب فيها تمثال لمسـلة مصرية كبيرة ورائعة، وارتعـدت عندمـا تذكـرت أن هـذا المـكان شـهد ضـرب عنـق لويس السادس عشر وزوجته.

تجولنـا قليـلاً بعد ذلك ثـم ذهبنا إلى الكنيسـة المجدليـة الجديدة، وهـي أروع وأفخـم مـا رأيته فـي حياتي، ولكـن طرازها طـراز جديد،

---

(1) أحد شخصيات رواية «نوتردام» للكاتب الفرنسي فيكتور هوكو.

وبهـا ثلاث قباب مُذَهَّبةٌ بالكامل تقريباً، وهي مصدر الضوء الوحيد في الكنيسـة. بالإضافة إلى هذا، فإن على الجدران والأعمدة كم هائل من اللوحـات والمنحوتات، وكلها بطراز جديد على ما لاحظت. وإذا كان الهـدف من بنـاء الكنائس في أيامنا أن تكون على قـدر مُبْهِرٍ من الترف، فمن المؤكد أن هذه الكنيسـة سوف تبقى فريدة من نوعها. ثم ذهبنا بعد ذلك عبر سـاحة «فندوم»، وصعدنا إلى عمود نابليون الهائل وله شـرفة تطل تقريباً على المنظر نفسه الذي يطل عليه برج نوتردام. كان الوقوف هناك على ذلك القدر من العلو، وصعود الدرج الضيق ونزوله يجعلني أحس بقشـعريرة. بعد ذلك، ذهبنا إلى كنيسة «سانت روش»، وكان في آخرها بجانب المذبح تمثال بين قشـرتين يظهر المسيح على الصليب، وبجواره تمثال لمريم المجدلية في حالة ركوع، وهو ما كان له من بعيد تأثيـر رائـع للغاية. بجانب هـذا المنظر، كانت ثمة صورة بـارزة لعملية دفن المسـيح، وقد بدت الصورة طبيعية جداً. كما كانت على الجدران مجموعـة من الصـور التي تصوِّر تاريخ معاناة السـيد المسـيح في اثني عشـر مشـهداً مختلفاً على ما أعتقد. كما زرنا كنيسـة أخرى هي كنيسـة «سـان جيرمان لوكزيـروا» التي لـم تكـن مكاناً اسـتثنائياً، ولكنني كنت مرهقاً جداً من كثرة الأماكن التي تجولت فيها.

بعد أن تناولنا العشاء في الفندق على الساعة الخامسة مساء، ذهبت بمفردي في نزهة في حديقة التويلري وفي الشانزليزيه حيث كان الكثير مـن النـاس، والموسـيقا وغيرها من وسـائل الترفيه. اسـتمعت هنا إلى معزوفة عسـكرية بسبعة أبواق مختلفة، وبآلتي كلارينت اثنتين، ومزمار واحـد، وقـد كانت معزوفـة جيدة جداً علـى الرغم من أننـي أعتقد بأن عازفـي البـوق لم يكونـوا أفضل من عازفـي البوق في فنلنـدا، ولا كان الصـوت الصادر من آلاتهم الموسـيقية ذلك الصوت الجميل الذي في فنلندا. هنا وعلى طول الطريق إلى الفندق، لم أر أي بنت من بنات الليل

ولا أي شــيء مخل بالآداب. كان كل شــيء هنا لائقاً على الرغم من أن الحشد كان كبيراً.

8/26

ذهبـت إلى متحـف اللوفر، ورأيت مجموعة التماثيـل الكبيرة التي فيه، وقـد أخـذ منـي الجانب المصـري فيه - بطبيعـة الحـال - معظم وقتي واهتمامي، ولو أنني كنت أتصور بأن المجموعة المصرية ستكون أكبر، وستكون فـي قاعة المعـرض الكبيـرة الرائعة حيث لوحات المدرسـة الفنية الإيطالية التي اسـتثارت باهتمامي أكثر من غيرها. ولكن ما الذي يمكـن أن يقولـه المرء عن هـذه الكنوز الفنيـة الغنية الكبـرى في جولة مدتها أربع ساعات؟ في مثل هذه الجولة لا ينال المرء إلا دوار الرأس، فـلا يعرف في الأخير ما الذي رآه وما الـذي لم يره. أتمنى أن يكون لي يومـاً ما مزيد من الوقت وهدوء البال للقيام بهذه الجولة مرة ثانية. وفي المسـاء، تجولنا في الشارع الرئيسـي في منطقة القصر الملكي، وكانت ثمـة حشـود كبيرة من الناس في كل مـكان، وكان الجميع في كل مكان محترميـن ومهذبيـن. أما بنات الليـل اللاتي كن يتحركـن بأعداد كبيرة بالطبـع، فكن مهذبات للغاية بالمقارنة مع من رأيتهن في أماكن أخرى. فلـم أرهـن هنـا يضايقـن الرجـال علـى الأقل، بل كـن يكتفيـن ببعض التلميحـات والنظـرات الموحية فقـط. وكان على الأبـواب الخارجية رجال مسـنون يقفون ويطلبون من المارة الدخـول إلى الداخل، ولكن كل شـيء كان يتم بشـكل لائق: وليس كما في هامبورغ، حيث كان كل شيء يتم بشكل وقح وقذر للغاية.

فـي فترة مـا بعد الظهـر، ذهبت مع اثنين مـن معارفي (أحدهما رسـام، والآخـر صيدلاني أو شـيء مـن هذا القبيـل من ميونيخ، وهو شـخص لطيـف جـداً) إلى «بارييز دو مون بارناس»، وهي تشـبه «همبرغر بيرغ» تقريبـاً، وكانت حشـود الناس فيهـا لا تعد ولا تحصـى، ومعظمهم من العمال. كانوا مجتمعين في الحدائق العامة والمسارح، ومختلف أنواع أماكـن الترفيـه. ويبـدو أن الرقص بشـكل خـاص هو أكبـر مصدر فرح لهـؤلاء النـاس. كان ثمـة عدد لا حصر لـه من الصالونات والسـاحات والحدائـق التـي تجمعـت فيهـا جموع غفيـرة ممـن جـاؤوا ليرقصوا. ورغـم كثـرة النـاس، إلا أن رفيقي قال إن عدد النـاس قليل اليوم وعلى نحـو غير عـادي. لا يمكن مقارنة تلـك الفرحة المرسـومة على وجوه الجميـع هنا بأي شـيء. الناس هنا يرقصون من صميـم قلوبهم، وليس ببـطء واسـترخاء كمـا نفعل نحـن عندنا؛ النـاس هنا يرقصـون بحيوية ورشاقة باستعمال القدمين واليدين والأطراف كافة. لا أعتقد أن الناس هنا يرقصـون على أنغام أي موسـيقا أخرى غير موسـيقا «الكان-كان» التي يحبها الفرنسيون جداً، والتي تشبه رقصة الكدريل[1] الفرنسية التي نرقصهـا فـي فنلندا، لكنها هنـا جريئة جداً: الرجل هنا لا يمسـك بيدي المرأة فحسب وهما يرقصان مثلما نفعل نحن، بل يحضن المرأة بقوة. كما أن الناس هنا يقومون بحركات موحية مختلفة بأياديهم وهم يلفون ويخطون بأقدامهم خطوات جنونية. لكن الرقص هنا لا يعدو أن يكون فرحاً محضاً ومرَحاً محضاً.

بعد ذلك زرنا الملحق الصيفي لقصر برادو الشـهير ودفعنا خمسين سـنتيماً كرسـم للدخـول. اضطررت للأسـف أن أتخلى عن قلنسـوتي وأمشـي عـاري الـرأس، ذلك أنه يمكـن للرجل هنا أن يرتـدي قبعة في

(1) رقصة قديمة يرقصها أربعة أزواج.

كل مكان، سواء في الداخل أو الخارج، ولكن لا يمكن له ارتداء قلنسوة في الداخل. ومع ذلك لم أبال بل دخلت إلى الداخل بجرأة. هذا المكان يرتاده طلاب الجامعة كثيراً مع خليلاتهم. فلكل واحد من طلاب الجامعة هنا «خليلة»[1] تقاسمه حياته وكأنها زوجته تماماً. وتقوم هذه المرأة بالاهتمام بشؤون المنزل، من طهي وطبخ وغسيل ملابس وما إلى ذلك من ضروريات الحياة الأخرى. ويشار إلى هذه الخليلات بالسيدة فلان لا بالآنسة فلان، فترى الرجل منهم يسحب خليلته هذه حيثما تنقل وهي تضع ذراعها في ذراعه، يأخذها أيام الأحد والإثنين والخميس للرقص. وعلى الرغم من أن الجامعة الآن في عطلة، إلا أن الكثيرين من «الأزواج» كانوا قد جاؤوا لقضاء وقت مرح. لم يسبق لي حتى الآن أن رأيت رقصاً بهذا القدر من المرح والسعادة، كالتي رأيتها في رقص الطلاب مع خليلاتهم على أنغام موسيقاهم المفضلة، موسيقا «الكان-كان». كان الشباب يحضن بعضهم بعضاً، ويقبل بعضهم بعضاً، يصفقون ويقومون بحركات موحية، ولكن كل هذا بقي في إطار اللياقة. لا أعتقد أن مثل هذا النوع من التصرف كان سيكون ممكناً في بلدان أخرى. كما أن من بين خليلات الطلبة هنا نساء من أجمل النساء التي رأيتهن في باريس حتى الآن. ورغم أنهن لم يكن يرتدين مشدات[2]، إلا أنهن بخاصراتهن الجميلة ينافسن بل ويتفوقن على الجميلات من صاحبات المشدات. وقد كان كل شيء هنا يمر في هدوء وسلام، دون صراخ ولا جعجعة. وأكثر ما أدهشني في هذا المكان وفي غيره من الأماكن العامة كونها هادئة جداً، فالناس

(1) grisette اسم أطلق في أواخر القرن السابع عشر على نساء تنتمي إلى الطبقة العاملة كن تعملن عمل الخادمات والخليلات في نفس الوقت.

(2) كورسيه: مشد مكمل للزي النسائي انتشر في أوروبا في القرن الخامس عشر وكان يلبس أعلى التنورة النسائية.

يتحدثون قليلاً جداً، أو أنهم يتحدثون بهدوء على الأقل، فبالكاد تسمع لهم صوتاً حتى عندما تكون المجموعات كبيرة. لم يكن ثمة قهقهة، ولا مرح مبالغ فيه، ولا جنون بل كان كل شيء تقريباً طبيعياً ومحدوداً بحدود اللياقة زيادة عن اللزوم في رأيي. كنت أود أن أشاهد شيئاً غريباً مختلفاً يشذ عن قوانين الحشمة واللياقة قليلاً. ولكن منظر الناس وهم فرحون فرحاً عارماً كان منظراً جميلاً. تعجبت من أنه هنا، في عاصمة الخليلات والمومسات وبنات الليل، الجميع يبدو بمظهر محترم جداً: لا داعي للخوف من هجوم مثل هذه النساء في الشارع، كما هو الأمر في هامبورغ وسان بترسبورغ.

8/28

ذهبت في الصباح لأتمشى وأبحث عن بعض الكتب التي أحتاج إليها، وقد عثرت على مخطوطة «كلستان»[1] ودفعت فيها ثمانية فرنكات.

يوميات 8/30 ورسالة أرسلت في 10/21 من مرسيليا إلى جبريل غيتلين

كنت عند السيد «كاترمير[2]» وهو شيخ ودود يشبه كثيراً السيد «فران». وقد استقبلني بتكريم كبير وبترحيب حار في الوقت نفسه، كما أظهر اهتماماً كبيراً برحلتي، وتحدث معي بشأنها. لم أحصل منه على أي مشورة فعلية أو توجيه عام بشأن الرحلة، ولكنني لم أكن أتوقع منذ البداية حصولي على شيء من هذا القبيل. أخبرته بأنني أود السفر إلى بلاد الوهابيين بالدرجة الأولى، وبأنني جئت الآن لزيارته قصد إبداء احترامي له كأكبر باحث للبلدان الشرقية في أوروبا، وكذلك طلباً للمشورة حول أفضل الطرق التي يجب علي أن أسلكها في رحلتي،

(1) كتاب الشاعر الفارسي سعدي الشيرازي «البستان».

(2) اتين مارك كاترمير، مستشرق وباحث لغوي فرنسي

وعن الأمور التي ينبغي لي أولاً وقبل كل شيء الانتباه إليها. سألني بعد ذلك أسئلة كثيرة من قبيل هل كنت مسافراً على حسابي الخاص أم على حساب الدولة؟ وعن مدة الرحلة التي أنوي القيام بها، وأين درست، وما إلى ذلك. وقد نصحني بأن أتأهَّب وأتجهز بعناية لهذه الرحلة في مصر، وألا أترك القيام بالأبحاث التحضيرية إلى وقت متأخر. كما نصحني كذلك بأن أقضي في الصحراء أطول وقت ممكن. سرني وأسعدني كثيراً أنه حثني على الانعكاف على نفس الأمور التي كنت قد قررت الانعكاف عليها، أي تلك اللهجات المعينة التي يتكلمها سكان المنطقة التي أقصدها وخاصة لهجة الحِمْيَرِيِّين. كما حثني على البحث عن المعالم التاريخية وعن نقوشات الفترات المختلفة التي يمكن العثور عليها. وقد تحدَّثَ عن هذه الأشياء لوقت طويل وبأسلوب مثير للاهتمام، ثم سأل في الأخير عن المدة التي أنوي قضاءها في باريس. وبعد أن أخبرته بأنني قررت أن أبقى هنا بضعة أيام أخرى ثم أرحل، قال بأنني خصصت لباريس وقتاً قصيراً، وأخبرني بأن الكنوز التي قد أجدها هنا تستحق البقاء هنا وقتاً أطول. لم أرد على اقتراحه هذا بأي شيء تقريباً، ولكن زيارتي الأولى هذه للسيد «كاترمير» كانت جد مثيرة للاهتمام. وبعد أن انصرفت من بيته، ظلت كلماته تختمر في رأسي وفي النهاية، قررت قضاء بضعة أسابيع أخرى هنا، والاطلاع قليلاً على المكتبة الغنية التي تحتوي على عدد لا حصر له من مراجع الأبحاث الشرقية أو بالأحرى التعرف على علم المخطوطات وعلى احتياطي المخطوطات بها، وخاصة أن مجلس الشيوخ في الجامعة الفنلندية قد أوكل لي شرف تزويد المكتبة بمثل هذه المراجع والمخطوطات. ورغم أن القيام بزيارات من قبيل المجاملة فقط أمر محرج ومخجل بالنسبة لي، إلا أن زيارة السيد «كاترمير» هذه كانت من السلاسة والسهولة بمكان. أعتقد أن ذلك راجع إلى لياقة الفرنسيين وأدبهم الذي تلاحظه

هنا في الجميع؛ في أبناء الطبقات العليا والدنيا على السواء.

ذهبت بعد بضعة أيام لزيارة السيد «كاترمير» مرة أخرى، وأخبرته بنيتي واستفسرت منه عن الطريقة التي اتبعت في تنظيم المكتبة الفرنسية فأعرب عن أسفه لكون المكتبة الرئيسية، «المكتبة الملكية»، الآن في إجازة، وبأنها ستفتح أبوابها مجدداً في فاتح أكتوبر. لذلك، نصحني بالاستفادة من هذه المدة المتبقية لانتهاء إجازة المكتبة في الاطلاع على مراجع مكتبة «دي لارسنال»، وحثني أيضاً على مقابلة السيد «دي لاجرانجس»، وهو باحث ذو اطلاع كبير على الآداب الشرقية، ويمكنه تزويدي بما أحتاج إليه من معلومات. وقد قصدت الرجل على الفور - وهو في منتصف العمر - فلم يبخل علي بمعرفته بل أطلعني على كل المخطوطات التي في المكتبة، وعلى كل ما أردت رؤيته. لم يكن في هذه المكتبة الكثير من المخطوطات. لم يكن فيها إلا عدد من المصاحف، وعدد من الكتب باللغة العربية التي لم تكن ذات قيمة كبيرة، وأكثر الكتب كانت باللغتين الفارسية والتركية. لكني حصلت على قائمة بمخطوطات المجموعة القديمة المحفوظة في «المكتبة الملكية»، فوضعت علامة على أفضل وأهم ما في اللائحة، ولا سيما ما يتعلق بالتاريخ، ثم استكملت وصححت المعلومات التي كنت قد جمعتها من قبل في سان بترسبورغ من خلال محاضرات الأستاذ «دورن». لم تكن هذه المهمة مهمةً سهلةً، بل تطلبت مني أسبوعاً ونصف من العمل المتواصل بحيث كنت أبحث من الساعة العاشرة إلى الساعة الثالثة دون أن أنتهي من هذا العمل. وفي النهاية، أُغلقت هذه المكتبة كذلك في الخامس عشر من أيلول/ سبتمبر، ولكن مكتبة مازارين فتحت أبوابها مما سمح لي بمتابعة عملي والانتهاء منه فيما بعد. وبعد ذلك، انعكفت على عدد من المراجع التي تتناول الأدب العربي مثل كتاب «ريتشاردسون» في اللهجات العربية وما إلى ذلك.

وفـي الثاني من أكتوبر، فتحت المكتبـة الملكية الكبرى أبوابها مجدداً، وهـي مكتبة قد تحتوي على أهم الكنوز فـي جميع أنواع الأدب. وفيها وجدت قوائـم أعدت يدوياً عن مجموعـات مختلفة من المخطوطات التـي لـم تطبع حتـى الآن. وكانت القوائـم المكتوبة بخـط اليد تحتوي علـى كمٍّ من النصوص يكاد يسـاوي كمَّ النصـوص المذكورة في قائمة المخطوطـات التـي طبعت تقريباً. ولكن النظر في هـذه القوائم يتطلب تصريحـاً خاصـاً من أميـن المكتبـة، الذي يديـر هذا القسـم على وجه التحديد. غير أنني حصلت منه على القائمة بسهولة تامة. وهكذا، أصبح أمامي مرة أخرى أسبوع من العمل الشاق بحيث عملت على استكمال لائحتـي التـي حضرتها مما اقتطفتـه من كلتا القائمتيـن المطبوعة وغير المطبوعـة. كنـت أضع أمامي فـي كل مرة مخطوطـة مختلفة أتصفحها وأدرسها للتعرف على محتواها. على سبيل المثال، درست تاريخ مصر للسـيوطي دراسـة عميقة. غير أنني لم أجد المراجـع التي بحثت عنها، وفـي المقـام الأول ابن الكلبـي وأبو عبيـدة عن تاريخ العـرب القديم. ولكننـي أصبحت على اطلاع بالمخطوطات العربية، وأعتقد أن العمل في هذا المجال يناسـبني جيداً إذا كانت الجامعة مستعدة لإنفاق المزيد من المال في شراء المخطوطات.

العمل في هذه المكتبات شيق جداً، وليس شاقاً بتاتاً، كما كنت أعتقد دائماً. وأنا الآن أجلس هنا وسـط أكبر وأشـهر العلمـاء في أوروبا، كل واحد منهم يجلس ومذكراته وأوراقه منشورة أمامه. لا أحد منهم يسأل أو يأبه بما يفعله الآخرون ممن حوله. وقد كان حول الطاولة التي كنت أجلـس إليها ثلاثة باحثيـن كانوا عاكفين بحماس علـى كتبهم الصينية. وكان أحدهم، واسـمه جوليان على ما أعتقد، يقرأ الصينية بسهولة تامة كمـا نقرأ في بلادنا السـويدية. كما كان حول طاولتي كذلك أشـخاص يبدو من مظهرهم الخارجي أنهم ولدوا لوالدين من جنسـين مختلفين.

وكان هؤلاء عاكفين على دراسة مخطوطات مختلفة الله أعلم بأية لغة كتبت. بدا لي أنه لم يكن في المكان من يدرس المخطوطات الإسلامية في القاعة غيري أنا إلى أن وقع بصري - للعجب الشديد - على امرأة ما فتئت تُحضِّر المخطوطات تلو الأخرى، العربية ثم الفارسية - وتنسخ الأغلفة المزركشة لكل مخطوطة. ولم تكن تلك المرأة وحدها من يقوم بهذا العمل، بل كان معها مجموعة كبيرة من الرسامين الشباب الذين انتشروا في المكان، واشتغلوا بحماس على نسخ مختلف الزخارف التي على مجموعة من المخطوطات المنحدرة إلى عصور وثقافات مختلفة. ذلك اللطف الاستثنائي الذي يعامل به أمناء المكتبات مرتادي المكتبة هنا، وذلك الاستعداد الاستثنائي لمد يد العون للجميع الذي تلمسه في رجال هم ربما أسماء لامعة في شتى ميادين العلم وكذلك، مدى سهولة الحصول على أي مرجع هنا، حتى أهم الأعمال وأندرها، كلها أمور تشعرك بالرغبة في النهل من الكنوز التي لا عد ولا حصر لها هنا بسعادة وسرور. وبالإضافة إلى ذلك، فإنني لم أر قط في أي مكان آخر علماء تركوا في نفسي أثراً طيباً كالذي تركه العلماء الفرنسيون. ذلك أنك لا تجد فيهم متعالياً ولا متسلقاً ولا متكسباً. ليس بينهم صاحب نظرة عابسة، ولا مقطب جبين، ولا صاحب ابتسامة زائفة، هم بشوشون مرحون كباقي الناس هنا. ويبدو أن سهر الليالي لم يسلبهم بشاشتهم ولم يرسم على جباههم آثار تقطيب الجبين.

كم أسعدني وأبهجني - وأنا مجهول الهوية غير معروف لدى أي أحد - أنني حظيت بفرصة الاشتغال هنا، على الأقل في هذه المدة القصيرة، وسط أشخاص لا أعرفهم، قد يكونون من أشهر رجالات العلم في العالم. أتمنى أن أتمكن في المستقبل من الاشتغال وسط هذه النخبة، في ظل ظروف أخرى، وفي إطار زمني أطول قليلاً وأكثر فائدة لي وللعلم كذلك ربما.

ذهبـت إلى العديد مـن المكتبات وعثرت على عـدد من المخطوطات واشـتريت فـي نهايـة المطـاف كتـاب قواعـد اللغـة التركيـة لصاحبـه «جوبرت». وقبل وقت قصير من منتصف نهار اليوم، ذهبت لزيارة أحد طلاب الطب، وهو فرنسـي يقيم في الفندق نفسـه الذي نقيم فيه. وكان من دواعي سروري التعرف على «خليلة» أحد زملاء هذا الطالب الذي كان هـو الآخر ضيفـاً على مائدة الغداء. وقد كان هـذا الأخير قد تزوج الفتـاة قبل بضعة أيـام. وقد كانت امرأةً سـمراء جذابـة وجميلة تتعامل بعفوية ولا تسـتعمل ألقابـاً من قبيل «حضرتك» عندمـا تحدث زوجها بل تناديه ببسـاطة «أنـت» أو «يا صديقي» دون أدنـى خجل من مكانتها الاجتماعية. وكان الزوجان قد جاءا إلى الفندق لتناول العشـاء، فطلب الزوج الشـاب أن تحضر الوجبة إلى غرفة صديقه. وقد استمتعت كثيراً بالاستماع إلى حكايات ابن «أسكليبيوس[1]»، هذا الشاب المرح جداً، عن الحياة الجامعية.

أمـا المسـاء فقضيتـه مـع زملائـي الألمـان فـي حانـةٍ فـي حديقـة لوكسـمبورغ العموميـة، حيث تجمـع الكثير من الناس للاسـتماع إلى الفرقة الموسـيقية العسـكرية. وقد كان العزف متواضعـاً للغاية لا يقبل المقارنـة بتاتاً مع عزف جوقة فنلندا. وقد تجولت في وقت لاحق حول الفنـدق مدة طويلـة، دون أن ألاحظ أي امرأة تتصرف تصرفات شـائنة أو مشـبوهة بـل كانـت كل من رأيتهـن محترمات ومحتشـمات. رأيت الكثيـر مـن «الخليـلات» برفقة أزواجهن فـي الخارج كمـا رأيت عدداً مـن العمال مع زوجاتهم، ولكـن كل من رأيتهم كانـوا أزواجاً أزواجاً. أما القليلاَت من النسـاء اللاتي كن يمشـين وحدهن، فإنهن كن يمشين

(1) أَسْقَلِيبِيُوس أو أسكليبيوس (من اليونانية Ἀσκληπιός) هو إله الطب والشفاء عند الإغريق. والمقصود به هنا طالب الطب.

باحترام وحشمة، دون أي شيء يخل بالآداب ودون أي إيحاءات لجذب الانتباه إليهن.

9/1

خرجت اليوم في وقت مبكر، ذهبت إلى «ساحة دي جولييت». وهناك، صعدت إلى أعلى البرج أيضاً، وقد كانت السلالم في رأيي مريحة أكثر من سلالم برج نابليون. كما كانت القاعات في الداخل كلها أكثر إشراقاً وأكثر جمالاً. وبعد ذلك، زرت مقبرة «الأب لاشيز» فالتقيت بفرنسي ينحدر من مدينة «بوردو» كان هو الآخر يتجول هنا ويبحث بين شواهد القبور عن شاهد ما. وقد سألني عن مكان شاهد قبر كونتسة روسية يعد أجمل الشواهد في المقبرة. وهكذا انضممنا إلى بعضنا، وتناولنا وجبة الفطور في فندق قريب من المكان. وبعد ذلك، استقللنا عربة أجرة صغيرة قطعنا بها مسافة طويلة جداً من المقبرة حتى قوس النصر، خارج أبواب المدينة تماماً مقابل ثلاثين قطعة نقدية من فئة خمسة سنتيمات[1]. كان رفيقي الجديد غلاماً بشوشاً طلق المحيا. وقد أخبرني أنه زار إيطاليا وإسبانيا والجزائر. ما قاله صحيح على ما يبدو لأنه يفهم العربية إلى حد ما ويتكلمها قليلاً، كما أن له فكرة عن الإيطالية والإسبانية أيضاً. أصبحنا أصدقاء حميمين، وشربنا معاً في أحد المقاهي ماء بالسكر بنكهة الكولونيا (وكان شراباً لذيذاً). كنا متحمسين لتعارفنا بطبيعة الحال فاتفقنا على اللقاء في اليوم الموالي. أنا الآن متشوق للتعرف عليه أكثر، فقد سمعت وقرأت الكثير عن المخادعين، الذين يتواجدون في هذه المنطقة بالذات على وجه خاص، وأعتقد أنه سيكون أمراً ممتعاً للغاية لو التقيت بأحدهم. غير أنني لا أعتقد أن هذا الشاب ينتمي إلى تلك الفئة. في الحقيقة، لم أستطع

---

(1) sou 30

التعرف على المقبرة عن قرب بسببه، ولم أحصل من المكان إلا على مجرد لمحة. هذه المقبرة هي الأكبر والأجمل من نوعها هنا، وهي تقع على تلة جميلة للغاية، وتطل على المدينة وعلى المناطق المحيطة بها. وكانت في المقبرة شواهد قبور لا حصر لها. ورغم أن الشواهد كانت جميلة، إلا أنها كانت مصنوعة من نوع من الحجر الرملي، الذي يكثر استخدامه هنا والذي لا يروق لي ولا يصل إلى جمال الجرانيت عندنا. صحيح أن ثمة الكثير من النصب التذكارية الرخامية كذلك هنا، وهي نصب مختلفة الأشكال والأنواع لأشخاص توقظ أسماؤهم وذكراهم في الجميع الكثير من الحب والاهتمام. لا أعتقد أن من السهل العثور على مقبرة أخرى تضاهي هذه المقبرة جمالاً وقيمةً وجدارةً بالزيارة. وعندما افترقنا أنا وصديقي الجديد الذي أعرب عن أسفه لأن أشغاله الكثيرة لا تسمح له بقضاء باقي اليوم معي، ذهبت أتجول على طول الشانزليزيه، وتوقفت لإلقاء نظرة على لاعب سرك عجوز كان يعرض عدداً من الحيل من بينها أنه كان يأكل الأشواك، يحرقها داخل بطنه، ثم يبصق الرماد من فمه بعد ذلك. لم تكن حيله جيدة على الإطلاق، ولكن تقاسيم وجهه العجوز الجميلة التي تشع طيبة ورفقاً، والتي يعبر عنها بابتسامة لا تفارقه، هي الأسباب التي جعلتني أبقى لأتفرج على عروضه مدة طويلة. وعلى الرغم من أن بذلته لم تكن من النوع الغالي، إلا أنها كانت ذات لمحة خيالية وسحرية نوعاً ما، أكثر أناقة من معظم البذلات التي رأيتها في المسارح. وكان يعرض مهاراته بحماس شديد ويستعين في ذلك بأحد المتفرجين المتحلقين حوله من الأطفال، وكان يبصق الرماد بين الحين والآخر، ويسلي المتفرجين بكلامه المضحك وبغيره من الوسائل الأخرى.

وقد لقي هذا العارض استحساني أكثر من كل من رأيتهم هنا من عارضين وقاصين أو مرتجلين رغم أن عرضه لم يكن من

أفضل العروض. وقد عبر عن امتنان فائق عندما ألقيت بقطعتين نقديتين من فئة الخمسة سنتيمات فوق قطعة صغيرة من القماش كان قد وضعها وسط ساحة عرضه لكي يلقي فوقها الجمهور بما يمنون به عليه. ولم يكن فوق قطعة القماش حينها إلا بعض القطع النقدية القليلة. من المفرح أن يصادف المرء وجهاً يشعره للحظةٍ بالألفة والمحبة والتفاني وسط هذا الزخم من الوجوه الغريبة التي تمر عليه جيئة وذهاباً ودون توقف. لقد أحسست أنني أرى أمام عيني في هذا الرجل صورةً حيةً لدهاننا العجوز «ألمكفيست».

وبحلول المساء، ذهبت أتمشى قليلاً ناحية القصر الملكي، ورأيت هناك أجمل فتاة في باريس، وهي سيدة مبيعات في محل قفازات كانت محاطة طول الوقت بحشد غفير من المُحدِّقين فيها. أعتقد أنها كانت حقاً جميلة، ولكن جمالها لم يكن من ذلك النوع الشفاف مثل الذي تتمتع به جميلات بلاد الشمال. جمال هذه المرأة كان من ذلك النوع الموجود في مناطق أكثر جنوبية خلافاً لبقية الفتيات الأخريات هنا بشكل عام.

اشتريت تذكرة سفر للذهاب إلى «شالون» بعربة البريد ليوم الأربعاء المقبل كما زرت المكتبة الألمانية واكتشفت أنه ليس من الممكن شراء كتاب بوركهارت من باريس بحيث أصبح علي الآن التخطيط لرحلتي إلى الصحراء بنفسي دون دليل.

10/2

كنت في «سان دوني» وهي منطقة قريبة من المدينة. ذهبت إلى هناك لمشاهدة أضرحة ملوك فرنسا ولمشاهدة أجمل كنيسة رأتها عيناي. لا شيء يضاهي جمال ذلك الضوء العجيب الذي يدخل الكنيسة من الشبابيك المطلية بِحرَفِية عالية وبألوان عديدة، والتي كانت تغطي كل

جانب من جوانب أقبية[1] الكنيسة الملتفة الشكل.

10/12

وفـي المســاء، ذهبــت مــع ساكسـياينـن وجوسـمـان إلـى حفـلـة مونتيسـكـيـو الراقصـة. وهناك سنحـت لي الفرصـة لمشاهـدة رقـص الفرنسيين المثير للإعجاب، ولرؤية تلك الفرحة الغامرة التي يحصلون عليهـا عند الرقـص. والراقصون هنا ليسـوا من الشـباب فقط، بل حتى كبـار السـن من الرجال والنسـاء يدلـون بدلوهم يشـاركون في الرقص ببراعة الشـبان نفسـها، ويسـتمتعون برقصهم بالقدر نفسه كذلك. وبعد ذلـك، ذهبنا إلى حانة «مونتسـكيو» التي تقع في الجهـة المقابلة، والتي توفر مختلف أنواع الترفيه للخاصة والعامة على حد سـواء. ولم يطلب مـن زوار المكان دفع أجرة للدخـول، وإنما كان على المرتاد أن يتناول طعاماً أو شراباً ما. في هذه الليلة، عُرِضت أنواع عديدة من الموسيقا إذ عُزِف على القيثارة وعلى الفلاجيول وعلى الكمان وغيرها، كما قُدِّمت عروض شـتى منها السـاخرة ومنها الكوميدية. ولكنني شخصياً لم أجد وسـط كل ذاك الزخم شـيئاً مرفهاً. ورأيت هنا مرة أخرى ذاك الشـيطان الـذي نغـص علي حياتـي مدة طويلة وقد جعل جسـمي كلـه يرتعد. لا أدري إن كان سراباً خادعاً أم يداً امتدت إلي لتهديني لما هو خير. ولقد تخلصت منه هذه المرة دون تأثيرات إضافية.

رسالة إلى أمي من مارساي في العشرين من أكتوبر

قبل رحيلـي بقليـل، حالفنـي حـظ فريـد مـن نوعـه عنـدمـا أتيحت لي الفرصة لرؤية الملـك لودفيك فيليب وحرمه. وكانت مجموعة صغيرة من أفراد حاشـية القصـر ترافقهمـا. كان الملك يميل إلى الشـيخوخة،

---

(1) جمع قبو وهو هيكل تسقيفي معماري مكور من الداخل.

وهو ممتلئ الجسم، يتخلل لحيته وشعره الأسود الكثير من الشيب. في لحيته ألوان تتراوح بين الرمادي وبين البني. وهو يشبه صوره. أما الملكة فكانت كبيرة السن، محدودبة الظهر، تميل إلى القبح أكثر مما تميل إلى الجمال. كانت الفخامة غائبة عن ثياب الملك والملكة وعن عربتهما كذلك. كان الملك يرتدي زيه المدني: بذلة سوداء دون أي قلادات أو مُزيِّنات. وكانت الملكة كذلك ترتدي ثياباً متواضعة. يخطئ المرء كثيراً إذا اعتقد أن كل شيء هنا، كما هو الحال عادة، بديع ورفيع وأنيق ومُنَمَّق. عندما جئت إلى هنا من هامبورغ، حيث كان الجميع يرتدون ثياباً رفيعة، أدهشتني كثيراً رؤية الناس هنا وهم يرتدون ثياباً متواضعة وغير منمقة. أعتقد أنه لا يوجد مكان آخر في الدنيا يمكن للمرء فيه أن يكون على طبيعته كما هو الأمر هنا شريطة أن يتصرف المرء حسب الأصول. هنا أستطيع أن أتجول من مكان لآخر وأنا أرتدي قميصاً، أو دون قبعة على رأسي، أو كيفما أريد دون أن أثير تعجب أحد ودون أن يحملق في أحد. وإذا نال مني الإعياء، أجلس لأرتاح على الرصيف، أو على درَج ما، أو في الشارع في أي مكان أشاء دون أن أثير أي انتباه ما دمت لا أعيِّق طريق أحد.

10/14

بعد أن أكلنا توجهنا جميعنا إلى محطة عربة البريد. وبعد أن تشاجرت قليلاً في العربة مع من سيرافقونني في سفري حول مقعدي، انطلقنا في نحو الساعة الخامسة. كنت سعيداً جداً لترك باريس ورائي. استمرت الرحلة دون أي استراحة طول الليل. وقد كانت ليلة باردة وماطرة فرغم أن دثاري كان كثيفاً وجيداً، إلا أن الدفء لم يعرف لي طريقاً، والنوم لم يعرف لجفني سبيلاً، لأن العربة كانت ضيقة وغير مريحة.

10/15

في الصباح عند الساعة التاسعة، مُنحنا عشر دقائق تقريباً لتناول وجبة الفطور. وبالفعل تناولنا وجبة فطور بشهية مفتوحة. كان الجو مكفهراً طيلة اليوم. كما أن رفاق سفري كانوا على قدر كبير من القبح باستثناء تاجر فرنسي كان يجلس في الجهة المقابلة لي، وكان في رحلة عمل إلى مدينة ليون. وقد أمتعنا هذا الأخير بحكايات طريفة عن السرقات التي تحدث في باريس وعن حيل السارقين وخدعهم المختلفة. وقد قضينا جزءاً طويلاً من اليوم في العربة وسط حقول الكروم الغاصة بالعمال المنكبين على قطاف العنب ووضعها في براميل كبيرة. كانت أنواع الغلة الأخرى مثل القمح وخلافه قد جمعت من قبل على ما يبدو، حيث كانت الحقول تبدو كئيبة وقبيحة في المناطق التي لم تكن بها كروم. وفي المساء، على الساعة السابعة تقريباً، مُنحنا عشرين دقيقة لتناول وجبة العشاء التي تناولناها بشهية مفتوحة كما كان الأمر عند الفطور. وأدينا ثلاثة فرنكات ثمناً للوجبة رغم أنها لم تكن شهية على وجه خاص. وبعد ذلك، تابعنا رحلتنا طول الليل في جو قبيح حتى الساعة الثانية صباحاً عندما نزل أحد المسافرين في مدينة بون. وهي مدينة بدت في ظلام الليل ذات طابع خاص، كما أن بها الكثير من الآثار والمعالم التاريخية التي تعود إلى عهد الغاليين. أصبح في العربة الآن متسع أكبر لتمديد الأطراف التي انكمشت. وهكذا ظفرت بنوم هانئ فيما تبقى من الليلة.

10/16

وصلنا إلى شالون في الثامنة صباحاً بدل الساعة الرابعة، وأسرعنا على الفور بالصعود إلى الباخرة التي لم تكن تنتظر غيرنا للإقلاع إلى مدينة ليون. من شدة سروري بالخروج من العربة التي قبعت فيها محبوساً مدة

طويلة، أسرعت لإحضار حقائبي وركبت السفينة. خبرت الآن حقيقة السفر في عربة البريد التي كثيراً ما مدحوها وقالوا إن السفر بها مريح. أنا لم أحب السفر على متنها إطلاقاً. كنت أفضل أن أجلس ألف مرة في عرباتنا ذات المقعد القاسي على أن أجلس على مقعد عربة البريد ذي الوسائد الرخوة. أنا متأكد بأنني إذا اضطررت للسفر في حياتي عن طريق البر، فإنني سأحرص من الآن فصاعداً على تجنب وسيلة السفر هذه قدر الإمكان. لم يُسمح لنا بالنزول من العربة خلال يوم وليلتين إلا لمدة نصف ساعة. ذلك أنه عند تغيير الأحصنة، لم يكن ثمة وقت حتى لأهم الأشياء. ولكن عند العقبات العالية، حيث كانت الأحصنة تجر العربة خطوة خطوة في كبَدٍ، كان يُسمح لنا بالنزول من العربة والمشي إلى أعلى العقبة. غير أن الجالسين بيني وبين الباب لم يكترثوا بهذه الفرصة مما جعلني أتكبد عناء كبيراً للخروج من العربة من تحت أرجلهم، مما كان يتسبب لهم في إزعاج كبير. وعندما تجرأت، في إحدى المرات، وفتحت باب العربة لدى نزولي منها، صاح صاحب العربة في وجهي بنبرة قاسية قائلاً: «ما الذي تفعله يا سيدي؟». بدا من نبرته أنه اعتقدني من قليلي الذكاء، ولكن نبرته تلك صارت ألطف عندما أجبته بالقدر نفسه من الحدة قائلاً: «لا أبغي إلا قضاء حاجتي يا سيدي!» وعندها، أخبرني بأن النزول من العربة لا يكون إلا عن طريق الباب الآخر.

إضافة إلى هذا، كانت هذه الرحلة أسوأ رحلة قمت بها على الإطلاق. لذلك كنت في قمة السعادة لركوب هذه الباخرة الصغيرة التي كان قد تجمع فيها جمع كبير من الركاب. وما إن ركبنا حتى انطلقت الباخرة. وعندما نزلت إلى المقصورة الأمامية، وقع بصري على جماعة عمال ظرفاء كانوا جالسين حول الطاولة، يلعبون الورق، يشربون النبيذ ويغنون أغانيَ سعيدة. كان معظم المسافرين في المقصورة من هذه

النوعية، وكانوا يقضون وقتهم بالطريقة نفسها تقريباً. استمتعت بوقتي كثيراً في هذه المقصورة لدرجة أنني لم أُرِد أن أغير مكاني في الدرجة الثانية بمكان آخر أفضل في الدرجة الأولى ولو أن فرق السعر لم يكن إلا فرنكين فقط. كان الطقس ماطراً وسيئاً جداً طوال الرحلة بحيث لم أتمكن من رؤية مناظر منطقة السون الساحلية. كان الجلوس في المقصورة ممتعاً. أكلنا وشربنا باستمرار، ولعبنا ودردشنا وضحكنا، ولكن التدخين كان ممنوعاً. يبدو أن التدخين بالنسبة للفرنسيين يعد عادة سيئة بشكل خاص. إذ يسمع المرء هنا تذكيرات حول منع التدخين أكثر منه في أي مكان آخر. يبدو أن عدم التدخين وارتداء القبعة بقيا من بين قواعد حسن التصرف التقليدية هنا. إن الإبحار في هذا النهر محفوف بالمخاطر مما يتطلب خبرة ومهارة خاصة. والأمر سيان في نهر الرون كذلك، وهذا ما لاحظته لاحقاً.

قرابة الساعة الثانية، بعد الغداء مباشرة، وصلنا إلى ليون. وهناك ذهبت إلى أول فندق وجدته وهو فندق دي هيرونديل. وبما أن الجو كان لا يزال سيئاً، وبما أن الأمطار كانت مستمرة في الهطول بغزارة، فقد فضلت البقاء في غرفتي. إلا أنني لم أُطِق أن أبقى في غرفتي، وألا أخرج إلى الخارج حتى أعرف كيف يمكن تدبير مكان في السفينة انطلاقاً من هنا من ناحية، والحصول على صورة عامة عن المدينة من ناحية ثانية.

10/17

ذهبت في الصباح في الساعة الخامسة إلى الباخرة مع أحد الشباب الذي يبدو من هيئته أنه عامل، وهو يقيم في الفندق نفسه الذي أقيم فيه. وكان قطيع من الماشية قد رُبِطَ في مقدمة الباخرة استعداداً لنقله إلى أفينيون. لم يأخذنا عامل خدمة الفندق الذي كان يدفع عربته الصغيرة

المحملـة بحقائبنـا إلى الباخـرة المخصصة للـركاب. ولكنني لم أهتم بالأمـر، وبقيت في هذه الباخـرة. ذلك أنني لـم أكن لأتمكن من اللحاق بـأي باخرة أخـرى على أي حال. كان الصباح بارداً ومنعشـاً لا يختلف عـن جـو الخريف عندنا عادة. فضلـت البقاء طيلة اليـوم تقريباً بالقرب مـن مدخنـة المحرك التـي كانت توفر الدفء على مسـاحة واسـعة من محيطهـا. وفي فالنـس، التحق بالباخـرة عدد كبير من الـركاب الجدد، بما في ذلك شـاب فرنسـي خدم فـي الجيش في أفريقيـا، وكان يرتدي زيـاً عسـكرياً أنيقاً جـداً ومُصَمَّماً على الطراز الشـرقي عامة. وكان هذا الشـاب الفرنسـي يبـدو ألطف المسـافرين وتمنيتُ لو أننـي أتمكن من التحـدث معـه قليلاً. كان الـركاب القادمـون من ليون مـن الإقطاعيين الفرنسيين الحقيقيين على ما يبدو، وقد أعطوني انطباعاً سيئاً للغاية عن المستوى التعليمي العام للطبقة الريفية المتوسطة الفرنسية.

بقينـا مـدة طويلـة في بورجيـه حيث كان ينبغـي تفريغ شـحنة كبيرة من الحديد. واشـتريت مقابل اثني «سـو[1]» المزيد مـن العنب والتين، وحصلـت على كمية أكبر مما يمكننـي تناوله في وجبة واحدة. في آخر المطـاف، أصبحـت الرحلة مملة قليـلاً، ولـم نتمكن مـن الوصول إلى مدينة لافينيون إلا ما بين الساعة الخامسة والساعة السادسة بعد الظهر، وذلـك لأننـا تأخرنا بسـبب تفريغ شـحنة الحديـد، وبسـبب توقفنا في مينـاءات مختلف البلدات الصغيرة لالتقاط الركاب، بحيث إن البواخر الأخرى تجاوزتنا رغم أن باخرتنا كانت أسرع من سرعتها عادة. ولأننا وصلنا في وقت متأخر جداً، لم أتمكن من الحصول على تذكرة للسفر بعربـة البريد المسـافرة إلى مرسـيليا. ولقد عقدت العـزم على مواصلة مسـيرتي بعربة البريـد لأن الرحلـة البحرية إلى «آرل» ليسـت مضمونة

---

(1) (Sou) قطعة نقدية فرنسية قديمة استخدمت لغاية سنة 1715 حيث استبدلت بالفرنك الفرنسي

لأنها تتوقف على حال البحر وعلى الرياح. وهكذا كان علي البقاء في أفنيون ليوم واحدٍ، ولكنني اشتريت تذكرة لليوم التالي كإجراء وقائي. لم أكد أخرجَ من مكتب عربة البريد حتى تسلط علي شابان ودعاني كل منهما إلى النزول بفندقه. أخذت من أحدهما بطاقة بها عنوان فندقه، غير أنني قررت أن أتبع الآخر لأن فندقه كان أقرب. غضب الأول غضباً شديداً وطلب مني أن أعيد له بطاقته بلهجة حادة فأعدتها له على الفور بالطبع.

10/18

في الساعة السادسة كنت جالساً في عربة البريد في طريقي إلى مرسيليا. كان ظلام الليل حالكاً مما حال دون رؤية الشيء الكثير من المناظر الريفية التي كانت في غالبيتها حقول كروم على ما يبدو. كان الجو جميلاً، وكان القمر مشرقاً إشراقةَ الهلال في شعار النبالة التركي، وكانت السماء مضاءة بالكثير من النجوم الساطعة، ولكن الطقس كان شديد البرودة. توقفنا في «إيكس» بعد وقت قصير من منتصف الليل لمدة عشر دقائق تقريباً. كانت المدينة تبدو جميلة ولكنها كانت صغيرة جداً. كانت جوانب شوارعها الواسعة المنتظمة مزينة بالأشجار. وصلنا إلى مرسيليا في الساعة السابعة صباحاً، فكنت بذلك قد جُبْت أنحاء فرنسا كلها في طريق نصف دائري. كانت تكاليف هذه الرحلة قد بلغت من الهافر إلى روان فقط ستة فرنكات؛ ومن روان إلى باريس عشرة فرنكات، ومن باريس إلى شالون أربعين فرنكاً، ومن شالون إلى ليون ستة فرنكات. كما كلفتني الرحلة إلى أفنيون خمسة عشر فرنكاً؛ ومنها إلى مرسيليا دفعت ستة فرنكات ونصف وهو ما مجموعه ثلاثة وثمانون فرنكاً ونصف، وذلك دون إدراج تكاليف الإقامة. وكانت نفقات السفر الأخرى على النحو التالي: خمسون فرنكاً من هلسنكي

إلى ترافيموند، فرنكان اثنان إلى لوبيك، عشـرة فرنكات إلى هامبورغ، خمسـة وسـبعون فرنكاً إلى هافر، وهو ما مجموعه مئة وسبعة وثلاثون فرنكاً.

10/19

خرجـت للتـو متوجها إلـى الميناء الـذي تركَّزت حولـه جميع جوانب الحياة في هذه المدينة البحرية التجارية، على حين كانت أجزاء المدينة الأخرى شـبه مهجورة وفارغة. تجولت في الشـاطئ الشـمالي للميناء لأنـه بـدا لي أجمل وأكثر اتسـاعاً. لكنني لم أر إلا مجموعة من السـفن الهولنديـة التي كانت بصدد إفراغ شـحنات هائلة مـن الجبن اللذيذ من خلال مزاريب كانت تمرر الشحنة من السفينة إلى الرصيف. كما رأيت غيرها من السـفن التي كانت صغيرة فـي معظمها. وقد ذهبت بعد ذلك إلـى قلعـة كانت تقع في أقصى الميناء، وكان لهـا منفذ خاص بها، ومن هنـاك، تمكنـت مـن إلقاء نظرة علـى البحـر الأبيض المتوسـط الرائع. ولكـن، حالمـا وصلت إلى هنـا، أخبرني جنـدي الحراسـة أن التجول فـي المنطقـة ممنوع. أعطتنـي رؤية البحر إحساسـاً رائعاً بشـكل يفوق الوصف. أعطتني نشاطاً وحيويةً وفرحاً بالحياة.

قفلـت راجعاً مـن ذات الطريق، ثـم اتجهت بعد ذلـك إلى الجانب الآخر من الميناء، الذي كان أكثر حيوية، والذي كان يضم عدداً أكبر من السفن.، بحثت بين أعلام تلك السفن عن واحدة سويدية أو فنلندية فلم أجدهـا. كم كانت دهشـتي عظيمة عندما وقع بصـري على لافتة معلقة علـى باب أحد المحلات كتب عليها: «هنا نتكلم السـويدية». في ذلك المحـل الصغيـر أشـخاص يتكلمون العديـد من اللغـات الأخرى مثل الروسـية حسـب اللافتة ذاتها. وازدادت دهشـتي عندمـا تقدمت قليلاً فقـرأت لافتة علامة أخـرى كتب عليها بخـط جميل باللغة السـويدية:

«رسام سويدي» وتحتها كتب بالفنلندية: «رسام فنلندي». لكنني لم أدخل إلى أي من المحلين لأنني أستطيع زيارتهما في أي وقت يطيب لي. تمشيت أسفل الرصيف فسمعت رجلين يتحدثان السويدية. ذهبت على الفور للتحدث معهما. أحدهما كان قبطاناً يسمى «أند فيكلوند» من مدينة «كوكولا» له سفينة شراعية اسمها «أكتيفي». أخبرني هذا الأخير بأن سفينته ستكون جاهزة للإبحار من هنا إلى القسطنطينية وأوديسا في غضون بضعة أيام. وقدكان عندما التقينا يستعد للذهاب إلى سفينته الشراعية فذهبت معه وأبحرنا لوقت قصير. عدنا إلى البر مرة أخرى، وسرعان ما انضممنا إلى مجموعة كانت تضم أربعة ملاحين بحريين فنلنديين، وكانوا جميعهم من منطقة بوهيانما[1]، إضافة إلى ستة أو ثمانية من الملاحين السويديين، الذين كانت سفنهم راسية هنا في هذا الميناء. كان بعضهم قد وصل حديثاً وهم بصدد تفريغ شحنهم، فيما كان البعض الآخر في انتظار شحن جديدة، وعلى استعداد للإبحار، كل إلى اتجاه مختلف: البعض نحو أمريكا ولكن معظمهم نحو موانئ البحر الأبيض المتوسط. قضيت كل وقتي مع هؤلاء الرجال، فكنا نتناول وجباتنا معاً في نزل سويدي تملكه أرملة سويدية انتقلت للعيش هنا. أما القهوة فكنا نتناولها في مقهى «كافيه دو كوميرس»[2]. وقد ذهبت معهم إلى البورصة وشاركتهم محادثات أجروها مع وسيط تجاري.

كما زرت القنصل الروسي «إيبلينغ» في اليوم نفسه. وهو رجل طيب وودود للغاية، وقد قطع على نفسه وعداً كريماً جداً بتسليم الأشياء التي قد أبعثها إلى جامعتنا من مصر. وفي المساء، شربنا مشروباً كحولياً في السفينة الشراعية «أكتيفي» مع القبطان «مالمي» القادم من منطقة

(1) منطقة تقع غرب فنلندا.

(2) مقهى التجارة.

«بيطارساري». وقد التقيت في اليوم نفسه أيضاً ببائع متجول عجوز من تونس كان يبيع زيت الورد. تحدثت معه باللغة العربية ففهمني، على الرغم من أن لهجته كانت مختلفة تماماً عن اللهجة التي أعرفها، وصعب علي فهمها. اشتريت منه زجاجة من زيت الورد بعد أن فاصلته في السعر وأنزلته من خمسة عشر سو[1] إلى عشرة. ولكن، عندما عدت إلى المنزل وفتحت الزجاجة، اكتشفت أنه كان قد بلل الورق الأحمر المحيط بغطاء الزجاجة فقط بزيت الورد، وهو الجزء الذي كان قد طلب مني أن أشتم رائحته. أما الزجاجة نفسها فكانت تحتوي على زيت الخزامى. التقيت بهذا الرجل مرات عديدة كل يوم، ولكنني آثرت ألا أحدثه عن غشه، وقد أصبحنا صديقين حميمين. كما رأيت بعض العرب والشرقيين الآخرين كذلك، غير أنني لم أتعرف عليهم. تحدثت مع عربي كان قد بلغ من العمر ما قوس ظهره لكنه كان أصم تماماً. أما الإغريق هنا فما أكثرهم. ربما يكونون أكبر جالية أجنبية هنا. وهم يبدون أكثر صلابة ونشاطاً، ولكنهم ليسوا على قدر من الجمال. وعلى الرغم من أنني تجولت اليوم بأكمله هنا دون توقف، إلا أنني لم أصل إلى ناحية الميناء، بل إنني لم أتجاوز الشوارع المحيطة بالميناء.

12/16 رسالة من الإسكندرية إلى فرانس إدوارد كونراد

في الثالث والعشرين من أكتوبر، خرجنا من مرسيليا. كان الطقس جميلاً جداً وكانت الرياح ضعيفة. وقد تمكنا من الخروج من الميناء المكتظ إلى البحر الأبيض المتوسط ذي الزرقة الناصعة، وفوقنا سماء بالقدر نفسه من النصاعة والزرقة. ابتعدنا شيئاً فشيئاً عن الشواطئ الصخرية الفرنسية المرتفعة كالأبراج وفي السابع والعشرين من أكتوبر، ابتعدنا

(1) (Sou) قطعة نقدية فرنسية قديمة استخدمت لغاية سنة 1715 حيث استبدلت بالفرنك الفرنسي

عـن جزيرة سـردينيا المرتفعـة. وفي صباح يـوم الثامن والعشـرين من أكتوبـر، لمحنـا أمامنا في الأفـق معلمة مخروطية الشـكل تخترق عنان السـماء: إنـه جبـل إتنا. ثم بـدأت قمم أخـرى مماثلة فـي صقلية تظهر تدريجيـاً، ولكننا أبحرنا في اتجاهها اليوم بأسـره، وحتى عندما اقتربت الشـمس من المغيـب، كنا لا نـزال بعيدين عن تلك القمـم. وفي الليل تحـول اتجـاه الريح فهبت رياح جنوبيـة غربية قوية ورطبـة في اتجاهنا مما أجبرنا على تحويل مقدمة السفينة إلى اتجاه هبوب الريح والإبحار عكس الريح بطريقة منعرجة. وهكذا أبحرنا في الاتجاه المعاكس لريح قويـة جـداً طيلة أسـبوع كامل مـا بين صقليـة ومالطا. وخلال أسـبوع، وصلنا إلى «جيرجنت» فلاحظت؛ حسـب ما تمكنت من رؤيته بواسطة منظاري؛ بأن ذلك المكان لم يعد يقطنه ذلك العدد الضخم من السكان الـذي كان يبلـغ 200000 نسـمة فـي العهـد الروماني. يقـال إن المدينة الآن أصبحـت مأهولة بالرهبـان والكهنة. فهم ربمـا يُعوِّضون بتقواهم وجدهـم واجتهادهم ذلك العدد الضخم الذي لم يعد موجوداً. واصلنا رحلتنـا مرة أخرى ومررنا عبر «بالما»؛ ومن تلـك التلة المنخفضة التي بنيـت عليهـا المدينة، يبدو انفراج يمكن للمـرء أن يطل منه على أجمل وأخصـب ركن فـي الجزيرة. وكانـت البلاد كلها قد عانـت من جفاف الصيـف الـذي دام طويلاً، بحيـث أصبحت تلك الشـواطئ التي كانت عادة تكتسـي ثوبـاً أخضر عاريـة وكأنها مغطـاة بالرماد. الشـواطئ هنا مرتفعـة كما هو الشـأن في مالطا، فهي تطل على البحر مباشـرة بشـكل عمـودي تقريبـاً، وفي بعض الأماكن تـرى أن الماء قد التهـم بعضاً من أسـفل صخورها بحيث تتشـكل فيهـا زاوية حـادة تقريبـاً بالمقارنة مع سطح البحر. وعلى العموم، لا توجد هنا، كما هو الأمر في الأرخبيلات عادة، غابات ولا جبال. ولكن بين الفينة والأخرى تبدو بعض الأشجار القصيرة في السهول ولكن لا وجود للغابات ولا للجرانيت.

وبعد أسبوع كامل من الكد والعناء، وصلنا أخيراً إلى «أليكاطا» الواقعة في أقصى الجانب الشمالي لصقلية. كنت سأحس بملل شديد خلال هذا الأسبوع لولا الرفقة الممتعة والرائعة للقبطان «فيكلوند» قائد السفينة الشراعية «أكتيفي» القادم من «كوكولا». طوال هذا الأسبوع، وقفنا أكثر من أي وقت مضى في آخر السفينة «نراقب» (كما كان القبطان يقول بلهجته الغربية) الطقس، والنجوم، والغيوم وأطوار القمر. وما أكثر المرات التي تنبأ لنا فيها بتغير الطقس، وبرياح قوية كعادة القباطنة دون أن تتحقق نبوءته. فقد بقيت الرياح الجنوبية الغربية القوية على حالها وكذلك الشمس المشرقة والطقس الجميل. وكان القبطان يكتفي بجملته المعتادة: «بعد الريح الشرقية، وبعد شجار النساء، غالباً ما يأتي المطر». وبالفعل، جاء المطر، ولعدة أيام كانت الرياح الجنوبية الغربية قد دفعت الغيوم أمامها، ولكن الرياح الشرقية العنيدة لم تكن لتهدأ.

وفي ليلة الثالث من نوفمبر، توجهنا ناحية منارة «فاليتا»، وكنا بالكاد قد ابتعدنا عن ضواحي سيسيليا. وبعد وقت قصير من منتصف الليل، هبت رياح ممطرة قوية. وعندما استيقظت على هدير العاصفة وعلى الضجيج القادم من سطح السفينة، ارتديت ملابسي وصعدت إلى سطح السفينة. كان الظلام الدامس يغطي كل شيء بحيث لم يكن من الممكن رؤية أي شيء غير الأمواج الفضية المتلألئة، التي كانت تصطدم بمقدمة سفينتنا ثم تنزل من ذروتها العالية وترتطم بالسفينة طولاً وعرضاً وكأنها عقد من الماس البراق. وفجأة، ومض البرق من سحابة سوداء فأضاء سطح البحر الأزرق الهائج كما أضاء كذلك سفينتنا الشراعية التي كانت أشرعتها مطوية إلا اثنين فقط. وحتى هذان الشراعان لم يكونا مبثوثين إلا جزئياً. تسلق الطاقم الأشرعة والصواري فيما وقف الكلب في ثقة غريزية إلى جانب القبطان الممسك بمقبض

الدفة، وصاح الديك بصوت عال منبئاً بحلول الصباح. ووسط صوت الرعد المرتفع، وهدير العاصفة الهائل، وصوت الموج المرتطم بجوانب السفينة، والمطر الغزير المرافق له، ارتفع صوت القبطان عالياً: «لتقوموا بطي الشراع أكثر!» فردد طاقم السفينة وراءه: «لتقوموا بطي الشراع أكثر!». تحول اتجاه الرياح تدريجياً إلى الجنوب، فأخذت الريح تهب في الأخير من الناحية الجنوبية الغربية دافعة سفينتنا بسرعة تسع عقدات في الساعة رغم أنه لم يكن لدينا إلا شراع واحد مرفوع. غير أن العاصفة لم تدم طويلاً، فبعد بضع ساعات، توقفت العاصفة، وصحا الجو، وتلاشت الغيوم التي كانت تغطي السماء. لم يكن ما حدث مخيفاً كثيراً فالعاصفة لم تكن عنيفة بقدر خاص، وقبطان السفينة الذي يعد بالتأكيد من أفضل بحاري بلادنا كان قد أمر بإنزال الأشرعة العريضة ورفعها بحلول المساء. أعتقد أن ما حدث كان مثل غضب فتاة شقراء زرقاء العينين! كما أعتقد أن البحر الأبيض المتوسط بدا جميلاً جداً، لدرجة أنني لا أجد سبباً للخوف حتى من أسوأ موجات غضبه. وعلى الرغم من أن القبطان، الذي كان قد أبحر إلى أوديسا اثنتي عشرة مرة، قال إن البحر أحياناً يكون مخيفاً حقاً.

بعد ليلة عاصفة، بزغ فجر مشرق وطلع يوم جميل، وصار الجو منعشاً. ومع ذلك، كانت السماء من ناحية الشرق لا تزال مكبدة بالسحب، وكانت سهام البرق تومض وراءها في سلسلة طويلة في طريقها نحو الشمال. وكان البرق يضيء في رمشة عين فتبدو الغيوم وكأن بها الآلاف من الألوان. كان المنظر وكأنه مسرحية ظل بديعة تعرض في الغسق الذي لم يكن فيه إلا إضاءة قمرية خفيفة. وهكذا أبحرنا في جو صيفي لطيف نخترق البحر ولمحنا من بعيد إحدى الجزر اليونانية وذلك في الثامن من نوفمبر، وكان الإبحار تجاهها قد استغرق يوماً كاملاً. كانت تلك هي جزيرة «سابينزا». وبعيداً ناحية

الشرق لمحنا قمم «ماطابان» المغطاة بالثلوج. شعرت بالسعادة في قلبي: فاليونان، أرض الحكمة، ترتاح الآن في كنف الظلمة الحالكة ووراء ستار الضباب الكثيف، ولكن قممها العالية تشرق زاهية من بين الغيوم التي استقرت عليها. وفي الليلة نفسها رأينا قوس قزح.

كان علينا مرة أخرى أن نتجنب الريح بالإبحار بطريقة منعرجة حتى نصل إلى ماطابان لنستريح هناك. ولم نستطع عبور قناة «سيريجو» إلا في الحادي عشر من نوفمبر بعد أن بقينا نحوم على هامشها طوال اليوم. كان من دواعي سروري أن أتمتع برؤية كيثرا القديمة؛ وَطَن أفروديت القديم، ومسقط رأس هيلينا الجميلة. لا أثر هنا لمنبع الحب والجمال، فالمكان يبدو قبيحاً وجافاً في نظري. لا وجود للغابات ولا للخضرة، ولا وجود لبساتين تحط فيها طيور القمرية في سهول البلاد. لقد كانت إلهة لطيفة معنا كثيراً؛ إذ أرسلت لنا ريحاً هوجاء تمكنا بفضلها من عبور المضيق. غير أنها ما فتئت بعد لحظة أن أخافتنا بتمثالين مائيين ارتفعا في تجاهنا. تمكنّا من تجنبهما لحسن الحظ كما فعلنا قبل ذلك في سواحل صقلية. ارتحنا طوال الليل في جو هادئ في حين كانت السماء تمطر في أرض كيثرا، وتعصف، وترعد وتبرق. حتى الآن، لم أكن أقرأ خلال رحلتي كلها إلا القرآن الذي يعتقد المسلمون أنه منبع الحكمة الذي لا ينضب أبداً، وأن علمه لم يدرس بما فيه الكفاية. الآن، ونحن على مشارف اليونان، لم تعد لدي رغبة بقراءته. فقد شعرت بحماس شديد يدفعني لقراءة هوميروس. ولكن، بما أنني لا أملك أي كتاب من كتب هوميروس الآن أخذت كتاباً من كتب فيرجيليوس كنت قد اشتريته في مرسيليا في آخر لحظة. لا أعتقد أنني تمتعت بالقراءة بهذا القدر في أي وقت مضى.

في الثاني عشر من نوفمبر، مررنا بعدد من الجزر غير المأهولة في معظمها، مثل «كايمين» و«فالكونرا»، وتوجهنا صوب «أنتيميلو»

والأرخبيل المحيط بها. وقد وصلنا في جو صيفي دافئ في اليوم التالي إلى هيدرا. في الجانب الأيمن من هيدرا تقع مجموعة كبيرة من الجزر مثل «سيرفو»، و«ثيرميا» و«زيا». وفي الجانب الأيسر، عدد لا يعد ولا يحصى من الخلجان. وصلنا في منتصف النهار إلى «كاب كولونا» التي كانت تدعى سونيون قديماً. وهناك، كانت ستة عشر من أعمدة معبد مينيرفا القديم لا تزال قائمة.

وصلنا إلى مضيق زين مع حلول المساء، ونظرنا إلى المدينة التي كانت متوهجة بياضاً، والتي كانت مرتفعة مثل مدرج في أعلى جزيرة صخرية. كانت ليلة جنوبية جميلة جداً، وكان ضوء الشمس المشرفة على الغروب يتساقط على أنقاض معبد الحكمة. على الساحل الشرقي جزيرة «زين» بقايا من معبد نبتون القديم. كان ثمة جو من السلام ومن الجاذبية الكلاسيكيين يخيم على البحر بل وعلى الطبيعة برمتها الشيء الذي جعلني، وأنا أفكر في كتاب آلهة اليونان لصاحبه شيللر، أحزن على سلطة الآلهة القديمة الماضية التي عفا عليها الزمان. لا أعتقد أنني تمكنت من فهم فيرجيليوس بهذا القدر في أي وقت مضى: «رفع رأسه الهادئ مطلاً على البحر من أعلى الأمواج». لقد كان هذا البحر مهداً حقيقياً للآلهة اليونانية السعيدة اللطيفة. لا يمكن لوحش من وحوش البحر الإسكندنافية أن ينعم بالعيش هنا لأن الآلاف من خنازير البحر تطفو وتتقلب على سطح هذا البحر الشديد الهدوء. وبعد أن استمر هذا السلام الكلاسيكي المطلق مدة وجيزة، بعث إلينا إله البحر القديم ريحاً خفيفة أخذتنا إلى جزيرة «كاريسطو» الواقعة في نواحي «إيوبويا» حيث هدأت الريح مرة أخرى، وحيث بقيت أنا وقتاً طويلاً بعد منتصف الليل أشاهد نجومي الشمالية: الدب الكبير، والنجمة القطبية اللتين كانتا قد اختفتا في الأفق أثناء زيارتنا لصقلية. وهاهما الآن يرتفعان مرة أخرى. ورغم الجمال الفاتن للسماء الجنوبية ليلاً، إلا أنه يفتقر إلى

تلك الإشـراقة وتلك الشـفافية التي تتميز بها ليالي الشتاء في بلادنا من قبل، ويفتقر إلى وميض النجوم عندنا.

فـي اليـوم التالـي أبحرنا وسـط ريـاح جنوبية شـرقية قويـة، ومررنا بـ«ميتليـن» فـي طريقنـا إلى «تينيـدوس» حيـث كان علينا مـرة أخرى؛ بسـبب الرياح العكسية تارة وبسـبب انعدام الرياح تارة أخرى؛ أن ندلي بالمرسـاة فـي خليج «باسـيكيا» الذي يمكـن للمرء أن يتمتـع فيه بأكثر المناظر كلاسيكية فـي العالـم. كانت خلفنا منطقة هضبية واسـعة، كان الإغريـق خلال حرب طروادة قد أرسـوا سـفنهم فيهـا ونصبوا خيامهم عليها. هذه السهول المنحدرة نحو الشاطئ تحدها سلسلة جبال طويلة أعلـى قمة فيها هـي قمة «إيدا». وعند سـفح هذا الجبـل كانت طروادة قديمـاً. وفـي الجنـوب يمتـد الشـاطئ إلى أطـراف الإسـكندرية، فيما يمتـد مـن الناحية الشـمالية إلى مشـارف «سـيجيون». أما فـي الجانب الآخـر مـن الخليج فيصب في البحـر نُهَيْرٌ متفرع من «سـكاماندروس» و«سـيموييس». هاهي الجزيرة الشـهيرة «تينيدوس» تظهر أمامنا. وهي لا تـزال اليوم أيضاً أكثر الجزر شـهرة بفضل نبيذها. كما ظهرت كذلك أرض «ليمنـوس» المنبسـطة، وعليهـا جبل آثوس الهائل الذي يسـيطر على المنظر بأكمله. وعلى الجانب الأيسر محصنة الجزيرة «إيمبروس» و«الدردنيـل». مـن منـا لن يتذكـر لدى رؤيـة كل هذه الأماكـن كلاً من هكتـور، وأخيليـوس، وأوديسـيوس، والحصـان الخشـبي، وأينياس، وكل ما يتعلق بالعصور الكلاسيكية القديمة؟ فكيف لا يتأثر كل من قرأ هوميروس وفرجيليوس؟

على أي حال، ذهبت برفقة القبطان وأربعة رجال من طاقم السـفينة مشـياً على الأقدام إلى قرية يونانية اسـمها «ييني كياي»، تقع شمال شبه جزيرة «سـيجيون». قطعنا سـهول طروادة متتبعين حافة جدول صغير، ولكـن الجـو كان سـيئاً. كانـت الأرض مبللـة بالأمطـار، وكان الوقت

متأخـراً لدرجـة أننا اتخذنـا قراراً مشـتركاً بـأن نترك رؤية هـذا المكان الـذي زارتـه طـراودة إلـى اليوم المـوالـي. في هـذه القريـة، التي كانت كبيـرة وفقيـرة فقراً مدقعـاً، اشـترى القبطان نبيـذ «تينـودوس» الممتاز بنحو ثلاثين كوبيلاً للجرة الواحدة. كان أهالي القرية جميلي الملامح، يتمتعون في حركاتهم وسكناتهم بنبالة يونانية. وفي طريق العودة الزلق والمضلـل، التقينـا في الظلمـة مجموعة مـن الشـيوخ اليونانيين الذين كانوا عائدين بقطعانهم من المرعى إلى البيت. رأيت في الكثيرين منهم وجه أوديسـيوس راعي الخنازير العجوز. وفي اليوم التالي، قمنا بزيارة سـريعة لسـفينة حربية إنجليزية كانت قد رسـت على مقربـة منا فحظينا باسـتقبال حـار للغاية، ولكـن الرياح أخـذت تهب في غضـون زيارتنا مما أجبرنا على العودة إلى سـفينتنا الشـراعية على الفور لرفع الأشرعة وتأجيل زيارة طروادة.

أبحرنا الآن في اتجاه مضيق «الدردنيل»، وأنزلنا المرساة لقضاء الليلة في «أبيـدوس» العتيقة. في هذه الناحية، بين «أبيدوس» و«سيسـتوس» يقال إن «كسـيركيس» قد بنى جسـره مخترقاً المضيق، ربما لأن التدفق في هذا المكان ليس قوياً جداً.

بما أن الوقت لم يكن قد تأخر بعد، أرسينا سفينتنا وتوجهنا إلى بيتٍ تركي بدا عليه أثر الغنى. وجدنا عدداً من النجارين بداخله بصدد إجراء بعض الإصلاحات. ولأن أحداً لـم يمنعنا، تجولنا في أرجاء البيت دون تردد، وكنا على وشك دخول جناح الحريم لولا أن تركياً أوقفنا ودعانا لدخول غرفة كانوا ينحتون فيها أخشـاباً من شـجر السـرو الذي فاحت منـه رائحـة زكية انتشـرت في الأرجـاء. كانـت الغرف جميلـة وفاخرة فقد كانت مؤثثة على الطراز الشـرقي بالمناضد والسـجاجيد الشـرقية. وبينما نحن نتجول في أرجاء البيت، إذ برجل متقدم في السن يبدو عليه الوقـار له لحية بيضاء طويلة، يقترب منا في لطف مرحباً بنا ومستفسـراً

عن جنسياتنا. وقد سألني عن لحيتي وعن غير ذلك. وقد أتيحت لكلا الجانبين الفرصة للضحك على لغتي التركية الركيكة. لقد كنت بالتأكيد في حاجة ماسة إلى قليل من السعوط. عرضت القليل منه على الرجل كذلك فسارع هو الآخر إلى علبته الذهبية التي يحفظها بعناية في جراب جلدي. تناولنا السعوط، وتحدثنا باللغة التركية، وضحكنا، ثم افترقنا أخيراً برفقة تحيات الشيخ المكللة بالعبارات الشرقية اللطيفة وكلا الجانبين يشعر بارتياح كبير. وقد شعرت أنا بشكل خاص بالارتياح، فهذه هي المرة الأولى التي أحل فيها ضيفاً على مسلم، خاصة أنني حصلت على هذا الاستقبال الشديد الودية.

في صباح اليوم التالي، رفعنا المرساة وأبحرنا مارين على «لامبساكوس» و«غاليبولي» المشهورين بجمالهما المنقطع النظير على مر العصور قاصدين بحر مرمرة. ومرة أخرى واجهتنا الرياح العكسية فأرسينا المرساة في العشرين من نوفمبر في جزيرة مرمرة للاحتماء بمينائها عند قرية «كوتا» الصغيرة التي تحيط بها حقول غنية. كان الجو بارداً، وكانت قمم الجزيرة العالية مغطاة بالثلوج. بقينا هنا ثلاثة أيام قضينا معظمها في القرية. واشترينا بثلاثة عشر كوبيلاً جرة من النبيذ ذي الجودة العالية، فمثل هذا النبيذ في بلادنا كان سيكلفنا أربع روبلات للزجاجة الواحدة. لا يسكن في هذه القرية بأكملها إلا اليونانيون، وهم على ما يبدو يفتخرون بأن الأتراك لم يطؤوا أرضهم على الإطلاق. وقد استقبلونا على أننا روسيين أحسن استقبال، فهم لا يتوقفون عن الثناء على أفراد هذه الأمة. قد تتساءل عن اللغة التي تحدثناها معهم. صدق أو لا تصدق، كان في هذه القرية الكثيرون ممن يعرفون اللغة الروسية ولو أن معظمهم يتكلم الإيطالية؛ وقبطاننا يتقنها تماماً كما يتقن الإنكليزية والإسبانية كذلك. اسمح لي أن أضيف أن أذني لم تستسغ اللغة اليونانية التي لم أفهم منها شيئاً إلا تلك الكلمات

التـي حفظتها عن ظهر قلب في المدرسـة، فقد كانـت هذه اللغة عكس مـا كنـت أتوقعه. وأخيراً، اقتربنا في صباح يوم الخامس والعشـرين من نوفمبر من مدينة السلطان.

مذكرات 11/25

ومـع طلـوع الفجـر رأينـا أمامنا القسـطنطينية كلهـا، في كامـل مجدها وسناها تنيرها أشعة الشمس المشرقة. لا أعتقد أن في العالم منظر أكثر جمـالاً ولا أكثر احتفالية من هـذا المنظر. كانت المدينة في نظري تبدو كالمدرج، ذلك أنها كانت ترتفع تدريجياً نحو أطرافها، أما آخر دور من أدوارهـا فقد بلغ ذروته من خلال مآذنها العالية الخلابة التي لا تعد ولا تحصـى. كانـت الرياح ضعيفة للغايـة، بحيث إننا كنا نتقـدم إلى الأمام ببطء شديد.

فـي وقت لاحـق من صباح اليوم، جـذَّف إلى سـفينتنا رجل بقارب صغيـر، وعـرض علينا خدماته كمرشـد، وعلـى الرغم مـن أن القبطان أخبره بصوت عال وواضح أننا لسـنا بحاجة لخدمة من هذا القبيل، إلا أنه صعد إلى السـفينة. وعندها سـألناه عما إذا كان يريدنا أن نلقي بحبل فـي اتجاهـه، وهو ما قمنا به فعلاً. كان مالطيـاً ذا ملامح غريبة. ملامحه تبدو شرقية أكثر مما هي أوروبية، ولكنه لم يكن مثل الشرقيين، بل كان به شـيء متوحش ومثير للاشمئزاز. كان يتحدث القليل من الإنجليزية. سـمعته يتحدث مـع مالطي آخر باللغة المالطية التي تشـبه العربية كثيراً في طريقة نطقها، ولكنني لاحظت وجود العديد من الكلمات الإيطالية وسط الكلمات العربية. وعندما كان هذا الأخير ذاهباً، نشب جدال بينه وبين القبطان لأنه اعتبرنا قد استأجرناه كمرشد فطالبنا بدفع أجرته. وقد بدا لي عندئذ متوحشاً بشكل خاص.

لقد هدأت الريح تماماً الآن بحيث اضطررنا إلى أن ننزل المرسـاة،

ولكنهـا بالكاد نزلـت إلى القاع حين بـدأت الرياح تهـب خلفها. رفعنا المرساة وأخذنا نقترب شيئاً فشيئاً من مدينة السلطان. لم أزح المنظار عن عيني إلا للحظات قلائل. كانت شـبه جزيرة «ستيفانوني» على الجانب الأيسـر وهي عبارة عن هضبة جميلة، وقد بني فوق شـبه الجزيرة قصر بنيت خلفه مختلف أنواع المباني التي كان معظمها بنايات فارعة الطول انتشـرت على طول الشـاطئ. وقد ارتفع الشـاطئ تدريجياً عن مستوى سـطح البحر، ووقفت التلال التي تزينها الأشـجار شامخة كذلك. كما ظهرت أمامنا مباشـرة مدينة عملاقة متخذة شكل مُدَرَّج، وبها مجموعة من المنازل المختلفة مربعة الشكل. كما بدا عدد لا يعد ولا يحصى من المآذن البيضاء ذات القمم السـوداء، وهي تنتصب إلى جانب المساجد الكبيـرة والصغيرة ذات قباب تلاشـى عنها غشـاء الذهـب الذي كانت مطلية به. ووسـط هذا كله، تجد الكثير من الأشجار الشاهقة، خصوصاً أشجار السرو التي كانت قممها تضاهي قمم المآذن علواً. وتحيط بكل ذلـك بقايا الأسـوار القديمة التـي لا تزال علامات فـن النحت اليوناني القديـم ظاهرة عليها. وعلـى الجانب الأيمن، عند مصب «البوسـفور» ترى «سـكوتاري» هو الآخر مبنياً على شـكل مـدرج تقريباً وفوقه ترى جبالاً عالية بني قصر الإمبراطور الضخم في قمة أحدها. ابتداء من هذا المكان، صار السـاحل يبدو مستقيماً تقريباً. كانت ثمة شواطئ ومنازل جميلـة فضـلاً عن قرية كبيرة. ثـم مررنا بأرخبيل كبير جـداً، وبعد ذلك مررنا بمرتفعات آسـيا الصغرى بقممها الشاهقة المغطاة بالثلوج. وكان وراءنـا بحـر مرمـرة الذي تقـع على الحـدود الغربية منـه جزيرة تحمل الاسـم نفسه. كانت الكثير من السـفن تبحر في كل أنحاء البحر. اقتربنا أكثـر فأكثر، ولـم نعد بعيدين عن مكان المنـارة عندما ارتفعت أصوات المؤذنيـن مـن عدة مـآذن تدعو لصلاة الظهـر. وكانت الـكلاب تعوي مرافقـة أصـوات الآذان. عندها بـدأت أميِّز المنـازل بعضها من بعض،

فلاحظت أنها كلها مبنية من الخشب، مع وجود استثناءات قليلة جداً، وأنها أكواخ واهية وقذرة. ثم وصلنا إلى «سير الجي» فأخذت ألقي نظرة عن قرب على بعض هذه البيوت المتناثرة هنا وهناك، والتي كانت هي الأخرى مبنية من الخشب. كانت هذه البيوت مبنية بطريقة جميلة جداً. كان علينا الآن أن نبحر عبر التيار لأنه قوي جداً في هذا المكان بحيث إننا لم نكن لنتمكن بأي حال من الأحوال من الإبحار حول شبه جزيرة «سير الجي» اعتماداً على هذه الرياح الضعيفة. لسوء حظنا، هدأت الرياح الآن تماماً، وعلى الرغم من أن أربعة من البحارة الأقوياء جروا سفينتنا الشراعية مجدفين، إلا أن التيار أعادنا إلى الوراء لمسافة غير قصيرة. لكن، وفي الوقت نفسه، سنحت لي الفرصة لرؤية المدينة من أفضل زاوية ممكنة. ذلك أنني، بالإضافة إلى كل ما ذكرته من قبل، تمكنت الآن من رؤية «البوسفور» أيضاً والأراضي الرائعة التي تحيط بالميناء، ومضيق القسطنطينية ابتداء من «جالاطا» و«طوفاناس» والتي تُشكل ما يشبه بحيرات صغيرة تتجمع فيها المياه. وهذه الأراضي تشكل مع ناحية «سكوتاري» ما يشبه مدرَّجاً خلفيته قصر الإمبراطور الجديد الضخم الذي يبدو كأنه يناطح قمة الجبل. ينتهي الأفق في كل مكان من حولي بقمم جبال شاهقة، وبتلال بديعة لدرجة أن البوسفور نفسه لا يتمكن من مضاهاة كل ما يحيط به من جمال.

وهكذا غربت الشمس الساطعة وغاصت في البحر، واختفت مدينة المآذن والقصور المتألقة شيئاً فشيئاً وسط إشراقة المساء، ووسط لهب الألوان التي تخلق في الشرق ضوءاً أحمر ملتهباً في الغرب. وبالإضافة إلى هذا، فقد كانت حولنا أعداد لا حصر لها من القوارب التركية الطويلة التي يقودها رجال على رؤوسهم عمامات بيضاء أو خضراء، وعدد من القوارب اليونانية الكبيرة التي كانت تقاوم التيار. كانت ثمة العديد من السفن الكبيرة التي وصل بعضها إلى الميناء، بينما أنزل البعض الآخر

المرساة بالقرب من الشاطئ مثلما فعلنا نحن، وبعض آخر كان لا يزال يبحر في البحر، قريباً أو بعيداً، هنا أو هناك. وكانت ثمة قطعان كبيرة من خنازير البحر تتشقلب على السطح وهي تطرطش المياه. وكانت الأغاني تسمع تارة من المراكب وتارة أخرى من الشاطئ. ولقد كانت هذه الأمسية أروع أمسية من نوعها بسبب كل ذلك. كان الجو جميلاً ودافئاً طيلة اليوم. كان مثل أيام الصيف الدافئة عندنا. وفي المساء، هبت الرياح قليلاً ولكن الجو لم يبرد. كان عمر القمر أربعة أيام، وكان قرنا الهلال مشرقين فوق سماء مدينة الأتراك إشراقةَ الهلال في شعار النبالة التركي. كان الهلال مشرقاً بشدة لدرجة أنني كنت قادراً على التمييز بينه وبين أجزاء القمر الأخرى. ولأن التيار كان قد أعادنا إلى الوراء لمسافة غير قصيرة، فقد كان القبطان يتجول بمفرده عابساً مزمجراً لأنه كان غاضباً جداً لكون الأمور لم تسر كما أراد لها أن تسير، فهو كان يفضل أن ينزل المرساة في «سيرالجي» في الجانب الآخر. أعتقد أن هذه هي أول مرة يتعكر فيها مزاجه بسبب الطقس خلال الرحلة بأكملها. كان يلقي على علمنا نظرة بين الفينة والأخرى مراراً وتكراراً ليرى ما إذا كانت الريح، أياً كان نوعها، موجودة، ثم يذهب مرة أخرى فيلقي نظرة على سطح الماء يفحص حركته مردداً المرة بعد الأخرى: «لسنا بحاجة إلا لأقل قدر ممكن من الريح». ولكن ترقبه كان دون جدوى، فالريح لم تتحرك البتة، والتيار دفعنا إلى الوراء بقوة. لم أر الكثير من الطيور خلال الرحلة بأكملها، ولكنها كانت تحلق هنا في أسراب كبيرة فوقنا في صخب عارم.

11/26

وعندما هبت عاصفة صباحية قوية، رفعنا المرساة وأبحرنا مغادرين جزر «برينكيبوس» التي توصف بكونها جنة على الأرض، والتي قضينا الليلة

كلها بسلام قريباً منها. بالكاد كنا قد تمكننا من الانطلاق عندما التصق بجانبنا تاجر سفينة إنجليزي يعرض خدماته على قبطاننا، لكن الريح هدأت مرة أخرى والتيار جرنا إلى الوراء مما اضطرنا لإنزال المرساة من جديد. وبعد مرور وقت قليل، جاء مركب يجذف فيه طفل صغير وولد قد يكون في الرابعة عشر من العمر، فأخذ هذا الأخير يمدح رب عمله، وهو الآخر تاجر سفينة. ظل الصبي في سفينتنا مدة طويلة، ثم تركنا أخيراً عندما جاء مركب لتاجر سفينة آخر متقدم في السن لتقديم خدماته. إن كلاً من الصبي والرجل العجوز ومرشدين آخرين كانا قد جاءا ليعرضا خدماتهما أيضاً، مالطيون. كان الصبي يتحدث الإنجليزية بطلاقة زيادة على المالطية والإيطالية، وقد سمعته يتكلم هذه اللغات بنفسي. كما أنه يتحدث التركية بشكل مقبول، وقد ذكر أن اليونانية هي اللغة التي يتقنها من بين اللغات التي يعرفها. لقد كان صبياً وسيماً ومهذباً للغاية. يدل سلوكه وطريقة كلامه على كونه حكيماً ورصيناً مثل رجل راشد، على الأقل، وليس فيه ما يمت للصبيانية بصلة ولو قليلاً. كان ذلك المرشد العجوز الذي صعد مدة وجيزة إلى سفينتنا لإلقاء نظرة من حوله قد بعث الصبي ليأخذ بطاقته لسفينة شراعية ألمانية كانت في طريقها إلى هنا. ومع أنه ضعيف القوى، إلا أنه ساعدنا على رفع المرساة قبيل الظهر عندما هبت ريح خفيفة مرة أخرى ثم بقي بعد ذلك ليتناول وجبة العشاء معنا.

وعندما تقدمنا قليلاً هدأت الريح مرة أخرى مما حتم علينا إنزال المرساة من جديد، وفي الوقت نفسه استقر قاربٌ جنب سفينتنا. وكان في القارب رجل تركي تكلف بالتجديف وعجوز نائم. كما كانت بينهما امرأتان تركيتان. كان الجميع في حالة سكر غير أن العجوز كان أكثرهم سكراً على الأرجح، وذلك لأنه نام من فرط ما شربه. كانت المرأتان تغنيان أغانيَ تركية برفقة الرجل المكلف بالتجذيف، وكان هذا الأخير

قـوي البنيـة في منتصف العمر غيـر أن غناءهم كان رتيباً وناشـزاً. بدت أغانيهـم وكأن بهـا نغمـات روسـية ولكنها كانـت بعيـدة كل البعد عن الغناء. وفي الوقت نفسه، كانت البيبة[1] تنتقل بين الثلاثة من فم أحدهم إلى فم الآخر. وكانت المرأة الأكبر سناً، في الثلاثين من عمرها تقريباً، تدخـن بـلا انقطـاع وتنفـث غيمات مـن الدخان علـى من فـي القارب كلهـم. وبالإضافـة إلى ذلك، فقد حاولـوا الزيادة في حـدة الحالة التي كانوا فيها فتناولوا كأسـاً من الشـراب؛ أو بالأحرى كوبـاً كانوا يملؤونه من زجاجة كبيرة تحتوي على نوع من المشروبات الروحية القوية، دون التوقـف عن الغناء. كانـوا يحـومون حول سـفينتنا ويطلبـون منا نبيذاً. وفي النهاية، قدمنا لهم كأسـاً من البرانـدي. ارتشـفت المرأة الأكبر سناً أولاً رشـفة صغيرة، ثم رشـفة أخـرى. ربما تكون المرأة الأصغر سـناً، حوالي ثماني عشرة سنة، قد شربت أكبر قـدر ولـم تُبق لرجل المجداف إلا جرعـة صغيرة أفرغها هذا الأخيـر في حلقه. وبعدها، تابعوا غناءهم الذي لـم يسـتمر طويلاً حيث اتكأ صاحب المجداف على الجانب وبدأ يتقيـأ، الأمـر الـذي بـدا بائسـاً للغايـة. كانت المـرأة الأصغر جميلة جـداً، لهـا ملامح يونانية تجسـد كل ما يمكن للمـرء أن يتمناه في امرأة جميلـة. ينسـاب شـعرها الطويل ذو اللون الأسـود القاتـم على ظهرها فـي شـكل جدائل. بـدأت هــذه الأخيرة تركـل العجـوز النائـم فـي القارب بقدميها الحافيتين مسـفرة في الوقت نفسه عن ساقين بيضاوين مكشـوفتين إلى الركبتين اللتين كانت قد ربطت كمي سروالها العريض عليهمـا على ما يبـدو. لكنها لـم تتمكن من إيقاظ العجوز. على العكس مـن ذلـك، يبدو أن السـكر قد نال منها منـالاً كبيراً إذ إنهـا كانت ترتمي فـي أحضان المـرأة الأخرى تارة، وترتطم بجانـب المركب تارة أخرى بـلا حـول ولا قـوة. وهاهـي الآن تبيـن عـن ذراعيهـا المليحتين وعن

(1) أو الغليون: أداة صغيرة تستعمل للتدخين.

فستانها الجميل. نادراً ما رأيت امرأة مغرية بهذا القدر ولا فتاة جميلة لهذا الحد، لكنها سكرانة. وسرعان ما عادت تحاول الوقوف في القارب المتمايل وهي تصرخ مطالبة بالمزيد من النبيذ، تحدق بعينيها السوداوين الواسعتين وكأنها تستمتع بالسكر تمام المتعة. يبدو أن هذه الجماعة كانت قد خرجت في نزهة هدفها الرئيسي هو الخروج إلى البحر وترك القارب يترنح في الماء كيفما شاء، ومشاهدة العالم منه أو الاستمتاع في المركب بطريقة أو بأخرى. وهذا على الأقل هو ما فعلته هذه الجماعة التي فارقتنا أخيراً وهو ما يفعله جزء كبير من أصحاب القوارب الكثيرة التي رأيناها اليوم والتي كان عددها اليوم أكثر من الأيام الأخرى. كانت تكتفي بمجرد الوقوف وسط البحر الساكن. لقد قامت هذه الجماعة بتسليتنا مدة ساعة ونصف. وقد وقفتُ طول الوقت أتفرج عليهم. ولكن، بعد أن شربنا القهوة التي لا تقدم لنا إلا عشية أيام الآحاد فقط، هبت ريح قوية مرة أخرى فرفعنا المرساة وأبحرنا. وصلنا إلى مسافة قصيرة من المنارة التي ترتفع من أعلى أسوار القسطنطينية مطلة على مشارف المضيق. منذ إبحارنا بقي نظري متسمراً طول الوقت على جماعة القارب السكارى. وقد بقي قاربهم في مكانه بلا حراك وسط البحر وربما تحرك قليلاً إلى الأمام إلى حيث جذبته التموجات الخفيفة. وقد بقيت ذكرى السكرانتين المقززة، وكذا ذكرى الفتاة الجميلة المغرية في ذهني وقتاً طويلاً.

اضطررنا اليوم أن ننزل المرساة ثلاث مرات، وقد تجاوزتْنا حتى الآن ثلاثون أو أربعون سفينة من السفن الكبرى التي كانت قد خرجت من ميناء القسطنطينية وسط رياح المساء الشمالية الشرقية القوية. كما كان في الناحية عدد مماثل من السفن التي كانت تحاول مقاومة الرياح، وعدد أكبر من السفن التي أبحرت باستعمال الصواري أو الأشرعة هنا

وهنـاك. كمـا أننـي تمكنـت من مشـاهدة ما قـد يكون أجمـل منظر في العالم حين وقفت في الغسق أنظر إلى الشمس في لباسها الأحمر. كان القبطان سيء المزاج اليوم بأكمله، وكان يتجول من حوله وهو يسب ويشتم وأنا أيضاً على الرغم من كل ما بدا أمامي من جمال، أخذ صبري ينفد، ولم أعد أطيق انتظار الوصول إلى اليابسة.

11/27

تناولنـا القليـل من الفطـور وصعدنـا إلى «جالاطـا». كان الجـو غائماً وضبابيـاً. لذلـك فإننا لـم نتمكـن من الاسـتمتاع بالمناظـر التي يحكى عـن جمالهـا كثيراً مـن ميناء القسـطنطينية حتى البوسـفور. زرنـا عدداً مـن تجار السـفن ثـم زرنـا القنصلية الروسـية. لـم تعجبنـي «جالاطا» و«بيرا»: شوارع ضيقة وقذرة امتدت على طولها أكواخ خشبية فوضوية بـدت آيلـة للانهيار في أي لحظـة. وحتى جمالية تلك المنـازل الكبيرة الجميلـة التي تبرز هنا وهناك لم تنل حقها وسـط هذا الزخم الهائل من القبح. ومع ذلك، فقد اسـتمتعت بمشـاهدة الزحام الذي يضم مختلف أنواع الشـعوب والأمم، وبمشـاهدة تلك الدكاكيـن التركية المتواضعة والمفعمة بالحياة والتي تشبه أزقة الأسواق الشعبية عندنا أكثر مما تشبه محلات الأسواق التجارية.

ذهبنـا لزيارة «هيريـن»، تناولنا معاً وجبة العشـاء في فنـدق ألماني. دخلنـا معـه في جدال لا نهاية له وأفرغنا على مسـمعه كل ما في جعبتنا بصراحة. وفيما عدا ذلك، تنقلنا معظم الوقت للأسف الشديد من تاجر سـفينة إلى تاجر سـفينة آخر. تظاهـر «هيرين» بالمرض وعرض نفسـه علـى طبيب يوناني دجال اشـتهر بعلاجه الممتاز ضـد مرض الزهري. وكان «هيرين» قد أقام هنا مدة ثلاث سـنوات الآن فنسـي ذلك الشـيء القليل مما كان قد تعلمه من الشـرقين. وبدلاً من ذلك، فقد كرس وقته

هنا لدراسة العلاج بالمياه ودراسة الكتاب المقدس، وخاصة «سفر الرؤيا» الذي كان يملك كتاب تفسير له باللغة الإنجليزية. لقد كان مجنوناً حقيقياً، ولا أعتقد أنه سيصبح يوماً ما مثل الناس العاديين أبداً، هذا إذا لم يزدد جنوناً.

11/28

مر هذا اليوم مثل الأمس تقريباً. زرنا «جالاطا» و«بيرا». زرنا بعض تجار السفن، وتناولنا وجبة العشاء في ضيافة «هيرين» في نزل «داتلباون»، ثم عدنا في وقت مبكر في المساء إلى السفينة.

11/29

رسونا في الساحل قرب المنارة في ناحية إسطمبول، حيث كان الناس يحصلون على المياه من البحر. لقد كان هذا المكان أجمل وأنظف بكثير من «جالاطا». المكان هادئ تماماً، وترى في كل زاوية أعداداً كبيرة من الكلاب المستلقية. في حين ليس ثمة الكثير من الناس لأن هذه الناحية ليست منطقة تجارية كما أن الصباح لا يزال في بدايته. بين الحين والآخر، كنا نرى بعض الرجال والنساء الأتراك. وفي كثير من الأحيان كان أمام المنازل الكثير من الأطفال الذين يلعبون بالحجارة أو بغيرها. مشينا على طول الطريق صعوداً إلى غاية مسجد السلطان أحمد، الذي بني على طراز كنيسة القديسة صوفيا تماماً. ثم مشينا عبر الساحة الكبيرة المجاورة التي تحتوي على عمود «جوستينيانوس» القديم المتهالك. وقد تمت الكتابة على أحد جانبيه باللغة اللاتينية وعلى جانبه الآخر باللغة اليونانية. كما كانت في تلك الساحة مسلة مصرية كبيرة ظلت بحالة جيدة جداً. وكان من الغريب أن تجد في مثل هذه المدينة المكتظة التي اختلط فيها كل شيء ببعضه مثل هذه

الساحة الكبيرة. هذه الساحة أكبر بكثير من ساحة «كاوباطوري[1]» في هلسنكي. ثم تجولنا مروراً بكنيسة القديسة صوفيا. وأكثر ما يعجبني في القديسة صوفيا وغيرها من المساجد هي ساحاتها الواسعة المفتوحة والأشجار المغروسة فيها وخصوصاً أشجار السرو. وبالإضافة إلى ذلك، فقد رأينا ضريح محمود الذي تحيط به حديقة هو الآخر. لقد أعجبني هذا الجانب من إسطمبول عموماً أكثر من الجانب الآخر. لقد كان الأتراك ودودين معنا، كما أنهم كانوا بالكاد ينتبهون إلينا عندما نمر بهم. فلم يكن أحد ينبس بكلمات بذيئة مثلما يحصل في كثير من الأحيان في أماكن أخرى. حتى الأطفال هنا هادئون ووديعون، ولم نر هنا لصوصاً من الذين لا تخلو منهم أية مدينة أوروبية أخرى. ولكن تلك البيوت الخشبية المتهالكة في كل مكان كانت تبدو مشرفة على الانهيار، وكانت هنا وهناك بين تلك البيوت بعض الآثار والبقايا من أقدم العصور، من جدران منهارة وما شابه ذلك.

ثم مشينا وصولاً إلى الشاطئ، وذهبنا إلى الجانب الآخر من المضيق لتناول وجبة العشاء في حانة يونانية. الحانات هنا مثل الحانات في سان بترسبورغ، عادة ما تتكون من طابقين: المطبخ في الطابق السفلي حيث ترى الأكل يطهى في الطناجر وحيث يمكنك تناول الوجبات أيضاً. أما الطابق العلوي، فيبدو أنه محجوز لعلية القوم من النزلاء. وقد كنا نحن قد أدرجنا ضمنهم. هنا في الطابق العلوي، كانت مجموعتان يونانيتان تتكون كل منها من نحو اثني عشر شخصاً. وفيما كانت إحدى المجموعتين تجلس إلى الطاولة تأكل وتشرب، كان موسيقيان يعزفان لها: الأول على الكمان والثاني على القيثارة وكان عزفهما قبيحاً للغاية. وقد انضمت المجموعة إلى هذا العزف القبيح بغناء صاخب أقبح. والحقيقة أن عازف القيثارة لم يكن يعزف على الأوتار، بل إنه كان

(1) ساحة السوق، وهي من أشهر الساحات في العاصمة الفنلندية هلسنكي.

يسحبها كلها مرة واحدة، كما تعزف آلة «البالاليكا» في روسيا. ولكن هذه الأخيرة تطرب أكثر في نظري. لم تكن هذه القيثارة اليونانية، التي كانت أوتارها علاوة على ذلك مصنوعة من الألياف، تصدر صوتاً وإنما كانت تصدر ضربات فحسب. كما أن عازف الكمان كان يسحب ويجر الأوتار بطريقة غريبة لدرجة أنني لم أتمكن من تمييز اللحن إلا للحظات نادرة. ما كانا يحاولان فعله بعيد كل البعد عن الموسيقا، ولا يمت لها بصلة، وهو لا يعدو ببساطة أن يكون ضجيجاً ونشازاً. أما المجموعة الثانية، الذي كانت أكبر من الأولى قليلاً، فكانت في آخر الغرفة ترفه عن نفسها عن طريق الرقص مرفوقة هي الأخرى بعزف على الكمان والقيثارة. وكان هذا الأخير أكثر نشازاً من الأول. كان الموسيقيون يتصببون عرقاً والأمر سيان بالنسبة للراقصين أيضاً. الرقص في حد ذاته كان جميلاً جداً، وكان يشبه رقصة «المينوات» عندنا. ولكن بعض الراقصين ممن يتقنون الرقص على ما يبدو، كانوا يقفزون مجموعة متنوعة من القفزات ويقومون بشتى أنواع الشقلبات. وقد أبانوا بالفعل عن رشاقة مذهلة أكثر من مرة. كان الجميع يتمتعون بالرشاقة والجاذبية تبدو على الجميع، ولم يكن أي شخص منهم يبدو أخرق أو خشناً مثلما هو الحال عندنا في كثير من الأحيان. كانت المجموعة مختلطة تتكون من الصغار والكبار، ولكن الجميع، حتى الشيوخ منهم، ابتهجوا ورقصوا وشربوا الكثير من الخمر.

يبدو أن معظمهم من العمال والبحارة. كنا نجلس، إضافة إلى ثلاث أو أربع طاولات آخرى بجانبنا، بين هاتين المجموعتين اليونانيتين، وكان علينا أن نصرخ حتى نتمكن من سماع بعضنا البعض. كان كل شيء رأيناه وشاهدنا جد مثير للاهتمام، ما عدا الموسيقا التي تمنينا لو أنها فقط كانت على نحو أفضل.

في الصباح، ذهبت مرة أخرى إلى إسطمبول مع «بيساني» أو «الرجل الصغير» كما يسميه حارس قمرتنا. سلكنا الطريق نفسه الذي سلكناه أمس تقريباً، مروراً بضريح السلطانين إلى ساحة العبيد. لم يرغب الحارس أن يدخلنا في البداية، ولكنه أرانا المكان كله مقابل بياستر واحد. كانت الساحة أو الميدان محاطة بصف من البيوت، وكانت الغرف أو الدكاكين تفتح على ممر به أعمدة كثيرة. كان العبيد يجلسون في هذه الدكاكين، أو في الخارج في الممر، أو تحته، لأن هناك غرفاً أيضاً. وكانوا يجلسون أو يستلقون على سجاجيدهم، يلتحفون أسمالاً مهترئة بالية، ولم يكونوا أفضل حالاً من الكلاب أو الحيوانات الأخرى. أما في الصيف، فعادة ما يكونون عراة تقريباً عموماً، ولكنهم الآن يلتحفون بعض الأسمال بسبب البرد. وكانت النساء يشكلن غالبية العبيد. وقد وجدن في «الرجل الصغير» تسلية كبيرة إذ تحدثن معه وضحكن. رأيت القليل فقط من الرجال. وقد أثر كل هذا في نفسي تأثيراً مثيراً للاشمئزاز نادراً ما شعرت به. وقد تجولت بين إخواني السود، من صف إلى آخر وأنا أشعر بالاشمئزاز وبعدم الارتياح. في الحقيقة كان من الصعب علي التعرف عليهم. وفي الباحة، جلس بعض الرجال الأتراك في المقهى يشربون القهوة، ويدخنون الأرجيلة، وهم ربما من المشترين. كان الوقت لا يزال مبكراً بعض الشيء، لذلك فإننا لم نر كيف تتم عملية البيع والشراء. ولكني شعرت بالسعادة لأننا خرجنا من هذا المكان بسرعة.

وبعد ذلك، ذهبنا إلى البازار، أو توجهنا بالأحرى نحو جزء منه. وكان مكاناً ينبض حيوية وأصالة شرقية. اشترى القبطان الكثير من الأشياء، وكان من الممتع جداً مشاهدة الرجال وهم يضحكون على الرجل الصغير البارع رغم لسانه السليط. من الممتع حقاً النظر إلى

الرجال الأتراك وهم يجلسون واضعين الرجل فوق الأخرى، ويدخنون الأرجيلة وعلى ووجههم تعابير جدية جداً. ورغم أن معظمهم بدوا غير مبالين بما يجري في العالم بالمرة إلا أن الكثيرين، ولا سيما الأرمن، سألونا بالإيطالية أو بالتركية عما نحتاجه أو عما نريد. الأسواق والساحات التجارية الكبرى عموماً بالنسبة لي هي أكثر الأماكن تسلية في المدينة. وهذا المكان بشكل خاص يجمع أحبائي الأتراك الذين انحصر نشاطهم في الجلوس على وجه الحصر تقريباً، وإلى جانبهم ثروات الشرق بشتى أنواعها. ولكن هناك أيضاً بعض السلع الإنجليزية الاستعمارية التي لا تناسب في رأيي تلك المنتجات الشرقية المختلفة والغريبة. وبعد ذلك ذهبنا مرة أخرى إلى الجانب الآخر، وهناك تجولنا إلى أن حل الظلام. وعندها جاءت سفينتنا لاصطحابنا.

12/1

ذهبنا وقت العشاء إلى إسطمبول، ولكننا ذهبنا إلى مكان مختلف عن المعتاد هذه المرة. وهناك التقينا أحد الحراس، مثلما هو الأمر في جميع الموانئ الأخرى وفي جميع الأماكن الحدودية، فطلب منا إذن الدخول. كنت قد نسيت إذن الدخول في السفينة فرفض الحارس السماح لنا بالعبور بأي حال من الأحوال إلا عندما أرسلنا قارباً إلى السفينة لجلب الإذن. كان الرجل حاد المزاج، ولكنه سرعان ما أصبح ودوداً عندما رأى الأوراق التي جلبناها من السفينة. ذهبنا إلى المدينة وزرنا مسجد أحمد، الذي بساحته مجموعة من الجنود، وجموع غفيرة. دخلنا إلى المسجد دون أن يعيقنا أو يمنعنا أحد، وأدركنا بأن السلطان كان قد جاء لأداء صلاة الجمعة في المسجد. وهذا ما أخبرنا به شرطي أسود يتحدث العربية. وقد أجاب بتهذيب شديد عن جميع أسئلتي ثم أرانا أفضل مكان يمكننا مشاهدة السلطان لدى مغادرته انطلاقاً منه. ثم ذهبنا

بعد ذلك إلى الجانب الآخر من الساحة دون أن يمنعنا الجنود أو رجال الشرطة. وقفنا في الظل تحت شجرة زيزفون كبيرة فتمكنا من مشاهدة كل شيء انطلاقاً من هناك. يبدو أن الباب الذي سيخرج منه السلطان - والذي يؤدي إلى الجانب الآخر من هذا المبنى الكبير - قد أضيف في وقت لاحق. وقد وقف على جانبي هذا الباب صفان من الشبان الذين يشكلون الحاشية أو الحرس الشخصي للسلطان. وكانوا يرتدون زياً متواضعاً وعلى رؤوسهم قبعات حمراء، لا يحملون من السلاح إلا سيوفاً مجردة. وعلى مسافة من هؤلاء، وقف عدد من الجنود مصطفين في صفين. أولاً الجوقة العسكرية ثم الجنود المصطفون إلى غاية بوابة ساحة المسجد الأخرى المنفتحة على الساحة الكبرى. وبين هذين الصفين، تم إيقاف خيول السلطان وأعوانه من كبار المسؤولين. وقد كانت تلك الخيول جميلة ورشيقة وصغيرة وليست ضخمة وخرقاء كالخيول الألمانية. لم يكن عليها أكثر من سرجٍ ولجام مزينين بالذهب زينة كثيرة. وقد كان جواد السلطان جميلاً بشكل خاص وقد كان حصاناً أبيض له سرج مزين بالذهب وركابٌ مُذَهَّب. وكان عند بوابة المسجد الرئيسية حشد كبير من الناس. كان الرجال يقفون على جانب فيما تقف النساء على الجانب الآخر وهن يغطين وجوههن بحجاب أبيض. لقد كان ذلك مشهداً مميزاً جداً.

مضت أكثر من نصف ساعة ونحن نشاهد هذه الجماعة المختلطة، وعندها اقْتِيد حصان السلطان إلى مكان بُني لهذا الغرض فقط. كان ثمة أحد المسؤولين يطلب من أقرب رجال الحراسة واحداً واحداً بالتزام أماكنهم فيما كان ضابط سام ينظم الجنود. وبعد لحظات، ركب السلطان حصانه وسار بين صفي الجنود خارجاً إلى مستقبِليه وسط عزف الجوقة العسكرية دون أي طقوس أخرى. لم يتحرك الحشد الكبير المتجمع في المكان أي حركة، لم يصيحوا هاتفين ولم يقوموا

بأية حركة ترحيب أخرى. ركب السلطان فرسه وسار به في خطوات بطيئة، وتبعه الجنود وغيرهم من الموظفين في مسيرة بطيئة سيراً على الأقدام. ثم سار الموكب بالطريقة نفسها على طول الشوارع الرئيسية إلى سرالجي. وقد اصطف الجنود هنا أيضاً على جانبي الشوارع، كما انتشرت هنا وهناك جوقات عسكرية عزفت معزوفات معينة عند اقتراب السلطان. ورغم أن هذه الشوارع قد تكون أهم شوارع المدينة، إلا أنها كانت ضيقة لدرجة أن الزحام كان شديداً. كان الحرس في بداية كل شارع ثانوياً، وكان النظام يسود في كل مكان. ولم يكن يُسمح بالجري أو ما شابه ذلك، وعندما حاولنا بعض المرات أن نسرع الخطى للبقاء مع الموكب الرئيسي، كان أحد الضباط يطلب منا على الفور الحد من سرعتنا. كان كل شيء جميلاً وخالياً من الأبهة والخيلاء. كان كل شيء احتفالياً.

أما السلطان فكان شاباً ذا ملامح لطيفة جداً. لم يكن بوجهه ذي اللون الشاحب قليلاً ما يمت بصلة للملامح التركية أو الشرقية. كانت ملابسه جداً بسيطة: رداء أزرق ياقته مزخرفة زخرفة شديدة، وقبعة عادية حمراء تركية أو يونانية مثل أي جندي من أدنى الدرجات. أما الملابس التي كان يرتديها تحت ردائه فلم أتمكن من رؤيتها غير أنني أعتقد أنها ملابس أوروبية عادية من قبيل السروال الطويل وما إلى ذلك. كما أن زي الجنود كان بسيطاً جداً أيضاً. فالضباط كانوا يرتدون معطفاً، والجنود كانوا يرتدون سترة، وأعتقد أن جميع المسؤولين كانوا يرتدون على رؤوسهم قبعات حمراء، ولم يكن أي منهم يرتدي عمامة. ويظهر بوضوح أن الوقت لم يتح بعد للأتراك ليتعودوا على أزيائهم الجديدة: ليس هناك منظر أقبح من منظر جندي تركي يرتدي سروالاً ضيقاً وقميصاً أضيق تعلوه الآلاف من التجاعيد. منظر جندي تركي دون عمامة ودون لحية، غالباً ما يرتدي حذاء أكبر من قياسه تتدلى منه

الجوارب كالنقانق. والضباط كذلك لم يكونوا قد تعودوا بعد على بذلاتهم فهم يبدون مذهولين ومتصنعين مثل الكلب الذي قطع ذنبه. عوملنا معاملة حسنة جداً، وسمح لنا بالوصول إلى أماكن لا يسمح حتى للأتراك بالوصول إليها. كل هذا راق لي كثيراً. راق لكلينا كثيراً.

وفي وقت لاحق، ذهبنا لمشاهدة القصر الجديد الذي لا يزال قيد البناء والذي سيكون على الطراز الروسي. سوف يصبح دون شك أفخر بناية في القسطنطينية بأسرها، وموقعه يطل على كل مكان. وقد رافقنا هنا، شاب يوناني مضحك للغاية لم أر في حياتي قط مثل براءته وفرحه الطفوليين.

12/2

عدنا والتقينا في «بيساني» بثلاثة قباطنة فنلنديين آخرين كانوا قد وصلوا من أوديسا. وكانوا هم القبطان «هيلستروم» قبطان سفينة «هسبيروس» من مدينة كوكولا، والقبطان «نيلون» قبطان سفينة «جون بول» وهو نفسه يشبه «جون بول» نوعاً ما، والقبطان «بلانكسفارد» قبطان سفينة «فيكتوريا». ذهبنا جميعاً - نحن الفنلنديين الخمسة - لتناول وجبة الغداء في فندق «داتلباوم». أما الفنلندي السادس «هيرين» فلم يستطع الخروج بسبب مرضه. وبعد ذلك عدنا إلى جميع السفن ما عدا «بلانكسفارد». ذهبنا أولاً إلى «جون بول»، ثم إلى «هسبيروس» التي جلسنا فيها مدة طويلة من الوقت، لعبنا لعبة الداما وشربنا مشروباً كحولياً تم خلطه بالنبيذ والشمبانيا. هذه هي آخر مرة أكون فيها مع كل هذا العدد من الفنلنديين بالتأكيد، ولن تتكرر إلا بعد زمن طويل. كما كان من دواعي سروري أيضاً أنني تمكنت خلال رحلتي هذه من رؤية قصر «دولمي باهشا» الجديد الذي أعتبره أجمل القصور التركية.

12/6

ذهبنـا إلى المدينة مـرة أخرى وزرنا الجانب الإسـطمبولي، وذهبنا إلى الميـنـاء حتى الجسـر. وعندما اجتزنا الجسـر، وصلنا إلـى مكان جميل يمكـن للمرء أن يشـاهد انطلاقاً منه ميناء السـفن الحربية، والمرتفعات التي تقع على الشـمال الشرقي منه. كانت معظم السفن في ذلك الميناء سفناً بسيطة عادية، ولكنها مع ذلك كانت أفضل مما كنت أتوقعه. وعند عودتنا من هناك، سمعت بأن ثمة باخرة ستغادر إلى مصر غداً. وبما أنه لم يتبقّ شـيء أفعله هنا خاصة وأن الجو كان قبيحاً، ولا أحد يستهويه التنـزه في الطرقـات المليئة بالوحل، فقد قـررت الرحيل. توجهت إلى إدارة شركة السفن، ولكنني تركت اتخاذ القرار إلى اليوم التالي.

عندمـا كنـا نتجـول في أنحاء إسـطمبول مشـياً على الأقـدام، مررنا بمكتبـة سـألت صاحبهـا باللغـة العربيـة إذا كان بإمكاننـا الدخول إلى الداخـل. دُعينـا للدخـول بطريقة من ألطف مـا يكون، ولكن المسـألة تعقـدت عندما لـم أتمكن من فك الأشـرطة التي تربط أكمام سـروالي بحذائـي بحيـث لم أتمكـن من خلـع الحذاء. ومـع ذلك، فقد سـألني البـواب بالتركيـة عن نوع الكتب التـي أريد فهو لا يعـرف اللغة العربية علـى مـا يبـدو. أسـعفتني ذاكرتـي إلـى البيضـاوي والحريـري فصاح مردداً أسـماء الكتب التي ذكرت له لعامـل المكتبة الذي قال إن الكتب موجودة، لكنه أصر إصراراً كبيراً على أن علينا إزالة أحذيتنا إذا كنا نريد الدخول إلى الداخل.

12/7

كنـا بالـكاد قـد وصلنـا إلى اليابسـة الليلـة الماضيـة عندما هبـت رياح جنوبية غربية ضعيفة. رفعنا المرسـاة وأبحرنا لمسـافة قليلة إلى الأمام، ثـم عادت الريح وهدأت فأنزلنا المرسـاة مرة أخرى. ولكن، في صباح

اليوم التالي، هبت ريح شمالية غربية أقوى فأبحرنا من جديد. وقد حان وقت الوداع الآن. وقد كان «فيكلوند» ودوداً بشكل لا يصدق لدرجة أنه لم يأخذ مني ثمناً مقابل الرحلة. أعتقد أنني سوف أشتاق كثيراً إليه، للطافته ولرجولته النادرة، ولن أنساه أبداً. أوصلني إلى سفينة سويدية راسية ومنها وصلت إلى اليابسة بواسطة مركب. كان المجدف لطيفاً جداً معي عندما سمعني أتكلم بعض الكلمات العربية. اعتقد أنني عربي فسر بذلك غاية السرور، وأخذ يخبرني عن أسماء جميع المنازل وأسماء الأماكن، وكذلك عن مختلف أسماء الأشياء التركية، وعندما أعطيته نصف «بياستر» أكثر مما طلبه مني، بدا سعيداً جداً وأغرقني بالمديح باللغة االتركية مكرراً تلك العبارات إلى ما لا نهاية.

ثم ذهبت بعد ذلك إلى المدينة واشتريت حزاماً تركياً، وسترات تركية وأشياء أخرى. ثم اشتريت تذاكر السفينة وما إلى ذلك. تناولت العشاء مع «هيرين» الذي تمكن اليوم من الخروج، ثم ركبت السفينة في الساعة الثالثة. تجولت على متن السفينة منتظراً ضاجراً إلى الساعة السادسة حين رُفعت المرساة أخيراً وانطلقنا.

تركت القسطنطينية الآن على متن الباخرة «مينتور» متجهاً إلى «سميرنا»[1]. تحدثت مع بعض ركاب السفينة وهم جنود أتراك. كانوا ثلاثة: ضابط واثنين من ضباط الصف، أو ما شابه ذلك. ويبدو أنهم كانوا يستمتعون كثيراً بزجاجة مليئة بمشروب كحولي. كان الضابط متعجرفاً طول الوقت، وقد تشاجرت مع أحد الجنديين الذي كنت أتوسم فيه الرفقة الطيبة من قبل. كنت خلال هذه الفترة القصيرة جداً قد كسرت إبان هذه الرحلة ثلاث بيبات[2] تركية كنت قد اشتريتها من أجل هذه الرحلة. والآن، حاولت إقناعه بأن يبيعني واحدة. وبالفعل

(1) وهي إزمير حالياً.

(2) مفردها بيبة، تستعمل للتدخين.

فإنـه باعهـا لي وهكـذا تعارفنـا فبـدأ يحقق معي بشـأن معرفتـي باللغة العربيـة. لـم يكن هو يعرف اللغـة العربية على الإطـلاق، ولكنه بفضل ذكائه الشرقي، لم يستطع أن يتحمل كوني أعرف هذه اللغة. كان يصيح فـي قائلاً: «أوه!» ثم يعبث بتقاسـيم وجهه سـاخراً. وأخيراً، ذهبت إلى النوم، ولكن السـرير كان سـيئاً للغاية لأنه مجرد مقعد خشـبي عريض. كنـت أريد الادخار فاشـتريت تذكرة الدرجة الثالثـة. ارتعدت وعانيت معاناة شديدة طوال الليل. لقد كانت تلك أسوأ ليالي حياتي.

12/8

مررنا هذا الصباح بجاليبولي وبالدردنيل. غيرت تذكرتي هنا من الدرجة الثالثة إلى الدرجة الثانية، ومنذ ذلك الحين والأمور تسـير بشـكل جيد طوال الرحلة.

بدا لي البحارة الفرنسـيون الذين سنحت لي الفرصة الآن بمراقبتهم سـيئين نسـبياً. إنـه لمـن المزعـج مشـاهدتهم وهـم يجذبـون الحبـال والسـيجارة بأفواههم. لا بد أن هذه هي الحرية الفرنسـية. ولما خبرت الآن المزيـد عن طريقة الإبحار الفنلندية على وجه الخصوص، ورأيت البحارين الفنلنديين الذين يعملون بسـرعة ونشـاط، بدا لي الفرنسـيون خائـري القـوى، لا يحملون عملهم البحري علـى محمل الجد. فحتى حينمـا يكونـون بصـدد القيـام بعملهـم، لا يسـتطيعون التوقـف عـن المـزاح وعن الاسـتهزاء بعضهـم ببعض. كما أنهـم لا يتوانون عن الرد علـى القبطـان، أو على من يعلوهـم مرتبة إذا وبخوهم. بـل إن البحارة قـد يكونـون في كثير من الأحيـان بنفس حدة غضب رئيسـهم. يبدو أن هـذا هو حال البحارة في انكلترا كذلك. وتكون علاقة القبطان في كثير مـن الأحيان سـيئة مع بحاريه. أما عندنا فلا يخطـر على بال البحري أن يرفـع صوته بالرد على القبطان، وذلك باسـم الرجولة. أعتقد أن الحياة

البحرية عندنا هي الأفضل من نوعها إطلاقاً. في ذلك المركب الشراعي النرويجي الصغير الذي كان يبحر إلى جانب سفينتنا، يرى المرء كيف أن القبطان وأفراد الطاقم تجمعهم علاقة طيبة وتفاهم ووفاق متبادل. لا توجد عندهم تلك الحدة والتشدد العسكري الذي عندنا. ولكن من بين كل ما رأيت، فإن نظام سفينتنا الشراعية هو الأفضل.

12/9

أنزلنا المرساة في الصباح عند الساعة الثامنة أمام «سميرنا». كان منظر المدينة جميلاً وممتعاً. وكان على بعض قمم الجبال البركانية العالية التي تحيط بنا من جميع الجوانب بعض الثلج. وكان الطقس أكثر برودة مما كنت أتوقع. هذه المدينة أيضاً تشبه في مظهرها المُدَرَّج ولو أنها لا ترتفع ارتفاعاً حاداً. ولكن الجبال الشامخة التي تحيط بنا في كل مكان تعوض هذا النقص. تبدو المدينة نظيفة وجميلة من الميناء. وهذا الأخير يبدو كأنه بحيرة صغيرة لأن الجبال الشاهقة تحيط به من كل جهة، ولأنه ينفتح إلى الغرب عبر مضيق، يبدو ضيقاً من الداخل. وعندما أبحرنا إلى الداخل كنت قد استسلمت للنوم، بحيث فاتتني مشاهدة ميتلين وقناة الدخول.

بعد تناول الإفطار بقليل، وبعد أن تطهَّرت ما استطعت في السفينة، ذهبت بالقارب إلى المدينة وتوجهت إلى القنصلية الروسية على الفور. وقد التقيت في مكتب القنصلية مع ألماني، كان قد عمل أربعة عشر عاماً لحساب روسيا في الشرق بعد استكماله دراسته في معهد سان بترسبورغ للدراسات الشرقية. وحالما علم من جواز سفري أنني مستشرق، كما تكرم بتلقيبي، بدأ يحكي لي في لطف شديد عن نفسه، ودعاني إلى منزله لرؤية مجموعاته من النقود والمخطوطات التي جمعها على مر السنين هنا وفي أجزاء أخرى من بلاد الشرق. وكانت

كلا المجموعتين جميلتين ومتميزتين جداً. كان رجلاً مهذباً ولطيفاً لدرجة تفوق الوصف. وقد أراني من بين الأمور الأخرى الملحمة الفارسية «الشاهنامه» مترجمة إلى التركية. وقد كانت مليئة باللوحات، ولكن اللوحات قطعت وأُحلت محلها أوراق رخامية. كما كانت له نسخة مميزة من الحريري مع لوحات توضيحية، ولكن الوقت لم يكن يسمح إلا بإلقاء نظرة عاجلة فقط على كلا الكتابين. كما أخبر عني القنصل الروسي «إيفانوف» الذي يتكلم الألمانية كذلك، فاستقبلني بلطف وترحيب كبيرين. وكان إيفانوف قنصلاً في البرازيل وغيرها مدة طويلة، وهو الآن القنصل العام هنا. وقد أخبرني سكرتيرها «يابا» بأنه يملك مجموعة ممتازة من النقود اليونانية. وقد عرض علي كلاهما كل سبل المساعدة الممكنة سواء في المعاملات أو الاتصالات. وقد تعاملا معي بغاية اللطف وعبَّرا ـ شفهياً على الأقل ـ عن استعدادهما لمساعدتي إذا احتجت للاتصال ببلدي مثلاً، وقد قدما لي أكثر مما يمكنني أن أطلب أو أن أتمنى. كما أعطاني «يابا» وأحد زملائه أيضاً رسالة توصية إلى الإسكندرية والقاهرة.

ثم ذهبت في جولة في المدينة. مررت في الأول عبر الحي الفرنجي أي الحي الغرب-أوروبي، وهو حي أنيق وجميل جداً. وبجوار كل بيت تقريباً حدائق فيها كروم وأشجار برتقال. وكانت الثمار لا تزال على الأغصان لم تقطف بعد ولو أن الأوراق كانت قد يبست منذ زمن. أما المباني نفسها فكانت في معظمها على الطراز البندقي: الرخام في كل مكان. ثم تمشيت بعد ذلك في الحي اليوناني، الذي لم يكن يقل رونقاً عن سابقه، إذ إن شوارعه كانت واسعة ونظيفة جداً كبيوته. ولم أر في أي مكان آخر نساء أجمل ممن رأيت هنا. كلهن سمراوات وذات ملامح رقيقة. وحتى الأطفال هنا جميلون ونشيطون. ثم تجولت ما بين البازار والحي التركي. كل شيء هنا يبدو أكثر ثراء بكثير مما كان

الحال عليه في إسطمبول. الناس هنا يرتدون ملابس أفضل، ويبدون أكثر مرحاً وثراء. كما يبدو أن في المحلات سلعاً أكثر وفرة. وقد رأيت هنا قوافل جمال كبيرة تمر بالبازار. وشاهدت كذلك مساجد جميلة. كان عند أحدهم جمع غفير من الأطفال الذين كانوا يركضون حولي. وعندما قرأت نصاً منحوتاً، أخذوا يستهزؤون مني وينعتونني باليهودي ويدعونني يهودياً، ثم بدؤوا أخيراً يرمونني بالحجارة. لم آبه بهم ولكنني غادرت على الفور.

تجولت هنا وهناك في مختلف أنحاء المدينة، وأعجبني كثيراً كل ما رأيت. كل شيء كان أنظف وأكثر ترتيباً مما يمكن للمرء أن يتوقعه من مدينة شرقية. يبدو أن غالبية السكان هم تقريباً من اليونانيين. ولكن ثمة الكثير من الأتراك والكثير من العرب أيضاً. غير أنني أعتقدهم من عابري السبيل. ويبدو أن للتركيات هنا حرية أكثر مما في إسطمبول، إذ كن يغطين وجوههن أقل من الإسطمبوليات. هنا أيضاً تجد بعض النساء اللاتي يضعن الحجاب على وجوههن، وهن يضعنه هنا وثيقاً جداً على وجوههن مخفيات حتى أنوفهن. وبعد أن تجولت معظم ساعات النهار، وشربت القهوة مرتين في مقهى تركي؛ تناولت العشاء في مطعم إيطالي، وشربت زجاجة من النبيذ القبرصي، ودفعت فاتورة إجمالية تقدر بنحو روبل، أي أن نهاري كان مكلفاً للغاية؛ عدت إلى السفينة. وهناك التقيت من بين الركاب الجدد بعربي قاهري عجوز. وبعد أن قلبت بِيبته وفحصتها لبعض الوقت، قدم لي هذا الأخير رأس بيبته في لطف متناهٍ، ثم جلسنا مدة طويلة نتحدث على سطح السفينة، حيث كان له مقعد هناك. كان لطيبته ولطفه تأثير كبير علي. وكانت تلك أول علاقة حقيقية بعربي خلال رحلتي هذه.

كانت في الميناء سفينتان حربيتان نمساويتان وسفينة حربية فرنسية. وكانت الموسيقا الجميلة تُسمع من الأولى صباح مساء. كان من

الواضح أن العازفين كانوا إما إيطاليين أو ألمان. وعموماً، كان من دواعي سروري بعد كل ما سمعته في فرنسا وفي القسطنطينية من موسيقا قبيحة، أن أستمع إلى موسيقا حقيقية.

«يابا»، مستشار القنصل وسكرتيره الذي كان قد استقبلني بمنتهى اللطف أخبرني أنه وهب نفسه للكتب الشرقية. ومع ذلك، فإنني أعتقد أن رغبته الحقيقية في تجميع هذه الكتب، كما هو الأمر عند الألمان عادة، ليست نابعة من ولع داخلي حقيقي، وإنما هي نابعة من حب الظهور والرغبة في التألق. وهكذا كَبُرت مجموعته التي سمحت له الظروف وسنح له الحظ بالحصول عليها بثمن بخس. وقد أخبرني بأنه حصل على جزء كبير من أفضل المخطوطات من ثيسالونيكي، من ابن قاضٍ كان والده قد ورثها عن جده وجد جده، وحتى أبعد من ذلك. لم تكن عند «يابا» نفسه رغبة في طلب العلم، بل لم يكن يرغب إلا في شرب الخمر، ولذلك، اشترى عدداً من زجاجات المشروب الكحولي. تظاهر «يابا» بكونه عالماً وأراد أن يظهر بمظهر خبير كبير من خبراء التاريخ واللغات الشرقية، وقال بأنه يتكلم لغات المسلمين الرئيسية الثلاث[1] بطلاقة، وبأنه درس تلك اللغات وتعمق فيها. ولكنني لم أكن أصدق أن ما قاله كان صحيحاً كما أراد لي أن أعتقد ذلك. من المطلوب بطبيعة الحال أن يكون جميع الموظفين الأوروبيين الذين يعملون في الشرق متحمسين للعمل مثله. سألته عما إذا كانت لديه أي معلومات عن الجمعية الفنلندية التي أوصاني جوتلوند أن أسأل عنها، لكنه لم يسمع عنها شيئاً قط. إلا أنه وعدني بالبحث في الموضوع بناء على طلبي. وفيما عدا ذلك، كان يتمتع بما يتمتع به الألمان من نشاط وحماس. وقد تزوج هنا وأنجب خمسة أطفال فلم يعد بإمكانه صرف موارده على اقتناء الكتب الشرقية، ولم يعد بإمكانه تخصيص الوقت

(1) العربية والفارسية والتركية.

اللازم لدراستها نظراً لكثرة عمله الذي يتطلب منه وقتاً كثيراً، ولكن بيع جزء من المجموعة كان سيتسبب له في وجع القلب. ولكن، ورغم أنه كان مشغولاً جداً، وعلى الرغم من أن يوم عمله في المكتب كان قد انتهى للتو، إلا أنه أصر على أن يريني أفضل وأعز كنوزه في منزله. وقد سعد جداً عندما مدحت مجموعته الممتازة، وأثنيت على حماسه العلمي الكبير. وقد كان زميله في العمل الذي أعطاني رسالة توصية إلى القاهرة يشبهه إلى حد كبير. كانا كلاهما يتحدثان اللغة التركية مع رجل عجوز مضحك جاء إلى المكتب مشتكياً بأن أحدهم قد خدعه بطريقة ما. كان الرجل يتحدث ويتحرك بحماس ولكنه كان يملك هدوءاً ونبلاً افتقر إليه الروسيون والفرنسيون.

12/10

رفعنا المرساة في نحو الساعة الثامنة صباحاً وخرجنا من «سميرنا». وقد كانت الجبال البركانية قد تركت بصمتها على الشواطئ القريبة من أنظارنا بحيث كانت الأراضي مزروعة بشكل جيد، وجميلة بشكل خاص. كانت بعض القرى تلوح لنا بين الحين والآخر. وقد أعجبتني «سميرنا» أكثر من كل المدن التي رأيتها إلى حد الآن. يبدو سكانها أكثر نشاطاً، وأكثر حرية، وأكثر تعوداً على الأوروبيين. كما أن المنازل هنا لم تكن بذلك القبح الذي كانت عليه تلك الأكواخ في إسطمبول، والناس هنا لم يكونوا على ذلك القدر من التسول.

الوصول إلى الإسكندرية

عنـد اقترابي من الشـاطئ المصري، كانت توقعاتـي كتوقعات العريس الشـرقي الذي ينوي رفع الحجاب الذي يسـتر عنه وجه عروسـه ليرى، ولأول مـرة، الملامـح التـي قد تسـحره أو تحبطه أو تقـززه. لم آت إلى مصـر لتمضية الوقت ولا للتعرف على أهراماتها ومعابدها للانتقال بعد ذلك إلى معالم جديدة ومسـرات أخرى. لا بـل لأني أنوي الارتماء في أحضان أغراب وتعلم لغتهم واعتناق أعرافهم وارتداء ملابسهم.

كانت هذه أحاسـيس عالم اللغة العربية الإنجليزي إدوارد ويليم لين (1801 – 1876) عند اقترابه من الإسـكندرية سـنة 1825. وقد قضى في مصـر عـدة سـنوات (1825 – 1828 و1833 – 1835 و1842 – 1849) حين كان والين هو الآخر في هذه البلاد.

كانت أحاسـيس مشـابهة تمامـاً لهذه الأحاسـيس تختلـج في قلب واليـن وهو يطأ أرض الإسـكندرية. في اللحظـات الأولى التي تحققت فيهـا مغامرتـه وتوقعاتـه، تسـلل الخوف إلى نفسـه وهو يفكـر في تلك السنوات القادمة التي سيقضيها في هذا العالم المختلف عن عالمه.

12/14

وصلنا إلى الإسـكندرية حوالي السـاعة الواحدة زوالاً فأنزلنا المرسـاة في الميناء على مسـافة جيدة من الشـاطئ. يعتبر موقع هذا الميناء أسوأ موقـع فـي العالـم، فهو مفتـوح وواسـع تحيط بـه الشـعاب والصخور

الواقعة تحت سطح الماء مباشرة التي ترتطم بها أمواج البحر العارمة. وكانت الشواطئ المحيطة به إفريقية أصلية، فهي رمال وتلال منخفضة عارية. وكانت على الرأسين اللتين يشكلهما الميناء حصون ومبان حكومية فخمة أخرى تترك انطباعاً لطيفاً جداً ولو أنها أقل جمالاً مما في القسطنطينية. ما إن أنزلنا المرساة، حتى التف حولنا قطيع من الزوارق والقوارب التي أخذت تحدث ضوضاء رهيبة. وقد زادت الحروف العربية الخارجة من الحلق من حدة تلك الضجة. وما أشد الهرج والمرج الذي نشأ عندما بدأ الركاب يحملون أمتعتهم إلى ظهر السفينة ويجرونها هنا وهناك فجاء عمال الفنادق يعرضون بطاقاتهم ويثنون على فنادقهم، كما جاء المجدفون العرب لينقلوا الأمتعة إلى قواربهم لنقلها إلى اليابسة، كل هذا كان غير مريح هنا كما هو الأمر في أماكن أخرى. وأخيراً، ذهبت أنا وأحد رفاق سفري من أمريكا الشمالية مع عامل فندق يسمى «فندق أوروبا» فتكفل هو بنقل حقائبنا إلى القارب وما إلى ذلك. لم تكن هنا مراكب تركية، وكانت الزوارق هنا تشبه المراكب الشراعية عندنا. للعرب على ما يبدو دراية كبيرة بالعمل البحري كما أنهم يتصفون بالسرعة والنشاط.

وكان في الميناء عدد من السفن والبوارج الحربية المصرية أغلبها مهترئة، ولكن عددها يفوق عدد السفن التي كانت في ميناء القسطنطينية. كانت جميعها سفناً جميلة وقد رأيت في بعضها عمالاً يعملون، وفيما يبدو فإن بعض تلك السفن تستعمل كثكنات. جذف بنا الخدم السود الثلاثة الذين كانوا قد جاؤوا مع عامل الفندق الفرنسي إلى اليابسة. ولم تكن المسافة طويلة كثيراً. وهناك، جاء جمع غفير من الحمالين وسائقي الحمير الذين احتشدوا حولنا وعرضوا علينا خدماتهم. ولكننا لم نكن بحاجة إليهم بطبيعة الحال فالخدم السود تكفلوا بحمل أمتعتنا وأخذها إلى الجمرك، كما أنهم مروا من الجمرك

دون تفتيش تقريباً. ثم استقللنا عربة عامل الفندق، وتحركنا نعبر شوارع الإسكندرية.

ألاحظ هنا لأول مرة أنني في عالم مختلف ووسط شعب مختلف ليس بسبب مظهر المدينة نفسها وإنما خصوصاً بسبب الناس، وبسبب سيقانهم وأذرعهم السمراء الحنطية العارية، ووجوههم السمراء، وكذلك مظهرهم وسلوكهم وجميع طباعهم. كل ذلك ترك لدي انطباعاً غريباً. انتابني في البداية شعور بالخوف لمجرد التفكير بأنني سأعيش وسط هذا الشعب مدة يعلم الله وحده كم ستدوم. ولكن، من جهة أخرى، انجذبت لكل ما فيهم من جديد وغريب. حزنت كثيراً عندما أدركت أنني فقدت منديلي وسط الزحام. إما أن أحدهم سرقه مني أو أنني نسيته في مكان ما بعد استعماله. تملكني الغضب لدرجة أنني بدأت أدفع الناس بعنف وأنا أشق طريقي إلى الأمام.

كان الفندق الذي وصلنا إليه رائعاً جداً وكان طابعه فرنسياً حقيقياً. اغتسلت وبدلت ملابسي وخرجت إلى الساحة الكبيرة الجميلة المربعة الشكل التي يقع الفندق قربها، والتي يبدو أن جميع القنصليات توجد حولها. قمت بجولة صغيرة، ولكنني لم أجرؤ على الابتعاد، وذلك لأن الظلام كان سيحل بعد وقت قصير. وقد ذهبت إلى مقهى عربي لأشرب كوب قهوة من دون سكر، ولأدخن الشيشة. كانت القهوة ممتازة، ولم تكن بحاجة للسكر على الإطلاق. كان الناس – الذين أعتقد أنهم من الطبقة الدنيا – يحدقون في نظاراتي وقتاً طويلاً، ولكنهم كانوا لطفاء وتركوني بسلام. ثم عدت بعد ذلك إلى الفندق وكتبت الكثير. لقد كنت مكتئباً قليلاً لأن ذكريات باريس ظلت تلاحقني. وفي الليل تتابعت زخات المطر، كما سبق أن هطلت أثناء النهار. لم أكن أسمع إلا نهيق الحمير الفظيع، ونباح الكلاب من حين لآخر. ولكن صوت هذه الأخيرة كان أقل بكثير منه في القسطنطينية. كان سريري مغطى

بالشاش ولكن الناموس أقض مضجعي طيلة الليل، ولم يترك لي مجالاً للنوم بسلام.

12/15

في الصباح ذهبت إلى القنصلية الروسية حيث التقيت بسبيتسناجل، الذي كان «يابا» قد كتب لي من «سميرنا» رسالة توصية لأعطيها له. وعلى الرغم من أنه كان مهذباً للغاية، إلا أنني لم أحبه كثيراً. وكان في حضرته آخرون، مثل طبيب ألماني يعيش هنا منذ مدة طويلة. كما أنني سمعت الآن للأسف الشديد أن هيدينبورغ قد انتقل نهائياً للعيش في رودس قبل ثلاث سنوات. وقد كان هذا الخبر خبراً حزيناً بالنسبة لي لأنني كنت أتوقع الحصول منه على كل المعلومات التي أحتاج إليها. وقد جاء رفيقي الأمريكي في الصباح لرؤيتي، وأعطاني كتيباً من أول دورية صدرت عن الجمعية الأمريكية للدراسات الشرقية التي تأسست مؤخراً في بوسطن. إنه يستمر في ترك أثر جد طيب في نفسي على الرغم من أنه يبدو طول الوقت مرهَقاً للغاية. قرأت في هذا الكتيب أن مدير الجمعية هو «جون بيكرينغ»، ثم رأيت فيما بعد اسم بيكرينغ مكتوباً على حقيبة رفيقي الأمريكي. وفي اليوم التالي، سمعت منه شخصياً أنه ابن أخ مدير الجمعية. وهو في نهاية المطاف يبدو رجلاً متعلماً ومحترماً جداً على الرغم من أنه لا يظهر ذلك أبداً. أما فيما يتعلق بما يعزم القيام به، والغرض الذي ينوي من أجله السفر على طول نهر النيل ومناطق أخرى (كتونس مثلاً) فلم يخبرني عن ذلك بعد. وأعتقد أن أوان السؤال عن ذلك الآن قد فات لأنه ينوي الذهاب إلى القاهرة في الأيام القليلة المقبلة. ربما أكون قد أخطأت كثيراً بشأنه.

كان الجو سيئاً طيلة اليوم. زخات مطر تتلوها زخات، والشوارع متسخة للغاية لدرجة أنني استطعت بالكاد التحرك في الخارج. ولذلك،

فقد قضيت معظم اليوم أعيد كتابة رسالة أنوي بعثها إلى كونراد كنت قد بدأت كتابتها في الطريق إلى القسطنطينية. كان يوماً حزيناً جداً عموماً، أصوات الكمان الناشزة أقلقت منامي وأقضت مضجعي في الليل، وأيقظتني في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.

12/16

أخذت الرسالة – التي كنت سأبعثها إلى «هيرين» في القسطنطينية – إلى البريد. جلست قليلاً مع بيكرينغ وأعطاني الكتيب الذي نشرته الجمعية الأميركية للدراسات الشرقية، والذي اعتقدت أنه تركه لي لأتصفحه فقط. يبدو أنه حقاً رجل لطيف، على الرغم من أنني لا أزال عاجزاً عن فهم بساطته وعاداته التي تكاد تعود إلى زمن الباطرياركية. انتقلت من «فندق أوروبا» إلى فندق «جميع الأمم». أشعر طول الوقت بأنني لست بخير. وأنا لا أعيش إلا على القهوة والخبز فقط منذ وصولي إلى الإسكندرية، فليست لدي أدنى شهية للأكل، وقد يكون القلق هو السبب في ذلك. أنا الآن أشعر بأنني أفضل حالاً في هذا الفندق الجديد، لأن هذا المكان يختلف عن سابقه الذي كان كل شيء فيه رائعاً وبراقاً. ويبدو أن هناك نوعاً من الترف عموماً هنا، وخاصة بين الأوروبيين، على عكس الوضع في القسطنطينية تماماً حيث كان كل شيء ثمة مهترئاً نوعاً ما. لكن مرد هذا الثراء قد يكون كثرة الثروات في هذه المدينة وصغر حجمها. ويبدو كذلك أن العرب أيضاً قد أُصيبوا بعدوى خفيفة من ذلك، فلباسهم أغلى وأكثر تكلفة من لباس الأتراك في القسطنطينية. لكن، من ناحية أخرى، لا يمكن للمرء العثور على أشخاص ثيابهم رثة ومظهرهم يشبه المتسولين إلا بين الطبقات الدنيا هنا. فغالباً ما تجدهم عراة لا شيء يستر النصف الأسفل من أجسادهم. أما النصف الأعلى من الجسم فلا يغطيه إلا أسمال بالية من الصعب

للمرء أن يصدق أنها تبقى معلقة على أجسادهم ولا تسقط.

تحسـن الجو بعض الشـيء اليوم، وتوقف المطر أخيراً في فترة بعد الظهـر. خرجت في المسـاء، وتمشـيت قليلاً فرأيت على مسـافة بعيدة أعمـدة بومبـي ومسـلة كليوباتـرا. صعدت إلى أعلـى تلة فـي المدينة، وشـاهدت تلك المناظر الخلابة المطلة على البحر الأبيض المتوسط، وعلى البحيرة وعلى عدد كبير من بسـاتين النخيل التي تنتشر في جميع أنحـاء المدينة بين المنازل الغريبة التي تبدو كأن أحد طوابقها قد انهار. بـدا وكأن ثمـة أنقاض منـازل منهارة فـي كل مكان. يبـدو أن حفريات واسـعة وعميقة قـد بدأت هنا. وكانـت في التربة المسـتخرجة من هذه الحفريـات بعض بقايـا الأعمدة القديمـة المصنوعة إما مـن الرخام أو مـن الجرانيت. وفي قلعة صغيرة تقـع على قمة تلة صغيرة تعرفت على رجـل تركي وآخر عربي أخبراني بأنني أتكلـم العربية جيداً. ولكن كان علـي أن أدفـع لهم صدقة أجازيهـم بها على ثناءهم فدفعت لهما عشـر قطع نقدية.

12/17

خرجت في وقت مبكر. كان الطقس جميلاً والشوارع شبه جافة تماماً. تجولـت في جميع أنحاء الميناء، وفي جزء كبير من المدينة، وكنت بين الحيـن والآخـر أسـمع الأطفال وهم يشـيرون إلي ويصيحـون قائلين: «چاور». المظهر العام للمدينة متشابه في كل مكان عامة. المنازل مبنية من الحجر وسـطوحها مستوية. بدت لي طول الوقت كما لو أن شيئاً ما ينقصها.

رأيـت العرب هنا وهناك في عـدة مناطق يدخنون أو يأكلون الفواكه أو أي شـيء آخر، ويتسـامرون مسـرورين ولـو كان الفقـر المدقع بادياً عليهم. كما رأيت صبياً صغيراً يتشـاجر مع جنـدي. كان الصبي غاضباً

غضباً شديداً، لا أعرف سبب شجارهما، ولكن الصبي كان يصرخ ويتحدث عن خمسة بياسترات. وبعد أن تجولت على غير هدى لساعات، انتهى بي المطاف وسط الحدائق. كانت إحداها مفتوحة فدخلت. كان فيها مبنى كبير على الطراز الأوروبي عرفت بعد ذلك أنه كنيسة أرمنية. وبعد أن تجولت طولاً وعرضاً وسط بساتين النخيل، جاء بستاني وألقى علي التحية باللغة العربية، ثم أخذنا نتحدث ونتمشى ونستعمل السعوط. كان هذا البستاني طيباً جداً، وهو رجل في منتصف العمر، وأعطاني الكثير من التمر الذي أسقطه من أجلي من النخل. كان مذاق التمر رائعاً فأكلت الكثير منه. وقد أعطاني الكثير من الفواكه الأخرى، وكذلك باقة من الزهور الفواحة. مكثت في الحديقة ساعتين تقريباً، وقضيت معظمها مع البستاني، واستمتعت بوقتي معه. وبينما كنت أتمشى هناك وحدي، وجدت ثماراً حمراء بدت على أنها ثمار تمر هندي، قطفتها وذقتها لكنها كانت حارةً جداً. وعلى الرغم من أنها بالكاد لمست شفتيَّ إلا أنها ألهبتهما بشكل رهيب، فكنت أحس مدة طويلة وكأنهما تحترقان. بصقت كثيراً، وبعد أن تجرأت أخيراً أن أبتلع لعابي فشعرت بحرقة شديدة في معدتي كلها مدة طويلة. وبعد نصف ساعة، دلكت عيني عن غير قصد باليد التي مست تلك الثمار، فشعرت بحرقة فظيعة جداً لدرجة أنني بدأت أخشى على عيني إلا أن الأمر مر بسلام في النهاية. وقد اكتشفت لاحقاً بأن هذه الثمرة الحمراء التي تنبت هنا كانت هي ثمرة الفلفل الحار.

كانت طريقة المحليين هنا في تسلق النخيل صعوداً ونزولاً مسلية وفريدة من نوعها في الآن ذاته. وكان الفلاح منهم يربط حوله حزاماً واسعاً، ويربط كلتا طرفي الحزام بحبل، كان يمده ويقصره من أحد الجانبين. كان يتسلق النخلة بمهارة، الحزام حوله والحبل حول جذع النخلة فيطأ الجذع بقدميه بقوة. وعندما يصل إلى الأعلى، يقطف التمر

ويضعه في سلة، أو يقطع عرجون التمر بأكمله. ودعت الفلاح الماهر، فطلب مني أن أجلب له في المرة القادمة القليل من عطوسي الذي أعجبه كثيراً. وتركت الحقل حاملاً الزهور والتمر وسعيداً جداً بالوقت الذي قضيته هنا.

ذهبت بعد ذلك إلى البيت. هناك قرأت قليلاً من كتاب «لاين» الممتاز المعنون «المصريون المعاصرون». تناولت وجبة العشاء وبقيت في البيت حتى المساء ثم ذهبت مرة أخرى لأتمشى قليلاً. وكان الجو دافئاً معتدلاً جميلاً جداً. لم يكن الجو حاراً لأن رياحاً شمالية لطيفة هبت طيلة اليوم. وعندما وصلت إلى الشاطئ، وقفت أنظر إلى البحر فالتقيت بعربي فقير قال إنه كان في خدمة العديد من الفرنجة كَبَوَّاب. كان قد فقد إحدى عينيه عندما حاول طبيب عربي سيء معالجته من أحد أمراض العيون. شرح لي هذه المسألة بشكل مستفيض إلا أنني لم أفهم كل ما قاله. وهو رجل طيب ومرح، لا أعرف عمره بالضبط، ولكنه قد يتراوح بين الأربعين والخمسين سنة. كان التحدث معه ممتعاً جداً حتى إننا وقفنا هناك نتحدث أكثر من نصف ساعة. وفي النهاية، طلب مني القليل من التبغ، ثم أعطيته ربع بياستر فقبله مني شاكراً ممتناً.

وبينما كنت أتمشى في النهار في أنحاء المدينة، رأيت كيف كان أحدهم يُجري جراحة عيون خطيرة لحمار. ما كان بإمكاني رؤيته من خلال الحشد الغفير المحيط بالحمار هو أن خيطاً سميكاً كان قد أدخل عبر ملتحمة عين الحيوان بواسطة إبرة. وكان مُجري العملية الجراحية يمسك بإحدى يديه بذلك الخيط بينما كان يقلب كل جانب من جوانب العين بطريقة رهيبة وبلا رحمة بحيث كان الدم يجري من الجرح غزيراً. وبعد أن تابع ذلك مدة طويلة، أخذ حديدة متوهجة وكوى العينَ من الداخل تحت الجلد بطرف الحديدة الْمُسَطَّح، وعاود الكيَّ

بحديدة أخرى. كان الحمار خلال هذه العملية من بدايتها إلى آخرها مقيد الأرجل، وفي فمه قطعة خشب تغلقه تماماً تقريباً. لست أدري هل كان الغرض من هذه العملية هو إزالة العين، وهو ما لا أعتقده، أم علاج مرض ما أصاب العين. لم أفهم بالضبط. كان مشهد العملية الجراحية التي أجريت للحمار مشهداً قاسياً للغاية، ولكنه على ما يبدو لم يؤثر في مساعدي الجراح ولا في المتفرجين على الرغم من أن الكثير منهم كانوا أطفالاً صغاراً.

12/18

في الصباح ذهبت للقاء «بيكرينغ» الذي أصبح تقديري له يزداد يوماً بعد يوم على الرغم من أنه لا يزال قليل الكلام، ولا يزال يبدو مرهَقاً طوال الوقت. ثم ذهبت بعد ذلك إلى الميناء لأبحث عن شخص يدعى «السيد كاجيان» لأُسلِّم له رسالة أرسلها له عمه من بيزا من القسطنطينية. وبينما أنا أتجول هناك، لم يتوقف سائقو الحمير عن مطاردتي، والإصرار على أن أركب حميرهم، وإزعاجي أكثر من سائقي سان بترسبورغ. نجوت منهم على أي حال بدخولي حي الفرنجة إذ ذهبت لزيارة «شبيتسناجل» الذي استقبلني بلطف شديد. يبدو أنه رجل كرَّس حياته كلها لعمله، بالكاد توجد لديه كتب أو مخطوطات عن الآداب الشرقية، ولا يبدو أنه على قدر من العلم بها.

تجولتُ فمررت بمدرسة صغيرة، يجلس فيها الأولاد يهمهمون دروسهم وهم يؤرجحون رؤوسهم والجزء الأعلى من أجسادهم. بعد ذلك، مررت بالسوق وتمشيت هناك في كل مكان. يبدو هذا المكان أبعد ما يكون عن غنى القسطنطينية أو «سميرنا» مثلاً، ولو أن ثمة وجوه تشابه بين هذه المناطق. ولكنك ترى هنا عدداً أكبر من العاطلين؛ ولا سيما النساء والأطفال؛ الذين يجلسون وسمات الفقر

بادية عليهم وهم نصف عراة. كان في المكان العديد من المقاهي. رأيت أن أحدها على وجه الخصوص كان أكبر وأفضل المقاهي الشرقية التي رأيتها حتى الآن على ما أعتقد. وقد شاهدت في هذه المقاهي الكثير من الأشياء المسلية، معظمها أشياء كان «لاين» قد وصفها من قبل. كما أنني رأيت جنازة مارة بالقرب من السوق عندما كنت أتجول هناك. كان شيخ ما يتقدمها، ووراءه مجموعة كبيرة من أولاد المدرسة، يتلوهم رجال مسنون ووراءهم حاملو النعش الذي كان مغطى بقطعة قماشة حمراء مطرزة. ووراء التابوت سارت النساء. كان الأولاد والرجال يهمهمون قائلين: «لا إله إلا الله» إذا كان سمعي قد أسعفني. ولكن التأثر والتقوى لم تكن بادية عليهم، لأنهم كانو يتحدثون ويضحكون كثيراً بعضهم مع بعض طول الوقت، بما في ذلك النساء. وبعد ذلك بقليل، ذهبت للقاء مدير المستشفى العسكري المحلي وهو ألماني الجنسية. استقبلني هذا الأخير استقبالاً حسناً جداً، وطلب مني مرافقته لجولة الصباح في اليوم الموالي على الساعة السابعة. شعور جميل أن تقابل شخصاً يعتني بك ويساعدك وأنت مسافر وحيداً بين الغرباء دون أصدقاء في مدينة غريبة، وهذا ما حدث لي الآن.

خرجت في وقت لاحق بعد ظهر اليوم من جمرك المدينة الذي يقع في الثكنة التي على شاطئ قناة المحمودية. خرجت من هناك وذهبت مع رجل عجوز. كان رجلاً لطيفاً ومسلياً ولكنه كان يتصف بأنفة العربي رغم كونه فلاحاً فقيراً. ولكنني حققت مبتغاي، أي أنني تمكنت من التحدث معه، فقد مشينا معاً ما يقارب النصف ساعة ندردش معاً. وبالطبع أراد مني بقشيشاً هو أيضاً فأعطيته خمس قطع فضية. ولكن عندما ودعنا بعضنا، سألني إن كنت أريده أن يملأ بيبتي بالتبغ فأجبته أن ذلك ليس ضرورياً. كان يريد المزيد من المال ولكنني لم أعطه.

وعندما استلم مني القطع الفضية، قبّلها قبل أن يضعها في جيبه.

ثـم صعدت بعد ذلـك إلى التلة لإلقـاء نظرة على المناظـر الجميلة المنتشـرة في كل مكان والتي تطل على البحـر وعلى جزء من المدينة، ذلـك أن تلـة أكثـر ارتفاعـاً كانـت تـواري معظـم المدينة. ثم تمشيت متوجهاً إلى البيت وسـط الحفريات المنتشـرة هنـا في كل مكان، وكان في الحصى المستخرج من هذه الحفريات الكثير من القطع الكبيرة من بقايا الأعمدة والدعائم القديمة وما شابه ذلك. وهنا أيضاً كان الأطفال يسـخرون منـي ويبصقون علـي بل ويرجموننـي بالحجـر كذلك. كان الجـو مثلَ أجمل وأدفـى أيام الصيـف عندنا. هبت رياح غربية منعشـة خفيفة. أما الحقول التي بدت محروثة فقد نبت فيها زرع يشـبه ما يزرع عندنـا. وكان كأجمل أيـام مايو عندنا. الفرق الوحيد هو أن الناس كانوا مختلفيـن، وأنا كنت مختلفاً. تجولت طـوال اليومِ، لدرجة أنني ولأول مـرة منذ مجيئـي إلى هنا أشـعر بجوع شـديد فعلاً. وقـد تناولت وجبة العشاء بشهية كبيرة.

12/19

كنـت بالكاد قد اسـتلقيت في سـريري مسـاء أمس أسـتعد للنـوم حين سـمعت عزفاً. نهضت من فراشي ووقفت أنظر من النافذة فرأيت موكباً يتقدمه غلام يحمل شـعلة، ووراءه فرقة موسيقية: كان صوت آلة النفخ يشـبه صوت الكلارينيت ولكنه كان أكثر حـدة، فهو ربما ما بين صوت الكلارينيـت وصوت مزمار الأبوا. والعازف الثاني كان يعزف آلة وترية صوتها يشـبه صوت المندولين. أما العـازف الثالث فكان يضرب على الدف. وجاء وراء هذه الجوقة جمع غفير من الرجال والنسـاء. وأخيراً وراء كل هـؤلاء سـار غلامـان يحمـل كل منهما شـعلة. أعتقـد أن هذا الموكب كان موكب عرس. وقد كانت الموسيقا التي عزفها موسـيقيو

الموكب موسيقا لطيفة يشبه لحنها الألحان التي سمعتها هنا: بسيطة وممتعة.

ذهبت في الصباح عند الساعة السابعة للقاء الدكتور «باربر»، وذهبت معه إلى المستشفى العسكري ونحن نركب على الحمير. وركوب الحمير أمر طريف جداً، ولكنني أشعر دائماً بالشفقة على الأولاد الذين يركضون وراء الدواب لحثها على الاستمرار في المشي. وهم يستخدمون في حثها على المشي عصا حادة الطرف يَخِزُون بها الحمير في ردفيها. وكان هذا المستشفى الذي يقع في مكان منعزل ثكنة فيما قبل، وقد تم تحويلها إلى مستشفى. البناية مستطيلة الشكل، وقد تصل مساحتها مساحة ثكنة «تولو» عندنا. وليس فيها سوى طابقين منخفضين، وسقفها مسطح. وهي بناية قبيحة المنظر عامة. وفي وسط ساحة البناية حمام. «باربر» هو مدير المستشفى بأكمله، والجميع يسمونه «حكيم باشا». ولديه تحت إشرافه أربعة أطباء أوروبيون، وأعتقد أن جميعهم إيطاليون، إضافة إلى اثنين آخرين عربيين. ولكل واحد من هؤلاء الأطباء مساعد عربي مهمته كتابة الوصفات الطبية، وتضميد الجراح وما إلى ذلك. وقد أخبرني «باربر» بأنه كرس وقته لأمراض العيون، والحالات الجراحية إضافة إلى الإشراف العام على المستشفى. وعادة ما يرتفع عدد المرضى إلى أكثر من خمسمئة مريض، ولكن عدد المرضى في المستشفى الآن لم يكن كبيراً. وفي الوقت الحاضر، لم يكن في المستشفى حالات مرضية مثيرة للاهتمام: كان ثمة عدد من مرضى العيون تعتبر حالاتهم عادية، ولم يكن ثمة حالات خاصة. كان أحدهم مصاباً بمرض الفلاريا[1] وكان منظر كيس الصفن عنده منظراً رهيباً. وكان «باربر» قد أجرى عملية مماثلة منذ مدة وقال إنها كانت حالة غير عادية، فأراد أن يريني الرسومات الخاصة بها.

(1) أو داء الفيل.

كما كانت له مجموعة صغيرة من العينات، من ضمنها حجر الإحليل الذي استعمله ليشرح لي ظهور الحجارة ونموها. فالقانون هنا يسمح بتشريح الجثة على الرغم من رفض أقارب المتوفى ذلك عادة، مثلما هو الأمر عندنا غالباً. وكان النظام والنظافة في المستشفى بشكل عام أفضل ربما مما يمكن للمرء توقعه في هذا المكان، ولكنها مع ذلك على قدر كبير من السوء. الغرف هنا أشبه بالحظائر منها بغرف المرضى. كما أن الأسِرة ليست جيدة وليست نظيفة. ولديهم هنا صيدلية كذلك، وهي مجهزة بشكل جيد للغاية، وتحتوي على معظم الأدوية الضرورية التي يصفها الصيادلة العرب للمرضى في غرفة مخصصة لهذا الغرض. كانت أسماء الأدوية مكتوبة على علب الأدوية بالحروف العربية ولكن تلك الأسماء لم تكن عادة إلا الأسماء اللاتينية نفسها مكتوبة بحروف عربية فقط. كان الأطباء يتعاملون معي بلطف وودية غالباً، ويقبلونني كزميل في المهنة كما قدمني إليهم مدير المستشفى على الرغم من أنني فسرت له تفسيراً واضحاً ماهية ونوع الدرس الذي درسته في كلية الطب. وقد اشتكى المدير من زملائه، ومما واجهه من بعض اللامبالاة من طرفهم. والله أعلم أي نوع من الأطباء هم، فقد أخبرني أنه بإمكان أي شخص هنا مزاولة مهنة الطب شرط أن يحصل على المرضى دون أن يحتاج إلى أي ترخيص. وإذا كنت تريد أن تصبح طبيباً فما عليك إلا الرضوخ لبعض الشكليات القليلة والتافهة. لم تدم جولتنا في المستشفى طويلاً رغم كثرة المرضى، وذلك لأن الأمراض لم تكن خطيرة على ما يبدو، وبعد مدة وجيزة من عودتي إلى المنزل، جاء «شبيتسناجل» لزيارتي زيارة قصيرة لم أفهم الغرض منها، هذا إذا كان لزيارته غرض أصلاً. وفي فترة ما بعد الظهر ذهبت إلى السوق لشراء بيبة وقلم. وفي المساء خرجت لأتمشى قليلاً، ولكن الجو كان بارداً وسيئاً لأن ريحاً شمالية غربية قوية هبت طيلة اليوم. كان الإفرنجة

يلملمون أنفسهم داخل معاطفهم والبردُ بادٍ عليهم، فيما كان العرب شبه عراة كالمعتاد. أنا أيضاً شعرت بالبرد قليلاً عندما كنت أتمشى على شاطئ البحر أتفرج على الأمواج وهي ترتطم بقوة بسلسلة الصخور القريبة، ثم تنكسر كشلالات طويلة مبتعدة عن الشاطئ.

12/20

انهمكت طيلة الصباح بعدة أشياء. وبعد الظهر بوقت قصير خرجت أتمشى في اتجاه شاطئ البحر الذي صار الآن مغطى بمختلف أنواع المحارات الصغيرة وأعشاب البحر. كانت على الشاطئ مجموعة من النساء والأطفال الذين كانوا يجمعون الأعشاب البحرية بالمذاري من الأمواج التي ما انفكت ترتفع عالياً في أعقاب عاصفة الأمس. حتى الحمير أطلقت لترعى في الجهة العليا من الشاطئ حيث كانت الأعشاب البحرية. تمشيت في حي من أحياء المدينة النائية، حيث كانت البيوت تشبه جداراً متوسط العلو، وحيث الغرف تشبه الأقبية، أبوابها منخفضة وليس لها نوافذ على ما أعتقد. وقد كانت الغرف منخفضة لدرجة أنني لا أعتقد أنني أستطيع الوقوف فيها. ثم وصلت بعد ذلك إلى عمود كليوباترا الذي يتكون من صخرة جرانيت واحدة ضخمة، وهي أكبر صخرة من نوعها وقعت عليها عيناي. وكانت عليها كتابة هيروغليفية في كل جانب من جوانبها، ولكن تلك الكتابة لم تكن مقروءة وواضحة إلا من الجانب الشرقي والجنوبي من المسلة. أما من الجوانب الأخرى، فكانت قد تفتتت أو انمحت على الأقل فلم تعد واضحة. وعندما وقفت بجانب المسلة، بدت كل الأشياء المحيطة بها صغيرة جداً. كما أنني شعرت بصغر حجمي أنا الآخر، ولو أن العمود لا يبدو كبيراً جداً عن بعد. تمشيت هنا وهناك في جو ربيعي جميل ومعتدل وقابلت رجلاً عجوزاً عرفت من عمامته الخضراء أنه شريف

مـن سـلالة النبي. سـبقني بإلقـاء التحية ثم بـدأ يدردش معي. شـعرت بـأن كلامـه مصطنع لأنـه كان يتكلم لغـة العلمـاء القديمـة، وذلك من قبيل اسـتخدام التنوين بالنصب لخبر الناسـخ الفعلي «كان» على سبيل المثـال، ولكنـه فيمـا عدا ذلـك كان كريمـاً ورقيقاً. فهمت لغته بشـكل جيـد للغاية، ولـذا فإنني لم أسـتعجل مفارقته، وعندما كدنـا نفترق في الأخيـر، راجعت نفسـي وعدت إليـه مرة أخرى. أخذني إلى المسـجد حيـث كان رجلان يصليان، وجعلني أزور المسـجد على الرغم من أنه لـم يكن فيه الكثير مما يسـتدعي الفرجة في حالتـه المتهالكة تلك. كما أراني المسـاحة التي كان هذا المسجد يشـغلها في السابق، وكذا قبرين لا يـزالان هنـاك دفن فيهمـا وليان صالحـان. وأخبرني بأنه قـد ولد هنا فـي عهد حملة نابليون على مصر[1] عندما دمر الفرنسـيون المئذنة التي لم يبق منها شـيء الآن. كانت إحدى عينيه قد أصيبت بالعمى في سـن مبكـرة، وكانـت الأخرى ضعيفة البصـر كذلك، ولو أنه قـال بأنها ترى جيـداً. لقد كان هـذا الرجل بصفة عامة لطيفاً، وهادئـاً ومتواضعاً. يبدو بوضوح أنه خَبَرَ الكثير من مرارة الحياة. أخبرني بأنه يسكن في المسجد إلا أنني لم أر أي سرير ولا أي شيء من أشياء الحياة اليومية. سألني عن اسـمي فقلت له بأن اسمي «الوالي» وهو اسم كان الشيخ الطنطاوي قد أوصاني بأن أتخذه. وكان هذا الاسم مكتوباً في جواز سفري وتذاكري منـذ مجيئي من «لوهافر» حيث كُتِب اسـمي «Valy» فـي كل الأوراق. تعجب الرجل كثيراً بأن لي اسـماً مسـلماً، كما أن رجلاً مسناً آخر؛ يبدو أنه مؤذن المسجد، قال بأن له ابن عم يدعى بنفس اسمي. شعرت تجاه هذا الرجل المسـن بكل الاحترام والمحبة، ولا سـيما أنه يتحلى بروح التسـامح تجاه جميع الشـعوب وجميع الأديان، وبعقلية شـرقية بسيطة ظاهـرة علـى كلامه كلـه. اتفقت معه على أننـي أسـتطيع زيارته في أي

(1) 1798 – 1801.

يوم شئت لتعلم اللغة العربية. أخبرني بأنه يملك الكثير من الكتب في مجالات عديدة. أوصلني وأراني الطريق التي يمكنني أن أسلكها حتى أعرف كيف أصل إلى هنا مرة أخرى.

تمشيت على الشاطئ مرة أخرى أشم رائحة الأعشاب البحرية، وأتفرج على سائقي الحمير الذين أطلقوا العنان لحميرهم ليأكلوا الأعشاب البحرية. مررت ببيت «وكيل أفندي» الذي يقع على شاطئ البحر، والتقيت هناك بجنديين من طنطا، ووقفت أتحدث معهما. كانا لطيفين وودودين حقاً. اشتكيا من أنهما لم يتلقيا أجريهما لمدة ثلاثة وعشرين شهراً، وأنهما يعانيان من نقص في الخبز والتبغ. دعوتهما إلى مقهى قريب، لكنهما رفضا دعوتي، ودعياني إلى مقصورة الحراسة التي على بوابة بيت أفندي. جلست هناك مع عدد من العساكر، وحظيت منهم جميعهم باستقبال حسن. كانت غرفة الحراسة صغيرة جداً، وقد فرشوا لي فوق «المصطبة» سجاداً لأجلس عليه. وعندما أردت أن أغادر بعد مدة، طلبوا مني البقاء. ولكن الظلام اقترب من إسدال ستاره فارتأيت أن العودة إلى البيت هو الخيار الأكثر أمناً رغم أنني استمتعت هنا كثيراً مع هذه المجموعة المؤنسة.

12/21

لم تتركني ذكرى الشيخ الذي قابلته أمس بسلام وأنا جالس في المنزل، لذلك خرجت حوالي الساعة العاشرة صباحاً أقصد المسجد نفسه الذي تعرفت فيه عليه بالأمس. غير أنني لم أره الآن في المسجد. ذهبت أتبع صوت طبول سمعته هناك، ووصلت إلى بيت صغير كان على بابه عازفان اثنان يحيط بهما جمع كبير من الأطفال. كان أحد العازفين يقرع الطبل، والآخر يضرب صحنين ببعضهما ببعض، وكان رفقتهما طفل صغير يلوح براية خضراء طرزت عليها جملة الشهادة.

وكان الطبل يشبه في شكله الطبول عندنا تقريباً ولكنه أعمق بكثير، ومغلف بالجلد من كلا الجانبين؛ عندما كان قارع الطبل يضرب على أحد الجانبين، كان يلمس الجانب الآخر بواسطة قطعة خشبية. أما الصحنان، فكانا يشبهان صحوننا، ولكنهما كانا غير عمليين. وكانا من النحاس على ما بدا لي. سألت عن سبب العزف والقرع فأخبروني بأن اليوم أحد الأعياد: «الْمُولِدْ» أي يوم الذكرى. طلبوا مني خمس قطع فضية لكنني أعطيتهم عشرة فأثنو على كرمي وسخائي.

وبعد ذلك تمشيت في كل مكان إلى أن وصلت إلى بوابة الجمارك حيث كان جنديان جالسين يلعبان لعبة «المنعل» باستعمال بلح البحر. وهي لعبة شعبية هنا. وزع الجنديان البلح على فتحات اللعبة الستة في كلا جانبي اللوحة. غير أنني لم أتمكن من فهم أي شيء آخر عن اللعبة. وتقع بوابة الجمارك بالقرب من مقبرة كانت تشهد مراسيم دفن طفل حينها. كان موكب الجنازة يتكون من البالغين فقط. وكانوا يرددون الشهادة بصوت عذب جداً. وعندما جيء بالتابوت، وقفت النساء اللاتي كن في مؤخرة موكب الجنازة عند بوابة المقبرة، وأجشهن بالبكاء، وارتفعن بالعويل. وكانت واحدة منهن بالخصوص تصرخ بصوت عال وهي تبكي وتقول: «يا ولدي!» وأشياء أخرى مماثلة. وكانت النساء الأخريات يبكين ويصرخن كذلك. وذهبت مرة أخرى إلى الحديقة الأرمنية لتحية البستاني، الذي عاملني معاملة حسنة جداً. ولكنني وجدته الآن مشغولاً جداً بأعمال البستنة بحيث لم يكن لديه الوقت للتحدث معي. ومن هناك ذهبت وقت الغداء إلى البيت، ومررت مرة أخرى بجنازة في الطريق تتقدمها مجموعة كبيرة من الأولاد الذين كانوا يصيحون ويخمشون وجوههم بشكل فظيع. افترضت أن الميت معلم المدرسة وأن هؤلاء تلاميذه جاؤوا يودعونه إلى مثواه الأخير. اشتريت التبغ، واشتريت كتاب العهد الجديد باللغة الأمهرية (طبع في

إنجلترا) بثمن منخفض من تركي مجدوع الأنف يبيع أشياء قديمة.

ومباشـرة بعد العشـاء، عدت إلى المسـجد، ولكنني لـم أتمكن من لقـاء شـيخي. ولكننـي عندمـا جلسـت أنتظر مـع المؤذن ومـع آخرين على بعض الأحجار قرب درج المسـجد، جاء الناس أكثر فأكثر بحيث تجمع في الأخير عشـرة أشخاص وجلسـنا نتشمس ونتمتع كثيراً بحياة الجنـوب الحلوة. واسـتغربوني كثيـراً. ولكن، عندمـا أخبرهم المؤذن علـى ما أعتقد أنني أريد تعلم اللغة العربية بدؤوا يسـألونني عن أسـماء مختلف الأشـياء باللغة العربية. كانوا يضحكون مسرورين كلما عرفت الجواب على سؤال ما، وعندما لم أكن أعرف الجواب، كانوا يعلمونني الكلمـة العربية بمنتهى اللطافة. وقد كانـوا عموماً مرحين وظرفاء، وقد قضيت معهم وقتاً طيباً. وبينما كنا جالسين هناك، كان واحد منهم يقوم كل مـرة لأداء الصـلاة في المسـجد. وأخيراً جاء شـيخ آخر غير شـيخ الأمـس، فعرضـوا عليـه الكلمات التـي كنت قـد كتبتها علـى قطع من اللوح والتي لم يسـتطع الآخـرون قراءتها. ولكن عندما قرأها الشـيخ، لم يسـع المجموعة إلا أن تتعجب أنني أعـرف كتابة اللغة العربية. وقد خـرج الشـيخ – واسـمه إبراهيم – بعد أن فرغ مـن صلاته، وجلس إلى جانبـي وبـدأ يسـألني مختلـف أنواع الأسـئلة. وفـي الأخير بـدأ يختبر علمـي بقواعـد اللغـة العربية، وعندما كنت أجيب على أسـئلته بشـكل صحيـح، كان تعجب الجميع يزداد، وكانت ضحكات سـعادتهم تعلو. وبعد ذلك، سـألني عن الكتب العربية التـي أملكها. وعندما أخبرته بأن لدي القرآن أيضاً أخذ يشـكو إلى الله مِمّن يعلمنا نحن الكافرين قواعد اللغـة وغيرهـا مقابل المال. ثـم تحدثنا عن مكة فسـألوني بطريقة تكاد تكـون ملتوية شـيئاً ما إن كنت قد زرت مكـة، أو إذا كنت أعزم الذهاب إلـى هناك فأجبت بالطبع «لا». ولكن أحدهم أخذ يقص قصة مسـيحي تمكن من زيارة مكة، فبدا الاستياء الشديد من ذلك على وجوه الكل.

ولـم يكن أي من الحاضرين على درجة اللطف والتواضع التي كان عليها شـيخ المسـجد الذي تعرفت عليه بالأمس. ولكـن إبراهيم رجل لطيف، ولو أنه حاد الطبع قليلاً ويتحدث بسـرعة كبيرة، إلا أنه يشبه في مظهره وطباعه الشـيخ الطنطـاوي إلى حد بعيد. لقـد كانت ظهيرة هذا اليـوم جـد مثيرة للاهتمام، على الرغم من أن شـعور المـرء بأنه موضع امتحـان أمـر محرج قليلاً. ولكـن هذه بالتأكيد هي أفضـل طريقة لتعلم اللغـة. ثم تمشـيت بعد ذلك مـع إبراهيم إلى المدينـة، حيث ذهب إلى المسجد. طلبتُ منه أيضاً إن كان بإمكانه أن يعلمني اللغة العربية، لكنه أجاب بأنه يدرس في المدرسـة، وأنه مشغول بالعمل هناك طيلة اليوم. ولهذا السبب نصحني بالتوجه إلى شيخ المسجد.

12/22

خرجت في الصباح واجتزت المسـافة من البوابـة الجمركية إلى عمود «بومبيـوس». وقد بـدا لي هذا العمـود أكبر من عمـود كليوباترا إضافة إلـى كونه بطراز مختلـف تماماً: فقد كان دائريـاً، وكان الجانب الأعلى منـه أيونياً. وكان يقف على قاعدة مبنيـة بالطوب، وكانت بعض جوانبه متآكلـة. وكانـت الكتابـة المنقوشـة عليـه في الجانـب الغربـي لا تزال واضحـة فترى كلمة «بون» وكلمة «ديـو» على ما أتذكر. وهنا أيضاً كان كل الذيـن لـم يجدوا شـيئاً يقومون به يكتبون أسـماءهم علـى العمود، وحاولـوا، وخاصـة البريطانيون منهـم، كتابتها في أعلـى مكان ممكن، وفـي أقرب مكان ممكن من رأس العمود فوصلوا بالفعل إلى منتصفه. ولـم يكن بإمكانهم أن يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الارتفاع دون سلم أو غيره من الوسـائل. وهذه الأسماء المحفورة هنا في نظري هي عبارة عن شـيء مخزٍ. ولـم يكن موقع العمود مرتفعاً بشـكل خـاص، ولكنه موقـع يطل على البحـر وعلى جزء كبير من المدينـة. وكانت ثمة مقبرة

كبيرة واسعة أسفل المكان شهدت الآن في منتصف النهار العديد من الجنائز وسط صلوات الرجال ونحيب النساء. رأيت الرجال وهم يضعون النقالة فوق القبر وينزلون أشياء عديدة إليه، ولكنني لم أفهم ما الذي أنزلوه في القبر. كما كان ثمة شخصان يحملان الماء، وبعد أن تم تكديس التربة على القبر، بدأ هذان الأخيران يرشان الماء عليه من جرتيهما. وكانا يدوسان التربة ليكدساها لبناء القبر بالتأكيد. ليست القبور هنا مثل القبور في تركيا حيث عادة ما يبنى القبر من الرخام الذي يحفر عليه اسم المتوفى. وغالباً ما توضع على القبور عمامة، باستثناء قبور النساء. أما هنا فيبنون على القبر حائطاً طوله ثلاثة خطوات، ويدسون العمامة في أقصى القبر في بناء أسطواني الشكل عال. وفي الطرف الآخر من القبر بناء أقصر أسطواني الشكل كذلك. ولكنني رأيت هنا أيضاً بعض العمامات، أو الطرابيش بالأحرى.

وقد أُجريت حفريات واسعة النطاق في هذا المكان أيضاً كما هو الحال في جميع أنحاء المدينة وضواحيها. وكانت بقايا الأعمدة القديمة المصنوعة إما من الرخام أو من الجرانيت منتشرة في كل مكان. وكان «شبيتسناجل» قد أخبرني بأنهم يجرون الحفريات هنا فقط من أجل استخراج مواد البناء لاستعمالها في بناء المنازل الجديدة التي يتم بناؤها في كل مكان هنا. وفي فترة ما بعد الظهر خرجت مرة أخرى، ووصلت إلى المسجد القديم الآيل إلى الانهيار الذي التقيت بمؤذنه؛ ذلك الرجل المسن الضرير الوقور ذي اللحية التي اجتاحها الشيب. بدأت أتحدث معه وكان بشوشاً ولطيفاً جداً معي، وقد مكنني من زيارة المسجد. وقد كان خياطاً قبل خمس سنوات، ولكنه لم يعد يستطيع مزاولة هذه المهنة بعد أن ضعف بصره. أخبرته بأنني طبيب كما كنت قد قلت للآخرين، فأشاد بهذه المهنة كثيراً. وقد لاحظت أنني ألقى استقبالاً حاراً من الجميع بسبب هذه المهنة. كانوا يسألونني

عن أمراض العيون التي كانوا يعانون منها، وعن سبل علاجها. وقد وعدني المؤذن أن يعلمني اللغة العربية وطلب مني أن آتي كل يوم إلى المسجد، حيث هو دائم الحضور. وبالفعل خرجنا معاً، ولكننا مررنا أولاً برجل يبدو أنه حارس المسجد، ويسكن بالقرب منه في كوخ ذي ثلاث حيطان. وكان أحد الجدران مبنياً من بقايا بيت قديم. ولم يكن لهذا البناء باب. دخلنا فوجدنا هناك رجلاً وامرأتين لا ترتديان الحجاب. كانت أحداهما تجلس تحت امتداد للسقف وتحمل طفلاً بين ذراعيها. وداخل الكوخ كانت فتاة في حدود الثانية عشر عاماً ربما تكون ابنتها، كانت تطهو نوعاً من أنواع البقوليات يسمونه الفول. وقد أحضرَتْ لنا جزءاً منه إلى الخارج وكان طعمه مقبولاً. كان علينا أن نجلس هناك لبعض الوقت بسبب الأمطار. وكان من المثير للاهتمام رؤية كيف أن هذا الشعب يبدو سعيداً وسط البؤس الظاهري السائد هنا.

ثم ذهبت إلى المسجد القديم والتقيت هناك، من بين أشخاص آخرين، بالشيخ الضرير الذي بدأ يسألني الكثير من الأسئلة مرة أخرى، ثم طلب مني قراءة سورة الفاتحة. وعندما سمعني بعض الأولاد الذين كانوا واقفين إلى جانبي أقرأ السورة، قالوا بعضهم لبعض إنني إما مسلم، أو سوف أصبح مسلماً يوماً ما. وقد حاول الشيخ كل ما في وسعه ليجعلني أردد الشهادة، ولكنني تظاهرت طيلة الوقت بأنني لم أفهمه. سمعت الفتيان ينادونني باسم «الشيخ الوالي». لقد حاولوا بكل الوسائل أن يأخذوني معهم إلى المسجد حيث كان الشيخ الأعمى قد ذهب ليجلس على السجاد، وصاح بي أن أدخل. ولكنهم كانوا ينظرون إلي نظرة المحتالين على ما أعتقد، لدرجة أنني فضلت الرحيل. أما الشيخ الفعلي للمسجد فلم أقابله اليوم أيضاً. يبدو أنه مشغول في المسجد، وأنا لا أريد دخوله الآن لأن الكثيرين كانوا هناك للصلاة.

هطـل المطـر اليوم مرات عديدة، ولكن الشمس سطعت بين الفينة والأخـرى مشـــرقة دافئـة بحيث شـعرت للمـرة الأولى أننـــي حقاً في أحـــد البلدان الأفريقيـــة، ولكـن الجـو كـان لطيفاً. اليوم كان عشـائي عبـارة عن قطعـة خبـز مـــن القمـح وبرتقالـة، وهي حقـاً وجبة خفيفة لذيذة.

12/23

جلست في البيت مدة طويلة هذا الصباح، لأن زخات المطر التي بدأت الليلـة الماضية كانت لا تزال مسـتمرة بالطريقة نفسـها طـوال الصباح. لكن الشـمس سـطعت في النهاية فخرجت لأتمشى تحتها في منتصف النهـار، وكان الجـو حـاراً. كانـت الشـوارع مليئـة بالوحل، ولا سـيما الشـارع الذي أسـكن فيه، ولكـن الأماكن التي وصلتها الشـمس كانت أكثـر جفافـاً إلى حد ما. وفـي فترة ما بعـد الظهر، ذهبت إلى المسـجد مـرة أخرى، وجلسـتُ أمامه علـى الحجـارة برفقة بعـض مرتاديه. في نهاية المطاف، جاء الشـيخ وبدأ يتحدث معـي دون توقف تقريباً باللغة العربية الفصيحة. وسـألني عن عدد الحروف في أبجدية اللغة الفرنسية فأجبته: سـتة وعشـرون حرفاً. فطلب مني تعدادهـا، فعددت له حروف الأبجديـة السـويدية، بحيث حصلت على سـتة وعشـرين حرفاً. فأخذ يكتـب رؤوس الأقـلام واسـتغرب كثيراً حـرف «إكـس» (x) وتعجب كيـف يمكن لصوتين اثنين أن يكونا حرفاً واحداً؟ وفي الأخير، سـألني إن كنت أعرف حروف الأبجدية العربية، وعندما أجبت بـ«نعم»، طلب منـي أن أقوم بعـد حروفها أيضاً. وكان ذلك صعباً بالنسـبة لي بالتأكيد، فلم أتمكن من القيام بذلك بسلاسة. كما أنني حاولت نطق حرف الحاء أيضاً وكان شيخي هذا ينطقه بشكل أفضل من جميع الذين سمعته منهم مـن قبـل، ولو أنه لـم يكن ينطقـه الآن كما ينطقه ضمن الـكلام العادي

علـى ما أعتقد. ثم نطـق الرجل العجوز بحكمة فقال لي: «لقد سـرقتَ من الكتب شـذرات ونتفاً من هنا وهنـاك، ولكنك لم تصل بعد لجذور اللغـة العربيـة بالفعل. أما الحاضرون الذين اسـتمعوا إلى مناقشـتنا، أو بالأحرى إلى هذا الاستجواب فكانوا راضين عن مهاراتي اللغوية وأثنوا عليها. ومرة أخرى سمعت صبياً يقول لأحد الخارجين من المسجد أن اسـمي «الشـيخ الوالي». ثم أخذ الشـيخ يفتخر بإطناب شديد كيف أن العربية هي أسـاس جميع اللغـات الأخرى، أي أنها أسـاس الإنكليزية والفرنسية لأنه لم يكن يعرف لغات أخرى إلى جانب لغات المسلمين. وبالإضافة إلى ذلك، فطلب مني أن أكتب له الأبجدية الفرنسية وكذا أن أعلمـه اللغة الفرنسـية مقابل أن يعلمني هو اللغـة العربية. وبعد مغادرة الشـيخ، تحدث شـخص آخر عن تميز اللغة العربية عـن جميع اللغات الأخـرى. وبـدأ المطر يتسـاقط مرة أخـرى، ولأن أحداً لـم يطلب مني الدخول إلى المسجد، ارتأيت العودة إلى البيت.

12/24

تجولـت هنـا وهنـاك، وقضيت بعـض الوقت فـي مسـجد آخر مع المـؤذن فـي جماعـة صغيرة مـن النـاس الذيـن اجتمعوا هنـاك لصلاة الظهر. كما قضيت بعض الوقت من الظهيرة في مسجد آخر عرفتُ الآن أنه «جامع العطارين»، وأحضرت للشيخ قطرة للعيون من نوع «كونراد» كنتُ قد طلبتُ من الصيدلية هنا إعدادها بماء الورد. وقد كلفتني سـبعة قروش، أي حوالي ورقة روبل واحدة وخمسـين كوبيلاً، وهو ثمن غال علـى ما أعتقد، الأمر الذي أفقدنـي أعصابي فعلاً. أما ليلة عيد الميلاد، فلم أحتفل بها بأي شكل من الأشكال، بل اكتفيت بالذهاب إلى «مقهى الأوربي» فشـربت فنجانـاً من القهـوة هناك، وتفرجت على شـخصين يلعبان لعبة الشطرنج لكنهما لم يكونا جيدين. شعرت بالحزن والوحدة

في غرفتي الفارغة، وكانت أفكاري تحن للوطن طول الوقت، إذ كنت أنتظر تلقي رسالة تصل مع الباخرة، ولكن عبثاً انتظرت.

12/25

بقيت في البيت طيلة الصباح بسبب المطر الذي كان يتساقط الزخات تلو الأخرى. وأشرقت الشمس في فترة ما بعد الظهر، فخرجت أتمشى دون توقف من الساعة الثانية إلى الساعة السادسة. وقد تحسن مزاجي خلال هذه النزهة عما كان عليه في الصباح. كان الطقس جميلاً ودافئاً، بل إنه كان حاراً في الأماكن المشمسة، بحيث كان من الصعب على المرء أن يتصور أن اليوم هو يوم عيد الميلاد. وفي الطريق، تحدثت إلى جندي كان جالساً يرقع جواربه. وقد اشتكى لي هو الآخر من ضيق الحال، فهو لم يتوصل براتبه منذ ثلاثة أو أربعة أشهر، وأنه لا يملك ثمن الطعام ولا ثمن السجائر. وكان هذا بطبيعة الحال مقدمة لطلب البقشيش، أي لطلب الصدقة. لم أكن أتخيل مطلقاً أن الجنود هنا جيدون بالشكل الذي وجدتهم عليه، وكنت أتفرج على الجنود برضا وإعجاب وهم يقومون بعرضهم كل صباح تحت نافذة غرفتي. أجد متعة خاصة في الاستماع لعزف المزامير وقرع الطبول، وهو عزف يضاهي في عذوبته العزف الذي استمعت إليه في باريس وفي أماكن أخرى إن لم يكن يفوقه. ولكنني لا أستطيع الحياة هنا بدون بيبة، فالزمار يأخذها معه كما يأخذ مزماره، والجندي يأخذها معه مثلما يأخذ بندقيته.

تلك الموسيقا العسكرية الصاخبة التي سمعتها، دون أن أرى الجوقة العسكرية التي كانت تعزفها، كانت تشبه كثيراً الموسيقا العسكرية التركية والروسية: هنا أيضاً تصدر من الآلات الموسيقية أصوات رديئة للغاية مثل الأصوات التي تصدر من مثل هذه الآلات

فـي كل الأماكن الأخرى. الزي العسـكري هنا جيـد، وهو أفضل بكثير من الزي العسـكري في القسـطنطينية. وهـو أبيض بياضـاً ناصعاً. وقد تم الاحتفاظ بالسـراويل الوطنية القصيرة هنا، كما أن القمصان ليسـت ضيقـة ولا قبيحة مثل تلك التي عند الأتراك. يبدو أن الجيش هنا أفضل حـالاً بصفة عامة. في المسـاء شـربت الشـاي في غرفتي احتفـالاً بعيد الميـلاد، ولكنه كان شـاياً رديئـاً، أعتقد أنه كان شـاياً أخضر ذا طعم مر ومخدر مما أقفل شـهيتي تماماً، فلـم تعد لدي رغبة في تذوق قدر أكبر منه. واسيت نفسي بأنني بالكاد أجد متعة أكبر في مكان آخر.

12/26

خرجـت في وقت مبكر هذا الصباح للقاء المؤذن العجوز الذي عرفت الآن أن اسـمه محمـد. وقـد أخبرنـي أنه يبلغ الخامسـة والسـبعين من العمـر، ولكنني لم أصدق ذلك لأنه ما زال يبدو قوياً جداً. وقد أخبرني الكثير عن أيام «فونافارت» (كما يسـمون بونابرت هنا) في مصر. وقال إنـه حج إلى مكـة المكرمة ثلاث مـرات، ووصف لي المـكان دون أن أطلـب منه ذلـك. وكان يتكلم بين الفينـة والأخرى بلغة القـرآن فتتغير ملامـح وجهـه ويبدو ورعاً جـداً، وكان كلما ذكر الله أضاف «سـبحانه وتعالـى». وبينما نحن جالسـان نتحدث، وصل وفد الباشـا في عربتين أوروبيتين، تجر كلاً منهما سـتةُ خيول جميلة، كان أحد الفريقين أبيض والآخر أسود. وقد سار الوفد قريباً جداً من المسجد الكبير، الذي يسميه محمد «مسـجد دانجان». وكان بعض أعضاء الوفد قد وصلوا إلى غاية مسجدنا، وعندها انسحبت أنا ورحت أتجول في أرجاء المقبرة الكبيرة المجاورة. وتبعني الرجل العجوز أيضاً بعد ذلك بوقت قصير، فجلسنا نـدردش مـدة طويلة أمـام أحد القبور. وقـد بقيت معه حتـى الظهر، ثم ذهبت إلى البيت وكتبت رسالة إلى «ويكلوند» في القسطنطينية.

ثم ذهبت للقاء الرجل العجوز مرة أخرى، وجلست معه مدة طويلة. لقد تلقيت اليوم درساً تطبيقياً في اللغة العربية بشكل جيد. لو أن كل يوم سيمر مثل هذا اليوم، فإنني لا محالة سأتعلم. عندما كنا جالسين هذا الصباح أمام القبر، جاء أحد صبيان المدرسة الذين كانوا قد رأوني في المسجد الآخر فانضم إلينا وتعامل معي بمنتهى اللطافة. وفي النهاية، طلب مني بورع تام أن أنطق بالشهادتين، وقال بأن الأمر لا يتطلب أكثر من قول بضع كلمات. تظاهرت بأنني لم أفهمه فقاطعه الرجل العجوز، وطلب منه أن يذهب بعيداً. أخبرني العجوز بأنه أصلاً من إسبانيا، وبأن جده قد انتقل للعيش في مصر. وهو رجل طيب يعاملني طول الوقت معاملة حسنة. ولذلك فإنني أشعر براحة كبيرة معه. وعندما جلسنا أمام المسجد على أحد المقاعد الذي نشر عليه سجاداً حتى أجلس عليه، مرت بنا امرأة وتحدثت معه. وقد أخبرني الرجل العجوز بأن هذه المرأة تقرأ القرآن، وعندما لاحظ دهشتي، أخبرني بأن ثمة الكثير من النساء اللاتي يقرأن القرآن، وبأنهن يعرفن الكتابة والقراءة كذلك، وبأن للنساء أيضاً مدرسة خاصة بهن. وعندما كنت عائداً إلى البيت، رأيت تلك المرأة جالسة وبين ذراعيها طفل، وسمعتها بالفعل تقرأ القرآن. وفي وقت لاحق في المساء، ذهبت لأتمشى على شاطئ البحر، ولأستنشق نسيم البحر في جو صيفي دافئ جميل.

12/27

خرجت في الصباح، تمشيت هنا وهناك فوصلت إلى مكان كان فيه عمال يبنون فرناً لحرق الجير. وكنت أعرف معظم العمال من مسجد العطارين. سلموا علي فبقيت هناك أتحدث معهم مدة طويلة. وبينما أنا واقف هناك، جاء إلي الرجل العجوز نفسه الذي كنت قد ذهبت معه في جولة ذات مساء في المحمودية. وهو الآن يعمل هنا ويقضي لياليه

حارساً، متخذاً السماء سقفاً، وحصيرة فقيرة فراشاً، وملابسه غطاءً. كان العجوز مسلياً جداً وهو يغمض عينيه الصغيرتين السوداوين، وشبه المغلقتين. ولكنني أجد صعوبة شديدة في فهم لغته ولغة الطبقة السفلى التي تختلف اختلافاً كبيراً عن لغة شيخي.

ثم ذهبت لرؤية محمد ولكنني لم أجده. ولكن صديقه العجوز الأطرش تقريباً، الذي كان معتاداً على زيارته دائماً أخبرني بأنه سيأتي قريباً. وبالفعل جاء وجلسنا نستدفئ تحت أشعة الشمس الحارقة. وقد سمعت الآن أن اسم هذا المسجد هو «أبو شجر». وبعد وقت قليل، جاء أفندي تركي كان لديه بيبة وتبغ، فجلسنا نحن الأربعة نتحدث في موضوع يحبه الشرقيون حباً جماً، وهو موضوع «الزهو» وما يتصل به. وقد عُزِّز النقاش بالطبع بالعديد من الآيات القرآنية، فيصيح الآخرون «والله!»، أو «يا الله!» تعجباً من كم الآيات التي أعرفها عن ظهر قلب. اشتكوا من أن الناس لم تعد تتقي الله حق تقاته، وبأن العالم مكان بائس. وكان التركي بوجه خاص مسلياً في ملامحه وحركاته التي حاول أن يضع لها وزناً وأهمية كبيرين. وكان يمسك ذراع الواحد منا في ثقة، ويحاول أن يبدو حكيماً ومُهما وهو يقول شيئاً بلغة عربية سيئة وبلهجة تركية. وكان حافظاً للقرآن، ولكن الله وحده يعلم قدر معرفته به حقيقة. وهو من مدينة «سميرنا» التي أكثر من الإشادة بها. جلسنا هناك إلى صلاة الظهر، عندما ذهب التركي إلى مسجد دنجان القريب، فيما ذهب محمد لتناول وجبة الغداء. كان التركي يعمل في الجامع الكبير مقابل راتب شهري قدره مئة وخمسون بياستراً.

في فترة ما بعد الظهر، تمشيت في جزء كبير من الجهة الغربية للمدينة، ووصلت إلى فم قناة المحمودية. كان النيل هناك يغص بقوارب صغيرة تسمى «العقبة»، وكانت حركة المرور أكثر مما كنت أتصور. تمشيت خارج سور المدينة على طول شاطئ القناة إلى غاية

«باب سدرة» ثم قفلت راجعاً إلى المدينة. وعندها بدأت الأمطار تتساقط بغزارة ذهبت إلى البيت. ولكن المطر توقف فخرجت للقاء حارس فرن الجير. كان يجلس هناك على حصيرته برفقة زملائه، دون أن يكون له سقف يظله إلا خشبة أُقيمت على عدد من الحجارة، وكان هذا السقف صغيراً لدرجة أنه بالكاد يحمي رأسه وصدره. كان العمال بصدد تناول طعامهم فدعوني لمقاسمتهم إياه. وكانت وجبتهم تتألف من الخبز، وبعض كُرات الملفوف النيء، ونوع من البصل الطويل الذي كانوا يقطعونه ويضعون شرائحه على الخبز ثم يغمسون ذلك الخبز في حساء خاتر ويأكلونه. طلبوا مني الجلوس بجانبهم على سجادتهم ففعلت، ولكنني لم أكن أريد مشاركتهم وجبتهم لأنني كنت لا أزال شبعاناً من الغداء. جلست معهم إلى حلول الظلام ثم ذهبت. نهض الرجل العجوز وجاء معي مدعياً أنه يريد أن يدلني على الطريق، رغم أن الطريق واسع وواضح، ولكنه جاء معي في الحقيقة من أجل الحصول على البقشيش، وقد أعطيته عشر قطع فضية.

وفي طريقي إلى البيت، التقيت بصبي كان يتجول وهو يعزف على ناي قصبي بسيط. أوقفته وحاولت العزف على نايه، ولكنني لم أتمكن من عزف أي لحن. ووعد أن يأتي في الغد للقائي وليعلمني ومعه الناي والقانون.

12/28

في الصباح ذهبت لزيارة «شبيتسناجل» وأخذت بعض الكتب إلى مكتبته الفقيرة التي توجد دائماً في حالة فوضى. ثم ذهبت بعد ذلك عند محمد الذي كان يجلس في المسجد مع صديقه العجوز يتناولان طعامهما. وما أن رأوني حتى دعوني للانضمام إليهما. كانت وجبتهما تتألف من الجبن والخبز ونوع من الحليب الخاتر أو اللبن الذي كانوا

يغمسون فيه خبزهم. أخذت قطعة من الخبز والجبن وشربت الماء من حاويـة رأيـت مثلها في كل مسـجد تقريباً. ثم بقينا جالسـين على مقعد في الظل نتسـامر، وذلك لأن اليوم كان حاراً بشـكل خاص. وسـرعان مـا جـاء التركي أفنـدي أيضاً. وهكـذا عدنا مـرة أخرى إلـى موضوعنا القديـم: زوال العالم. وكانـوا يقولون معظم الوقـت: «الدنيا زائلة»، أو «كلـه زائل» وما شـابه ذلـك. وكان التركي يؤكد كلماتـه بحركات يديه وأصابعـه، وبنظـرات عينيه التـي لها معنى خاص. وبينما كنا جالسـين، جاءت سـيدتان عربيتان إلى المسـجد قصد الزيارة، فبقيت أنا والتركي أفنـدي جالسـين وحدنـا. وحـدث حينذلك أنني قرأت آية مـن القرآن فأكمـل القـراءة على الفور مـن حيث توقفت، ثم تابعت أنـا القراءة مرة أخرى إلى نهاية السـورة. وقد اندهـش لهذا كثيراً وكان يعتقد بجدية أن علي أن أدخل الإسـلام. أجبته بالجواب الأكثر شـيوعاً والأكثر ملاءمة لـكل حالة قائلاً: «إن شـاء الله!»، وعندها أمسـك بيـدي وضغط عليها مـردداً الجملة نفسـها. وعند الظهر، ذهب هـو وبقيت أنا لبعض الوقت جالساً مع محمد. وعندما أردت المغادرة أعطيته خمسة بياسترات.

وفي فترة ما بعد الظهر، تمشيت على طول الشاطئ في جزء المدينة الشـمالي الغربـي. وقـد بـدت هـذه الناحية عمومـاً أفضل جـزء عربي فـي المدينـة، على الرغـم من أنك ترى هنـا أيضاً وعلى طول الشـاطئ بيوتـاً منخفضة، بنيت مـن الحجارة، وطليت بالخث والطين وسـقفت بالجص. تمشـيت على الشـاطئ على طول هذا الخليج إلى أن وصلت إلى قصر الباشا، الذي كان بديعاً جداً دون أن يكون فاخراً. وقد زرعت في حديقته الواسـعة والمُشرعة وغير المنتظمة أشجار التين في خطوط مستقيمة. ولكـن لم تزدهـر إلا بعض الأشـجار. وكان القصـر محاطاً بثكنات عسـكرية، كما كان حوله الكثير من الجنود المنتشـرين في كل مـكان، فضلاً عن قارعـي الطبول وما إلى ذلـك. وكان ثمة أيضاً الكثير

مـن سـائقي الحمير، الذيـن يأتـون دائمـاً لإزعـاج الأوروبييـن حيثما وجدوهـم. وقد كانـوا الآن يعملون في بناء مدخـل القصر المؤدي إلى باحتـه، والـذي سـيكون رائعاً. واصلـت رحلتي حول المينـاء ومررت عبـر ناحيـة لـم أزرها مـن قبل، وخرجـت من إحـدى التقاطعـات إلى ناحية السـوق. ذهبت إلى جامع العطاريـن ومكثت هناك بعض الوقت مع الشـيخ والجماعة الملتفة حوله والتـي تنمو عدداً طول الوقت. وقد دار النقـاش حول جميع الموضوعات الممكنة، وقد تعلمت الكثير من الأمور الجديدة. وعندما حـان وقت صلاة المغرب، دخل الجميع إلى المسـجد لأداء الصلاة. في غضـون ذلك، ذهبت في جولة ولما عدت، سـألني الشيخ: «لماذا لا تصلي معنا؟» ولكنه طرح سؤاله بطريقة لطيفة ورقيقـة لـن أنسـاها مـا حييت. أجبتـه أن ذلـك لا يجوز لـي. فقال لي: «بـل يجـوز لك على أن تقـول: «لا إلـه إلا الله». ولكننـي بقيت صامتاً فلم نتابع هذا النقاش. وعندما أخبر شـيخان شابان شيخي بأنني أعرف النحـو، طرح علي هذا الأخير بعض الأسـئلة النحوية البسـيطة. أجبت علـى أسـئلته إرضاءً له فاندهش الحاضرون دهشـة كبيـرة من أجوبتي. وكانوا يصيحون «عجيب» ويرددون عدة مرات «الله!». ثم تحول سير الحديث إلى الأشـهر، فأراد العجـوز أن يثبت بأنه يعرف تقويمات عدة شعوب. كان كل شيء هادئاً بشكل رائع، كما أن حضرة الشيخ العجوز اللطيفة، وهذه الأمسـية المقمرة اللطيفة أدخلت علي الهدوء والصفاء، وعندمـا هممت بمغـادرة المكان، وضعت يدي علـى صدري وتمنيت لمن بقوا جالسين أن يصاحبهم السلام وكنت صادقاً في ذلك.

12/29

خرجت في الصباح لشراء التبغ الذي أصبح الآن حاجة ضرورية بالنسبة لـي، والذي أصبحت أشـتري منه كميات كبيرة. ثـم ذهبت عند محمد،

وكان برفقته صديقه العجوزر وشخص آخر. بدأ نزول المطر يزداد لدرجة أننا جلسنا نحن الثلاثة نحتمي داخل باب الدعاء تحت المئذنة ندخن التبغ التركي المدعو «غيبلي» الذي أعجبهم بشكل خاص. ثم قضينا بعض الوقت جالسين وأقدامنا حافية على الحجارة ندخن وندردش طيلة الصباح وإلى غاية منتصف النهار، وعندها غادرت. وخلال ذلك الوقت، زارنا خادم مسجد دانجان ومعه مخطوطة مجلة، قرأنا فيها عن الأدوية التي تجعل المهبل يضيق وغيرها في جملة ما قرأناه. وقد قضيت وقتاً لطيفاً عموماً. كان محمد يسألني عن أسماء بعض الأشياء بالعربية، فتعلمت منه الكثير. ومحمد يعاملني بلطف شديد عادة، كما أنه بشوش الوجه على الدوام. وقضيت فترة ما بعد الظهر كلها في التنزه في الحدائق إذ كان الجو أجمل مما يمكن للمرء أن يتخيل. كان الجو جواً صيفياً دافئاً معتدلاً وهادئاً للغاية، وكم كان الجلوس حلواً في ظلال أشجار النخيل.

12/30

ذهبت منذ الصباح إلى مسجد عبد الرزاق عند محمد. كان بعض الأشخاص يُحضرون القهوة في الليوان، وقد شربت فنجاناً كلفني عشرين قطعة من الفضة. تقاطر الناس على المكان تدريجياً بحيث أصبح يغص بالناس. فقد قدم قربان عظيم اليومَ في مسجد دنجان الذي بناه محمود: ثلاث أبقار وعشر أغنام ترحماً على روح زوجة «محرم بيه» التي كانت ابنة محمد علي حاكم مصر. ولذلك تجمع هؤلاء الناس هنا أيضاً للاحتفال بتلك الذكرى بفنجان من القهوة، والخبز وبعض الخضروات. شعرت أنني الآن بين عدد كبير جداً من الناس، كما أنني كنت أشعر بالحرج قليلاً، بحيث إنني غادرت المكان بعد وقت قصير.

عبـرت المحمودية إلى أقصـى الجنوب الغربي حيث رأسـها الذي كان الميناء يحيط به من أحد الجوانب، واتبعت الطريق الواسـع الذي انتهى بي في آخر المطاف إلى السـهل الواسـع الواقع بين بحيرة مريوط والبحر. وقد نصبت الخيام هنا في كل مكان، وفي كل مكان، يرى المرء الجنود الذين كانوا يسكنون على ما يبدو في الخيام أو في الأكشاك التي بنيت بنفس طراز البناء البسيط المعتاد هنا. قرب شاطىء البحر، وقفت على تلة رملية تطل على مناظر جميلة من كل جانب: البحر حيث كانت الآن الكثير من الأشـرعة؛ وخليج الميناء في الجانب الآخر؛ والمدينة؛ وكذا السـهول حيث أشـجار النخيل بأعداد كبيرة. كانت أشعة الشمس فـي منتصف النهـار حارة بشـكل خاص، وكنـت أشـعر بحرارتها أكثر لانعدام الرياح تماماً. كانت السحالي تزحف على الرمال في كل مكان، تسرع إلى جحورها عندما ترى شخصاً مقبلاً. كنت قد تجولت طويلاً، ولذلك كنت أشعر بتعب شديد عندما عدت إلى البيت بعد وقت قصير من منتصف النهار. نُصبَت الأكشـاك في ضواحي المدينة كلها في نظام لا غبار عليه، وبين هذه الأكشـاك، كان الأطفال يركضون في الشـوارع عـراة، وكانت الكلاب تنبح في وجهـي وهو أمر لم يحدث لي من قبل في حي الفرنجة أو في أحياء المدينة الراقية.

بقيـت في البيت وقتـاً لا بأس به بعد الظهر ثم خرجت. صعدت إلى التلة الكبيرة المطلة على جميع النواحي وتمتعت بالمناظر الخلابة. ثم ذهبـت بعد ذلـك للقاء محمد الذي كان وحـده الآن، وقضيت معه مدة غيـر قصيـرة. حدثني عن القرابين التي سـتذبح في الصبـاح في الموالد والزيارات. اليوم هو التاسـع من ذي الحجـة، وفيه يجتمع الحجاج في مكـة منـذ الصباح في جبـل عرفات ويبقـون هناك حتى الظهـر، وتلقى الخطبـة وتصلى صلاة الظهر وصـلاة العصر جمعاً. أما هنـا، فغداً عيد الأضحـى، حيـث تذبح الأضحية فـي الصباح وتؤدى صـلاة العيد بعد

صلاة الصبح على الفور دون الحاجة إلى أذان آخر. ويستمر العيد إلى بعد ظهر اليوم الرابع، وفي كل يوم من أيام العيد، تذبح عشرة خراف في مسجد دنجان وتوزع لحومها على الفقراء. كل هذا وأكثر بكثير أخبرني به محمد دون أن أسأله. أخبرني بهذا كله عندما كنا جالسين في ليوان المسجد وعندما كنا عائدين إلى البيت معاً.

تجولت لمزيد من الوقت، واشتريت لنفسي في طريقي إلى البيت أربع برتقالات بعشر قطع من الفضة، أي ما يقرب من كوبيك واحد لكل برتقالة، ولقد لاحظت أنهم قد غشوني في السابق، أو أنني أخطأت الفهم لأنني دفعت الثمن نفسه مقابل برتقالة واحدة في السابق. لكنني الآن سألت محمداً عن السعر، فقد كان قد أثنى كثيراً على مشترياتي السابقة. كسرت اليوم رأس البيبة مرة أخرى، وللمرة الثامنة منذ وصولي من القسطنطينية على ما أعتقد، في حين أنني لم أحتج خلال رحلتي مع «ويكلوند» كلها إلا إلى رأس بيبة واحد.

12/31

اليوم هو اليوم الأول من أيام عيد المسلمين الكبير، وآخر يوم من السنة عندنا. خرجت في الصباح الباكر واشتريت من السوق أولاً بيبتين اثنتين من الفلين لهما أنبوب طويل، ودفعت مقابلهما ما مجموعه بياسترين ونصف، وكان لأحداهما أنبوب أسمك من الأخرى، وذهبت أولاً إلى المقبرة الكبرى التي تقع قرب عمود بومبيوس الذي يسمونه هنا «عمود الراوي»، خارج بوابة مدينة السدرة، حيث احتشد جمع غفير من الناس، وجلسوا كل أمام قبر أقاربه ومعهم سلال أو قصاع كبيرة يأكلون منها. كانوا يقومون بالزيارة. كان الرجال يقرؤون القرآن، فيما كانت النساء - اللواتي شكلن أغلبية الحاضرين - يبكين وينتحبن. وقد أثارت مجموعة من أربع نساء جلسن حول أحد القبور انتباهي بشكل

خاص، حيث كانت واحدة منهن تمسك بطرفي وشاحها بكلتا يديها وتُأَرجِح رأسها من الوراء إلى الأمام وهي تصيح: «يا حبيبي يا ولدي» وأشياء أخرى لم أفهمها، وهي تؤكد على المقطع الأخير من الجمل. كان الكثيرون قد أقاموا الخيام على القبور، وجلسوا هناك يصيحون بصوت أعلى. وبالطبع، كان هناك أيضاً الكثير من البائعين المتجولين الذين يبيعون الماء والأغذية والحلويات وغيرها، فضلاً عن الكثيرين من الناس الذين جاؤوا إلى هنا على ما يبدو للتفرج فقط، فهم يتجولون في أنحاء المقبرة مبتسمين مما لا يتناسب مع جو الحزن السائد هنا، والذي فرضته النساء على المكان بعويلهن.

ثم مشيت على امتداد طول أسوار المدينة إلى مسجد عبد الرزاق حيث قدم لي الحاج محمد فنجان قهوة. وبقيت هناك مدة طويلة للجلوس مع القادمين للزيارة. وفي النهاية، جاء رجل عادة ما يرتاد مسجد دنجان كل يوم لرؤية محمد وطلب مني أن أتبعه ففعلت. وأخذني إلى الحديقة المجاورة للمسجد حيث كان منزله. كما كان في الحديقة طاحونة يحركها حماره، وهي طاحونة شائعة جداً هنا. أعطاني لوحاً وضعه على القناة، (هنا ينطقون القاف في هذه الكلمة كما ينطقون الجيم المصرية عادة)، وأخذ هو لوحاً آخر ثم جلس على يميني. بقينا جالسين هناك مدة طويلة ندردش وندخن من البيبة نفسها نتناوب عليها. سألني عن عينيه اللتين كان البرد قد أضعفهما. وهو كثير الكلام عموماً. وكانت ثمة عبارة ترتفع إلى شفتيه مع كل نفس يأخذه من البيبة تقريباً: «ما هو كده».

ثم تجولنا قليلاً وتوقفنا لإلقاء نظرة على المناظر الجميلة المتمثلة في الميناء الشرقي، وعمود كليوباترا الذي يسمونه هنا «عمود فرعون». وعند الظهر ذهبت إلى البيت عبر السوق لإحضار أنبوب بيبة آخر كنت قد تركته في المحل، ولكنني ضيعت الطريق إلى هناك، بحيث إنني

ربما بحثت حوالي نصف ساعة قبل أن أجده. بعد الظهر مباشرة، سار من تحت نافذتي موكب يتقدمه عدد من الرجال ووراءهم ثلاثة من المقاتلين بالعِصِيّ وقفوا بالقرب من النزل الذي أسكن فيه وشرعوا يقومون بحركاتهم القتالية. كانت العصي كأوتاد أو هراوات طويلة جداً، وكانوا يلوحون بها حول رؤوسهم وهم يقومون بمختلف أنواع الحركات البهلوانية. تظاهر أحدهم بالهجوم وتظاهر الآخر بالدفاع. مرَّ كل شيء ببطء شديد ودون أي مهارات خاصة. ومر بعدهم حصان كان على صهوته سرج أحمر فاخر جداً، ويمتطي صهوته طفل يرتدي رداء أحمر عليه جديلة ذهبية اللون. كان الخادم الذي يمسك بالطفل يمتطي صهوة جواده تارة ويترجل تارة أخرى. كان الحصان يقف عندما يعرض المقاتلون حركاتهم القتالية. وفي آخر الركب جاء أربعة موسيقيين: اثنان يقرعان على طبول كانت أرق من المعتاد، يليهما عازفان على المزمار، كان مزماراهما يبدوان وكأنهما آلتا مزمار الأوبوا[1] وحتى صوت موسيقاهما كان أشبه بالأوبوا، إلا أنهما كانا أبسط وأقصر بكثير. لا أعرف حتى الآن سبب كل ذلك الاحتفال.

خرجت متوجهاً إلى الساحة المُشرعة القريبة من مستودع الأسلحة، التي ستُقام فيها كثير من الاحتفالات حسب ما سمعته من الجميع. كانت الساحة غاصة بالناس، كان بعضهم يتجول، فيما وقف بعضهم الآخر في مجموعات صغيرة حول وسائل الترفيه المتاحة. كانت المجموعة الأولى التي اخترقتُها بصعوبة قد تجمعت لمشاهدة عرض ثلاثة مطربين أو ربما أكثر. جلس المطربون الثلاثة على الأرض، وجلس المستمعون كذلك بحيث كان أحد المطربين يؤدي غناء فردياً وهو يترنح ذهاباً وإياباً وهو يصفق بيديه ويعوّج فمه، ثم ينضم إليه الآخرون كجوقة ترافقه الغناء على إيقاع الطبل أو الطبلة التي تعد آلة موسيقية

(1) Oboe.

ضرورية هنا تماماً كما هو حال التصفيق الذي يرافق الكلام والغناء على السواء. تشبه طريقة العرض هذه إلى حد بعيد طريقة الروس، على الرغم من أن الغناء هنا مختلف تماماً في طبيعته عن الغناء الروسي، كما أنه يختلف عنه كثيراً من حيث الألحان. وكان رجل عجوز يعزف في مكان آخر على الكمان باستعمال قوس، ولكنه كان قد انتهى من عزفه للتو عندما وصلت، ولذلك لم أسمعه. كان هناك كذلك كشك صغير مغطى بأكياس خشنة قديمة وبسجاجيد يصدر منه صوت الطبلة المعتاد. ولكنني لم أكن أعرف ما كان يجري في الداخل. كما رأيت أيضاً رجلاً يرقص على عزف الطبول فبدا رقصه طبيعياً للغاية وإن كان بطيئاً بطئاً شديداً. وكانت ثمة مجموعة كبيرة، ربما أكبر من أي مجموعة رأيتها هنا حتى الآن، وقف في وسطها الراوي يقص قصصه، ولكنني لم أتمكن من الاقتراب منه بما فيه الكفاية لفهم كلامه. وفي كشك آخر بدا أكثر ترتيباً، عُرِضت بعض الرسومات، التي استشفيت منها بأن هناك مسرحاً للعرائس يقدمه إيطالي على ما يبدو. كانت الحشود المحيطة به هي الأكبر هنا. وكانت هنا وهناك العديد من المجموعات النسوية الصغيرة المكونة من امرأتين إلى أربع يضربن على الطبول. وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك عدة أنواع من المراجيح منها ما يدور عمودياً ومنها ما يدور أفقياً مثل المراجيح التي عندنا في الملاهي، كما كانت ثمة أرجوحات عادية مثل تلك التي عندنا في الحدائق العامة كذلك، ولكنها هنا أعلى مما عندنا بكثير، وعلى حبالها علقت أجراس تقرع خصوصاً عندما تصل الأرجوحة إلى الأعلى.

وبطبيعة الحال، أقيمت هنا العديد من الخيام والأكشاك التي تبيع القهوة وجميع أنواع الكعك والحلويات. وقفت أتفرج على صبي كان يحضر فطائر السمبوسك العادية مثلًا. كانت أمامه صينية بها كرات عجين صغيرة، كان في البداية يغمس أصبعه في الزيت ويزيت به

الألـواح بحيث تبدو ملسـاء ونظيفـة، ثم يأخذ من كـرات العجين اثنين ويسـطحهما بواسـطة وسـادة مسـتديرة، يكسـر البيض ويضعه بصفاره وبياضه على العجين المسطح، ثم يطويهما على شكل فطائرنا كمثلثات أو مربعات. وبعدها يضعها في قدر به ماء يغلي ثم يخرجها جاهزة. كل هـذا لم يفتح شـهيتي. كما عُرِضَـت اللُّعب بأعداد كبيـرة هنا مثلما كان الأمـر عليـه في روسـيا، ولكنها هنا كانت سـيئة الصنع جـداً. كم كانت دهشتي كبيرة عندما لاحظت بأنني المتفرج الأوروبي الوحيد هنا. ومع ذلك كنت أعامَل بلطف شديد، وكان الناس يفسحون لي المكان حيثما ذهبـت، وكانوا يريدونني أن أتمكن من المشـاهدة. في كشـك مسـرح العرائس، قال لي رجل مزحة غبية بلغة إيطالية سيئة بأن إحدى العرائس مسيحية.

سـاد فـي المكان بصفة عامـة فرح عظيم، وكانت الحشـود تضحك واللـه وحـده يعلم مـا يضحكهـم. وربما لمجـرد أن اليوم عيـد، لأنني أنـا شـخصياً على الأقل لم أشـعر بأي فـرح من الملاهـي المتاحة هنا. وكانـت عيـون جميع النسـاء مزينة بالكحـل، وكانـت أياديهن مخضبة بحناء جديدة، كما أنهن ظهرن جميعاً في أحسـن الثياب التي كانت في معظمها جميلة ونظيفة، وكان الجنود يرتدون زياً احتفالياً يشمل قميصاً مطرزاً أحمر أنيقاً جداً لم أكن قد رأيته من قبل. وكان الأطفال يصيحون: «عيدنـا عيد عيد» في كل مكان وطيلة اليـوم. كان الفقراء يحملون قطع اللحـم التـي حصلوا عليها مـن الذبائح التي ذبحها الأغنيـاء، وبدا فرح الاحتفال على الجميع. ولكن الأغنياء والأثرياء من الناس كانوا قلة في الساحة. كان معظم الناس هنا من الفقراء ومن الجنود. لا بد أن الأغنياء كانـوا يحتفلون إما فـي محلاتهم ومحلات أصدقائهـم أو في المقاهي الأفضل، أو أنهم كانوا يتجولون في شوارع حي الفرنجة.

وبعـد ذلك، استلقيت علـى ظهري فـي المنزل وقتاً طويـلاً أدخن،

ولكنني خرجت في المساء أتجول تحت ضوء القمر الجميل، والطقس المعتدل. شربت الشاي في المساء احتفالاً بالعام الجديد. وكان شاياً سيئاً جداً كما كانت ليلة عيد الميلاد، ولكن الزبدة التي تناولتها في الوجبة كانت ممتازة رغم أنها بيضاء جداً. أطلقت المدفعية اليوم أربع طلقات عند كل من الصلوات الأربع الأولى، ولكنني لم أسمع طلقة صلاة العشاء رغم أنهم كانوا سيطلقونها حسب ما قيل لي. تُسمى جميع هذه الملاهي والمكان الذي تعقد فيه هنا «سوق العيد». ومن بين اللعب المعدة للأطفال ولغيرهم أذكر بعض أنواع الطبول الصغيرة المصنوعة من الطين. وكانت الطبلة تبدو وكأنها جرة عنقها كبير، ثُبِّتَت على قاعها قطعة من الجلد، أما جزؤها العلوي فيشبه فم الجرة، وهم يسمونها «النقارة»، وكان لكل طفل تقريباً واحدة يقرع عليها. والمزامير، أو النايات كما يسمونها هنا، بسيطة جداً، مصنوعة من خشب المزامير العادي، ولكن فيها عندهم أربعة ثقوب فقط (على ما أظن). وكان بجانب القصبة التي يعزفون عليها قصبة أخرى غير مثقوبة. وكان العزف على الناي مرافقاً دائماً بالقرع على الطبلة أو على الدف.

عند حلول المساء، وعندما كنت أمشي باتجاه البيت مروراً بمسجد العطارين، وقفت لمشاهدة رقصة لم يكن فيها إلا الأقباط فقط، رجالاً ونساء. كانت حركاتهم، سواء حركات أجسامهم أو أرجلهم، بطيئة جداً وغير رشيقة. كانوا يرقصون على نغمات الناي وقرع طبلة كبيرة. كان اللحن بسيطاً والإيقاع متكرراً مثل الغناء المصاحب له. كان الناس يقبلون بعضهم البعض طيلة أيام العيد، وكان الأصدقاء يحضن بعضهم بعضاً كلما التقوا في الشارع. ولكنهم لم يكونوا يقبل بعضهم بعضاً على الفم وإنما على الأكتاف مرتين أو ثلاث مرات على الأكثر، ثم يلمسون كفوف بعضهم البعض أو يصافح بعضهم بعضاً، وفي الأخير

كان كل منهم يقبل يده ويضعها على جبهته أو على قلبه أو على كليهما.

لم أكن أملك إلا أن ألقي نظرة إلى الوراء على هذه السنة المنصرمة الآن، وعلى كل التحولات الغريبة التي طرأت في حياتي خلال هذه السنة. كانت حياتي في بداية السنة حياة هادئة حقاً ليس فيها أي مشكلات، ربما أهدأ وأهنأ ما عشته إلى الآن. لم أكن أقلق بشأن أي شيء، ولم أكن أحمل همَّ أي شيء. كنت أحصل على كل ما أتمناه من الحياة من ترفيه. والوقت الذي قضيته في كلية الطب كان وقتاً مميزاً جداً. وباستثناء بعض الدائنين الذين كانوا يطالبون بديونهم، لم يكن في حياتي ما يشوش صفوها. وأخيراً عندما حانت لحظة المغادرة بعد انتظار طويل جداً، شعرت بفرحة الحياة وبصحة الجسد والروح تتدفق فِيَّ. ثم جاء ذلك الحادث الرهيب في باريس وأخذ مني شجاعتي وحماستي وسيترك بالتأكيد بصماته على حياتي وقتاً طويلاً. ثم جاء بعد ذلك السفر عبر فرنسا وقد كانت رحلة ممتعة، ولكن تلك الفرحة الأولى الصادقة اختنقت وانطفأت. كان ذلك الوقت الحلو الذي قضيته في الطريق من مرسيليا إلى القسطنطينية وقتاً هنيئاً حقاً نفسياً وجسدياً، وجاء في وقت كنت فيه بحاجة ماسة للهدوء والاسترخاء. وأعتقد أن ذلك الوقت سيترسخ في ذاكرتي كأفضل وأحلى الذكريات، كما أنه كان أيضاً دواء لجسدي. لا يمكنني القول بأن وصولي لهذه الدولة الإسلامية لأول مرة في حياتي لم يكن تجربة سعيدة، فاليومان الأولان اللذان قضيتهما دون أكل ولا شهية، كانا يومين صعبين للغاية. لكن الأمور تحسنت تدريجياً، ويوماً عن يوم، أصبحت أرتاح أكثر هنا. وأنا متأكد تقريباً أنني سأكون حزيناً لمغادرة الإسكندرية. ولكن تبارك الذي يوجه الأمور بأفضل طريقة ممكنة دائماً، على الرغم من كثرة الصعوبات والمسالك الوعرة!

1844 /1 /1

لـم يهنئني أحد بالسـنة الجديدة ولـم أهنئ بها أحـداً. ذهبت في الصباح إلى مسجد عبد الرزاق، ولكنني لـم ألتق بمحمد لأنه كان داخل المسجد يتنـاول طعامـه. ولكننـي قابلـت بعـض الشـيوخ الذيـن أعرفهم بعض المعرفة، وكان من ضمنهم الشيخ إبراهيم أيضاً الذي أسعد دائماً برؤيته. جلسنا فوق الحجارة ندردش حول مختلف أنواع الموضوعات، بما في ذلك علم الفلك، فقال شـيخ شاب كان قد سمع كلامي ذات مساء أمام مسـجد العطارين بأنني على دراية بالفلـك. قدمتُ له البوصلة الصغيرة التـي لدي، ففحصها بإعجاب شـديد مظهراً تلـك الفرحة المعتادة التي تراهـا علـى وجوه الناس هنا بأبسـط الأشـياء. ثم جاء صديقـه الحميم الشـيخ علـي الذي أحببتـه كثيـراً. دار الحديث عن الإسـلام وفضائله، وعـن القـرآن وعن موضوعات أخرى، فسـألني علي هـل أحب القرآن والمسلمين؟ فأجبته بصراحة: نعم. وهكذا حثوني، بطبيعة الحال، على اعتناق الإسـلام. وخلال حديثي مع إبراهيـم، دار الحديث عن الكتب الأربعـة التي يعتبرونهـا وحياً، فذكـرت في ذلك السـياق الوحي الذي نـزل على سـيدنا محمد. أخبر إبراهيم الآخرين عـن ذلك، فأرادوا مني أن أردد هـذه الكلمـات على الفـور، وحاولوا بكل الطـرق الممكنة أن يجعلوا لساني ينطق بهذه الكلمات. ومثلما جرى من قبل، كان أكثر من يضايقني الآن هو شـاب يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، وهو يضايقني حيثما وجدني، وهو الآن يطلب مني أن أنطق بالشهادة، وهو يعيد طلبه علـي بصوت عال وواضح، ويقول «تسـلم!». وكان علي أعمى لا يرى شيئاً، شأنه شأن الثلاثة الآخرين: الشيخ تركي، وهو شاب محترم جداً، الشـيخ سـالم، وهو بشـوش ومسـل للغاية، لكنه هو أيضاً لا يكف عن مضايقتي مضايقة شـديدة محاولاً إدخالي في الإسـلام، وشيخ ثالث لا أعرف اسـمه. وكلهم جاؤوا إلى هنا لقراءة القرآن على القبور إذا طلب

منهـم أقـارب الموتى ذلـك عند مجيئهم للزيـارة. فيُنَـادَى عليهم مراراً وتكـراراً لقراءة القرآن، ولكنهم يعودون مرة أخرى لاسـتئناف حديثهم معـي بعـد ذلك. كان علي أكثـر من حاول عقد صداقـة معي. والحقيقة أنني أنا أيضاً أريد مصادقته. عندما كنا نجلس جنباً إلى جنب ندخن من البيبـة نفسـها، كان يضع يده على كتفي ويقـول للآخرين: «إن هذا لنعم الرجل حقيقة»، وعندما كنت أغادر المكان، كنا نتصافح فيسألني قائلاً: «ألسـت صديقـي؟»، وكنت أصافحـه مصافحة الأخ لأخيـه من أعماق قلبي.

كان الثلاثـة يقـرؤون القـرآن على أحـد القبور فحصلوا على تسـعة بياسـترات. علـى الرغم من أن الشـيخ تركي كان لا يزال شـاباً صغيراً، إلا أنـه بدا أكثر علماً ووجاهة. كان يسـألني ما هـي كتب الأدب العربي التي لدينا، وكان مهتماً بأشياء أخرى مماثلة. وبدا لي أنه لطيف وهادئ جـداً، موقفـه تجـاه القـدر الذي سـلبه نور عينيـه موقف جـدي هادئ. وعندما خرج محمد من المسـجد وجلس بجانبي، مرت بعض النسـاء مـن الحديقة فصاحت أحداهن مخاطبة محمداً: «هذا المسـيحي معك كل يـوم». ولكن الرجـال حاولوا التخفيف علي وقالـوا لي بأن هذا هو حال النساء، لا عقل ولا فهم لهن.

اليـوم تـردد علـى المـكان الكثير مـن النـاس معظمهم من النسـاء. وبينمـا كنا جالسـين، تجمـع الكثيـرون حولنا للاستماع إلـى حديثنا، فكانوا يسـتعملون العطـوس من علبتي ويعطسـون. وهم لا يضحكون على طريقة كلامي، أو أنني أنا على الأقل لم ألاحظ أبداً ذلك. ولكنهم جميعاً بالطبع ينظرون إلي باستغراب. قدم لي أحد الشيوخ رغيف خبز صغيـراً، وبعض حبات التمر المجفـف، وقد كنت مرتاحاً جداً برفقتهم واسـتمتعت بوقتـي معهـم عمومـاً. وعندما هممـت بمغـادرة المكان، طلبـوا مني أن أحضر معي الألفية فـي صباح اليوم التالي حتى يعلموني

اللغـة العربيـة. وفي فتـرة ما بعد الظهـر، التقيت في طريقـي مرة أخرى بذلك الشـاب المتحمس الذي حاول إدخالي الإسـلام، فضايقني هذه المـرة أيضاً، وتجـرأ على القـول إن الذين كفروا في نار جهنم خالدين فيهـا أبـداً. كان الجـو سـيئاً وماطراً فهـذا هـو الوقـت الذي يسـمـونه هنـا «النـو» أي شـهري ينايـر وفبرايـر. بقيـت فـي المنـزل طـوال الليـل ودخنـت دون توقف علبة جديـدة من التبـغ كنـت قد اشـتريتها ببياسترين ونصف.

1/2

ذهبـت منذ صبـاح اليوم إلى المسـجد والألفيـة في جيبـي. وقد نزلت زخـات مطرية غزيرة وأنا في الطريـق فتبللت قليلاً. ولكنني نجوت من أسـوأ الزخات إذ احتميت بالمسـجد. وهنـاك التقيت بالشـيخ إبراهيم وآخريـن اختبؤوا هناك من المطر. جلسـت أنا أيضـاً هناك على قدمي، ولكن سـرعان ما بدأت بعض القطرات تقطر من السـقف بكثرة بحيث اضطررنـا لتغييـر المكان والذهـاب إلى الجانب الآخـر للجلوس على مقعد حجري فوقه سـقف أقوى. جلسـنا القرفصاء هنـاك عندما وصل شـيوخ آخـرون ونحـن نرتجف مـن البـرد. إبراهيـم، المبصـر الوحيد فـي المجموعـة، أخذ يفحـص الألفية فحصـاً دقيقاً وأعجب جـداً بها، وأشـاد بالطباعـة. ثم تكدسـنا جميعاً فـي باب الدعـاء، وتحدثنا قليلاً، ولكن شـخصين يبدو أنهما مهمان وغنيان جداً جاءا وطلبا من الشـيوخ الذهاب معهما لقراءة القرآن على قبر. وقد كان الشـيوخ مشغولين جداً اليـوم على أي حال، بحيث لم تكن لي منهـم فائدة تذكر. وقد ضايقني الشـيخ الشـاب اليوم أيضاً وكان مبالِغاً جداً فـي مضايقته، ولكنه عندما طرح علي أسـئلته المعتادة ولـم يحصل على جـواب، أخبر الجميع بما جرى بالتفصيل.

بعد صلاة الظهر، ذهب ثلاثة من الشيوخ الضريرين إلى المقبرة المجاورة لعمود بومبيوس يقودهم فتى صغير. رافقتهم لمسافة طويلة، وعندما رأى الناس الشيوخ الثلاثة يمرون مع كافر، وأن اثنين منهم يمسكان بيدي بثقة كبيرة ويتركانني أقودهما، صرخوا وسألوا: «ما هذا؟» فأجاب علي بأنني صديق حميم، وبأنني برفقتهم، ووبخهم بقسوة كما وبخ كذلك الأطفال الذين كانوا يشتمونني كالمعتاد. قلت لهم مرات عديدة بأنني أريد الرحيل لكي لا أضعهم في مثل هذا الموقف، لكنهم لم يوافقوا، وأجبروني على السير معهم إلى بوابة المدينة، ومن هناك ذهبت إلى البيت أخيراً. وفي الطريق رأيت مرة أخرى موكباً فيه طفل يرتدي لباساً فخماً ويمتطي صهوة حصان. وكان ذلك الموكب موكب ختان. كما أتيحت لي الفرصة لمعرفة المزيد من التفاصيل عن الناي. وقد لاحظت الآن أنه من الممكن العزف حتى على أطول النايات، ولكن لم يكن يصدر منه إلا لحن واحد فقط، ويتولد منه التأثير نفسه الذي يولده مزمار القربة عندنا. في المساء تجولت قليلاً خارج البوابة الشرقية للمدينة، ولكن الجو كان متقلباً طيلة اليوم فتارة هطلت الأمطار غزيرة، وتارة أخرى أشرقت الشمس حارة.

1/3

بقيت في المنزل طيلة الصباح، لأن المطر تساقط بلا انقطاع. وفي فترة ما بعد الظهر، خفت الأمطار قليلاً فذهبت لزيارة محمد. ولكن ما إن وصلت إلى بيته، حتى خرج مع صديقه العجوز ذي السمع الضعيف الذي حياني اليوم بلطف شديد، وذلك حتماً بفضل البياستر ونصف الذي أعطيته إياه أمس لشرب القهوة. مشيت معهم مسافة قصيرة ثم فكرت في الذهاب لنزهة خارج المدينة، ولكن المطر بدأ ينزل مرة أخرى. لذلك اضطررت للعودة إلى المسجد حيث احتميت من المطر

مـع شـيخة عجـوز ثيابها رثة، وهـي حافظة للقـرآن كلـه كرجل، على الأقل.

تابعـت رحلتـي مرة أخـرى عندمـا توقف المطـر، ولكننـي التقيت بالشـيخ الشاب المعهود أمام مسـجد دانجان، فبدأ يضايقني مرة أخرى ويحـاول بكل الوسـائل أن يجعلني أنطق بالشـهادة. وقـال لي: لا أحد يسـمعنا الآن، يمكنك أن تقولها في نفسـك فقط. لم أتناقش معه طويلاً اليـوم، وبينمـا نحن واقفان، بـدأ المطر يهطـل مرة أخرى، فـكان علينا الاحتماء بسقف منزل كبير. وبعد فترة قصيرة جاء رجل آخر ومعه بيبة، اسـتعملناها نحن الثلاثة بالتناوب ونحن نجلس القرفصاء. كان الشـيخ الشـاب حافظاً للقرآن كله، وهو ما أدركته الآن بعدما اسـتجوبته قليلاً. وقد قال للرجل الذي انضم إلينا بصوت منخفض ولكنني سمعته بأنني علـى درايـة بجميـع العلوم بحيـث إن الرجل بـدأ على الفـور ينظر إلَيَّ بشـكل مختلـف تماماً، وقدم لـي البيبة بأدب وودية وسـألني عن بلدي وعن أشياء أخرى. جلسنا هناك حتى توقف المطر ثم ذهبت إلى البيت وبقيـت هنـاك بقية المسـاء. فـي الطريق إلى البيت اشـتريت نوعـاً ثالثاً مـن التبغ يسـمى «الصوري» وهو تبـغ قوي جداً ثمنه ثمانية بياسـترات للأقـة[1]. وبالإضافة إلى ذلك اشـتريت سـت حبات ليمـون صغيرات ودفعـت مـا مجموعـه خمس قطع مـن الفضة أي مـا يعـادل كوبيكتين ونصف.

1/4

فـي وقـت مبكر هذا الصبـاح، رأيت من نافذتي مسـيرة عسـكرية كبيرة تابعتهـا إلـى غايـة عمـود بومبيوس حيـث كان للمسـيرة مسـاحة كافية لتنظيم نفسـها في السـاحة الفسـيحة التي بين القبور. وكان أحمد باشـا

(1) الأقة تساوي 1,248 كيلوغرام.

ينظم العروض العسكرية هناك. وقد كان رجلاً صغير القامة، حاد النظر، وكانت له لحية جميلة تميل إلى الاحمرار قليلاً. وكان بطبعه الشرقي يدقق النظر بعناية في كل شيء؛ في البنادق، والسيوف التي كانت تسحب من أغمادها باستمرار، وينظر كذلك إلى جميع الرجال في زيهم العسكري. كان النظام هنا بالتأكيد أفضل بكثير مما كنت أتوقع، وسراويل الزي العسكري البيضاء الواسعة، والقميص الأزرق والطربوش الأحمر تناسب الجنود تماماً. كما أن قمصان الضباط المطرزة بالذهب تناسبهم كذلك. أما الموسيقا فبالكاد يمكن مدحها: كانت الآلات الموسيقية تصلصل وتتذبذب بشكل رديء، وكانت الإيقاعات بسيطة ورتيبة وخالية من القيمة الموسيقية بالنسبة للذوق الأوروبي. وكذلك الأمر بالنسبة للألحان. كانوا يستخدمون الآلات الموسيقية نفسها التي في القسطنطينية وروسيا: الكثير من الكلارينت والنايات وآلات النفخ بشكل خاص، إضافة إلى الطبول والمصلصلات.

استمر التدريب الصباحَ كله، ناهيك عن فترة ما بعد الظهر كذلك. ولكنني ذهبت لرؤية محمد عند الظهر. وفي الطريق توقفت لبعض الوقت أدردش مع عجوز ذي لحية اعتلاها الشيب، يعمل كحارس لقبر شيخ ما. وقد طلب مني بلطف الجلوس بجواره للتمتع بأشعة الشمس، وفرش لي رداءه لأجلس. وكان هذا الرجل هو نفسه الذي قدم لي الماء قبل بضعة أيام، وهو ما لم أنسه الآن. وهو رجل طيب جداً، لطيف وطلق المحيا. قدم لي بعض الجزرات لأكلها، جلسنا ثمة لبعض الوقت ندردش، وعندما هممت بالمغادرة أعطيته خمس قطع فضية مرة أخرى.

كان الشيوخ كلهم مجتمعين عند محمد مرة أخرى. خمسة شيوخ عُمي، منهم ثلاثة يقرؤون القرآن أمام أحد القبور. جلست مع الاثنين

الباقيين، وكان معهم آخرون أيضاً سألوا معارفي عن اسمي فأجابوهم أن اسمي الشيخ الوالي. وسرعان ما دعوا علياً من المقابر ليأتي عندي، فطلب مني هذا الأخير الذهاب معهم إلى مقبرة كان فيها عدد من القبور، وكانت فيها أشجار النخيل وبعض الشجيرات الجميلة. خلعت حذائي وجلست مع المجموعة على سجادة، ولكن بينما نحن جالسون ندردش وندخن، جاءت بعض النساء إلى هناك لقراءة القرآن على القبر، واستغرب الشيوخ قليلاً لأنني كنت معهم. وكانت النساء ينظرن إلَيَّ طويلاً عندما مررتُ بهن وأنا خارج من الباب. صعدت مع محمد إلى التلة حيث جلسنا هناك ندردش لبعض الوقت عند شاهد أحد القبور مع شاب جاء من مسجد دانجان.

في طريقي إلى البيت مررت بالبريد لأسأل ما إذا كنت قد تلقيت رسالة اليوم ولكن، هيهات! وفي فترة ما بعد الظهر، ذهبت عند «شبيتسناجل» الذي أقرضني أربعين فرنكاً بكل لطف. كما حصلت منه على آخر كتاب صدر للكاتب «لاين»، والذي يتضمن مقتطفات من القرآن الكريم.

وفي المساء ذهبت لأتمشى في جو دافئ وتحت ضوء القمر، إذ كانت ليلة مقمرة بديعة الجمال. كان الجو جميلاً طيلة اليوم وكانت الشمس مشرقة. هبَّتْ رياح منعشة، ولكنها لم تكن رياحاً باردة على الإطلاق. ورغم ذلك فقد كان الجو بارداً قليلاً صباح مساء، وكان علي أن أرتدي ملابس دافئة في غرفتي حتى لا أشعر بالبرد. لكن المرء هنا لا يستطيع التمتع بأشعة الشمس، والجو أكثر دفئاً في الخارج منه في الداخل. والغريب في الأمر أن العرب لا يشعرون بالبرد رغم ملابسهم الرقيقة، حيث إنهم يمشون حفاة في البرك والأوحال. أما الأوروبيون فكلهم يرتجفون برداً، ويتكدسون في معاطفهم ورداءاتهم.

خرجت واشتريت التبغ مرة أخرى، لكن المطر بدأ ينزل فهرعت إلى المنزل. وسرعان ما توقف المطر فذهبت على الفور عند محمد لكنني لم أجده. وعندما بدأ المطر ينزل هناك أيضاً، احتميت بسقيفة بوابة المسجد، والتحق بي شخصان آخران في وقت لاحق لذات السبب. أحدهما عربي والآخر تركي، وكلاهما كانا يقرآن القرآن في مسجد دانجان. جلسنا نتحدث وقتاً طويلاً فأشادا كثيراً بلغتي العربية. وهذا صحيح، لأنني أتحدثها أفضل من التركي.

في منتصف النهار ذهبت إلى المنزل لأتناول غدائي. الآن فقط، وبعد هذا الوقت الطويل تمكنت من التحدث مع جاري، وهو إنجليزي يبدو أنه يعطي دروساً خاصة للأطفال الصغار. طلبت منه القليل من الكتب الإنجليزية، وبعد وجبة الغداء بوقت قصير، أحضر لي كتاباً فيه مقتطفات ومختارات من نصوص لكتّاب يكتبون باللغة الإنجليزية. قرأ لي بعض تلك النصوص بشغفٍ وببعض التظاهر وكأنه يلقي الشعر. أما ما عدا ذلك، فهو رجل طيب ومؤدب للغاية بالمقارنة مع الأنجليز.

في وقت لاحق بعد الظهر، خرجت لأتمشى في الحدائق، ولكن المطر فاجأني مرة أخرى. غير أن بستانياً دعاني إلى سقيفة بناها من سعف النخيل حمتني من المطر تماماً. جلس كل واحد منا فوق حجرةٍ، دون أن يتوقف هوَ عن القيام بعمله الذي هو صنع الحبال من سعف النخل، وهو ما يسمى المسد باللغة العربية الفصحى، وما يسمونه هنا بالعامية بلخ. أسمك جزء في السعف يكون ملتصقاً مباشرة بالنخلة، أما طرفه الآخر فهو رقيق يتدلى منه عرجون التمر. ينقع سعف النخيل في الماء أولاً، ثم يدق ويفرق إلى خيوط تربط بعد ذلك بعضها مع بعض لتصبح حبالاً قوية جداً. كان هذا الرجل يضع طرف الحبل الذي

كان يحوكه بين أصبع رجله الأكبر والأصبع المجاور له، كان يبرم خيوط السعف بين كفيه ويضفرها حتى الطرف الآخر من الحبل، ثم يربط الأجزاء الجاهزة معاً في الأخير. كان الحبل سلساً وجميلاً جداً. وفي غضون ذلك، جاء رجل آخر كذلك، وأصبح النقاش أكثر حيوية. كانت لديه بيبة قدمها لي بمنتهى الأدب، وسرعان ما تعود عليَّ فلم يعد يحدق فِيَّ بنظرات شبه صارمة، ولا بتلك الأفكار المسبقة التي عادة ما يبدأ بها الشرقي عندما يلتقي بمسيحي. ثم التحق بنا شخص رابع، واستمر الكلام في الموضوعات نفسها. سألوني أسئلة كثيرة عن القسطنطينية وعن غيرها، وقضينا وقتاً ممتعاً معاً تحت الأمطار الغزيرة. ثم جاء شخص خامس كذلك، وبدأ يحول الحديث تدريجياً إلى نبيهم ودينهم فلم أرد مشاركتهم الحديث. بقينا جالسين في أماكننا ربما ساعة أو نحو ذلك إلى أن توقف المطر. ثم ذهبنا جميعاً من هناك، ولكن مضيفي طلب مني صدقة، ولم يكن ليكتفي بعشر قطع فضية، ولكنني لم أعطه أكثر. تجولت أكثر هنا وهناك وقتاً طويلاً حتى تعبت فذهبت إلى المنزل.

1/6

ذهبت إلى الحدائق العامة منذ صباح اليوم. يبدو أن هذا وقت عيد الميلاد عند اليونانيين لأن الكثير من محلاتهم كانت مغلقة. وفي الطريق التقيت بالكثير من اليونانيين. كانوا قادمين من كنائسهم وبينهم الكثير من النساء ذوات الظفائر التي كانت غاية في الجمال، وعلى رؤوسهن طرابيش تتدلى منها شرابات زرقاء صغيرة. ذهبت أولاً إلى الحديقة عند الشيخ عبد الرزاق، والتقيت بالبستاني العجوز الذي تجول معي في أرجاء الحديقة كلها وأخبرني عن أسماء كل الزهور والأشجار. كانت له عينان سوداوان محتالتان. قدمت له التبغ، وعندما

كنت مغادراً، جمع لي باقة من مختلف أنواع الزهور والأعشاب ذات الرائحة الزكية، ودعا إلى المكان بستانياً أعلى منه درجة، وكان عليَّ أن أعطيه عشر قطع من الفضة.

ذهبت إلى الحديقة التي التقيت فيها بالعجوز الآخر، والتي كانت أكبر وأجمل حديقة رأيتها هنا. كان في تلك الحديقة النارنج، والليمون، منه الناضج ومنه شبه الناضج الذي لا يزال معلقاً بأغصان الأشجار لم يقطف بعد. وكانت هناك مختلف أنواع النباتات الأخرى المثيرة للإعجاب، ولا سيما فاكهة صغيرة تسمى «البانوك» أعجبتني على وجه الخصوص. ذهبت إلى حديقة مجاورة ثالثة، هي نوع من التقاطع بين طريقين يرتادهما الكثير من الناس. وقد رأيت هنا، مثلما هو الأمر في جميع الحدائق، رجلاً عجوزاً جالساً يضفر حبلاً من سعف النخل، فجلست معه لبعض الوقت. جلس كل منا فوق حجرة ندخن معاً من بيبته التي أحضرها من سقيفته، والتي كنت أملؤها طول الوقت من علبة التبغ الخاصة بي. وقد كان رجلاً لطيفاً جداً، وقد فرح غاية الفرح عندما قدمت له بعض التبغ وقليلاً من السعوط في ورقة. أعطاني رغيف خبز صغير، وعندما لم آكل منه سوى قطعة صغيرة، حاول أن يجعلني آكل الرغيف كله. كما أعطاني أيضاً بعض الزهور العطرة، أعطيتها فيما بعد لصبي صغير في الشارع فأصبح في غاية السعادة. تذوقت في الحديقة عشبة طويلة ومرنة تحتوي على سائل حليبي. وبعد لحظات من تذوقها، بدأ لساني يلتهب بشكل فظيع، رغم أنها كانت بلا طعم في البداية. مررت بمسجد محمد، وكان هناك الكثير من الزوار الآن كما هو الحال دائماً أيام السبت. لذلك لم أبق هناك في الخارج سوى وقت قصير، إذ جلست أتحدث مع الشيخ الضرير. وفي فترة ما بعد الظهر، جلست طويلاً في المنزل. وفي المساء خرجت للتنزه قليلاً. كان الجو في المساء أكثر برودة مما كان عليه من قبل،

ولكنه لم يكن بارداً جداً بحيث كان من الممكن بسهولة ارتداء سراويل الصيف دون الشعور بالبرد.

1/7

الجو سيئ وزخات المطر لا تتوقف. لذلك قررت البقاء في البيت الصباح كله، ولكن، عندما صحا الجو في وقت لاحق، جاء جاري الإنجليزي ليطلب مني الخروج لنزهة في الهواء الطلق. ذهبنا إلى قصر محمد علي، حاكم مصر، ودخلنا إلى الجزء الذي توجد فيه قاعة الاستقبال. وصعدنا سلالم رخامية واسعة رائعة، وأمام قاعة الاستقبال نفسها، كانت غرفة الانتظار الكبيرة الفخمة مفروشة بسجاد ثمين، كان مغطى آنذاك بقماش السادة[1]. وعلى الجدران علقت بعض اللوحات الجميلة جداً، وفي المكتب الصغير الذي يقع في آخر القاعة يوجد تمثال جبسي للحاكم. لم تكن أجزاء القصر الأخرى مفتوحة الآن، لذلك لم نرها. هذا الإنجليزي ودود للغاية، كنا نسير وقد وضع كل منا ذراعه داخل ذراع الآخر كأفضل الأصدقاء، ولكن الله وحده يعلم أي نوع من الرجال هو.

وفي وقت لاحق خرجت أتمشى في الحديقة خارج البوابة الشرقية. لكن الرياح الشمالية الشرقية الشديدة جعلت الجو بارداً جداً. لذلك، عدتُ إلى البيت مروراً بمسجد العطارين فالتقيت بالشيخ سليمان في الوقت الذي كان ينوي فيه الذهاب إلى بيته. وبما أننا لم نلتق لوقت طويل، انهال علي بوابل من الأسئلة فسألني أين كنت، وعاملني بشكل جيد جداً. امتطى هو حماره وتبعته أنا سيراً على الأقدام. كان طريقنا واحداً لأنه يمر بباب بيتي للذهاب إلى بيته. ولذلك مشينا معاً مسافة

---

(1) النسيج السادة هو نسيج ذو تركيب بسيط تمر خيوط السدى فوق وتحت خيوط اللحمة وعلى أساس كل فتلة بحركة عكسية للمجاورة.

طويلـة. وتحدثنا طوال الرحلة باللغة العربيـة القديمة الصرفة، وفهمت كل كلمة. وقد بدأت مهاراتي اللغوية تتحســن وبدأت أفهم كلام الناس على نحو أفضل.

1/8

ذهبت منذ الصباح عند محمد للاجتماع مع الشيخ علي حسب اتفاقي معـه، ذلك أنه كان بالأمس قـد وعدني أن يأتي إلى هنا لاصطحابي إلى مدرسـة الشيخ إبراهيم. ولكنه لم يأت فبقيت جالساً مع محمد نتحدث أمـام قبر ومعنا رجل عجـوز آخر من الصعيد، وهـو الآن يرعى الأغنام هنا. من الأمور الممتعة أن العرب لا يجاملون كثيراً، خاصة وأنني عدت للتو من فرنسـا حيث يقولون «من فضلك سـيدي» فـي آخر كل جملة. أما هذا الرجل العجوز، فكان يقول لي بكل بسـاطة: «هات النشـوق». وعلى عكس كل ما رأيته هنا، كان يأخذ بعض العطوس ويضعه في فمه بين الشـفة والأسـنان السـفلية، ثم يأخذ من جيبه حجـرة صغيرة بيضاء لينة جداً اسـمها «الأترون». كان ينتزع منها جزءاً صغيراً بأسنانه ويضعه في فمه. وكان يقول بأن هذه المادة تقوي مفعول التبغ. ثم سمعت فيما بعـد بأن هـذا العجوز يضع هـذا الحجر مـع العطوس دائماً، وأشـادوا بالخصائص الطبية التي لهذا الحجر وخصوصاً لأمراض الصدر.

كان النقاش الذي سار في كل الاتجاهات ممتعاً للغاية، وكنت أتعلم أكثر وأكثر طول الوقت. ومع ذلك، فقد ذهبت اليوم إلى البيت في وقت مبكـر قليـلاً عن المعتاد ترقباً لوصول الشـيخ سـليمان، ولكنه لم يأت. وبعد الظهر ذهبت مرة أخرى عند محمد وجلست معه أمام قبر نتحدث لمدة ساعة أو نحو ذلك لغاية وقت صلاة الظهر، وعندها افترقنا. ذهب هـو إلـى منزله، في حين ذهبت في جولة صغيرة، ثم ذهبت إلى مسـجد العطارين ودخلت مباشرة فاستقبلني المؤذن استقبالاً حاراً. أعَدّ القهوة

وقـدم لي فنجانيـن كان علي أن أشـربهما على الرغم مـن أنني رفضت ذلـك. وعندما جلسـنا على سـجادة الصلاة ندخن جنبـاً إلى جنب، بدأ يمدحنـي ويقـول إنني رجل طيب، وبأنـه يحبني كأخ له شـأنه في ذلك شـأن الشيخ كذلك. بعد ذلك، انتقل إلى طلب عادي جداً هنا: «مافيش فلوس؟». كنت أتوقع هذا الطلب منذ بداية تقديم القهوة. لسـوء الحظ لـم يكن لـدي أكثر من عشـر عملات معدنيـة من الفضة وعشـرين باراً تركيـة فأعطيته كل ما كان معي. ولكنـه أعاد لي النقود التركية وقال إنها «بـطّال». وعدتـه بإعطائه المزيـد في وقت لاحق. وصل الشـيخ الآن، وجلـس أمام طاولـة القـراءة الصغيرة التي في مسـجده. أرانـي العديد مـن الكتـب وأعطانـي كتاب پندنامـه[1] لصاحبه الفارسـي فريـد الدين عطـار باللغة الفارسـية مع ترجمـة باللغة العربية وضعت بين السـطور، وهـو كتاب طبع هنا في عام 1256 حسـب التقويم الإسـلامي، ولكنني لم أُرِدْه. تصفحت بعـد ذلك العديد من المخطوطات القديمة الأخرى التـي كانت لديه هناك، والتي استطعت أن أراها فـي تلك العجالة، فلم أجد أي شيء ذا قيمة. كان كل شيء في حالة من الفوضى. وبعد هنيهة، وصل شـيخان من الشـيوخ العمي، فجلسـنا كلنا حول طاولـة القراءة، ومعنا الشيخ سليمان نفسه وتحدثنا بعض الوقت. ولكنني كنت منزعجاً من وجود ابن الشـيخ لأنه مهرج حقيقـي، وهو أكبر مضايق عرفته حتى الآن. بدأ الناس الآن يتجمعون لصلاة العشـاء، وصعد الشيخ سالم إلى السـطح للأذان فاحتذيت حذائـي، وخرجت مصحوبـاً بنظرات الناس الذيـن التقيت بهم عند باب المسـجد، وكانت نظـراتٍ مثقلةً بالأحكام المسـبقـة. كـان الجو دافئـاً جداً طيلـة اليوم، لم ينزل مطـر، ولم تهب ريح.

(1) أي كتاب النصيحة، وهو كتاب صغير مجمل مليء بالمواعظ الأخلاقية.

ذهبت إلى السوق في الصباح الباكر لشراء بعض الأشياء الصغيرة حتى أتمكن من تبديل روبية كنت أعتقد أنها تساوي عشر بياسترات، ولكنهم كانوا يعرضون علي سبع أو ثماني أو تسع أو عشر بياسترات. بشكل عام، على المرء هنا أن يجادل كثيراً عند تبديل العملة لأن التجار يريدون أن يحصلوا من المشتري على الكثير من الربح، وفي أسوأ المحلات، نادراً ما يتوفرون على القطع النقدية الضروررية لإرجاع المبلغ الباقي إذا استعمل المرء ورقة نقدية ذات قيمة كبيرة في عملية الشراء. وقد اضطررت للقيام بجولة طويلة الآن أيضاً قبل أن أتمكن في الأخير من تغيير الروبية. وتجولت بعد ذلك هنا وهناك، وقضيت بعض الوقت في الحديقة مع علي. وعندما لاحظ أنه لم يكن في المكان الكثير من الزوار اليوم، دعاني إلى منزله الذي تباهى به كثيراً رغم أنه لا يبدو جذاباً من الخارج. بقيت جالساً مع محمد وآخرين بعض الوقت بعد الظهر. اختلفت مع واحد منهم حول مصر، التي ادعى أنها جزء من شبه الجزيرة العربية. اليوم أزعجنا بعض رواد المسجد الأتراك، لذلك لم نتمكن من التحدث بسلام. وبعد لحظات، جاء تركي حافظ للقرآن لم أره من قبل. جلس يدخن بيبته ويؤرجح رأسه كالفيلسوف، ثم خرج بعد هنيهة دون أن يقول كلمة واحدة. ثم ذهبت إلى السوق واشتريت بعض ما لذ وطاب: تينتَيْنِ ببياسترين للأقة[1] الواحدة، وبعض اللوز المقشر بياستر ونصف للأقة (كان سعر الصرف هو 12 كوبيكاً للروبل الواحد). وعندما مشيت في أفضل الأسواق وأكثرها ازدهاراً، التقيت برفيق سفر عربي لطيف من «سميرنا». وكان يبدو مختلفاً هنا عما كان عليه في سطح الباخرة، وكان قد فتح متجراً يبيع فيه مختلف أنواع الأشياء الباهظة الثمن، كالشالات، والساعات

(1) وزن من الأوزان القديمة، والأقة تساوي 1,248 كيلوغرام.

وغيرهـا، كمـا كان يبيـع رؤوس البيبات التـي كان ثمن أحداها سـتمئة بياستر.

1/10

ذهبـت عند محمد في وقت مبكر مـن الصباح، حيث التقيت برجل من مسجد دانجان أيضاً. فرشنا السجاد أمام المسجد في الحديقة، وجلسنا نسـتمتع بأشعة الشمس. وبين الفينة والأخرى كان شخص أو شخصان ينضمـان إلينا. أعددنا القهوة وشـربناها. دخنا من البيبة نفسـها، وجلب لنا خادم المسـجد إبريقاً من الحليب، فشـربناه ونحن نتحدث. شعرت الآن بأننـي أتمتع حقاً بحلاوة الحياة في الجنوب في هذا الجو الصيفي الدافـئ الجميل. بقيت جالسـاً هناك إلـى وقت الظهر، وقد اسـتمتعت كثيـراً مـع هذه المجموعة، علـى الرغم من أنهم ينتمـون ربما إلى أدنى الطبقـات الاجتماعيـة. الطبقات الدنيـا هنا لا تختلـط بالطبقات العليا، ولكـن الطبقات المتوسـطة والفقيرة على الأقل تبدو متشـابهة نوعاً ما. فـي فترة ما بعد الظهر، بعد أن تناولت غدائـي وهضمته بتدخين العديد من البيبات، خرجت إلى الحديقة والتقيت بعلي العجوز، ولكنني جئته في وقت غير مناسب لأنه كان للتو قد بدأ بتحضير عشائه ولذلك ذهبت إلـى حال سـبيلي. وفـي الطريـق التقيت بطفليـن في الشـارع طلبا مني البقشـيش بتلك الفظاظـة المعهودة. وعندما سـألتهما «ليه؟» فأجابوني «كـده» وهي كلمة عادية هنا مثل كلمـة «так[1]» عند الروس، وعندما لـم يحصلـوا مني على شــيء، بـدؤوا يطلبون بإصـرار أكثـر. وعندما وصلنـا إلى الزاوية، بـدؤوا يرجمـونني بالحجـارة. هؤلاء الأطفال هم مثل أسـوأ اللصوص الذين يمكن للمـرء مصادفتهم هنا. وهـم – عندما يتسولون أو يعرضون خدمات حميرهم أو أي شيء آخر – يتكلمون مع

(1) مثل كلمة كده المصرية تعني هكذا.

الأوروبيين بطريقة متكبرة ومبتذلة لا تطاق وهو الأمر الذي يزعجني كثيراً.

1/11

ذهبت عند محمد في وقت مبكر جداً وقضيت هذا الصباح، مثل صباح أمس، في شرب القهوة، والدردشة والتدخين، ولكننا اليوم أكلنا ما يسمونه «الفول» أيضاً. وكان مطهياً في الفرن، ومذاقه كمذاق المكسرات تقريباً، إلا أنه أطرى بكثير. في فترة ما بعد الظهر، شاهدت جنازة شخص أرمني يسمى «بوغاز بيه»، وهو من علية القوم، ويحظى باحترام كبير هنا، وكان قد توفي تلك الليلة. احتشد الناس في كل مكان، وكان جميع القناصلة الأوروبيين مدعوين للمشاركة في هذه الجنازة. لقد ازعجت كثيراً لرؤية طريقة تعامل رجال الأمن مع العرب الذين جاؤوا كغيرهم ليتفرجوا. كان رجال الأمن يضربون المحتشدين بهراوات كبيرة دون أن يأبهوا في أي مكان تنزل هراواتهم على الرأس أو الظهر. وفي ما عدا ذلك، كانت الأمور تسير مثلما تسير عليه عندنا. أولاً، سار على جانبي الشارع صف طويل من الفتيان والرجال الذين يحملون شموعاً كبيرة سميكة. وقد انطفأت الشعلة قبل أن يصل الموكب إلى بوابة البيت. ثم جاء بعد ذلك أربعة أو خمسة كهنة تليهم العربة التي تحمل النعش تجرها أربعة خيول قوية وجميلة مغطاة برداء أسود مثل الذي غُطِّيَت به عربة النعش. وسار وراء العربة جميع الأوروبيين وباقي أفراد الموكب. ويبدو الأرمن بالمناسبة جميلين، لهم سمات مشابهة لسمات اليهود إن لم تكن أبرز. ولكن لهم بالإضافة إلى ذلك ملامح ذكية، فضلاً عن أن لهم كاليهود ملامح جشعة نوعاً ما مما يجعلهم يبدون مقززين. يبدو أنهم كُثْر هنا، وعلى الرغم من أنهم يرتدون الملابس نفسها التي يرتديها العرب إلا أنه من السهل تمييزهم.

تعتبر الحديقة التي دفن فيها الميت، والتي توجد فيها الكنيسة، الحديقة الأرمنية الوحيدة في هذه المدينة (وأعتقد أن الهالك هو من أنشأ هذه الحديقة وهذه الكنيسة أيضاً). كان رجال الأمن هناك قد اشتبكوا مع الحشود اشتباكاً همجياً في البوابة والدرج.. لكنهم كانوا ودودين ومهذبين للغاية مع الأوروبيين. لا أعرف ما إذا كان رجال الأمن هؤلاء من ضباط الشرطة أو من خدم المتوفى، ولكنني أعتقد أنهم أتراك.

ثم تجولت قليلاً هنا وهناك، وذهبت إلى مسجد العطارين حيث لم ألتق إلا بالمؤذن العجوز ذي العين الواحدة وأعطيته خمس قطع من الفضة مقابل أكواب القهوة التي قدمها لي في المرة الماضية. وقد أثنى علي كثيراً وطلب مني أن أزوره مراراً. ذلك أن بإمكاننا أن نجلس ونتحدث ونُعِد القهوة ونأكل فكل ما نحتاجه هنا، كما أن الشيخ سليمان كان يسأل عني كل يوم.

1/12

ذهبت مرة أخرى هذا الصباح لشراء قليل من التبغ. ثم مررت بمسجد العطارين الذي كانوا بصدد تجهيزه استعداداً لصلاة الظهر، إذ فرشت أرض المسجد كلها بالسجاجيد. كان ابن الشيخ سليمان الأصغر يساعد المؤذن العجوز الأعور، وقد كان هذا الشاب لطيفاً بقدر ما كان أخوه غير لطيف. بقيت هناك بعض الوقت وذهبت عند محمد حيث كانت المجموعة المعتادة هناك كذلك، فاستقبلوني بنظرات ودية. في الأيام الأخيرة، أصبحوا يفرشون لي السجاد على العشب ويجهزون القهوة في انتظاري. وقد أنفقنا هذه الظهيرة في مثل ما أنفقنا سابقاتها. وفي وقت لاحق، جاء عربي يرتدي ملابس أنيقة فجلس يتحدث معنا قليلاً. في نهاية المطاف، جلس بجانبي وبدأ يسألني بنظرة متعالية قليلاً أي نوع من الرجال أكون، وما إلى ذلك. وأخيراً، دار الحديث

حـول الكتب والعلوم العربية فسـألني كم نعرف عنهـا عندنا. ذكرت له كل ما أسـعفتني ذاكرتي تذكره فكانت دهشـته عظيمـة، ولـم أتمكن من مقاومـة الرغبـة بكبح غـروره. أخذ بعد ذلك بضـع صفحات من كتاب قواعد اللغة، وطلب مني أن اقرأ فتعجب كثيراً أنني أقرأ بشكل صحيح، وأعـرف كيفيـة اسـتخدام التراكيب بالشـكل الصحيح. بعـد ذلك، قال للآخريـن بأننـي رجل على معرفة ثـم غادر المكان فـي عجلة. وعندما سألت الآخرين عنه قالوا إنه عالم، يقصدون أنه فقيه.

ثم ذهبوا جميعاً إلى مسـجد دانجان لأداء صلاة الظهر، وذهبت أنا إلى حديقة علي وجلسـت معه لبعض الوقت. وفي المسـاء تجولت في جـو ربيعي معتـدل وقضيت بعض الوقت في مسـجد العطارين. عدت إلى المنزل برفقة مؤذن مسـجد العطارين. وفي طريق العودة، اشـتريت بعض البرتقالات وقليلاً من الجوز، وتقاسـمت معه كل شـيء مناصفة فأثنى علي كثيراً كعادته.

مـررت بالتلـة العاليـة التي بنيـت عليها القلعـة. ذلك التركي نفسـه الذي كنت قد تعرفت عليه في هذا المكان نفسـه في أيامي الأولى هنا، جاء الآن ليتحدث معي. سـألته عن عدة أشـياء، وسمحت له بملء بيبته من تبغي. وأخيراً طلب مني بقشيشـاً، بحثـت عن حجة حتى لا أعطيه؛ ولكننـي مع ذلك أخرجـت محفظتي وأعطيته خمس قطـع من الفضة. أمسـك بها في يده، نظر إليها وقال إنها قليلة جداً ثم أعادها إلي وطلب مني قرشـاً. أخـذت المال منه وأعدتـه إلى حافظتـي دون أن أعطيه أي شـيء، وبدأت أسـير في اتجاه أسـفل التلـة. وعندها تبعني مـدة طويلة وطلب مني الحصول على القطع العشر من الفضة ولكنني رفضت.

1/13

خرجت في الصباح في وقت متأخر جداً، وتجولت في الحدائق العامة دون أن ألتقي بأي شخص. وبعد صلاة العصر، ذهبت إلى مسجد العطارين فوجدت الشيخ هناك وحده في كوخه مشغولاً بالقراءة أو بالدعاء، لذلك بقيت في الخارج في باحة المسجد حتى انتهى وجاء يدعوني إلى الداخل. ويقع كوخ الشيخ في الركن الشمالي الشرقي للمسجد، وهو مبني من الحجارة الصغيرة، التي تم بناء جدارين منها، بحيث إن جدران المسجد نفسه تشكل بقية الجدران. وقد جرت العادة هنا أن ينام المؤذن في هذا الكوخ ست ليال في الأسبوع، فلا يقضي إلا ليلتي الجمعة والسبت فقط في بيته، حسب ما أخبرني به المؤذن نفسه أمس. كانت كميات كبيرة من الأوراق القديمة وغيرها مكدسة على طول أحد الجدران وكانت تبدو غير ذات قيمة. وحسب ما أخبرني محمد، فإن الشيخ نفسه يبيع الكتب. كنا نجلس على حصيرة فرشت على الأرض ونتحدث عن أمور شتى. وفجأة، سألني لماذا لم أعلن إسلامي، فأجبته بأنني لا أستطيع أن أفعل ذلك بسبب قنصلي وبلادي، ولكنني أقرأ القرآن كل يوم، وأصلي مثل صلاتهم عدة مرات في اليوم. وقد سعد كثيراً بذلك، ورأى أن كل شيء بخير، مادام الأمر بيني وبين ربي. وهو لا يزال في نظري محافظاً على مكانته الأبوية، وأنا أحترمه كثيراً. رحت أتجول بعد ذلك في جو رائع، لحظات حقيقية من لحظات الجنوب أو الشرق، تحت سماء زرقاء مزينة بالنجوم.

1/15

ذهبت في الصباح لزيارة «كوموزوف» وأعطيته الرسالة التي أحضرتها معي من «سميرنا». وهو قد كان جندياً، ثم درس في معهد سان بترسبورغ للدراسات الشرقية، وقد سكن في بلاد الشرق لأكثر من أربع

سنوات، لكنه لا يزال يتمتع بشيء من النشاط والحزم الذي بقي من أيام العسكرية. وقد ترك لدي انطباعاً لطيفاً جداً عموماً. وجاء عنده رجل يعمل موظفاً في المتحف المصري في القاهرة، ومترجماً في القنصلية النمساوية، وكان كلاهما فاحشي الكلام كعادة الأوروبيين فلم أستمتع برفقتهما إطلاقاً. وفي وقت مبكر من بعد الظهر، ذهبت عند محمد فوجدته برفقة الجماعة المعتادة. جلسنا في المكان المألوف على سجادة الصلاة المفروشة على العشب وأعددنا القهوة هناك. ذهبت مع محمد أولاً إلى الحديقة ومن ثم إلى مسجد العطارين حيث جلسنا في الكوخ مع أحمد ابن الشيخ سليمان. وهكذا بدؤوا التحقيق معي حول ديني ومذهبي، وقرروا في الأخير أنني حنفي على أساس الوضع الذي تتخذه يداي في الصلاة. وعندما وصل المؤذن العجوز، أخبروه بأنني حنفي، وأخبروه كذلك عن الأسئلة التي طرحوها علي وأجبت عنها، فأعرب عن فرحة كبيرة بذلك، وقال لي في وقت لاحق: «يا الوالي، كن حنفياً!» لم أعرف كيف أرد عليه، بل اكتفيت بتحويل نظري إلى مكان آخر، أخذت أنظر إلى المخطوطات القديمة. ثم تابعنا رحلتنا وذهب كل إلى بيته. وعندما عدت إلى البيت، قيل لي إن القنصلية الروسية قد سألت عني لأن لي رسالة هناك. هرعت إلى هناك، وبالفعل وجدت رسالة من بورغستروم. ثم ذهبت إلى المنزل لتناول الشاي.

1/16

ذهبت إلى عند محمد في الصباح، وجلست طيلة الصباح مع المجموعة المعهودة، وقد انضم إلينا اليوم الأخ إسماعيل وابن محمد، وهو أفندي على ما يبدو، يحرس أحد الأسواق التجارية. كنت قد أخذت معي اليوم كتاب خرائط صغير نزولاً عند رغبتهم، وشرحته ووضحته لهم، وهو الأمر الذي أفرحهم كثيراً وأثار استغرابهم.

في فترة ما بعد الظهر، ذهبت عند «شبيتناجل» و«روستي» من أجل الرسالة فقط، ولكن الصباح الباكر يناسب هذا الأخير بشكل أفضل. تجولت هنا وهناك وحدي، وذهبت إلى الحديقة التي قرب بوابة المدينة الشرقية، والتقيت برجلين من الصعيد، أحدهما شاب والآخر شيخ. سمحت لهما أن يملآ بيبتيهما من علبة التبغ الخاصة بي، وقد عاملاني معاملة حسنة وودية جداً، وطلبا مني أن آتي كل يوم لأتمشى هنا. يبدو عموماً أن كل الصعيدين الذين التقيت بهم هنا أفضل وأكثر طيبة من العرب المحليين. تجولت مع صديقي الإنجليزي، وشابين إيطاليين كانا معه. ذهبنا نحن الاثنين بعد ذلك إلى «مقهى الأوروبي» وبقينا هناك جالسين مدة من الوقت. شرب هو مشروباً كحولياً واحتسيت أنا فنجاناً من القهوة. وعندما وصلنا إلى المنزل أكلنا معاً، ثم قرأنا من كتاب يتضمن مقتطفات من شكسبير أحضره من غرفته. قرأ منه بكثير من التأثر فخطر على بالي أنه قد يكون ممثلاً.كنت متعباً جداً من كل جولات اليوم.

1/17

ذهبت عند «روسيتي» في وقت مبكر للحصول على مالي. انتظرت هناك لمدة ثلاث ساعات كاملة قبل أن اتضحت لي جميع الأمور. لم يكن لديهم جنيهات ذهبية فاضطروا إلى إرسال شخص ما لإحضارها. كما أنني لم أحصل على عملة إنجليزية بل اضطررت إلى أخذ جنيهات مصرية. كانت التكلفة باهضة جداً في رأيي، إذ كان علي مثلاً إرسال ثلاثة عشر شيلينكاً عبر ليفورنو. كان كل شيء سيئاً للغاية، وقد تعكر مزاجي تماماً في نهاية المطاف.

وعندما أصبح كل شيء جاهزا أخيراً، وحصلت على مالي، وأعطيت معظمه لشبيتسناجل حتى يرسله إلى القاهرة، ذهبت لرؤية

محمـد. وقد كان ابنه قد أرسـل إلـي غلاماً ليصطحبني حسـب اتفاقنا، ولكنـه غـادر المـكان فـي نهاية المطـاف بعـد أن كان قـد انتظرني مدة طويلة. جلسـنا نشـرب القهوة ونتجاذب أطـراف الحديث مدة وجيزة، ولكننـي ذهبت نظـراً لأن الوقت كان قد تأخر. وعندمـا كنت في البيت أتنـاول طعامي، جاء ابـن محمد وجلب معه قفطانـاً وجبة وعنترة، وقد أعجبتني هذه الملابس فاشـتريتها، ودفعت في الأول مئة بياسـتر، وفي الثانية مئة وخمسين، وفي الثالثة ستين. ثم جلسنا مدة طويلة في غرفتي ندخن ونشـرب القهوة فـي انتظار والده، الذي كان قـد وعد بالمجيء. ولكـن، ولأنـه لم يأت بعد مرور سـاعة من صلاة العصـر، خرجنا نحن الاثنيـن للتسـوق. وقد اشـترينا ثلاثـة أذرع مـن الثوب الجيـد الجميل لأخيط منه سـروالاً بمئة وخمسـة وثلاثين بياسـتراً؛ وطربوشـاً بخمسة وأربعين بياسـتراً؛ وحريراً لتمديد الشـرابة، بنحو سبعة بياسترات؛ زوج مـن الأحذية بعشـرة بياسـترات؛ وزوج آخر مـن الأحذية بأحد عشـرة بياستراً؛ وهو ما مجموعه خمسمئة وثمانية عشر بياستراً. أدركت حينها كيف كانوا سـوف يستغفلونني لو أنني كنت قد ذهبت وحدي للتسوق. كان مرافقـي مشـرفاً على أحد الأسـواق، وكان يعرف الأسـعار جيداً. وزيـادة على ذلـك، كان رجـلاً لطيفاً جداً لـه نفس عمـري تقريباً. وقد رافقنـي إلـى البيت، وجلس معي لبعـض الوقت يدخـن البيبة ثم ذهب في حال سبيله.

1/18

دُفِـن اليـوم بوغاز بيه في حفل عظيم. وقد أُقيـم في البداية قداس طويل وممـل في الكنيسـة الصغيرة التي فـي حديقته. وقـد كان ذلك القداس أقـرب إلى الاحتفال منه إلى الجنازة. كما أن اللغة الأرمنية في اعتقادي مشـابهة جداً لليونانية من حيـث وقعها على الأذن، ومخـارج حروفها

تشبه اللغة التركية. وأقيم أمام القبر حفل صغير في منطقة خاصة مغلقة في الحديقة حيث العديد من قبور الأرمن. كان هناك الكثير من الجنود، وعزفت الموسيقا، وأطلقت طلقات البندقية عدة مرات. كل هذا استمر لغاية منتصف النهار. جاء ابن محمد في فترة ما بعد الظهر لرؤيتي فخرجنا معاً واشترينا قميصين من القماش نفسه، الذي كان خليطاً من الحرير والكتان المنسوجين معاً باثنين وثلاثين بياستراً، وقبعتين يسمونها «عرَّاقية» بخمسة بياسترات، ودفعت أجر الخياط اثنين وأربعين بياستراً.

بقي رفيقي بصحبتي مدة طويلة نتجاذب أطراف الحديث. وهو رجل لطيف جداً، على ذوقي تماماً. ليست لديه أفكار مسبقة، ولكنه راسخ في دينه. أخبرني عن مختلف المعجزات التي حدثت في الإسكندرية، مثل المرآة التي أغرقت جميع السفن التي انعكست صورتها عليها. وقد حطم أحد الفرنسيين تلك المرآة في النهاية، وكان قد جاء إلى هنا خصيصاً لتحطيمها. كما أخبرني أيضاً عن خزان مياه كان في مسجد العطارين، وشفى كل مريض اغتسل فيه، وقد دمره الفرنسيون هو الآخر. وأخبرني عن معجزات أخرى كثيرة، وقال إنها كلها حقيقية، ولاحظت بأنه يؤمن بفعلية تلك المعجزات إيماناً مطلقاً في براءة طفولية. وكانت على وجهه نظرة مضحكة ومسلية حقاً وهو يحكي بروح دعابة. وعندما كنت أضحك وكأنني مفاجأ، كان هو الآخر يضحك من أعماق قلبه. محمود في نظري من ألطف الشخصيات التي قابلتها عموماً.

1/19

ذهبت عند محمد في وقت مبكر، وبقيت عنده إلى غاية ظهر اليوم مع المجموعة المعتادة. وقد كان هناك اليوم ابن محمد الأصغر، وهو

شـاب في الخامسـة عشـر من عمره، غاية في التهذيب، حسن الشمائل والهنـدام، اسـمه أحمـد. كمـا كان من بيـن الحاضرين كذلـك «عليم» الـذي ضايقني قبل بضعة أيـام بوابل من الأسـئلة النحوية. وهاهو الآن قد بدأ يضايقني مضايقة شـديدة بأسئلة عن دينهم، وعن المذهب الذي أنتمي إليه. أصبح الجدل عنيفاً إلى حد ما، لأن صاحبنا سريع الغضب. ولكـن، مع هؤلاء النـاس لا يمكن الوصول إلـى أي نتيجة في النقاش، لأنهـم يقولون دائماً: هكذا يقول القـرآن، وأن القرآن كلام الله الذي لا يتغيـر. غير أن «عليـم» رجل جيد، وأنا أحبه. وقد تعرضت اليوم عموماً لامتحـان أشـد مما تعرضـت له من قبـل. ومحمد هو الوحيـد الذي لا يضايقنـي أبـداً بمثل هذه الأمـور رغم أنه لا يرفـض الإجابة عن أي من الأسـئلة التي أطرحها عليه في شـتى الموضوعـات. وقد أصبح محمد هـو الشـخص الذي أكن لـه أكثر قدر من المودة والاحتـرام من بين كل معارفـي هنا. وقد جاء لمقابلتـي برفقة ابنه أحمد بعد الصلاة في فترة ما بعد الظهر، وجلس معي بعض الوقت، ولشرب القهوة، إلخ.

1/20

كنـت قد ذهبـت إلى القنصلية للقاء «شـبيتزناجل»، ولكـن، ورغم أنني بذلـت قصـارى جهدي هناك طوال اليوم، إلا أننـي لـم أتمكن من لقائه. لذلك، ذهبت أتجول هنا وهناك، وقضيت بعض الوقت في «العطارين» وشـربت القهوة مع المـؤذن. وقد عرض علي هـذا الأخير أن يوصلني إلـى القاهـرة وإلـى أي مكان أسـافر إليه، بـل وعرض علي فـي النهاية أن يوصلنـي إلـى غاية بـلادي. وفي فترة مـا بعد الظهر، ذهبـت لمقابلة محمد، ولكن زيارتي لم تأت في الوقت المناسب. وذلك لأن من كانوا قـد جاؤوا إلى هناك للقيام «بالزيـارة» لم يكونوا قد رحلوا بعد. وكانت زوجة محمد من بين الحاضرين أيضاً، وهي امرأة جميلة، كانت ترتدي

ملابس أفضل بكثير من ملابس زوجها. ثم ذهبتُ بعد ذلك إلى مدرسة إبراهيم بصحبة الشاب «الشيخ علي»، ولكن الدرس كان قد انتهى لتوه. بقيت جالساً مدة طويلة مع بعض المدرسين الشباب ومع من بقي في المكان من الأولاد. كان الفصل الدراسي في حالة تعيسة للغاية، كان في حالة انهيار ومتسخاً جداً، وكانت الجرذان ترتع في كل جانب من جوانبه. ذهبت الى السوق لجلب حذائي، فاضطررت للجلوس في الدكان والانتظار لمدة طويلة قبل أن أصبح جاهزاً. عكف الإسكافي على عمله بسرعة وجمال، زيادة على أنه كان رجلاً لطيفاً جداً. وعندما وصلت إلى البيت، شرعت أَعُدُّ المبلغ المالي الذي أدين به لصاحب البيت، وذلك لأننا اختلفنا قليلاً حوله فأجلنا الدفعة الأخيرة إلى حين مغادرتي للبيت.

1/21

ذهبت إلى مدرسة إبراهيم في وقت مبكر، وكان جميع التلاميذ هذه المرة موجودين هناك. كانوا يجلسون على الأرض في مجموعات يقرؤون بين يدي إبراهيم وهم يؤرجحون أجسادهم بينما هو يختبرهم. وقد كان إبراهيم هو الآخر يهز رأسه بدلاً من جسده، ولكن بوتيرة أكثر بطئاً ووقاراً. وكانت بحوزة الصبية ألواح صغيرة كتب عليها المدرسون الشباب - علي ومدرسان شابان آخران - مقاطع قصيرة من القرآن عليهم حفظها عن ظهر قلب. وكانت الألواح قد طليت بطلاء خشن شيئاً ما، وكان الصبية يكتبون عليها بأقلام من قصب، غير أن الأقلام لم تكن تنزلق على سطحها بسلاسة. كما أروني هناك أيضاً أداة تستعمل للعقاب بالضرب على القدمين. وهي عبارة عن عصا صغيرة مستقيمة صنعت من جريد النخل. يربط حبل على كل طرف من طرفي العصا على بعد مسافة ربع طول العصا تقريباً. وتوضع قدما الولد

الـذي سـيعاقب عنـد منتصف العصـا، أي عند منتصف طرفـي الحبل. وبعـد ذلك، يلف الحبـل حول العصا مما يؤدي لربـط القدمين بالحبل بإحكام. ويمسـك ولدان بطرفي العصا بحزم إبـان تنفيذ العقاب. يلقى الشـخص الـذي يقدم للعقاب علـى ظهره، ويضربـه المعلم على باطن قدميه المربوطتين بإحكام جنباً إلى جنب بجريدة لينة من جريد النخل. وكانت أداة العقاب بالضرب على القدمين هذه تسـمى «الفلقة» على ما أذكر. وقد كان كل معلم يمسك في يده جريدة من جريد النخل، يضرب بها على الأرض أو على الحائط لحث الفتيان على القراءة، وليس على التـزام الصمت، لأنهم هنا على ما يبدو يريدون أن يقرأ الصبية بأعلى ما أوتـوا من صوت، على عكس ما هو الأمر عليـه عندنا. أصوات الطنين التـي كان قرابـة ثلاثين أو أربعيـن طفلاً يصدرونها هنـا - وكانت بينهم بعـض الفتيـات كذلك - كانـت بنفس ارتفـاع أصوات تلاميذ مدرسـة توركـو القديمـة بتلاميذها المئتين. كانت دهشـتي كبيرة لكون الأطفال ظلـوا هادئيـن ومنضبطين طيلـة مدة وجودي فـي المدرسـة. غير أنهم كانـوا يحدقون فِيَّ طول الوقت بأعين واسـعة. بقيت طيلة الوقت واقفاً علـى الدرج، رغم أنني دعيت مراراً للجلوس بين الأطفال والمعلمين. والسـبب فـي ذلك هـو أنني تعرضـت أمس، ورغـم أنني لـم أقض في المدرسـة إلا وقتاً قصيـراً، لهجوم عدد هائل مـن البراغيث مما جعلني اليوم اتخذ حيطتي.

في وقت لاحق، ذهبت لزيارة «شـبيتزناجل»، وقد وعدني بأن يتدبر غـداً أمر إجراءات جواز سـفري وتصريح الإقامة. ثـم ذهبت بعد ذلك فـي طلـب محمد، وذهبنا معاً إلـى الحمام، حيث أخذنـا غرفة أو زاوية خاصة بنا. كان الحمام يشـبه السـاونا الروسـية إلى حد كبير، ولكنه لم يكن ساخناً هنا مثل السـاونا الروسية. أعتقد أنني كنت أبدو أخرق بعض الشـيء وأنا أمشـي لأول مرة بالحذاء الخشـبي وقد لففت حولي ثياب

الحمام، ولكن ما يشفع لي هو أن هذه هي المرة الأولى على كل حال. كان عمال الحمام يضحكون علي قليلاً، لكن ضحكهم خف تدريجياً. وقد دفعت خمسة قروش ثمناً لاستعمال الحمام عنا نحن الاثنين.

وبعد ذلك، ذهبت لإحضار سروالي الذي صار جاهزاً أخيراً بعد الانتظار الطويل، والوعود المتكررة، ولكنني جلست أنتظر استلامه لمدة ساعة تقريباً. ذهبت اليوم أيضاً عند حلاق يوناني وقصصت شعري عنده قصاً قصيراً جداً ووضعت طربوشاً على رأسي ودأبت على ارتدائه طول الوقت بعد ذلك. وفي المساء، تجولت قليلاً وذهبت إلى العطارين، ولكنني لم أقابل أحداً لأن سليمان كان مريضاً منذ بضعة أيام ولم يكن يخرج من البيت فيما كان المؤذن داخل المسجد جالساً وحوله جماعة صغيرة لم أرد أن أزعجهم لأنني لاحظت أنهم منهمكون في نقاش عميق. كان من بينهم أحد تلاميذ مدرسة إبراهيم، ولم يتعرف علي في البداية، ولكنه بعد ذلك كان سعيداً للغاية عندما لاحظ أنني تخليت عن قلنسوتي المخملية السوداء التي لا يحبها المسلمون بقدر ما لا نحب نحن القبعات.

والين يترك الإسكندرية وعبد الوالي يصل إلى القاهرة

لم يزل والين يقدم نفسه على أنه مسيحي خلال الأسابيع الخمسة الأولى من إقامته في الإسكندرية وفي الواحد والعشرين من كانون الثاني/ يناير 1844، خلع عنه الزي الأوروبي وقص شعره واغتسل في حمام عربي وارتدى لباس المسلمين المحليين. في اليوم الموالي، ركب والين مركباً أخذه على طول النيل صوب القاهرة وصوب الهوية الجديدة التي تنتظره هناك. وفي التاسع والعشرين من كانون الثاني/ يناير، وصل المدعو عبد الوالي إلى القاهرة من بخارى الواقعة في آسيا الوسطى والتابعة لحكم قيصر الروس.

أثار هذا الأمر، أي التخلي عن الثقافة الأم واعتناق الدين الإسلامي، أو على الأقل اعتماد المظاهر الخارجية، نقداً لاذعاً تجاه رحالي القرن التاسع عشر. غير أن ذلك كان الوسيلة الوحيدة لدخول المجتمع الإسلامي وملاحظته من الداخل والتعرف على المدن المقدسة في شبه الجزيرة العربية التي كانت محرمة على غير المسلمين.

كان تحقق مخطط رحلة والين يتوقف بالكامل على قدرته على تعلم لغة وعادات من يجري عليهم أبحاثه بشكل دقيق ومقنع. وعلى الرغم من أن النقاط الجغرافية المحددة في مخطط رحلته كانت تتغير تحت تأثير الظروف، إلا أن الأدوار التي كان يتقمصها في أماكن مختلفة من الشرق الأوسط كانت تُصدَّق في كل مكان. لقد صار العالم الأكاديميُّ القادم من شمال أوروبا مسلماً ومواطناً عالمياً.

لم يكن الظهور كمسلم يشكل لوالين أية مشكلة. ولكن بعضهم أخذوا على عاتقهم بعد وفاة والين البحث عن أدلة تثبت أنه بقي معتنقاً المسيحية طول حياته إلى أن توفته المنية. فعلى سبيل المثال، عندما نشر «ثيدولف راين» في عام 1872 مختارات من رسائل والين موجهة للقارئة الناشئة، حاول إقناع القارئ بأنه على الرغم من أن والين كان يزور المساجد ويصلي مع المسلمين، وعلى الرغم من أنه كان يعتبر تلك المراسيم مراسيمَ احتفالية ومحركة للمشاعر، إلا أنه لم يشعر بأدنى حاجة لترك دين آبائه.

لقد ارتأى كل من جوران شيلدت في كتابه «عين في الصحراء» الذي نشره سنة 1976 و«يوهانيس سالمينن» في مجموعة من المقالات نشرها بعنوان ذكرى الاسكندرية عام 1988 أن يشوها علاقة والين بالإسلام وبالثقافة العربية حتى يستطيعا تسليط الضوء على إيمانه المزعوم بالدين المسيحي من وجهة نظرهما. وقد كتب شيلدت ما يلي: « أخذ والين دين آبائه على محمل الجد، وحافظ طول حياته على مسافة نقدية تجاه الإسلام والثقافة العربية.» كما أن سالمينن بدوره كتب يقول: «لم يتوقف والين في داخله عن ازدراء ذلك الدين [الإسلام] الذي كان يتقن شعائره الخارجية تمام الإتقان.»

من يقرأ رسائل والين ويومياته يجد الكثير من المؤشرات الدالة على أن النفاق والرياء كانتا صفتين اشمأز منهما والين في المسيحية والإسلام على السواء وبالقدر نفسه. ومن جهة أخرى، يتضح جلياً لكل من يقرأ تلك الرسائل واليوميات بأن التوصل إلى فهم عميق للثقافة العربية، والثقافة البدوية بصفة خاصة، كان أمراً شغف به والين كثيراً، بل أصبح بمثابة رسالة كرس لها حياته.

وقد شارك كل من العرب والإيرانيين ابتداء من السبعينيات في مناقشة حول الدين الذي كان والين يدين به. وكانت المجموعتان تعتقدان بأن والين لم يقدم نفسه على أنه مسلم فحسب بل إنه بالفعل اعتنق الاسلام.

وعندما نظمت السفارة الإيرانية في عام 1992 حلقة دراسية على شرف والين وإحياء لذكراه في جامعة هلسنكي، كان العنوان هو: «الحاج عبد الوالي». أكد الاسم الذي اتخذه والين لنفسه خلال رحلاته فكرة أنه كان قد اعتنق الإسلام وأدى فريضة الحج إلى مكة، هذه الفريضة التي هي إحدى الفرائض الخمس في الإسلام. كما أن كون قبر والين لا يحتوي على صليب واسمه مكتوب باللغة العربية أيضاً عزز تصورات المسلمين عن الدين الذي كان والين يعتنقه.

أصبحت القاهرة قاعدة والين ووطنه في السنوات الخمس اللاحقة ومن هناك انطلقت ثلاث رحلات قام بها إلى الصحراء. كانت القاهرة في منتصف القرن التاسع عشر لا تزال مركزاً روحياً لمحيط ثقافي واسع يمتد من المحيط الأطلسي إلى أرخبيل شرق الهند. في هذا المحيط الثقافي الواسع الذي يسمى بدار الإسلام، نشأ وحل وارتحل علماء وتجار ومغامرون ورجال أتقياء خلال قرون عديدة من الزمن وهم يلتقون في أغلب الأحيان بأناس يقاسمونهم ذات القيم والمثل العليا ويشاطرونهم الحقائق والأعراف الدينية الأساسية نفسها. وصل والين إلى هذا المجال العالمي في آخر لحظاته: كانت الأمة، وهذا النظام الاجتماعي والثقافي الشامل، وجسدُ المؤمنين المشترك هذا على وشك التشتت بسبب اقتحام الفكرة القومية للعالم الإسلامي وتشكل الإمبراطوريات الاستعمارية.

كان في القاهرة آنذاك مستشرقون وفنانون وكتاب آخرون كالإنجليزيَّيْن جون فردريك لويس ولين الآنف الذكر والفرنسيين جيرار دُنيرفال وجوستاف فلوبير وماكسيم دي كامب. ماذا كانوا يطلبون من مصر؟ ذكرت في المقدمة مفهوم إدوارد سعيد الذي مفاده أن كل مستكشفي القرن التاسع عشر الأوروبيين الذين حلوا وارتحلوا في الشرق الأوسط وتحدثوا عن رحلاتهم تلك كانوا يبحثون فقط عن تجارب جنسية لم يجدوها في أوروبا.

يمكن القول أن زعم إدوارد سعيد صحيح ولو أنه مجحف. فإذا أخذنا ما كتبه الرجال الذين ذكرناهم أعلاه في وصف رحلاتهم على سبيل المثال نجد أنهم اهتموا بموضوعات أخرى غير ذاك. بالإضافة إلى ذلك علينا أن نأخذ العادات المحلية بالحسبان وأن المجتمع المصري المسلم، كغيره من المجتمعات البشرية، يتدخل في حياة الأفراد. لاحظ والين بعد وصوله إلى القاهرة مباشرة، عندما أخذ يبحث عن مسكن، أن الناس لم يكونوا يُؤجرون المساكن لمن لا زوجة ولا أَمَة له. إن سبب البحث عن خليلة كان هو الحصول على مسكن وتعلم اللغة إضافة إلى تلبية الحاجيات الجنسية. فَـ«قاموس النوم» مفهومٌ رسَّخه رحالو القرن التاسع عشر الإنجليز من اللورد بايرون إلى ريتشارد بورتون إشارة إلى العشيقات اللاتي اتُّخِذن للتعمق في دراسات اللغات الأجنبية.

كان والين كذلك بحاجة إلى مثل هذا القاموس. يبدو أنه، ومنذ وصوله إلى القاهرة، تابع حياة المومسات فيها بشكل مكثف. غير أن أول مرة كتب فيها، باللغة الإنجليزية، عن لقائه بفتاة شابة وقضائه الليلة معها كانت في شهر أيلول/ سبتمبر، ولكن دفتر مذكراته يشهد بعد ذلك بطريقة متزايدة عن تطور استعمال لغتيه الإنجليزية والعربية بهذا الصدد.

وفي شباط/ فبراير سنة 1845، أُعجِب والين، لدى عودته إلى القاهرة، بفتاة تدعى فاطمة. يبدو أن هذا كان اسم الفتاة الحقيقي حتى وإن أخذنا بالحسبان أنه كان يستعمل اسم فاطمة للإشارة إلى البنات بصفة عامة شأنه في ذلك شأن باقي الأوروبيين الذين كانوا يسكنون في القاهرة. فاطمة هذه كانت المرأة التي استوفت شروط المجتمع في البيت خلال الوقت الذي عاش فيه والين في القاهرة قبل خروجه لأول رحلاته الصحراوية رغم أنها لم تنتقل للعيش معه نهائياً فهي، وعلى الرغم من حداثة سنها، كانت متزوجة للمرة الثانية ويبدو أنها كانت تسترزق قوتها بعلم زوجها.

يشد انتباه القارئ المعاصر ما يذكره والين عن سن زواج النساء. كما أن

والين يذكر في كتابه عادات المصريين وتقاليدهم. يقول:

«تبلغ المصريات في سن أصغر بكثير من نساء المناطق الباردة. تتزوج الكثير منهن في سن الثانية عشرة والثالثة عشرة. وقد تُزَوَّجُ بعض الفتيات اللواتي تبلغن في سن مبكر جداً منذ سن العاشرة.»

سرعان ما أخذت الحياة في القاهرة مجرى روتينياً عذباً فانصرمت الصباحات في دروس اللغة العربية وفن الخط العربي وعزف المزمار والمساءات في الاستماع إلى الحكواتية في المقاهي صحبة أصدقائه القاهريين الجدد أو في الاستماع إلى الدروس الدينية في المساجد. وفي شهر تموز/ يوليو سنة 1844، شد الرحال إلى دلتا النيل نحو مدينة طنطا لزيارة ضريح الشيخ أحمد البدوي المولود سنة 1276 وأمضى شهراً هناك. لسوء حظه زار أستاذه الطنطاوي القاهرة بعد مغادرة والين لها. وفي آخر يوم من تشرين الأول/ أكتوبر، خرج والين إلى رحلة، طالما رتب لها، إلى الصعيد برفقة طبيب مستشفى الإسكندرية الألماني شلدرهاوس والرسام النمساوي هوبرت ساتلر وأستاذ والين في اللغة العربية علي نداء البراني. وقد قفلوا راجعين في السادس من ديسمبر/ كانون الأول من وادي حلفاء ووصلوا إلى القاهرة في الرابع عشر من يناير/ كانون الثاني سنة 1845.

مذكرات 22/ 1/ 1844

عندما جاءني محمود بن محمد ظهر أمس، طلبت منه أن يذهب إلى المحمودية ليحجز لي مكاناً في القارب العربي الذي سيبحر اليوم الى القاهرة. وقد ذهب بالفعل وعاد ومعه ربان القارب بنفسه بصحبة مساعديه فاتفقت معهما على أن يصحباني في رحلتهما مقابل مئة بياستر؛ إلا أنهما طلبا مني بقشيشاً بالإضافة إلى المبلغ المتفق عليه عند الوصول. وهكذا انشغلت اليوم بطوله في ترتيب أمور رحلتي، التي كان من المفترض أن تبدأ بعد صلاة العصر تقريباً. ذهبت لزيارة

«شبيتسناجل»، اشتريت زاد الطريق وبعض الأغراض الضرورية الأخرى. اشتريت بعضها بنفسي وبعضها الآخر اشتراها لي صاحب البيت الذي كنت أسكن فيه والذي نشب بيني وبينه نقاش حاد ومساومة شديدة. وقد حزنت عظيم الحزن إذ لم يكن لي ما يكفي من الوقت لتوديع جميع أصدقائي العرب وداعاً حاراً، لكنني طلبت من العجوز الطيب محمد مكي الجيريتي من مسجد عبد الرزاق أن يبلغ لهم سلامي ووداعي الخالصين، عندما جاء مع صديقه رجب ذي السمع الثقيل لوداعي.

وقد أوصلني ابنه محمود وأحد تلاميذه النجباء إلى الباخرة، وكان الأول يمشي معي في المقدمة فيما يسحب الثاني حمارين حُمِّلَتْ على ظهريهما أمتعتي. كنت أرتدي هذه المرة ثوبي الشرقي فيما لففت طربوشي وباقي ملابسي داخل ردائي الكبير. وعند صعودي إلى الباخرة، جلست هنيهة مع محمود وتلميذه الصغير إلى أن حان وقت المغادرة. وهكذا تركني وحدي في مقعدي أي في مقصورتي. وبعد وقت قصير، تم فك الحبل الذي تربط به الباخرة وأبحرنا نازلين قناة المحمودية يسحبنا ريح المساء الهادئ.

لم يكن المركب واحداً من سفن النيل الكبرى التي تسمى «عقب»، بل كان أصغر. كان يشبه اليخوت عندنا تقريباً. وكانت فيه تركيبة يبلغ ارتفاعها متراً تقريباً. وفي هذه التركيبة باب يفتح عند دفعه يؤدي إلى غرفة صغيرة تقع في آخر المركب، وهي أقرب غرفة إلى مقصورة القيادة. كما كان ثمة باب آخر في الحائط المقابل يفتح عند دفعه ويؤدي إلى غرفة كبيرة فيها ثلاث نوافذ تؤدي إلى الجانب الأيسر وثلاث نوافذ تؤدي إلى الجانب الأيمن، ونافذتان اثنتان على جدار الجانب الأمامي. وقد كانت كل تلك النوافذ، ونافذتا الغرفة الصغيرة كذلك، مزودة بستائر تفتح عند دفعها. كان في المقصورة باب بدفتين يؤدي إلى

الجانب الأمامي للمركب الذي يرتكز على عدد من الأعمدة. ولحماية إضافية من الشمس، يحيط بهذه التركيبة كلها شراع من القطن مثلما هو الحال في إيطاليا واليونان. ويشكل كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة مكاناً خاصاً بالركاب.

كانت الغرفة التي تحدثت عنها في البداية من نصيب سيدة تركية زوجها موظف في الأرياف في محافظة قريبة من مصب قناة «فم المحمودية»؛ أما المقصورة فكانت من نصيبي أنا وأربعة أتراك ومسيحي أرمني. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك العديد من الركاب الآخرين فوق السطح الذي يغطي الأجزاء الأخرى من السفينة، وتحته.

في البداية، جلست في مقصورتي وقتاً طويلاً، ولكنني في النهاية فضلت الخروج. وعند مروري عبر الجانب الأمامي من الباخرة، ألقى الأتراك، وجميعهم جنود، علي التحية بودية شديدة، وكأنني صديق قديم، ثم طلبوا مني الانضمام إليهم والجلوس معهم. غير أنني رفضت، وذهبت إلى سطح السفينة لأنظر إلى ما يحيط به. ولكن، وبما أن الظلام كان قد بدأ يسدل ستاره، فإنني لم أعد أفرق بين القناة وبين الشواطئ التي كان معظمها قبيح المنظر. لذلك، عدت إلى الداخل وجلست مع الأتراك الذين طلبوا مني أن أعطيهم كأسي. ما إن فعلت حتى أخرجوا زجاجة، وسكبوا لي منها مشروباً كحولياً من اليانسون، وقدموه لي. ولكنني رفضت المشروب إذ إنني لم أذق المشروبات الكحولية منذ وصولي إلى هنا. أحلت الكأس على آخر فأفرغها في جوفه بشهية ودون تردد رغم كونه مسلماً. جلست معهم بعض الوقت أدخن وأستمع إلى غنائهم. وكان لأحدهم آلة موسيقية تشبه آلة المندولين عندنا، ولكن لها عنقاً طويلاً جداً، وتمتد من كلا جانبيها ثلاثة أوتار تم ضبطها على نفس الدرجة الموسيقية. كما كان بين هذه الأوتار الثلاثة وتران آخران تم ضبطهما على ارتفاع النوتة الأساسية والنوتة

الخامسة. وقد أخبرني العازف بأن اسم الآلة «زوز» أو «زور» أو شيء من هذا القبيل، وعزف عليها بمهارة شديدة. أما الأغنية فكانت أقرب إلى التلاوة منها إلى الغناء. كانت نغمات الموسيقا التي عزفها تركية محضة، تشبه الموسيقا الروسية أكثر مما تشبه الموسيقا العربية. وكان المستمعون غاية في الإعجاب مع أنني أعتقد أن ما أطربهم هو مضمون كلمات الأغنية وليس الموسيقا، وهذا أمر عادي في هذه البلدان هنا على ما يبدو.

وبعد حين، ذهبت إلى مقصورتي ولكنني لم أستطع النوم بسبب الضجيج وغناء الأتراك. وعندما أطفأت شمعتي، وكنت قد اشتريت شمعتين اثنين من أجل هذه الرحلة، طلب الأتراك مني إشعالها لنصف ساعة، ولكنها بقيت مشتعلة الليلة بطولها تقريباً للأسف الشديد، بحيث صارت في الصباح شُمَيْعَة صغيرة.

1/23

أبحرنا في اليوم التالي كله في المحمودية، وليس في النظر إلى شواطئ المحمودية أية متعة. وصلنا في منتصف النهار إلى فم المحمودية، حيث كان علينا أن ننتظر بعض الوقت للوصول إلى الساحل. ذلك أن الزحام كان شديداً على الساحل وفي النهر، حيث كانت سفن نهر النيل تبحر جيئة وذهاباً. اجتزنا الزحام أخيراً ووصلنا إلى النيل. وقد قمت من مقعدي في جو احتفالي خاص، يملأني احترام جِدِّيٌّ أنظر إلى هذا النهر الذي يجري منذ آلاف السنين بهدوء وسلام. أخذ أحد الركاب، وهو غلام بشوش ومسلٍ من صعيد مصر، كوباً ملأه من ماء النيل وأعطاني لأشرب قائلاً بأنه ماء جيد. شربت فأعجبني مذاقه، وشعرت بقشعريرة احتفالية خاصة تسري في جسدي. كانت سفن صغيرة عديدة تبحر الآن ببطء، وكانت الكثير منها مربوطة راسية على الشاطئ. ثم

رسونا نحن أيضاً لا أعرف لماذا. قيل لنا إننا ننتظر الحصول على بعض الأوراق. تضايقت كثيراً من هذا التأخير، وتذمرت واشتكيت منه ولكن عبثاً. مكثنا في مكاننا هناك طوال الليل، وتفرجت على منظر الغروب وكان من أجمل ما يكون. وبعد ذلك بقيت أتفرج على منظر السماء الصافية البديعة المرصعة بالنجوم.

1/24

في اليوم التالي، صعد إلى السفينة طاقم السفينة والأتراك الذين كانوا قد قضوا قسماً كبيراً من الليل في قرية فقيرة قريبة. تحركت السفينة ومررنا بقرية فوا، وكفر زايد وببعض القرى الأخرى، أو ما يسمونه مدناً. كانت جميعاً مجرد أكواخ فقيرة منخفضة، شيدت من طين النيل المجفف، ليست لها نوافذ، منظرها بائس جداً. غادرَنا اثنان من الأتراك الخمسة، ثم فارقَنا تركي ثالث في كفر زايد ليتابع رحلته إلى طنطا. كان يحمل سلاحاً أطلق منه عدة عيارات نارية في الهواء. كان الأتراك مزعجين للغاية عموماً، كانوا يبذلون قصارى جهودهم للتعرف علي، ثم يطلبون مني القهوة أو الشاي أو بعض الأكل. وقد أخذوا معهم لهذه الرحلة من الأكل قدراً أقل مما أخذوا من المشروبات الكحولية على ما يبدو. أعطيتهم قليلاً من ذا وقليلاً من ذاك، ولكنني نجحت في كبح جماحهم قليلاً.

1/25

وصلنا إلى نجيلة مساءً، ذهبنا إلى القرية وشربنا القهوة في أحد المقاهي. وهناك دار الحديث عن الغوازي أي بنات الليل فقررنا أنه ينبغي رؤية بعضهن. ونشب بسبب هذا الموضوع نزاع بين علي والأرمني. غضب عليٌّ غضباً شديداً عندما شتمه الأرمني قائلاً «يا ابن الخنزير». هجم

عليٌّ على الأرمني السكران وهزه هزة شديدة ثم صاح «يا كافر» وأشياء أخرى. كان غاضباً جداً. علي هذا عربي، وهو حسب ما قاله في خدمة الباشا كخياط، ويعرف بعض الأدب العربي، وبعض الأحاديث النبوية. وعندما نزلت زوجة أحد الموظفين الأتراك من السفينة بعد الفم بقليل، استقر علي في المقصورة الصغيرة التي أصبحت شاغرة، وبذلك أصبح جاراً لي. تقاسمنا مؤونة الرحلة الآن، وشربنا القهوة معاً وكنا صديقين حميمين. لكنني لاحظت أن علياً يتصف بصفات لم ألاحظها عند العرب من قبل: المجاملة والمدح. جلسنا من الصباح حتى الليل على سطح المقصورة، وتحدثنا مع مساعد القبطان المسلي أحمد، الذي كان في خدمتي خلال الرحلة. كما كان معنا كذلك رجل مسل جداً من الصعيد كان قد عمل قبطاناً لإحدى سفن نهر النيل ووقع له حادث في الآونة الأخيرة حطمت فيه باخرة بريطانية سفينته وسحقتها تماماً. استغربت كثيراً وأنا استمع إليه وهو يقص علينا ما حدث بنبرة ورعة هادئة وبلا مبالاة. وعندما سألته كيف ينوي كسب عيشه الآن، كان الجواب كالمعتاد: «ربنا كريم». وكان بطيئاً أغلب الوقت من الصعب سحب الكلام من فمه، ولكنني شعرت براحة خاصة معه، ولذلك كان أكثر من تمتعت برفقته في السفينة وقضيت معه معظم الوقت. وهل من شيء أفضل من الجلوس في ليلة جميلة كهذه؟ وقد كانت ليالي الرحلة كلها جميلة، وكذلك الاستماع إلى حديث هؤلاء الناس. في لغتهم نبرة دافئة خاصة، ووقع موسيقا جميلة تشبه قليلاً تلك التي في اللغة الفنلندية، كما أن في طريقة كلامهم لطفاً ليس فيه تكلف مما جعلني أبقى معهم إلى وقت متأخر من الليل على الرغم من أنني وجدت صعوبة في فهم كلامهم بسبب لهجتهم الشعبية الخاصة. كان عليّ، بطبيعة الحال، أن أقدم التبغ لجميع من كانوا على متن الباخرة تقريباً.

قضينا في نجيلة الليلة وجزءاً من اليوم التالي أيضاً، ورغم كل

محاولاتي مع القبطان إلا أنه رفض الحراك، وقال إن الرياح عكسية، على الرغم من أنه كان بإمكاننا بذل القليل من الجهد واستعمال اللبان، أي حبل الجر الذي يستخدم عادة هنا. إذ يسحب من أربعة إلى ستة رجال السفينة من الشاطئ بحبل مصنوع من ألياف سعف النخل يسمونه اللبان، ويربطونه بما يسمى بالقنطرة التي تشبه حبل السفن عندنا، والتي تمر عبر سقف المقعد.

انضم إلينا في نجيلة ركاب جدد: «بنج باشا» التركي وخادمه الصغير في المقصورة، إضافة إلى رجلين مُسنّين وامرأة واحدة جلسوا ثلاثتهم تحت جؤجؤ السفينة المنخفض. وبالإضافة إلى ذلك، صعد شرطي تركي جلس تحت سقف المقعد في الجهة الأمامية مع باقي الأتراك. وبدأ على الفور في محاولة التعرف علي، وعرض علي أن ينام معي في مقعدي. لكنني رفضت شرف مقاسمته لي لمقعدي. وكان «بنج باشا» مريضاً يرقد محموماً في حالة تُثير الشفقة. طلب مني أن أحضر له شاياً اعتقاداً منه أنه سيجعله يتحسن. أجبت طلبه فلم يفوِّت الأتراك الآخرون هذه الفرصة للتسول وطلب بعض الشاي لأنفسهم.

1/26

وأخيراً غادرنا نجيلة في فترة ما بعد الظهر، وأبحرنا مسافة قصيرة، لكن سرعان ما كان علينا اللجوء إلى حبل الجر. ومع حلول المساء، تعب بعض المسافرين فطلبوا من القبطان أن يرسو لقضاء الليلة في مكان معزول كانت أقرب قرية منه على بعد ميلين (رحلة ساعتين على ما أعتقد) الأمر الذي رفضه بعضهم الآخر ممن كانوا يرغبون في مواصلة الرحلة. ونشب شجار ونقاش في الموضوع. وكان قرار القبطان أننا سوف نتابع الرحلة. وهكذا صعد بعض الركاب إلى أعلى السفينة، هجم مساعد القبطان أحمد على القبطان بعنف بمساعدة غيره من

رجال السفينة الذين بدوا وكأنهم يعتزمون إلقاء القبطان في البحر. وعندها تدخل الشرطي التركي فضرب على حديدة الهلال التركي التي تزين صدره، وقال إنه ضابط وطلب من الناس الهدوء. وسرعان ما انتهى الأمر وأبحرنا من جديد. وبعد نحو ساعة من الإبحار، رسونا في مكان كانت توجد فيه العديد من السفن الراسية الأخرى. وجاء علي والأتراك للتحدث معي وعلى وجوههم ملامح غريبة، وقالوا لي بأن طاقم السفينة أراد أن يرسو هنا ليقوم بإخطار بدو المنطقة بعد ذلك بأن في السفينة مسيحيين يمكن نهبهم. وأضافوا بأن ليس لدي ما أخشاه ماداموا هم معي. وحينئذ ضرب ضابط الشرطة على اللوحة الحديدية التي على صدره وسأل: «هل هذا واضح؟». وقال لي عليّ إنه تعرض للهجوم والنهب في هذا المكان قبل خمس سنوات تقريباً أثناء رحلته من القاهرة إلى الإسكندرية مع بعض حريم الباشا ومرافقين آخرين. ومع ذلك فإنني لا أصدق هذه الحكاية البتة. فالأتراك يريدون فقط تخويفي ويريدون أن يظهروا كمهمين.

1/27

رسونا صباح اليوم في «أم ديناري» فذهبت لشراء البيض والزبدة وأشياء أخرى، ورأيت فتاة خارقة الجمال. وعندما كنت ماراً هناك، كان بعض الناس يقولون: «إنه مسلم»، وآخرون يقولون: «بل هو إفرنجي»، وبعضهم الآخر: «إنه شيخ». وفارَقَنا هنا ذلك الرجل الصعيدي اللطيف الذي كان يجلس بجانب مساعد القبطان طوال الرحلة. لم نقض وقتاً طويلاً هنا، واستأنفنا رحلتنا مرة أخرى. وقد ذهبت مع أحد الأتراك لقنص بعض الحمامات وأعددنا منها لأنفسنا حساء لذيذاً.

وصلنـا أمس أخيـراً إلى بولاق بعدمـا أبحرنا مدة ثمانية أيـام في النيل، كان الجميـع يعرضون علي مشـورتهم بشـأن مـكان المبيت الذي علي اختياره إلى أن أتمكن من استئجار غرفة، وهو الأمر الذي أتعبني كثيراً، وقد أرهقني ذلك الضابط التركي بشكل خاص بحيث حاول كل ما في وسـعه لكي يفرض الوصاية علي طيلـة الرحلة، ولكنني كنت أنجح في التخلص منه فأشعر بارتياح كبير. ولكنني الآن لم أتمكن أن أخرسه إلا حيـن قلت له بفظاظة أن يحفظ نصائحه لنفسـه حتـى أطلبها منه. وبعد قضـاء أمور عديـدة ومختلفة إبان مدة طويلة، وبمـا أن الجميع كانوا قد نزلـوا للبحـث عن قهوة يشـربونها، بما فـي ذلك «بنج باشـا»، فقد جاء أحـد الأتراك وطلب مني أن أرافقه إلى السـاحل، وأن نأخذ معنا جميع أمتعتنا ونتوجه إلى مقهى تركي جيد. كان الجميع قد نزلوا من السفينة، حتـى القبطـان وطاقم السـفينة، لذلك لا يحسـن بـي البقاء فـي الميناء وحدي، وسـط السارقين والناهبين ووسـط كل هذه السفن التي يصدر منهـا صراخ وضجيج كبير. لذلك جمعت أمتعتـي القليلة التي كنت قد أخرجتها عندما اتفقنا في البداية أن نبقى لقضاء الليلة على متن السفينة، وذهبت مع التركي.

وفـي الطريـق أوقفنا رجل جمارك انضم إلينا ثـم فارقنا بعد حصوله علـى بياسـترين كان علي بالطبـع دفعهما. وصلنـا إلى المقهـى أخيراً، وكانـت تتألـف من غرفـة كبيرة واحـدة مظلمة وقـذرة، كمـا كانت لها نافذة كبيرة على شـكل نصف دائري، وكان معظم ركاب سفينتنا هناك، نشروا أمتعتهم واستعدوا لقضاء الليلة في المقهى. جلست في الزاوية، وفرشت حصيرتي على إحدى المصطبات. وبعد ذلك نهضت وطلبت قهوة. قضيت هذا المسـاء تارة في الداخل وتارة في الخارج في الشرفة التـي يمكن منها مشـاهدة النيـل في ضوء القمر، وتحت سـماء مرصعة

بالنجوم الساطعة، وسماع صوت مزمار القربة، والضجيج الصادر من السفن. قبل الأرميني أن يضيفوا لقهوته الحشيش، وكان قد شرب بعض المشروبات الكحولية كذلك، فكان في حالة سكر شديدة في المساء، وبدأ يتصرف بغرابة مما تسبب في عدد من الابتسامات الساخرة من رفاق سفرنا ومن عمال المقهى الذين سخروا منه حق السخرية. بدأنا نستعد للنوم، فتغطيت بدثار يوناني دافئ سميك ونمت. ولكنني كنت أستيقظ بين الفينة والأخرى بسبب ضجيج الأرميني وضجيج الساخرين منه.

أحسست بالبرد قليلاً عندما استيقظت في الصباح الباكر، بسبب التيار الهوائي الذي كان في كل ركن من أركان المقهى. ثم جاء ربان سفينتنا مع طاقمه. دفعتُ له باقي ثمن الرحلة وأعطيت للرجال قليلاً من المال فنشب بيننا نقاش لأنهم تذمروا وطلبوا المزيد بطبيعة الحال، ولكنني رفضت بحزمٍ إعطاءهم ما يطلبون. شربت بضعة فناجين من القهوة، ودخنت قليلاً من الحشيش ثم ودعت الضابط التركي السمين وداعاً ودياً، وذهبت لاستئجار حمارين للذهاب من بلاق إلى خان جعفر، وقد كلفني ذلك بياستراً واحداً لكل حمار من أجل رحلة مدتها تفوق الساعة بقليل. وضعت أغراضي على ظهر الحمار. كنت مديناً للمقهى ببياسترين ونصف: ثلاثون كوبيكة نحاسية أجرة للمبيت؛ وستة مقابل فنجان قهوة، وأربعة مقابل قطعة الحشيش. ودعت التركي بنج باشا الذي كان طريح الفراش وداعاً قلبياً فهو رفيق السفر الوحيد الذي أظهر لي بعض الاحترام والود. وعندما كنت على استعداد للمغادرة، جاء الأرميني بعد أن أخذ جرعة صباحية من المشروب الكحولي واشتكى من أنه لا يملك المال لشراء شيء من الأكل وتوسل إلي قليلاً. وعندما فتحت حافظتي تمتم بلغة عربية ركيكة: «قطعتان نقديتان من فئة خمسة فرنكات». أعطيته بياستراً ونصفاً فأخذ يتوسل إلي لإعطائه خمسة

فرنكات تارة وتارة أخرى يطلب مني أن أزيده بياستراً ونصف، ولكنني لم أعطه أكثر. كان رفيق السفر الرابع الذي كان تواقاً لمصادقتي بشكل خاص لدرجة أنه كان يخاطبني بكلمة «أخي» قد خرج في وقت مبكر، ولم يكن الآن حاضراً معنا. وبما أنني تخلصت منهم جميعاً، إضافة لكون العربي علي لم يأت لاصطحابي كما وعد، ذهبت وحدي مع حماريَّ الاثنين وسائقيهما من بولاق متجهاً إلى القاهرة.

كان كل شيء مختلفاً عن الإسكندرية هنا: لم أر هنا أحياء للفرنجة، ولم أر مناطق عربية متداعية فقيرة. بدا الناس هنا ألطف وأنظف ممن تركتهم هناك. وأخيراً، وصلت إلى خان جعفر بعد ساعة طويلة من السفر، وهناك استقبلني شابان صغيران ولطيفان جداً، كان لأحدهما شال أخضر. أراني هذا الأخير عدداً من الغرف لم تكن أي منها نظيفة. وافقت في نهاية المطاف على أن آخذ واحدة منها ولو أنها كانت غرفة بائسة. ولكن رجلاً آخر جاء بعد ذلك وقال إنه صاحب الخان، وأراني بعض الغرف الأخرى. استقر بي الأمر في إحدى الغرف في نهاية المطاف ولو أنها بدت متداعية فقيرة. ذهبنا إلى الأسفل لإحضار أمتعتي، وحينها دخلت مرأتان ترتديان ملابس أنيقة وصعدتا الدرج. وعندها قال لي صاحب الخان بإنه لم يعد بإمكاني الحصول على الغرفة المتفق عليها، وذلك لأن هاتين المرأتين تسكنان فيها. وعرض علي غرفة مظلمة بائسة في الطابق السفلي فلم أقبلها. وعموماً، يبدو أن صاحب الخان لا يأبه بي على الإطلاق، فقد ذهب عند التركي الواقف بجانبي وسأله عما إذا كنت مسلماً. وهكذا جاءا معاً ومعهما شخص ثالث يسألونني عن مهنتي وعن أصلي. أجبتهم أنني طبيب من روسيا، فاستشفوا بالطبع أنني مسيحي، وقالوا إنه ليس بإمكاني السكن هنا حيث يسكن المسلمون فقط، وأنه لا يحسن بنا السكن معاً، وما إلى ذلك.

لم أتناقش معهم البتة لأنني على أي حال لم أكن راضياً عن الغرف، استأجرت حماراً جديداً حملني إلى خان الشيشيني القريب، وهناك استأجرت غرفة ليس فيها أثاث ولا نوافذ، ولم يكن لها إلا مصراعان يُفتحان للتهوية فقط (كما هو معتاد هنا). تركت أمتعتي في غرفة أخرى أولاً حالما انتهى عمال الخان من تنظيف غرفتي، نزعت عني دثاري اليوناني الفضفاض وارتديت ردائي الشرقي وخرجت. ركبت الحمار وتوجهت إلى القنصلية الروسية، حيث حصلت على استقبال حار وودي للغاية من «بوكت» الذي كان الطنطاوي قد كاتبه بشأني. وقد وعدني بوكت بأن يبذل قصارى جهده ليساعدني وليكون لي بمثابة الأب. وقد ترك في نفسي تأثيراً طيباً جداً بلطفه وأدبه الذي يُذكِّر بالزمن القديم. جلست هناك بعض الوقت ثم ذهبت. استأجرت حماراً آخر، وبعد أن سأل سائق الحمار عدة مرات عن مكان خان الشيشيني وتاه في العديد من الطرقات، أوصلني أخيراً إلى الخان. نظمت غرفتي الآن قدر الإمكان، اشتريت حصيرة وفرشتها على فراش من القش ثم فرشت فوقه ملابسي. وبعد ذلك، خرجت اشتريت التبغ وثلاث برتقالات كبيرة بخمس قطع من الفضة، وكذا تسع بيضات مسلوقات بخمس عشرة قطعة من الفضة.

أعطيت «البواب» بعض المال ليشتري لي الشموع، والفحم، والزبدة والخبز. وعندما عدت إلى البيت، طلبت منه إشعال النار، حضرت الشاي وحضرت وجبة جيدة من بقايا مؤونة سفري، ومن الأشياء التي اشتريتها هنا كذلك. ثم جلست على الأرض على فراشي أكتُب مستعيناً بركبتي كطاولة. أعجبني كل ما رأيته اليوم إلى حد كبير، آلاف المرات أكثر من الإسكندرية. لا يرى المرء الفرنجة هنا، أو ربما هم يرتدون ملابس محلية. الناس هنا يبدون لطيفين وودودين، سائقو الحمير الذين نقلوني من مكان إلى آخر اليوم جميعهم كانوا خدومين

إضافة إلى أن أسعارهم معقولة. على الرغم من أنني لا أحب الجلوس في غرفتي وحيداً المساء كله، إلا أنني ضحكت من أعماق قلبي وكان مزاجي جيداً. أحضر البواب وعمه اللذان ينحدران من صعيد مصر أمتعتي وجلسا يدخنان معي، واعتبراني مسلماً بعد أن طلبت منهما ماء من أجل الوضوء. في الليل شعرت بتيار هوائي بارد من فتحات التهوية. وقد كان الجو بارداً جداً في الصباح لدرجة أنني كنت مجبراً على التدثر بردائي ولفه على جسدي بالكامل.

1/30

استيقظت عند الفجر وأشعلت النار بنفسي ووضعت قدري عليها وسخنت الماء، أعددتُ القهوة وشربت منها وعرضت القليل منها على البوابين اللذين سعدا جداً بالجلوس والتدخين معي. ثم خرجت بعد ذلك واستأجرت حمار للذهاب عند بوكتي. لكن سائق الحمار لم يفهمني على ما يبدو، فقد أخذني عبر طرق ملتوية كثيرة إلى مكان آخر. وعندما لاحظنا وجود خطأ قفلنا راجعين، ووصلنا أخيراً إلى القنصلية. كان علي أن أدفع لسائق الحمار مبلغاً إضافياً بسبب تلك الجولة الطويلة على ظهر حماره. التقيتُ في البداية بسكرتير أعطاني رسالتين وصلتا من فنلندا، ولكن الوقت لم يسمح لي بقراءتهما. أما بوكتي نفسه فقد طلب من رجل تركي لطيف جداً مرافقتي للبحث عن سكن. ذهبنا أولاً للقاء مصطفى، أخي الطنطاوي، في متجره، وجلسنا هناك بعض الوقت، وشربنا القهوة وتحدثنا. وكان مصطفى لطيفاً جداً، ولكنه كان مختلفاً عما توقعته وتمنيته. أخبرني أنه لا توجد فنادق في هذه المنطقة ونصحني بالبحث في الأزبكية. مررنا هناك بمسجد الأزهر الكبير، ثم مررنا بمسجد الحسن، وبعد جولة طويلة ذهبنا إلى غرفتي حيث جلسنا فيها بعض الوقت.

ثم ذهبت مع التركي إلى القنصلية الإنجليزية، إذ كان لدي لمترجمها رسالة من الطنطاوي، وقد وعدني ذلك المترجم أن يبذل كل ما في وسعه لمساعدتي. كان شاباً بشوشاً ولطيفاً في الأربعين من العمر، لكنه لم يف بكل ما وعد به. ذهبت عند بوكتي مرة أخرى وجلست على «المسطبة» أقرأ رسائلي بهدوء، ففرحت بما فيها فرحاً كبيراً واستمتعت بها استمتاعاً عظيماً. كانت الرسائل مفرحة ومحزنة في ذات الوقت فملأت الدموع عيني. ثم ذهبت إلى المنزل على ظهر حمار عندما وعد كل من بوكتي والتركي بأنهما سوف يجدان لي غداً مسكناً في الأزبكية. وقد قرأت كلتا الرسالتين في البيت مرة أخرى، وأسالتا دموعي من جديد.

خرجت مرة أخرى وحاولت إيجاد القنصلية الروسية بنفسي، مررت بعدة منعطفات جيئة وذهاباً، وكنت قد اقتربت بالفعل عندما تعرف علي رجل تركي ودلني على الطريق. في الواقع كنتُ أنوي الآن الوصول إلى القنصلية السويدية، ثم الوصول إلى المترجم بيترسون، ولكن عشية اليوم كانت في نهايتها، فارتأيت أنه من الأفضل ترك الأمر حتى يوم غد. ققفلت راجعاً، ولكنني لم أكد أبدأ رحلة العودة إلى البيت حتى أدركت أنني قد ضللت طريقي، ومن ثم كان علي دفع عشرين قطعة من الفضة أجرة لركوب الحمار. لم أر في حياتي مدينة يسهل للمرء أن يضل فيها طريقاً مثل هذه المدينة. لم أفهم أي شيء منها حتى الآن. الشوارع فيها، بطبيعة الحال ضيقة ومتعرجة، وغير منتظمة ومظلمة جداً. ذلك أن التركيبات العليا للبيوت يمتد بعضها إلى بعض في وسط الشارع، والشارع غالباً ما ينتهي إلى طريق مسدود. الشوارع هنا مضللة بشكل يفوق كل وصف. وصلت إلى البيت، نزلت من على ظهر الحمار، وذهبت أتجول قليلاً. وبعد ذلك عدت إلى البيت وأرسلت محمداً لشراء البيض والخبز، حضرت لنفسي وجبة طعام،

ثم جلست أشرب القهوة مع البوابين، ندخن من بيبة واحدة بطبيعة الحال.

1/31

خرجت في وقت مبكر ووجدت القنصلية بسهولة. التقيت هناك بالسكرتير، وقد استقبلني استقبالاً حاراً ومهذباً وقدمني لألماني كان قد دخل لتوه، وكان قد سافر على نطاق واسع في الأجزاء الداخلية لأفريقيا ونهر النيل، ووعد أن يعطيني كتاباً يحكي عن تلك الرحلة طبعته دار نشر كوطا[1]. ذهبت إلى جزيرة الروضة عملاً بنصيحة السكرتير لألتقي ببيترسون الذي يعيش هناك مع القنصل السويدي «أناستاز». ركبت حماراً يسوقه عجوز مسنٌّ جداً، يعرف كل الأماكن ولا يكف عن الثرثرة. وفي الطريق مررنا عبر الحديقة الجميلة التي أنشأها إبراهيم باشا على الطراز الأوروبي كما مررنا بقصره ذي الطراز التركي. كانت له زوايا ومبان مرفقة به. وقد قال لي سائق الحمير أن هذه الحديقة الكبيرة كانت كلها من قبل عبارة عن تلة كان الفرنسيون يطلقون النار منها على المدينة، ولكن الباشا، ولحكمته الشديدة – وهنا وضع الرجل العجوز سبابته على رأسه -- تركهم يساوون التلة بالأرض لكي يحولها إلى حديقة. وصلنا إلى «المنيل»، وهو فرع من نهر النيل يتدفق في الشمال الشرقي من الشاطئ على طول الروضة. تركنا الحمار ينتظرنا هناك وركبنا عبّارة صغيرة أخذتنا إلى الجزيرة. وعندما وصلنا إلى هناك، التقينا رجلاً أسود أخبرنا بأن أنستاز وبيترسون ذهبا إلى المدينة.

ذهبت الآن في نزهة قصيرة في حديقة رائعة حقاً. كان الباشا قد أمر بإقامة عدد من البيوت الفخمة، وعدد من القصور الجميلة رغم

(1) دار نشر ألمانية مشهورة من القرن 19.

تواضعها. ذهبت إلى شاطئ النيل للتفرج على ذلك المنظر الرائع من وراء تشعباته الكثيرة التي تفصل بينها الجزر، ومن وراء هضاب الرمال الواسعة التي في الضفة المقابلة، والتي وقفت وراءها ثلاثة أهرامات (اثنان أكثر ارتفاعاً يقفان جنباً إلى جنب، وواحد على مسافة قصيرة منهما). لكن الأهرامات الثلاثة كانت أقل ارتفاعاً مما تصورت. مررت ببيت صغير، وهو معرض للطيور على ما يبدو، كانت فيه مجموعة من الطيور الرائعة كالنعام وطيور الجنة وغيرها. كانت مشرقة بألوان زاهية أو ببياض نقي ناصع. استمتعت هنا كثيراً، تجولت مدة طويلة في كل اتجاه بين صفوف أشجار النارنج. كانت فروع الأشجار تنكسر تحت وقع وزن الثمار الناضجة. تابعت المشي إلى الأعلى فرأيت مصر القديمة، وآثار قلعتها القديمة التي يقول سائق الحمير إنها كانت هناك منذ خلق الله العالم.

مررنا في طريق العودة بأحياء المدينة، التي بدت مشرفة على الانهيار وكأنها أنقاض عظيمة قديمة. يزاول سائق الحمير هذه المهنة منذ مدة طويلة، وقال إنه يعرف المدينة والمنطقة المحيطة بها معرفة تامة، ووعد بأن يأخذني في جولة بداخلها. لا أنوي أن أفوت هذه الفرصة، عندما يسمح الوقت بذلك. عدنا إلى القنصلية الروسية، ولكنني ذهبت عند الألماني، الذي يسكن قرب القنصلية، وهو في خدمة تاجر هنا. وجدته مشغولاً في الحديقة فبقيت هناك بعض الوقت لقراءة الصحيفة الألمانية التي كانت تتضمن رسالة أرسلها «ڤريدي» إلى «برونيري» من حضرموت. وقد وعدني كل من الألماني وسكرتير القنصلية بأن يقدماني لـ«ڤريدي» هذا الذي يعيش حالياً هنا. وقد أخذني الألماني عند «برونيري» حيث التقيت عنده بمترجم القنصلية الإنجليزية أيضاً. ورحب كل منهما بي ترحاباً حاراً، وقد سررت بالتعرف على «برونيري» بشكل خاص. وقد وعد بأن يساعدني قدر المستطاع، وكان

مهذباً للغاية عموماً. لكنه اضطر للمغادرة عندما دعاه أحد الألمان لفحص مريض ما. وقد طلب مني زيارته مرة أخرى وكلما سنحت لي الظروف وقال إنه يكون في البيت كل مساء.

وهكذا أصبحت أعرف الكثير من الأشخاص، كلهم لطفاء وخدومون. أعتقد أن هؤلاء الفرنجة مختلفون كثيراً وأفضل بكثير من الذين في الإسكندرية، وكأن عدوى دفء العرب ولطفهم قد أصابتهم. ذهبت إلى البيت بعد ذلك، وعرفت الطريق بسهولة، دون أن أضل، تجولت قليلاً في جميع الأنحاء ثم عدت أخيراً إلى المنزل وأرسلت «صالح» البواب لشراء الزبدة والبيض. أدرك هنا كيف يمكن للمرء أن يكون راضياً بالقليل. في هذه الأيام، كنت آكل في الصباح عادة نصف رغيف من الخبز الفرنسي وبيضتين أو ثلاثاً، وأشرب فنجان قهوة. أما وجبة العشاء، فعادة ما كانت تتكون من خمس أو ست بيضات، والقليل من الجبن والخبز والزبدة وفنجان قهوة. وهذا كان يكفيني تمام الكفاية ليوم كامل. إنني هنا عكس ما كنت عليه في فرنسا وألمانيا، حيث أُصِبت بالعدوى من الألمان الذين يدققون كثيراً في الأمور ويشتكون عادة من سوء الطعام، حتى وإن كان جيداً ووافراً، ناهيك عن رحلة القسطنطينية برفقة «فيكلوند» إذ كنت آكل وأشرب بلا توقف. ولكن المرء يقنع بالقليل ما دامت روحه قانعة وهذا ما أحس به الآن والحمد لله.

في المساء شربت القهوة مرة أخرى مع البوابَيْن صالح ومحمد. وقد جلس هذا الأخير يلتقط البراغيث أو القمل من ملابسي ويضعها على الأرض. الله وحده يعلم من أين تأتي هذه البراغيث. لا أستطيع التخلص من هذه البراغيث رغم أنني كنت ألتقطها طيلة الوقت وأرميها بسهولة لأنها هنا مدجَّنة على نحو غير عادي بحيث يسهل التقاطها. البوابان كثيرا الكلام، وخاصة صالح، ولكنني أجد صعوبة في فهم كلامهما، لأن لهجتهما مختلفة تماماً عن لهجة الإسكندرية خاصة

وأن أذني لم تتعود عليها بعد. هذا الصباح، تحدثنا كثيراً جداً عن مسقط رأسيهما الذي هو صعيد مصر، عن جباله وكهوفه وناسه وبدوه. فهمت أخيراً هذا المساء معنى كلمة «الحلوان» لكنني لم أسعد بفهمي ذاك. اكتشفت أن علي دفع «الحلوان»، بالإضافة إلى إيجار غرفتي الذي يبلغ عشرين بياستراً في الشهر الواحد. أي أنني سأدفع ثلاثة وعشرين بياستراً سواء سكنت هنا يوماً واحداً أم يومين أم سكنت هنا على مدار السنة كلها.

2/1

بعد أن شربت القهوة الصباحية كالمعتاد مع البوابين الاثنين، ذهبت إلى بوكتي، حيث أخذت مئة بياستر أولاً، ومن ثم ذهبت مع التركي «ينيتشار» لرؤية بعض الشقق التي كان قد بحث عنها من أجلي. ولكن لم تعجبني أي شقة من تلك الشقق، ولا سيما أنها لم تكن في الأزبكية. لذلك ذهبت مع السكرتير «كولر» الشديد اللطف إلى المقهى، والتقيت هناك بشيخ الأزبكية وهو رجل طيب جداً في الخمسين من عمره. ولكنه أخبرني أنه لا شقق شاغرة عنده، وبأنه يعتقد أن بإمكانه إيجاد شقة لي بعد نحو أسبوع. جلست لبعض الوقت مع «كولر» في المكتب، كولر هذا الذي وُلد في ألمانيا ونشأ هنا في القاهرة وفي الإسكندرية، ولم يعد يعرف اللغة الألمانية. وهو شاب مهذب جداً ورفقته ممتعة للغاية. وقد أعطاني رسالة قصيرة لأسلمها لتاجر روسي يدعى «أفاريفي»، يدير فندقاً بالقرب من المكان الذي أسكن فيه. وحثني على البحث عن الشيخ الدسوقي، الذي كان الطنطاوي قد بعث معي رسالة إليه.

استأجرت حماراً يسوقه صبي صغير مهذب وحباب شأنه شأن الجميع هنا، يشبه سائقي الحمير الآخرين في كلامه وطريقة نطقه وفي

كل شيء. دردشنا معاً طيلة الطريق، تركت البهيمة تسير في طريقها بهدوء. وصلنا إلى بولاق. وبعد استفسارات عديدة عن الطريق، وجدنا كلية العلوم التطبيقية، وهي في الواقع مبنى كبير وجميل. أخبرنا البواب أن الشيخ الدسوقي كان قد ذهب للتو وبأنه سيعود قريباً، لذلك بقيت أنتظره، ودخلت إلى الساحة أنظر حولي. التقيت ببعض الطلاب، كانوا لطفاء ومرحين جداً. فتيان تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة عاماً، وقد تحدثت معهم بعض الوقت. سألتهم عما يدرسون فأجابوا أنهم يدرسون جميع التخصصات، وبدوا فخورين بمدرستهم عموماً. وسألوني إن كنت أعرف علماً من العلوم، مثل الهندسة أو الجبر، وكانت دهشتهم كبيرة عندما شرحت مضمون تلك العلوم. وبعد ذلك، جاء صف طويل من الطلاب وأحاطوا بي. كنت في حيرة من أمري بعض الشيء فتراجعت قليلاً، ولكن العديد منهم تبعوني وسألوني مختلف الأسئلة من قبيل من أين أنت وما إلى ذلك. رأيت أنه ليس من المناسب الحديث أمامهم مع الشيخ الدسوقي والاتفاق معه حول أموري. لذلك ركبت ظهر حماري وذهبت إلى المدينة مرة أخرى. نزلت عن ظهر الحمار أمام مكتب القنصلية، وعدت إلى المنزل قُبَيل صلاة العصر تقريباً. خرجت مرة أخرى واشتريت ثمانية أذرع من الكتان لأغلف بها فراشي. عدت إلى البيت، وتركت محمد يُعِدّ القهوة، وشربناها معاً.

مذكرات 2/2 ورسالة إلى غابرييل جيتين من القاهرة في 4/13

جاء التركي «ينيتشار» ليأخذني لرؤية شقتين تقعان في البناية نفسها في الأزبكية. كانت كلتا الشقتين جميلتين جداً، وخاصة تلك التي كانت مؤثثة ومجهزة بكل الضروريات. لذلك، استقر رأيي على هذه الشقة مقابل مئة وخمسين بياستراً كإيجار شهري. وعزمت على الانتقال

للعيش هناك في اليوم التالي. وتقع هذه الشقة في المنطقة القبطية في الأزبكية، وسأسكن فيها مع أربعة فرنسيين. وبما أنها مؤثثة، فإنني لست بحاجة لاقتناء أي أدوات منزلية. إلا أن الأسبوع الأول كله تقريباً انصرم في ترتيبات السكن واقتناء جميع أنواع الاحتياجات الغذائية الأساسية، والبحث عن خادم وما إلى ذلك. وأخيراً، استقر وضعي وبدأت أفكر في البحث عن معلم، ومحاولة التعرف على بعض الأشخاص هنا. وقد كسبت صداقة الأوروبيين الساكنين معي بسهولة، كما كسبت صداقة الطبيب برونري، الذي كان قد خدم في الجيش المصري أثناء حملة الحجاز، وسافر إلى الوهابيين وعاش بينهم، وهو رجل ودود وذكي جداً. ثم تعرفت على ألماني آخر يدعى بالمين، سافر إلى الحبشة، ونشر عن رحلته كتاباً. فضلاً عن السيد «ڤريدي» الهانوفري الذي عاد مؤخراً من رحلته إلى اليمن، حيث كان يُجمِّع الكتابات والنقوش الحميارية. وقد تعلم اللغة العربية العامية فقط شأنه في ذلك شأن بالمين، لا يعرف أيٌّ منهما قراءة أو كتابة اللغة العربية وليس لهما أدنى فكرة عن الأدب العربي. وكان هذا الأخير قد جاء إلى هنا منذ زهاء عشر سنوات وعمل في تصنيع الخمور، ثم بقي هنا وعمل في مختلف أنواع المجالات، وتجول مع الرحالات مترجماً، وهم يسمونه هنا رحالة.

ولكنني لم آتِ إلى هنا لأعيش بين الأوروبيين وللتعرف عليهم، ولم أتمنَّ ذلك على الإطلاق. لذلك، أعزم التعرف على العرب فحسب. لم أتعامل حتى الآن إلا مع شيوخ مناطق المدينة المختلفة، أو مع الخدم والتجار الذين أخذني إليهم قضاء حاجاتي أو ترتيب أموري. أولئك الذين نصحني الطنطاوي بالتعامل معهم لم يناسبوني لأنهم يعيشون في وسط المدينة بالقرب من مسجد الأزهر الشريف الكبير، وأنا دون عمامة، ولا أزال لا أتقن اللغة، ولا أجرؤ على الاختلاط بعلماء الدين في مصر. لذلك سأحاول التعرف على أشخاص آخرين. ذكرت

لمعارفي أنني بحاجة إلى مدرس للغة العربية، والتقيت من خلالهم بشخص يدعى عبد الخالق، وهو يأتي لزيارتي كل يوم عند العصر ويبقى معي إلى موعد صلاة العشاء. وعادة ما نحضر معاً وجبة خفيفة بعد ذلك، ثم نذهب إلى المقهى للاستماع إلى أحد المحدِّثين. وعبد الخالق ليس رجل علم وليس له دراية بالأدب العربي، ولكنه أستاذ للمحادثة جيد بما فيه الكفاية.

في الوقت الراهن، أتمنى السفر إلى صعيد مصر. وقد فكرت في الأمر طويلاً، لأن رأيي تقلب من اتجاه إلى آخر، وأخيراً اتخذت قراراً في المسألة. وعندما حسمت الأمر أخيراً وسمع عبد الخالق بذلك، توقف فجأة عن زيارتي. لا أعرف لماذا. ربما كان يعتقد أنني غني وسخي من عهد المأمون أو من عهد هارون الرشيد، وبأنني سأهبه كنوزي، وأحوله إلى رجل غني بين ليلة وضحاها. أو ربما كان يعتقد أن زيارته لي يومياً للتحدث معي باللغة العربية خلال العشرة أيام المتبقية لي هنا قبل السفر، أمر لا يستحق كل هذا الجهد والعناء. أو ربما يشك في نقاء إسلامي (لأنه هو وأصدقاؤه يعتبرونني مسلماً)، لأنني أريد القيام برحلة طويلة لرؤية ما صنعه الفراعنة الملعونون من إبداعات قديمة. لكن كيفما كان السبب، فأنا لم أره بعد ذلك. أصبحت أعرف جيداً طبيعة الناس لذلك لم أحاول أن أعثر عليه أو أن أبين له أن الأمر يهمني.

إن الرحلة التي أعزم القيام بها والاستعدادات لها شغلت ذهني تماماً، وأخذت كل وقتي تقريباً. كما أنني تعرفت على الدمشقي الوحيد الموجود هنا، وهو الأستاذ محمود، وهو رجل لطيف وطيب، يعرف كمّاً هائلاً من الحكايات والقصص، وهو بارع جداً في قصها. وقد قضيت معه الكثير من المساءات اللطيفة للغاية، إذ كنت أتناول العشاء معه ومع أحد أقاربه الذي يعيش معه في المنزل نفسه، أو كانا يأتيان

إلى بيتي ويتعشيان معي دون شوكة وسكين بالطبع. فمنذ وصولي إلى هنا لم ألمس الشوكة ولا السكين. ثم عاد قنصلنا العام (كريمير) إلى هنا بعد رحلة لصعيد مصر دامت بضعة أشهر برفقة (تيموفيف) الذي كان تلميذاً في سان بترسبورغ في معهد الدراسات الشرقية حينما كنت أقضي الكثير من الوقت هناك. وقد أشار كلاهما علي بعدم السفر الآن إلى صعيد مصر، وقد عملت بنصيحتهما بالفعل خاصة وأن (أنفوسي) الذي كان من المفروض أن يسافر معي لم يفرغ بعد من شؤونه، وكذلك لأن السفر سيكون مكلفاً للغاية لو أنني سافرت وحدي.

هكذا إذن قضيت مدة شهر ونصف هنا. لم يمر هذا الوقت هباء بالتأكيد، ولكنه لم يكن بالفعالية التي كنت أتصورها أو أرومها. عندما وصلت إلى هنا، كنت غريباً تماماً. والأسوأ من ذلك أنني كنت متردداً، ولم أستطع أن أقرر هل أقدم نفسي على أنني مسلم أم لا. نصحني الكثيرون نصائح مختلفة وحذروني بأنه لا ينبغي لي أن أدع الناس يغشوني ويخدعوني، إلا أنني وجدت الآن أن من الأفضل أن أحكّم عقلي فقط. كانت هذه المدة هنا مكلفة للغاية دون أن تأتي بفائدة تذكر، إذ كان بإمكاني الاستفادة منها أكثر لو أنني كنت أعرف ظروف العيش هنا مسبقاً كما أعرفها الآن. ولكن مهاراتي اللغوية تحسنت وسط زحام السوق، ومن خلال التعامل مع الناس الذين استطعت التعامل معهم، لدرجة أن الناس الآن يفهمون ما أقوله، كما أن الشيوخ ورجال العلم يطرون علي ويقولون لي عبارتهم المعتادة: (لسانك فصيح). ومع ذلك، فإنني أرى يوماً بعد يوم بوضوح أكبر أنه لا يزال ينقصني الكثير، وأن علي تعلم الكثير، وأصبحت أدرك مدى صعوبة اللغة العربية حقاً. وقد تعلمت هنا ما هو أكثر صعوبة. بعض العبارات المستعملة للتعبير عن المجاملات أو اللطف، وهي عبارات من الضروري جداً معرفتها لأنها تُميِّز المحلي عن الغريب فوراً. وعلاوة على ذلك، ينبغي إمتلاك

بعض الخصائص الشرقية خلال المشي، والوقوف والجلوس. ومهما ارتدى الأوروبي من ملابس محلية، إلا أنه يُعرف على الفور من طريقة مشيته مثلاً، إلا إذا تعلم المشي ببطء ورزانة كالشرقيين. فالشرقي، وخاصة التركي، يمشي بشكل متأنٍّ للغاية ولا يتلفت حوله. أما العربي بشكل عام فهو يمشي بسرعة أكبر إذا كان تاجراً أو إذا مضى لقضاء شؤونه. أما العالم والمسلم الورع فيمشي دائماً ببطء وبهيبة، وهو يردد أدعيته خاصة وهو يغادر بيته، ويردد (بسم الله) مراراً وتكراراً، أو (بسم الله الرحمن الرحيم). وهو يهمهم عموماً وبشكل دائم بينه وبين نفسه شيئاً ما، ربما يدعو بدعاء ما. وفي كثير من الأحيان، يقوم بحركات خفيفة. وينبغي أن نعلم أن المسلم هنا لا يلقي تحية (السلام عليكم) أبداً على شخص يعرف أو يعتقد أنه ليس مسلماً. وقد سمعت مؤخراً شيخاً وهو يعاتب تاجراً بشدة لأن هذا الأخير قال لأرمني (السلام) وكنت حاضراً. لم يكن الناس في الإسكندرية متشددين لهذه الدرجة في هذا الموضوع، حيث كنت أقول وأسمع (السلام) دائماً، على الرغم من أنني كنت أرتدي معطفاً ألمانياً رثاً. ولكن هنا لا أحد يحييني بهذه التحية، وربما يكون السبب هو أنني لا أرتدي عمامة.

ليس ثمة شيء واحد لا يستطيع المرء أن يدرج فيه كلمة (الله) أو (النبي) الذي يعشقونه هنا ولو أنهم لا يعبدونه. ومن الضروري عند ذكر اسمه أن يصلي المرء ويسلم عليه. وإذا كان لديك خلاف مع التاجر حول سعر البضاعة مثلاً أو حول أي شيء آخر كما يحدث هنا دائماً، يقول لك (صل على النبي) فيجيب جميع الحاضرين في الحال (اللهم صل وسلم على محمد) وتهدأ النفوس للحظة. كما يقولون في كثير من الأحيان، سواء في الجماعة أو فيما بينهم وبين أنفسهم، (أستغفر الله العظيم) في المواقف التي نتنفس نحن فيها تنفساً عميقاً، أو نقول (يا رب) أو شيئاً من هذا القبيل. ولكن هذه أمور بسيطة.

أنا لا أعرف حتى الآن كل عبارات المجاملة التي يستعملونها، وهي لا تحصى ولا تعد. فلو جمعها المرء كلها لألف كتباً سميكة بالتأكيد. فهي عبارات ضرورية للغاية هنا، وعلي أن أتعلمها قدر الإمكان. ففي البداية مثلاً، عندما كان المتسولون يضايقونني كنت أقول إنني لا أحمل قطعاً نقدية صغيرة، أو شيئاً آخر مما نقوله عندنا عادة. ولم أكن أتمكن أبداً من التخلص منهم، بل كانوا يتبعونني لمسافات طويلة، وكنت أعاني من ذلك بشكل فظيع. ولكنني تعلمت بعد ذلك أن أجيب قائلاً (الله المغني) أو (الله يطعمك) أو شيئاً من هذا القبيل. وعندها لم أكن أتخلص من مطاردتهم فحسب بل وكنت أسمعهم يدعون لي كذلك. لكل شخص هنا عامة نظام خاص، ولكل مسألة طريقة صحيحة تعالج بها. ومن لا يعرف هذا القانون، لا يصبح ضحية الخداع والاحتيال فحسب، وإنما يصبح محل استهزاء وموضوع سخرية أيضاً من قبل الذين احتالوا عليه وخدعوه. على سبيل المثال، إذا أعطيت سائق الحمير (والذي هو بمثابة مؤجر العربات عندنا) خمس أو عشر قطع إضافية من الفضة، فإنه سيطلب المزيد بالتأكيد، ولكنك إذا أعطيته حسب القانون، مهما كان ذلك قليلاً، فإنه سيقبل المال ويقول (الله يبارك لك)، وهو ما لا يقولونه أبداً إذا أعطوا أكثر من اللازم. ففي هذه الحالة سيضحك وراء ظهرك، ويتشدق لزملائه كيف أنه قد خدع أحد الحمقى. وإذا كان المرء يعرف القانون يسمونه «جدع»، وهي كلمة تعني بالضبط معنى كلمة молодець باللغة الروسية، أي أنك رجل واع وحاسم، كما أن في تلك الكلمة معنى البراعة وكل صفات الرجولة والدهاء، كما في الكلمة الروسية.

وإذا كان الناس لا يعتبرونني مسلماً بعد، فإنهم يعتبرون أن تجريدي من المال شرف لا بد لهم أن ينالوه. فمن المضحك جداً رؤية الناس هنا وهم يغشون الأغنياء من الإنجليز والفرنسيين والخدم والمترجمين،

وجميع الآخرين. وبالإضافة إلى ذلك، فإن طبيعة الشعب وطريقة تفكيره مختلفة تماماً، من الصعب للغاية تصورها أو فهمها. يجب أن تسير كما يسيرون، فلا ينبغي الاستعجال أبداً في أي مكان، لأن (الصبر جميل)، ويجب عليك التحدث معه مدة طويلة وبحكمة، فهم دائماً على استعداد لسماع الكلمة الحكيمة مدعّمة ببعض الآيات القرآنية. وعند الذهاب إلى السوق لشراء شيء غالٍ، يجب عليك أن تجلس، وتدخن البيبة، وتشرب فنجاناً من القهوة، ثم تبدأ المفاصلة في السعر. وأخيراً تقرأ الفاتحة مع التاجر. وعند وجود الخادم، تقرأ سورة الفاتحة معه كذلك، وتجده يتصرف في كثير من الأحيان وكأنه صديق، ولكنه في كثير من الحالات يتصرف بتواضع أكثر، ويكون خدوماً أكثر مما عندنا في بلادنا. ومن الصعب، بل من المستحيل في كثير من الأحيان تحديد سعر ما، سواء كان سعر سلعة أو خدمة، أو غيره. كلا الجانبين يرددان (قل!) أو (تكلم! أنت تعرف أكثر مني!)، ومن ثم يبدأ النقاش، وتعطى الأدلة والحجج على أن الآخر ينبغي أن يعرف الأسعار بشكل أفضل. في هذه الحالة، يردد البائع (والله ببلاش) أو (أنت رجل طيب، إن شاء الله) وأشياء من هذا القبيل. وفي الوقت الذي يعلن فيه أحد الطرفين سعراً ما، يبدأ التفكير الطويل، إلى أن يتم اتخاذ القرار في النهاية، أو أن المشتري يتعب ببساطة فينسى الموضوع برمته، مثلما يحدث لي في كثير من الحالات. وهذه الأمور تتطلب الصبر الكثير. وبعد قضاء بعض الوقت هنا، يصبح المرء مثل النبي «أيوب» لا محالة. وهذا كله يظهر على المحليين هنا، فهم يفقدون أعصابهم بسرعة وبسهولة دائماً، وتجدهم يصرخون ويذرفون الدموع لأتفه الأسباب. ولا ينبغي للأجنبي أن يخاف من ذلك أو يخفض صوته بل وعلى العكس من ذلك، ينبغي أن تصرخ أكثر منهم مرتين، وأن تلوح باليدين وتضرب في الأرض بالقدمين مع الحفاظ على نوع من الاعتدال والهدوء. كما أن

المرء يمتص غضب الصارخين إذا كان على حق وعرف كيف يستخدم كلمـة (اللـه) في عبارة حكيمة أو شـيئاً من هذا القبيل. من السـهل جداً أن يتعامـل المـرء معهـم إذا كان يتعامل مثلهـم ويعرفهم جيـداً. أما إذا تعامـل معهم عكس ذلـك وحاول فرض وجهات نظره عليهم دون فهم طبيعتهم فإنه لن يصل إلى شيء.

بينمـا كنـت أخط ملاحظتـي عن النـاس والحياة هنا، غالبـاً ما كنت أضجر تماماً من الوعود التي يخلفونها، وأسـأم تماماً من عبارة (غداً إن شـاء الله) وعبارة (بعد قليل)، ومن عدم الاكتراث الذي تجده جنباً إلى جنـب مع الهيبة والوقار. وبالإضافة إلى ذلـك، فأنا أعيش في منطقة لا يعيش فيها إلا الأقباط المسـيحيون فقط، بعيـداً عن العرب الحقيقيين. وأصدقائي العرب يسـمون هذه المنطقة (آخر الدنيا) أو (منطقة الوسخ والعفـن). هذا الاسـم لم يكن يطلـق على المنطقة فحسـب، بل وعلى البناية التي كنت أسكن فيها، وعلى الفرنسيين الذين كانوا يعيشون معي هنـاك. كان ممنوعـاً على المسـلمين المؤمنين نوعاً مـا أن يأتوا إلى هنا لمقابلتي. وأنا نفسـي كنت قد سـئمت من المكان ومـن غلاء الإيجار، ولم أعد أتحمل تكاليف حياتي هناك. حتى إنني اتخذت قراراً حاسـماً بعـد تفكيـر طويل بـأن أغـادر المنطقة، وطلبت المشـورة مـن صديقي الأسـتاذ محمود. وقد عرض علي أن أسكن في منزله، ووعد بأن يجهز لـي غرفة، وبأنني أسـتطيع أن آكل معه وأعيش معه كأحد أفراد الأسـرة أيضـاً. وبطبيعـة الحال، لم يكن لأي شـيء آخر أن يكـون أكثر ملاءمة، وافقـت علـى عرضه بكل سـرور وكنت على اسـتعداد بالفعل للانتقال للعيـش معـه، ولكنني ذهبـت أولاً عند القائـم بأعمال قنصليتنا السـيد بوكتـي لآخذ جـزءاً من مالي الذي أودعته عهدتـه، ولأبلغه عما عزمت القيام به. وقد أجابني بأنه إن أنا نفذت ما أنا عازم عليه، فإنه سيكون من المسـتحيل تماماً بالنسـبة له بعد ذلك أن يعدني بأي شـيء من الحماية

والأمن التي توفرها روسيا لرعاياها. وعلى الرغم من أنني أعتقد أنني في أفضل الأحوال لا أحتاج تلك الحماية هنا، إلا أنني مع ذلك، لم أكن أرغب في عمل شيء ما رغم رفضه له. وهكذا تخليت عن الفكرة رغم أن ذلك كان من الصعوبة بمكان حقاً. في الحقيقة لو أنني كنت قد انتقلت للعيش مع الأستاذ محمود، لكان ذلك سابقة لم ترها عين ولم تسمع بها أذن. فكيف يخترق نصراني، كلب مسيحي، أسرة عربية فيها رجلان وامرأتان، وأطفال من بينهم ابنة في سن الزواج. بصراحة أعتقد أنهم يظنونني مسلماً حقيقياً. ولكن حتى في هذه الحالة، سيكون الأمر غير عادي بالمرة. وعلى الرغم من كل شيء، كنت سأتجرأ على القيام بذلك لو أن العجوز بوكتي لم يعارض الموضوع بشدة. للأسف الشديد اضطررت إلى رفض عرض مدحته وأشدت به قبل يومين فقط.

في هذه الأيام، وصل إلى هنا شاب روسي من جامعة كازان يسمى (بيرجوزي) كان قد سافر طويلاً عبر بلاد فارس، وجاء إلى هنا الآن لقضاء شهرين في دراسة اللهجة العربية المحلية ولو أنه لا يزال لا يعرف اللغة العربية جيداً. فهو بالكاد يستطيع التعبير عن نفسه ولا يفهم اللغة المحلية. استقر في غرفة كانت شاغرة في البناية نفسها التي أسكن فيها. وقد قضيت عنده بعض الأيام القليلة عندما تركت غرفتي وبدأت أبحث في كل مكان عن سكن جديد.

وبعد أن بحثت في كل مكان، وبذلت جهداً كبيراً في البحث، استقر بي الأمر في منزل للضيافة معظم سكانه من اليونانيين. ولكن الجناح الذي كانت فيه شقتي كان فارغاً تقريباً، إذ لم يكن يسكن فيه إضافة إلَيَّ إلا خياط تركي عجوز وودود. تقع شقتي في الجمالية، وهي المنطقة الأنشط في المدينة، بالقرب من خان الخليلي الذي هو أكبر سوق هنا، وهي ليست بعيدة كثيراً عن الأزهر، أكبر مسجد هنا. تعذبت كثيراً الآن في اقتناء أثاث الشقة الأكثر ضرورة. ذلك أن الغرفتين

اللتيـن تتكـون منهما شـقتي إضافة إلـى المطبخ، لم تكـن تحتويان إلا علـى جـدران عاريـة، و(مَرْتَبَـة) ملتصقـة بالحائط، علوهـا نحو ثلاث بوصـات. هـذه (المَرْتَبَـة) التي يوضـع عليها فراش مغلـف بالقطن مع بعض الوسائد، هي هنا بمثابة الديوان. ينبغي علي إذن أن أشتري بعض الوسـائد، وكذا حصيرة أفرشها على الأرض، لأن أرضية الغرفة الكبيرة أعلى من أرضية المطبخ، مثل كل الغرف هنا تقريباً. وهم هنا كما تعلم، ينزعون الأحذية عند الدخول إلى البيت ويمشـون حفاة الأقدام. يجب أن أشـتري كل هذا وأشـياء أخرى أيضاً، ولكن علي أولاً أن أطلب من البواب والخادم أن ينظفا الأوساخ والغبار الذي في الغرفة، هذه الغرفة التي كانت قذارتها عندما رأيتها للوهلة الأولى تشبه قذارة الاسطبلات. ولحسـن الحظ كانـت نوافذ هذه الشـقة من الزجاج الملـون، وهو أمر نـادر في هذه المدينـة. ولكن العديد مـن المربعات فيها مكسـورة، أما الإطـارات فهـي قليلـة جداً بحيـث تدخل ريـاح الخماسـين التي تهب حالياً إلى الغرفة مباشرة مُشكلة غيوماً كبيرة لتستقر على الأرض، وعلى الوسـائد لتغذية ما لا نهاية ولا حصر له من البراغيث. لكن هذه الأمور هـي جزء من ويلات مصـر الكثيرة، ولا ينبغي للمـرء أن يأبه بمثل هذه الحشرات أو بغيرها من المنغصات.

سمعت بأن أستاذي وشيخي القديم عبد الخالق وأصدقاءه ظنوا أنني جاسوس أرسلني سلطان روسيا إلى هنا لدراسة بلادهم. كان دكانه على بعـد خطوات قليلة من بيت الضيافة الذي أسـكن فيه الآن. وقد التقيت بـه بعـد وقت قصير مـن انتقالي إلى هنـا وكان بشوشـاً وودوداً كعادته. عادة ما تجد في دكانه الصغير الكثير من الناس. بعضهم يمرون به ذهاباً وإياباً لقضاء شؤونهم، وبعضهم يتجول هنا وهناك. وأنا أنتمي إلى هذه المجموعـة الأخيـرة بطبيعة الحال. وتعرفت فـي دكان عبد الخالق منذ اليوم الأول على كثير من الرجال كالشيخ الشعراوي على سبيل المثال،

وهو من المسجد الذي يصلي فيه سكان الجمالية صلاة الجمعة، وآخر يسمى الشيخ إبراهيم يقول إنه سافر عبر العالم مدة ثلاث وثلاثين سنة، ولو أنني لم أكن لأقدِّر سنه بأكثر من ذلك من خلال مظهره. وهو يقول إنه ولد في المدينة المنورة وبأنه جاء مع والده إلى هنا عندما كان في الخامسة عشرة من العمر، وأنه بعد وقت قصير خرج للسفر؛ فزار الهند وأماكن أخرى في آسيا، وأنه كان في لندن أيضاً، بحيث إنه يعرف الكثير عن القوانين والعادات الأوروبية. إنه رجل في غاية الغرابة، وهو يثير شكوك الكثير من المحليين هنا. وهو يعرف عدداً لا يحصى من الآيات القرآنية عن ظهر قلب. يجلس عادة في المساء على مرتبة مرتفعة على واجهة دكان مغلق، ويمتعنا بترتيله. وبالإضافة إلى هؤلاء، فقد تعرفت على الكثير من الجيران الآخرين، وعلى عدد من التجار وغيرهم ممن يسكنون في هذه المنطقة.

كان بواب منزل الضيافة الذي أقمت فيه في الأيام الأولى لي هنا قد أخبر بواب هذه البناية أنني مسلم. وأفترض أن عبد الخالق على الأقل قد قال لأصدقائه الشيء نفسه. للتزكية هنا قيمة كبرى. وذلك لأن الرجل منا إذا ظهر فجأة لا يعلم أحد أصله ولا من أين أتى، أو كان (على باب الله) كما يقولون هنا، فإنه من الصعب عليه التعرف على الناس والعيش بينهم إن لم يكن له شخص يزكيه. لحسن حظي جاءتني التزكية من مصدرين. ولذلك فقد حظيت بأحسن استقبال وعوملت أحسن معاملة.

كنت أتجول خلال النهار من دكان إلى آخر، أجلس في الدكاكين، وأتحدث مع جميع أنواع الناس، أقاسمهم وجبة غداء متواضعة. وفي المساء، غالباً ما يأتون إلى بيتي لتناول الشاي أو القهوة. وأنا أقضي اليوم كله تقريباً مع العرب ونادراً جداً ما أتحدث أية لغة أخرى غير العربية. وعلاوة على ذلك فإن عبد الخالق قد أشاد بي على أني طبيب

جيـد. كانـت أخته مريضة فـي المنزل فطلب مني أن أصـف لها دواءً مَا بعْـد أن وصــف لي مرضها. قلت له بأن من الضـروري للطبيب أن يرى المريض فأخذني لرؤية أخته. وكانت بطبيعة الحال محتجبة، فلم تظهر لي إلا واحدة من عينيها السـوداوتين فقط. وعندما طلبت منها أن تريني لسانها، صارت تتلوى وتلوي النقاب لإخفاء باقي أجزاء وجهها بشكل مضحـك للغاية. ولكن في اليوم التالي عندما حضرت لأقوم بحجامتها نزولاً عند رغبة أخيها، فإنها لـم تخجل أبداً في أن أرى صدرها الممتلئ كله.

ومنذ ذلك الحين، قمت بالعديد من الزيارات للمرضى؛ النساء منهم والرجال، وكانت مهمة العلاج حتى الآن ناجحة للغاية. وقد اسـتفدت فـي العلاج من كتاب الوصفات الطبية الذي ألفتـه عندما كنت في كلية الطب بفنلندا، طالباً من طلاب تونروت وإيلمون.

أعتقد أنني اكتسـبت بين جيراني في الجمالية سـمعة جيدة على أني طبيب ماهر وعالم قدير. جميعهم يعتقدون أنني مسلم، ويحيونني بتحية (السـلام)، وأنا أجيب بنفس التحية. ولكن الكثيرين، ولا سـيما الشيخ الشـعراوي، يضايقونني، وخصوصاً يوم الجمعة بدعوتي للحضور إلى المسـجد لأصلي معهم. لـم أتمكن بعد من اتخاذ قرار في هذه المسألة، ولا أعـرف مـا إذا كان من الحكمـة أن أفعل ذلك أم لا. فأنا لا أسـتطيع تجنـب التعامل مع الأوروبيين، ومن ثـم فأنـا في نظر الكثيرين في عداد المسيحيين. لو أنني كنت مستقلاً تماماً ولو أن القنصلية لم تكن هنا لما كنت قد ترددت في اتخاذ قراري. فأنا واثق من أنني لو ذهبت معهم ولو لمرة واحدة لأداء صلاة الجمعة، فإنهم من دون أي شـك سـيعتبرونني من المسلمين الورعين الحقيقيين. وأنا الآن أخشى أن كثيراً من معارفي يشـكون في سرهم في نقاء إسلامي لأنني أرفض الذهاب إلى المسجد معهـم. ولكـن الأمـر فـي آخـر المطاف، سـيان عندي بشـأن مـا الذي

يعتقدونه بشأني. فأنا متأكد تقريباً مقدماً بأنهم سيعرفون عاجلاً أو آجلاً بأنني لست مسلماً لأن الكثيرين قد رأوني مع المسيحيين. ولكن أياً كانت الديانة التي يعتقدون أنني عليها، فأنا ومع مرور الوقت، لا بد ذاهب إلى مساجدهم.

وجد لي عبد الخالق، الذي يساعدني في كل شيء، خادماً خاصاً لأنني طردت ثلاثة خدم خلال هذه المدة القصيرة. هذا الخادم رجل في الخمسين من العمر. كان قبل أربع سنوات يملك دكاناً خاصاً به يبيع فيه مختلف أنواع المستحضرات التي يستخلصها ويقطرها بنفسه مثل ماء الورد وغيرها، ولكنه عانى مادياً بعد ذلك. وهو رجل له مواهب عديدة ليس فيما يتعلق بالأعمال المنزلية فحسب، مثل الطبخ والغسيل وغيرها من الأمور، وإنما كذلك فيما يتعلق بالقصص والأحاديث النبوية. ولذلك فهو خادمي وصديقي ومعلمي.

عند الساعة التاسعة صباحاً أتى إلى عندي موسيقي عربي ليعلمني العزف على الناي. والناي العربي يختلف تماماً عن النايات التي عندنا. فحتى وإن كنتُ قد عزفت طويلاً وباجتهاد في فنلندا، إلا أنني الآن أقضي عدة أيام أتدرب، وأجد وأجتهد للحصول على صوت من هذا الناي العربي. يبدو أن من الضروري دائماً أن أبدأ من الأبجدية من جديد. وفي منتصف النهار، عندما يذهب الشيخ داود عازف الناي، يأتي شيخ آخر ليتدارس معي قواعد اللغة، وعند صلاة العصر يأتي شاب ليعلمني الكتابة، وعند غروب الشمس، أتعشى وأخرج للجلوس في المتاجر والتجول قليلاً. وبعد صلاة العشاء أذهب إلى بيت من البيوت حيث يعقد الراوي حلقته ويقص قصصه، أو أستضيف بعض الجيران في منزلي لشرب الشاي أو القهوة. وهكذا كما ترى، فأنا أتمتع برعاية جيدة، ومشغول جداً طيلة اليوم.

فرحت كثيراً بعيد المولد النبوي، الذي بدأ في 23 آذار / مارس

واستمر لمدة أسبوع. وقبل أيام قليلة من المولد، نُصِبت الخيام على امتداد بركة الأزبكية. وقد كانت البركة بحيرة صغيرة من قبل، ولكنها الآن حُوِّلت إلى متنزه عام. في الأعلى، في جهة المدينة، تحولت جميع المحلات التجارية تقريباً إلى دكاكين تبيع السكاكر. كانت الحشود تجتمع حولها خلال النهار للتمتع بمشاهدة الراقصين، والمغنين، والبهلوانات، وما إلى ذلك. هؤلاء الذين يسمونهم (الحواة)، كانوا يبتلعون النار على سبيل المثال، ويبصقون الدخان. وكان ثمة شخص أدخل كرة خشبية في فم مساعده ثم جعله يحبو على ركبتيه، وضربه برفق على ظهره، فخرجت الكرة من مؤخرته العارية وطارت عالياً في الهواء الأمر الذي أضحك المتفرجين المحتشدين حول الحاوي. وبينما هو يقوم بهذه الأشياء، كان ثلاثة صبيان قذرين وخشنين ومضحكين موجودين حوله باستمرار. لم يكف الثلاثة عن الصراخ والقيام بحركات ساخرة، وهم يمثلون دور أرواح الجحيم المظلم. للأسف لم يعد يسمح للغوازي بتقديم عروضهن لأن الباشا قد أدانهن كما أدان جميع بنات الليل ومنعهن الآن منعاً تاماً. والآن لا ترى من النساء هنا إلا العجائز المحجبات، وبعض البنات اللواتي يجلسن ويغنين وهن يقرعن على الدفوف. كان بعضهم يَجُرُّون حولهم القردة ثم يجعلونها تركب على ظهر الكلاب إلخ.

كانت تلك هي الوسائل الترفيهية لهذا اليوم، كلها موجهة لذوق العامة فقط. أما الاحتفال بعيد المولد النبوي فكان في المساء، كما استمر الاحتفال بالليل كذلك إحياء لذكره. تجمع العلماء والمسلمون الأتقياء الآخرون عند العصر أو العشاء، وجلسوا في الخيام المنصوبة مشكلين حلقة للذكر. ثم وقفوا في حلقة دائرية يمكن لأي أحد أن ينضم إليها ما دام يحس برغبة في ذلك. كانوا يرددون كلمة (الله) بحزم ودون توقف بصوت رخيم وعميق. وكان واحد منهم أو أكثر

من الواقفين في الدائرة يتلو آيات من القرآن، ويتوقف بين الفينة والأخرى. وفي الخيام الأخرى، كان الآخرون يهمهمون (لا إله إلا الله)، كما كانت ثمة مجموعة أخرى رافق إنشادها صوت الناي العربي الجميل. أثناء الاحتفال كان جميع المشاركين يتمايلون، تارة بالرأس فقط وتارة أخرى بأجسادهم كلها. جعل هذ المجهود خدود الكثيرين من الذاكرين تحمر وكأنهم في نشوة السكر، وكانت التقوى بادية على وجوههم وهم ناسون لكل ما هو دنيوي فانٍ، ولا يتذكرون إلا الله ورسوله بتواضع وخضوع. أو ربما ولّدت وجوههم الفاقدة لكل تعبير، وعيونهم المغمضة تماماً نوعاً من التناقض مع مظهرهم الخارجي الذي يتمثل في لباس رث قذر في كثير من الأحيان. كان صوت الحشد يشبه من بعيد صوت همهمة الدببة، أو صوت الأمواج وهي تهدأ تدريجياً بعد العاصفة وصولاً إلى الشاطئ. لا أستطيع أن أنكر أن كل ذلك ترك في نفسي انطباعاً عميقاً، إذ إنني نادراً ما رأيت احتفالات دينية أعجبتني أكثر من هذا الاحتفال. ففي الوقت الذي تغني فيه الجوقات والكورالات صاحبة الخبرة الكبيرة عندنا على أنغام آلات الأورغن وتمجد اسم الرب، يغني العرب أو بالأحرى يهمهمون اسم ربهم في تكرار لا نهاية له، دون لحن ولا موسيقا، وربما تكون الرياح التي قد يكونون قد تعلموها من الرياح التي تهب عبر صحرائهم بصوت واحد لا لحن له. عُقدت حلقات الذكر هذه هنا في أماكن كثيرة، قمتُ بعدّ عدد المجموعات فوجدتها أزيد من اثنتي عشرة مجموعة. وعلى الرغم من أن كل تلك الحلقات بدت متشابهة، إلا أن كل واحدة منها كانت تتميز بميزات خاصة. استمرت حلقات الذكر طوال الليل، وأنا لا أفهم أبداً كيف تمكنوا من البقاء ليلة بأكملها إن لم تكن نشوة الإيمان وحبهم الجامح لنبيهم هو ما أعطاهم تلك القوة.

انتهى الاحتفال في الثلاثين من الشهر الجاري عند الظهر بالدوسة.

انبطح قرابة مئة رجل ينتمون إلى مجموعة الدراويش جنباً إلى جنب دون أن يتركوا بينهم فراغاً، ثم جاء الشيخ بكري على حصانه الذي كان يقوده رجلان من الجانبين. مشى حصان الشيخ ببطء فوق الرجال المنبطحين على الأرض. وبعد أن لامس الحصان ظهور الرجال، نهض بعضهم من تلقاء أنفسهم، فيما ساعد بعض الأصدقاء والأقارب بعضهم الآخر على الوقوف وحضنوهم. كان كل من نهضوا من الأرض يبدون مرتبكين وفاقدين للوعي. توجهت نحوهم باعتباري طبيباً لأفحصهم وأرى ما إذا كانت ثمة كسور في العظام أو شيئ من هذا القبيل، ولكن دهشتي كانت عظيمة عندما وجدت أنهم عادوا إلى وعيهم بعد وقت قصير ولم تكن عليهم أدنى علامة للحيرة، ولا أدنى نوع ضرر. بل كانوا فرحين وبشوشين يخبرون الحضور كيف أن أرجل الحصان كانت خفيفة، بحيث إنهم بالكاد أحسوا بخطواته على ظهورهم وبخطوات قائد الحصان على رقابهم. أعتقد أن اللحظات الأولى من اللاوعي لم تكن سوى ورعاً دينياً مرتبطاً بنسيان الحاضرين.

قضيت الأسبوع كله مع الناس، وخصوصاً في المساء، ولم أتعب أبداً من الاستماع إلى الذكر. الحشود كبيرة دائماً، وبالخصوص في الدوسة. ذلك أنني أعتقد أن العديد من الأطفال مروا وهم تحت أرجل المشاهدين بتجربة أصعب من تجربة الدراويش تحت أرجل الحصان. كما سررت كثيراً بحضور احتفال آخر مؤخراً وهو نزلة الحج. كنت قد ذهبت في الليلة السابقة عند الأستاذ محمود وقضيت الليلة عنده. كان هناك أشخاص آخرون كذلك من أقاربه إضافة إلى شابين صغيرين أحدهما اسمه حسين. استيقظنا في الصباح الباكر، وخرجنا من باب الفتوح ومشينا قليلاً إلى خارج المدينة. وفي الطريق التقينا الْحُجَّاج العائدين فرادى ومجموعات صغيرة. وكانت بعض تلك المجموعات تسير خلف موسيقيين وحولها الأقارب والأصدقاء الذين جاؤوا

يرحبون بالعائدين المرغوب فيهم. كما سمعنا عويل بعض النساء اللواتي لم يعد أزواجهن أو أبناؤهن من رحلة الحج الشاقة. كان المنظر كلوحة تشكيلية مثيرة، إذ جميع العائدين من الحج كانوا يرتدون ملابس مزينة ومزركشة، وخصوصاً النساء منهم. وكانت الحشود التي تتدفق من المدينة تتجمهر قرب مقهى على جانب الطريق وتحيِّي أصدقاءها العائدين بتحيات مختلفة من قبيل (السلام)، و(بالسلامة) وما شابه ذلك. ولكن أغرب ما رأيت حدث في اليوم التالي عندما جيء بالمحمل إلى القلعة وتم تسليمه هناك على يد رئيس الحج، وكان رجلاً مسناً من المغرب يرتدي حزاماً أبيض حول خصره، وسروالاً تركياً فضفاضاً تمتد أكمامه إلى عقبيه تقريباً. لكنه من ناحية أخرى كان عاري الرأس، لا شيء يغطي رأسه نصف الأصلع وغير المحلوق الذي كان يحركه باستمرار، سواء الآن أو أثناء الحج إلى مكة، وفي طريق العودة منها، في تعب وإرهاق. كان الجزء الأعلى من جسمه الأسمر الحنطي عارياً، وكانت لحيته بيضاء، وكان الشعر المجعد الأبيض من شدة الشيب يحيط بصلعته، وكان بصره شاخصاً منعدم التعابير. كان يركب جمله وجسده يتأرجح على وقع الخطوات الخفيفة لمطيته، فيتأرجح تارة إلى الأمام وتارة إلى اليسار. لقد كان يبدو لي كالجني بمظهره هذا. وقد أثار في نفسي وقعاً لم يسبق له مثيل. وما إن وقعت عيني عليه حتى بقيتا مشدودتين إليه وهو على ظهر مطيته وموكب العازفين وقارعي الطبول يتقدمه فلم أزح عيني عنه لحظة واحدة.

يمكنك أن تقرأ عن هذه الأشياء وغيرها في كتاب (لاين) الممتاز المعنون (المصريون المعاصرون). لا أريد التعرف على (لاين) بعد، لأنه حسب ما سمعت عنه، لا يخالط إلا العرب فقط، كما أنه يتردد كثيراً قبل استقبال أي أوروبي. ومع ذلك فقد تعرفت على أستاذه الشيخ إبراهيم الدسوقي الذائع الصيت هنا، وأنا أنتظر أن يعرفني هو بنفسه

على لاين.

لـم أبدأ بعـد في اقتناء كتـب للجامعة لأنني لا أريد الاسـتعجال في الأمر. أريد أولاً التعرف على الظروف والأسعار حتى لا يغشني الباعة. بائعوا المخطوطات هنا قليلون، أجدرهم بالذكر هو أحمد الكتبي، لكنه محتـال كبير، وقد تعوَّد على غش الإنجليـز الأغنياء والاحتيال عليهم. وتُعقـد هنا نوع من السـوق أو المـزاد أيام الإثنين والخميس في سـوق خان الخليلي الكبير حيث يخصص قسـم صغير منه لبيع الكتب يسمى (الكتبية). ويأتي إلى هناك كل من له كتب أو أوراق قديمة للبيع فيبيعها للمشـترين أو لباعة الكتب. تجرأت أنا أيضاً وذهبت إلى هناك أحد أيام الإثنين فالتقيت للأسـف مع أحمد الذي لا يعتقد بالتأكيد أنني مسـلم. لم أشـتر أية كتب مهمة. اشتريت كتاب النحو المسمى (الكافية) وكتاباً يشـرحه يسـمى (الوافية) بثمن بخس بعد وقت طويل من المفاصلة في السـعر. كما اشـتريت حزمة مـن المخطوطات الأخرى من شـيخ آخر تعرفـت عليه في الشـارع بثمـن بخس أيضاً. سـألت عـن القاموس في كل مكان لكنه غالٍ يصل سـعره إلى ألفين أو ثلاثة آلاف بياسـتر، ولكن أحد الشيوخ قد وعدني بإعطائي نسخة منه. على الرغم من أن الترجمة التركية للقاموس لا تكلف أكثر من مئتين وسـتين بياستراً، وعلى الرغم من أنني عازم على شرائه على أي حال إلا أنني أعتقد أن النسخة العربية الحقيقيـة من القاموس يجب أن تتوافر فـي مكتبة كمكتبتنا. لذلك، فقد قررت شـراء مخطوطة القاموس إذا عثرت على واحدة جيدة. كما أنني سأشتري أيضاً في الأيام القادمة بعض الكتب من المطبعة بسعر ثمانمئة بياسـتر بعـد أن حصلت أخيراً على قائمة خطيـة بالكتب المطبوعة هنا. كمـا أنني أنوي أن أضع عمامة على رأسـي بعد بضعة أسـابيع، وعندها أبدأ التردد على «الكتبية»، وأستخرج منها أفضل الكنوز. ولكن القاهرة ليسـت المكان المناسـب لشـراء المخطوطات، وذلـك لأن للناس هنا

أفضل الأنواع، ولأنهم يعرفون قيمتها جيداً. على عكس بقية بلاد الشرق، نادراً ما تسنح فرص جيدة لاقتناء الكتب في هذا المكان. أصبح مبلغ الثلاثمئة روبل الفضية التي سحبتها عند ذهابي بعد معاملات الصرف أربعة آلاف وخمسمئة بياستر مصرية. سوف أشتري الكتب بهذا المبلغ ثم أرسلها بمساعدة القناصل عبر إنكلترا عندما يحين موعد توديعي للقاهرة.

مذكرات 4/14

جاء الشيخ داود في الصباح وكانت حالته يرثى لها. قال إنه كان ولا يزال مريضاً. ثم جاء عبد الخالق في حالة أسوأ بكثير من حالة الشيخ داود. كنت الليلة الماضية قد وصفت لأخته القليل من الأفيون لعلاج الإسهال الشديد الذي استمر طويلاً، فجعل عبد الخالق أخته تبتلع أربعة غرامات من الأفيون فأصبحت حالتها سيئة للغاية طوال نهار أمس وحتى اليوم. والأكثر من ذلك أنها الآن تعاني من أزمة ربو. في وقت لاحق من نهار اليوم، ذهبت مع عبد الخالق لعيادتها، ولكن مرضها لم يكن بالحدة التي كانوا يعتقدون. كانت أخته خجولة ومملة جداً. وبينما نحن جالسان هناك، شعر عبد الخالق بحكة في عينيه فأراد معالجة الأمر بأن أخذ قطعة صغيرة من الورق ولفها، ثم أدخلها في أذنه، وأخرج كتلة سميكة من صملاخ أذنه ثم فرك بها عينه، وقال إنه قد استخدم هذه الطريقة لعشر سنوات وأنها ناجعة. وعندما ذهبت إلى دكانه، وجدته جالساً في حالة يرثى لها، يضع كيساً كبيراً تحت عينه المنتفخة. وعندما سألته عن سبب الانتفاخ أجاب: «هذا أمر الله». كان الجو منعشاً وصحياً في نظري في المساء فذهبت إلى شارع الموسكي، وجلست لبعض الوقت عند عبد الخالق، ثم ذهبت من عنده برفقة الشيخ الشعراوي. دعوته هو وأخوه للذهاب معي إلى البيت، فاستجابا

لدعوتي وجلسا معي مدة وجيزة نشرب القهوة. ولكنني شعرت بملل شديد من الشيخ الشعراوي ومن كلامه المستطرد الممل عن نفسه، ومن استعلائه بعلمه. كما أنه ضايقني كثيراً بأسئلته الكثيرة في علم النحو التي يطرحها في الوقت المناسب وفي الوقت غير المناسب.

4/15

انشغلت في البيت بالقراءة وبأشياء أخرى حتى حان موعد صلاة العصر تقريباً. عندها خرجت وسألت عن أحوال شقيقة عبد الخالق فعرفت أنها في حالة سيئة للغاية الآن لدرجة أنه لم يعد ضرورياً مساعدتها. ومع ذلك ذهبنا لرؤيتها فوجدت أنها اليوم بحال أفضل ولكنها خجولة وحساسة جداً وتريد إثارة شفقة الجميع. كانت اليوم قد تشاجرت مع أخيها ومع زوجها الذي كان حاضراً. وبعد ذلك ذهبتُ أتمشى قليلاً في الجمالية. وبعد عودتي إلى البيت وصل الشيخ داود، ولكنني قلت له بأن علي قضاء بعض الأمور الأخرى الآن وليس لدي الوقت للعزف على الناي. تناولت عشائي عند صلاة المغرب ثم ذهبت عند كولر، حيث كان الشيخ حمد قد زاره. أخيراً يمكن شراء الكتب وسوف أحصل عليها غداً. بقيت جالساً عند كولر في انتظار إبراهيم الدسوقي مدة طويلة، لكنه لم يأت اليوم.

4/16

جلست طوال اليوم في المنزل حتى صلاة المغرب، ولم يزرني غير داود قبل صلاة العصر بوقت قصير. وقد ذهبت عندكولر بعد أن تناولت عشائي، وكان الشيخ حمد الآن قد أحضر بعض الكتب إلى هناك أخيراً، رغم أنه لم يحضرها كلها. بقينا معه هناك ندقق الحساب ونفكر. إنه رجل لائق، (جدع) حقيقي. كما جاء الدسوقي في وقت

لاحق ليدرّس تيموفيف هناك. ثم تحدثنا بعد ذلك حتى وقت متأخر جداً. وبعد ذلك، خرجنا سوياً، أنا والدسوقي، وذهب كلٌ إلى بيته.

4/17

جاء الشيخ إبراهيم لرؤيتي في وقت مبكر، تحدث مدة طويلة وسألني عن أشياء كثيرة من بينها مسببات الحب وما شابه ذلك. ثم جلست أقرأ كتاباً أحضرته أمس. وعند الظهر، جاء محمد ابن الخطاط إبراهيم أفندي، ليعلمني أول درس في فن الخط. وهو صبي يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً ولكنه مهذب جداً وعلى خلق كريم. وبعد ذلك جاء عبد الخالق، وبدأ يتحدث عن دبوسه الذي كان قد أرسله معي لمراد. وقد كان هذا الأخير قد رفض إعادته وقال بأنه حصل عليه مني وليس منه، وغير ذلك من التفاهات. هذا النقاش عن مراد عكر مزاجي. وذهبت إلى شارع الموسكي لاقتناء القاموس. بعد صلاة العشاء ذهبت إلى الأستاذ محمود الذي لم أجتمع به منذ وقت طويل فأخذ يحكي عن مراد العديد من الأشياء. الأستاذ محمود رجل لطيف للغاية، وقد قضيت معه في هذه الليلة وقتاً ممتعاً كما هو الحال دائماً.

4/21

جلست في المنزل طوال اليوم وإلى موعد صلاة العشاء. كان داود أول زوّاري. وما إن بدأ درسه الممل، حتى جاء الشيخ إبراهيم وقاطعنا كعادته. وقد جلس هذا الأخير معي وقتاً طويلاً يقرأ من كتاب (عنوان البيان) ويفسره وقد شعرت بملل شديد. وعند الظهر جاء صديقي الصغير محمد ليعلمني فن الخط. وبعد ذلك جلست أرتاح قليلاً من

خلال قراءة كليلة ودمنة. بعد أن تناولنا طعامنا عند صلاة المغرب، ذهبت مع علي وابنه الصغير محمد لزيارة مسجد الحسين حفيد النبي، إذ بدأ الاحتفال بعيد مولده الآن مساء هذا اليوم. دخلنا واستمعنا إلى الشيوخ وهم يقرؤون مقتطفات من كتاب الدلائل. وذهبنا إلى القبو الذي يقع فيه ضريح الحسين. وهو محاط بسياج من الحديد مزين بزخرفات بطلاء الذهب هنا وهناك. تلك الزخرفات، أو ما تمكنت من رؤيته أو تجرأت النظر إليه منها، جميلة جداً في رأيي. قرأت سورة الفاتحة أمام الضريح وقبلته كما يفعل الجميع هنا. هنا في الداخل، جلس صف طويل من الشيوخ، بما في ذلك الشيخ الشدساوي كما افترضت. وفي المساء سرت في المسجد وأنا أرتدي عمامة على رأسي دون لفت الكثير من الانتباه على ما أعتقد. لم أكن خائفاً على الإطلاق رغم أنني كنت أزور هذا المسجد لأول مرة. كان هناك شيخ شاب طلب مني خمس قطع من الفضة ثمناً لقراءة سورة من القرآن على روح الحسين.

4/22

وقال لي عليٌّ إنه عانى هذه الليلة من روح شريرة تسببت في كوابيس رآها خلال نومه وأنه قرأ عدة سور طويلة من القرآن ولكن الروح لم تفارقه. وفي النهاية عندما خرجت لم تذهب بعيداً بل بقيتْ جالسة في ركن من أركان الغرفة. في وقت لاحق من نهار اليوم، جاء الشيخ إبراهيم، وجلس مدة طويلة يتحدث عن القرآن. لا أستطيع أن أصدِّق أنه مسلم حقاً. ثم جاء داود لإلقاء درسه، وبعد ذلك طلب أن يأكل فقدمت له القليل من الخبز والعسل. ثم استلقى على الأريكة عندما كان محمد يعلمني فن الخط، ونام إلى موعد صلاة العصر. وبعد أن استيقظ بدأ يدردش مع علي وكان مزعجاً للغاية، وفي المساء ذهبت

أتمشى في ضواحي الأزبكية وعندما عدت إلى البيت، شربت الشاي مع عبد الخالق.

4/23

جلست وحدي في البيت ولم يزرني إلا محمد أفندي في منتصف النهار. وعند حلول الليل، جاء عبد الخالق ليتعشى معي. وبعد ذلك بوقت قصير ذهبتُ مع علي وابنه الصغير محمد إلى مسجد الحسين، حيث استمعنا مرة أخرى إلى قراءة من كتاب الدلائل. كان هناك عدد كبير من الناس جالسين على الأرض في حلقة يتحادثون. وكان منهم من يتجول ذهاباً وإياباً. كما كان الأولاد يركضون ويلعبون وكأن الجميع يحضرون احتفالاً تقريباً. جلست أنا وعلي على الأرض لبعض الوقت، ثم قمنا بجولة في المكان، وزرنا الضريح وقبلناه، وقرأنا سورة الفاتحة وما إلى ذلك. ثم خرجنا وجلسنا في المقهى نستمع إلى راوٍ يقص قصة خواجة مسيحي، ثم أخذ يقلد طريقته في الكلام مما أضحك جمهوره الكبير كثيراً.

4/26

وبعد منتصف النهار، ذهبت مع علي إلى حديقة الباشا إبراهيم. وتوقفنا في الطريق عند مسجد جميل كبير، وهو (جامع السلطان المؤيد)، وهو في نظر علي المسجد الأكثر جمالاً هنا. ذلك أن (إبراهيم أفندي) ناظر هذا المسجد قد عمل على إصلاحه، وأعطاه هذا المظهر الجميل بعدما كان آيلاً للانهيار تقريباً. لم يكن هناك الكثير من الناس. لم يكن هناك سوى عدد من النائمين على الأرض. تمشينا في كل أنحاء ذلك المكان الجميل الذي يبدو كأنه حديث البناء. خرجنا من باب زويلة، ومررنا بحي آيل للانهيار، ووصلنا إلى مسجد السيدة زينب، ثم وصلنا

إلـى الحديقة. وذهبت من هناك إلى الروضة لرؤية بيترسـون، ولكنه لم يكـن موجوداً. تمشـيت في الروضـة، وأعجبني كثيـراً موقعها الجميل وتصميمهـا الرائع، خاصـة أن الجو كان جميلاً جـداً اليوم. على الرغم من أن النيل ليس واسعاً جداً من حيث العرض، ورغم أن الجزُرَ تُقسمه إلـى أجـزاء، إلا أنه يبـدو كبيراً وجباراً بفضل شـواطئه الواسـعة، وكأنه بحيـرة كبيرة. اسـتمتعت اليوم كثيـراً بالجو المنعش. عـدت إلى منزلي متعبـاً قليلاً، واسـتلقيت على الأريكة واستسـلمت للنوم حتى منتصف الليـل، فنزلت إلى الأسـفل لرؤيـة ما يجري في الْمُولِـد. ولكن لم يكن هناك أي شيء يذكر.

4/27

الشـيخ علي، الأسـتاذ الذي زكاه لي خادمي (سيد علي)، جاء لمقابلتي ولـم نتحدث إلا مـدة وجيزة عندما وصل الشـيخ إبراهيـم. وبدأ يروي قصـص أسـفاره إلى الهنـد والصيـن التي يبـدو حريصاً بشـكل خاص علـى تعريـف الجميـع بهـا. واسـتطرد يحكي كيـف تعرف فـي كلكتا علـى طبيب إنجليـزي، وتناقش معه عن الخلود وكـذا عن فكرة القيامة مضيفـاً أن الإفرنـج ينكرونهـا. وهنـا أجابـه الحاضـرون الآخـرون أن الإفرنـج لا يؤمنـون إلا بعقولهم. وواصل بأن الطبيـب الإنجليزي كان ينظـر إلى الجبـال والبحار مـن خلال أنبـوب عنده؛ وأنه فسـر له الأمر بأن سـطح القمـر مرآة تنعكـس الأرض من خلالها، ثم قـال بأنه تمكن مـن إقناع الإنجليـزي بوجهة نظره. يبـدو لي أن تلك الحكمة البسـيطة التي كان يسـعى لإظهارها مـن خلال كلامه وقصصه هـي أمور منقولة ومقلَّـدة. غادرنـا المكان بعد مدة وجيزة فيما بقي الشـيخ علي جالسـاً. واتفقنـا علـى أن يأتي إلـى بيتي كل يوم عنـد الفجر لقـراءة الألفية على الرغـم من أنني تعبت جداً لإقناعـه بالقراءة في هذا الكتاب، لأنه يعتبره

كتاباً صعباً جداً. وقد أعجبني هذا الرجل كثيراً في ما عدا ذلك، وأعجبتني لغته وصوته خصوصاً. بعد صلاة المغرب ذهبت لأتمشى في الأزبكية واستمعت مع عبد الخالق إلى قصة لأحد الرواة، ثم ذهبنا معاً إلى مقهى قريب من مسجد الحسين، واستمعنا هناك إلى الراوي، وإلى بعض الموسيقيين بعد ذلك. عزف هؤلاء على الناي وعلى العود وقرعوا على الطبل. لم يخلُ عزفهم من سحر معين على الرغم من أنه مع مرور بعض الوقت، أصبح يبدو رتيباً جداً. ثم عدت إلى البيت في وقت متأخر.

4/28

في الصباح، زارني الشيخ إبراهيم الذي أصبحت أشك في إسلامه بشدة يوماً بعد يوم. حتى المحليون هنا يتعاملون معه ببعض الشك. بقيت في البيت حتى وقت صلاة العصر، ثم خرجت للتنزه في الْمُولِد.

ذهبت مع علي بعد صلاة المغرب في نزهة طويلة في الأزبكية. مررنا بصف طويل من البيوت الجميلة التي يملكها المسيحيون فقال علي: (ها هي جنة المسيحيين التي لا تغني عنهم شيئاً، فهم لا بد إلى نار جهنم آيلون عند موتهم). كان الطقس جميلاً جداً، وكان القمر ساطعاً بهياً، وكانت رياح الشمال قد نظفت الجو. وعندما عدنا، استمعنا في المقهى إلى الشيخ إسماعيل وهو بلا شك أفضل راوٍ هنا بشهادة المحليين كذلك. وفي وقت لاحق، ذهبت إلى مسجد الحسين للتفرج على موكب (الإشارة)[1] الذي وصل إلى هنا في المساء احتفالاً بالحسين. وقد تم تقسيم الموكب إلى مجموعات أو جوقات، وكان الناس يغنون بعض الأناشيد والموكب يتابع سيره، فكانت إحدى

(1) «الإشارة» هو موكب الدراويش الذي يشاهد في كل ليلة من ليالي المولد وهو يمر مخترقاً شوارع القاهرة حتى يصل إلى مسجد «الحسين» يسبقه الرجال بالطبل والزمر.

الجوقات تبدأ الإنشـاد فترد عليها الأخرى وهكذا بالتناوب. لم يكونوا يرددون إلا عبارات مثل: (صلى الله على سيدنا محمد). ومع ذلك كان في كل شـيء بصمة دينية عميقـة، وخصوصاً عندما وصل الموكب إلى الضريح. هناك صار الإنشاد أقوى وأكثر حماساً. لم أدخل إلى الداخل، بل التفت وذهبت إلى البيت.

4/29

خرجـت مع علي منذ الصباح وتوقفنا قليـلاً في جامعة الأزهر وتجولنا وسـط الشـيوخ، الذين جلس كل واحد منهم يلقـي محاضراته وطلابه يحيطـون بـه. وكانت هـذه الحلقـات في كل مـكان، في السـاحة ترى الأولاد الصغـار، وداخل المسـجد الشـباب الراشـدين. ثـم ذهبنا إلى القلعة، ودخلنا لزيارة قاعة الشيخ الرفاعي الصغيرة المخصصة للصلاة والتي تجمع فيها عدد كبير من النساء. وقد شرح لي علي ونحن جالسان في المقهى القريب بأن معظم هؤلاء النسـاء يسكنهن عفريت. وأضاف بأنهن سـيتخلصن من العفريت إذا ذهبن لزيارة شيخهن في يوم زيارته. ذلـك أن لـكلّ واحـدة منهن شـيخ تذهب لزيارتـه، طفنا حـول ضريح الشـيخ، وقبّلنـا عدداً من أركانه، وقرأنا سـورة الفاتحـة. وعند خروجنا كان الكثيرون في أعقابنا يتسولون ويطلبون منا صدقة.

ثم ذهبنا إلى القلعة ومشينا في قاعات الاستقبال. ويبدو أن للجميع حرية الدخول إلى كل الأماكن، حتى إلى قاعة الباشا نفسها. عند الظهر عدنا إلى البيت وقد بلغ منا التعب مبلغه بعد هذه الجولة الطويلة. تناولنا وجبـة خفيفة وغفونا قليلاً. جاء محمد وأيقظنـا وجلب معه ورقاً ملوناً فبـدأت الكتابة عليه. كما كانت معه أوراق انتزعها من كتاب به مختلف أنـواع الآيـات التي تتلى للحماية من السـحر، والحب، وكل شـر آخر. ينبغـي كتابة تلـك الآيات بطرق مختلفة، فأحيانـاً تُعلّق على مكان ما أو

تلصق في مكان ما. فعاليتها مُجَرَّبة وأكيدة. أشـاد محمد بالكتاب كثيراً وقـال بأنه ينوي نقله. وهـذا الكتاب يدعى (خـواص البردة). في وقت لاحق في المسـاء، ذهبت لأتمشـى في شـارع الموسـكي، وذهبت إلى بيت كولر حيث التقيت ببيرجوزيني كذلك، ولعبت معه لعبة الشطرنج. وكانـت رفقتهما برفقة مملة. ثم ذهبت بعد ذلك إلى المقهى وجلسـت أسـتمع إلى الشيخ إسماعيل. وبعد ذلك تجولت جُلَّ الليل في الْمُولِد. ووصلت إلى البيت قرابة السـاعة الرابعة فجراً. كان علي متعباً جداً من نزهة الصباح فلم يستطع الخروج في الليل.

4/30

خرجت منذ الصباح مع علي لنزهة في الغورية، وجلست لبعض الوقت في مقهى بالقرب من مسـجد الحسـين. وهو مقهى أشـاد به علي كثيراً، وقـال إنه مقهى لا تُقدَّم فيه الأرجيلة أبـداً، لأنها تعتبر أمراً غير مرغوب فيه. ثم ذهبنا إلى المسـجد واسـتمعنا مدة سـاعة ونيف إلى الذكر الذي تردده اليوم فرقتان من الدراويش هما (سـعدية) و(بيومي). وكانت كل فرقـة منهما تقف ملتفة حول شـيخها، الذي كان يجلس وسـطهم على سـجادة الصلاة. وكلما وصـل أحد أعضاء جماعة مـا، فإنه يركع أولاً، أو بالأحرى ينحني ويقبل يد الشـيخ، ثم يجلس في الحلقة وينضم إلى إنشـاد المجموعـة وحركتهـا. وكان في هـذا الذكر كذلك إنشـاد منفرد وآخر جماعي. وقد كان إنشادهم يترك في نفس المستمع انطباعاً رائعاً. وبينما نحن بصدد الاسـتماع للذكر، جاء فقيه فقير ليسلم، ثم قرأ سورة يـس إضافة إلى بعض السـور القصيرة الأخرى وتلقى على ذلك عشـر قطـع من الفضة، أي خمس قطع أكثر مـن المعتاد. ذهبنا إلى البيت قبل منتصف النهار بقليل، وبقيت أنا هناك إلى وقت صلاة المغرب. وعندئذ أكلـت وخرجت مع علي، وقمت بجولة حول الأزبكية. وجلسـت بعد

ذلك مع علي مدة قصيرة في مقهى الشيخ إسماعيل. وذهبت بعد ذلك لأتمشى قليلاً في الجمالية، ثم عدت في وقت متأخر جداً إلى البيت. لا ينبغي شرب الحليب أيام الأربعاء لأن ذلك يجلب الحزن لأسبوع كامل، بل ينبغي أكل السمك يوم الأربعاء ولا ينبغي أكله يوم السبت، أما الحليب فهو بركةٌ يومَ السبت.

5/1

جلست في البيت حتى وقت صلاة الظهر تقريباً. كان الجو حاراً وخانقاً اليوم، وقد عاد علي من المدينة وهو تعِبٌ تعباً شديداً. وخرجت عند صلاة العصر لاستكشاف الجو، فوجدت أنه لم يعد حاراً جداً.

ذهبت عبر باب النصر إلى عدد من الحدائق، التي بدأت فيها جميع أنواع الفواكه تنضج الآن. ولكن حدائق الإسكندرية كانت تعجبني أكثر من هذه. وقد مررت في طريق عودتي بعدد من بنات الليل اللاتي كنَّ جالسات على الشاطئ. وقد طلبتْ مني إحداهن أن أصعد إلى التلة الرملية، فذهبت وجلست معها قليلاً. ولكنها دعتني للذهاب معها، فضحكت منها وذهبت إلى حال سبيلي. ثم مررت بأخريات من رفيقات دربها، وكن يحاولن الكسب على ما يبدو.

بعد أن أكلت وقت صلاة المغرب، ذهبت لزيارة الأزبكية. كان الجو في الشوارع الضيقة خانقاً هذه الليلة، وكنت أشعر كأنني محبوس داخل قمع لا أستطيع التنفس كما يجب. أسرعت الخطى ولكنني أصبحت أشعر عندئذ بالحر أكثر، وصرت أتصبب عرقاً. لم يكن الجو في الأزبكية هذه الليلة منعشاً كالمعتاد، إذ خيمت عليها غيمة ضبابية غير صحية، دون أي هبة نسيم تذكر. جلست مع حنفي في المقهى وقتاً طويلاً ثم عدت إلى البيت. وهناك التقيت بالشيخ الشعراوي وذهبت

معه إلى الحسين للاستماع للذكر ولكتاب الدلائل ونحن نجلس على الأرض في مجموعة صغيرة. بعد ذلك مررنا بالنحاسين، وقفنا هناك لبعض الوقت للاستماع لعزف الموسيقيين. وأخيراً قضينا وقتاً قليلاً في الاستماع للشيخ إسماعيل، ثم ذهبت بعد ذلك إلى البيت.

5/2

استيقظت متعباً للغاية، وبقيت منهك القوى الصباح كله. كانت الحرارة خانقة وقائظة طول اليوم. وعلى الرغم من هبوب الرياح إلا أنها كانت ساخنة وليست منعشة. حاولت الاسترخاء في البيت طوال النهار، وعانيت كثيراً من ريح الخماسين هذه دون أن أجد الطاقة للقيام بأي شيء. وبعد صلاة المغرب، ذهبت لأتمشى في الأزبكية، وجلست في متجر حنفي. كنت أتنفس بعمق وبفرح عظيم بفعل ريح الشمال المنعشة التي هبت مع حلول المساء. كان كل الناس بما في ذلك المحليون يشتكون من هذه الحرارة الشديدة ومن الجو السيئ خلال النهار. بعد عودتي من الأزبكية، ذهبت مع علي إلى الحسين. وكان هذا اليوم هو ذكرى الشيخ جوهر. ولذلك، فإن المسجد كان مضاءً ومزدحماً أكثر من المعتاد هذ المساء. وكان دراويش العيسوية هم من أقام الذكر اليوم، وهم جميعاً أو معظمهم على الأقل من شمال إفريقيا. وكانت لديهم طبول وصنوج كبيرة عزفوا من خلالها ألحان أغانيهم الصاخبة للغاية. كما كانوا يقومون بحركات قوية أثناء الغناء، ويقفزون ويركضون في جميع أنحاء المسجد مؤثرين بذلك في الجموع الغفيرة التي بدت خائفة منهم قليلاً. فهذه الفرقة مشهورة بأنها لَمَّا تبلغ نشوتها الدينية تبتلع النار، وتقفز عالياً نحو سقف المسجد، وتنزع المصابيح وتلتهمها. ولكن لم يحدث أي شيء من هذا القبيل اليوم. يبدو أنهم قد أصبحوا أكثر اعتدالاً مؤخراً، كما أن الناس هنا لا يحبون مثل

تلك الأشياء. ومع ذلك فإنهم يتصرفون بطريقة ضيقة الأفق قليلاً، وعليّ وغيره يسمونهم مجانين. كما أن دراويش السعدية الذين أحيوا احتفالاً قبل بضعة أيام كانوا هم أيضاً مشهورين من قبل بأكل الأفاعي وبمعجزات أخرى. ولكن عندما ابتلع أحدهم ممن لم يكن ينتمي إلى جماعتهم ثعباناً فمات، حَظَرَ شيخهم هذه الممارسة تماماً. جلسنا في المسجد مدة ساعتين ثم قمنا بجولة صغيرة في الجمالية وعدنا إلى البيت.

5/3

في الصباح، زارني كل من الشيخ إبراهيم وعبد الخالق وبقيا جالسين عندي حتى الظهر تقريباً. وعندما غادر إبراهيم، قال لي عبد الخالق إن إبراهيم وقع في حب شاب ما، وأن هذا الحب فقط هو ما يقعده هنا كل هذا الوقت الطويل. وهو يعتقد بالطبع أن هذه إرادة الله، وأن إبراهيم هالك لا محالة، إذ إنه لا يملك حيلة لشغفه هذا. خرجت عند الظهر، التقيت الصغير محمداً، وذهبت معه ومع اثنين من رفاقه لنزهة في الحدائق. جلسنا في أحداها نشرب القهوة ونأكل البرتقال ونستمتع بوقتنا معاً. الأولاد هنا متخلقون وجد مهذبين. كان أحد رفاق محمد زنجياً من صعيد مصر، وقد أعجبني كثيراً. عدنا إلى البيت بعد صلاة العصر بقليل، وتوقفت لبعض الوقت في متجر حسن، ثم توجهت إلى البيت لتناول الطعام. في المساء، تجولت في جميع أنحاء الجمالية وعدت إلى منزلي في وقت مبكر جداً.

5/4

في الصباح ذهبت مع علي إلى الحمّام. بعد عودتي إلى البيت كنت أنوي أن أغفو قليلاً إلا أن عبد الخالق ومحمد سعودي

جاءا لزيارتي. وكان هذا الأخير قد أحضر عُودَه معه. جلسا إلى ما بعد الظهر، وأكلا معي قليلاً من الطعام. وبعد أن ذهبا جاء الشيخ إبراهيم وجلس يقرأ من كتاب (عنوان البيان) ويحكي بين الفينة والأخرى عما رآه في الهند من عجائب قائلاً إنه لا الملوك ولا أي أحد آخر لم يكونوا ليروا ما رأته عيناه هو. وهو يتصف بالأنانية وبتصنع الحكمة. وفي غضون ذلك وصل الصغير محمد أستاذ فن الخط، ولكنني لا أريد أن أكتب اليوم لأنني أعاني من صداع حاد بسبب الحر وضغط الجو الفظيع. بعد صلاة العصر جاء أحد مؤذني المنطقة وقص شعري. وبعد صلاة المغرب، ذهبت مع علي إلى الأزبكية، جلسنا في متجر حنفي نبترد بفضل رياح الشمال المنعشة التي بدأت تهب. تجولنا في الجمالية ثم جلسنا في المقهى نستمتع بهواء المساء العليل بعد يوم حار.

5/5

كنت أنوي الذهاب مع علي إلى مسجد السيدة زينب، ولكن الشيخ إبراهيم منعنا حيث وصل في اللحظة التي كنا سنخرج فيها. بقي جالساً يخوض في هذا الموضوع وفي ذاك، وكشف لي عن قصة حبه. قلت له رأيي في الموضوع وأخبرته بأن هذا النوع من العلاقات لا يناسب الرجال. عندئذ جاء عبد الخالق وعلي فانضما إلى النقاش. والآن بدأ نقاش الموضوع بدقة وعلى نطاق واسع، كما هو معتاد في الشرق مع الكثير من التكرار. تعجبت كثيراً من وجهات نظرهم البائسة وغير المجدية. سئمت تماماً من هذه الدردشة وتمنيت أن يغادروا. وعندما ذهبوا أخيراً، بدأت أستعد للخروج مرة أخرى، جاء محمد ليعلمني فن الخط. على الرغم من أنه لا يبلغ من العمر إلا خمسة عشر عاماً فقط، إلا أنه أفضل من رأيتهم في هذا الميدان هنا. لكنه هو أيضاً صغير

الجسم وضعيف البنية. وعندما ذهب إلى حال سبيله، ذهبت إلى تلة الرمال التي تقع خارج المدينة لأتنفس الهواء المنعش الذي جلبته رياح الشمال عبر الصحراء. كانت هناك الكثيرات من بنات الليل اللواتي كن يجلسن على قارعة الطريق، لاحقتني باغية عجوز تلح علي بالذهاب معها إلى إحدى الحفر التي في الرمال. بعد أن تناولتُ بعض الطعام وقت صلاة المغرب ذهبت إلى عند تيموفيف وكولر، وجلست معهما مدة، ثم توجهت إلى متجر حنفي لأشرب القهوة هناك، وجلست مدة أستنشق الهواء العليل. في المساء، ذهبنا إلى الجمالية لنتمشى، واستمعنا بعد ذلك إلى الشيخ إسماعيل. ولكن بما أنني كنت أعاني في المقهى من الحرارة ومن البراغيث، لم أُطِق أن أبقى هناك مدة طويلة فذهبت إلى البيت للنوم.

5/6

في الصباح خرجت مع علي، فتفرجنا أولاً على اثنين من الدببة التي دربها أحد الأتراك وجاء بها إلى هنا. كان أحدهما يرقص ويقوم بمختلف أنواع الحيل على وقع غناء مدربه وقرعه على الدف. وبعد ذلك قمنا بزيارة لضريح السلطان الصالح لأن اليوم هو يوم الاحتفال بذكراه. لا يفتح الضريح للعموم إلا مرة واحدة في السنة فقط. كان هناك عدد رهيب من النساء اللاتي كن يطفن حول الضريح أو يجلسن في جماعات في كل أرجاء المكان. كما كان على كلا جانبي الضريح ثلاثة شموع مغطاة كلياً بالجبس. يقال بأن الفرنسيين أرسلوا هذه الشموع هدية للسلطان. ولكن عند وصول الهدية، اشتبه أحد المصريين في أمرها، وقال للشعب بأن هذه الشموع ستحرق القاهرة بأكملها إن أُشعلت فتردي المدينة كلها إلى رماد. لذلك تم تغطية الشموع بالجبس ووضعوها حول ضريح السلطان. يعتقد الناس أنها مليئة بالبارود

والرصاص، وإذا أزيل الجبس المحيط بها وأُشعلتْ، فإن المدينة لا محالة ستحترق عن آخرها.

ذهبنا من الضريح إلى مسجد الحسنين، وتجولنا هنا وهناك، وتفرجنا على عين الماء، وما إلى ذلك. يجتمع خيرة علماء مصر اليوم ويعقدون حلقات دراسية يتطرقون فيها إلى بعض الآيات القرآنية. يحضر كل شيخ قليلاً من الفول وغيره من المأكولات الخفيفة فيتناولون وجبة خفيفة، ويشربون القهوة وسط حلقاتهم الدراسية. جئنا إلى المسجد قبل وقتنا المعتاد، فلم تكن الحلقات قد بدأت بعد لأن الدروس لا تبدأ قبل صلاة الظهر. عدنا إلى البيت، وجلسنا مدة ثم ذهبت إلى خارج المدينة عبر باب النصر، تمشيت في الجبال واستنشقت هواء الصحراء العليل. ولكنني عدت إلى البيت بعد وقت قصير لقضاء مدة طويلة من القيلولة: ذهبت إلى الفراش قبل صلاة العصر ولم أستيقظ حتى موعد صلاة المغرب. أكلنا وخرجنا مرة أخرى، وقررنا أن نذهب إلى الحسنين، ولكن بما أن الوقت كان لا يزال مبكراً والمساء لا يزال في أوله، ذهبنا إلى مقهى الشيخ إسماعيل. تجولت قليلاً في المدينة السفلى، واشتريت التبغ من محل الشيخ الشعراوي فدعاني لآتي للاستماع إلى ختم القرآن الذي يعقده في منزله.

ذهبت إلى هناك برفقة ابنه وانضممت إلى ثمانية أو عشرة أشخاص كان أربعة منهم من الفقهاء حفظة القرآن. كانوا يقرؤون أجزاء طويلة واحداً تلو الآخر، مجودين أحياناً ومرتلين أحياناً أخرى بصوت منخفض يكاد لا يكون مسموعاً. وهكذا دواليك بين ترتيل وتجويد إلى أن يصل المقرئ إلى آخر حصته في النهاية، حيث ينضم الأربعة وكثير من الحاضرين إلى القراءة. وبعد ذلك، يبدأ أحد العلماء الأربعة التلاوة والتجويد بالطريقة نفسها مرة أخرى، وهكذا تناوب الأربعة

بهذه الطريقة باستمرار. وفي غضون ذلك، كان الحاضرون الآخرون يتحادثون ويتناقشون في مختلف الأمور. بل حتى الشيخ المقرئ شارك في المناقشة متوقفاً عن قراءته في كثير من الأحيان. وقد أدهشتني هذه الرعونة كثيراً. لكن من ناحية أخرى، لا أتصور كيف كان بإمكاني الجلوس هناك في صمت والإنصات بهدوء لترتيل القرآن بأكمله. كان المستمعون يهتفون كعادتهم بعد كل ترتيل قائلين (الله) أو (الله أكبر) أو أي تعبير آخر من تعابير الحماس. وقد خرجَتْ مثل تلك الهتافات مني أنا أيضاً تعبيراً عن الحبور والسرور الناتج عن أدائهم الجميل غالباً.

ومع ذلك لم أستطع الجلوس مدة طويلة بل خرجت للتنزه قليلاً في ضواحي الجمالية، ووصلت إلى غاية ضريح السلطان الصالح. كل الأماكن مضاءة الآن، وهناك الكثير من الناس، منهم من يستمع إلى المغنيين في المقهى أو إلى رواة القصص، وبعضهم يتجول.

عدت للاستماع إلى بقية ترتيل القرآن. كان أحدهم قد استلقى على الأرض ونام. كانت القراءة قد وصلت إلى سورة «الملك» وانتهت بعد مدة قصيرة. ثم بدأ الأربعة يقرؤون ما تبقى من السور جماعة مع تكرار عبارة لا إله إلا الله عند بداية كل واحدة من السور القصيرة. وقد رتلوا الجزء الأخير بحماس وهو الأمر الذي أعجبني كثيراً. وفي النهاية، قرأ الجميع سورة الفاتحة مولين وجوههم تجاه القبلة، ثم قرؤوا جزءاً قصيراً من سورة البقرة وأسماء الله الحسنى. وأخيراً ختموا بالصلاة على النبي ومباركة سيدنا الحسين. انتهى كل شيء في تلك الليلة في الثامنة والنصف، وتفرق الجمع دون أي شكليات أخرى.

جلسـت في البيت حتى وقت صلاة العصر، ثم خرجت مع علي وذهبنا لنتمشـى في الجمالية. ولكن الجو كان رطباً وحاراً وخانقاً، لذلك عدنا بسـرعة إلـى البيت. وخرجنا مـرة أخرى بعد صلاة المغـرب. اليوم هو آخـر أيـام العيد ويـوم الذكـرى الفعلي. لذلـك ترى إضـاءات احتفالية في الأسـواق وعلـى أكبر البنايات. كمـا عُلقت مصابيـح كبيرة مملوءة بالشـموع أمـام البوابـات، وعلـى واجهـات المحـلات كذلـك، حيث كانت أغلبيتها مفتوحة وغاصة بالناس الذين كانو يتفرجون على المارة ويتمتعـون بالإضاءة الاحتفالية. على الرغم من أن الإضاءة لم تكن من أروع مـا يكون، فإن تأثيرها في الشـوارع الضيقـة كان رائعاً. كان الناس فـي جميع الأنحاء وفـي كل مكان. تجولنـا جيئة وذهاباً فـي الجمالية، وفـي الغورية وفي الحسـين وجلسـنا فـي المقاهي التي تُعـدّ متعة عليّ الكبـرى والوحيدة. وقد اشـتكى من أن احتفال هـذا العام لم يكن جيداً كسـابقيه، إذ إن الشـعب كان مسـتاءً من طغيان الباشـا، والكل يشـتكي مـن فرض ضريبة الفِردة[1]، فلم يكـن عند الناس مال مما خنق فرحتهم بالحياة. في المسـاء، ذهبنا إلى مسـجد الحسـنين وقمنا بالزيارة. كانت هناك حشـود عظيمة خـلال النهار. وفي بداية المسـاء مررنا فلم ندخل إلى الداخل. كانت السـجاجيد قد أزيلت وكانت الأرض متسـخة جداً بسبب كثرة الزوار هذا اليوم. كان يوم الأحد هو يوم تنظيف المكان، إذ كان مـن المقـرر أن يجتمع خيرة رجال مصر هنا ليحظوا بشـرف وبركة تنظيف أرض المكان.

(1) ضريبة تفرض على كافة الأفراد بسعر واحد.

فـي الصبـاح خرجت مـع علـي، وذهبنا في جولـة في المدينـة ومن ثم مشـينا على الطريق الطويل المؤدية من المدينة إلى شُـبرا إلى أن وصلنا إلـى المقهـى الذي يقع في منتصف الطريق بين المدينة والقلعة. شـربنا القهـوة هناك في حديقـة جميلة، وبعد ذلك ذهبنا إلى شـاطئ نهر النيل عبر حديقة أحمد باي الطاهري. عبرنا هناك سـاحة رملية كبيرة مفتوحة على الخليج الواقع بين القلعة وشـاطئ النيل. خلعت حذائي ومشـيت حافـي القدميـن على الرمال السـاخنة. كان ذلـك صعباً جـداً، ولكنني تحملـت حرقة الحـرارة في باطن قدمـي، وكذا حرارة شـمس الظهيرة القاسـية. ذهبنـا إلى السـباحة فـي نهر النيـل. وكانت الميـاه دافئة جداً، ولـم يكن مـن الصعب أبداً دخـول الماء على الرغم من أنني لم أسـبح فـي المياه الباردة منذ أن غادرت باريس. اغتسـلت بطين النيل الأسـود السـميك، واستمتعت بالسباحة كثيراً جداً. ثم عدنا إلى السهل الرملي، ومررنا بمقهى صغير فقير وشربنا فيه القهوة مع بعض الأقباط والأتراك مع الاستماع إلى علي وهو يقص قصصاً على الجماعة كلها، مما أبهج الجميـع. ثم مررنا بعد ذلك ببلاق، وبالسـاحة التـي تفصل بين ضاحية بلاق والقاهرة نفسـها، ودخلنا إلى المدينة من بـاب الحديد وعدنا إلى البيت.

بعد ظهر اليوم بقرابة سـاعة، أكلنا قليلاً واستسلمنا بعد ذلك لقيلولة جيـدة إلى موعد صـلاة المغرب تقريباً. وبعـد أن تناولت وجبة خفيفة، ارتديت ملابسـي وخرجت. فكرت في زيارة برونيري، ولكنني التقيت فـي الطريق (بمحمد الرصـص) في أحد المقاهي فجلسـت معه بعض الوقـت، ثم قمنا معاً بجولة صغيرة سـيراً علـى الأقدام وذهبنا إلى محل عبد الخالق حيث جلسنا هناك وقتاً طويلاً. ثم جاء عبد الكريم وآخرون كثيرون إلى هناك. ثم جاء الشـيخ الشعراوي، وذهبت معه إلى الحسين

حيث نظمت أمسية لختم فترة الأعياد بطريقة جميلة هذه الليلة من خلال قراءة كتاب الدلائل، وترتيل القرآن وإقامة الذكر. وتسمى هذه الأمسية بالليلة اليتيمة دون أن يكون للتسمية ارتباط بوقت الاحتفال الفعلي. استمعنا مدة ثم قمنا بزيارتنا لضريح الحسين، وغادرنا بعد نصف ساعة تقريباً. وبعد ذلك، ذهبت عند عبد الخالق لأجلس مع المجموعة نفسها.

5/9

جاء الشيخ إبراهيم لزيارتي بعد انقطاعه عني بضعة أيام. وبعد مغادرته خرجت قبل الظهر لأتمشى قليلاً في الجبال. كان الجميع يشتكون من الجو الذي كان حاراً لا يطاق، ولكنني أشعر أنني أتحمله بشكل جيد. وعندما عدتُ، جلست هنا وهناك بالقرب من المتاجر، وعدت إلى منزلي قبل صلاة الظهر بقليل وذهبت للقيلولة. وبعد صلاة المغرب، ذهبت إلى الأزبكية لأتمشى، وجلست مدة في متجر حنفي، شربت القهوة وملأت رئتي بالهواء لأنه كان منعشاً أكثر هنا مما هو عليه في الجزء العلوي من المدينة.

في طريق عودتي التقيت بفقيه أعمى سألني عن طريق الجمالية فطلبت منه أن يتبعني لأدله عليها. والواقع أنه سمع أنه في مكان ما في هذه الناحية سيُقام الذكر هذه الليلة فأراد أن يحضره، ولكنه لم يكن يعرف البيت بالتحديد، ولم يعرف أحد هنا كيف يدله على الطريق، مما جعله يفكر في العودة من حيث جاء بعد أن قطع مسافة طويلة إلى هنا. بعد صلاة العشاء جاء عبد الخالق، وشقيقه عبد الكريم وسيد محمد الرصص الذي أمضى الأمسية كلها يعزف على العود. وكان يعزف على هذه الآلة بمهارة. عزفت لهم بنايي بشكل جيد، ولكنهم لم يفقهوا من عزفي شيئاً، على الرغم من أنني اخترت أسهل الألحان التي أعرفها.

وقد زاد مديحهم لي عندما عزفت على نايي مع اختلافات بسيطة في الألحان، مثل لحن تركي في حفل موسيقي أوروبي، لكن أكثر ما يحبونه هو ضبط الإيقاع. جلس أصدقائي مدة طويلة وحتى منتصف الليل. ومع مرور الوقت، بدأت أشعر بالملل. كان هنا شخص من مولدافيا يعمل في خدمة قيصر روسيا فانضم إلى المجموعة.

5/10

في الصباح مررت بالأزهر وتوجهت إلى الغورية وجلست هناك بعض الوقت عند الحسين، الذي بذل قصارى جهده ليجعلني أشتري منه طريدتين. وبعد منتصف اليوم خرجت مرة أخرى وجلست قليلاً عند عبد الخالق الذي جاء معي بعد ذلك إلى البيت لتناول وجبة خفيفة، وبعدها لقضاء قيلولة قصيرة. وفي غضون ذلك، جاء محمد الرصص بعد ظهر اليوم لمقابلتي، ولكنه انصرف عندما وجدني نائماً. وعندما لُمْت علياً لأنه لم يوقظني عندما جاء الرصص، أخبرني أن ذلك ليس من عادتهم هنا. كان الطقس حاراً وخانقاً جداً والجميع هنا يعاني بوجه خاص من الرياح الجنوبية الساخنة الحارة الخانقة. في المساء ذهبت إلى المدينة لأتمشى، ولكن الرياح الجنوبية كانت تثير الغبار، بحيث إن الجولة لم تكن لطيفة بوجه خاص. لذلك، سرعان ما عدت وجلست مدة من الوقت في متجر عبد الخالق مع محمد سعود. في غضون ذلك، أثار شخص مسلم كان في حالة سكر مشكلة في الشارع عندما سبه الجميع وصرخوا في وجهه. وعندما استمر في إثارة المشاكل في الشارع، أخذوه إلى مركز الشرطة بكثير من الجهد والمجهود الشاق لأن مقاومته كانت قوية.

ذهبت مع علي بعد منتصف النهار بقليل إلى الجيزة، وتمشينا عبر القاهرة القديمـة، وهي مكان جميل للغاية بحدائقه العديدة. حصلنا على قارب تجديـف صغير وعبرنا به نهر النيل. وكان علي خائفاً جداً، لأن القارب كان ضعيفـاً جـداً في نظـره. وكان يدعو اللـه طيلة وقـت العبور، وكان منظـره مثيراً للشـفقة. وكان المجذف رجلاً عجوزاً لطيفـاً جداً. توقفنا وسـط النيل عند جزيرة صغيرة من الرمال فذهبت لأسـبح هناك. كانت الميـاه ضحلـة ودافئة جـداً، ومع ذلك فإن السـباحة أنعشـتني. كنا عند «مقيـاس النيل»[1] بالضبط على مسـتوى العلامة المائيـة للنيل. وينوي الباشـا الآن تحويـل مقياس النيل إلـى مصنع للبارود أو إلى مسـتودع، فلا يسـمح لأحد بعد ذلك بدخوله. وبعد أن وصلنا إلى الجيزة، تجولنا هنـا وهناك في الحدائق والمـزارع، وهناك قنصت هُدْهُداً. ثم ذهبنا إلى المقهى، وجلسـنا ندخن إلى أن جاء الشـيخ مصطفى صديق علي ومعه رجل آخر. وهو عجوز لطيف جداً تحدثت معه عن الأهرامات.

قبـل وقت قصير من صلاة المغـرب، ذهبنا إلى منزل مصطفى الذي كان منزلاً جميلاً ومريحاً جداً. وقد بدأت الآن رياح الشـمال المنعشـة تهـب إلـى داخله. كنـا قد جلسـنا نتحدث مـدة من الوقـت حين وقف الشيخ مصطفى، الذي بدا مسلماً متديناً وورعاً جداً، وطلب منا أن نقيم صـلاة المغرب. لا يمكنني الآن تجنب الصلاة، لذلك صليت معه ومع علي، ثم صلينا صلاة العشـاء أيضاً في وقت لاحق. تناولنا وجبة عشـاء ثقيلة ولو أنني لم أكن جائعاً. لذلك شـعرت بعد العشـاء مباشرة بانتفاخ وضيق شديد. ذهبنا للنوم في غرفة كبيرة جميلة، كانت الرياح تهب في

(1) مقياس النيل يقع في الطرف الجنوبي لجزيرة الروضة بالقاهرة. كان يستخدم لقياس فيضان النيل وهو عبارة عن بناية يمكن دخولها والمشي داخلها لذلك فإن والين هنا يشرح الكيفية التي كان الباشا يريد بها استعمال مقياس النيل هذا.

الخـارج وإلـى الداخل. كنت نعسـاناً جداً، ولكن لـم تتركني البراغيث والبق بسلام في النصف الأول من الليل، وفي النصف الثاني عانيت من إسهال رهيب، الشيء الذي اضطرني للتردد على المرحاض باستمرار. فضـلاً عن أننـي كنت محمومـاً جداً، فكنت فـي حالة سـيئة للغاية إلى صبـاح اليوم التالي (5/12)، عندما اسـتيقظت في وقـت مبكر وأيقظت علياً كذلك. للأسـف الشـديد، كان علينا البقاء عند مصطفى المزيد من الوقـت لأكل الكعـك وشـرب القهوة. ولكنني لم أشـرب غيـر فنجان قهوة، ولحسن الحظ ليس من عادة الناس هنا أن يفرضوا عليك الأكل.

غادرنا بعد ذلك وجلسـنا على شـاطئ النيل ننتظـر الحمير التي كان علي قد أوصى بها بالأمس إلى هنا لتأخذنا إلى الأهرامات. ولكن وكما توقعـت لم يأت إلينا أحد. واضطررنا بعد ذلك لإرسـال رجل آخر إلى الجيـزة ليأتينـا بحمارين. كنت بائسـاً للغاية وكانت حالتي سـيئة للغاية مثـل حالة الصاحي مـن ثمالة عميقة. كنت أحس بطعـم كريه في فمي، وكنت أتجشـأ طيلة الوقت، إضافة إلى أنني كنت مُرهقاً ومحموماً على الرغم من أن الجو كان منعشـاً وبارداً جداً عندما كنا نسـتريح في قارب صغيـر وجميل جداً يملكـه أحد العاملين في «مقياس النيل». وبينما كنا جالسـين هناك، جاء صبي ربما يكون حارسـاً للقوارب أو شيئاً من هذا القبيل وبدأ يصرخ ويصيح فينا، وأراد أن يطردنا من المكان. ولكن علياً تحدث معه مطولاً، وتمازح معه كثيراً فوصلنا معه في النهاية إلى حل.

استغرق انتظارنا في المقهى مزيداً من الوقت، ثم جيء لنا بحمارين امتطيناهما وتوجهنا إلى الأهرام. كان طريقنا يشق وادي النيل حيث يتم الآن حصاد القمح والدرس بآلة تسـمى (النوراج)، التي تتحرك اعتماداً على تسع عجلات حديدية، وتمرر على أكوام القمح. كان ثمة عدد من القـرى المتناثرة هنا وهناك وقد زرعت على مشـارف معظمها أشـجار النخيل وأشـجار أخـرى. كانت الأهرامات تبدو صغيـرة ومتقاربة جداً

عنـد مغادرتنا للجيـزة وفي بداية طريقنا. ولكن المسـافة لم تنقص البتة أثنـاء ركوبنـا وإلى وصولنا الذي اسـتغرق سـاعتين تامتيـن. ولـم أدرك حجـم ضخامة هـذه المدرجات العملاقـة في الواقـع إلا عندما وصلنا إلى سـفح تلك التلـة الرملية التي تقف عليها الأهرامـات. عرض علينا عـدد مـن العـرب أن يوصلونـا ويرشـدونا إلى الهـرم الأكبـر المفتوح آنـذاك، فطلبـت منهم الانضمـام إلينا. صعدنـا إلى التلة الرملية نمشـي علـى الرمال الحمراء الجميلة. طاردتُ طائر الرهو وأطلقت النار عليه، لكننـي أطلقت العيار الناري من مسـافة بعيدة فلـم يصب. وصلنا أخيراً إلى باب ضيق صغير، واسـترحنا أمامه مدة من الوقت برفقة العشـرات مـن العـرب. وتقرأ فـي كل مكان هنا أسـماء الزوار الذين تـرددوا على هذا المكان على مر السـنين. وقد لاحظت أن أحدهـم كان هنا في العام 1500. ولكن الأسـماء العربية قليلة وأكثر الأسـماء هنا إنجليزية أو من الجنسيات الأوروبية الأخرى.

وبعد أن اسـترحنا قليلاً أشـعلنا المشـاعل، وزحفـتُ وراء اثنين من العرب في الممر الضيق المؤدي إلى الأسفل، وكل منا يحمل شعلة في يده. كنا نسـير إلى الأسفل حيناً وإلى الأعلى حيناً آخر، تارة في ممرات ضيقة، وتارة أخرى في غرف شاسعة يتردد فيها أحياناً صدى كل صوت بعمق وغرابة. ولكننا لـم نر أي شـيء يُذْكَر بخلاف حوض الاسـتحمام الكبير الذي رأيناه في إحدى الغرف. كان الهواء هنا رطباً وحاراً وخانقاً بطبيعـة الحـال، كمـا كان مـن الصعب السـير إلـى الأمام فـي الداخل. وبالإضافة إلى ذلك، فإنني كنت في حالة سيئة للغاية، ولذلك فإنني لم أتمكـن من الاسـتمتاع بهذه الزيارة. تحملت تواجـدي في الداخل ربع سـاعة ربما، أي فقط ما يكفي من الوقـت لأتمكن من القول إنني زرت أكبر وربما أقدم نصب تارخي في العالـم.

وبعـد خروجي، صعدت بعـض درجات الجـدار الخارجي للهرم.

ليس ثمة سلالم ولا درج ولكن تلك الصخور الضخمة التي يتكون منها الهـرم قد وضعت بحيـث تكون الحجرة العليا أعمق من الدنيا مشـكلة بذلـك جداراً مائلاً تعمل فيه هذه الصخـور عمل الدرج. صعدت ثلث ارتفاع الهرم تقريباً، ثم بدأت أشـعر بالدوار والضعف نوعاً ما. بل إنني كنت مرهقاً للغاية. جلسـت في مكانـي أتفرج على وادي النيل الجميل الممتـد علـى مـد البصـر، وعلـى قـراه وأشـجاره المتناثرة هنـا وهناك كالْجُـزُر، وأنظرُ إلى القاهـرة ومآذنها التي تحيط بهـا التلال الرملية من الجانبين. كانت تلك التلال عالية من جهة الشرق، حيث كانت تحجب عني الأفق، وتتواصل في الجهة الغربية على مد النظر مشَـكِّلة بحراً من الرمال، تبدو فيه التلال والمنحدرات كالأمواج، وتتموج فيه الأشـرطة الرمليـة كما فـي قاع المجـرى. وفي الجنـوب وفي حـدود الأفق تبدو أهرامات سـقارة من بعيد. نظرت إلى قمة الهـرم، ورأيت الطيور تحوم فوقه، فأحسسـت عندها فقط بدوخة شـديدة من شـدة علـوه، مما عزز الـرأي القائل بأنه لا يوجد في العالـم بأسـره مبنى أعلى من الأهرامات. تذكـرت بالضـرورة تلك الأمـم التي حلت وارتحلت قبلـي هنا، وتلك الأمـم التي بنـت هذه الأهرامـات. في الواقـع لا يمكـن أن تكون تلك الأمم أمماً بائسـة ولا كسـولة. هل كان الناس في عصرنا سيعتقدون أن مثل هذه المباني الرائعة تستحق أن تبنى؟ وهل كنا نحن سنملك القدرة علـى بنـاء مثلها؟ هل كنا سنسـتطيع جلب مثل هـذه الصخور الضخمة من مسـافات طويلة مثلما فعل بناة الأهرام؟ وهل كنا سنستطيع وضعها معـاً بهذه الدقة التي لا تزال واضحة في هذا الهرم؟ لكنَّ نفق لندن على الأقل يضاهي هذا النصب بحجمه الضخم.

بعدما جلسـت في الأعلى مدة أتمتع بمرأى عيني بقدر ما اسـتطعت وأنا على هذا الضعف وسـوء الحال، نزلت إلى الأسفل، تجولت قليلاً ثـم صعـدت إلـى أعلى الهـرم الصغيـر المتداعـي المجـاور للنظر إلى

محيطي. واصلت رحلتي لرؤية ما يسمى برأس الفرعون[1]، وهو عن صخرة ضخمة بحجم منزل كبير نحتت على شكل رأس، بما فيه من عينين وأذنين وأنف. كل ما رأيته من قبل بدا لي تافهاً وضئيل القيمة أمام ما رأيته هنا. وعندما هممت بالعودة، قررت أن آتي إلى هنا مرة أخرى قريباً إذا أمكنني ذلك، وأن آتي وحدي. نشب نقاش حاد حول أجرة الرجال، وتشاجر علي معهم بحدة.

غادرنا عند منتصف النهار في وهج الظهيرة عائدين من الطريق نفسه عبر الحقول المحصودة معظم الوقت، حيث تشققت الأرض من فرط الحرارة، وغرست فيها الذرة الآن في انتظار فيضان النيل. وبعد جمع محصول الذرة مباشرة يزرع القمح. كان سائق الحمار يحكي الكثير عن بناء الأهرامات، من قبيل أن فرعون أحضر الحجارة إلى هنا بطرقه السحرية، باستخدام صوته وحكمته فقط. لكنني لم أكن في حالة تسمح لي لا بالاستماع إليه، ولا بالقيام بأي شيء آخر. كنت مُجهَداً مرهقاً أحاول أن أسرع نحو المنزل قدر الإمكان. وصلنا إلى البيت وقت صلاة العصر، وبدأت أشعر ببعض التحسن. ولكن علياً مرض وأحس بصداع، وبقي يشتكي من ذلك طوال الليل. وفي المساء ذهبت لأتمشى قليلاً، وعندما حان وقت نومي، كنت قد تحسنت تماماً.

5/13

وفي الصباح جاء الشيخ إبراهيم لزيارة خاطفة. وبعد منتصف النهار بقليل، ذهبت عند كل من كولر وتيموفيف، فالتقيت هناك ببيرجوزين أيضاً. جلست هناك لبعض الوقت، ولم أستمتع برفقة تيموفيف الذي كان مزاجه سيئاً على ما يبدو. ثم ذهبت أقصد الحي الذي أسكن فيه وجلست في أحد متاجره، وهذا ما فعلته كذلك قبل وقت صلاة

(1) أبو الهول.

المغـرب بقليـل. وفي وقت لاحـق في المسـاء، ذهبت إلـى الأزبكية، جلست حتى وقت صلاة العشاء أشرب القهوة في متجر حنفي وأستمع إلى الموسـيقا العربيـة التي تعزف في المقهى المجـاور. ثم ذهبت عند برونيـري والتقيـت هناك بخمسـة مـن الألمـان آخرين. كانـت رفقتهم ممتعة إلى حد ما خاصة أنني لـم أعاشر إلا العرب الآن. يعجبني الألمان أكثر من الفرنسـيين. صاحبت ڤريدي إلى غاية باب بيته حتى أعرف أين يسكن، وعدت إلى البيت في وقت متأخر جداً.

5/14

جـاء الشـيخ إبراهيـم لزيارتـي منذ الصبـاح، وجلس معـي حتى وصل محمد في منتصف النهار لدرس فن الخط. ذهبت لنزهة في الغورية، ثم جلست في متاجر في الجمالية، ولا سيما عند أحد الصيادلة، الذي كان قد خدم مدة عشـر سـنوات طبيباً للباشـا في سـنار وضواحيها. ارتحت لهـذا الرجـل وتمتعت بوقتـي برفقته فـي صيدليته. وبينما كنت جالسـاً معه، جاء أحد الزبائن لشـراء دفعة كبيرة من الصابون، فنشـأ نقاش حاد بين المشتري والبائع، ولكنهما توصلا إلى اتفاق في النهاية.

جلسـت عند عبد الخالق مـع المجموعة المعتـادة، ثم تجولت بعد ذلـك هنا وهناك فـي الجمالية. وبعد تناول وجبة المسـاء، خرجت مرة أخرى إلى الأزبكية لأتمشى، والتقيت بشريف عجوز ألقى عليّ السلام بصـوت لطيـف وودي، ثم بدأ يتمشـى ويتحدث معي بحيث نشـأ بيننا نقـاش اسـتمر مسـافة طويلـة. كان لطيفاً للغايـة في نظـري. دعوته إلى مقهـى الأزبكية لكنه اعتـذر لمانع ما، ووعد أن يأتـي لرؤيتـي غـداً في بيتي. وعند افتراقنا، قبلنا بعضنا بعضاً على الكتفين، في جو من أحسـن مـا يكون. وعندمـا وصلت إلى الأزبكية، لم أذهب إلـى المقهى، وإنما سـرت عبر طرقات ملتوية إلى الجمالية. جلسـت حتى وقت متأخر من

الليل عند عبد الخالق مع شقيقه عبد الكريم الذي يبدو مسلماً محترماً جداً.

5/15

عندما كان الشيخ إبراهيم في بيتي هذا الصباح، طلب مني محمد الصغير أن أذهب معه لرؤية أخته المريضة، التي ترقد محمومة منذ ستة عشر يوماً. وعندما نزلت إلى الأسفل، كان والده هناك في انتظاري فذهبنا إلى بيتهم. لحسن الحظ كانت المريضة مستلقية على الأرض دون حجاب محاطة بعدد من النساء. كان من الواضح أن مرضها هو التهاب المعدة الذي يسمى هنا (نوشة). قلت لهم بأنني أنوي إعطاءها دواء ضرورياً أولاً. لكن إبراهيم أفندي كان يعتقد أن الدواء لن يفيدها على الإطلاق، وأنه مضيعة للمال فقط، واقترح استخدام العلق ولفافات الخردل. ومن اللافت للنظر حقاً هنا أن الناس غير مبالين ويخافون كثيراً من التكاليف، حتى لو كانت المسألة مسألة حياة أو موت. الجميع يستشيرون الطبيب للحصول على المشورة في أبسط الأمراض، ولكن لا يكاد أي أحد يعمل بالنصيحة.

عند الظهر، خرجت لقضاء بعض الوقت في المتاجر، وذهبت إلى شارع الموسكي للقاء ڤريدي، لكنه كان نائماً، ولذلك عدت إلى المنزل. ذهبت مع محمد آغا لنتمشى في الجمالية، وجلسنا في مقهى في النواحي التي يتجمع فيها رعاع القاهرة. التقيت بتيموفيف في الشارع فأخذته إلى منزلي لنجلس معاً مدة. وبعد أن تناولت عشائي في وقت صلاة المغرب خرجت مع علي، والتقيت بمحمد الرصص والشيخ محبوب في مقهى الزاوية. جلست معهم، وبدأ علي مرة أخرى، وللمرة الألف، يحكي بإفاضة واستطراد كعادته عن رحلتنا إلى الأهرامات، فيطيل في شرح أدنى تفاصيل الرحلة.

وقد قالوا عن الشيخ إبراهيم أيضاً أشياء غريبة كثيرة، مثل أنه لا يصلي إلا ركعتين في اليوم، وأنه تزوج جنية، وأنه كان صوفياً وأشياء أخرى كثيرة. وبينما كنت ماراً بمحاذاة متجر التبغ، قال لي حسن صاحب المتجر إنه سوف يأتي مع بعض الرجال الآخرين لزيارتي، ومن ثم طلب مني انتظار مجيئهم بعد صلاة العصر. وهكذا ذهبت إلى البيت، ولم يمض الكثير من الوقت حتى وصلت حاشية من تسعة أشخاص. بدأ حسن يغني ومحمد يعزف على العود. وفي ما عدا ذلك كان الجو في معظمه مملاً وباهتاً، ربما لأن المجموعة لم تكن منسجمة. وبعد مرور بعض الوقت، غادر بعض الناس فدبت الحياة في الآخرين قليلاً، خاصة عندما كانوا يتفرجون على أدوات الجراحة الخاصة بي. كما أننا قَتَلْنا عقرباً كان يزحف على الأرض. جلس الباقون إلى منتصف الليل تقريباً، وكانت تلك طريقتي في الاحتفال بيوم عيد اسم[1] شقيقتي، الذي كان اليوم.

5/16

جاء الشيخ إبراهيم لزيارتي، وناقشنا موضوعه المفضل: فساد مصر والشعب المصري. عند الظهر زرت سوق خان الخليلي لكنني لم أجد هناك أي شيء يذكر اليوم. وعند وصولي إلى البيت غفوت قليلاً، لأن الحر الشديد كان قد امتص كل طاقتي. ثم جاء محمد لزيارتي. سمعت منه أنهم لم يتبعوا العلاج الذي وصفته لشقيقته لأنها رفضت ذلك بشدة. وبينما نحن جالسان نكتب جاء بيرجوزي وكولر لتمضية بعض الوقت معي. قبل وقت قصير من صلاة المغرب، ذهبت مع علي خارج المدينة بعض الوقت إلى مسجد الشيخ الدمرداش الذي

(1) يوم عيد الاسم هو تقليد يحتفل به في كثير من البلدان في أوروبا وأمريكا اللاتينية. فلكل شخص يوم في السنة هو يوم عيد اسمه.

بني حول ضريح، والذي يتجمع فيه تلاميذ هذا الشيخ كل ليلة خميس احتفالاً بذكرى شيخهم. وكان الدمرداش نجل السلطان وشريفاً في عهد قايتباي[1]. وكان قد خرج مسافراً مع اثنين آخرين هما كولشان وشاهين، فوصل إلى ضواحي القاهرة. ألقى مماليك السلطان قايتباي القبض عليهم، وعرضوهم على السلطان ثم جندوهم. كان الثلاثة يصلون طوال الليل ويخدمون السلطان طوال النهار مما أثار تعجب هذا الأخير، فسأل الدمرداش باللغة التركية قائلاً: (سين دمير سين يا طاش؟)، أي «أأنت من حديد أم من حجر؟». ومنذ ذلك الوقت، أصبح اسمه الدمرداش، بمعني (حديد وحجر)، وكان اسمه الحقيقي محمد. وقد رضي السلطان عنهم كثير الرضى فأعطاهم كل ما يحتاجونه وتركهم بسلام.

في وقت لاحق ذهب السلطان إلى المدينة[2]، فعلم أن ثمانية مسيحيين كانوا يحبكون مؤامرة للنزول إلى قبر النبي محمد، لسرقة عظامه. أراد السلطان إرسال شخص ما لإلقاء نظرة على القبر للتحقق من أن أحداً لم يقربه، فسأل حاشيته عما إذا كان هناك أي شخص على استعداد لهذه المهمة. تطوع الدمرداش ولو أن السلطان اشترط عليه أن يقتله فور عودته من القبر. وبالفعل عمل الدمرداش بوصية النبي وبنى مسجداً يحمل اسمه لا يزال موجوداً إلى الآن، وهو على مسافة عشرين دقيقة من القاهرة سيراً على الأقدام في اتجاه الشمال. ويعتقد علي أن هذه الطريقة (التي ينتمي إليها هو نفسه) هي أفضل الطرق الصوفية الموجودة هنا. وقد حكى لي عن كرامات شيخه الكثيرة، وقال إنه رآه في المنام مرات عديدة. ولديهم بعض الكلمات السرية التي يرددونها باستعمال السبحة مئات المرات بين صلاة المغرب وصلاة العشاء،

(1) قايتباي المحمودي الأشرفي، سلطان الديار المصرية، من المماليك البرجية.
(2) يقصد المدينة المنورة.

وإذا كشف أحدهم سرها لمن لا ينتمي للطريقة، فإنه يموت في تلك الليلة.

وقد بُني خارج المدينة بالضبط ضريح عبْدِه الذي كان يخدمه ويقود الزوار إلى الشيخ. وصلْنا بعد صلاة المغرب بقليل، وجلسنا على السطح مع عدد كبير من الناس معظمهم من رواد الطريقة. ثم نزلنا إلى المسجد بعد ذلك، وتوضأنا وصلّينا صلاة المغرب، وصلينا صلاة العشاء بعدها مباشرة وراء الإمام بين عدد كبير من المصلين. ثم صعدنا إلى السطح مرة أخرى، وجلسنا مع أحد أصدقاء علي يسمى الشيخ سليمان في كوخه البسيط. أكلنا معه وشربنا القهوة والشاي. رحب بي كثيراً وقال إن حضوري بركة عظيمة لهم. وأخبروني أن من بين كرامات الدمرداش أن يأتي كل مساء جمعة زائر جديد لم تسبق له زيارة الشيخ من قبل للمشاركة في الاحتفال. وهذه الليلة كان ذلك الشخص هو أنا. وقد اتخذنا أرض السطح فراشاً، والسماء سقفاً، ونمت نوماً هانئاً في حين كان مرتادو الطريقة يحتفلون في المسجد طيلة الليل وحتى الصباح.

5/17

استيقظنا وقت أذان صلاة الصبح، شربنا القهوة، طردنا النوم عن عيوننا، ثم أقمنا صلاة الصبح فرادى وليس جماعة. ومع شروق الشمس، توجهنا إلى بيوتنا عبر الحقول المزروعة الرائعة التي ارتفع منها شذى عَطِرٌ الآن في الصباح الباكر. نمت معظم ساعات اليوم تعويضاً لليلة السهر الماضية. وبعد صلاة المغرب، ذهبت إلى الأزبكية لأتمشى، ولكن حرارة النهار الشديدة لم تنخفض لأن الرياح الشمالية لم تهب مطلقاً في فترة ما بعد الظهر. كان الجو في الشوارع عفناً خانقاً. وعندما كنت في طريقي إلى المنزل، جلست في متجر

حسن مع سعود وعبد الخالق إلى وقت متأخر جداً. دار الكثير من الكلام عن الشيخ إبراهيم الذي لقبوه بالنصراني والفرنسي، واليهودي، وما إلى ذلك من الشتائم. وقالوا بأنهم لم يروه قط يقيم الصلاة، أو يؤدي أي نوع من العبادات الأخرى. وشعرت وكأنهم يقترحون عليَّ تجنب رفقته.

5/18

في الصباح الباكر، جاء الشيخ علي لزيارتي أخيراً، وأخبرني بأن إحدى فتيات عائلته كانت مريضة، ولذلك لم يستطع المجيء مؤخراً. وقد ألقى علي الآن الدرس الأول عن البسملة بإطالة واستطراد كما هي عادة الشرقيين، فبلغ مني الملل مبلغه. في البداية قرأ الشهادتين، وبدأ الدرس بالبسملة والصلاة والسلام على النبي محمد. في وقت لاحق من صباح اليوم، ذهبت لرؤية ڤريدي، جلست وقتاً طويلاً معه، واستمعت إلى تجربته في رحلته إلى اليمن.

وبعد صلاة المغرب، ذهبت إلى الأزبكية، ولكنني التقيت في الطريق بمحمد الرصص الذي أخَّرني وقتاً طويلاً بحديثه عن أمور الدين وعن شتى ضروب الحكمة. وتابع حديثه عن ضرورة سير كل شيء وفقاً للأدب والعلم حتى المشي والأكل والشرب، وغير ذلك. يبدو أنه يعتبرني من الفرنجة، ولكنه لا يمانع من ترددي على المساجد، وادعاء كوني مسلماً هنا. ومع ذلك فإنه منافق إلى حد ما ومثير للاشمئزاز بنفاقه هذا. نادراً ما يشاهد المرء بساطة أو صراحة هنا. أتذكَّر الإسكندرية، وأتوق إليها وإلى الأصدقاء الحميمين الذين رافقتهم هناك، رغم أنني كنت إفرنجياً عَلناً. وبعدما دردشنا مدة نصف ساعة كاملة تخلصت منه، وذهبت إلى الأزبكية للجلوس في مقهى حنفي. ولكنني عدت إلى الجمالية سريعاً ووجدت جميع

المحلات التجارية مغلقة. ولذلك، جلست مدة من الوقت أمام بوابة عمارتنا الكبيرة أتنفس بعض الهواء النقي.

5/19

بعد صلاة المغرب، جلستُ مدة عند عبد الخالق وسمعت أن حَسَن أطلق الكلاب على الشيخ إبراهيم. وقد قيل لي بأن حسن ليس الوحيد الذي يفعل ذلك، وبأن على سكان الجمالية جميعاً أن يكرهوا إبراهيم.

5/21

بعد درس الصباح، وبعد وجبة إفطار خفيفة، ذهبت مع الشيخين علي وإبراهيم إلى شارع الموسكي للتحدث مع بالمين، ومن ثم مع كولر في مكتب القنصلية. وعندما كنت عائداً، التقيت مرة أخرى بالشيخ علي، فذهبنا إلى بيته وجلسنا عند البوابة نتكلم عن الأدب العربي. وهو يبدو سعيداً وبسيطاً كمن لم تُفسده السياسة، ولم يكتسب تعالي العلماء الذي جرت به العادة بين الدارسين من الشرقيين، وخاصة في مجالي الفقه والنحو. وعند الظهر، رفضتُ طلبه بالبقاء لقضاء الليلة في شقته، وذهبت إلى التلال الرملية في نزهة على الأقدام في أرجاء باب النصر. وجلست هناك تحت أشعة الشمس حتى أتعود على الحر. ثم جلست في المتاجر القريبة، وقضيت وقتاً أطول عند عطار أفندي. وبعد صلاة المغرب، تجولت في الأزبكية حيث هبت هذه الليلة في بساتينها رياح شمالية رائعة. وعند عودتي إلى البيت جلست وقتاً طويلاً أمام البوابة الخارجية أستمتع بالهواء النقي.

5/22

بعـد درس علـي ذهبت إلى الأزبكية لأتمشـى، تجولـت هنا وهناك لكنني شـعرت بالملـل، ولم أعرف ما الذي يمكنني أن أفعله. جلسـت في النهاية في ناحية مسجد الحسنين في متجر أحد الخياطين. وللأسف الشديد التقيت هناك ببواب «نزل جعفر» الذي حياني وقال «يا خواجة». نظـرت إليه نظرة غاضبة وتظاهرت وكأنني لـم أفهم أنه يعنيني بالتحية. وسـرعان مـا ذهـب البـواب، ولكن سـنرى مـا إذا كان لتحيتـه تلك أية عواقـب. بعد الغروب جلسـت مدة من الوقت فـي مقهى حنفي، وأمام بوابة بيتي بعض الوقت.

5/23

ذهبـت أتجول في الصباح وزرت سـوق خـان الخليلي زيـارة خاطفة. وبعد ظهر اليوم مباشرة، هبت عاصفة رملية رهيبة ملأت الغرفة بالغبار، ومنعتنـي مـن التنفـس تقريبـاً في الداخـل وفي الخـارج على السـواء. خرجت من باب النصر وابتعدتُ عنه مسـافة قصيرة إلى خارج المدينة، ولكنني سـرعان ما قفلت راجعـاً. ذلك أن الغيـوم الغبارية ملأت الجو بالضباب وكانت حُبيبات الرمل الدقيقة تكنس الأرض ثم تتطاير بحيث كنت أشـعر بها تجلد سـاقيَّ العاريتين. وفي طريقي إلى البيت، جلست فـي مقهى مصطفى. وعندما عدت إلى المنزل، سـقط مطر خفيف. في المساء جلسـت في الأزبكية أتنفس بعض نسيم الرياح الشمالية العليل التي كانت تهب بين الحين والآخر.

5/25

بعـد نهايـة الـدرس ذهبت عنـد بوكتي لأسـحب بعض المـال. التقيت بالشـيخ علي في طريقـي إلى البيت وذهبت معه إلـى بيته وتناولت معه

وجبـة الفطور، وأمضيت الصباح كله هناك. تلقيت رسـالة من والدتي، وأخـرى من غيتلين فأمضيت لذلـك بقية اليوم أفكر في البيت والوطن. وفي المساء ذهبت إلى الأزبكية لأتمشى تحت ضوء القمر الرائع. وبعد ذلك، جلست عند عبد الخالق ومجموعة صغيرة من الناس.

5/27

أمضيـت صبـاح اليوم كله بيـن درس علـي، وفواتير الشـيخ حمد. بعد ذلـك، خرجـت فالتقيـت مع أخ الشـيخ الشـعراوي، وذهبـت معه إلى الحدائق العامة، وتجولنا هناك حتى صلاة العصر. وبعد صلاة المغرب خرجت إلى الأزبكية لنزهة تحت ضوء القمر البديع. ومن هناك ذهبت عند تيموفيف واسـتمعت إلى درسـه مع الشـيخ الدسوقي. لسوء الحظ كان مزاج الدسـوقي سـيئاً جداً اليوم. ولذلك شعرت بملل شديد جداً، وباضطـراب وعـدم راحة. وعدت مع الدسـوقي إلى المنـزل في وقت متأخر جداً.

5/28

خرجت ظهراً، والتقيت مرة أخرى بالشـيخ عيسـى شـقيق الشـعراوي، وذهبنـا للتجـول فـي الحدائق، وجلسـنا هنـاك حتى صـلاة العصر. ثم جلسـت أنا في المتاجر، وأمضيت معظم الوقت عند عبد الخالق حيث انصرم المسـاء كله في الاسـتماع إلى قصص عن الشـيخ إبراهيم. وقد قالوا عنه أنه صوفي يغتسل بالحليب، وأن له طرقه الخاصة في الصلاة. في المساء وبينما كنت أتحدث مع علي، طُرح موضوع الزواج: أراد في وقـت من الأوقات أن يزوجني ابنته، وطلب مني قبل الذهاب إلى النوم أن أتوضـأ وأصلـي حتـى أرى في المنام مـا إذا كان هذا الـزواج قدري أم لا. أو ربمـا يجـب أن أذهب لقضاء ليلة في مسـجد سـيدنا الحسـين

لانتظار رؤيا في المنام. كما أخبرني أنه هو نفسه قد فعل ذلك، وأنه رأى في المنام سيدنا الحسين، حفيد النبي محمد هناك، وأن وجهه كان مستنيراً كالبدر الكامل، وأن لحيته كانت بيضاء كالفضة.

5/29

ذهبت صباح اليوم لزيارة ڤريدي، وبعد ظهر اليوم جاء تيموفيف لرؤيتي. في المساء، ذهبت إلى الأزبكية للتنزه مع (سيد علي)، وجلست مدة طويلة عند حنفي. وفي الطريق إلى البيت توقفنا عند بيت فيه حفل زفاف، لنستمع لغناء مغنية، ولكن المغني كان صبياً فاستدرنا راجعين على الفور وذهبنا لتناول الشاي في البيت.

5/30

بعد نهاية الدرس، ذهبت إلى التلة الرملية لأتمشى، وبعد ذلك ذهبت إلى الحدائق لأتفرج على ما يجري هناك من فجور. وبعد منتصف اليوم جلست عند الشيخ علي حتى صلاة المغرب، وكان هناك شيخ آخر أيضاً. ذهب علي إلى مسجد الدمرداش، لكنني بقيت في البيت حتى حلول المساء، وعندها ذهبت إلى الأزبكية لأتمشى. وبعد عودتي إلى بيتي، جلست أمام البناية بعض الوقت.

5/31

في الصباح خرجت والتقيت بالشيخ علي جالساً يتحدث مع صيدلي الحي. جلسنا معاً هناك مدة من الوقت، ثم ذهبت إلى منزل علي. ذهبت بعد ذلك لأزور تيموفيف ومكثتُ هناك حتى الظهر. وبعد عودتي إلى البيت جاء سيد علي مع صعيدي ينتمي إلى الطريقة السعدية ومعه أكياس فيها مختلف أنواع السحالي والثعابين، إضافة إلى العقارب التي

يحتفظ بها في علب قصدير صغيرة. ثم ما فتئ أن أطلقها وسمح لها بالمشي على ذراعيه، دون أن تلحق به أي ضرر. أما أنا فخفت منها قليلاً.

قبل وقت قصير من صلاة المغرب، جاء الشيخ علي لزيارتي، وذهبنا نحن الثلاثة إلى مسجد الإمام الشافعي، ثم إلى مسجد الإمام الليثي، وقمنا بالزيارة وقضينا الليلة هناك. كان ثمة (مَقْرَأ[1]) فقط في المسجد الأول، أي أنهم قرؤوا ثمة قدراً قصيراً من القرآن، وفي المسجد الثاني أُقيم الذكر، لكن النوم داهمني أثناء الاستماع إلى الذكر. ولهذا السبب خرجنا وجلسنا على مقعد نأكل البطيخ تحت ضوء القمر اللطيف الرائع. ثم جلسنا في مقهى على جانب الطريق مدة. وبعد ذلك مكثنا في مسجد الإمام الشافعي، حيث تناولنا العشاء المتكون من الجبن والخبز وذهبنا للنوم. ولكنني لم أجد للنوم سبيلاً، ولا للراحة طريقاً بسبب البراغيث والبق. لذلك أفقت صباح اليوم التالي (فاتح يونيو) وأنا نعسان ومتعب جداً، اغتسلت من صهريج المسجد وأديت صلاة الصبح.

عدنا إلى البيت في وقت مبكر هذا الصباح وقبل شروق الشمس وبدأنا الدرس. ثم نويت الذهاب إلى النوم، ولكنني لم أستطع، فخرجت للقاء لاين، غير أنني لم أجده في منزله. عدت عند الظهر، وجاء الفقيه عيسى ليجلس معي مدة من الوقت. غفوت بعد ذلك، ولم أصح إلا وقت صلاة المغرب عندما أيقظني سيد علي.

في المساء تجولت مع علي في الأزبكية، وعندما عدنا اشتريت من أحد المتاجر القليل من الحشيش وأكلت قطعة منه. ذهبنا عند إبراهيم أفندي لأن اليوم جنازة زوجته. كان في الجنازة الكثير من الناس الذين

---

(1) والين يسمي أمسية قراءة القرآن 'مَقْرَأ'. لم أعثر على هذه الكلمة في أية مصادر أخرى ولكنني أدرجتها كما جاءت في مصطلحات والين.

كانوا جالسين يستمعون إلى تلاوة القرآن. منهم من كانوا يجلسون على مقاعد خارج البيت، ومنهم من كانوا جالسين على السجاد المفروش في الشارع. كنت متعباً ونعساناً، لذا لم أبق هناك مدة طويلة. ذهبت للنوم فور عودتي إلى البيت لأنني كنت ميتاً من التعب، وكذلك لأنني كنت أشعر بالدوار نوعاً ما بسبب التعب من جهة، وربما بسبب الحشيش من جهة أخرى، ولو أنه لم يكن مخدراً فعلاً.

2/6

في الصباح جاء صياد الأفاعي عيسى مع علي، وجلب معه سحالي وعقارب. بدأ يلاعبها ويتعامل معها بمهارة دون أن تلحق به أي أذى. ذهبت لإحضار العرق[1] ووضعت تلك المخلوقات فيه بعد أن شرب منه علي بضع جرعات. بقي علي جالساً معي مدة طويلة في انتظار سيد علي ولكنه لم يأت. خرجت قبل صلاة الظهر للجلوس عند محمد الصيدلي في انتظار الشيخ علي. وقد جاء بعد وقت قصير وألقى درسه على الصيدلي، وعلى شخص يدعى عبد الله وعليَّ أنا. بعد نهاية الدرس ذهبت إلى بيت علي، وتناولت العشاء وجلست هناك إلى ما بعد صلاة المغرب. وبعد ذلك ذهبت إلى البيت لشرب الشاي مع عبد الخالق ومحمد سعود. ثم أخذت خادمي علياً وذهبت إلى بيت العرس حيث كانت وسيلة ستغني اليوم. وقفت أستمع لغناء تلك المرأة في الحديقة، لكنها، وطول الوقت الذي استمعت فيه إليها، لم تغن إلا لحناً بسيطاً ورتيباً واحداً، باستمرار وعلى المنوال نفسه تقريباً. وكانت صيحات الإعجاب الصاخبة ترتفع من الجمهور الغفير.

---

(1) مشروب كحولي.

6/4

مـر صبـاح اليـوم كالمعتـاد. وبعد منتصـف النهـار ذهبت عند الشـيخ محمـد وجلسـت هناك إلى مـا بعد صلاة العصر حين جاء الشـيخ علي إلـى متجره لإلقاء درسـه اليومي علـى تلميذيه الاثنين وعلـيًّ. وعندما غـادرت المتجر متجهاً إلى البيت قبل وقـت قصير من صلاة المغرب، جاء (سـيد) ابـن علي، وقال لـي إن الشـرطة ألقت القبـض على والده واقتادتـه إلى المخفـر. تبعت الولد إلى هناك، وقيل لي إن علياً كان يبيع فـي متجره، فأعطاه أحدهم خمس بياسـترات مزيفـة، وعندما أراد علي أن يعيدهـا له، رفض قبولهـا واتهمه بتزييف النقود. وقد قضى عليّ ليلة في المخفر. قضيت المسـاء عند كولر، وذهبت معه ومع تيموفيف إلى الأزبكية لنتمشى قليلاً. كان الجو حاراً ورطباً وغير صحي كما يقولون.

6/5

كان همي الوحيد هذا الصباح هو إخراج علي من مركز الشرطة. لذلك خرجت في وقت مبكر، منذ شروق الشمس. ذهبت إلى الأزبكية لأتمتع بالصبـاح الجميـل، وبتلك الرائحة التي تفوح من أشـجار الأكاسـيا[1]. اضطـررت لزيارة مكتب السـفارة عدة مرات قبـل أن ألتقي أخيراً بأمين آغـا. وعندما وجدته أخيراً، ذهبنا معاً عند ثابتباي، حيث سـأل القاضي أميـن مـرات عديدة عما إذا كنت مسـلماً أم لا. لكن أمين كان يراوغ في الإجابة في كل مرة. وأخيراً تم استدعاء علي وذلك الرجل الذي أعطاه الخمسـة بياسـترات. وحدث أن أطلق سـراح علي وحكـم على الثاني بإرسـاله إلى سـجن القلعة، وذلك بعد أن ضربوه على أم رأسه ضربات مبرحـة هنـا أولاً. وهكـذا بعدما تم حل مشـكلة علي وإطلاق سـراحه توجهنـا نحو البيت، ولكننا عرجنا أولاً على الشـيخ علي الذي صاحبنا

---

(1) تسمى أشجار الأَكاسيا أو الطَلْح أو السَنْط.

إلى البيت وألقى علي الدرس.

قبل وقت قصير من صلاة العصر، ذهبت عند الشيخ محمد، ووجدت الشيخ علياً هناك فجاء أخيراً إلى المتجر لإلقاء الدرس. وذهبت في وقت صلاة العشاء مع علي إلى بيت العرس للاستماع إلى الحفلة. لكنني شعرت بالملل هناك، ولذلك غادرت المكان بعد وقت قصير. وكان الحضور هناك غفيراً ملأ ساحة كبيرة بكاملها.

6/6

عند الظهر، التقيت بالشيخ عيسى وفقيهٍ آخر، وذهبت معهما إلى الحديقة. طلبنا بوظة وشربناها. هذا المشروب قبيح المنظر للغاية، فهو خاثر ذو لون رمادي فاتح يشبه حساء الشوفان الخاثر. كما أن مذاقه كذلك كان قبيحاً وحامضاً. لم أتمكن من أن أشرب منه إلا نصف كوب صغير. أما ما تبقى، فقد أفرغه الشيخان في جوفيهما عن طيب خاطر وفسرا وعللا عدم كون هذا المشروب المسكر حراماً. بدا الشيخ محمد سكراناً، وكان كلاهما مرحين وجامحين قليلاً. حاولا إقناعي بأن أشرب قليلاً، لكنني لم أستطع أن أبتلع ذلك المشروب الخاثر المثير للتقزز. وصلنا إلى المنزل بعد صلاة الظهر. وفي المساء ذهب سيد علي إلى مسجد الدمرداش ودعاني للذهاب معه، لكنني بقيت في المنزل وذهبت إلى الأزبكية بعد صلاة المغرب في نزهة طويلة. في الطريق إلى البيت، توقفت عند بيت العرس، واستمعت لبعض الوقت إلى (سكينة)، أشهر مغنية في القاهرة حالياً. وقد أعجبني غناؤها حقاً أكثر من أي شخص آخر سمعته حتى الآن. ولكنني اضطررت للذهاب عندما لم أجد لنفسي مكاناً بين الحشود الكبيرة التي تملأ الساحة، وتوجهت إلى المنزل بعد وقت قصير.

6/7

غـادرت فـي وقـت مبكـر، وذهبـت إلـى قبـر زوجـة إبراهيـم أفندي، وجلسـت هنـاك بعـض الوقت مع سـيد علـي وبعض الوجهـاء العرب للاسـتماع إلـى القرآن. ثم عدنا إلـى البيت حيث وجدنـا علي الحاوي فـي انتظارنا مع العديد مـن العقارب وغيرها مـن المخلوقات. ثم جاء أميـن آغا يدعوني إلـى مكتب القنصلية، وهناك علمت أن شبيتسـناجل كان قد ترك لي رسـالة مع كولر مفادها بأنني سـأحصل على صك مالي من بونسـدورف. ذهبـت عند تيموفيـف، وقضيت بعـض الوقت هناك فـي فترة ما بعـد الظهر، ثم ذهبت معـه عند إبراهيم الدسـوقي الذي لم يـزل على مزاجـه السـيئ، ولذلك فـإن الزيارة كانـت مملـة للغاية. ثم ذهبنـا لرؤية مصطفى أخ محمـد عياد[1]، لكنه لم يكن في المنزل. ذهبنا بعـد ذلـك إلى بيتي، وجلسـنا هناك بعـض الوقت إلى أن مـر بنا موكب عـرس عبد اللهب فذهبنا لنتفرج. كان موكبـاً كبيراً وفاخراً، وكان يضم راقصيـن اثنين، وثلاثة أو أربعة أطفال مختنين، إضافة إلى مجموعة من المقاتلين بالعصي، وعارضين آخرين. كما كان الموكب يعزف موسيقا عسـكرية وأخرى شعبية. وبعد العشـاء ذهبنا إلى الأزبكية للجلوس في متجر حنفي. عدت إلى منزلي بعد صلاة العشـاء، وشربت الشاي بينما كان سـيد علي يملـي علي مختلف أنواع الأدعية التـي تفيد في حالات مختلفة.

6/8

بعـد الدرس كان عليَّ القيام بمهمة مقرفة وهي رمي السـحالي المتعفنة بعيداً، وغسـل البقيـة ووضعها في محاليل كحوليـة جديدة. وبعد ذلك ذهبنـا إلى الحمام. بعد صلاة العصر ذهبت إلى متجر الصيدلي محمد،

(1) يقصد أخ الطنطاوي، أستاذه في سان بيترسبورغ.

حيث كان الشيخ علي قد انتهى لتوه من الدرس. وقد جلسوا الآن يدردشون مع شخص رابع، فبقيت جالساً معهم حتى صلاة المغرب تقريباً. خرجت بعد أن تناولت وجبة العشاء، والتقيت في الطريق بالشيخ علي الذي كان جالساً عند باب بيت الضيافة أي في الجهة المقابلة لمنزله. وقد جاء معي إلى الأزبكية حيث جلسنا في متجر حنفي نملأ رئتينا برائحة أشجار الأكاسيا الطيبة. وقد قص علي قصص السيد أحمد البدوي الذي كان سلطان جزيرة العرب كلها، وكان صاحب كرامات حسب قوله. بعد لحظات من صلاة العشاء عدت إلى البيت وذهبت للنوم.

6/9

خرجت في الصباح حتى ينتهي سيد علي من تنظيف البيت وتنظيمه. تمشيت مسافة طويلة معظمها خارج المدينة، ومررت بخمسة من أبواب المدينة. عدت إلى البيت قبل الظهر بقليل، وكنت متعباً جداً من هذه النزهة الطويلة فنمت حتى صلاة العصر. بعد صلاة المغرب، ذهبت مرة أخرى لنزهة طويلة في الأزبكية وفي غيرها من أحياء المدينة. كنت حزيناً معظم الوقت لأنني أحن للبيت وللوطن ولصيف الشمال الرائع.

6/10

بعد درس الصباح ذهبت عند ڤريدي وجلست هناك حتى منتصف النهار تقريباً، وشربت جرعة صغيرة من النبيذ البرتغالي الذي لم أذقه منذ وصولي إلى مصر. كما التقيت هناك بربان ألماني توجد سفينته في السويس الآن. وبعد صلاة العصر، ذهبت إلى متجر الصيدلي الشيخ محمد للاستماع إلى درس الشيخ علي، ثم ذهبت معه من هناك إلى بيته، حيث تناولنا عشاء لذيذاً جداً. وبعد أن أدينا صلاة المغرب وصلاة

العشـاء كذلـك في منزلـه، ذهبنا إلى مسـجد الغمري القريـب من بيته، حيث كان (الْمَقرأ) الليلة، ككل ليلة إثنين. كانت هناك مجموعة صغيرة مـن الرجـال يقرؤون ربـع القرآن (على مـا أظـن). كان كل واحد منهم يقرأ جزءاً وكان (شيخ الْمَقرأ) يصحح أخطاء التلاوة. كان معظم القراء سـيئي التـلاوة، وخصوصاً شـيخي الصيدلي محمد. جلسـنا مجموعة صغيـرة في سـاحة المسـجد المفتوحة المربعة الشـكل التي لا سـقف لهـا والمحاطـة بالأروقـة مـن جميـع الأطراف، نسـتمع إلـى القصص والحكايـات التي رواها بعض أفراد المجموعـة. أما أنا فقضيت معظم الوقت أنظر إلى كوكبة الدب الأكبر، التي أشـرقت بهيةً في السماء فوق رؤوسنا مباشرة.

6/11

بعد درسـي، جاء الشـيخ إبراهيـم لرؤيتي بعد غياب طويـل. ولكنه كان ممـلاً جـداً، فقد جلـس معظم الوقـت ينظر إلى نفسـه في المـرآة التي طلب مني أن أحضرها. وبعد منتصف النهار، ذهبت إلى خارج المدينة لأتنفس هواء الصحراء المنعش. جلسـت وقتاً طويلاً على التلة الرملية القريبـة مـن باب النصر. وقبـل صلاة العصر، ذهبت إلـى ڤريدي بعض الوقت، وقرأ لي مقدمة كتابه عن رحلاته، الذي هو بصدد وضع لمساته الأخيـرة عليـه الآن. ذهبت معه للقاء صهره، وهو عالم طبيعة. لم نجده في المنزل، ولكن والدته، وهي ألمانية أو إيطالية سمينة وبغيضة، أرتني مجموعة من المسـتحضرات الخاصة بابنها. من هناك ذهبنا سريعاً إلى بيت (كلوت بيه[1]) حيث يعمل صهر ڤريدي. لكنه لم يظهر هناك أيضاً.

---

(1) أنطوان كلوت المشهور بكلوت بيك أو كلوت بيه. طبيب فرنسي عاش فترات طويلة من حياته في مصر بعد ما طلب منه محمد علي باشا تنظيم الإدارة الصحية للجيش المصرى فأصبح رئيس أطباء الجيش المصري.

نظرت هناك إلى جميع أنواع العينات والمستحضرات. كانت هناك هياكل عظمية بشرية عادية، وكذا غير ذلك من أعمال تحضيرية تستعمل في علم التشريح المقارن. وكان هناك رجل إيطالي صغير يعمل على تمثال من الجص لكلوت بيه بزَيِّهِ وما يليه، وكان يعمل حينها على تشكيل الشارات التي تزين صدر البيه. في المساء غضبت غضباً شديداً من سيد علي، لدرجة أنني ذهبت لتناول طعامي خارج البيت ولم أنتظر حتى يحضره لي هو. وقد قضى الليلة كلها خارج البيت بعد أن انتظرني عند عبد الخالق عبثاً عندما كنت أتجول في الأزبكية، واشتكى مني لعبد الخالق، ثم طلب منه، على الطريقة المحلية، أن يتدخل لحل نزاعنا.

6/12

عند الظهر ذهبت عند ڤريدي فالتقيت هناك ألمانيين اثنين آخرين. وبعد قليل من الانتظار جاء صهره كذلك، وتحدثت معه عن مجموعة علم التشريح التي ينبغي أن أجمعها لجامعتنا، والتي ينبغي أن تتضمن حيوانات ومستحضرات. قبل وقت قصير من صلاة العصر، ذهبت إلى المتاجر القريبة واستمعت هناك لحكايات غريبة رواها لنا محمد صالح عن الناس الممسوسين الذين تسكنهم الأرواح الشريرة. على سبيل المثال كانت خالته ممسوسة يتلبسها عفريت. وقد استدعي أشهر الفقهاء آنذاك لقراءة القرآن ومختلف التعاويذ عليها، إلا أن الجني رد بأن عليهم أن يتوقفوا، لأنه لا ينوي مغادرة المرأة إلا بعد أن يقتلها. ولكن هذا الجني كان يعامل محمداً بالخصوص دون غيره معاملة حسنة. تحدث الجني مرة من فم المرأة بصوت أنثوي، وطلب من محمد، على سبيل المثال، إحضار طبقٍ من دولاب فارغ تماماً. وعندما ذهب محمد بعد ذلك لفتح باب الخزانة المغلق، وجد صحناً مليئاً بالحلوى أو الفاكهة رغم أن الفصل لم يكن فصل فاكهة. ومرة

أعطاه الجني لحماً أو مالاً يقدر باثني عشر أو عشرين بياستراً أو أشياء من هذا القبيل. ولم يقنع الجني بأن يتلبس الخالة وحده، بل إن أقاربه كأخيه وأخته أيضاً اتخذوا من الخالة مستقراً لهم، وكان كل واحد منهم يتكلم من فمها ولكن بصوته الخاص. وكانت عائلة الجن هذه تقول بأنها من الفرنجة. وكان أحد الملبوسين يتحدث عندما يتلبسه الجني بلغةٍ فرنسيةٍ سلسةٍ وخاليةٍ من العيوب؛ من الغريب أن ترى أن هؤلاء الناس أنفسهم يؤمنون بهذه القصص التي يروونها مهما كانت منافية للعقل، ولا سيما أن محمد صالح يبدو إنساناً مسلماً مستنيراً أكثر من الناس العاديين، وقد قال إن كل ما رواه خبره بنفسه وشاهده بأم عينيه.

بعد صلاة العصر ذهبت إلى درس النحو المنعقد في متجر الصيدلي الشيخ محمد للاستماع لدرس الشيخ علي وللتحدث مع الآخرين. وبعد صلاة المغرب خرجت للجلوس في متجر عبد الخالق، ثم ذهبت إلى الأزبكية. وفي الطريق قابلت الشيخ علي الذي رافقني إلى هناك. جلسنا هناك مع سيد علي الذي جاء هو الآخر إلى هناك قصد الدردشة بعض الوقت، وبعد ذلك ذهب إلى بيته.

6/13

في الصباح خرجت أتجول في الحي اليهودي حيث رأيت الكثير من النساء اليهوديات ذوات الجمال الفتان. ثم ذهبت لرؤية تيموفيف وكولر، وجلست معهم حتى وقت صلاة الظهر تقريباً. وعندها ذهبت مع تيموفيف لرؤية الدكتور برونيري الذي كنت أريد أن أقدم له النصح بشأن مستحضرات علم التشريح. جلسنا هناك مدة ربع ساعة فقط على ما أعتقد. عدت إلى المنزل، وذهبت وقت صلاة المغرب مع سيد علي إلى مسجد الدمرداش وقضينا الليلة هناك، لكني شعرت هناك بملل شديد.

6/14

ذهبت صباح اليوم للقاء الشيخ علي، وقضيت بعض الوقت أقرأ في منزله. تجولت في الأزبكية وقت صلاة الظهر، جلست في مقهى ودخنت. ثم ذهبت إلى البيت ونمت حتى صلاة العصر، عندها أيقظني صياد الأفاعي علي وتيموفيف. كان هذا الأخير قد أحضر لي صكاً مالياً، والأول أحضر لي ثعبانين كبيرين أحدث بهما هرجاً ومرجاً هنا، إضافة إلى بعض السحالي. بقي تيموفيف عندي طوال فترة ما بعد الظهر وتعشى معي، ثم خرجنا مع سيد علي أولاً إلى المقهى للاستماع لأحد الشعراء، وبعد ذلك لجولة هنا وهناك، ثم عدنا في وقت متأخر جداً.

6/15

جاء صياد الأفاعي في الصباح الباكر لزيارتي. خرجت وبذلت الجهد الكثير في لقاءين: الأول مع صانع المستحضرات يوسف والثاني مع بالمي، وهكذا أنفقت الصباح كله معهما، إضافة إلى تحضير شهادة وكالة تخول لصاحبها سحب الموارد المادية. في وقت لاحق جلست في المنزل، وانتظرت علياً لكنه لم يأت طيلة اليوم مما أثار غضبي الشديد.

بعد صلاة العصر، سحبت وأودعت بعض المال عند بوكتي. كما أنني زرت برونيري وأريته المسحضرات التي كنت قد أحضرتها معي من عند يوسف كعينات. وقد أعجبته كثيراً، كما أن السعر الذي طلبه يوسف مني كان في نظره مناسباً كذلك. يبدو لي أن برونيري يدَّعي أنه اكتسب العادات الشرقية أو بالأحرى العادات التركية. استمعت بعد ذلك لدرس علي، ثم قضيت معه بعض الوقت في منزله. بعد صلاة المغرب خرجت برفقة الشيخ علي إلى الأزبكية للجلوس في شارع

الحدائق في متجر حنفي. وأخيراً وجدت في الشيخ علي الرجل الذي يمكنني حقاً الشعور بالارتياح معه.

6/16

جاء صياد الأفاعي مرة أخرى لزيارتي ولإحضار ثعبان شرس جداً رغم صغر حجمه. وفي وقت سابق هذا الصباح، كانت امرأة قد جاءت لزيارتي حيث إنها كانت قد ذهبت قبل بضعة أيام عند الحلاق ليخلع لها سناً مريضة، إلا أن صاحبنا خلع السن السليمة المجاورة بدل المريضة. وكان فك هذ المرأة منتفخاً الآن، كما كانت تشعر بألم شديد في مفصل فكها. كما زارني شيخ كنت قد تعرفت عليه في مسجد الدمرداش، وقد جاء الآن ليبيع لي بعض الكتب. وبينما هو لا يزال جالساً في بيتي جاء عبد الخالق، ثم جاء بعد ذلك محمد أفندي، الذي كان قد تعافى من مرضه الآن. أكلنا معاً وجبة فطور خفيفة. ثم ذهبت لرؤية يوسف، لكنه لم يكن في المنزل.

بعد صلاة العصر درست فن الخط، استمعت للشيخ علي، وبعد الدرس جلست معه في بيته. بعد صلاة المغرب ذهبت إلى الأزبكية في نزهة طويلة. بعد وصولي إلى المنزل، جلست بعض الوقت أمام البوابة الخارجية برفقة «أبي خود» الذي عزف لي على زمارته. و«أبو خود» هذا مثل جميع زملائه في الفن، يعشق آلته الموسيقية رغم صغرها ويعشق العزف عليها كذلك.

6/17

استعجلت لقاء يوسف الذي طلبت منه تشكيلةً من أسماك النيل بسعر عشرة بياسترات للسمكة الواحدة. اشتريت علباً زجاجية صغيرة لأضع فيها المستحضرات التي سأعدها بنفسي. وبعد منتصف النهار درست

فـن الخط العربي. وبعد صلاة العصر، ذهبت إلى الشيخ علي وأخذته معـي هو وسـيد علي، وذهبنـا إلى بلاق. أخذنـا قارباً من هنـاك وعبرنا النهر إلى الشـاطئ المقابل. سـعدت كثيراً للإبحار بالقارب مرة أخرى ولـو بقارب صغير، حتـى وإن كان هذا نهراً وليس بحـراً. كما كان معنا فـي القارب نفسـه ثلاث نسـاء حواجبهن مـن أرق ما رأيـت. بعد عبور النهر اخترنا مكاناً وفرشنا فيه بُسُطنا وجلسنا. ولكنني لم أبق في مكاني بل ذهبت في نزهة إلى إحدى الحدائق، وشـاهدت غروباً جميلاً بشكل خـاص. لـم أتمكن من إقنـاع رفاقي بالمجيء إلـى الحديقة لأنها كانت منعزلـة بعـض الشـيء عن المـكان الـذي تجمع فيـه كل النـاس، فهم يخافـون من اللصـوص تمامـاً ككل القاهريين. لـم يكن ثمـة الكثير من الناس على الشـاطئ، ويبدو أن غالبية النـاس فضلوا أن يبقوا أمام بلاق في السـهل الرملي المفتوح الواسع حيث أقيمت الكثير من الخيام التي أنارتهـا الأضـواء طول الليل. أمـا في جهتنا فكان التيـار قد أتى بعدد لا حصـر له من البطيـخ إلى السـاحة المفتوحة التي كانت أدنـى قليلاً من جوانب النهر مشـكلة بذلـك مكان احتفال حقيقي. يبـدو أنه لا بد لكل واحد منا أن يأكل البطيخ هذه الليلة، ويبدو أن ذلك هو أفضل ما سنقوم به هنـا. كان بعض المغنين الضاربين علـى الدربوكة قد جمعوا حولهم جمهـوراً. قيـل إن عرائس البحر تجذب الشـبان إلى وراء الشـجيرات. لذلـك فقد أحـاط الجنود بهـا منعاً لأي أعمـال مخلة بـالآداب. بعدما تناولنـا جبنـاً وبطيخـاً في وجبة العشـاء، انتقلنـا إلى حافة النهـر العالية والحـادة لتحضيـر الشـاي والقهـوة. تجولت قليـلاً فـي المنطقة لأرى كيـف يحتفل النـاس، لكنني لـم ألاحظ أي شـيء يذكر. كانـت طريقة الاحتفـال الوحيدة تقريباً هنا هي الجلوس بهدوء وبلا حراك، وشـرب القهـوة والتدخين والدردشـة. وبعد جولة في الظـلام عدت إلى رفاقي وذهبت إلى الفراش ونمت في الهواء الطلق. تمكنت من النوم بسرعة،

ونمـت جيداً الليلة كلها. هذه الليلة كانت هي ليلة النقطة أي الليلة التي تسـقط فيها القطرة التي تثير الفيضان حسـب الاعتقاد الشعبي. كان من المتوقع أن تسقط هذه القطرة في الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً حسب التوقيت المحلي؛ أي في الساعة التاسعة أو العاشرة ليلا. ولكن، لم يولِ أحـد اهتماماً لهـذا التوقيت البتة. فلم يتحدث أحـد عن الأمر بأي حال مـن الأحوال على الأقل. في الليل أطلقت بعض القوارب العابرة بضع طلقات، كما سـمعت طلقات أخرى من اليابسـة. ولكن تلك الطلقات كلها لم تبال بتوقيت سقوط القطرة.

6/18

لـم يتمكن أي فرد مـن مجموعتي من أن ينعم ولـو بغفوة واحدة لأنهم قضـوا الليلة كلها في الدردشـة وشـرب القهوة، وأيقظوني قبل شـروق الشـمس بقليل فذهبنا إلى المسجد وأدينا صلاة الصبح. وكان المسجد متهالكاً تماماً ولا تشـجع قاعاته وحمامه على الاغتسال. ولذلك فضل الشـيخ علـي أن نبقى في الهواء الطلق. بعد أن شـربنا قليـلاً من القهوة، وتناولنـا ما كان معنا من طعـام، ركبنا على متن القارب الصغير وأبحرنا بفضل رياح شـمالية جيدة إلى أعلى النهر بيـن جزيرتي إمبابة وإبراهيم باشـا. وصلنا إلى الشـاطئ بالقرب من قصر سـليمان آغـا. نزلنا وذهبنا نتجول في حديقة واسعة لم تصبح بعد جميلة حقاً لأنها لا تزال جديدة. ولذلك أبحرنا إلى الأعلى تحت أشـعة شمس الصباح الساخنة. وصلنا إلى الشـاطئ فذهبنا للسـباحة. ثـم واصلنا رحلتنا، وبعـد أن عَلِق قاربنا فـي الطيـن عـدة مـرات لأن مسـتوى المـاء كان منخفضـاً، رسـونا في جزيرة الروضة، مشـينا عبرها، وتوقفنا عند المنيل، حيث نشـرنا بُسُطنا هنـاك علـى الصخور. علـى الرغم مـن أن رفاقـي ولدوا هنـا، إلا أنهم علـى مـا أعتقد لم يـزوروا الروضـة من قبل. وقـد تعبـوا الآن وصاروا

فـي حالة يرثى لهـا، لدرجة أنهم يفضلون القيلولة علـى متابعة الرحلة. وفـي غضون ذلك ذهبت لأتمشـى فـي حديقة بديعـة الجمال صُممت علـى الطـراز الإنجليزي، ولأتفرج على الطواويـس التي بني من أجلها بالتحديد بيت هنا.

واصلنـا رحلتنا عند اسـتيقاظ الآخريـن بعد منتصف النهـار بقليل. ولكـن الجميـع كانوا في مزاج سـيء للغاية، وكانوا منهكـي القوى من رحلتنـا القصيـرة، وكذلـك من الحـر الذي ما لبثـوا يشـتكون منه على الرغـم من أننـي أنا تحملته بشـكل جيد. كان طريق عودتنـا طويلاً جداً حيـث مررنا من خـلال المدينة متجهيـن إلى بيت الشـيخ علي. ارتحنا عنده قليلاً ثم ذهبنا إلى البيت. بعد ذلك بوقت قصير جاء لزيارتي ذلك الرجـل العجـوز الذي أخذ علـى عاتقه مهمـة اقتناء الكتب لي بشـكل تعسفي. ذهبت إلى الأزبكية بعد صلاة المغرب لكنني كنت متعباً قليلاً. بعد عودتي إلى البيت جلسـت عند أبو نوريس برفقة الشـيخ الشعراوي وأخيه نسـتمع لعـزف «أبي خود» على الزمارة. وقـال أبو خود إنه اليوم شـرب البوظـة واسـتعمل الحشـيش، وقد بدا مخمـوراً بالفعـل. وعند عودتي إلى البيت وجدت أن العجوز قد عاد وبقي لقضاء الليلة عندي. كما وجدت ابن علي عندي كذلك لذات الغرض.

6/19

زارني صياد الأفاعي فاشـتريت منه بعـض الثعابين، ودفعت له الفاتورة إلا أن المبلـغ لـم يكن مرضياً على ما يبـدو. تجولت خلال الصباح في شارع الموسكي، وذهبت إلى معمل يوسف الواقع في بيت كلوت بيه. بعد صلاة العصر اسـتمعت إلى درس علي ثم جلسـت بعد ذلك عنده برفقة الشيخ عبد الله. والشيخ عبد الله رجل لطيف. وربما يكون الوحيد هنا الذي وجدت فيه روح النكتة. في المساء تجولت في الأزبكية طولاً

وعرضاً، وأخيراً جلست لأستريح في متجر حنفي حيث كان سيد علي قد وصل قبلي إلى هناك. ذهبت معه إلى الغورية لنتمشى، ثم توقفنا قليلاً في المقهى، وشاهدنا مدخني الحشيش. كانوا يجلسون صامتين، لم يثيروا جلبة ولا ضوضاء، وإنما تفرقوا بهدوء كل إلى حال سبيله حالما سحب كل منهم بعض السحبات من بيبة الحشيش التي كان غلام هناك يمررها عليهم.

6/21

جلست في المنزل طيلة الصباح في انتظار الشيخين علي وعبد الله اللذين اتفقت معهما على الذهاب إلى الروضة، لكنهما لم يأتيا. في غضون ذلك جاءت تلك المرأة المريضة ومعها رجلان. خلعت لأحدهما ضرساً متسوسة على وقع بكائه وعويله. وبعد صلاة العصر استمعت إلى درس الشيخ علي، ثم جلست في بيته واتفقت معه أن يأتي إلى بيتي لإلقاء الدروس كل يوم ما بين صلاة العصر وصلاة المغرب. وفي المساء تجولت في الأزبكية طولاً وعرضاً ودون توقف وكنت مشتاقاً كثيراً إلى وطني.

6/23

بعد نهاية الدرس ذهبت في جولة طويلة فتوجهت أولاً إلى الرميل خارج المدينة، وإلى ثكنة عسكرية صغيرة عند سفح جبل الجيوز. فُتِنت تماماً بمنظر جدار الجبل العمودي، الذي كنت حتى الآن أتصوره بشكل خاطئ تماماً. وقد حفر في قاعدة الجبل مستودع للبارود الذي كان يصنع في مصنع يقع في قمة الجبل. كان ذلك النتوء الكبير البارز من الجبل بمثابة قوس طبيعي للبوابة. وقد التقيت عند البوابة برجلين تركيين يبدو أنهما الحارسان. وأشارا علي ألا أطوف حول الجبل في

طريق عودتي إلى المدينة، ذلك أن هناك لصوصاً سينهبونني بالتأكيد إن فعلت ذلك. كل الناس هنا يخشون اللصوص بشكل فظيع وكأنهم أشباح مخيفة. تسلقت الجبل متجهاً نحو الطريق المعبدة المؤدية إلى مصنع البارود، والدهشة تتملكني من ضخامة الجبل ومن تشكيلات الكهوف الرائعة البادية في كل مكان. الآن وقد وصل إلى القمة، تمكنت من إلقاء نظرة على وادي النيل الرائع الذي تحيط به أهرامات الجيزة وسقارة. فرحت كثيراً من مرأى عيني، وشعرت أنني الآن تمكنت فعلاً من فهم عظمة الطبيعة الإفريقية وجمالها. لكنني نزلت بعد مدة قصيرة إلى الأسفل دون أن أزور المصنع ولا المسجد الذين شُيِّدا هناك في الأعلى، وعدت إلى المدينة، مررت عبر تلك الثكنة البائسة، التي بنيت عند قاعدة القلعة وأمام أبوابها. وسرعان ما خرجت من بوابة ثانية ومشيت على طول سور المدينة إلى غاية باب النصر.

التقيت بمحمد الرصص وعبد الكريم في أحد المقاهي القريبة. وجلست معهم مدة، ثم ذهبت إلى منزل الرصص حيث أراني مختلف أنواع الأشياء التافهة التي كان معظمها من صنع الفرنجة مثل المغناطيس الذي ادعيت جهلي بكيفية عمله، وكم كانت فرحته عظيمة بذلك! كانت تلك الأشياء في معظمها خردة قديمة، لكنه يعطيها قيمة كبيرة على ما يبدو. هذه الأشياء كانت على سبيل المثال لوحات قديمة بائسة لم أكن لأكلف نفسي عناء مشاهدتها لولا ذلك السرور الواضح الذي بدا عليه من الإعجاب الزائف الذي أظهرته تجاهها. بعد صلاة المغرب ذهبت إلى الأزبكية ثم حضرت جنازة ابنة عبد الكريم.

6/24

في الصباح بعد الدرس ذهبت للقيام بنزهة طويلة عبر الحي اليهودي أولاً، ومن ثم عبر عدد من أحياء المدينة الأخرى التي لم أزرها من

قبـل. تلقّيـت درس فن الخـط ودرس العصر المعتاد عند الشـيخ علي. ثم ذهبت معه بعد صلاة المغرب إلى الأزبكية وجلسنا في مقهى حنفي إلـى ما بعد صلاة العشـاء تحت ضـوء القمر الجميل، وفـي جو معتدل رائع لطفته رياح الشمال. هكذا مرت (ذكرى القديس يوحنا[1]) هنا. لم تكن ممتعة إلا أنها لم تكن سيئة أيضاً.

6/26

ذهبـت في الصباح إلى مكتب القنصلية للحصول على المال من كولر، ثم تمشيت قليلاً في سوق خان الخليلي، واشتريت زوج أحذية جديدة من هنـاك، ثم ذهبت إلـى الحدائق كذلك. عند صـلاة المغرب، عندما عدت إلى منزلي من عند الشـيخ علي، دعاني خليل إلى متجره لفحص سن رفاعة أفندي المتسوسة التي تؤلمه كثيراً. أحسست بالإحراج فعلاً مـن معرفتـه، ولكن ما العمـل؟ لم أجلس هناك سـوى بعض الوقت ثم غـادرت. وبالكاد جلسـت في غرفتي لحظة حتى جـاء رفاعي إلى بيتي مـع أحد معارفـه العرب. لم يكن يملك ما يكفي من الشـجاعة ليتركني أخلع ضرسـه، لأنه بدا خوافاً وحساسـاً جداً، وقد اعترف بذلك بنفسه. كان هو فضولياً جداً، وكنت أنا مهملاً جداً لدرجة أنني سـمحت له بأن يعـرف عنـي الكثيـر، أخاف أشـد ما أخـاف أن يجر علي هـذا التعارف عواقـب وخيمـة. تحدثنا معظم الوقت باللغة الفرنسـية، وأنا أسـتغرب جداً أنه يعرف هذه اللغة على هذا النحو الجيد. ذهبت بعد مغادرته إلى الأزبكية لأتمشـى قليلاً ثم ذهبت إلى مقهى قريب من مسجد الحسنين حيث استمعت إلى الراوي.

---

(1) التسمية الفنلندية لاحتفال منتصف الصيف الذي يكون في شهر يونيو، وهو احتفال بالنور حيث يكون الصيف في أجمل أيامه ولا تغرب الشمس إلى منتصف الليل تقريباً.

6/27

بعـد الدرس، ذهبت لأتمشـى قليلاً فـي خان الخليلي، حيث اشـتريت مجموعـة شـعرية مـن عند الشـيخ ابن الـوراق. زارني صيـاد الأفاعي، اشـتريت منه بعـض العينات الصغيرة وتجادلنا في السـعر. أما فيما عدا ذلـك، فقد مر اليوم كالمعتاد. بعد صـلاة المغرب، ذهبت في جولة في الأزبكيـة، وبعـد صلاة العصر إلـى متجر حنفي حيث كان الشـيخ علي ينتظرني. جلسـنا هناك مدة من الزمن ثم ذهبنا إلى شارع الموسكي عند تاجر مارجوسي حيث كان القرآن يُقرأ هناك هذه الليلة. كان اليوم ذكرى الشـيخ سـلامة الذي له هنا في شارع الموسـكي ضريح صغير ومسجد صغير. احتشـد الناس هناك بأعداد كبيرة، وكان بينهم الكثير من النساء. وقـد نُظِّم حفل ذكرى الشـيخ في الضريـح فحاولنا أن نجـد طريقاً إلى الداخل وسـط حشـود النسـاء التي كانت هناك. ثم ذهبنا بعد ذلك عند التاجر للاسـتماع إلى القرآن. جلسـنا هناك بضع ساعات، وكنت أشعر بملل شديد، ولو أن الشيوخ المقرئين كانوا من المميزين للغاية. وعدنا إلى المنزل في وقت متأخر جداً.

6/29

جـاء صياد الأفاعـي لزيارتي خلال الـدرس، وبعد لحظـات من ذلك، جاء عبد الخالق، ثم حسـن الذي أجريتُ له الحجامة. إضافة إلى رجل مـن مرتـادي الدمرداش تناولت معـه وجبة الإفطار. كمـا زارني كذلك بعـض الرجـال من ديـوان المدرسـين، وكان أحدهم يشـكو من مرض فـي عينيـه فوصفت له الدواء وكتبـت له تعليمات العلاج. وأخشـى أن رجال ديوان المدرسين سوف يتسببون لي في الكثير من المتاعب. عند صلاة المغرب ذهبت مع سـيد علي إلى مسـجد السلطان قايتباي الذي يقع في قرية صغيرة موحشـة خارج المدينة على مشارف أكبر مقبرة في

القاهرة. اليوم نُظِّم هناك (جمع الشيخ إبراهيم الدسوقي)، أي أن الناس يتجمعون هنا للذكر، وفي الصباح يذهبون إلى القلعة من أجل التوصل إلى قرار بشأن التوقيت الذي ينبغي فيه تنظيم ذكرى الشيخ السنوية والحصول على الإذن للقيام بذلك كتابةً. وسيُحتفل بذكرى الشيخ بعد شهر تقريباً على شاطئ نهر النيل أمام المسجد الذي بني إحياء لذكراه. وقد دفن أحد أتباعه هنا في مسجد قايتباي.

قمنا بزيارة قبر الشيخ عفيفي الذي دفن هنا مؤخراً، ثم جلسنا في قاعة الصلاة نستمع للذكر، وكان من أروع ما يكون. كما قمنا بزيارة أضرحة شيوخ آخرين، وجلسنا مدة نستمع للذكر الذي أقيم إحياء لذكراهم. كانت هناك حشود كثيرة من الناس، وكالعادة كان الجميع يجلسون في المقاهي لا يفعلون شيئاً أو في المساجد يدردشون. تجولت خارج القرية وملأت رئتي بالهواء الذي لطفته ريح الشمال اللطيفة التي هبت عبر الصحراء. وكان البدر تاماً وكانت السماء زرقاء صافية. كان الجو رائعاً عندما وصلنا إلى المنزل في نحو الرابعة صباحاً حسب توقيت تركيا[1].

6/30

بعد درس الصباح نشأ بيني وبين الشيخ علي خلاف صغير حول فيضانات النيل التي شرحت له أنها ناجمة عن الأمطار الغزيرة التي تتساقط في هذا الوقت من السنة في بلاد النوبة. وقال هو إن الفيضانات تأتي من عيون في الجنة، وأن كل شيء بإذن الله. أصبح النزاع حاداً جداً، وإن لم يكن عنيفاً، وانتهى عندما فضلت الصمت حين استند في حججه إلى الحديث النبوي. وبعد ساعات قليلة ذهبت إلى التلة الرملية القريبة من باب النصر، وجلست أتنفس هواء الصحراء وأتفرج

---

(1) قرابة الساعة العاشرة مساء.

علـى أعمال الفجور التي كانت تُمارس هناك دون خجل ولا قيود. كان الحر اليوم شـديداً بشـكل غير عادي مثلما كان بالأمس حيث إن الرياح الجنوبيـة الغربيـة لـم تأت بأي طراوة إطلاقاً. وقد قضيت يومي على أي حـال في تكاسـل وملل، وذلك لأننـي لـم أقوَ على القيام بأي شـيء من شـدة الحرارة. بعد صلاة المغرب، تجولت بعض الوقت في الأزبكية، ولكن الجو كان حاراً هناك أيضاً. شعرت في المساء أنني متعب ومنهك القوى.

7/2

جـاء الشـيخ إبراهيـم لرؤيتي فلم أره منـذ مدة لا في بيتـي ولا خارجه. حكـى لـي عن رجل وصـل إلى هنا وقـال إنه وقـع بين يـدي الفرنجة، وقضى في سـجنهم اثني عشـرة عاماً، ولكن السيد أحمد البدوي الذي جاءه في المنام مؤخراً أحضره في الحال إلى طنطا. ومن ثم فقد أتى إلى هنا ليتحدث مع الشـيخ التميمي. كان الحاضـرون هنا في بيتي يصفون القصـة بكونها مزيفـة. يبدو أن النـاس هنا أيضاً أخذوا يفقـدون القدرة علـى الإيمان بالمعجـزات تدريجياً. بعد رحيل الشـيوخ جاء تيموفيف لزيارتي.

بعد صلاة المغرب ذهبت مع سـيد علي إلى مسـجد السيدة نفيسـة للقيام بزيارة لأن اليوم هو يوم ذكراها. جلسـنا في مقام السـيدة نفيسـة، قرأنا القرآن بأنفسنا ثم دفعنا خمس قطع من الفضة لأحد الفقهاء مقابل قـراءة سـورة يس. تجولنـا في هـذا المسـجد الجميل جـداً رغم صغر حجمـه. فـي طريـق عودتنا ذهبنـا إلى ضريـح عمها، محمد بـن الأنور بن الحسـن بن علي بن الحسـين. كان هناك كثير مـن الناس، ومع ذلك كان الجميع يشـتكي من أن هذا العدد من الناس لا يشـكل حتى نصف عدد زوار الماضي. لم نرتح لا في رحلة الذهاب ولا في رحلة العودة،

بحيث إن سيد علي كان خائر القوى عندما وصلنا إلى البيت، كما كنت متعباً جداً أيضاً.

7/3

أكلت وجبة الفطور في المنزل مع الشيخين علي وإبراهيم، ثم خرجت وتجولت في شارع الموسكي أبحث عن عدسة لنظاراتي الخضراء المكسورة، ولكنني لم أجدها. ذهبت إلى مكتب القنصلية، حيث التقيت بتيموفيف وتحدثنا لبعض الوقت. وفي ما عدا ذلك مر اليوم كالمعتاد في الدرسين. وبعد صلاة المغرب ذهبت إلى الأزبكية مع الشيخ علي إلى متجر حنفي وجلسنا هناك إلى وقت متأخر.

7/4

ذهبت بعد الدرس عند بوكتي للحصول على المال، لكنني لم ألتق به. لذلك سحبت مبلغاً صغيراً من كولر في المساء. تجولت في سوق الكتب في خان الخليلي واشتريت كتاب البيان وصندوق سفر لإرسال الكتب فيه إلى الوطن. سوف أذهب في رحلة إلى مصر السفلى، لذلك فقد أنفقت الوقت الذي بين صلاة الظهر وصلاة العصر لحزم الحقائب والتزود للرحلة. وبعد ذلك ذهبت عند بوكتي الذي كان مؤدباً ولطيفاً على غير العادة، ربما لأنني دائماً أظهر لا مبالاة تامة حيال تعاليه. بعد صلاة المغرب أخبرت سيد علي بأن عليه أن يبقى هنا عندما أسافر فكاد ينفجر من الغضب، ولكنني منعته من خلال تجهمات وجهي الغاضبة وتعابيره الحادة.

بعد الأكل ذهبت إلى الأزبكية للجلوس في متجر حنفي. ومن هناك ذهبت إلى حديقة في درب الجنان، وكانت مضاءة جزئياً بمناسبة الاحتفال بختان ابن البقال في الأيام القليلة القادمة. كانت هناك مغنيات

هذه الليلة، وكان الكثير من الناس قد تجمعوا للاستماع إليها. لم أتمكن من العثور على مكان مناسب، والناس في هذه البلاد أصخب مما في بلادنا. ويعبرون عن إعجابهم عن طريق الصيحات العالية لدرجة أنني لم أتمكن من سماع صوت المغنية، لذلك، غادرت المكان متحسراً بعد وقت قصير. عندما دخلت الحديقة وبدأت أتجول فيها، التقيت بشاب عربي عند النافورة، وعندما جلست بدأ يصيح بي بكلمات فظة للغاية. صرخت في وجهه بالقدر نفسه من الوقاحة فأخرسته. ثم جاء ليجلس بجانبي عندما لمته على فظاظته. وأخيراً تواضع وطلب مني الصفح وأخذ يمازحني. أخذني لأتجول معه في الأماكن المظلمة من الحديقة، فافترضت أنه ينوي أن يعرض عليَّ خدماته الجنسية. سألني عن علاج العجز الجنسي وأشياء أخرى، وكان غريب الأطوار ومثيراً للضحك في نظري. وأخبرني أنه يعمل خادماً لطبيب إفرنجي.

7/5

أخذت صندوق السفر إلى بوكتي بعد أن ملأته بالكامل بالكتب وغيرها من الأشياء. عند عودتي كان سيد علي قد خرج وأخذ المفتاح معه. ولكنني تمكنت من فتح الباب بمفتاح حقيبتي، دخلت وانتظرت ولكن أحداً لم يأت. وبعد منتصف النهار جاء عبد الخالق، وتحدث طويلاً ولم يقل إلا جملاً خاوية، ثم بدأ يشيد بصداقتنا ويحكي عن حبه لي، ثم سألني إن كنت أنا أعتبر نفسي صديقه أم لا بكلمات مليئة بالتزلف والنفاق. الكثير من الثرثرة الفارغة والمثيرة للشفقة التي كثيراً ما يسمعها المرء من أفواه القاهريين وباستمرار. وأخيراً دخل في الموضوع الأساسي وهو سيد علي: كان خلال فترة خدمته لي قد اقترض من الكثيرين فتراكمت عليه الديون، ولذلك من الأفضل أن أدفع تلك الديون بدلاً عنه حتى لا يأتي الدائنون ويعروا رأسه عن

عمامته، وجسده عن ثيابه. وهو الموال نفسه الذي غناه لي الشيخ قُلَلِي طيلة الصباح ليبتز مني المبلغ المستحق على سيد علي له، وهو ثمن وشاحات كان قد اشتراها منه ولم يسدد ثمنها. وبينما كان عبد الخالق جالساً في بيتي بصدد الكلام في الموضوع، جاء سيد علي ليقول لنا أنه بعد خروجي من البيت بقليل، نزل وهو يحمل إبريقي وردائي فتجمع حوله الناس وأخذوا منه ما كان بين يديه استخلاصاً لديونهم. لكن الشيخ قُلَلِي استعاد كل شيء بعد مدة قصيرة من الوقت.

ثم زارني أفندي ديوان المدرسين لأنظر في أمر عينه المريضة. وبعد ذلك جاء محمد سعود ليتحدث هو أيضاً في موضوع سيد علي. وعندما أنهكني وأضناني تسولهم البائس قررت أن أدفع الديون. وبعد أن تم حل هذه المسألة أخيراً وذهب الدائنون كل إلى حال سبيله، أرسل لي الشيخ قُلَلِي أربعة حمير لنقل بقية أمتعتي إلى بيت الشيخ علي. كان لي سبب آخر للانزعاج من سيد علي، لأنه عندما أصبح كل شيء جاهزاً، مكث لبعض الوقت، وجلس معنا عند البوابة، وبدأ يتشاجر مع الشيخ علي مثلما تشاجر داخل البيت مع عبد الخالق. كان وقت صلاة العصر قد فات، وذهبت أنا والشيخ علي للجلوس في غرفة معيشته التي يتم نقل أمتعتي إليها الآن، وناقشنا أحداث اليوم، وناقشنا موضوع سيد علي. فأخبرني الشيخ علي أن سلوك سيد علي وقصة الديون لا تكاد تكون مجرد خدعة صرفة. إذا كان الأمر كذلك، وأنا أميل إلى تصديق ذلك، فإن لدينا هنا خير مثال على الخداع والتظاهر.

في المساء، ذهبنا إلى الأزبكية وجلسنا في متجر حنفي إلى وقت متأخر جداً. وعندما عدنا إلى البيت وصلينا صلاة المغرب وصلاة العشاء، ذهبنا إلى النوم أنا في غرفة المعيشة والشيخ علي على مقعد في حديقته. وقبل خلوده للنوم قرأ سورة من القرآن، وكان ترتيله جميلاً جداً.

3/ 9/ 1844 رسالة إلى غابرييل غيتلين من القاهرة

أصبحت أرتدي العمامة بشكل دائم. وهي هنا قطعة مهمة جداً، بل إنها دون شك أهم جزء من ملابس الرجل. كما أن وجهي اكتسب لوناً أسمر، بحيث لن يخاف الناس من بياضي الشاحب بعد الآن، كما كانوا يقولون لي عندما وصلت إلى هنا في البداية. كما أن طريقة مشيي وتعبيرات وجهي أصبحت كتلك التي عندهم، فضلاً عن أنني اكتسبت أيضاً تباطؤ الشرقيين ولامبالاتهم بالشكل الذي يجعلني أبدو واحداً منهم. وهو أمر ضروري الآن. انتهى عيد المولد النبوي الذي يحتفل بمعظمه في الهواء الطلق أو في الخيام، وستبدأ الاحتفالات بمجموعة من الأولياء، وتقام هذه الاحتفالات في معظمها داخل المساجد. وحتى أتمكن من الذهاب لمشاهدة ما يحدث خلالها من دون إثارة الشك، سيكون قناعي الخارجي والداخلي ضرورياً جداً.

كان أول احتفال بعد عيد المولد النبوي هو ذكرى سيدنا الحسين ابن علي بن أبي طالب. وكما تعلمون، يقال إن رأس الحسين مدفون هنا وجسده مدفون في كربلاء. وله هنا – مثلما لأخيه الحسن – مسجد معروف باسم جامع الحسنين. وهو أهم مسجد بعد جامع الأزهر، وله قيمة كبيرة. ويحب المسلمون في العالم الإسلامي كله ربما – وعند الأتراك والإيرانيين بالخصوص – الحسن والحسين ويقدرانهما أكثر من غيرهما كأولياء. المسجد نفسه ليس كبيراً جداً ولا جميلاً بشكل خاص، كما أنه مظلم قليلاً، ولكنه احتفالي إجمالاً. وتوجد قبة الحسين داخل المسجد، وهي كبيرة جداً. وفي مركز المسجد توجد المقصورة، أي الضريح، ويحيط بها سياج شبكي جميل من حديد ونحاس، مُزيَّن بنقوش بديعة. وتحج إلى هذا المكان حشود غفيرة كل يوم لأجل الزيارة، وليقرؤوا عليه السلام. ويقرأ الزوار سورة الفاتحة أو سورة أخرى مع بعض الأدعية، يطوفون حول المقصورة، ويقَبِّلونها في

العديد من الجوانب، ويتلمسون بأيديهم غبارها ثم يمسحون به على وجوههم وهم يدعون له. أضف على ذلك أنه، إذا وقع مسلم ورع في ضيق، سواء روحياً أو مادياً، فإنه يلجأ إلى سيدنا الحسين، ويطلب منه التوجيه فيتلقى الراحة والعون عادة (حسب اعتقاده). ولا يلجأ الرجال وحدهم إليه، بل تلجأ النساء إليه أيضاً. إذ تختاره النساء كوليٍّ لهن أكثر من باقي الأولياء والمشايخ المدفونين هنا والذين بنيت قاعات صلاة صغيرة إحياء لذكراهم، والذين يصيح الناس بأسمائهم طلباً للمساعدة والعون.

في كل ليلة اثنين إلى الثلاثاء، يقام في مقام الحسين (المقرأ) الذي يُقرأ خلاله كتاب دلائل الخيرات الذي هو في معظمه صلاة وتسليم على النبي، كما يقرأ كذلك ربع القرآن. ويتبع هذا الأسلوب في مساجد أخرى كثيرة، ولكن (المقرأ) في سيدنا الحسين أفضل والْمُقْرؤون هنا أكثر علماً، كما يقولون هنا. ويجلس الْمُقْرؤون هنا في مجموعات قد تصل إلى الثلاثين، وغالباً ما تكون أكثر من ذلك، وجهاً لوجه في صفين. بعضهم يقرأ من الكتاب، ولكن معظمهم يقرؤون من الذاكرة. بعد صلاة العشاء يقرؤون من دلائل الخيرات أولاً، ومن ثم يقرؤون القرآن بصوت منخفض، وهم يأرجحون رؤوسهم تارة، وتارة أخرى يأرجحون الجزء العلوي من أجسامهم كما جرت العادة.

إذن، فعيد هذا الولي يقترب الآن، وليس للناس موضوع غيره منذ مدة طويلة. أخيراً، بدؤوا يعلقون المصابيح على المساجد التي أقام خارجها تجار الحلويات أكواخهم الْمُزَيَّنة على الطريقة المحلية بالأوراق الحمراء والخضراء أوبشرائط الحرير. لقد بدأ وقت الاحتفال الآن، ولكن الجو في الأيام الأولى كان فاتراً ونسبة المشاركة منخفضة. ومع ذلك كنت أذهب كل ليلة إلى المسجد، وزرت الحسين، وقرأت في إحدى زوايا الضريح سورة من القرآن على روحه، وأغدقت على

ضريحه القبلات. من وقت لآخر، كنت أعطي أحد الفقهاء الفقراء خمس قطع من الفضة (أي ما يعادل كوبيكتان نحاسيتان ونصف الكوبيكة) نظير أن يقرأ بالنيابة عني سورة يس التي تُعتَبر قلب القرآن، أو أعطي أحد السُّقاة القدر نفسه من المال ليسقي العطشى من جرة مائه. كل هذا حباً في سيدنا الحسين، وثواباً عظيماً لي.

في كل ليلة من ليالي فترة الأعياد، تقع مسؤولية تنظيم إضاءات المسجد الاحتفالية على عاتق المشرف على المسجد؛ أو على رئيس فرقة الدراويش (وهم هنا كثيرون)؛ أو على بعض نبلاء البلاط. كما كان الدراويش ينظمون حلقات الذكر كل ليلة، وخلال النهار أيضاً عادة. وأحياناً يُلقي بعض شيوخ الأزهر المحاضرات على شرف المناسبة. اشتد الحشد والضجيج في المسجد كما في الهواء الطلق يوماً بعد يوم. وفي الأخير، وبعد أن دام الاحتفال ثمانية عشر يوماً، أصبح من الصعب المرور من الشوارع القريبة من المسجد، ناهيك عن التحرك داخل المسجد نفسه. ومع ذلك يشتكي الناس عامة من سوء الاحتفال هذا العام، ويقولون إنه لا يقارن باحتفال العام الماضي. أو كما يقولون هنا: «اليوم أفضل من الغد، وغداً أفضل من بعد غد». ويلقى باللوم على الحكومة الجائرة، والظلم الذي يحس به الشعب في ظلها. ولكن يبدو أنهم لا يفهمون أو لا يريدون أن يعترفوا بأن الوضع قد زصبح قريباً من حافة الانحدار.

وقد ألغيت هذا العام مجموعة من الطرق الاحتفالية التي كان الناس يرونها هنا في مثل هذه المناسبات وفي مناسبات أخرى مماثلة، والتي نقرأ عنها في كتاب لاين وفي كتب غيره. من بين تلك الطرق الاحتفالية ما تفعله بعض فرق الدراويش هنا مثل أكل الثعابين أو ابتلاع النار والجمر، والزجاج، إلخ. قيل لي: في العام الماضي، ابتلع أحدهم ممن لم يكن ينتمي إلى جماعة الدراويش السعديين ثعباناً خلال نشوته

الدينية فمات على الفور (فهم يأكلون الثعابين بفضل قوة شيخهم الخارقة). ولهذا السبب حظر شيخ هذه الطريقة هذه الممارسة تماماً. يقيم الدراويش العيساويون كغيرهم احتفالات مسائية، وهم أكثر غرابة من غيرهم من الفرق، حيث تجدهم يركضون هنا وهناك، ويثيرون ضجيجاً كثيراً في المسجد مما يجعل الناس تخاف منهم. ولكنني لم أرهم يبتلعون النار أو الجمر، أو يقفزون عالياً نحو سقف المسجد، ولا رأيتهم ينزعون المصابيح ويلتهمونها بزجاجها وفتيلها وزيتها كما يقال عنهم. لكن حلقة الذكر التي أقاموها، والتي عزفوا خلالها على الدفوف، وقفزوا جميع أنواع القفز الخارقة للعادة وهم يرقصون ويصرخون، كانت شرسة ومخيفة جداً؛ ولو أنها لم تخل من احتفالية معينة. أعتقد أن كل أنواع الذكر هي من بين الأمور الأكثر احتفالية ورقياً في الدين الإسلامي من حيث المظهر الخارجي.

جلس الناس في المسجد في مجموعات صغيرة يدردشون ويمزحون، وكان مع الكثيرين بعض الزاد. كان الأطفال يركضون ويلعبون، ومن بين الصاخبين من الجالسين، وقف بعض الرجال يصلون ورعين ومتفانين في صلاتهم غير آبهين بالضجة. يرى المرء هنا حالة من الفوضى والضجيج. وقد تعودت مع مرور الوقت على رؤية ذلك في الأماكن الإسلامية المقدسة في عدد من المناسبات هنا. لقد تعرفت على العديد من الأشخاص الجدد خاصة بعد أن انتقلت في الآونة الأخيرة إلى الجمالية وهي منطقة معظم سكانها من العرب، بحيث إنني عادة ما ألتقي بمعارف هنا أو هناك فأجلس معهم في المسجد لقضاء مساء مريح للغاية. في ليلة اليوم الأخير من العيد، كان جزء كبير من المدينة مُضاء، وخاصة نواحي المسجد الذي يمثل قلب القاهرة ومركزها الفعلي. وكانت الشوارع مليئة بحشود عظيمة مبتهجة. لقد خرج الجميع لشراء «الحلاوة» أو أي نوع من أنواع الحلوى الأخرى،

ولزيارة سيدنا الحسين. لقد كان المقام والمسجد بأكمله مكتظين الآن بالناس، ولا يمكن للمرء الدخول إلى هناك، أو حتى الوصول إلى الباب إلا بمشقة الأنفس. وقد جلس القاهريون يضحكون في كل مكان من هذه النواحي: في المقاهي وفي المتاجر يدخنون الأرجيلة، والعديدون يدخنون الأفيون والحشيش كذلك. وفي الصباح كان كل شيء منتهياً. الأكشاك هُدمت، والناس التعِبة نامت، وكلما التقيت بشيخ ورع عليك أن تصيح: سبحان الدائم! أين بهجة الأمس وفرحه الآن؟

يعقب هذا الاحتفال العديد من الأعياد الأخرى، كالسيدة نفيسة، والسيدة سكينة وعدد من أهل البيت، كما يقال في هذه الناحية. وهم جميعاً يسيرون على نمط عيد الحسين نفسه، ولو أنهم ليسوا بنفس القدر من الأهمية ولا يدوم الاحتفال بهم إلا بضعة أيام. الآن وقت عيد العنصرة[1]، هدأت رياح الخماسين الرملية. وقد مرت هذه السنة خفيفة وهادئة، دون أن تجلب معها الأمراض والمخاطر. أربعة أو خمسة أيام فقط من الخمسين يوماً كانت صعبة وشاقة وحارة، حيث هبت الرياح الجنوبية بكم هائل من الغبار مما جعلني أفهم ما يمكن أن يكون الحال عليه إذا غضبت رياح الخماسين. خلال هذه الأيام المعدودة، التي كانت متفرقة لحسن الحظ، كان الجو خانقاً بشكل رهيب، وثقيلاً بشكل فظيع، ولو أنه لم يكن حاراً جداً في الواقع إلا فيما بعد. كان الغبار الناعم يدخل من النوافذ إلى الغرف فلا يترك للهواء المنعش مكاناً ولا سبيلاً. وعندما كنت أخرج عند غروب الشمس متعطشاً لبرودة المساء، كنت أواجه في الشوارع الضيقة نفس رياح الصحراء المحملة بالغبار وعفن البيوت. في بعض المرات القليلة، كنت أترك المدينة وأتوجه إلى الصحراء، حيث انهمرَ على وجهي وابل من حبات الرمال الدقيقة التي كانت تجلدني على وجهي وركبتي، وعلى ساقي

(1) أو عيد الخمسين: عيد من أعياد المسيحيين.

العاريتين. ولكنني بقيت طوال الوقت صحيحاً معافى، وتحملت عذاب العواصف الرملية وما بعدها من حر الصيف الشديد، وبشكل أفضل من أصدقائي العرب، الذين يعانون بشكل فظيع كما يُستشف من مواويل شكواهم. ولكن عرب مصر كسالى وبائسون، شأنهم شأن كل من يعيشون تحت هذه السماء اللطيفة، وفوق هذه الأرض الرائعة؛ لا يمكنهم تحمل برد الشتاء، الذي هو تقريباً مثل أيام الصيف أو أيام الربيع الدافئة عندنا، ولا يتحملون حرارة الصيف.

كان وقتي يمضي شيئاً فشيئاً بين دراستي وأصدقائي الذين كانوا كلهم تقريباً من العرب؛ وأقضي جل وقتي مع شيخي الذي يلقي علي درسين يومياً. في الصباح أدرس الألفية من شرحها الطويل للأشموني وابن عقيل وبعد صلاة العصر، اللغة العامية في أغلب الأحيان. هذا الشيخ هو بالتأكيد أفضل شيخ التقيته هنا. وهو بالإضافة إلى ذلك مطلع على الحكمة الشرقية اطلاعاً جيداً على العموم. أصبح من الضروري الآن أيضاً حضور درس قصير في الفقه لكي أطّلع اطلاعاً شاملاً على جميع المسائل الفقهية الصغيرة المتعلقة بأداء الصلوات اليومية الخمس، والوضوء، وجميع الأشياء الأخرى التي ينبغي على جميع المسلمين أن يكونوا على علم بها، ولا سيما من يسعى للظهور بمظهر الفقهاء، أو بمظهر الشيوخ كما هو الحال بالنسبة لي. في البداية كنت أحس بالخجل نوعاً ما لإظهار جهلي بعد أن أخبرت الجميع أن الحنفية مذهبي، وتطرقت لمختلف التفاصيل الدينية المتعلقة بها. ولكن شيخي هادئ جداً، وصبور جداً، وربما يكون قد تعود على جهل معظم الناس هنا وقلة درايتهم. فليس لأكثر الفقهاء علماً هنا أدنى فكرة عن أي مجالات أخرى غير ما يرتبط بدينهم ونبيهم، وتاريخ خلفائهم الأربعة؛ أو ما يرتبط بالسنة النبوية على نطاق أوسع. فمحاضرات الأزهر تنحصر في هذه العلوم وفي النحو لا غير. في يوم من الأيام

ذهبت كالعادة إلى الكتبية لشراء بعض الكتب، وسألت أحد الشيوخ إن كان لديه كتب عن التاريخ فأجاب بالنفي. وهنا علق الشيخ شريف الذي كان جالساً بالقرب من الأول على سؤالي بسؤال: «وما الفائدة من قراءة مثل تلك الكتب؟». فمهما اكتسب المرء من علم غزير، إلا أنه لا يحصل على احترام الآخرين، ولا يحظى بلقب (الشيخ) إلا إذا تمكن من إعطاء رأيه في المسائل الفقهية والإفتاء فيها. لذلك فأنت ترى مدى أهمية هذه الدراسات بالنسبة لي، وللرحلات التي أنوي القيام بها في شبه الجزيرة العربية. لقد تمكنت على الأقل من الإبحار قليلاً في أعالي البحار، كما أنني تمكنت من تحصيل بعض المعرفة عنها، حتى لا اضطر لأن أفضح نفسي في أكثر المسائل شيوعاً وضرورة على الأقل.

كنت أقضي وقت فراغي بالذهاب إلى المساجد للتفرج، أو بالجلوس في المقاهي للاستماع إلى أحد الرواة من أجل تعلم اللغة. من بين المساجد التي زرتها أذكر الأزهر الذي يعد مركز العلوم في العالم الإسلامي بأسره في عصرنا الحالي. في فنائه مربع الشكل الذي تحيط به الأعمدة، يجلس الصِّبية في دوائر صغيرة للاستماع للشيوخ الذين يعلمونهم قراءة القرآن. فإما يكتبون بأنفسهم، أو يَدَعون أحد الطلاب المتقدمين يكتب على ألواحهم البيضاء بعض الآيات القرآنية التي يحفظونها عن ظهر قلب. أما في الرواق فيجلس شيوخ آخرون مع صِبْيَة أكبر سناً على الأرض بطبيعة الحال. يجلس الشيخ في مركز الحلقة يدرس القرآن والفقه، والنحو، إلخ. ومع ذلك فإن القرآن والتفسير وجميع التخصصات ذات الصلة به هي الألف والياء هنا، وهي الشيء الوحيد الذي يدرس هنا. وبصفة عامة، خلال التدريس يجلس الطلاب ويتصرفون بحرية تامة هنا. العديد من المستمعين يتمددون على الأرض على بطونهم. وهم على ما يبدو يتناقشون ويتحادثون كثيراً، ولكن بهدوء. كما يتردد على هذه الحلقات الدراسية

عدد كبير جداً من الناس، وخاصة في أحد الأروقة المخصصة لهم على ما يبدو. تمشيت عدة مرات بين هذه الحلقات، لكنني لم أجرؤ على الجلوس في أي منها، لأنني أخاف أن يفضحني لساني ويكشف أمري فأصبح محل شك وريبة.

كما سمحت لنفسي بمتعة أخرى في كثير من الأحيان: كنت أذهب كل مساء خميس إلى مسجد الشيخ الدمرداش مع خادمي الذي هو من أتباع هذه الطائفة، إذ معظم الناس هنا يتبعون شيخاً من الشيوخ. ويقع هذا المسجد في مشارف الصحراء، على بعد نصف ساعة من المدينة. ويعقد أتباع هذه الطريقة، أو التلاميذ كما يطلق عليهم هنا، كل ليلة خميس حلقات الذكر، وجلسات (المقرأ) فيقضون الليل كله إما في هذه الحلقات أو في غيرها من وسائل التعبد، أو يمضون الليل في مجرد الدردشة والضجيج. كنا معتادين على أخذ القهوة معنا، بالإضافة إلى بعض الزاد، ونجلس في الساحة أو على السطح، ونقضي ليلة مريحة في الدردشة مع الأصدقاء أو النوم. وقضاء الليلة في المسجد أمر جرت به العادة هنا. ويعقد أتباع عدد من الأئمة والمشايخ والأولياء حلقات الذكر خلال بعض الليالي المعينة إحياء لذكر شيخ طريقتهم.

وعادة ما كنت أقضي ليلة الجمعة إلى السبت في مسجد الإمام الشافعي، الذي يبعد قليلاً هو الآخر أيضاً عن المدينة، وأقضي ليلة السبت إلى الأحد في مسجد الإمام الحنفي إلخ. ولكن اتباع مختلف الطرق ليس حكراً على الرجال فقط، بل تجد أن للنساء أيضاً شيوخهن، وهن تقمن بزيارة ضريح شيخهن وتقضين ليلة من ليالي الأسبوع في المقام. وهناك الكثير من النساء التي يقال إنهن ملبوسات، أي أن «الشيطان يتلبسهن»، وهو أمر يظهر بأغرب السبل وأكثرها تعقيداً. وقد سمعت عن هؤلاء النساء قصصاً مدهشة للغاية، وقد سبق وأخبرتك عن بعضها بالفعل. ويكون عليهن أن يكرسن أنفسهن لخدمة أحد

الشيوخ أو الأولياء للتخلص من الجني الذي يتلبس بهن أو لتلقي العون بخصوصه، ويكون عليهن زيارة قبره وقاعة الصلاة التي في مقامه أحد أيام الأسبوع. وما أكثر قاعات الصلاة هذه هنا. وهي تكتظ بشكل خاص في أيام الزيارة بالنساء اللواتي يجلسن حول ضريح شيخهن يدردشن، أويغنين، أو يستمعن إلى غناء شخص آخر. والأغاني التي يغنونها بسيطة جداً عادة، معظمها تحكي قصة حب غير بريئة على وقع الدفوف الصغيرة. كان من الممتع جداً اختراق قاعات صلاة النساء هذه لإلقاء نظرة على ورعهن المزعوم الذي يعتقدن أسبوعاً بعد أسبوع أنه يحررهن من سلطة الجن أو يقلل من سلطته عليهن.

الرحلة إلى مصر السفلى

انشغلت شيئاً فشيئاً بهذه الأمور وبغيرها إلى بداية يوليو. كنت قد اتفقت مع شيخي منذ مدة طويلة على أن نقوم سوياً بجولة صغيرة إلى مسقط رأسه أو في بلدته أو قريته التي تبعد عن القاهرة برحلة يوم. لذا صعدنا في السادس من يوليو إلى قارب صغير في بلاق، أبحرنا في النيل الرائع ووصلنا في اليوم التالي إلى قرية ركبنا فيها على الحمير متوجهين إلى قرية شيخي التي تسمى (البرانية). لشيخي في البرانية منزل وزوجة ثانية وأخرى ثالثة كان قد طلقها مؤخراً. ولكن لا بد لي من القول إنه لا يعيش سوى مع زوجته القاهرية. وكما هو الأمر في سائر بلاد الفلاحين تقريباً، بيته مبني من طوب رمادي، وهو يتكون من غرفتين، أو فرنين كما يسمونهم هنا، سقفهما على شكل قبة. وهاتان الغرفتان بلا نوافذ أو فتحات أخرى باستثناء الباب وفتحة تنفيس صغيرة مستطيلة الشكل في القبة. وعلى الأرض فرن كبير ليس له مدخنة بحيث إن الجدران مسودة بفعل الدخان الذي كان يبحث عن مخرج عبر الباب أو فتحة السقف. وهذه الغرف هي بمثابة غرف التدفئة الفنلندية حيث تكون مريحة مثلها بنفس القدر في فصل الشتاء. إلا أنها في الصيف حارة لا تطاق، يصول فيها الذباب ويجول مع باقي الحشرات الأخرى. ولكنهم الآن لا يستخدمونها إلا مخزناً للمواد الغذائية، والتبن والمخزون وغيرها. والجزء الذي يستخدم من البيت الآن على وجه الحصر، هو رواق صغير بني على ارتفاع نصف قامة، أو قامة كاملة عن مستوى سطح الأرض، يسمونه (مسطبة) يحيط بها سياج من القصب يتدلى منها

القش حتى الأسفل تقريباً. فرشنا بساطنا على هذه (المسطبة) وجلسنا. وبعد هنيهة جاء شيوخ القرية واحداً تلو الآخر للترحيب بنا، وكانوا جميعاً يرددون عبارات الترحيب والمجاملات نفسها ويكررونها طول الوقت مع المصافحة.

ويتمتع شيخي هنا باحترام وتقدير عظيم كرجل علم غزير، وهذا صحيح فعلاً. وقد تعود على السفر إلى هنا عدة مرات في السنة للحكم بين الناس، وللتوفيق بينهم وحل خلافاتهم في هذه القرية وفي القرى المجاورة. وفي الوقت نفسه، يأتي لتحصيل المداخيل، التي يجمعها من المتقاضين والمتنازعين الذين يفصل بينهم. لا عجب إذن إن استقبلونا بهذا القدر من الترحاب، وأحضروا لنا على الفور من البيوت المجاورة صينيات من الأكل والبطيخ. وقد أطعمونا في الأيام الأولى مما جادت به المنازل الأخرى بهذه الطريقة، ولكن بعد ذلك بدؤوا يدعوننا إلى المنازل لتناول الوجبتين الرئيسيتين اللتين تحضران هنا: الأولى في منتصف النهار والثانية وقت صلاة العشاء.

وقد بدأ الناس منذ اليوم الثاني من مجيئنا يترددون على بيت الشيخ ليطلبوا منه المشورة أو البث في نزاعاتهم وخلافاتهم. واستمرت هذه الزيارات دون توقف، كل يوم من الصباح حتى المساء طيلة إقامتنا هنا. وكانت معظم الحالات متعلقة بالطلاق. وأنت تعلم كم يسهل هنا حسب العادات المحلية أن يتزوج الرجل وبعد أن يمل من زوجته يتخلص منها. فأنت بحاجة عند الزواج إلى مبلغ تافه تماماً، لا يتجاوز عادة العشرين روبلاً. أما عند الطلاق، فيكفي أن تقول: (أنت طالق). وإذا ندم الرجل على ذلك فليس عليه بكل بساطة إلا أن يرد زوجته إلى بيته مرة أخرى. لكنه إذا نطق بكلمات الطلاق ثلاث مرات، أو مرة واحدة فقط وأضاف كلمة (بالثلاثة) فإنه لا يمكن للزوج بأي حال من الأحوال، أن يرد زوجته إلا إذا تزوجت غيره أولاً. كثيراً ما يحدث

أن خلال النزاعات اليومية العادية التي تنشأ بين الزوجين، تثور ثائرة الرجل العربي بدمه الساخن فيضيف تلك الكلمة الصغيرة. ولكنه ما إن يهدأ حتى يندم ويسعى إلى الاحتيال على القواعد الفقهية بطريقة أو بأخرى لمحو هذه الكلمة وتنحيتها عن ضميره. ولذلك، فإن مسألة الطلاق بالثلاثة، وخلافات الأزواج، وضرب الزوج لزوجته هي من الموضوعات الشائعة. طوال إقامتنا هنا التي دامت ما يقرب من ثلاثة أسابيع، لم ينظر الشيخ في أي قضايا أخرى غير الطلاق باستثناء ثلاث حالات أو أربع.

وبينما كان شيخي يحل كل يوم النزاعات ويبث في الدعاوى، كنت أنا أستقبل سكان القرية الذين يأتون لطلب المساعدة أوالمشورة بشأن الأمراض التي يعانون منها. ذلك أنه ومنذ الأيام الأولى من وصولنا إلى القرية، انتشر خبر كوني طبيباً، وهكذا فإن الكل الآن مرضى وبحاجة إلى المساعدة، سواء لعلاج مرض حقيقي أو وهمي. ولكنني لم أستعد في القاهرة لمثل هذه الأمور، ولذلك لم آخذ معي أي دواء ولا أي شيء آخر باستثناء معدات الجراحة. وقد أصبحت الآن محرجاً بعض الشيء من طرف الجموع الغفيرة التي احتشدت من حولي تطلب الدواء، لأنني لا أتمكن من مساعدتهم إلا بكتابة الوصفات التي ينبغي شراؤها من صيدليات القاهرة، أو بإعطائهم نصائح قدر المستطاع. خلعت بعض الأسنان، وأجريت للبعض عملية الحجامة، ولكن لم أستطع القيام بأكثر من ذلك. وتمكنت لحسن حظي كطبيب من الدخول على الحريم حيث كانت فتاتان صغيرتان تعانيان من مرض عيون بسيط. والفتاتان هما ابنتا رئيس القرية التركي السابق، وكانتا لا تزالان في مرحلة النمو، فهما ليستا طفلتين ولا امرأتين، وكانتا من أجمل الفتيات اللواتي رأيت وأكثرهن سحراً. كان من ضمن الموجودين أمُّ الفتاتين، وعدد قليل من الأخريات اللواتي لم تخجلن ولم تفزعن من وجودي

مثلهن في ذلك مثل الفتاتين. نظرت إلى وجوههن المكشوفة بحرية واستمتعت بالوقت الذي قضيته في جناحهن، والذي استغرق ساعة تقريباً.

أما ما عدا ذلك فقد قضيت معظم وقتي هنا أتجول في القرى المجاورة، ومن بينها قرية أشمون حيث ينظم السوق الأسبوعي الذي يبيعون فيه الإبل وبعض أنواع الماشية الأخرى. أو كنت أذهب إلى شاطئ النيل أو إلى الحقول على الرغم من أن معظمها كان الآن في وقت راحة، وكانت رمادية اللون قبيحة المنظر، متشققة مصدعة وكأنها تنتظر فيضان النيل. وكانت ثمة مناطق قليلة فقط تم زرعها بالبطيخ والقرع والخضار. كما كان الفلاحون يقومون بدرس محصول القمح الذي حصدوه منذ شهرين تقريباً.

رحب بنا القرويون في معظم الوقت ترحيباً حاراً، إذ كنا نتلقى دعوة أحد شيوخ القرية لتناول الغداء أو العشاء كل يوم. وكنا نتناول العشاء عادة وسط جماعة كبيرة على سطح البيت تحت نور القمر أو النجوم اللامعة لأن الشموع والمصابيح ومثل تلك الكماليات غير متوافرة بكثرة هنا أو أنها غير معروفة على الإطلاق. غالباً ما كان طعامنا يتكون من الخضر حصرياً تقريباً، بالإضافة إلى لحم الغنم أو الإوز أو الدجاج المقلي أحياناً. كما كانوا يقدمون لنا الأرز المقلي في الزبدة عادة وهو طعام جيد جداً، ولكن من الصعب تناوله بالأصابع، وذلك لأن حبات الأرز تتساقط ما لم تفعل مثل المحليين الذين يضغطونها بأصابعهم قبل أن يضعوها في أفواههم، ولكنه أمر مقرف. ومع ذلك، فأنا لا أنكر أن حسن تعامل القرويين التطفلي، ومجاملاتهم الفضولية أصبحت ترهقني مع مرور الوقت؛ إذ إنني نادراً ما كنت أتمكن من البقاء وحدي، حيث كانوا يقترحون طول الوقت أن أبقى للعيش هنا، وأن أتخذ زوجة منهم، وأزرع وأحصد الأرض مثلهم، وأعيش وأموت بينهم كفلاح.

وهكـذا، قضيـت في أرض مصـر القديمة مدة ثلاثة أسـابيع من أيام الصيف الذي كان حاراً وقاسـياً أكثر من العادة حسـب مـا يقوله الناس هنـا. ومع ذلك، فإننـي بقيت طوال الوقت صحيحـاً معافى على الرغم مـن أنني لـم أتجنب شـمس الظهيـرة مثلمـا يفعـل المحليـون، ورغم أننـي لم أقض أوقـات الظهر في القيلولة مثلهم؛ بـل فضلت قضاء تلك الأوقات في السـباحة في النهر. في الأيـام القليلة الماضية هنا عاودتني الْخرَّاجـات[1] فـي مناطق مختلفة من جسـدي، كما أُصبـت في حَقْوَيَّ أيضـاً بنوع مـن الطفح الجلدي الأحمـر، الذي يسـتحكني دائماً عندما أعرق ويخزني وخز الدبوس. أدركت أن هذا نوع من التكيف الذي أَمُرُّ بـه الآن، فلم آبَهْ لذلك. وأعتقد أنني تعاملت مع الأمر بشـكل صحيح. وقـد حان الوقت الآن لمغادرة القرية والتوجه إلى طنطا التي كانت هي وجهتنا الحقيقية عندما خرجنا من القاهرة.

طنطـا هـي المكان الـذي دفن فيه أحد الأولياء الذي يسـمى السـيد أحمـد البدوي أو كما يسـمونه عـادة (السـيد) باختصار، ولـو أن لقب السـيد يعطى عادة لأهل البيت فقط. كما يسمونه كذلك (شيخ العرب) كأي شـيخ من شـيوخ البدو. وبالإضافة إلى ذلك، كما أنه يُعطى أسماء لا حصر لها تشـير كلها إلى كراماته وقوته الخارقة باعتباره وسـيطاً أمام اللـه، يطلب منه الناس العون عند الضيق وفي المواقف الصعبة. ويُقال هنـا بصفـة عامة: كما أن النبي هو سـيد الأنبياء جميعـاً، وخير الخليقة، والأول والأخيـر والأكمـل، فـإن السـيد البـدوي هـو سـيد الأوليـاء، وسـلطان الأولياء. يصيحون لطلب مساعدته في جميع الحالات، فمن شـعر بالتعب فـأراد الجلـوس، ومن أراد إراحـة قدميه بعد مـدة طويلة من الجلوس لا ينسـى أن يصيح بورع: (يا سـيد يا شيخ العرب!) وهذه العبـارة تُسـمع أكثر من عبارة (يا سـيدنا الحسـين!)، أو (يا سـيدة) أي

(1) جمع خُرَّاج أو دُمَّل.

السيدة زينب، حفيدة النبي. ويُحكى عن كرامات السيد قصص عجيبة لا حصر لها، من قبيل أنه في وقت النبي، أي قبل أن يولد أو أن يكون حتى في بطن أمه، ظهر في العالم في شكل إنسان لمساعدة المؤمنين في معاركهم وحملاتهم ضد الكفار.

ويُحتَفل بهذا الولي المحبوب صاحب الكرامات ثلاث مرات كل عام في طنطا: احتفال صغير في شهر محرم، واحتفالان آخران بعد بضعة أشهر، وهما أكبر وأكثر احتفالية في شهر رجب. وينبغي على كل مسلم ورِعٍ أن يزور قبر الشيخ ويدعو له، ولاسيما أيام المولد، أو على الأقل يحسَب له فضل كبير إن فعل. أكد لي شيخي أنه يدعو دائماً السيد أو السيدة زينب خلال كل الصعوبات التي تعترضه، ويطلب منهما المشورة، وأنه يفضل أن يطلب العون من السيد البدوي؛ لأن طالب العون دائماً يرى بعد ذلك في المنام أحد هذين الوليين، فيعرف أي طريق عليه أن يسلك.

ولكن ليس كل من يأتي إلى هنا يأتي بدافع الإيمان والورع أو يأتي حباً في هذا الولي؛ فإلى جانب المولد وما يتبعه من احتفالات دينية يُقام هنا سوق يعد بالتأكيد الأكثر أهمية في هذه المنطقة، ولعله واحد من أكبر الأسواق في العالم. ويستقطب هذا السوق إلى هنا مختلف أنواع التجار من جميع الأقطاب، ليس فقط من مصر وسوريا، ولكن من شبه الجزيرة العربية، والجزء الغربي من الإمبراطورية التركية والحجاز والأراضي البعيدة. كما يستقطب عدداً من الصيارفة المسيحيين واليهود. وقد التقيت هنا بشخص أخبرني أنه من بخارى وأنه يستقر في موسكو. والمسافة التي قطعها إلى هنا هي بالتأكيد الأطول من بعد المسافة التي قطعتها أنا. وهناك آخرون يأتون إلى هنا ساعين وراء الترفيه والشهوات والملذات. إذ يقال إنه لا يوجد في العالم كله فرح ومرح مثل الذي في مولد السيد. وتسعى بعض النسوة للاستفادة من

زيارة مولد السيد.

وتتدفق حشود النساء إلى هنا بأعداد كبيرة؛ إما برفقة أزواجهن أو وحدهن بموافقة عائلتهن. وهن بالتأكيد تجذبن الكثير من الشباب الذين يسعون للترويح عن أنفسهم من كل أنحاء مصر، ويتمكن العشاق هنا من رؤية بعضهم بحرية. وبالنسبة للكثير من الشبان الذين ظلوا يتحرقون ويتشوقون لرؤية وجه معبوداتهم لوقت طويل فإن المولد فرصة سانحة لرفع ذلك الستار اللعين. تلك الراقصات والمغنيات، وجميع نساء الترويح الأخريات اللواتي يضطررن في القاهرة التزام الصمت والعمل في سرية وكتمان، يظهرن هنا مهاراتهن بكل حرية؛ فالشوارع هنا تعج بكاهنات الحب، اللواتي يقرعن بأناملهن الحمراء صنوجاً حديدية، أو يضربن على دفوف صغيرة، وجوههن مكشوفة، وأصابعهن ملونة بالحناء، وعينونهن مزينة بالكحل. في كثير من الأحيان يضعن أيديهن على الرجال ويجذبنهم بقوة إلى معابدهن. وإذا حاول أحد هنا تقييد هذه الحرية وهذا الطيش فإنه يُعتَبر قد أخطأ في حق شخصية السيد المقدسة؛ لأنه لا يثق بقدرة السيد على الاستغفار لهؤلاء العباد الخطائين عن هذه الخطايا الصغيرة التي ارتكبها ضيوفه الأتقياء من رجال ونساء.

وقد سعى عباس باشا المسؤول عن المولد هذا العام للحفاظ على النظام العام لهذه الحشود الغفيرة، لكنه نشأ هو وخُدَّامه في هذا الاعتقاد بالسيد ومحبته؛ بحيث لا يتدخلون في المولد إلا في أسوأ الحالات، مثل الخصامات والمشادات في الشوارع. ويحصل المرء على الصفح والسماح عموماً بمجرد القول «إرادة الله، يا سيد!»، وهي عبارة يرددها الجميع، وقد أصبحت على لساني أنا الآخر، لأنها عبارة تناسب كل الحالات التي يمكن للمرء أن يتخيلها. فإذا دفعك أحد في الزحام أو مزّق ملابسك فاستدرت لتسبه أو لتلومه، يرد عليك قائلاً:

«إرادة الله، يا سيد!»، وعليك أن تقبل بهذا التفسير. إذا كنت تشتري شيئاً وتفاوضت حول السعر المطلوب فخفضتَ منه النصف، فيمكن للمشتري والبائع أن يقبلا بالأمر معاً ويقولا: «إرادة الله، يا سيد!». وإذا ضاع منك شيء، يقال لك: «إرادة الله، يا سيد!»، لا يمكنك أن تتخيل أي شيء تحت الشمس، خيراً كان أو شراً، لا تناسبه هذه العبارة. لقد نسي الناس القسم بلحية النبي، أو بكتاب الله، ولم تعد تسمع هنا سوى كلمة السيد، السيد.

لا عجب إذاً أنني أنا وشيخي قررنا قبل المولد بوقت طويل القيام بالزيارة لهذا الولي المحبوب من الجميع، وحامي الجميع. في الواقع، القيام بالزيارة هو السبب الذي غادرنا القاهرة من أجله، وتركنا الدراسة جانباً لبعض الوقت. وبعد أن أمضينا بضعة أسابيع في قرية الشيخ بين فلاحي مصر، خرجنا في الثالث والعشرين من يوليو، كل على حماره. كان الحمار الذي أمتطيه يحمل كذلك - بالإضافة إلى جسدي الهزيل - أمتعتنا الخفيفة وكذا حقائب زادنا الثقيلة. في الحقيقة كانت هذه هي الرحلة الأولى التي أقوم بها هنا عن طريق البر، وأنا سعيد جداً بالسفر بهذه الطريقة في أرض مصر القديمة المقدسة. كنا نسير معظم الوقت على ضفاف القنوات التي تُستَعمل هنا لجلب المياه إلى كل مكان لري الحقول عند فيضان النيل. فوجئت كثيراً بمدى سوء إدارة هذه القنوات، على الرغم من أن خصوبة البلاد والعائدات السنوية كلها تقريباً تعتمد اعتماداً كلياً عليها. ومع ذلك فإن عباس باشا لا يجعل الفلاحين الخاملين والمتقاعسين يعتنون بهذه القنوات بعض الشيء إلا عن طريق إجبارهم على ذلك بالقوة. هذا البلد، كما تعلمون، هو عبارة عن سهول لا نهاية لها. وليس ثمة إلا تلال رملية قليلة هنا وهناك، عادة ما تقام عليها القرى. من ناحية الغرب، بعد مسافة قصيرة من النيل، تبدو في الأفق سلسلة من التلال الرملية المرتفعة التي تبقى

الصحراء الإفريقية وراءها. ومن ناحية الجنوب، حيثما تسافرْ تُميِّزْ من بعيد الأهرامات الشاهقة التي تهيمن على وادي النيل بأكمله تقريباً. إذا كان شيء ما ينقص هذا المكان هنا، فهي الأشجار والنباتات ذلك أن الحقول تستخدم فقط للزراعة، وهي تعطي ثلاثة محاصيل كل عام. ولا ترى الأشجار والحدائق إلا في القرى، وحتى هناك عادة ما تكون قليلة ومتباعدة هنا وهناك. أما بساتين النخيل التي كانت قديماً على مشارف كل قرية، فقد قُطع معظمها بأمر من عباس باشا تحت طائلة بياسترين ونصف عن كل نخلة.

وهكذا، سرنا بدون ظل ولا حماية من أشعة شمس الصيف الحرَّاقة مرورا بالحقول المشققة، الرمادية اللون، المحروثة حديثاً. ووصلنا عند الظهر تقريباً إلى منوف، وهي إحدى أكبر المدن المصرية الرئيسية، وزرنا أحد أقارب شيخي فيها ثم تابعنا رحلتنا. وقد عبرنا قناة ماء صغيرة هنا بالعبَّارة، ولم أتمكن من مقاومة الرغبة في السباحة عندما رأيت الماء، على الرغم من أنه كان بعيداً كل البعد عن اجتذاب أي أحد إليه بسبب لونه البني وقذارته. وسقطت نظاراتي الملونة التي كنت أرتديها أثناء الرحلة لوقاية عيني من أشعة الشمس اللاذعة في الماء، فعزاني الجميع بعبارة «إرادة الله، يا سيد!» بالطبع. وعثر أحد سائقي حميرنا على علبة تبغ كاملة في اللحظة التي لم يعد معه فيها أي تبغ؛ ووجد شيخي سوطاً ليعالج به حماره الكسول، وهذه هي «إرادة الله، يا سيد!» وهي دليل صارخ على قوة السيد الخارقة. مررنا بالعديد من القرى والبلدات الصغيرة، وكلها مبنية بذات الشكل: المنازل شيدت من الطوب، بما في ذلك قرية اسمها سرشينة التي كان فيها بستان نخيل كبير وجميل للغاية. وقد قال سائقو حميرنا بأن هذه القرية هي في المكان نفسه الذي كانت فيه مخازن فرعون قديما في عهد يوسف. ويعتقد الناس هنا أنه لا يزال من الممكن استخراج الكنوز المخبَّأة

تحت الأرض.

وصلنا مساءً إلى مدينة زرقان، وهي إحدى المدن المهمة الأخرى، وتوقفنا فيها لزيارة أحد أصدقاء شيخي الذي كان زميلَه في جامعة الأزهر. وقد استقبلنا هذا الأخير أحسن استقبال وكان مضيافاً للغاية بحيث وفر لنا الأكل والمبيت. وهذه المدينة يطلق عليها اسم (كرسي) أي أن فيها محكمة تبث في الأمور الدنيوية والدينية، ولكنها ليست (بندر) أي أنها لا تحتوي على سوق ولا توجد فيها تجارة. وفي صباح اليوم التالي، غادرنا هذه المدينة في وقت مبكر. وقد زودنا مستضيفنا بالفطائر والبطيخ، ورافقنا لمسافة طويلة من رحلتنا.

وصلنا إلى طنطا قبل وقت قصير من ظهر اليوم. وهي إحدى مدن شاطئ النيل الرئيسية، ولكن مكانتها المهمة هي في المقام الأول ترجع للتقدير والاحترام الذي يكنه الناس لها كمدينة السيد أحمد البدوي. وهي أيضاً مسقط رأس شيخنا في بترسبورغ محمد عياد. وتقع هذه المدينة على تلة رملية كبيرة تنحدر قليلاً نحو الجنوب والغرب، ولكن التلة حادةٌ بشكل ملحوظ في الجانب المعاكس. وهنا، انبسطت أمام الأعين سهول شاسعة لا أثر فيها لأي تلال. وفي الأفق، تظهر للعيان دائرة من القرى الصغيرة التي تحيط بالمنطقة من كل جانب، وفيها بعض المزروعات والأشجار القليلة التي تبدو على مسافة بعيدة جداً وكأنها حدود غابوية جميلة. وتحت المدينة تتدفق ببطء القناة التي تُدعى قناة السيد والتي تم حفرها بشكل يجعل مياهها تتدفق نحو الشرق أولاً، ثم على شكل زاوية قائمة نحو الشمال على مدّ البصر. وهي مستمدة مما يسمى البحر الوسطاني لتنحدر في مجريين.

مدينة طنطا، بالمقارنة مع مثيلاتها، هي بالتأكيد مدينة مهمة ومبنية بشكل جميل يشبه طراز القاهرة إلى حد ما: نوافذها لا زجاج فيها، شوارعها كشوارع القاهرة ضيقة ومُغبَرَّة. وبما أننا غادرنا في وقت مبكر

ووصلنا قبل بداية المولد بيوم، كان لدينا متسع من الوقت للبحث عن مكان صغير يأوينا قبل الازدحام. وبعد أن نستريح قليلاً من الرحلة ونغسل الغبار عن أجسادنا، سنزور مسجد السيد. ذهبنا إلى هناك قبل وقت قصير من صلاة العصر، ولاحظنا أن المكان يغص بالناس رغم كبر حجمه، وكان من الصعب العثور على مكان لأداء صلاة الظهر التي لم نتمكن من تأديتها في الطريق. بعد أداء الصلاة، ذهبنا إلى الضريح، ألقينا عليه تحية السلام المعتادة، ثم جلسنا في إحدى الزوايا، وبدأنا نتمتم سورة يس ونحن نهز رؤوسنا بشكل متكرر وبوتيرة سريعة. علي أن أعترف بأنني لم أكتف فقط بالهمهمة وهز الرأس دون نطق الكلمات، لأنني اعتقدت أن من الممتع أكثر التفرج على الناس الذين تزاحموا حول الضريح، يقبلونه ويمسحون غباره، وعلى الفقهاء الذين يضايقون الزوار، ويطلبون منهم خمس قطع من الفضة مقابل قراءة سورة يس للسيد. بعد أن رددنا أدعيتنا وطلبنا من السيد المساعدة والعون طفنا نحن أيضاً حول الضريح، وأغدقنا عليه القبلات واللمسات شأننا في ذلك شأن الآخرين.

في زاوية في الجانب الشمالي من الضريح، يوجد حجر مائل قليلاً عليه آثار أقدام يقال إنها آثار أقدام النبي. لم يبق أحد من زوار المقام إلا وقبَّل آثار الأقدام هذه بتواضع شديد وهذا ما فعلناه نحن كذلك. حسب ما تمكنت من رؤيته في تلك العجالة، كانت آثار الأقدام منقوشة على ذلك الحجر بشكل رديء وغير متقن، ومطلية باللون الأسود. وبعد أن أدينا واجبنا، وأردنا الخروج من المسجد، تسلط علينا عند الباب الأمامي مختلف أنواع المتسولين، الذين يطلبون الصدقة. وما إن هممت لالتقاط قطعة نقدية أعطيها للسقَّاء ليسقي العطشى من جرته محبةً في السيد وفرحةً للزائرين، حتى حاصرني عدد من المتسولين من الأطفال والشيوخ والرجال، والعُمي والعُرج الذين تجاذبوني كل

إلى جهته، وأنشد كل واحد منهم في أذني موال تسول مختلفٍ بحيث إنني لم أسمع أياً من دعوات السَّقَّاء الجميلة التي قالها لي شكراً على ما أعطيته من نقود. تمكنت مع ذلك من التخلص منهم والخروج من المسجد، ولكن أحد الشحاذين تبعني إلى منتصف الطريق إلى منزلي وهو يكرر باستمرار سورة الفاتحة وأدعية أخرى، ولكنني لم أعطِه شيئاً.

جرت العادة على زيارة مسجد السيد يومياً. وقد سمعت أحدهم يقول بفخر أنه قام بالزيارة أربع أو خمس مرات أو أكثر. وقد أديت الزيارة أنا أيضاً يومياً. ولم أفعل ذلك في الحقيقة لزيارة الولي بقدر ما زرت المكان قصد التفرج على حياة المكان وناسه المختلفين والمزدحمين. في السادس والعشرين من يوليو اضطررت أنا وشيخي لأداء صلاة الجمعة في مسجد آخر لأننا وقبل نصف ساعة من بدء الصلاة لم نتمكن من العثور على مكان في مسجد السيد الشاسع. فور انتهاء الصلاة، بدأ مختلف تجار الخردة ينشرون سلعهم الصغيرة ويعرضونها للبيع، وبدأ باعة الخضر يقومون بتصفيف سلالهم الممتلئة في معظمها بالعنب الطازج الذي نضج منذ وقت قصير. فضلاً عن باعة الطعام من رجال ونساء، ممن كانوا يركضون هنا وهناك يقدمون الخبز والفطائر والبيض، وغير ذلك للحشود الغفيرة التي أنفقت كل وقتها تقريباً في المسجد؛ إما من فرط تقواها أو من فرط كسلها، أو على أمل التمكن من السرقة.

ومما زاد من شدة الازدحام عدد الفقهاء والسقائين اللامنتهي. وقد كان هؤلاء يحثون الناس بشدة على الحصول على الثواب مقابل خمس قطع من الفضة. أما السَّقَّاؤون فكانوا يرشون المياه على الأرض. وبالإضافة إلى مياه السقائين، فإن القشور التي كان تجار الفاكهة يرمونها جعلت الأرض تصبح زلقة وخطرة، فالكثيرون تزحلقوا أو

تشـقلبوا. بالإضافـة إلى ذلـك، كان ثمة عـدد من جماعـات الأصدقاء الذين تجمعوا يضحكون ويتسـامرون، وكانـت ثمة مجموعات أخرى تحضـر لنفسـها القهوة هنا على الفحـم. وكان من بينهم رجال جلسـوا يؤدون الصـلاة. وعلى جانبهم فتاة تتبادل كلمـات الحب مع حبيبها أو تتفق معه على موعد للقاء، من يدري.

هنـا وهنـاك على امتـداد المسـجد الواسـع المجزأ إلى عـدة أجزاء ظهـرت حلقـات الدراويش، كل يمجـد الخالق علـى طريقته الخاصة. فقـد جلـس بعضهم فـي حلقـةٍ ينشـد الذكـر، وبعضهـم كانـوا يهزون جسـدهم ويرقصون الرقص الشـرقي بـكل ما فيه من حـركات خليعة. سـررت لرؤيـة الطريقة المولويـة، أو رقص الدراويـش. كان الدرويش يرتـدي ثوبه الخاص وهو قميص أبيض عريـض وذو ثنيات كثيرة يمتد إلى الركبتين. كان يدور بسـرعة شـديدة على سـاق واحدة، مثلما يفعل راقصو الباليه عندنا. ثم انخفض إلى ركبتيه ونشـر قميصه الواسـع. كل هؤلاء الراقصين، الذين كانوا كثيرين هنا، كانوا يحددون وقع حركاتهم بالضرب باليد على دفوف صغيرة.

لكن أكبر الحشود هنا كانت في ضريح السيد، وبالأخص عند الباب حيـث كان بعضهم يدخلون وبعضهم الآخر يحـاول الخروج فيتم دفع الخارجين إلى الداخل. ولـم يقم خدم المسجد إلا بالزيادة في الفوضى فـي الغالـب حيث كانوا يتثاقلـون عند الباب ويوزعـون الضربات على الحشود بسعف نخيل متفرع إلى غصنين أو ثلاثة، مثل التهريج بالسيف عندنـا. وقـد فقد الكثيـرون هناك عمامتهـم أو غيرها مـن الثياب، ومن يـدري، ربمـا فقدوا ما كان فـي جيوبهم كذلك. لذلـك يمكنك أن ترى كيـف تم تحويـل المقدس إلى تجارة؛ وكيف تسـير الخلاعة الفاحشـة هنا جنباً إلى جنب مع التقوى. في الحقيقة من غير الممكن الاسـتمتاع بالطقـوس الدينية هنـا، وإذا أراد المرء أن يفعل ذلك، فإن عليه الذهاب

إلى منزل خاص في المدينة، حيث كان أتباع الإمام الليث المدفون في القاهرة قد نظموا أجمل وأرقى أنواع الذكر التي رأيتها هنا. كانوا يجلسون في ساحة مربعة الشكل بحيث وقف في كل جانب أربعة رجال، وجميعهم أنشدوا باستمرار وبالوقع نفسه كلمة واحدة فقط: الله. كانت هذه الكلمة تخرج من أعمق مكان ممكن في الحنجرة. ذلك أن صفاء الصوت أو رخامته ليسا معيار الجمالية بقدر ما تكون تلك الهمهمة الخشنة مثل آلة الكمان الأجهر[1] الذي انقطع الجسر الفضي الذي يوضع على أوتارها. يمكن القول بأنهم هنا يعتبرون أن الصوت الجميل ينبغي أن يكون أجش بعض الشيء. تخرج كلمة الله عن طريق الهمهمة فتكون لها قوة خاصة، لا سيما عندما تقال بشكل غير منقطع، وبصوت إنشاد منفرد تمجيداً للنبي لا غير، بلحن بسيط وطبيعي. ويقال إن أحد المسيحيين كان يستمع لهذا الذكر (ويقول بعضهم، بأنه كان يهودياً وبعضهم الآخر أنه كان إفرنجياً باريسياً) فصاح بسعادة غامرة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) واعتنق الإسلام. بما أن جميع أصدقائي ومعارفي مسلمون، وكلهم يروون هذه القصة بفخر شديد، فإنني لم أستطع التأكد من الأمر. ومع ذلك فإنني لم أر تلك الزفة أو الموكب الاحتفالي الذي يقولون إنه طاف به المدينة كلها في اليوم التالي بعد أن أحرق ثياب الكفار وارتدى ثياب المسلمين. من جهتي أعترف بأنني أنساق مع هذا الذكر تماماً وأستمتع به، على الرغم من أنني لم أكن أشعر بأي رغبة في التخلي عن دين آبائي أكثر من أي يوم مرَّ علي هنا.

كان السهل الشمالي مخصصاً لنصب الخيام للقادمين من خارج المدينة. من الواضح أنه لا يمكن لهذه المدينة الصغيرة احتواء هذا القطيع البشري المتكون من مئات الآلاف. وقد خصص لكل مدينة

(1) أو الكونترباس.

ولكل قرية في مصر، وكذلك للأقاليم الواقعة غرب مصر، ولجميع سكان البلدان الأخرى عموماً مكان لإقامة خيامهم. كان جميع القادمين من القرية نفسها ينضمون بعضهم إلى بعض وتراهم عادة يسيرون معاً في جماعات ومواكب إلى طنطا بالشرائط والأجراس والشرابات التي يزينون بها الجمال بشكل رائع، والتي يحمّلونها بمختلف المواد الغذائية. ولم يكن يركب على ظهر تلك الجمال إلا النساء على وجه الحصر تقريباً، امرأة واحدة على كل جانب من جوانب الهودج. وكان الأطفال يجلسون في حضن أمهاتهم. أما رجال القرى فكانوا يمتطون ظهور الخيول أو البغال عادة وهم يتمخترون بدوابهم بفخر. وكان في مقدمة الموكب ستة أعلام أو أكثر، عادة ما كان لونها هنا أحمر أو أخضر، كما كان الموكب يرافق القرع على الطبل بالعزف على البوق. وهو يشبه إلى حد كبير مزمار الأوبوي[1] عندنا، وله صوت نشيج وصفير قبيحين. هذا المزمار الذي يحبونه هنا أكثر من أي آلة أخرى، ويعتبر الأكثر استخداماً في جميع المناسبات والاحتفالات، جعل إحدى النساء تطلق زغاريدها، وهي صيحة فرحة صداحة، وفي صوتها نوع من الرعشة، لكنها مع مرور الوقت تصبح موسيقا رهيبة تصم الآذان.

تهاطلت مثل هذه المواكب باستمرار في الأيام الأولى من المولد، من الجمعة إلى الأحد. وكانت جموع الناس تتدفق على طول السهل الواسع من جميع الأنحاء وعلى مدى البصر. وكانوا يتوجهون مباشرة إلى السهل الشمالي وينصبون خيامهم في المكان المخصص لهم. وكان لسكان القرية الواحدة عادة خيمة واحدة مشتركة، ومخزن تموين مشترك، وما إلى ذلك. استمتعت كثيراً بالتجول بين الخيام والتفرج على هذه الأمور. عندما كانت جميع نساء القرية تحضرن الطعام

---

(1) oboe

معـاً، وكل واحدة منهن تريد تحضيره بطريقتها الخاصة، كنّ يتشـاجرن فترتفـع أصواتهـن بالصراخ كالعادة. أمـا الأطفال، الذيـن كانوا بأعداد هائلـة فكانوا قذرين ونصف عـراة أو عراة تماماً، وكانوا يركضون حول الْحُـزَمِ والرُّزَم في الخيـام المزدحمة. وهناك جلـس الحكواتي يحكي قصة حَب لنسـاء جلسـن يسـتمعن إليه بانتباه شـديد؛ وبجانبه فقيه يقرأ القـرآن للرجـال الورعيـن. كمـا كان الباعـة المتجولون يتجولـون هنا وهنـاك يحاولـون بيع لعب الأطفال أو السـكاكين وغيرها من الأدوات الحديدية التي كانت دهشتي كبيرة عندما عرفت أنها تسمى (إنجليزي). ورغـم أن الأقمشـة هي منتجات أوروبية كذلك، إلا أن الناس لا يزالون يسمونها (إسطمبولي).

كان المـكان الأكثر ازدحاماً فـي ميدان الخيام الواسـع، وخصوصاً فـي المسـاء، هو الزاوية الشـمالية الغربية، التي كانت تـأوي فلاحاً غنياً اسـمه أبو الغيط. يحكى أن هذا الرجل ادعى أنه صاحب معجزات منذ عشـرة أعـوام، وجمع حوله عدداً مـن الأتباع. أمر الباشـا بإلقاء القبض عليـه فوُضع في السـجن، وحكـم عليه بالفلكة. وعندها سـال الحليب مـن قدميه المتورمتين. ثـم ربطت على قدميه الحجارة وألقي به في نهر النيـل، ولكـن الحجارة طفـت وهي تحمله على سـطح المـاء. وهكذا اقتنع الباشـا بقدسيته فمنحه قطعة من الأرض يعيش فيها الآن ويزرعها مـع أتباعه. ويقال إنه أحضر معه لمولد السـيد ثلاثمئة أردب من القمح وغيرهـا من التموين واللحوم لإطعـام الفقراء. يجتمع هنا الآن كل ليلة عدد كبير من الفقراء، رجالاً ونسـاء، لتناول وجبتهم المسائية الرئيسية. كان الطعام يقدم لهم في نوع من الوعاءات الصغيرة، التي كانت تُصَفُّ منهـا ثلاثـة أو أربعـة في صـف واحد في العربة نفسـها. ومـا إن قُدِّمت الفتَّـة، وهي هنا طبق شـائع جـداً مصنوع من الخبز المكسـور والمقلي فـي الزبدة، حتـى انكبَّت عليها حشـود الفقراء كالذئاب الجشـعة وهم

يتشـاجرون ويتضاربـون علـى الأماكن. كمـا قـدم الأكل لأصدقاء أبي الغيط وغيرهم بشـكل جماعـي في الخيام، بحيث قـدم الطعام كالعادة على صينية. وبالإضافة إلى ذلك، فقد تجمع عدد كبير من المشـاهدين هنـا لرؤيـة الموارد الغذائيـة لأبي الغيـط ومطبخه الكبيـر، حيث كانت ثلاثون أو أربعون وعاءً وقدراً كبيراً وصغيراً على النار. وبعدما أُطعِمت الحشود، أقام أتباع أبي الغيط وغيرهم كذلك حلقات الذكر في الخيام.

مـن بيـن مجموعة الخيـام الأخرى كانت في وسـط الميـدان خيمة خضـراء كبيـرة وجميلـة، فيهـا عـدة غرف، يسـكن فيهـا عباس باشـا، المسـؤول عـن المولـد. وكان كل ليلة يطلق بعض الألعـاب النارية في الهـواء. وفي إحـدى الليالي، نظم اسـتعراضاً نارياً صغيـراً، ولكنه كان جميلاً جداً أبهج عشاق اللهب الذين احتشدوا قريباً من الخيمة، أقربَ ما سـمحَتْ لهم بذلك عصي الحراس والجنود ورماحهم. كما أقيمت على مسـافة قريبة ثلاث سـواري احتفاليـة نُصبت متباعـدة بعضها عن بعض، وأضيئت كل مساء بمصابيح معلقة فيما بينها على شكل أقواس. وعند الذهاب من هذا الميدان إلى ميدان آخر في الناحية الشرقية يماثل الميـدان الأول كِبَـراً، يرى المـرء على طول الطريق كل وسـائل الترفيه الشـعبية على الطريقة الشـرقية، مثل البهلوانـات الذين كانت جماعات الأطفال المتسخين تتبعهم إلى كل مكان، والذين كانت حيلهم الوحيدة هـي وابل مـن العبارات والتعليقـات غير المصقولـة، إضافة إلى بعض العبـارات الدينيـة من قبيل: «أسـوأ الناس هو من يرفـض أن يقول: (لا إلـه إلا اللـه) ويرفض إعطاء قطعـة نقدية للفقير». حينئـذ يصيح الجمع الغفير؛ الذي قد يكون في تلك اللحظة المباركة قد ضحك ملء شدقيه على نكتة تافهة قليلة الذوق؛ مردداً الشهادة بنبرة جدية واحتفالية.

كمـا كانت هناك أنواع متعددة من المغنيـن والرواة، وما لا حصر له من الفرق الموسـيقية الشرقية التي كانت كل واحدة منها في مركز دائرة

يحيط بها المستمعون. كما كان ثمة مسرح الظل الذي أقيم في كوخ صغير مظلم فرشت على أرضيته حصيرة من القش، وفي السقف دمية تمثل دور امرأة إفرنجية ضخمة مُزَيَّنة بشكل مبالغ فيه، وهي ترتدي قفطاناً وجوارب وزوج أحذية. كانت الدمية مكشوفة الوجه وكان الظل مسلطا على رأسها، وقد وجد المتفرجون فيها موضوع ضحك وسخرية سانح. أما كاهنات الحب، فكن في كل مكان، وكن من أحقر وأدنى الطبقات، إذ كن يحاولن بوقاحة ودون خجل وأمام أعين الجميع، استهواء العاطلين والغوغاء والرعاع إلى خيامهن الحقيرة المصنوعة من حصيرتين خيطتا معاً والتي لم تكن تتسع لأكثر من شخصين. وعلى طول الطريق وفي كل خطوة تخطوها تجد المتسولين رجالاً ونساءً، عراة إلا مما يستر خاصرتهم، أو من أسمال بالية قذرة ممزقة تكاد تسقط من على أجسادهم. ولم تكن أي شحاذة تتسول بمفردها؛ حيث كانت تحمل كل واحدة منهن طفلاً عارياً هو ابنها، أو ابن غيرها يرتاح على صدرها العاري، وهو منظر عادي هنا. كان هؤلاء المتسولون يلبسون الغبار والأوساخ، وكانوا يسبحون في الغبار بكل معنى الكلمة. وكان بعضهم يعري جسمه للكشف عن ندب الجروح وآثار الحكة، لا لشيء إلا لإثارة الشفقة. بالنسبة لي لم يكن منظر هؤلاء المتسولين يثير فِيَّ إلا التقزز، ونادراً ما كانوا يحصلون مني ولو على فلس واحد.

مشياً على طول هذا الطريق الغاص بالترفيه، والخراب، والبؤس، وصلت إلى الميدان الشرقي، الذي كان مخصَّصاً لسوق الماشية. هنا يمكن رؤية كنوز الشرق العظيمة والحقيقية: الجمال التي يحبونها حباً جماً والتي هي جديرة حقاً بهذا الحب فهي سفن الصحراء التي يكثر مدحها. كما تجد هنا أيضاً الخيول الأصيلة الأبيَّة التي هي بمثابة المحركات البخارية بالنسبة للبدو، فضلاً عن الخراف السمينة ذات الصوف الكثيف، وعدد هائل من الماشية ذات القرون. وقد نصب

أصحاب الماشية وحراسها بالإضافة إلى العديد من التجار خيامهم هنا وهناك، وكان المشترون يلقون نظرات استكشافية على الحيوانات بريبتهم الشرقية المعتادة، ويفحصون فم المواشي وكل عضو وطرف من أعضائها وأطرافها من كل جانب. إن منظر هذا الميدان من أعلى تلة المدافن يشبه منظر مخيم الفروسية. كما كان الجانب الشرقي من القناة المحاذية لهذا الميدان يغص بمختلف قوارب النيل الكبيرة والصغيرة التي يصيح فيها رجال السفينة ويتشاجرون بلغتهم وكلماتهم البحَّارية.

لكن الجزء الأكثر إثارة للاهتمام هو الزاوية الجنوبية الشرقية من المنطقة، التي كان فيها ما يسمى (الملعب) – ميدان سباق الخيل. وكان فيه ثلاث حلبات غير مسيَّجة، وكان على جنبيْ كل واحدة منها صفان متقابلان من المتفرجين يشكلون سياجها. ويجتمع هنا كل يوم، في الصباح الباكر غالباً حيث يكون الجو منعشاً، شيوخ القبائل البدوية القريبة وعُمَد[1] القرى المحيطة بالمنطقة وهم يرتدون لباسهم المتعاد أي (الدفية) السوداء الفضفاضة الطويلة التي تصل إلى الكاحل. وهي مثل قميص يغطي بقية الملابس، وتحتها قفطان أحمر وصديري أبيض عادة. وهم يمتطون بخفةٍ ظهور خيولهم الرشيقة الأبية، ويجتمعون بعد ذلك مرة أخرى في الحلبة. اختير متسابقان ليتسابقا. وعندما وقع الاختيار عليهما، أخذ أحدهما (النبوط) وهو رمحٌ أملس بسيط للغاية، طوله طول رجلٍ تقريباً ويكاد يكون السلاح الوحيد المستخدم من قبل القرويين. وَزَنَ الفارس الرمح في يده بحركات ماهرة، وحفَّزَ المتنافسان حصانيهما وحثاهما على الانطلاق. إذا أدرك المتسابق الذي يحمل النبوط المتسابق الآخر، ألقى سلاحه نحو هذا كما يلقى الرمح، فيعالج به المتسابق الآخر بضربة قوية على الجنب أو الكتف أو أي مكان آخر من الجسم، ما لم يتمكن هذا الأخير من الاستيلاء على

---

(1) جمع عمدة.

الرمح ورميه في ضربة مضادة. قيل لي إن ضربات النبوط قد تكلف المتسابق حياته. وكانت الجموع الغفيرة التي تشاهد هذه المنافسة تتابع كل خطوة يخطوها المتسابقان بنفس مكتوم دون كلل أو ملل، وتتابع جميع حركاتهما وسكناتهما، وكانوا يصيحون تارة بصوت صاخب وتارة أخرى بصوت مكتوم؛ مرة يشجعون ومرة يلومون. كان المشاهدون يتحدثون عن المنافسين ويناقشون موضوعهم. وكانوا يسمون من يحرز قصب الفوز من الآخرين باسم «فارس البرجاس[1]». كانوا يعلقون تعليقات صفيقة قائلين بأنه ينبغي على الباشا أن يأتي إلى هنا ويشارك في هذه الرياضة الرجولية، أو على الأقل أن يأتي لمشاهدة المباراة، فهو لا يفعل شيئاً عدا أن يسارع لرؤية سير الأشغال في الترعان (قناة يعد تدبير أمورها مصدر إزعاج حقيقي للفلاحين). وعموماً، لقد شعرت هنا بأنني مازلت ألاحظ شرارة فخر العرب وحرية روحهم، ومنذ بدأت أتجول في أرجاء المكان، لم أترك يوماً واحداً دون أن آتي أولاً هنا لمشاهدة المسابقات.

أما في المدينة نفسها، فكان الازدحام في الشوارع الضيقة شديداً، والصخب كان رهيباً. ويمكنك أن ترى وسط العمامات العربية البيضاء، والطرابيش التركية الحمراء ذات الشرابات الطويلة، بعض الفرنجة هنا وهناك، وهم يضعون على رؤوسهم قبعات يكرهها المحليون، وعلى أنوفهم نظارات زرقاء أو خضراء. وكان الجنود ورجال الأمن يسيرون وسط الجموع، ويفرقون الضربات العشوائية على الناس بنبوطاتهم أو بسياطهم المصنوعة من جلد الأبقار، بتهور ودون تردد. التدافع والخصامات في كل مكان، وغالباً ما كان البعض يتدخلون لحل النزاع بين الأطراف المتخاصمة أو لإبعادهم عن بعضهم. على الرغم من أن العربي لا يسكر، (فأنا لم أر خلال كل هذا الوقت إلا رجلين اثنين في

---

(1) أي فارس المباراة.

حالـة سـكر) إلا أنه يصـرخ ويحدث هرجـاً ومرجاً أكبر مـن ذاك الذي يحدثـه الفـلاح الفنلندي. ولكـن العربي لا يسـتخدم السـكين أبداً في الشجار، بل يلوح بقبضة يده بلكمات وصفعات خرقاء لا تصيب أحداً. ومتعة العربي الكبرى على ما يبدو هي الزحام والضوضاء، فلربما يكون هنا في طنطا حقاً في محيطه المناسـب. إذا دفع أحدهم هنا الآخر دفعة عنيفـة قصد افتعال خلاف معه، فإن الجواب قد يكون: «ألسـنا الآن في مولد؟ وهل تعتقد أنك وحدك في الشـارع؟» هذا الاكتظاظ ليس خلال النهـار فقط، بل إنه مسـتمر طوال الليل أيضـاً ودون توقف. عليك الآن حقـاً أن تـرى العرب في أوجهـم! فهم في النهار تحت حرارة الشـمس الحارقـة يكونون فَظَظَـة معكَّري المزاج. أما في المسـاء بعد أن يملؤوا بطونهـم بوجبة لائقة عند العصر، يتجمعون عادة في جماعات صغيرة، يسـتلقون على ظهروهم تحت السـماء الصافية، ويتركون رياح المساء الشـمالية أو الغربية تداعبهم، أو يجلسـون للدردشة بلا كلفة عن دينهم العظيم، أو عن نبيهم العظيم، أو عن الأشـياء الدنيوية من قبيل ما فعلوه أو ما حدث لهم، أو يجلسون في أحد المقاهي العديدة التي تجدها في كل مـكان هنا، يدخنون البيبة ويحتسـون مشـروباً. وبهـذا يكونون أكثر سـعادة من كرويسـوس، ملك ليديا الثري. وبالإضافة إلى ذلك فإن في كل مقهى مغنٍّ أو مغنية، أو موسـيقي، أو راوي قصص، أو راقص، ولا وجود للراقصات أبداً، لأنهن يعرضن مهاراتهن في المنازل فقط منذ أن حظر الباشـا عروضهن حظراً مطلقاً. وهكذا فهم يسـهرون الليل بطوله هنـا عادة حتى صلاة الفجر. معظم العرب يحبون سـهر الليالي بشـكل خـاص، كما يعتبرون الليل أفضل أوقات العبـادة، ويعتقدون أن أبواب السماء تكون مفتوحة فتصل الدعوات بسرعة أكبر إلى الخالق، ويكتب الدعـاء في ميزان حسـناتهم؛ ولذلك يكثـر الذكر وقـراءة القرآن خلال الليل.

والآن ينبغي لي أن أسـرع للحـاق بليلة المولـد الاختتامية الطويلة. انتهى العيد يوم الجمعة، في الثاني من أغسـطس، وكانت ليلة الخميس هـي ما يسـمى هنـا «الليلة الكبيـرة». وكالعـادة لـم يُحتَفل بهـذه الليلة بالحلـل البهيـة ولا بالزينـة الخارجيـة: فـلا صواريـخ ولا مفرقعـات، بـل بالذكـر والقرآن فحسـب. يـوم الجمعة نصف ساعة قبـل منتصف النهار، سـمعت الصلاة علـى النبي والثناء عليه مـن كل المآذن الصلاة والثناء عليه. وعندما ارتديت ثياب العيد وخرجت وحدي (لأن شيخي يتضايـق مـن الضوضـاء والازدحام)، وذهبـت إلى الجانـب الآخر من المدينـة إلـى جامع البوصة. فقد كان السـيد البدوي فـي حياته قد دأب علـى أداء صـلاة الجمعـة هنا في هـذا المسـجد، وعلى ركـوب مطيته والقيـام بجولة صغيرة حول المدينة بعد ذلـك. وإحياء لذكراه، فإن من حـل محله الآن يسـعى خلال هـذا العيد لاتبـاع النهج نفسـه. توضأت فـي المنزل حتـى لا أضطر للتنافـس حول مكان في حوض الاغتسـال ودخلت مباشـرة إلى المسـجد وبحثت في كل جانب عن مكان أجلس فيه. كانت صفوف الأروقة المخصصة للصلاة، والتي يوجد المنبر فيها كذلك غاصة بالناس شـأنها شـأن جميع الأروقة الأخرى فتجولت بين صفوف المصلين المصطفين اسـتعداداً للصـلاة حائراً متعجباً. كان في وسط ساحة المسجد شجرة وافر ظلها، وقد جلست جموع كثيرة تحت ظلهـا أيضاً. كان علـي اختيار مكان في هذه السـاحة في أحد الصفوف المتفرقـة. وهكذا فرشـت منديلي على الأرض وصليـت ركعتين تحية للمسـجد ثم جلسـت أنتظر قيام الصلاة. وفي غضـون ذلك جلس إلى جانبي شـيخ نشـر الجانب الآخر من ردائه لكي أجلس عليه وأسـتعمله سجادة صلاة.

كانت أشعة شمس الظهيرة موجهة عمودياً، ولـم يكن لي ظل أحتمي بـه، ولا هبـت ريح تخفـف الحر عنـي، فقضيت نصف سـاعة أتصبب

عرقاً، وأستمع إلى تأوهات الرجال الثائرة، وأخيراً نودي إلى الصلاة حين حان وقتها. صليت بثبات دون خوف ودون عواقب، ولكنني كنت بعيداً جداً عن الخطيب فلم أسمع من الخطبة شيئاً تقريباً. وبعد انتهاء الصلاة مباشرة، تدفقت الحشود إلى الخارج من باب المسجد الضيق في ضوضاء عارمة. وقد تمكنت أنا أيضاً من الخروج لحسن الحظ ورأيت الخطيب في الشارع، خليفة السيد البدوي، على ظهر الحصان يرافقه آخرون على ظهر الخيول أو الحمير. وكان الاكتظاظ في هذا المكان فظيعاً، بحيث لم يكن للمرء أن يتحكم في قدميه، ولا أن يحركهما حين يشاء. في الغالب لم تكن قدماي تلمسان الأرض، إذ ما إن عزمت على وضعهما على الأرض حتى وجدت أن ذلك القطيع البشري الحاشد الصاخب الصارخ قد اقتادني معه. ومن بين الأمور الأخرى الكثيرة التي رأيتها هنا، أذكر سيدة سمينة وطويلة رأيتها توزع الصفعات على شاب في العشرينات ربما لأنها تعرضت لدفعة قوية. وقف هذا الشاب مشدوهاً مذهولاً من وقع صدمته من همة المرأة وحزمها، بحيث إنه وقف هادئاً يستقبل الصفعات دون أن يدافع عن نفسه. وبعد أن اقتادتني الحشود معها لبعض الوقت، فضلت أن أستغل أول إمكانية لأعَرِّجَ على شارع آخر وأمشي في طريق مختصر لألحق بالحشد الذي كان ينضم إليه المزيد من الناس مع كل خطوة، وفي كل لحظة. التحقت بهم عند أكمة صغيرة خارج إحدى بوابات المدينة، فتمكنت من إلقاء نظرة على الجماهير العابرة. كان عدد كبير من الرجال المسلحين بالنبوطات يتقدمون الموكب ويلوحون بين الفينة والأخرى برماحهم في الهواء لتخويف الناس ولجعلهم يفسحون الطريق. ووراءهم سار موكب صغير من الإبل، وكان على ظهورها رجال يقرعون بقوة على طبول كبيرة وآخرون ينفخون في آلات البوق ذات الصوت الفظيع. وجاء من بعدهم موكب أتباع السيد

البـدوي الذين كانوا يرتـدون ثياباً مضحكة للغايـة، ويقومون بحركات مجنونة إظهاراً لحبهم للسـيد البدوي واحترامهـم له. وكان بعضهـم قد طلوا وجوههم باللون الأحمر والأخضر، وارتدوا أزياء كرنفالية خفيفة الظـل، حيـث وضعوا - على سـبيل المثال - على رؤوسـهم بطيخات مُجوفـة زينوهـا بصفوف من الريش والشـرابات. كمـا أن بعض الناس كانوا يرتدون حصائر من القش، وبعضهم مشـوا عراة، أو حملوا رماحاً أو عصياً طويلة أو سـعف النخيل، وصاحوا وصرخوا من فرط النشـوة الدينيـة. كان وراء وأمـام الكثيريـن حمير أو خيول يركـب عليها أطفال صغار. وكان كل من يسـير في هـذا الركب، مثل الكثيرين الآخرين هذا اليوم، يضعون على رؤوسـهم ورقة مخروطية الشـكل حمراء أو زرقاء ألصقوهـا بعماماتهم، أو وضعوها فوق رؤوسـهم مباشـرة. في حين أن آخريـن كانوا يرتدون ملابس ملونة ومُزينة بجمالية، ومطرزة بالفضة أو بالذهب، وعلى رؤوسـهم عمامة أو مقلة ملفوفة من قطعة قماش كبيرة حمراء وبيضاء اللون.

ولكن عبثاً أحاول أن أتذكر، أو أن أصف جميع الشخصيات الغريبة التي رأيتهـا هنا. فقد كان ذلك الموكب مثل حفلة تنكرية بهيجة للغاية. ووراء الموكـب سـار خليفـة السيد في وقار، وهـو يرتدي ثوبـاً طويلاً أحمـر يمتـد إلى كاحلـه، وكان الجمهور الواقف حولـه ينهال على يده اليمنـى بالتقبيـل وهـو على صهوة فرسـه الـذي يتقدم بخطـوات ثابتة. وفي آخر الموكب سـار عدد من جنود الباشـا يتقدمهـم عازفو المزامير وقارعو الطبول، لأن جوقة الباشـا المدربة علـى النموذج الأوروبي لم تكن موجودة. قيل أن من ضمن المشـاركين في هذا الموكب شـخص حرره السيد من قبضة الدروز وكذلك إفرنجي ترك دينه وأسلم، ولكنني لم أتمكن من معرفة أيّ الرجال كان هذان الشـخصان. فعلى الرغم من أننـي ظللت أسـأل من كانـوا واقفين بالقرب منـي، إلا أن بعضهم كانوا

يشيرون إلى أحد الرجال فيما كان بعضهم الآخر يشير إلى آخر. وقيل لـي إن أحـد الأتبـاع سـيجري الدوسـة وكان ذلـك هو مسـك الختام، لكننـي كنت متعباً جـداً ففضلت الذهاب إلى المنزل. وهكذا انتهى هذا الاحتفال الغريب والمربك، وأسـرع النـاس الباقون بمغادرة طنطا. بما أن الخراجـات التـي كانت قد بدأت وأنـا لا أزال فـي البرانية أصبحت أكبـر، وبمـا أن أحدهـا كان في مؤخرتـي بحيث لم أتمكـن من ركوب الحمار، فإنني ارتأيت أنا وشيخي اقتناء قارب صغير. وفي اليوم التالي، ركبنـا القـارب واتجهنا نحو المنزل عن طريق النهر. اسـتغرقت الرحلة ثلاثة أيام، وكانت الرحلة ممتعة جداً رغم الحرارة الشـديدة، أولاً، لأن التربـة أكثر خصوبـة في هذه النواحـي، ولأن فيها الكثير مـن الحدائق، وثانيـاً لأن النـاس الكثيريـن الذين يبحـرون معنا، يغنـون ويعزفون ليل نهار في قواربهم مثلما كنا نفعل في رحلات التسوق الممتعة في مدينتنا توركو. بعد عودتي إلى القاهرة، سـمعت أن شـيخ سـان بترسبورغ كان هنـا في طنطا، وأنـه ذهب بعد ذلك مباشـرة إلى الإسـكندرية ليغادرها إلى معشـوقته مدينة قيصر. كنت حزيناً حزناً عميقاً لأنني لم أتمكن من مقابلتـه، ولكـن ربما كان ذلـك أفضل خاصة في هـذه الحالة، حيث إنا هنا.

مذكرات 9/5

ذهبـت في نزهـة عند الظهر إلى الحديقة القريبـة من باب الحديد حيث يملك أحد اليونانيين حانة صغيرة. ولأنه لم يكن يبيع إلا النبيذ والعرق، اضطررت لأخذ كأس من النبيذ. لم يكن لدي عند الدفع إلا قطع نقدية كبيرة، فنشأت بيننا مشادة كلامية تبادلنا فيها الشتائم. خرجت من الحانة وجلسـت في الأزبكية فـي المقهـى اليوناني، ومكثت هنـاك إلى وقت صلاة الظهر تقريباً. ثم تجولت في شارع الموسكي واقتنيت العديد من

الأشياء الصغيرة. بعد صلاة العشاء خرجت متوجهاً إلى خارج المدينة، حيث كان مولد الشيخ عفيفي، لأن ذكرى هذا الشيخ كانت اليوم بالذات. ولكنني خشيت من طول الرحلة سيراً على الأقدام، ولأنني لم أجد في الشارع أي حمار أستأجره، فإنني غيرت رأيي واقتصرت في جولتي على أنحاء المدينة فقط. شيخي مريض جداً، فهو يئن ويلهث وينهج تحت وطأة حمى روماتيزمية طفيفة أصابته. وقد أخبرني أنه عانى من هذه الحمى نفسها في السنة الماضية أيضاً. وبعد أن ظل طريح الفراش مدة أربعة عشر يوماً، رأى في المنام أن السيدة زينب التي جاءت وجلست بالقرب من سريره وقالت له: «اذهب إلى مسجد الشيخ الشعراوي، واقرأ عليه سورة يس فتزول جميع آلامك». في صباح اليوم التالي بذل جهداً كبيراً للقيام من سرير المرض، وارتدى ملابسه، وذهب إلى مسجد الشعراوي، وقرأ سورة يس في ضريح الولي الكريم فشفي تماماً من مرضه.

9/12

استيقظت عند منتصف الليل، وذهبت إلى يوسف حتى أضمن أنني لن أتأخر عن الموعد. ولكنني خرجت على ما يبدو قبل الموعد بوقت طويل، فالتقيت في الطريق بعدد من الفقهاء، معظمهم عُمْيٌ كانوا عائدين من مجلس لقراءة القرآن على ما يبدو. أيقظتُ يوسف من نومه العميق عندما جئته على الساعة الواحدة والنصف فجراً. نمنا قليلاً واستيقظنا عند صلاة الفجر حين جاء سائق الحمار لاصطحابنا، ومعه حماران وغلامان. جهزنا أنفسنا وخرجنا للرحلة والظلام لا يزال دامساً. توقفنا عند أحد المقاهي على مقربة من باب الفتوح، وكان العائدون من المساجد من صلاة الصبح قد بدؤوا يتجمعون تدريجياً فيها. ولكننا لم نبق إلا وقتاً قصيراً هناك، إذ احتسينا قهوتنا وغادرنا لنتابع الرحلة،

والصباح لا يزال بارداً ومنعشاً ورطباً نوعاً ما. وسرعان ما وصلنا إلى الصحراء، ومررنا بجامع الدمرداش، وبعد مدة قصيرة، عبرنا قرية كبيرة. سرنا على امتداد الطريق بين النباتات والأشجار، حيث غُرست على جانبي معظم الشوارع أشجار الأكاسيا الطويلة والجميلة. ومررنا بقصر الباشا الصيفي الصغير الذي كانت معظم هذه الأشجار مغروسة على أرضه. وكانت هذه الأشجار كلها تقع على حافة الصحراء، أو كانت مغروسة في رمالها بالأحرى. لم يمض إلا وقت قصير ووصلنا إلى الصحراء، ورأينا أمامنا ذلك البحر الشاسع من الرمال، الذي ترتفع فيه قمم تلاله الرملية المخروطية الشكل بعضها فوق بعض. وبعد أن سرنا مسافة طويلة إلى نهاية هذا السهل الشاسع، أسرعنا إلى مقهى في قرية المطرية الصغيرة. وكان صاحب المقهى رجلاً عجوزاً ذا لحية اعتلاها الشيب عن آخرها. وما إن دخلنا إلى المقهى حتى بدأ على الفور في الكلام عن الفرنسيين وعن بونابرت. وقد نصب خيمته في هذا السهل، أمام المقهى بالذات. كان هذا العجوز لا يزال يتذكر ذلك الزمن، وقد أشاد بتلك الأيام كثيراً: كان لديه الكثير من المال حينها، والفرنسيون عندئذ لم يكونوا بخلاء. كان يستعمل في حديثه عدداً من الكلمات الفرنسية بين الفينة والأخرى دون أن يمل أو يكل من هذا الموضوع. وجدت في ثرثرته متعة كبيرة لأنني استمعت لقصصه لأول مرة، على عكس يوسف الذي كان قد سمع هذه القصص ربما مئات المرات من قبل، والذي أخذ سلاحه وذهب للقنص في الصحراء، ولكنه لم يصطد شيئاً. خرجت أنا أيضاً وتمتعت بمنظر الصحراء الرائع الفريد من نوعه الذي كان له في نفسي تأثير مثل تأثير منظر البحر، ونفس الرغبة في الذهاب إليه.

وأخيراً ذهبنا إلى ذلك السهل الواسع، ووصلنا بعد رحلةٍ بضع ساعات إلى قرية (مرج) التي تحيط بها بساتين النخيل الممتدة في

كل الاتجاهـات. وكانت أشـجار النخيل تغطي تمامـاً بظلالها المنازل الصغيرة في هذه القرية وطغت تماماً تقريباً. وكان وسط بساتين النخيل سـوق تجمع فيه حشـد من الناس. وكانت السـلع الأولية فيه، وبطبيعة الحـال، هي التمور. كان ثمـن أربعين حبة ناضجة من الرطب الأسـود الكبيـر هـو خمس قطع مـن الفضة، أي مـا يعادل كوبيكتين نحاسـيتين ونصـف. كمـا كان هـذا المكان مليئاً بالحيوية والنشـاط، ومثيـراً جداً للاهتمـام بالنسـبة لي. ومن بين مـا رأيته هناك صياد قـرودٍ جاء إلى هنا من طنطا ومعه قردان كبيران اقتُنِيا من الحجاز. سألنا عن سعر أحدهما، ولكنـه كان باهظاً أكثر من اللزوم بالنسـبة لنا. كما كان ثمة مقهى صغير على مسافة قريبة من السوق. جلسنا فيه نشرب القهوة ونتحدث مع أحد الضبَّاعيـن الذيـن كنا قد طلبنـا منه أن يصطاد لنا بعـض الضباع وغيرها مـن المخلوقـات، لكنـه لم يكن قـد تمكن بعـد من الحصـول على أية طريدة. وكان رجلاً لطيفاً عموماً، يبدو عليه الوقار، شـأنه في ذلك شأن صديقه الشـيخ الذي يسـاعده في عمله. جلسنا نشرب القهوة وندردش وقتـاً طويلاً مع هذين الرجلين، واسـتمتعت بوقتـي معهما للغاية. وبما أن الصياديـن الأوروبيين يأتون من القاهرة حصريـاً إلى هنا تقريباً، فإن المحلييـن هنـا اعتادوا عليهـم، فهم يعرفونهـم جميعهـم، ويعاملونهم بلطـف شـديد. ويقـال إن هذا الضبَّاع يصطـاد الحيوانـات لكلوت بيه، ولغيـره من علمـاء الطبيعـة الأوروبيين، ويبـدو أنه يحصـل على مبالغ جيدة من عمله هذا، لأنه يبدو على قدر كبير من الثراء.

ظللنـا نمر فـي طريقنا بين بسـاتين النخيل ومختلف أنـواع النباتات والأشـجار الأخرى، وبين القنوات والخنـادق الصغيرة التي تم حفرها في كل مكان هنا حول النيل. كانت الرحلة ممتعة جداً، وخصوصاً عند المـرور من خلال بسـاتين النخيـل أو عبرها. وسـرعان مـا وصلنا مرة أخـرى إلى السـهل الصحراوي الشاسـع. وقد نمت على حافة السـهل

غابة كثيفة من أشجار الأكاسيا التي يعيش فيها الكثير من الأرانب حسب ما سمعناه في المقهى. لذا نزلنا عن دوابنا ودخلنا إلى الغابة. ولكنها كانت كثيفة جداً لدرجة أننا لم نتمكن من المشي إلى الأمام إلا في بعض الأماكن القليلة فقط حيث كانت أشواك فروع الأشجار حادة تقوم بوخزنا عند الحركة. ولم نجد أي شيء على أي حال باستثناء ما يسمى (قبرة الصحراء) التي تمكّن يوسف من قنصها. في الصحراء، بالقرب من حافة الغابة، كانت مجموعة من النساء والأطفال منهمكة في رعي الأغنام، ركض الأطفال هاربين خوفاً منا عندما اقتربنا منهم. تجولنا قليلاً هنا ثم عدنا لمواصلة رحلتنا نحو السهل الصحراوي. لم تكن الرمال عميقة كثيراً، ولا ناعمة كثيراً بل كانت مليئة بحصى أبيض صغير كروي الشكل. أخذتنا رحلتنا إلى بلدة صغيرة، لاحت مآذنها في الأفق أمامنا، ولم يكن في الجانب الآخر من المدينة غير بعض التلال الرملية، وربما بعض الجبال أيضاً، وليس بينهما إلا السماء، ورمل على مدى البصر. لم يكن اليوم حاراً حرارة تذكر، وكانت بعض الغيوم الصغيرة تسبح في السماء بين الحين والآخر، إضافة إلى رياح الشمال المنعشة التي كانت تهب من الصحراء نحونا. وهكذا كانت هذه الرحلة ممتعة جداً بكل المقاييس، وقد سررت بها من أعماق قلبي. وقبل أن يأخذنا طريقنا إلى (الخنقة)، المدينة التي نحن ذاهبون إليها، عرجنا على آثار بلدة صغيرة قديمة لم يبق منها إلا خراب تقع على تلة على بعد نصف ساعة تقريباً من (الخنقة). قال يوسف إنه قنَص في إحدى المرات فهداص هنا. لذلك توجهنا إلى هناك على أمل الحصول على طريدة، ولمشاهدة أنقاض المدينة، وهو الأمر الرئيسي بالنسبة لي. هذه المدينة ليست من عهد مصر القديمة، بل من زمن العرب غير أنني لا أعرف إلى أي زمن تعود. وقد كانت في معظمها مبنية – مثل ما هو الأمر في (الخنقة) – من الطوب الأحمر الذي فُصلت صفوفه بالحجر

الرملي المحلي. كان لشوارعها المستقيمة انطباع سيادة نظام فريد من نوعه. شعرت بمتعة خاصة جداً وأنا أتجول على ظهر مطيتي هنا بين صفوف المنازل المهدمة التي لم يبق منها إلا الأساسات والطوابق الأرضية. تمكنت الآن من أن أعيش حقاً ما تدل عليه قصائد الشعر العربي التي يبكي فيها الشاعر على أطلال الحبيبة. وتقع هذه المدينة وسط الصحراء، فلا أثر فيها للزراعة ولا لقنوات الري، على ما أذكر. وبعد أن تجولنا بين الأنقاض توجهنا مباشرة نحو (الخنقة) مروراً في الطرق بشاهد قبر متهدم تماماً، وبمسجد لا يقل تهدماً. كما مررنا ببعض المقابر، ورأينا رجلاً صعيدياً أسود يخرج منها وهو عارٍ تماماً فلم يحاول أن يستر جسده بأي شيء. اعتقدت أنا ويوسف أنه مجنون، ولكن سائق حميرنا الصغير قال إنه شيخ وولي. سلطنا عليه أحد الغلمان فرماه بالحجر فما كان من الرجل الأسود إلا أن رد على ذلك بوابل من اللعنات والشتائم. وقال إنه مصاب بلمسة شيطانية مثل تلك التي في المكان الذي يرقد فيه، مما جعل الأولاد يخافون منه كثيراً. وقد أكد لنا سكان المدينة لاحقاً أن الرجل ولي.

ركبنا دوابنا عند الظهر متجهين إلى (الخنقة) ونزلنا في ما يسمى «بيت الضيافة»، وقد اندهشت عندما علمت أن في هذه البلدة بيتين اثنين للضيافة. حصلنا على غرفة أشبه بالكوخ الصغير، ليس لها أي منفذ باستثناء باب منخفض. كما كان سقف الغرفة نفسها منخفضاً لدرجة أنني بالكاد كنت أستطيع الوقوف فيها بشكل مستقيم. ولكننا لم ندخل إلى الغرفة إلا بعد أن نظفوها أقصى ما يمكن. خرجنا إلى ساحة كبيرة جداً، نصبت على جنباتها محلات تجارية تبيع مختلف الأشياء. دخلنا إلى محل طباخ كانت له خمس طناجر على النار، وجلسنا نتناول وجبة شهية. ولكنني أكلت الأرز فقط، ولم أستطع أن آكل باقي الأطباق الأخرى لأنني أحسست فيها بطعم القصدير ربما

لأن الطنجرة كانت مطلية بشكل سيء. ثم تجولت بعد ذلك في السوق الـذي كان شـارعه عريضاً بالمقارنة مع الشـوارع المحليـة، وكانت فيه الكثير من المحلات التي تبيع المواد الأكثر استعمالاً مثل البن والتبغ. ثم تجولت أكثر في هذه المدينة التي بدت لي كبيرة ومهمة بالمقارنة مع المـدن المصرية الأخرى. وكانت المنازل في معظمها مبنية من الطوب والحجر الرملي، ولكـن معظمها كانت منخفضة، وكانت على نوافذها حواجـز قُضْبانٍ خشـبية مُتَصَالِبَـة. ومع ذلك فإن المنـازل في جزء كبير من المدينة كانت متداعية ومهجورة، وربما غير صالحة للسكن كذلك. وكانت معظم الشوارع أوسع من المعتاد، ونظيفة جداً.

ثم ذهبت إلى خارج المدينة للتجول في الحدائق الكثيرة الموجودة بها. كما توجد هنا بعض قصور الباشا التي تحيط بها حدائق واسعة. كل هذه الحدائق والمزارع وبسـاتين النخيل والزيتون قد غرسـت في رمال الصحـراء، تعجبت كثيراً لكون هذه الأشـجار والنباتات قد تمكنت من أن تنمو وتصبح بهذا الجمال في مثل هذه المدة القصيرة التي لا تتجاوز العشـرة أو عشـرين سـنة على الأكثر. ولكنني لاحظت أنه بُنيت في كل مـكان هنـا الكثير مـن عجـلات وأنابيب الميـاه، وكذلك قنـوات الري الصغيـرة المحفورة لتمد الرمال بمياه نهر النيل الموحلة. وقد غرسـت في جميـع أنحاء المدينة أشـجار ونباتات رائعة الجمـال، ولكن أهمها كانـت حول قصر الباشـا. وكان هناك مسـجد جميل حديـث البناء يقع على مشـارف المدينـة إنْ لـم يكن خارجها، بالإضافة إلى مسـجدين أو ثلاثـة آخرين يقعون بالقرب من مركز المدينة. ولكنني لـم أزر أياً منهم، لأننـي جئت إلـى هنا برفقة إفرنجي، وكان معظم الناس يشـتبهون كثيراً فِـيَّ هنا، فبعض الناس كانوا يقولـون إنني إفرنجي، في حين أن بعضهم الآخر كانوا يعتبرونني مسلماً، ويلقون علي تحية السلام على الرغم من كل الدلائل الواضحة على خطئهم، مثل أنني كنت أتحدث مع يوسـف

بالفرنسية.

وبعد أن تجولت لساعات تقريباً، جلست في أحد المقاهي وبقيت هناك وقتاً طويلاً، في حين أن يوسف كان قد ذهب في غضون ذلك للقنص. كان في هذا المقهى الكثير من الأتراك، وما أكثرهم هنا عموماً، كما كان هنا أشخاص محليون كذلك. وقد أخبرنا هؤلاء بأن من المتوقع أن يصل أبناء الباشا الأصغر إلى هنا غداً، إذ من المفترض أن يمضوا هنا شهر رمضان. ويقال بأن الكثير من أصحاب المهن، مثل الحلاقين والفقهاء، يأتون إلى هنا من القاهرة. ذهبت مرة أخرى أتجول في المدينة وخارجها، ووصلت إلى بيت الضيافة، قُبَيْل صلاة العشاء. وكان يوسف قد عاد من رحلة الصيد ولو أنه لم يحصل لا على ما يطير في السماء، ولا على ما يدب على أربع. كانت وجبة العشاء تتكون من خبز وجبن وتمر. كما أعدّ لنا أحدهم الكنافة، وهي تشبه المعكرونة. ثم جلسنا ولمدة طويلة ندردش في الشُّرفة. ولكننا الآن لم نعد نتكلم بالفرنسية وإنما بالعربية. يوسف يتحدث العربية بطلاقة لأنه تكلمها منذ حداثة سنه فهو قد نشأ هنا، ولكن له لكنة تكشف بسرعة أنه ليس عربياً. ومع ذلك فإنه يفترض في نفسه مهارة عالية ويعتبر نفسه أستاذاً كبيراً.

9/13

لم نستيقظ في وقت مبكر للغاية، ولكننا كنا قد اغتسلنا وعلى استعداد للخروج بعد طلوع الشمس بقليل، وقبل أن تصعد عالياً في السماء. ركبنا الحمير وغادرنا بعد أن شربنا القهوة في المقهى نفسه الذي كنا فيه أول أمس. سرنا الآن في طريق أقرب من حافة الصحراء، وأخذ يوسف سلاحه وذهب يبحث عن فريسة ما، وأطلق رصاصة بعد أخرى، ولكنه لم يحصل على أي شيء. وكنت أتعجب من ذلك طول

الوقت مع تقدمنا أثناء الرحلة أنه أخطأ كل تسديدة سددها. وقد كان فشله في الصيد يسبب له حرجاً، وقد قال إنه لم يعانِ أبداً من سوء حظٍّ كهذا. كانت الطرق اليوم مغطاة بالماء، بحيث كان على حميرنا أن تتخبط في المياه لمسافات طويلة. ثم وصلنا مرة أخرى إلى المزارع وبساتين النخيل ويوسف لا يزال في رحلة الصيد لم يعد منها بعد، ولم يحصل منها على أي شيء. اشتريت بعض التمر، وأكلت معظمه خلال الرحلة، لأنني بدأت أحس بالجوع بعد ركوبي على الحمار الصباح كله. لكنني أعتقد أن التمر هو السبب في أنني عانيت بقية اليوم من الغازات. وبعد مدة قصيرة وصلنا إلى (مقهى المرج)، حيث التقينا مرة أخرى (بالضَّبَّاع) وغيره. كنت وحدي لأن يوسف كان لا يزال في رحلة صيده، وسمعت أحدهم يهمس وهو يسأل هل أنا مسلم أم لا. وقد تعجبت عندما أجاب سائق الحمير أنني مسلم على الرغم من أنه بالأمس اعتبرني إفرنجياً وقال لي بضع كلمات إيطالية يعرفها. وكان (الضَّبَّاع) قد أمسك هذه الليلة ما يسمى (فأر فرعون) أي النمس. وكان مربوطاً في المقهى وغاضباً بشكل رهيب، واشتريناه منه، فوضعه في كيس صغير. بقينا لبعض الوقت في المقهى ندردش قبل متابعة الرحلة.

عند السهل الرملي، خارج المطرية، وقفنا عند الهضبة لمشاهدة المسلة التي ما زالت قائمة هنا منذ زمن أون[1] القديمة. وهي تقع وسط حديقة لأحد الفرنجة على ما أعتقد. كانت المسلة كبيرة وجميلة، وكان عليها كتابة هيروغليفية، ولكنني أعتقد أن هذا الحجر الرمادي، مثل الذي عندنا، سيضمحل. على أي حال، أشعر بأن جرانيتنا والجرانيت المصري سواء. أكد لي يوسف أن هذه المسلة هي الشيء الوحيد الذي تبقى من البلدة القديمة، ولكنني أعتقد أنني قرأت أن في هذه المنطقة قبوراً كذلك. أظن أنني رأيت أكواماً صغيرة في المنطقة المحيطة

---

(1) أون أو هليوبوليس.

بالمدينة، كما هو الحال في كثير من الأحيان حول الأماكن الأثرية. وقد تكونت هذه الأكوام هنا مع مرور الوقت بالتأكيد من الحصى وربما من نفايات المدينة. وصلنا إلى مقهى العجوز الثرثار، وجلسنا نرتاح هناك بعض الوقت. لم يكن الرجل على طبيعته اليوم، فهو لم يتحدث كثيراً. وبعد أن دخَّنَّا وشربنا القهوة، واصلنا رحلتنا، ووصلنا إلى القاهرة عند الظهر. كانت الشوارع مزدحمة على نحو غير عادي، وكان الجميع يقولون: «الصوم يبدأ غداً.» عادة ما يستقبل شهر الصيام بفرحة كبيرة هنا، وهذا واضح. بعد وصولي إلى البيت، سنحت لي الفرصة لمشاهدة موكبين كبيرين، أحدهما من تنظيم شيخ جمعية الجزارين والثانية من تنظيم شيخ جمعية الخبازين. كان الضوضاء والضجيج يعُمَّان المدينة عامة طيلة اليوم، وكان الأولاد يركضون في كل مكان وهم يغنون. خرجت وقت صلاة العشاء، ورأيت سرية من الجنود؛ أو ربما كانت فرقة عسكرية كاملة؛ تنظم استعراضاً عسكرياً في شارع الموسكي وتتجه نحو القلعة. ولكنني كنت قد خرجت في وقت مبكر جداً، بحيث إن الناس لم يكونوا قد خرجوا بعد.

9/14

صمتُ كما يصوم المسلم على الأقل، ومن ثم لم أضع أي شيء في فمي ولا في أنفي. لم أشرب ولو قطرة ماء واحدة، ولم أضع في فمي ولو نتفة عطوس صغيرة. كان الإمساك عن العطوس أمراً صعباً حقاً بالنسبة لي. أردت البقاء في المنزل والنوم حتى يمر هذا اليوم الطويل، ولكنني لم أستطع النوم. ولذلك خرجت وذهبت إلى شارع الموسكي بضع ساعات قبل صلاة العصر، واشتريت قلم حبر. التقيت هناك بخياط ألماني غريب الأطوار، كنت قبل بضعة أيام قد حاولت إقناعه بأنني عربي. والآن جلس يلقي علي محاضرة طويلة مفادها أنني الآن

حصَّلتُ ثقافةً كثيرة، ومعرفةً أوروبية غزيرة، خصوصاً وأنني أتحدث اللغة الألمانية جداً، وبأنه ينبغي لي أن أحافظ على مواهبي هذه وألا أتركها تتقهقر كما فعل الآخرون الذين سافروا على حساب الباشا إلى الخارج، إلى باريس مثلاً، ولكنهم الآن وبعد سنوات قليلة من عودتهم تغيروا. وعندما قُدِّمَت لي القهوة فرفضت أن أشربها، علَّق بصوت عالٍ بأن ذلك إثبات أنني الآن أغرق في البربرية مجدداً.

كانت الشوارع في معظم الوقت أهدأ قليلاً ربما من المعتاد، ولكنها لم تكن هادئة بقدر ما كنت أتصور. ذهبت في نزهة قصيرة في شارع الحديقة بالأزبكية وعرجت على منزل يوسف، والتقيت هناك بشيخ وصل اليوم إلى المدينة من البرانية، لكنني وصلت إلى المنزل قبلَ وقت صلاة المغرب. فور أذان صلاة المغرب تقريباً، أخذت قليلاً من السعوط وكان مذاقه رائعاً. وشربت رشفة واحدة من الماء، ومن ثم جلست إلى مائدة الطعام. لم تكن شهيتي مفتوحة بشكل استثنائي، وذلك لأن رأسي كان يؤلمني قليلاً. وبعد الإفطار بقينا جالسين لبعض الوقت ندردش وندخِّن.

وعند اقتراب صلاة العشاء خرجت وحدي وذهبت في جولة طويلة في باب الخلق أولاً حيث بقيت مدة، ثم إلى الأزبكية حيث دخلت إلى متجر حنفي، واستلقيت على مقعد وغفوت. ولكن سرعان ما استيقظت وذهبت لأتجول في جميع أنحاء المدينة، فمررت أولاً بشمس الدولة أبحث عن الحكواتي الشيخ إسماعيل، لكنه لم يكن هناك. وأخيراً مررت بجانب جامع الأزهر ومسجد الحسنين. معظم الناس لم يكونوا قد خرجوا بعد، فهم لم يتعودوا بعد على هذا التغيير بين الليل والنهار. وعندما عدت إلى منزلي بعد منتصف الليل بقليل، التقيت الشيخ علي الذي أخبرني بأنه كان يزور الشيخ شهاب فوجد خادمي المطرود هناك يشتكي ويتهم الشيخ علي بأنه تسبب في طرده.

كما أخبرني أيضاً بأن سيد علي أخبر الشيخ شهاب بأنني إفرنجي أتظاهر بكوني مسلماً. ولكن الغريب أن الشيخ علي لا يشتبه في إسلامي على ما يبدو، بل إنه يعتقد أن سيد علي مجنون، أو أنه فقد صوابه. والحقيقة أنني أحس بالذنب لخداع رجل مثل الشيخ علي، ولكن ما باليد حيلة! لقد أصبحت رغبتي في مغادرة القاهرة تزداد يوماً بعد يوم، ليس لهذا السبب وحده، وإنما لأن حياتي هنا أصبحت مملة جداً.

9/15

استيقظت وقت الضحى، أبْكر بكثير مما كنت أتمنى. حاولت أن أجرب صوم المسلمين بالأمس، لكنني لم أصم اليوم. في الواقع سمحت لنفسي بالماء والسعوط، فتمكنت بذلك من تجنب لمس الطعام قبل أذان المغرب دون أن أشتهيه البتة. بقيت بعض الوقت في البيت، وبعد أن شعرت بالضجر خرجت ظهراً للمشي قليلاً. وقد اندهشت كثيراً عندما تجولت في النحاسين فلاحظت أن الشوارع مكتظة بالناس أكثر من المعتاد، وبأن النائمين في المتاجر أقل من العادة. وكان الناس يجلسون معاً في المتاجر ويتحدثون وإن كانوا الآن دون قهوة ولا تبغ. وبالإضافة إلى ذلك كان الكثير من الناس يتدفقون داخل مسجد الحسنين وخارجه. كما أنني لم ألاحظ أن الناس كانوا الآن في شهر رمضان أسوء مزاجاً من المعتاد كما يقال. لكنني رأيت رجال الشرطة يقتادون رجلاً إلى مركز الشرطة، وكان الناس الذين احتشدوا حوله يضربونه. كما أن ضيوفي القادمين من البرانية قالوا إنهم عندما كانوا يتسوقون لاحظوا أن الناس يتعاملون بفظاظة شديدة وبمزاج سيء لدرجة أنهم لم يتمكنوا من الشراء.

ذهبت إلى شارع الموسكي عبر شارع الحمزاوي، ولاحظت أن الحركة في كل مكان أكثر من المعتاد. تمشيت قليلاً في شارع الحديقة

متوجهاً إلى الأزبكية، ثم ذهبت عند (ديتل)، حيث التقيت بأربعة ضباط بحرية روسيين جاؤوا إلى هنا من الإسكندرية حيث إن سفينتهم راسية فيها الآن. وقد قضوا أحد عشر يوماً هنا يتجولون في القاهرة ويتفرجون على معالمها المهمة. وكانوا الآن يستعدون للعودة. كان أحدهم قد زار فنلندا قبل ثلاثة عشر عاماً وأمضى فصل الشتاء في فيابوري[1]. وقد سحرته بلادنا الجميلة، مثلما سحرت الكثيرين غيره، وقال بأنه قضى هناك أحلى أوقات حياته. جلس بجانبي وتحدثنا كثيراً حول هذا الموضوع وحول غيره. كان اسمه (شبيتزن)، وهو يعتقد أنه سويدي الأصل، على الرغم من أن عائلته تعيش في روسيا منذ أربعة قرون، وأصبحت روسية العادات والثقافة مثل الكثيرين. ولكن ملامحه لم تكن روسية على الإطلاق في حين أن طريقة كلامه ولكنته روسيتان قحتان. إضافة إلى أن فيه شيئاً من ذلك الانفعال الروسي. يبدو على هؤلاء الشبان الأربعة جميعهم أنهم رجال حقيقيون، وقد استمتعت بتمضية بعض الوقت معهم. وبعد ذلك بوقت قصير جلست قليلاً مع كولر. وقد عانى هذا الأخير منذ خمسة أيام من (خراج مصر) الذي ظهر في منتصف بطنه، ومنعه من الخروج. ويعاني الكثيرون هذه السنة من هذا الخراج نفسه.

بعد صلاة العصر، سرت ببطء نحو المنزل. كان الشارع لا يزال مكتظاً بالناس كما في الأيام العادية أو ربما أكثر من ذلك. بعد صلاة العشاء، بعد أن تناولنا وجبة الفطور[2]، أي وجبة رمضان كما يسمونها هنا، جلسنا لبضع الوقت ندردش مع ضيوفي القادمين من البرانية الذين أتمتع برفقتهم هذه الأيام. ثم ذهبت وحدي وقمت بجولتي المعتادة

---

(1) جزيرة فنلندية تسمى اليوم (سوامين لينًا) أي (قلعة فنلندا) (بالفنلندية Suomenlinna).

(2) يبدو أن الأمر قد اختلط على والين مرتين هنا: خلط بين الكلمة المصرية (الفطار) وكلمة الإفطار. وبين صلاة العشاء وصلاة المغرب.

أولاً فـي الأزبكية حيث كانت شـبه فارغة من النـاس الآن، ومن ثم في أهم أحياء المدينة وأكثرها حيوية عادة. كان الناس جالسين في المقاهي وفي المتاجر يستمتعون بفناجين القهوة، يدخنون، ويدردشون. تجولت أبحث عن الشـيخ إسـماعيل ووجدته في نهاية المطاف في سـاحة أحد الفنـادق، ولكـن الناس كانوا مكتظين من حوله بشـكل رهيـب فلم أُردْ أن أدخـل بينهـم خوفاً من الحر الخانق. تابعت سـيري وتمشـيت قليلاً في الغورية التي كانت الآن صامتة تقريباً، ثم مررت بالأزهر والحسنين وكانا مغلقين الآن، فجلسـت في النهاية فـي المقهى القريب من منزلي أسـتمع إلى الراوي لكنه كان سـيئاً. عدت إلى البيت وارتحت قليلاً ثم بدأنا نحضر وجبة السـحور ربما في السـاعة الثالثة بتوقيتنا. ثم جلسـنا ندخن ونتحدث. كنت أتسـاءل لماذا لم تكن للشيخ علي شهية للأكل، ولماذا كان يأكل أقل بكثير من المعتاد، لكنه يعتقد أن الله يطعمنا خلال شـهر الصيام بأشـياء أخرى غير الغذاء الجسـدي، وبأن القرار الداخلي القوي، والقناعة بتميز الصيام وتميز هذا الشـهر، أمور كفيلة بأن تجعلنا شبعانين وسعداء.

9/16

كنـت سـعيداً جـداً لأننـي لم أسـتيقظ إلا عنـد الظهـر تقريبـاً. وبعد أن انشغلت ببعض الأمور في البيت، خرجت واستأجرت حماراً ثم ركبت أقصـد المدينة القديمة في القاهرة. كنت أسـير الآن في الجانب المطل علـى الصحراء وتفرجت بمتعـة كبيرة على الحدائق التي كانت مفتوحة في هذا الجانب، دون جدران أو أسـوار. ثم دخلت قليلاً إلى الصحراء أيضاً، ووصلت إلى أقدم مسـجد في المنطقة: جامع عمرو[1]. وقد بناه عمرو بعد أن فتح الخليفة عمر مصر خلال القرن السابع. وحول الجامع

(1) جامع عمرو بن العاص.

أنقاض مبنى آخر كبير، قال سائق الحمير اللطيف والثرثار، بأنها أنقاض كنيسة مسيحية. مسجد عمرو هذا هو أيضاً أكبر وأوسع مسجد هنا، رغم أنه لا يُستخدم إلا مرة واحدة في السنة. وقد تدفق الناس إليه من القاهرة يوم الجمعة الماضي في شهر رمضان هذا، لأداء صلاة الجمعة. كما تؤدى صلاة الاستسقاء هنا أيضاً في أوقات الجفاف. وقد اشترك أربعون صحابياً فى بناء المسجد وتحديد قبلة الصلاة به. ولذلك يُعتقد أن القبلة فيه أكيدة ودقيقة تماماً. المسجد الآن على شفى حافة من الانهيار، ولكن الباشا أبلغ سلطان القسطنطينية هذا العام فقط بشأن حالة المسجد، وسوف يجري إصلاحه على حساب السلطان الآن.

عندما خطوت إلى داخل المسجد من بوابته المتهدمة، تفاجأت بوجود مجموعة من الخزافين الذين يعملون في الفناء. هنا يصنع مختلف أنواع الأواني الفخارية من أباريق وجرار وما إلى ذلك. ولكن هذا كان يحدث خارج المسجد في الأكشاك المنخفضة التي أقيمت حول المسجد. وعندما دخلت الباحة الداخلية اندهشت حقاً من شساعتها. القاعة التي تحتوي على الأروقة المخصصة للصلاة، وعلى المنبر، وعلى منصة المؤذن؛ فيها ستة صفوف واسعة من الأعمدة المتوازية مع جدار القبلة. كما كان ثمة رواقان آخران فيهما ثلاثة أعمدة موازية وكذا رواق ثالث ليس فيه إلا صف أعمدة واحد فقط. وكانت الأعمدة مصنوعة من الرخام في معظمها على الأقل. كان للمسجد مئذنتان، لكنهما كانتا منخفضتين وبسيطتين جداً. ويشير كل هذا على ما يبدو إلى بساطة فن العمارة العربية في مراحله الأولى. كانت أعمال الإصلاح والترميم قد بدأت في هذا المسجد الآن، ذلك أن من العار ترك مثل هذا المسجد عرضة للخراب بالتأكيد. وعندما خرجت من البوابة، التقيت بعجوز ثرثار أخبرني بأن أسلافه كلهم سهروا على خدمة هذا المسجد من جيل إلى جيل كحراس له. ثم أشار إلى عمودين

قريبين جداً من بعضهما من بعض وقال: «من تمكن من المرور بين هذين العمودين هو رجل جيد وشجاع». حثثت سائق الحمير على المرور بينهما ففعل وهو يهمهم «باسم الله» بطبيعة الحال. ثم مررت بينهما أنا أيضاً، ولكنني حينئذ لاحظت بأن العمودين أضيق بالفعل مما كنت أعتقد في البداية، على الرغم من أنني تمكنت من المرور بينهما دون صعوبة.

ثم غادرنا المكان عبر طريق آخر، ومررنا بمسجد (الشيخ سعود أبو الجراح) الصغير الذي يقع بين تلال رملية حيث يقام الذكر ويقرأ القرآن إحياء لذكراه كل ليلة ثلاثاء إلى الأربعاء. وأكد لي سائق الحمير أن أي شخص مريض يتردد على هذا المسجد كل أسبوع لا محالة يشفى من مرضه. وبالطبع قرأنا سورة الفاتحة عند مرورنا بالمسجد. ثم مررنا بقنوات المياه التي مُدَّت إلى القلعة، والتي عادة ما يشار إليها باسم «عجلات المياه السبعة» لأن ثمة سبع عجلات ترفع المياه من النهر. ثم دخلنا من بوابة المدينة من جانب السيدة نفيسة، ومررنا كذلك بالسيدة رقية والسيدة سكينة. كما رأيت السيد الجيوشي من بعيد على قمة الجبل الذي يحمل اسم الجبل نفسه. وقد أخبرني سائق الحمير بأن سلسلة الجبال لا نهاية لها، وبأنها تمتد إلى قُصَير بل وحتى خارجها، وأنها لا تنتهي إلا عند الينبوع. كما حكى الكثير عن هذا الجبل وعن الولي الذي يحميه أشياء كثيرة عجيبة من قبيل أن الجبل كان دائماً يسير بجانبه مثلما كان جبل عرفات يسير بجانب النبي، وأنهما كانا يصرخان في الجبل-المطية «خوط» مثلما يصيح سائقو الحمير في مطياتهم إلى الآن في الأماكن الصعبة أوشديدة الخطورة. كما قال بأن جبل الجيوشي كان قد رفض الصعود إلى عرفات، إلخ.

ثم وصلنا إلى المدينة بعد مدة، ومررنا بالبيت المخصص للدراويش الذي لا ينزل فيه غالباً إلا الدراويش الفرس، ثم مررنا بأحد الأولياء

الذي يجلس بشكل دائم أمام مسجد صغير. لم ينبس ولو بكلمة واحدة يوماً ولو أنه ليس أبكما. ويكتفي بالإيماءات فقط للتعبير عن نفسه مع من يأتون إليه لرؤيته لكي يطلبوا مساعدته. اسمه عبد الوهاب، تخدمه أمه وهي من يأخذ الأموال التي يهبها الناس له. وأخيراً افترقت عن سائق الحمير في شارع الموسكي، وتجادلت معه بطبيعة الحال حول سعر الركوب كأي عربي حقيقي، وسألت الحاضرين أن يشهدوا أنني دفعت له وفقاً لأسعار السوق. ثم تمشيت بعد ذلك هنا وهناك في شارع الموسكي والتقيت بعبد العزيز، فمر الوقت إلى ما بعد صلاة العصر بقليل. وعندها عدت إلى المنزل وانتظرت أذان صلاة المغرب بفارغ الصبر.

لم أصم اليوم، ومع ذلك فإنني بالصدفة لم أشرب شيئاً، ولكنني تناولت القليل من السعوط من الورقة الصغيرة المخروطية الشكل التي كانت معي. ومع ذلك لاحظت أن صيام المسلمين ليس صعباً كثيراً؛ أو على الأقل ليس على من لا يقوم بعمل شاق جداً. ولم يكن المحليون يعتبرون هذا الشهر شهر الصوم والتوبة القاسي والمؤلم، بل يعتبرونه شهر الفرح والسرور، ولو أنه شهر يحظى باحترامهم وتقديرهم الكبيرين. والأمر كذلك بشأن دينهم بصفة عامة حيث ليس فيه أسرار ولا مشقة وتبجيل كالذي عندنا. فهم لا يعتبرون المسجد مكاناً للعبادة يثير الخوف والرعشة بل يعتبرونه بيتاً يمكن للمرء دون إي إشكال على سبيل المثال قضاء ليلة هادئة فيه. لكن الكثيرين من علية القوم والفضلاء في القاهرة يدعون إلى منازلهم فقيهَيْن يقرآن القرآن عندهم من المغرب إلى السحور، وتسمعهم يهمهمون أينما حلُّوا.

في المساء ذهبت أتمشى كالمعتاد في الأزبكية أولاً، حيث رأيت عدداً من القناصل والإفرنج يركبون عرباتهم ويتوجهون إلى القلعة، ربما للترحيب بالباشا الذي وصل للتو. مشيت مدة في شارع الحديقة،

وجلست في متجر حنفي أدخن البيبة ثم ذهبت لأتمشى من جديد. ذهبت أولاً إلى الغورية وجلست في شرفة أحد المتاجر أستمع إلى الذكر الجميل الذي أقيم في مسجد السلطان المؤيد. ثم تمشيت وجلست في النهاية في المقهى القريب من منزلي أستمع إلى الراوي العجوز.

وعندما عدت إلى البيت انضم الشيخ علي إلى رفقتي وبقي معي نتجاذب أطراف الحديث مدة طويلة. كان قد زار الشيخ شهاب مرة أخرى هذا المساء، ومن ثم دار الحديث حول هذا الشيخ الذي حكى لي الشيخ عليٌّ قصة حياته الآن بتفصيل شديد. وقد سمعت من قبل كثيراً من المقاطع الجميلة عن حياته. الشيخ شهاب هذا هو من أشهر شعراء القاهرة، ومن نقائصه الشاعرية شرب العرق حتى الثمالة؛ ومن نقائصه غير الشاعرية في رأيي حب الغلمان، ولهذا الغرض في بيته شاب في الثلاثين من العمر لا يفارقه أبداً يسمى محمد صالح، تعرفت عليه في الجمالية، وكثيراً ما كنت أجلس معه في المتاجر. كان شهاب متزوجاً من عمة هذا الشاب، وبما أنه يهجر زوجته ويعاديها فإنها لجأت إلى خادمها وكانت تعاشره. ومرَّةً فاجأت الزوجة شهاب وهو يمارس الفحشاء مع عشيقه علناً، فلامته وقالت لهما إذا كان الله قد ابتلاكم بمثل هذه المعصية فاستتروا على الأقل؛ إذ عليكم بالستر والسرية، وليس إتيان الفاحشة هكذا علناً على مرأى ومسمع من الناس. غضب محمد غضباً شديداً من لوم عمته فلامها على شتائمها، وضربها بحذائه، كما أن شهاب أيضاً صرخ في وجه زوجته وانهال عليها بوابل من الشتائم ثم طلقها. كما أنه طرد معها ذلك الغلام الذي كان في خدمتها، وكان عشيقها في الوقت نفسه. وهما الآن يهيمان على وجهيهما ويعيشان في بؤس ودون حماية، ويقال إن المرأة وصلت إلى بر الأمان عند شقيقها. وما يزيد الطين بلة أن محمد صالح هو الآخر متزوج، وأن

زوجته تسكن في بيت شهاب بطبيعة الحال. ومحمد يوزع وقته بينهما بحيث إنه يخدم شهاب الذي كان ينام وحده في غرفة صغيرة، ويذهب لإشباع رغبة زوجته بعد ذلك. وفي إحدى الليالي بحث عن زوجته فلم يجدها، وبعد البحث عنها مطولاً في كل مكان وجدها أخيراً مع شهاب في سريره. ونتيجة لذلك طلق صالح زوجته. وقد حصل الشيخ علي على كل هذه المعلومات الأكيدة تماماً من الخادم الذي كثيراً ما يأتي إليه ليتحدث معه عند البوابة.

9/19

قُمنا بإعداد طعامنا وتناولناه، وارتحنا إلى أن حانت صلاة العصر، ثم ذهبت إلى المقهى اليوناني في الأزبكية. سمعت عزفاً على البيانو عندما كنت ماراً (بالفندق الشرقي) فوقفت وبقيت هناك مدة طويلة أستمع إلى العزف. سمعت معزوفة لإحدى أغاني (مندلسون) وغيرها من المعزوفات الألمانية. في مثل هذه الأوقات، من الصعب على المرء أن يحافظ على هدوئه لأن البيت وجميع الذكريات المتعلقة به تحضر بقوة وتطالب بحقوقها. وبقيت جالساً في المقهى حتى وقت متأخر من المساء أستمتع بمذاق القهوة الرائع، وبأشجار الأكاسيا الخضراء بديعة الجمال تحت القمر الساطع، وفي جو المساء المعتدل. ثم ذهبت في جولتي المعتادة، ومررت بالنحاسين، حيث كانت ساحة المقهى الذي يعزف فيه الموسيقيون مزدحمة جداً لدرجة أن الشارع أصبح مغلقاً تقريباً. وأخيراً، جلست في المقهى القريب من باب منزلي أستمع إلى الراوي العجوز ذي اللحية البيضاء. بدأت أمل من رمضان ومن أفراحه، مثلما مللت ومنذ وقت طويل من القاهرة ومن ناسها.

9/20

اليوم استطعت النوم إلى الظهر تقريباً. استيقظت ونهضت من فراشي ودرست اللغة العربية قليلاً. بعد ذلك جلست أرقع جلبابي البالي، وهكذا مضى من وقتي بضع ساعات من الظهيرة. ثم خرجت وتمشيت على مهل إلى الأزبكية. وفي طريقي إلى هناك، رأيت شابين يتشاجران بعنف شديد حيث كان وجه كليهما ملطخاً بالدم، وكان حولهما عدد كبير من النساء يحاولن تفريقهما عن بعض ولكن بقي كل منهما ممسكاً برقبة الآخر. وكانت هناك فتاة صغيرة، ربما تكون ابنة أحد المتعاركين، كانت تركض باكية وتحاول إقناع أحد المارة بالتدخل لتفريق الرجلين. وفي النهاية وجدت جندياً أتى وأخذ الرجلين إلى مركز الشرطة. كان الرجلان أخوين، وكانا قد استخدما نوعاً من أنواع الأدوات الحديدية في تشاجرهما، بحيث كان لأحدهما جرح بليغ في صدغه وللآخر مثله على جبهته. ونادراً ما رأيت جروحاً دامية هنا أو ربما لم أرها إطلاقاً.

ثم ذهبت عند (ديتل) وبقيت هناك مدة طويلة. تحدث كثيراً عن الفتيات هنا وعن مغامراته معهن. ويبدو أنه يشتاق إليهن كثيراً. وقال إنه تلقى رسائل توبيخ من جامعة قازان ثلاث مرات حول التغييرات التي طرأت على خطة سفره. يا للفرق بين جامعته وجامعتي حيث لم يكن لجامعتنا أي ملاحظات عليَّ ولو أنني لم ألتزم بمسار رحلاتي الأصلي الذي قدمته هناك! عدت إلى البيت قبل صلاة المغرب ببضع ساعات، أكلت وذهبت عند (ديتل) لإحضاره كما اتفقنا. ذهبنا إلى المدينة ومعنا اثنان من خدمه إضافة إلى البواب محمد، ومن ثم كنا نبدو كموكب من مواكب ذوي الشأن من الأتراك. جلسنا أولاً في الفندق، حيث كان الشيخ إسماعيل يروي القصص في قاعة غاصة بالناس، ثم ذهبنا إلى مسجد الْمُؤيَّد وجلسنا هناك للاستماع إلى الذكر الجميل. لم يكن الذكر هنا أجمل ما سمعت، ولكنه كان احتفالياً جداً، وكانت

فيـه فروقات بسـيطة في الألحـان والإيقاعات. ثم ذهبنـا إلى البيت بعد منتصـف الليل بقليل. وصلت إلى البيـت منهكاً وتعباً، وكنت أحس أن عنـدي حمى خفيفة، وأن حالتي يرثـى لها. ربما أُصبت بالزكام دون أن ألاحظ ذلك.

9/21

استيقظت في الصباح الباكر وكنت في حالة بائسة للغاية، وكأن جسمي كلـه قُطِّـع إلـى قطـع صغيرة. ومـع ذلك خرجـت قبل وقـت قصير من ظهـر اليوم وذهبـت عند (ديتـل). وبينما نحن جالسـان هنـاك، جاءت فتـاة لرؤيتـه، ودار بينهمـا كلام كثير عن فتـاة تدعى فاطمة يبـدو أن لها مكانة عالية عنده. كان سلوكه وموقفه كله من هذ الأمر مثيراً للاشمئزاز والارتباك. إن التعامل بفروسـية مع البغايا أمر غير لائق على الإطلاق. (ديتـل) يعتقد أن فاطمة تحبـه، وأعتقد أنه يحبها كذلك، وهو يقول إنها تشـبه إلى حـد بعيد إحـدى الفتيات في بلـده. يا للأحمق! هنـاك فئتان مجتمعيتان متشـابهتان في جميـع أنحاء العالم، وهما ما يسـمى الطبقة الأرسـتقراطية، أو النبـلاء وبنـات الليل. فهما طبقتـان تقعان في أقصى الطبقـات الاجتماعيـة، وهما أيضـاً طبقتان متشـابهتان جـداً من حيث طبيعتيهمـا. فالمـرء يلاحظ في كليهما عدم النبل عادة. إذا كنت تسـعى إلـى فهـم طبيعـة وعقلية طبقـة معينـة، فإنه من المسـتحيل فهـم هاتين الفئتيـن. بقيت جالسـاً عند (ديتـل) حتى وقت صلاة العصـر تقريباً، ثم ذهبت إلى البيت.

بعد صلاة المغرب أكلت واسترحت قليلاً، وعدت إلى بيت (ديتل) حيـث التقيـت بكولـر. فأخذ كولـر يحكي لـي كيـف أن والدته حزنت كثيـراً عند مغـادرة ابنها الأصغر للبيت، وكيف أنهـا كانت تُعد له الأكل وتحضـره على الطاولة، وحماقات أخرى مثيرة للسـخرية. سـلام على

الذين افترقوا بهدوء تام! جاءت تلك الفتاة نفسها مرة أخرى لزيارة (ديتل) لتستجدي منه مالاً مقابل ما كانت قد عانته في البحث عن فاطمة وفي الحديث معها. خرجت أنا و(ديتل) وذهبنا إلى المقهى الكبير الواسع الذي يقع بالقرب من باب الشعرية، والذي يرقص فيه رجلان من (الخوَل[1]) العاديين. ولكنني لم أبق جالساً هناك مدة طويلة بل غادرت المكان وتركت (ديتل) وحده. ليس لي أي فائدة من رفقته ولا من حاشيته وخدمه الكثيرين، فأنا مازلت أعتقد كأي وقت مضى أنني أرتاح أكثر عندما أتجول وحدي. وأنا حينئذ أكثر سعادة مما أنا عليه عندما أكون في برفقة لا تناسبني. أكلت وجبة العشاء مع الشيخ علي الذي كان قد زار الشيخ شهاب في ذلك المساء، وقال إن هذا الأخير قد ردَّ زوجته، وأنه الآن يعاملها معاملة حسنة. وأنه أعاد إلى خدمته ذلك الغلام عشيق زوجته. وينبغي لي إكراماً واحتراماً للشيخ علي أن أذكر أن هذا الأخير لم يصدق كل ما قيل. فقد قال بورع شديد إنه ترك الأمر كله لصاحب الأمر، وردَّدَ بعض الآيات القرآنية وبعض الكلمات الحكيمة من عنده.

9/22

التقيت بفتاة في الشارع وذهبت معها إلى منزل وقضيت الليل كله بين ذراعيها. وكانت مثل جميع زميلاتها هنا من العاهرات الأقحاح، وإن لم تكن من أدناهن تماماً.

9/25

ذهبت إلى البيت الذي قضيت فيه ليلة مع امرأة في الآونة الأخيرة. بقيت هذه المرة ساعة أو أكثر قليلاً مع فتاة نحيفة وصغيرة جداً.

---

(1) رجل يتشبه بالنساء.

بعـد أن قرأت دروس اليوم خرجت بعـد الظهر بقليل، وذهبت إلى عند بونير حسب اتفاقي معه لإحضار كتاب حول جبل سيناء كان قد وعدني به. ولكنه كان مشـغولاً جداً اليوم فلم يتمكن من إحضاره لي. جلسـت معـه قليـلاً نتحدث ونقـرأ الصحـف. ومن جملـة الأمور التـي عرفتها مـن الصحف أن الـروس تكبدوا في القوقاز خسـائر جسـيمة. غادرت بعـد ذلـك خالي الوفاض. اليوم سـمعت بونيـر يتحدث باللغـة العربية وتعجبـت كل العجـب مـن أنه رغـم إقامته هنا عشـر سـنوات لا يتكلم العربية بشـكل جيد. تجولت قليلاً هنا وهناك، ثم عدت إلى البيت قُبيْل صلاة العصر تقريباً.

وبعـد صلاة المغرب ذهبت إلى القلعة على ظهر حمار. في رمضان هنـا، كما يحدث في كل قصور الحكام الأخرى، يتم التعامل مع جميع المسـائل وحلها خـلال الليل، لأن المـكان يغلق خـلال النهار. ذهبت إلـى ذلـك الجـزء من القصـر حيث يعيـش الباشـا، ودخلت إلـى غرفة الانتظـار، وكان هو نفسـه يجلس فـي الغرفة المجـاورة. غرفة الانتظار كبيرة وجميلة، ولكنني اسـتغربت حقاً من أن الناس من جميع الطبقات كانـوا يأتون إلـى هنا بحرية ويدخلـون ويخرجون بشـكل طبيعي. ولم يكـن الداخلون والخارجون فقط من الأتراك الذين أعتقد أنهم يعملون موظفيـن في القصر، بل كان منهم العرب، والشـيوخ، وجميع الطبقات الأخـرى. فحتى الطبقات الأدنى كانت تدخـل وتخرج بحرية وتتجول بالقرب من الباشـا - مثل هذه الحرية سـتكون شـرفاً حقيقياً لأي قصر أوروبـي. كان الباشـا نفسـه يجلس في زاويـة غرفة جانبية واسـعة على أريكة كبيرة مُرَكَّبة على طول الجدران. وكان يبدو عجوزاً هرماً نوعاً ما، وكانـت لحيته بيضاء جميلة تضفي عليـه رداء من الوقار. لم أتمكن من تمييز ملامحه بشـكل واضح من بعيد. كان الكثيرون هنا، ربما حاشـية

الباشـا التركيـة، يحومـون حولـه ولكن أحـداً منهم لم يقتـرب جداً من الباشـا. وهنـا أيضاً يبدو أنه يوجد قدر كبير مـن الحرية. كان في حضرة الباشـا إفرنجي يرتدي ملابس متواضعة جداً. كان يرتدي معطفاً أبيض وسـروالاً فضفاضـاً. لبـاس لا يمكن لطالـب من طلابنـا أن يرتديه عند الذهـاب لمقابلة المدير أو حتى المفتـش. وكان ثمة آخرون، معظمهم من كبـار الشـخصيات التركية، يأتـون ويذهبون بحرية. كان كل شـيء طبيعيـاً ومثيـراً للارتياح، حيـث إن الطبقات العليا والطبقـات الدنيا في المشرق أكثر قرباً من بعض مما عندنا نحن.

تجولـت ذهاباً وإياباً في قاعة كبيرة تضيؤها ثريتان أوروبيتان، ولكن أحدهم، ربما يكون مسـؤولاً عن التشـريفات، جاء إلي وفي يده عصا، وطلـب مني الاسـتقرار في مكان ما، أو الجلـوس على إحدى الأرائك فليـس من اللائـق التجول طول الوقت هكذا هنـا وهناك. ولكنني كنت قـد رأيت ما يكفي فتوجهت إلى الخارج. اليوم اشـتريت السـعوط من المـكان المعتـاد، من رجل حلبـي مسـيحي كاثوليكي، بعد أن سـألني أولاً إذا ما كان اسـتعمال السـعوط جائزاً خلال الصوم (فهو يعتقد أنني مسـلم)، ثـم أخـذ يطرح علي أسـئلة حول الديـن ويتحدانـي بالإنجيل علـى نطاق واسـع. ووعد بأن يجلب لـي كتباً حول الإيمان المسـيحي حتى أقرأها، وبدا في غاية السـعادة والبهجـة، فربما كان ينوي تنصيري سـراً لأنني لم أتعامل معه ببرود ولا بأنفة كما يفعل المسـلمون. طالما اعتبرت هذا الرجل رجل سعوط ثرثار وبليد، ولكنه الآن يبدو متحمساً وحيويـاً جداً. بعد عودتي من القلعة، تجولت قليلاً في المدينة وحدي، وجلسـت في النهاية في مقهـى الزاوية الصغير للاسـتماع إلى قصة من قصص الراوي العجوز.

9/29

بعد أن قرأت دروس اليوم مع الشيخ علي، خرجت بعد الظهر وذهبت إلى الغورية ثم إلى الأزبكية في وقت لاحق، لكنني لا أعرف أين يمكنني قضاء وقتي دون أن أملَّ. وبعد صلاة المغرب، خرجت في وقت أبكر من المعتاد، ولكن الشوارع كانت فارغة ومقفرة، والمحلات مغلقة، لأن الجميع الآن يتناولون وجبة الإفطار، ولا يخرجون عادة إلا عند صلاة العشاء. ذهبت إلى الأزبكية للجلوس في مقهى حنفي في انتظار الشيخ عبدالله والشيخ علي، الذي كان قد وعد أن يأتي إلى هناك لمقابلتي. ولكنني ذهبت إلى حال سبيلي بعدما انتظرتهما مدة ساعة ولم يأتيا. ثم عرجت على مقهى كبير كان فيها راقص شاب يرفه برقصه عن الجمهور الغفير. وكان الشاب في مقتبل العمر ووسيماً جداً، وكان يرتدي ملابس نسائية جميلة ومزركشة. كان رقصه أفضل من معظم الراقصين الذين رأيتهم هنا من قبل. قضيت وقتاً ممتعاً هنا، على الرغم من أنني أعتقد أنه من المقرف للغاية رؤية رجل في ملابس امرأة، أو رجلاً يتصرف تصرفات النساء. تجولت قليلاً في النحاسين، ولكن الشوارع والمقاهي كانت فارغة تقريباً على الرغم من أن الوقت كان في منتصف الليل فقط. يبدو أن الأمة قد تعبت من رمضان بالفعل.

9/30

خرجت قبل الظهر بقليل وتجولت في جميع أنحاء خان الخليلي، حيث يعقد هناك اليوم سوقاً كبيراً، كما هو الحال دائماً يومي الإثنين والخميس. ولكنني لم أشتر أي شيء من هناك. ثم عدت إلى منزلي وعكفت على قراءة درس اليوم مع الشيخ علي، ثم عدت وخرجت مرة أخرى، وذهبت عند بونير. فأعطاني مقالين من منشور فرنسي لأقرأهما. الأول عن عالم سويدي اخترع طريقة لتحجير الحيوانات

والمخلوقات الحية الأخرى وتحجير البشر أيضاً ليعيد لهم الحياة بعد سنوات عديدة من موتهم، والثاني عن الهيمنة اليهودية في أوروبا وعن منبعها، وعن قوة الروح الشعبية اليهودية قبل أن تنبض. قرأت في ذلك المقال وجهات النظر نفسها التي سمعتها من (رونيبرغ) قبل بضع سنوات. كان كلا المقالين مثيراً جداً للاهتمام، ولو أن المقال عن اليهود كان طويلاً جداً، مما جعلني أشعر بالحرج تقريباً لقراءته هنا. استغرقت القراءة وقتاً طويلاً وبعدها ذهبت ومعي كتاب السفر في سيناء لصاحبه (شوبرت)، الذي كان من لطف بونير أن أحضره لي من جمعية الدراسات المصرية. في طريق العودة عرجت على مكتب القنصلية وتحدثت فترة وجيزة مع كولر، فتذمر من كونه تلقى من (تيموفييف) ومن القنصل العام (كوك) رسائل غير مفهومة. ثم جئت إلى البيت، وبدأت قراءة كتاب شوبرت على الفور. وهو يبدأ الكتاب بوصف القاهرة وسكانها. ولكني لاحظت أنه ينقل من لاين بطريقة رهيبة. بعد صلاة العشاء خرجت وتمشيت على مهل في الأزبكية وجلست في مقهى حنفي. لم أكن قد استلقيت على المقعد إلا وقتاً قصيراً حين جاء الشيخ علي والشيخ عبد الله من مسجد الغمري. بقينا جالسين هناك نتحدث إلى منتصف الليل تقريباً، ثم ذهبنا جميعاً إلى البيت. سهرت طويلاً أقرأ كتاب شوبير إلى أذان صلاة الصبح، وكان من الصعب بعد ذلك الخلود للنوم.

10/1

قرأت المزيد عن رحلة شوبرت إلى جبل سيناء، وكان اهتمامي يزداد طوال الوقت، ربما لأنه لم يكن في وصفه قد سرق معلومات من الآخرين، كما فعل في وصفه للقاهرة، أو على الأقل، أنا لا أعرف من أين نقل ما كتبه. استغرق درس اليوم فترة أطول قليلاً من المعتاد،

ويرجع ذلك أولاً لكون الشيخ علي كان يؤدي صلاة الجنازة في مسجد الحسنين، وثانياً لأن نصنا اليوم كان أصعب بعض الشيء. ثم خرجت بين الحصتين، كما يقال هنا، أي بين صلاة الظهر وصلاة العصر، وركبت على حمارٍ وتوجهت إلى الغورية، إلى مسجد السلطان ابن طولون القديم. كالعادة استغرق اختيار سائق الحمار وقتاً طويلاً من بين السائقين، لأنهم ليسوا جميعاً يصلحون لأخذك إلى أي مكان ترغب فيه، على الأقل بالنسبة لي. اليوم وجدت واحداً بدا لي مظهره لطيفاً جداً وفريداً من نوعه. كان رجلاً تقدم به العمر ولكنه كان نحيف البنية للغاية. لكنه لم يكن يعرف القاهرة ومعالمها، لأنه لم يستطع أن يجد مسجد ابن طولون، ولكن لسانه كان أكثر طلاقة حيث كان يصرخ في المارة بتلك العبارات المعتادة: (إلى اليمين) أو (إلى اليسار)، أو (اللهم صل على النبي) وما شابه ذلك. وبعدما سألنا قليلاً، وجدنا المسجد. دخلت إلى ذلك المسجد الواسع الذي تهدم جزء كبير منه الآن. وقد بني بنفس اتساع وبساطة جامع عمرو، الذي هو أول مسجد في القاهرة، باستثناء أن سائر الأعمدة هنا تم تجميعها، في حين أنها كانت في مسجد عمر كتلاً رخامية كاملة. وكان صحن المسجد واسعاً جداً: ساحة مربعة الشكل كبيرة يتوسطها صهريج صغير وبعض المقاعد للوضوء. وكانت الأروقة واسعة وجميلة، ولكن الصفوف كانت أقل من تلك التي في مسجد عمرو. المآذن التي بنيت هناك على شكل عمامة حقيقة على ما أعتقد بنيت هنا على شكل (مقلة) أي على شكل عمامة كبيرة مدورة. وقد كان في هذا المسجد ثلاث مآذن فقط حسب ما تمكنت من رؤيته، على الرغم من أن أحدهم أخبرني بأن فيه أربعاً. وكانت إحدى تلك المآذن على شكل دَرَجٍ حلزوني خارجي ارتفعت إلى الأعلى على طول الجدران، وكان السلطان قد أمر ببنائها في لحظة مزاج. ويقال إنه في يوم من الأيام بعد أن طالت أعمال البناء، كان جالساً وفي يده قطعة

من الورق يبرمها بين أصابعه. فقال الوزير له بأن مثل هذا اللعب لا يليق بالسلطان. فأجابه السلطان بأنه ليس مجرد لعب وإنما هو نموذج لدرج مئذنة مسجده الذي هو بصدد البناء الآن. والمسجد الآن متداعٍ مثل مساجد أخرى كثيرة. ولم يبق منه إلا رواق الصلاة الكبير أو بالأحَرى، جزء فقط منه لا يزال يستخدم مكاناً للصلاة. كان هناك عدد من الرجال معظمهم من الشباب يجلسون في حلقات. كان أحدهم يقرأ في كتاب والشيخ يصحح أخطاءه. مررت بهم وأنا أمشي ببطء على حصائر بالية وقذرة جداً، وخرجت بعد جولة في أحد أقدم مساجد القاهرة.

من هناك ذهبت إلى مسجد السيدة نفيسة الذي لا يبعد كثيراً عن هنا. والسيدة نفيسة بنت [زين] العابدين بن الحسين[1] بن علي بن أبي طالب، حفيدة حفيد النبي محمد. لم أكن على استعداد لدخول المسجد بعد لأنني زرت المكان من قبل، ولكن سائق الحمير حثني على الاستجابة لأذان صلاة العصر الذي كان قد بدأ لتوه فشعرت وكأنني مضطر للدخول. عندما دخلت لاحظت حوالَيَّ ثمانية رجال يصلون وراء الإمام فانضممت إليهم، ولكنني لم ألحق من الصلاة إلا الدعاء الأخير. وهكذا اضطررت إلى الوقوف وأداء صلاتي وحدي أمام هذه الجماعة الصغيرة، التي كانت تراقبني مراقبة دقيقة. صليت وقمت بكل الركعات والسجدات، وفي الحقيقة لم أعد قلقاً أو حائراً أمام المجموعة، لأن في الصلاة الإسلامية حقاً شيء قوي واحتفالي جداً بحيث إنني، مثل المسلم الحقيقي على الأقل، لم أفكر في محيطي البتة. بالكاد كنت قد فرغت من الصلاة، وكنت لا أزال جالساً على قدمي أُهَمْهِمُ حين جاء خادم المسجد وفتح باب الضريح. دخلت وجلست بجوار الضريح وأنا أُهَمْهِمُ مرة أخرى جزءاً من سورة يس وأنا أنظر إلى هذا النصب. لم يكن السياج هنا من المعدن مثلما كان

(1) تصويب: السيدة نفيسة هي ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

في الأضرحة الأكثر أهمية مثل الحسين والسيدة زينب، وإنما كان من الخشب وكانت فيه قطع صغيرة على شكل معينات ودوائر.

ولكنني لم أبق هناك مدة طويلة، بل ذهبت إلى مقبرة كبيرة مجاورة للمسجد، ولعلها أكبر مقبرة في القاهرة، وتوجهت عبرها مباشرة نحو القلعة. حاولت بشتى الطرق والوسائل أن أجعل سائق الحمير يحكي لي عن قبور وأضرحة الأولياء الذين مررنا بهم أو رأيناهم من بعيد، ولكنه لم يكن يعرف عنهم شيئاً، على خلاف معظم زملاء حرفته، وخاصة كبار السن منهم، الذين كانوا على بينة من أمرهم بشأن كل ولي. والأدهى من ذلك أنه بدأ الآن يتجادل معي ويقول بأنه ينبغي لنا أن نعود إلى المدينة الآن وألا نتجول هنا في الجبال والصحاري. ولكنني، وعلى الرغم منه ومن أوهامه، ذهبت مباشرة نحو جبل الجيوشي الضخم أو ما يسمونه جبل المقطم. وبدأت الآن كعادتي، وبدافع من الفضول، أتفرج على ذلك المسجد القديم المتهدم الواقع على تلة شديدة الانحدار. وعندما وصلت إلى سفح الجبل، طلبت من سائق حمير أن ينتظرني حتى أصعد إلى القمة. فاحتد الجدال وأصبح يطلب مني بصوت أكثر حزماً ألا أصعد إلى الجبل. ومع ذلك تسلقت حافة الجبل، حيث لم يكن هناك طريق، فسلكت مجرى تكوَّن من الأمطار التي هطلت اليوم. وصلت أخيراً إلى القمة على الرغم من صعوبة التسلق، والتقيت هناك بامرأة لديها ثلاثة أطفال، وأخذتني إلى المسجد المتهدم الذي قالت إن من بناه هو السيد شاهين. لم يبق من هذا المسجد إلا جزء صغير يستخدم مكاناً للصلاة غير ذي أهمية، ويقع بالقرب من ضريح مُشيده إلى جانب ضريحين آخرين أحدهما لابنه والآخر لابنته. وكان ضريح هذه الأخيرة معزولاً في مكان صغير يحيط به سور، وكأن الفتاة أو المرأة تحاط بالأسوار وتوضع في القسم المخصص للنساء حتى بعد موتها. ولكن هذا المكان كان بعيداً كل

البعـد عن الأضرحة المنمقة الرائعة الأخـرى: بهاء هذا الضريح وأبهته تنحصر في موقعه المرتفع المهيب على قمة الجبل نفسه. تسلقت درجاً بُني هناك يرتفع من الجبل نفسه إلى مكان أعلى. بالنسبة لي، وكما كان أمري من قبل، تبقى الأهرامات الغامضة الشاهقة أكثر ما فتنني هنا حتى الآن، فإن لها علي تأثيراً سحرياً غير مفهوم، يتملكني في كل مرة أراها. كما أن للصحراء كذلك تأثيراً مشابهاً ولو أنه أقل قليلاً.

10/2

زرت فتاتي مرة أخرى وبقيت عندها بضع ساعات. اندهشت لاكتشاف عقلانيـة طبيعيـة فـي فتاتـي، كمـا أن فـي سـلوكها الكثير من السـحر. وبالإضافـة إلى الرياضة التي نمارسـها معـاً، فإنها دائماً تعلمني درسـاً جيداً في اللغة.

10/23

التقيـت بتاجـرة عجـوز في الشـارع. وحثتني علـى الذهاب إلـى فتاتي الصغيـرة. ذهبت إليها فجاءتني بعد بضع دقائق. كانت متَّسـخة للغاية، أو أنني اليوم على الأقل كنت قادراً على رؤية ذلك بوضوح أكثر منه في أي وقت سابق من تلك المساءات. وقد تعطَّرت بالمسك لتمويه رائحة الأوسـاخ، وكانت تمضـغ علكة ذات رائحة طيبـة لتمويه رائحة البصل الـذي أكلتـه اليوم. علـى الرغم مـن كل هذا، كنـت قادراً علـى تحديد واحـدة أو اثنتين من تلك الروائح، وكنت علاوة على ذلك أرى التراب على جسدها، قضيت معها ساعة أو أكثر ربما.

السفر إلى صعيد مصر

وفي آخر يوم من تشرين الأول/ أكتوبر، خرج والين إلى رحلة طالما رتب للقيام بها، وهي الرحلة إلى الصعيد برفقة طبيب مستشفى الإسكندرية الألماني شلدرهاوس والرسام النمساوي هوبرت ساتلر وأستاذ والين في اللغة العربية علي نداء البراني.

مذكرات 10/31

ما إن وصلت إلى البيت حتى حزمت أمتعتنا القليلة المتبقية ووضعتها على ظهر الحمار، وتوجهنا نحو القاهرة القديمة. كانت سفينتنا في فم الخليج. تعرفت عليها من بعيد من خلال علمها فأوقفت حماري بجانبها. ومرَّ الشيخ بجانب السفينة دون أن يلاحظ أنني قد توقفت. وكان حماره سيئاً وكسولاً جداً، وكان سائق الحمار أسوأ. وبعد أن صعدت إلى السفينة، وأخذت أبحث عنه، توجست خيفة من أن يكون قد استمر في السير ولم يلاحظ صعودي إلى السفينة. وهذا ما كان. نزلت مرة أخرى من السفينة وتوجهت نحو القاهرة القديمة. وعندما لحقت به في الطريق، استدرنا وعدنا في اتجاه مصب القناة. وفي غضون ذلك، كان رفيقا سفرنا قد وصلا، وفي الوقت الذي كانا يجمعان فيه أمتعتنا ومؤونتنا ويرتبانها وما إلى ذلك، ذهبت أنا والشيخ إلى مقهى على الشاطئ لنستريح، ونشرب القهوة ونتناول وجبة فطور لائقة.

استغرق انتظارنا لخادمنا محمد وقتاً طويلاً. كنا قد أرسلناه لشراء

بعض الدجاجات. وأخيراً جاء فأصبحنا على استعداد للذهاب. عندما وصلنا إلى المياه وأبحرنا في اتجاه الريح بين الروضة والبر، رتَّبت أنا والشيخ مقصورتنا التي كانت صغيرة ولكنها جميلة جداً والتي ستصبح منذ الآن مسكننا المشترك لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر. وعندما استقر كل واحد منا في هذا المكان أحسن استقرار ممكن، بدأنا نستعد لتناول وجبتنا في الساعة الثالثة تقريباً. أكلنا بالطريقة الأوروبية المحضة بالسكاكين والشوك. ولم يحتر الشيخ في أمره كما يمكن للمرء أن يتصور، بل إنه كان يفعل مثلي، يستعمل السكين والشوكة تارة، ويأكل بأصابعه تارة أخرى. كنا في معظم الوقت لا نعرف كيف نتعامل معه في اليوم الأول، ولكن هذا سيزول قريباً. وأعتقد بأن مجموعتنا، رغم اختلاف جنسياتها وأهدافها من هذه الرحلة، سوف تنسجم جيداً معاً بشكل عام.

أبحرنا في اتجاه الريح التي لم تزل في صالحنا، وكان جبل الطرة يبدو على الجانب الأيسر، وكانت فيه مجموعة من التشكيلات والكهوف الغريبة التي تشبه بيوتاً بأبوابها وأقواسها. وفي الجانب الأيمن انتشرت أنواع من غابات وبساتين النخيل التي لم تسبق لي رؤيتها من قبل في مصر السفلى. ووراءها انتصبت قمم أهرامات الجيزة وأهرامات سقارة الهائلة. كان الجبل على اليسار يندفع أقرب إلى الساحل، فلم يكن بينه وبين النهر أية أراض زراعية تقريباً، بل لم يكن بينهما إلا الرمل والصخور فقط. وكانت الجبال في الشاطئ المقابل بعيدة عن النهر، وبينهما أرض زراعية وبساتين نخيل في كل مكان. مررنا بقرية (البساتين) الواقعة على الضفة اليسرى، وتوقفنا في قرية الطرة، التي تقع فيها مدرسة المدفعية، وحولها حدائق مزروعة جميلة. كان على الدكتور شلدرهاوس الذهاب إلى المدرسة لتحية

مديرها، وهو إيطالي، عمل هنا من قبل طبيباً. استغرقت زيارة الدكتور شلدرهاوس للمدير مدة طويلة، وأخيراً خرجا ومعهما ثلاثة أو أربعة أتراك. تظاهرت بالنوم لتجنب أسئلتهم ولأتملص من مرافقتهم، ولم أخرج من المقصورة أبداً. جلس الضيوف هنا حيناً يشربون النبيذ والقهوة ثم غادروا بعد ذلك.

واصلنا رحلتنا وأبحرنا بسرعة جيدة إلى حلول الظلام، وعندئذ نزلنا في قرية صغيرة تسمى (قرية الحلواني). كانت قوة الرياح لا تزال معتدلة مثلما كانت عليه طيلة الليل. ولكننا ارتأينا، وخصوصاً الطبيب، أن ننتظر لبعض الوقت مترجمَ الدكتور (ليبسيوس) الذي كنا قد عرضنا عليه أن يسافر معنا إلى أسوان، والذي كان بالأمس قد أحضر بالفعل جزءاً كبيراً من أمتعته إلى السفينة، ولكنه لم يتمكن من اللحاق بنا بسبب مشكلات الجمارك. تناولنا وجبة عشاء خفيفة: بعض الشاي والحليب والزبدة والجبن على الطريقة الإنجليزية. اقترح الطبيب، ببراغماتيته الألمانية، أن نتحدث بالإنجليزية بدلاً من الألمانية، وذلك لأننا نعرف، نحن الثلاثة، هذه اللغة قليلاً. وللأسف لاحظت حين بدأنا التحدث باللغة الإنجليزية أن رفاقي لا يتقنونها مثلي. أما الشيخ فلم يستطع متابعة المناقشة لا باللغة الإنجليزية ولا باللغة الألمانية، ولكنه جلس محرجاً وضَجِراً قليلاً، ولكن ما باليد حيلة! كنت أنام الليالي بهدوء كعادتي دائماً عند الإبحار ولو أن موجات النيل الصغيرة كانت ترش بعض الماء على جنبات سفينتنا.

11/1

انطلقنا عند شروق الشمس وكانت الريح في صالحنا. كان منظر الشواطئ رتيباً، وكانت الجبال تبدو بعيدة أكثر عن الشواطئ. وكانت الوديان أوسع وبها مجال أكبر للزراعة. كانت هناك تشكيلات جبلية

غريبة في كل مكان، ارتفعت أحياناً في شكل هرمي، وأحياناً أخرى بدت كجدران طويلة. وكانت أهرامات سقارة تبدو بوضوح طيلة اليوم. كان نهر النيل واسعاً وهائلاً، وكأنه توسَّع في الأراضي المنخفضة وأصبح يبدو كبحر لا يمكن تمييز شواطئه. رفاق السفر في السفينة يثيرون الكثير من الضوضاء، فحتى أفراد طاقم السفينة كانوا يروحون عن أنفسهم عن طريق العزف على الزمارة والضرب على الدربوكة فيما يرقص أحدهم على إيقاع الموسيقا والتصفيق السريع. مررنا بعدد كبير من القرى الصغيرة البائسة، وأبحرنا طيلة الليل في ريح جيدة ومنعشة للغاية.

11/4

كانت الريح هادئة طيلة اليوم، وكان الطاقم يسحب سفينتنا بحبل معظم اليوم. حصلت على صيد غزير ولا سيما من الحمام البري، وحضَّرت من تلك الحمامات شرائح لحم ممتازة لعشاء اليوم. مررنا بحقول ذرة شاسعة امتدت على مد البصر تقريباً، وكانت رؤوس الذرة المزدهرة مائلة بثقلها بشكل جميل. تحدثت مع عدة فلاحين، وكانوا كلهم أناساً طيبين ولطيفين. قضيت يوماً جميلاً بشكل لا يصدق رغم حرارة الجو الفظيعة. أمضينا الليلة في قرية قولوسة، الواقعة على الشاطئ مباشرة. نزلت من السفينة والتقيت بفتاة حبشية أخذتني إلى منزلها. تحدثت في موضوعات شتى مع رفاق سفري ونحن نشرب الشاي عند المساء، ولا يسعني إلا أن أقول بأن نظرة الألمان المادية للعالم تزعجني كثيراً.

11/7

أبحرنا معظم اليوم في رياح جيدة لمسافة طويلة إلى أن مررنا بملاوي. وقد بقيت معظم الوقت في الداخل معتكفاً على قراءة كتاب

(جليـدون[1]) المثير جداً للاهتمام، والذي يتحدث عن تاريخ مصر من زمن الكتابة الهيروغليفية إلى الحقبة العربية.

فـي المسـاء عندمـا كان أفـراد الطاقـم يدفعـون السـفينة إلـى الأمـام بالمجاديف، سـقط أحدها في الماء، فقفز أحد الرجال وراءه للحصول عليـه، ثم قفز رجل آخر مـن بعده ومعه حبل. أخذ التيـار الرجل الأول بسـرعة بحيث لم يسـتطع الثاني أن يلحق به. وكان على الأول أن يسبح إلـى الشـاطئ الـذي كنا نتجـه إليه. وقد سـبب هذا الحـادث الكثير من الهرج والمرج إضافة إلى قلق شديد.

11/8

أبحرنـا ببطء إلـى الأمام إذ كان الطاقم يسـحب سـفينتنا بحبل. قضيت معظـم صباح اليوم أمشـي وأنا أحمل سـلاحي وسـط بسـاتين النخيل الواسـعة التي تحيط بمدينة قُصَيْر. اصطدت من الحمام البري ما يكفي لعشـائنا، ولكن الشـيخ الذي كان في البر هو الآخر كان قد رأى أنني لم أذبـح الحمامـات ولو أنهن كن لا تزلن على قيد الحياة عندما أمسـكت بهـن، فلـم يرد أن يـأكل لحمهن. وصلنـا إلى منفلوط قبـل وقت قصير مـن صلاة المغرب. وسـمع القبطـان هناك بأن إحدى السـفن تعرضت للهجـوم والنهب قبل بضعة أيام فرفض مواصلة الرحلة. وقد خرج بناء على طلبنا مع عدد قليل من الرجال معنا للبحث عن اثنين من الغفر، أو الحراس، ولكنه عاد ومعه عشرة. صعدت إلى حافة الشاطئ الحادة جداً التـي تقع المدينة فوقها. وهناك، تجمـع حولي الكثير من الناس فبدأت أتحدث معهم. قال لي أحدهم إن في هذه المدينة ثلاثة عشـر مسـجداً، وأن خمسـة عشر مسـجداً آخر قد انهارت في المياه، وبأن النهر يجرف في كل عام، كما هو الشأن هذا العام أيضاً، بعض أراضي المدينة القريبة

(1) جورج جليدون كان عالماً أمريكياً متخصصاً في علم المصريات

من الشاطئ متسبباً بذلك في انهيار الكثير من المباني. على الرغم من أن هذه الأرقام تبدو مبالغاً فيها قليلاً، إلا أنه من الظاهر أن المدينة كانت كبيرة ومهمة، ولو أنها بنيت من الطين والتراب، كما جرت العادة. تحدثت طويلاً مع الكثيرين، ولكنني تحدثت معظم الوقت مع رجل عجوز. في البداية اعتبروني إفرنجياً لأنني أسافر مع الفرنجة، ولكن عندما بدأت الحديث عن القرآن وأستشهد بآياته، اعتبروني رجل قرآن مؤمن. لقد استمتعت كثيراً بالحديث مع الرجل العجوز، وأعجبت به كثيراً.

11/10

في الصباح الباكر، جاء شاب إيطالي استقر هنا مع والده للعمل في المضاربة في تجارة القمح، وهو يعرف في الإسكندرية الدكتور شلدرهاوس. لم يطق الشيخ وجود هذا الشاب البتة، لدرجة أنه رفض الخروج لشرب القهوة مع الآخرين. بعد شرب القهوة توجه الجميع إلى المدينة، وتبعتهم أنا بعد مدة وجيزة. تجولت قليلاً أولاً ثم استأجرت حماراً وذهبت برفقة سائقه، وهو رجل شاب ظريف إلى أعلى جبل عظيم، يرتفع عن مستوى المدينة. انضممت هناك إلى رفاق سفري، وتابعت معهم الطريق نفسه.

تحت كهوف الدفن بقليل كانت ثمة طبقات كاملة من قماش المومياء ومن الأجزاء البشرية ومختلف أنواع الأعضاء البشرية والحيوانية. كانت لا تزال ملفوفة في أكفان بالية. وكانت كل هذه القطع وسط الرمل والحصى في طبقات كاملة تتدلى من حوافها عظام مُحنَّطة وأثواب ممزقة.

دخلنا إلى أقرب سرداب لا تزال على مدخله كتابة هيروغليفية محفورة، وشخصيات ملكية مهمة منقوشة. وكانت آثار الرسومات

والنجوم والأشكال الزخرفية الأخرى ما تزال بادية للعيان في السقف. كما كان في المدفن أيضاً بقايا أربعة أعمدة كبيرة ربما كانت تمتد من السقف إلى الأرض. كان المدفن مليئاً بالحصى. وقد حفرت في عمق الجبل آبار ومقابر كبيرة. ألقينا فيها بعض الحجارة وحاولنا تقييم عمقها من خلال الزمن الذي استغرقه وصول الحجارة إلى الأسفل. كانت هناك الكثير من أمثال هذه السراديب في هذه الجهة، وقد زرنا أربعة أو خمسة منها على الأرجح. وهي تنقسم إلى أكثر من غرفة أو أكثر من قبو، وحُفِرت عدة تجويفات في الجدران، رُميت منها المومياءات التي كانت مكدسة فيها في الأصل. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان في كل مكان، وعلى طول عرض الجبل الكثير من الكهوف والمغارات الكبيرة والصغيرة، وبعضها يشبه ما رأيته في القاهرة. وكان الجبل من الصخر الجيري، مثل كل الأماكن الأخرى هنا. وهو يبدو هشاً سهل التفتت، وفتاته هذا يبدو مثل الغبار أو مثل الرمل الخشن، كما يبدو أن بعض الكتل الصخرية قد سقطت من أعلى الجبل. وكانت بعض تلك القطع الصخرية الكبرى المحدَّبة تبدو غريبة جداً بعد أن حرقتها أشعة الشمس. كان المنظر ناحية اليسار رائعاً على مدى سهل صحراوي شاسع محاط من إحدى الجوانب بتلال الصحراء الرملية الصفراء، وفي الجانب الآخر تلك المنطقة الضيقة الخضيرة الواقعة بين الصحراء والنيل، والتي تشهد بأن يد الإنسان الكادحة قد انتزعتها من الصحراء. وفي السهل الصحراوي الواقع أسفل المكان الذي كنت فيه، رأيت مقبرة كبيرة أحسن وأجمل من أي مقبرة أخرى رأيتها هنا، وطرازها مختلف قليلاً عما رأيته في القاهرة وفي مصر السفلى. وعندما نزلت إلى الأسفل وركبت حماري ومررت وسط المقبرة، تمكنت من رؤية المزيد من التفاصيل. عادة ما يبنى في القبر الواحد غرفة واحدة فقط، ولكن بنيت في هذه القبور هنا عدة غرف متصلة بعضها ببعض على

شـكل قبـو كبيـر، وبني علـى كل قبر من تلـك القبور شـاهد خاص به. وكان لمعظم المقابر سـاحة عند مدخلها، وفيهـا درجٌ صغير يؤدي إلى القبور الموجودة في الأسفل. وكانت جميع القبور مطلية بطلاء الكلس الأبيض. ومن الواضح أنهم يهتمون بهذه المقابر قدر الإمكان، فهي في حـال أفضل بكثير من المقابر التي فـي القاهرة. كما أن هناك عدداً كبيراً مـن الآبـار أيضاً. ويبـدو أن الناس قـد احتذت بمثال قدمـاء المصريين في أسـيوط، وفي أعالي النهر ربما، في حيـن أن الناس في القاهرة التي هـي مركز التعليم الإسـلامي في مصـر، يمتنعون عن الاحتـذاء بقدماء المصرييـن، ويعتبرون أنه من الواجب على كل مسـلم متحضر أن يعتبر دينهـم وعاداتهـم كفراً. وهذا يبـدو بوضوح أكثر من الرسـومات، التي يحاولون تزيين القبور بها هنا. فهي لا تجملها وإنما هي تُفسِد جدرانها البيضاء الجملية حقاً، وذلك لأن تلك الرسومات خرقاء للغاية، ألوانها صارخـة، وليـس فيهـا أية فكـرة وليس لهـا أي غاية. لكن فكرة الرسـم ليست من الأفكار الإسلامية، بل هي على العكس من ذلك فكرة منافية للإسـلام. ولذلك، فإنني أعتقد أن المسـلمين المصريين قد اسـتعاروا هذه الممارسـة، وغيرها من الممارسـات الأخرى الكثيرة، من أقاربهم الذيـن واراهـم التـراب، والذيـن تركوا فـي كل مكان بصمـة عظمتهم وتفوقهم في الأزمنة الغابرة. كانت هذه المقبرة جميلة جداً عامة. وعلى بعد مسـافة قصيـرة منها على الهضبـة الصحراوية، كانـت مقبرة أخرى خصصـت على ما يبـدو للطبقات الأفقر التي لا تسـتطيع تحمل نفقات بناء قبور كبيرة. وعلى مسـافة أبعد، كانت ثمة زاوية نائية للمسـيحيين. أشار سائق الحمير - الذي اعتقد أنني مسلم - بفخر واضح بأن المقبرة المسيحية معزولة في ذلك المكان النائي.

هنا وهناك انتشـرت مقابر الشـيوخ والأولياء العرب في الجبال وفي الصحراء. ولكن أكثر ما أعجبني في هذا المنظر الشاسع هنا هي حقول

الحبوب الجميلة الممتدة على مدى البصر، والتي غطاها الآن اخضرار جميل يشبه تقريباً حقولنا في أيام الربيع الأولى. ترى الحقول الخصبة الخضيرة هنا على مدِّ النظر، يحيط بها نهر النيل والقنوات الممتدة منه من كل جانب، لإحدى هذه القنوات فروع كثيرة تمر عبر المدينة وهي كبيرة بشكل خاص ومفيدة للباشا على وجه الخصوص. فالعديد من الحدائق الجميلة التي تُرى هنا الآن لم تَرَ النور إلا في عهد الباشا. وقد غُرِسَ معظمها مباشرة في رمال الصحراء التي خَصَّبَها تدفق المياه. ويمكن أن نرى من خلالها حقاً كيف يمكن للإنسان أن ينتزع من الصحراء حقولاً شاسعة لا حصر لها لاستغلالها في زراعة الحبوب. وبين اللونين الأصفر والأخضر، ارتفعت هذه المدينة بلونها الخمري الطيني وسط هذه الهضبة الكبيرة وبمآذنها الثلاث عشرة. وبعد أن تجولت هنا بعض الوقت، واستنشقت بعض النسيم المنعش الذي هب هنا في الأعلى والذي خاف منه الطبيب لدرجة أنه غطى فمه بمنديل، نزلت إلى الأسفل فرأيت ثعلباً يمر من تلك الناحية. وعندما وصلت إلى المدينة، حيث كان اليوم فيها يوم سوق، تجولت في أنحائها وفي سوقها بالخصوص، ثم ذهبت إلى الحمام وكان حماماً رائعاً. مكثت هناك مدة طويلة وتجولت هناك إلى أن أصبح المفتاح الذي طلبت صنعه لسلاحي جاهزاً. وعموماً كانت هذه المدينة من أجمل المدن التي رأيتها في مصر. ولكن، وكما هو الحال دائماً في المدن الصغيرة، يبدو أن تقليد العاصمة مصدر اعتزاز وفخر. لذلك تراهم هنا يرشون المياه في الشوارع، وينهالون عليك بمختلف أنواع المجاملات والعبارات القاهرية مثل «وحشتنا» و«ابن المدينة». ومن ناحية أخرى يبدو أن الناس هنا ألطف وأكثر نزاهة كما هو الحال في المدن الصغيرة، وأكثر مما في العاصمة. لاحظت هنا نفس ما كنت قد لاحظته في المدن الريفية، أن المرأة لم تكن متشددة بشأن حجابها كما في القاهرة، إذ إن

الكثير من النساء كن كاشفات عن وجوههن، وإن لم يكنَّ على قدر كبير من الجمال.

تجولت قليلاً في مختلف الأنحاء، وصرفت بعض المال على بعض الضروريات، ولم أبدأ رحلة العودة إلا عند صلاة المغرب. أعتقد أن بيت المحافظ سالم الباشا كان بالقرب من بوابة المدينة. وقد جلس في حديقة بيته المزروعة بالأشجار عدد من الفلاحين الذين كانوا يتناقشون في مسائل تجارية أو يحلون نزاعاً ما يخص هذا البيت في اجتماعهم. قيل إن هؤلاء الفلاحين بصدد استيراد خيول للباشا. وللباشا نفسه قصر هنا، وهو غالباً ما يأتي إلى هنا لزيارته الشتوية التي يقوم بها إلى صعيد مصر. تتبع الطريق المؤدي إلى الشاطئ قناة طويلة وجميلة، وكذا شارع الحديقة الذي اصطفت على جانبيه أشجار الجميز وأشجار الصفصاف السيبيري. وبعد أن وصلت إلى مخدعي، أكلت قليلاً لأنني لم أذق شيئاً طوال اليوم بعد قهوة الصباح. ثم ذهبت بعد ذلك إلى مقهى تركي يقع على الشاطئ. وهناك، على الشاطئ، جلس ستة سجناء وُضعت في أياديهم الأصفاد وفي أرجلهم الأغلال. في المساء ذهبت في جولة طويلة. لم نُبحر حتى وقت متأخر في المساء، بعدما نضج الخبز الذي كان القبطان يعده.

11/11

كانت علاقتنا بالقبطان والطاقم سيئة، لأن من مصلحتهم تأخير الرحلة إلى أقصى حد ممكن، أما مصلحتنا نحن فعكس ذلك تماماً، ولذلك تشاجرنا. والألمان كعادتهم تافهون وضيقو الأفق. وحتى الطاقم وخادمنا الآخر محمد لا يروقون لي. بسببهم أصبحت رحلة النيل الممتعة والمريحة مملة بعض الشيء، ومُقرفة. لكنني أعتقد أن كل شيء سيكون على ما يرام مع مرور الوقت.

الريح هادئة. ينبغي سحب السفينة بحبل. رأينا أول التماسيح ونحن نتمشى على الشاطئ. اصطدت غراباً. هبت بعض الرياح فقادتنا إلى سلسلة جبال هائلة، إلى جبل الهريدي الذي تجولنا عند حافته الطويلة طوال اليوم. وكانت عند سفح الجبل قرى صغيرة متفرقة هنا وهناك في الشريط الضيق الذي بين النهر وبين المنحدر. وكان هذا الشريط يتسع ليتحول إلى حقل كبير حيناً أو إلى سهل صحراوي حيناً آخر. في كثير من الأحيان، كانت ثمة كهوف أو تجاويف في الجبال. ربما كانت في العصور القديمة قرى ومدنا. وتنتشر الآن مجموعة من القرى حول هذه الكهوف عادة. يوجد في أحداها مسجد صغير يحمل اسم الشيخ الهريدي نفسه، ولكن ذلك البناء الأبيض البسيط والصغير بدا بائساً جداً ومثيراً للشفقة أمام هذا الجبل الضخم الرائع.

عند غروب الشمس، ظهر في السماء هلال عمره يومان، وهبت عاصفة هوجاء من آخر جبل من السلسلة الجبلية العالية، ولاحت في الأفق قويةً عند الغسق. كانت الريح شرسة بحيث كان علينا أن نخفض الأشرعة الكبيرة حتى لا تنقلب السفينة. وكان على رجال السفينة في مثل هذا الجو تسلق الصواري العالية لفك الأشرعة الطويلة الخشنة التي كانت ملفوفة حول تلك الصواري الأمر الذي لا يخلو من خطورة. ولكننا تجاوزنا منطقة الجبل الخطيرة بسلام. وبمجرد ما نجونا من خطر محقق، بدأ مساعد القبطان يصرخ بصوت عال مطالباً بالزيادة في الأجر كالمعتاد، وقال بأن على الكل أن يدفع المزيد من المال، العرب والفرنجة على السواء، هنا وفي بعض الأماكن الخطيرة الأخرى لا تزال أمامنا العديد من الجبال والممرات. في نهاية المطاف كان علينا الإذعان للأمر وإعطاؤه بعض البياسترات. وبعد أن عبرنا الجبل الضخم، ضعفت دوارة دليل اتجاه الريح، وهدأت الريح خلال

الليـل تماماً. في ذلك الوقت كان الجميع قد ذهبوا إلى الشـاطئ وناموا مـا عدا واحـداً، ربما كان نصف مسـتيقظ. وفي نواحـي منتصف الليل سمعت ضجة رهيبة وصرخات غاضبة تصدر عمن كانوا على الشاطئ. وسـمعت بعضهم يصرخون باللغـة العربية ويقولـون إن اللصوص في أعقابنا، وسـمعت البعـض يطلبون المسدسـات وغيرها من الأسـلحة بالإيطالية. نظرت من نافذتي إلى الشاطئ وأنا أحمل سلاحي في يدي، ولكننـي لم أر أي شـيء. خرجـت، ولكنني كنت أسـمع الصراخ فقط، وبعد ذلك سمعت طلقتين أطلقهما الدكتور ومساعده في الظلام بشكل عشوائي في اتجاه الشاطئ. ومع ذلك ذهب اللصوص ولم نر أو نسمع شـيئاً. وسـط كل هذا الضجيج، فكَّ الطاقم السفينة بسرعة وأبحرنا بقية الليل.

11/13

أبحرنـا اليوم كله في رياح سـريعة، وتقدمنا في طريقنـا تَقَدُّما جيداً. في الصباح أطلقت النار من سـطح السـفينة على بطة من مسافة طويلة. نشأ بينـي وبين الشـيخ نقاش حاد نوعاً ما بشـأن درس نحـوي هذا الصباح. واسـتمر ذلك النقاش مـراراً وتكـراراً على مدار اليـوم، وخصوصاً في المساء.

بيـن صلاة الظهر وصلاة المغـرب وصلنا إلى مدينة (جيـرج) التي تقع علـى حافـة النهر مباشـرة، وكانـت الحافة هنـا مرتفعة للغاية وشـديدة الانحدار.

11/14

أبحرنـا علـى مـدار اليـوم في رياح جيـدة ومرتفعة بشـكل غيـر عادي، ولذلـك تقدمنـا فـي رحلتنـا بشـكل جيـد. قضيـت معظـم اليـوم فـي

المقصورة الصغيرة، أقرأ من كتاب شـامبليون الممتع والمثير للاهتمام عـن المصريين القدماء وعن الكهانة المقدسـة عندهم. تفاجأت من أن هذا الكتاب لم يصل إلى بلدنا النائي ولم نسمع عنه شيئاً حتى الآن. في المسـاء رسـونا عند قرية صغيرة ذهبت فيها إلى نزهة طويلة في بساتين النخيل تحت ضوء القمر المشـرق الجميل. سمعت الناس هنا يقولون بـأن ثمـة لصوص على مسـافة قصيرة باتجـاه أعلى النهر يسـطون على السـفن وينهبونها. ولكنني التقيت برجلين تركيين اسـتقبلاني اسـتقبالاً حـاراً وقدمـا لـي القهوة بإصرار شـديد حيـن قلت لهما إنني شركسـي قوقـازي، وأخبراني بأنه لا يوجد أي خطـر. وهذا ما أكده لي أيضاً أحد الحارسـين اللذين جاءا لحراسـتنا عندمـا عزمنا على قضـاء الليلة هنا. وهكـذا واصلنـا رحلتنـا دون أن نأبـه لقصص طاقـم سـفينتنا التي ربما يكونـون قد اخترعوها من تلقاء أنفسـهم لتأخيـر الرحلة، وليتمكنوا من النوم. ولكن الرياح هدأت في الليل فاضطررنا لإرساء السفينة.

11/15

أبحرنـا في وقـت مبكر من صباح اليوم من المكان الذي رسـونا فيه في الليلـة الماضيـة وانطلقنـا بفضل رياح سـريعة. كانت قوة الريـاح كافية بحيث وصلنا في وقت مبكر هذا الصباح إلى مدينة قنا، وهي مدينة كبيرة نسبياً عزمنا أن نشتري منها المزيد من المؤونة. ذهبت لإلقاء نظرة على المدينة. كانت مثل باقي المدن الأخرى، مبنية من الطوب في معظمها. كان الشاطئ مزدحماً، فقد أُحضرت إلى هناك كل الضروريات لعرضها للبيـع على أصحاب السـفن. كانت هنـاك العديد من السـفن، معظمها تنقـل الحجـاج الذيـن كانوا في طريقهم مـن هنا إلى قُصَيْـر. كما كانت هناك سفينتان كبيرتان نوعاً ما تحت البناء. وكما هو الحال في كل مدن الشـرق حتى الكبيرة منها، مثل القاهرة والقسـطنطينية، لا تجد اكتظاظ

الناس إلا في الشـوارع التجارية ونفس الأمـر نجده هنا أيضاً. وكما هو الحال في أسـيوط والمدن الصغيـرة الأخرى، يكون الشـارع التجاري مغطـى بمظلة منخفضـة. وما مدينة قنـا بالمقارنة مع أسـيوط إلا مدينة صغيـرة تعيسـة، ولكن هذه المدينـة كانت في حال أفضـل من المعتاد، وربما يكون ذلك احتفالاً بيوم الجمعة.

عنـد عودتـي إلى السـفينة وجدتهـم في انتظـاري، وقيل لي إنهـم بعثوا أحدهـم للبحث عنـي. خرجنا علـى الفور وأبحرنـا برفقة ريـاح قوية. كانـت ثمة قوارب كبيرة فـي كل مكان تحمل أوانيَ فخارية رُبِط بعضها ببعـض بعروج النخل فقط، ووضعت أفواه الأواني نحو الأسـفل، دون وجـود قاعدة من خشـب لحمايتها. وكان ما بين خمسـة وثمانية رجال يقودونها للسـير مـع التيار بواسـطة مجاذيف خرقاء، وهـي فروع نخلٍ عقدت بالقوارب. عند المساء هدأت الريح مرة أخرى، وتحولت قليلاً عكس اتجاهنا. لذلك رسـونا عند قرية صغيرة كانت في بساتين النخيل فيها الكثير من أشجار النخيل المثمرة.

11/16

كالعـادة لم نبحر فـي وقت مبكر. كانـت الرياح خفيفة اليـوم، وهدأت تمامـاً بعـد ذلك، فكان علينا سـحب السـفينة فـي وقت مبكر. رسـونا وذهبنـا نتمشـى على طول الشـاطئ. مررنـا بقرية صغيرة تسـمى جوز، وعلى الشـاطئ المقابل لهذه القرية كانت هناك قرية أكبر قليلاً وجميلة جداً اسمها نجادة وكان اليوم هو يوم السوق فيها. وكان في هذا الجانب عـدد كبيـر من القوارب على اسـتعداد لنقل الناس إلـى الضفة الأخرى من النهر. وكانت القوارب التي تستعد للخروج معبأة بالكامل بالناس. جلست لحظة على الشاطئ أتحدث إلى عدد كبير من الفلاحين، الذين تجمعـوا حولـي يتعجبون من أن سـلاحي ذو فوهتيـن. وكان من بينهم

شخص من جورنو، وكان في خدمة شامبليون طوال مدة استكشافاته في مدينة طيبة. الناس هنا معظمهم كرماء جداً، وتركوا في نفسي وقعاً أفضل مما تركه ناس مصر السفلى. هدأت الرياح هدوءاً كبيراً في فترة ما بعد الظهر، وهدأت تماماً وقت صلاة المغرب. كانت هذه الأمسية أجمل أمسيات الرحلة كلها وذلك لسببين: من ناحية لأن غداً هو الأحد، ومن ناحية ثانية لأننا نقترب الآن من المواقع الكلاسيكية والمقدسة لقدماء المصريين.

11/17

شاهدنا منذ الصباح الباكر أنقاض الكرنك والأقصر على اليسار أولاً في الساحل الشرقي للنهر. ثم بدأنا نرى تدريجياً تمثالي ممنون الكبيرين إلى اليمين، وكذا مدينة هابو ووادي الملوك. وبما أن الريح كانت هادئة تماماً هناك، رسونا وذهبنا لزيارة الكرنك، وصعدنا إلى هناك سيراً على الأقدام. لم يكن لهذه الأنقاض التي اقتربنا منها تدريجياً ذلك التأثير الذي اشتهرت به لا في نفسي ولا في نفس أصدقائي؛ لا عندما رأيتها من سفينتنا، ولا الآن وأنا أراها عن قرب. فليس ثمة إلا كميات هائلة من الأحجار الكبيرة، ولكن ليس ثمة جمال حقيقي، على الأقل ليس بأي شكل من الأشكال الخلابة. عندما ألقيت نظرة على هذه الحجارة من بعيد، قلت في نفسي أنه لا يمكن مقارنتها بالآثار القديمة في اليونان. فليس هنا خفة آثار اليونان ولا بهجة رخامها الأبيض اللامع. ولكننا عندما دخلنا من البوابة الكبيرة العالية، شاهدنا ضخامة أروقة الأعمدة التي لا نهاية لها، ورأينا روعتها وعظمتها. وإضافة إلى حجمها الهائل، فإنها أعمدة غاية في الجمال. وقد سقطتُ على الأقل تحت تأثير المفاجأة والإغواء والروعة، لدرجة لا تقارن، إلا بالأهرامات، بأي شيء آخر رأيته حتى الآن. كان كل شيء هناك مغطى تماماً بالكتابة

الهيروغليفية التي حُفظَت بشكل جيد جداً. وقد أخذت فكرة حقيقية هنا عن جمالية هذه الكتابة التي يمكن القول إنها تضاهي فن الرسم.

تجولنا في جميع أنحاء المكان، لكننا لم نتمكن من الحصول على فكرة جيدة حول كل شيء هنا. فالمعبد يبدو كبيراً جداً، حسب ما رأيته من مخلفات بوابات أروقة لا تعد ولا تحصى. وكان أكثر ما أعجبني هو الأعمدة الجميلة والكتابة الهيروغليفية. أما البناء نفسه فلم أتمكن من الإعجاب به حقاً، لأن كل مكان فيه كان مليئاً بأكوام الحصى الكبيرة. وغالباً ما كانت مرتفعة لدرجة أننا كنا نصل إلى السقف عندما نقف عليها. وهكذا، فقد أخذنا عن المكان مجرد نظرة عامة سريعة الآن، وحفظنا الفرجة الحقيقية لرحلة عودتنا. وبعدما تجولنا هنا حسب ما سمح به خاطرنا ووقتنا، ذهب الطبيب من هنا على ظهر حمار، وتوجه مباشرة إلى الأقصر، ومن هناك سوف يقطع النهر متوجها إلى جورنو لرؤية أحد أقاربه. وذهبت أنا وساتلر سيراً على الأقدام عبر شارع أبي الهول، وتجولنا في كل مكان، وشاهدنا في طريقنا مصنع البارود الذي يملكه الباشا. وقد دفن معظم أبي الهول في الأرض؛ الأنف كُسِر وكل جزء من أجزاء التماثيل تعرض للأذى، ولكنها مع ذلك، وعلى الرغم من أجزائها المقطوعة، تبقى شاهدة على عظمتها وأنفتها القديمة.

عبر هذا الطريق الذي غاب عن بصرنا عند سهول النخيل الخصبة، وصلنا بعد نحو نصف ساعة إلى الأقصر التي ربما تكون الأكثر شهرة من بين الآثار المصرية القديمة. وهي تلوح لنا بالفعل منذ الكرنك، ولا سيما المسلة النبيلة التي هي أجمل بكثير من تلك الواقفة في باريس في رأيي. تركت فِيّ الإصابات الضخمة التي أصيبت بها بوابة أروقة الأعمدة الكبيرة، والتماثيل العملاقة الواقفة بجوارها أثراً لا يوصف، على الرغم من أن التماثيل على وجه الخصوص كانت مفتتة ومدمَّرة.

هذا الدمار المنتشر في كل مكان هنا يمزق القلب ويثير الغضب، خصوصاً عندما نعرف أنه نتيجة أعمال وحشية قامت بها أيادي بشر متوحشين وهمجيين. وهذا كان واضحاً، وذلك لأن أول ما دُمِّر في التماثيل الوجه الذي تظهر عليه بوضوح آثار الضرب بأدوات حادة. ولكن حسرتي وغضبي من هذا كله ومن أكوام الحصى وصلا إلى أوجهما بعدما عبرت من تلك البوابة الهائلة إلى فناء المعبد. وكان الأطفال عراة وسوداً من فرط القذارة، وكان سكان المنطقة يرتدون أسمالاً رثة. كان في أعقابنا قطعان من الأطفال والرجال الذين كانوا يصيحون: (بقشيش يا خواجه!) ويصرون على ذلك أكثر من سائق الحمير في الإسكندرية. لم أغضب في حياتي من العرب كغضبي منهم الآن. لكن يبدو أن الناس هنا كما هو الأمر في كل مكان يزوره الفرنجة، قد تدهورت أحوالهم من كثرة التقائهم بهم.

تجولنا في منطقة المعبد كلها، ولكن الأكواخ العربية كانت منتشرة في كل مكان، وكان بعض الناس قد اتخذوا من الآثار التاريخية مسكناً لهم أو لحيواناتهم. وكان الوصول إلى الآثار يتطلب المرور وسط هذه الأوساخ المنتشرة هنا. ولكن الأمر مُقَزِّز جداً بالنسبة لي فعَجَّلت في جولتي قدر الإمكان، وأنا أعترف أنني لم أتمكن من التمتع بأي شيء في هذا المكان كله. أما في الكرنك فإن إحدى الغرف الداخلية للمعبد استخدمت سجناً، وكان رجل عجوز ذو لحية بيضاء محبوساً هناك، ومعه بعض النساء العجائز وبعض الأطفال الصغار. تحدثت معه فوجدته مرحاً وبشوشاً جداً. كان يضحك ويمزح فتعجبت من مزاجه الجيد في مثل هذه الحالة البائسة، ولكن العناية الإلهية تتكفل بكل شيء هنا، بالجيد وبالقبيح على السواء. ولهذا السبب تجد الناس هنا سعداء أو غير مبالين.

كنت بالكاد قد وصلت إلى سفينتنا، عندما عاد الطبيب من الساحل

المقابـل ومعه أحد أقاربه، وهـو طبيب ألماني اسـمه (أبيك). وقد أتى مـن تلقاء نفسـه وعلـى نفقته الخاصـة تقريبـاً لاقتفاء أثـر بعثة رحلات ليبسـيوس. وهـو ألماني قـح ينحدر مـن شـمال ألمانيا، شـعره أحمر، لحيتـه حمـراء، ويرتدي ملابس النبلاء المسـتخدمة في بـلاده. كما أنه ثرثار يتحدث بتكلف وبتصنع ويمط كلامه مطاً. وكان يتكلم باسـتمرار وبحمـاس وبلهجة مصطنعة ليس فقط عن مصـر القديمة (الذي أصبح عاشقاً كبيراً لها لأنه تأثر بليبسيوس)، ولكن أيضاً عن اللغة العربية التي يتحدثها بشـكل سـيء للغاية، فضلاً عن حديثه عن أمـور أخرى لا تعد ولا تحصـى، وكان قريبـه الدكتور أحيانـاً يظهر فرحة وإعجابـاً كبيرين بحديث (أبيك) هذا. ولكنه ذهب في فترة ما بعد الظهر إلى حال سـبيله ورافقه قريبه، وتركانا بسلام.

كان سـاتلر يرسـم ما رآه من أنقاض معابد ومسلات، وقد بني وسط الأنقـاض الرائعـة مسـجد قبيح وبائـس كان فيه خروفـان يتجولان بين المصلين. وكان عليَّ المرور عبر هذا المسـجد للوصول إلى بوابة برج صعدت إلى أعلاه. وكان هذا البرج لا يزال في حالة جيدة نسـبياً. وكان ثمة درج يؤدي إلى سطح بوابة البرج الواسع، ولكن معظمه كان مغطى بالأحجـار التي انهارت وتسـاقطت عليه حتى أنني اضطررت للتسـلق والزحف للوصول إلى الأعلى. وكان المنظر من الأعلى يسـتحق العناء والجهـد المضني الذي تكبدته للوصول إلى السـطح. فيمكنك أن ترى من الأعلى سهول وادي النيل الخضراء الواسعة التي تحيط بها من كلا الجانبيـن قمم الجبال الشـامخة، كما يمكنك أن تـرى أيضاً آثار الوادي المقدسة. ربما أكون قد وقفت فوق بوابة أقدس معبد من معابد الأقصر فـي العصور القديمة، ورأيت في الجانب الآخر من النهر معبد الكرنك أمامي، وتمثالي ممنون الهائلين الهرميين تقريباً، واللذين يلفتان الأنظار منذ الوهلة الأولى، وكذا مدينة هابو، ومعبد ممنون، وجورنو، والمقابر

التي تفتح مداخلها في كل اتجاه ناحية الجبال. لكنني بالتأكيد لم أتمكن حقاً من فهم ما رأته عيناي بالاعتماد على معارفي الخاصة مثلما كان الأمر سيكون عليه لو كنت الآن أتفرج على الآثار اليونانية القديمة. ولكن لعظمة هذه الآثار الهائلة التي لا يمكن حساب عمرها تقريباً، والتي تمتد إلى ما قبل موسى، وربما ما قبل إبراهيم، إلى تلك الأزمنة التي يفترض عموماً أن الفيضانات قد حدثت خلالها؛ بالإضافة إلى سماء مصر الهادئة التي تكاد تكون من خصائص مصر عند التفكير فيها كلها تأثير عميق علي. فرحت من قلبي وأنا أمشي على هذه الحجارة التي جمعها معلمو آبائنا الأولون تكريماً لآلهتهم ولحكامهم. ولكنني في الوقت نفسه شعرت بسخط عميق على مدنسي هذه الأماكن المقدسة الهمجيين، الذين دمروا المكان، وبذلوا جهداً جهيداً وعملوا عملاً دؤوباً شاقاً لأجل تدميره.

كما شعرت بسخط عميق كذلك على ألئك المقيمين هنا مع أغنامهم وأبقارهم شعرت بالمقدار نفسه من السخط على العديد من الأنذال الأوروبيين الذين حفروا أسماءهم على البلاط هنا. إن الدمار الذي يبدو من بوابة البرج رهيب ومروع لدرجة أنني أؤمن تقريباً بأن يد الرب أسهمت فيه عن طريق زلزال مثلاً مثلما يقول بعض كتاب الأسفار والرحلات، لأن تلك القطع الصخرية الكبيرة التي بُنيت منها الجدران الداخلية مبعثرة الآن في جميع أنحاء الساحة، وأنا لا أستطيع أن أتصور كيف يمكن لأناس، مهما كان تعصبهم، أن يبذلوا مثل هذا الجهد الكبير لتشتيت هذه الكتل الصخرية. ولكن أكثر ما أعجبني هنا أيضاً هي الكتابة الهيروغليفية المنحوتة على جوانب المسلة بإتقان شديد ومرونة للغاية. وقد وقفت الآن على مسافة قصيرة منها أنظر إليها بإعجاب، فهي أعمال نقش وزخارف. جلست هناك طويلاً أمتّع عيني وأفكاري.

عندمـا اقتربت الشـمس من المغيب، عدت إلى السـفينة وجلسـت أتفـرج على أفـراد طاقم سـفينتنا الذين كانـوا يقذفون الكـرة ويلعبون. وكان مـن بيـن الألعاب التي لعبوها أن تظاهر أحدهـم بأنه حمار، وقفز الآخر على ظهره وقذف الكرة على الأرض فيما حاول الآخرون الذين كانـوا يقفـون هناك الإمسـاك بالكرة. وكان من يمسـك بالكـرة يمتطي ظهـر من ألقى الكرة وهكذا دواليك. وفي الوقت نفسـه، كان اللاعبون يتخـذون مـن يلعب دور الحمـار موضوعـاً للمزاح، بحيـث يصيحون بعبارات يرددها سـائقو الحمير من قبيل (شـي شي) عندما يُراد للحمار أن يتوقف. كان الرجال يلعبون بمرح شـديد، وحتى مساعد القبطان، – وهـو رجل قد يتراوح عمره بيـن الثلاثين والأربعين– لعب معهم مرِحاً مسروراً. وسرعان ما انطلقنا وتوجهنا نحو الضفة المقابِلَة، حيث كنا قد اتفقنـا مع الطبيب على أن نلتقي معه هناك عند أحد أقاربه الذي كان قد رسا بسفينته التي أجرها من أسوان في جورنو.

11/18

بعد أن شربنا القهوة، ركبت أنا وساتلر كل منا على ظهر حماره وانطلقنا فـي رحلتنا يتقدمنـا رجل عجوز، جاء إلينا مسـاء أمـس ومعه كومة من الشـهادات التـي كتبها له بعض المسـافرين الأوروبيين والتـي تفيد بأنه قام بعمله بشـكل جيـد، وبأنه على معرفـة تامة بالمنطقة كلهـا وبآثارها التاريخية. سـلكنا طريقاً يؤدي إلى أنقاض المعبد القديم الذي في قرية جورنـو الواقعـة علـى منحدر جبلـي، ومررنـا بقرية بائسـة وجد معظم سـكانها في الكهوف الجبلية الكبيرة مسـكناً مريحاً لهم. فهذه الكهوف علـى أي حـال أفضل من بيـوت الطين القذرة التي يسـكنون فيها عادة. كان الطريـق يرتفـع ببـطء وبالتدريج مـروراً بمنطقـة صحراوية حقيقية ليـس فيها أثـر للغطاء النباتـي، وربما يكون هذا الطريـق مجرى للغدير

الجبلي الذي حفرته التساقطات المطرية على مر السنين (على الرغم من ندرتها). وقد أخبرنا العجوز أن السماء أمطرت في العام الماضي في هذا الوقت بغزارة مدة طويلة.

كان المنظر من الجبال التي تحيط بالوادي من كل جانب، مؤثراً جداً، ومتناسقاً للغاية مع الطريق المؤدي إلى وادي المقابر. وليس في هذا المكان مقابر ملكية عمرها آلاف السنين فحسب، بل إن للجبال نفسها قبراً خاصاً بها، فهي مع مرور الوقت تذوي كما هو حال كل شيء آخر، وقد كانت قد تهدمت وانهارت وتحولت إلى رمال وحصى. وكانت الصخور في معظمها من الصخر الرملي مع وجود صخور جيرية وطبقات جرانيتية كذلك. وكانت هذه الصخور الجرانيتية المغطاة بطبقات جيرية خفيفة منتشرة في كل مكان، وكانت الطبيعة قد شكَّلتها ودَوَّرتها وصنعت منها أشكالاً مختلفة. وبعد أن سرنا في هذا الطريق الصحراوي ما يقرب من ساعة، وصلنا إلى (بيبان الملوك). أخذَنا دليلنا العجوز إلى أشهر القبور: قبر سيزوستريس. وكان الطريق إلى قبره عبر ممر واسع، أعتقد أنه مائل بزاوية قياسها سبع وعشرون درجة وفوقه سقف منخفض. وكانت جدران المكان الصخرية مطلية بالكلس تملؤها الكتابة الهيروغليفية ورسومات بألوان صارخة جميلة، كما كانت ثمة رسومات في السقف كذلك. ولكنني لم أجد، لا أنا ولا الرسام ساتلر، في هذا القبر تلك الجمالية التي قرأت عنها وتوقعتها أو على الأقل ليس بالصورة التي للناس عن جمالية الفن عادة. تلك الألوان التي تبدو طازجة وفي حالة جيدة بالمقارنة مع عمرها الطويل بالطبع، قارناها بالرسومات التي يخربشها الأطفال عندنا على جدران حديثة الطلاء. تبدو لنا الرؤوس الغريبة، والشخصيات الغامضة في غالبها ضرباً من الجنون في كثير من الأحيان لأننا لا نعرف اللغة الهيروغليفية ولا نفقه فيها شيئاً. تجولنا في هذه الممرات المظلمة على ضوء

الشموع، بطبيعة الحال، وشاهدنا الخفافيش وهي تحلق حول اللهب، ولكن عددها لم يكن بالكم الذي يذكره كتَّاب الأسفار والرحلات. استغرقت جولتنا مدة طويلة في هذا القبو الكبير الذي يتشكل من غرف وقاعات كبيرة، ومن ممرات وغرف جانبية وزوايا، وكانت الرسومات تغطي كل الأماكن. ولكن الرسومات في نهاية المطاف كانت متكررة، والشخصيات كانت ترسم دائماً بنفس الطريقة. ولكن أكثر ما أعجبني هنا أيضاً الكتابة الهيروغليفية على الرغم من أنني لم أفهم فحوى تلك الكتابة، كما أعجبتني تلك الرسومات الدائرية الانسيابية الشكل التي رُسِمت بطريقة مثيرة للإعجاب. وبعد أن غادرنا هذا القبر، زرنا عدداً من القبور الأخرى، فلم يبق على ما أعتقد إلا قبران اثنان فقط لم نزرهما. وكانت كل تلك القبور متشابهة إلى حد ما. وكانت بعض التوابيت قد بقيت في حالة جيدة جداً، وكانت منحوتة من صخور جرانيتية ضخمة، كسرها طغاة القرون اللاحقة الذين كانوا متعطشين لجمع الذهب وهم يحاولون فتحها بحثاً عن الكنوز. تعبنا في نهاية المطاف من مشاهدة المقابر وكذا من رائحة القطران[1] المركزة، وكذا من الهواء العفن الذي يملأ الأقبية تحت الأرضية، لذلك كنا سعداء جداً عندما انتهت الجولة.

وبعد ذلك كان علينا أن نبدأ مهمة صعبة، وإن كانت أسهل من المهمة السابقة، وهي الصعود إلى قمة الجبل والنزول من جهة أخرى، كنا قد أرسلنا إليها حميرنا مسبقاً لتنتظرنا هناك. إلا أن سلوانا في تحدي تسلق الجبل هذا هو المنظر الجميل الذي يطل من جميع الاتجاهات على تشكيلة عجيبة مذهلة متمثلة في مختلف القمم الجبلية التي كان بعضها كالأبراج، وبعضها كالقبب وبعضها كالرأس الحاد. وكان ما يفصل هذه الجبال بعضها عن بعض هو مجموعة من الجداول والممرات التي حفرت لنفسها طريقاً بين الصخور المتدحرجة من الجبل. كان

(1) ويسمى كذلك القار أو الزفت.

المنظـر من الأعلـى رائعَ الجمال على الرغم من أن هذا الجبل، كما هو الحـال في مصر عامة، يفتقر إلى الحيوية والتنوع الذين توفرهما غابات أشجار التنوب الضخمة لجبالنا. وعندما نزلنا إلى الأسفل وركبنا ظهور حميرنـا، توجهنـا إلى معبد ممنـون الضخم، وألقينا عليه نظرة سـريعة، لكـن أعتـرف أنني كنت قـد أُتخمت من شـدة التفرج على هـذه المآثر كمـا أنني كنت جائعاً جداً فلم أسـتمتع مما رأيته كثيراً. وكان هناك عدد كبير من عمال (ليبسيوس). تمتعت كثيراً بالنظر إلى أجسادهم السمراء حنطيـة اللـون العارية اللامعة، التي لم تكن تسـترها إلا خرقة مشـدودة إليها بحبل يقوم بدور حزام يمنع الخرقة من السقوط.

واصلنا رحلتنا إلى معبد جرونو الصغير حيث كان عمال ليبسـيوس هنـاك أيضاً منعكفين على أشـغال الحفريـات. كان العديد من الأطفال يركضـون هنـا، كمـا هو الحـال فـي أماكن أخـرى كثيـرة، محاولين أن يبيعـوا بعـض الخـردة التذكاريـة القديمـة التـي يدعون أنهـم وجدوها فـي الحفريـات. أما من لم يكـن لديهم ما يمكن بيعه، فكانوا يتسـولون مردديـن نفس تلك العبارة التهكمية والمتطفلة: (بقشـيش يا خواجه!). ولكنهم لم يكونوا هنا بدرجة وقاحة أهل الأقصر.

لـم نصل إلى السـفينة إلا في السـاعة الثانية وكنا متعبيـن وجائعين. ولحسن حظنا كانت بعض السحابات الرقيقة تغطي السماء طيلة اليوم، وهـو فـي الحقيقـة أمر نـادر هنا، ومن ثـم فإن الحـرارة لم تكن قاسـية عندمـا كنا بين جبال الصحراء الشـاهقة. وعندما حان الوقت لدفع ثمن الخدمـات التي قدمها لنا مرشـدونا وسـائقو حميرنا، نشـأ بيننا شـجار بطبيعـة الحال مثلما يحدث في هذه البلاد دائماً في مثل هذه الحالات. وبعدمـا تمكنـا أخيـراً مـن التخلـص منهـم، بدأنا فـي إخراج الأشـياء التذكارية التي اشـتريناها من أكياسـنا، وكذا بعـض القطع الجصية التي انتزعها سـاتلر من جـدران المقابر للحصول على عينـات من الألوان.

لـم أرد أنـا اقتراف شـيء من هذا القبيـل، حتى وإن كان من سـبقونا قد نهبوا هـذه الأماكن طولاً وعرضاً، وسـرقوا منها حتى شـظايا الصخور الكلسـية. كمـا أنني رفضـت على نحـو مماثل نحت الجـدران أو حفر اسـمي عليهـا كما جـرت عادة الـزوار. كان هناك في كل مـكان عدد لا حصر له من الأسماء، المعروفة منها وغير المعروفة. ومن بين الأسماء المعروفة أذكر محمد علي حاكم مصر، إذ كتب على قبر سيزوسـتريس عبارات بالفرنسية والتركية، فضلاً عن بعض الأبيات الشعرية بالتركية.

وبعدما أكلنا واسـترحنا قليلاً، ذهب ساتلر إلى الشاطئ لرسم بعض المناظر الطبيعية. أما أنا فأخذت سـلاحي وذهبت مع جيوفاني وابتعدنا عن الشـاطئ، ولكننا لم نتمكن من الحصول على أية طريدة. كان رعاة الغنـم مـن الأطفـال فـي كل مـكان يصيحون: (بقشـيش يـا خواجه!). وعندما ضللنا الطريق بين العديد من القنوات، صاحت بنا بعض النساء وقلـن لنا: (يا أفرنجـي!). لم يكن الناس هنا، ولا فـي القاهرة، ينعتوننا (نصرانييـن) لأن هـذه الكلمـة شـتيمة على عكـس كلمـة أفرنجي. في نهايـة المطاف تعبت من برفقـة جيوفاني وحاولت التخلص منه، لكنني لاحظـت أنـه كان خائفاً مـن العودة إلى السـفينة وحده، ولـو أننا كنا لا نزال في وضح النهار، ونمشي في طريق عريض وواضح. فهو من مالطا وكاثوليكي، وإيمانه الكاثوليكي القابض للصدر الذي يخاف من البعبع يجعله عبـداً للخوف مثل معظم الكاثوليكيين. عندما بدأت أسـخر منه بهذا الشـأن وأضحـك عليه، اضطره الخجل أخيراً إلـى المغادرة وترك رفقتي.

وعندما بقيت وحدي صعدت إلى الجبل، وجلست في قمته العالية أتمتع بالمنظر الجميل الممتد على مساحة واسعة تضيؤها شمس مساء مصر. كان الجو هادئاً تماماً، أحلى ما يمكن له أن يكون في مصر. لأنني لـم أر فـي أي مـكان آخر هُدوءاً ولطف مسـاء مثل مسـاءات مصر. كل

ليلـة هنـا هي ليلة يـوم عطلة، مثل بعـض ليالي الصيـف اللطيفة أو مثل ليلـة عيـد العنصرة عندنـا. لم أكن قد جلسـت طويلاً عندمـا جاء فلاح يسـكن في كهف من الكهـوف القريبة وأخذ يدردش معـي، ثم قدم لي بعض الذرة المشـوية، وقال إن اسـمها (قنديل). وسرعان ما جاء فلاح آخـر، وبدأت الدردشـة تزداد حيوية، على الرغم مـن أنني لم أكن أفهم لهجتهمـا بسـهولة لأنها تختلف تمامـاً عن لهجة القاهـرة. من المذهل حقـاً أن ترى كيف يبقى الناس بشوشـين ومبتهجين على الرغم من كل البؤس والفقر الذي يحيط بهم، فضلاً عن جلدات الكرباج[1] التي توزع على أقدامهم باسـتمرار، مما يثبت بشكل أفضل أن روعة مصر وجمال سـمائها هو عزاء الروح عن كل هذا البؤس، وعن جلدات السـوط التي يتلقاها هؤلاء الفلاحون على باطن أقدامهم. بقيت جالساً حتى غروب الشمس تقريباً، ثم ذهبت ببطء متوجهاً نحو السفينة. لم ينزل الشيخ من السـفينة اليوم بل قضى اليوم كله فيها عاكفاً على كتابة النحو، يا لها من لا مبالاة غريبة!

11/19

أبحرنـا صباح اليوم واضطررنا إلى سـحب السـفينة مسـافة طويلة لأننا لـم نتمكن من الاسـتفادة من الرياح لعبـور تعرجات النهـر. ولكننا مع ذلك تمكننا في وقت لاحق من رفع الأشـرعة عندما هبت رياح شمالية قويـة ما فتئت تـزداد قوة خلال اليـوم، حتى كان علينا فـي النهاية إنزال شـراعنا الرئيسـي. وكان علـى رجـال السـفينة أن يتسـلقوا إلـى أعلـى الصـواري لكـي يعيدوا للسـفينة توازنها، وهو الأمر الـذي لا يخلو من خطـورة. دخلت المياه إلى السـفينة مما أحدث ضـرراً كبيراً بالنظر إلى صغـر حجم سـفينتنا، فأخذ الركاب يصرخون بشـدة كما لو كان الغرق

(1) السوط.

يهددنا. الآن أرى بشكل أفضل أن أشرعتهم الكبيرة وثلاثية الشكل غير متقنة الصنع وصعبة الاستعمال. ولكننا تمكنَّا من متابعة رحلتنا دون ضرر يذكر بصحبة ريح قوية واستمر تقدمنا بوتيرة جيدة إلى أن وصلنا إلى مدينة إسنا وقت صلاة العشاء؛ وهي ملجأ جميع النساء الخليعات والراقصات في مصر والمكان الذي يطردن إليه. ولكننا وصلنا في وقت متأخر جداً فلم نتمكن من رؤية هذه النوعية التي عادة ما تنتظر وصول السفن لتحيط بها في الشاطئ وتعرض رقصها. ولكننا تجولنا قليلاً في المساء في هذه المدينة بائسة المظهر. كانت الشوارع هادئة هدوءاً شديداً منذ الساعة الثامنة، ولم نلتق إلا بعدد قليلٍ من الناس. مكثنا هناك طوال الليل، لأن القبطان رفض الإبحار متذرعاً بكون النهر سيصبح ضحلاً وصخرياً بعد مسافة قصيرة من هذا المكان. هبت الريح قويةً هذه الليلة، ولكننا لم نبحر إلا في الصباح الباكر.

11/21

كانت الريح هادئة جداً، لذلك كان علينا سحب السفينة إلى غاية إدفو. كان ينبغي علينا هنا اقتناء بعض المؤونة، لذلك، ذهبنا إلى القرية التي تبعد عن النهر ربع ساعة أو نصفاً سيراً على الأقدام. كان هناك معبد جميل جداً وفي حالة جيدة للغاية، ولو أنه كان مليئاً بالحصى. كما كانت بوابة أروقة الأعمدة في حالة جيدة جداً كذلك، وكانت التماثيل هنا بحالة جيدة فضلاً على كونها بارزة جداً، على الرغم من أن بعضها تعرض للتدمير. وقد حافظوا على الأعمدة التي في الداخل بشكل جيد، وخصوصاً الأجزاء العليا منها. إذ كان من السهل رؤيتها عن قرب عند تسلق أكوام الحصى العالية. كانت الرسومات الجميلة التي رسمت على الأعمدة، كصُورِ النخيل أو صور أزهار اللُّوتُس، واضحة جداً. كانت الجدران مغطاة تماماً بالكتابة الهيروغليفية وبرسومات

لبعض الشخصيات الأخرى. ويعود هذا المبنى إلى عهد بطليموس الرابع، أي أنه حديث نسبياً. أوقفني رجل تركي بشوش ومضحك حقاً، كانت له لحية حمراء، وكان مخموراً قليلاً، تحدث كثيراً باللغة التركية أول الأمر، ولكنه عندما أجبته بالفارسية فلم يفهم، بدأ يتحدث باللغة العربية. وفي نهاية المطاف بدأ يتسول، ولكنه لم يحصل على أي شيء.

11/22

ظلت الرياح سيئة على مدار اليوم إذ كانت تهدأ تارة وتهب تارة أخرى. بدأنا جميعاً نَمَلُّ تدريجياً من هذه الرحلة. مررنا بعد ظهر اليوم بكوم أمبو، التي بدت لنا من بعيد على جزيرة كبيرة. رأيت شخصاً يعبر النهر على متن قارب صنعه من ثلاث قطع من جذوع أشجار مربوطة معاً. وكان هذا القارب بالكاد يكفي له ولملابسه التي كان يحملها وراءه في صُرَّة. وجلس هو عارياً يجدف قُدُماً بمجداف بائس لا يصلح لشيء وهو يغني طول الرحلة. نشأ بيني وبين الطبيب نزاع بسيط خلال فترة ما بعد الظهر، بحيث احتدت لهجته وأصبح يتلفظ بكلام لاذع وبدأ يضايقني كثيراً. ارتأيت أنا وساتلر أن نعود من أسوان إلى القاهرة ولكن شلدرهاوس أراد مواصلة الرحلة. رسونا في المنصورية، وهي قرية صغيرة تقع في جزيرة كبيرة. ذهبت مع محمد واثنين آخرين من رجال السفينة إلى القرية لشراء الحليب.

جلست عند الغسق أتحدث مع الحراس الذين يحرسون حقول الذرة القريبة من المكان الذي رسونا فيه. كانوا رجالاً لطيفين، أحدهم كان يتكلم كثيراً، وكالعادة تسول في النهاية فطلب مني أن أعطيه طاقيتي أولاً، ثم طربوشي بعد ذلك، وغير ذلك من الملابس. وبعد ذلك طلب مني بإصرار شديد أن آخذه معي في رحلتي. كان كل شيء في الغالب مجرد مزحة. كان أفراد طاقم سفينتنا في غضون ذلك قد ذهبوا إلى القرية

ومعهـم الدربوكة والزمارة للمشـاركة في حفل ختـان هناك. انضممت إليهم، كما انضم الرجال الذين كانوا جالسـين معـي أيضاً. وانضم إلينا الكثيـر من الناس على طول الطريق، وفـي نهاية المطاف أصبح الجمع غفيراً. كان الجميع أو على الأقل معظمهم يحملون معهم (النبوط) أي عصـا القتال. وعندما وصلنا إلى القرية، علمنـا أن الحفل لن يُقام هناك وإنمـا في منزل يقع فـي الجانب الآخر من حقول الـذرة. في الواقع لم نكن نشـعر بالرغبة في الذهـاب إلى هناك، ولكـن القرويين أقنعونا بأن نذهب. لا أسـتطيع أن أنكر أنني كنت متردداً وخائفاً قليلاً من أن ينقلب الأمر وينتهي إلى اسـتعمال العنف، وذلك لأن عدداً كبيراً من القرويين قد أبعدونا عن سفينتنا.

لكننا مشـينا إلى الأمام وجلسنا في شكل دائري حول منزل الحفل. كان العـزف علـى الدربوكـة والزمـارة على أشـده، وكنـا نرافق صوت الموسـيقا الصاخبـة بالتصفيق. بادئ ذي بدء، قـدم مهرِّجنا علي عرضاً وهـو يرتدي ملابـس امرأة، ورقص فأثـار إعجاب واسـتمتاع الجميع. صفـق الجميـع علـى عرضـه معبرين عـن استحسـانهم. وعليٌّ جدير بذلـك الاستحسـان حقـاً في نظري. وبعـد ذلك قدم مسـاعد قبطاننا ما عنـده، فلعـب دور المقاتل الشـاب الرشـيق. وبالفعل فإنه قـدم عرضاً رشيقاً للقتال بالعصا، ولوَّح بنبوطه في الهواء وهو يقوم بمختلف أنواع الحركات الرشـيقة وكأنه رمح، ثم أدى مختلـف الحركات الجمبازية، إمـا وحـده أو وهو يحمل على ظهـره أحد القرويين الذي يشـدُّ بركبتيه على خاصرة اللاعب لكي لا يقع. في الواقع لقد كان يتمتع بليونة وقوة أكثـر بكثيـر مما كنت أتصور أن يتمتع بها هذا الشـعب. ذلك أنني لـم أر مـن قبل مثل هـذه العـروض. وكان في معظـم رقصـه وحركاته يحرك الخصر ويهز الخاصرة أكثر من المعتاد. وفي الوقت نفسه، أخذ مهرجنا يقوم بحركات وكأنه يمسـح الغبار الخارج من مؤخرة مساعد القبطان،

وينثره على الجالسين حوله مثلما يفعل الكهنة الروسيون بالمياه المقدسة. لاقت هذه المناورة استحسان الجمهور الذي صاح بصوت عال. لم أفهم حقاً معنى ما كان المهرج علي يفعله، ولكنه، وبعد نجاح هذه المناورة أكثر من مرة، تلقى أخيراً ضربة قوية في خاصرته حتى طار ووقع بين الجمهور. تلقى مساعد القبطان تصفيقاً عنيفاً واستحساناً شديداً، ولكنه على ما يبدو كان معتاداً على مثل ردود الفعل هذه، واعتبرها من حقه تماماً، كما أنه يبدو مولعاً جداً بنفسه عموماً.

نهضنا لنعود إلى السفينة، ولكن القرويين طلبوا منا البقاء والاستماع إلى أغانيهم وعزفهم، ومشاهدة رقصهم مقابل ما قدمناه لهم من عروض. لا يمكن للمرء أن يرفض مثل هذا العرض بالتأكيد. تجمع القرويون في ثلاث حلقات كبيرة حول الطبلة وبدؤوا الغناء بأسلوب محلي شائع يشبه قليلاً الأغاني الوطنية الروسية، على الرغم من أنه ليس على نفس الدرجة من الغنى واللين. وسرعان ما دخلت امرأة إلى الحلقة وهي ملفوفة تماماً بوشاح يغطي مركزه رأسها في حين تتدلى بقية الوشاح على الجانبين ليغطي جسمها كله. كان رقصها مجرد ركض عبر الحلقة من جانب إلى آخر، دون أي حركات أخرى لا باليدين ولا بالقدمين كتلك التي يتطلبها تقدمها. وكانت كلما توقفت عند الطرف الآخر من الحلقة، ترفع يديها من تحت الوشاح بنفس الوتيرة دائماً. وكانت هذه الحركة رشيقة جداً تفتح طيات الوشاح بشكل جميل، ولكنها فقدت جماليتها عندما تكررت مراراً وتكراراً. وحتى الأغنية التي رافقتها بإيقاع ثابت لا يتغير، كانت رتيبة جداً مثل الرقصة، مثل رتابة الشعب، والنهر، والأرض، وكل شيء في مصر. على الرغم من أن هذه الرتابة عينها هي سبب ذلك السناء الموجود في هذه البلاد. ولكن، وحتى يتمكن المرء من تقدير ذلك السناء، فإنه بحاجة إلى مزيد من الوقت وإلى عقلية تختلف عن عقلية معظم الوافدين على

هـذا المكان. وعلى الرغم من أنني مللت سـريعاً من العزف والرقص، اللذيـن كانا يزعجانني إضافة إلى أن الوشـاح الذي كان يلمس الأرض كان يثيـر فـي الهواء غباراً ناعمـاً يقف في حلقي، فـإن العرض أعجبني إلى حد ما، والمنظر كان جميلاً في أحد الجوانب، كانت هناك أشـجار نخيـل ضخمة، وفي الجانب الآخر قرية عربية فقيرة. إضافة إلى حقول الـذرة الشاسـعة الخضيـرة. وكان كل هـذا مضـاء بنور لطيـف لبدر تام وجميـل. كانـت هذه المجموعـة الكبيرة مكونة من عـرب صعيد مصر السـمر سُمرة تميل إلى السـواد، والمسـلحين جميعهم بعصي النبوط، والمرتديـن ملابـس وأسـمالاً ملونـة تبـدو تحـت ضـوء القمـر طريفة للغايـة. وعندما انتهى الاحتفال افترقنا وكأننا أفضل الأصدقاء، وتبادلنا المجامـلات المعتادة، وصاحبنـا عدد من المرافقيـن الذين جاؤوا إلى الشاطئ لحراسة حقول الذرة، لغاية سفينتنا.

11/24

ذهبـت أنـا والطبيب بعـد أن شـربنا القهوة علـى الفور عنـد وكيل هذه المدينة لنتحدث معه ولنطلب منه ترتيب مرورنا عبر الشـلال. التقينا به أمـام منزله حيث كان يدردش مع بعض العرب، وكان إلى جواره كاتب قبطي يبدو عليه أثر النعمة بشـكل خاص. أرينا الوكيل تصاريح السـفر وغيرها من الأوراق التي حصلنا عليها من عند الباشـا. بدا رجلاً خَيِّراً، طلب على الفور من كاتبه تجهيز ورقةٍ، وختم أسفلها، وأرسل مساعده ليقدم الورقة لمن يسـمى (رئيس الشـلال) ووعد بأن يأتي إلى سـفينتنا للقائنا. إلا أن وصوله استغرق وقتاً طويلاً، وذلك لأن قريته بعيدة على ما يبدو. في غضون ذلك، ذهبت في جولة في هذه المدينة التي تشبه كل المدن الأخـرى رغم كبرها. وكانت بناياتها مـن الطوب، أو بالأحرى، من الطوب الذي جففته الشـمس. كانت الصحراء وجبالها قريبة نسـبياً

من المدينة، ولم تكن الأراضي الصالحة للزراعة تشكل سوى قطاع صغير نمت في معظمه أشجار النخيل. وفي منتصف اليوم تقريباً التقيت بالأفندي الكاتب القبطي، الذي كان يريد أن يأتي إلى سفينتنا مع شخص آخر لزيارتنا. وهكذا ذهبت معهما إلى الشاطئ، وقضيت برفقتهما بعض الوقت ندخن ونشرب القهوة. ولم يبقوا مدة طويلة.

وعندما عدت إلى البر، التقيت بمساعد الأفندي، وبرئيس الشلال، وبعض مساعديه الآخرين من البرابرة السود. ذهبت معهم إلى الأفندي الذي التقينا به في منزله الصغير الذي بناه على التلة. عدنا جميعنا إلى الشاطئ للاتفاق على كل الأمور في السفينة. أولاً، شربنا القهوة ودخنَّا وتحدثنا عن أصل كل واحد منا، فقلت لهم من جهتي بأنني من تبليسي[1]، ومسقط رأس الأفندي هو مدينة كورج التي تقع بالقرب من هذه المدينة. ثم دعونا رئيس الشلال وبدأ التفاوض وكان بنفس درجة الصعوبة التي تعترض المرء مع العرب عادة. وفي آخر المحادثات والمشاحنات، اتفقنا على أن يأخذونا عبر الشلال مقابل مئة وثلاثين باستراً. ونشأ خلاف آخر مع رئيس الشلال حول أجرة المرشد الذي يقود السفينة إلى الشاطئ، فقد قال بأن علينا دفع أجره إلى غاية وادي حلفا. لهذا السبب، أردنا رؤية الاتفاق المكتوب لقراءته مرة أخرى. وقد انزعج مساعد القبطان انزعاجاً كبيراً من هذا الأمر، ولكن لا يوجد أي شيء في العقد عن مرشد السفينة، ولذلك، فما من شيء يجبرنا على أن نستأجره، ولكننا وعدْنا أن ندفع راتبه مقدماً إذا احتجنا لخدماته.

وعندما اتضح كل شيء أخيراً، انصرف الضيوف وتناولنا نحن وجبة العشاء، وذهبت أنا والدكتور في جولة في جزيرة إلفنتين. ويرتفع الطرف الجنوبي من الجزيرة على تلة عالية جداً، وهي مغطاة بالكامل بالحصى وبما تبقى من المباني القديمة التي انهارت، إضافة إلى

---

(1) عاصمة جورجيا حالياً وأكبر مدنها.

الأنقـاض التي ربما تكون بقايا قلعة ما. وكان فـي أعقابنا طوال الرحلة عـدد كبير مـن الأطفال القذريـن العراة أو شـبه العراة الذيـن يركضون ويصيحـون (بقشـيش يا خواجه!). وكانـوا فضوليين للغايـة، وعرضوا علينـا مختلف أنواع الحجارة، أو الخـردة، أو الأدوات الصدئة القديمة التي لا تسـاوي شـيئاً. فـي نهاية المطـاف اضطـررت لإعطائهم بعض الـذرة للتخلص منهم ولإبعادهم بعيداً. كانـت التلة الجنوبية تطل على منظر جميل فيه الشلال والجزر الصخرية المذهلة التي تتدفق عليها مياه النهر. ثم مشينا على طول الشاطئ إلى القمة الشمالية للجزيرة، التي لم نر فيها إلا أشجار النخيل وبعض حقول الذرة. وكانت في هذه الجزيرة قـرى صغيرة كثيـرة، وكانت فـي كل واحدة منها مجموعـات كبيرة من الأطفال الذين يصيحون مطالبين بالبقشيش ويتبعوننا مسافات طويلة.

عندمـا عدنا إلى المكان الذي رسـونا فيه، وجدنا فـي انتظارنا هناك أيضـاً عدداً من الأطفـال الذين جـاؤوا يعرضون علينا بعـض الحجارة وغيرهـا مـن الخـردة. وكانـت بينهم بعـض الفتيـات الفاتنـات اللاتي يتراوح عمرهن بين الخامسـة عشـرة والسادسـة عشـرة عامـاً، واللاتي بالـكاد تمكنـت من رفع بصـري عنهن. قطعنا النهر أخيـراً في قارب تم تجميعـه مـن قطع خشـب فقـط وليس من الألـواح. كان كل مـكان فيه مليئـاً بالمـاء والتـراب، وكان محدبـاً للغايـة وكان يسـبح عميقاً بحيث كان يتقلـب لدرجـة أن المرء يكاد يسـقط إذا حاول الوقـوف والقارب يتحـرك. ثم اتجهنا صعوداً إلى أعلى الشـلال بسـفينتنا بمسـاعدة رياح جيـدة رغـم ضعفها. وهنـا أيضاً كان كل شـيء مألوفاً جداً، يشـبه كثيراً نهـر كوكيماينيوكـي[1] عندنا، على الرغم من أن تيـاره ليس بهذه القوة. وذكرتني هذه الشـواطئ وأكوام أحجار النهر بمنعرجات كوملينكي[2]،

---

(1) كوكيماينيوكي (Kokemäenjoki) نهر في فنلندا.

(2) بلدية فنلندية تقع في أرخبيل أولاّند وهو منطقة منزوعة السلاح تتمتع بالحكم الذاتي في

ولكن توجد هنا أشجار النخيل ورمال الصحراء الصفراء، التي لا وجود لها في بلدي. لم تستغرق الرحلة طويلاً، وسرعان ما وصلنا إلى منعطف شاطئ رملي رسونا عنده ونزلنا في قرية صغيرة بالقرب منه. صعدنا إلى أعلى جبل شاهق أضفت عليه الشمس السائرة للمغيب وراء جبال ليبيا توهجاً ضعيفاً، لإلقاء نظرة على النهر المتعرج بين الجبال والصخور. كل الجبال هنا جرانيتية مثلما هو الأمر عندنا، ولكن حبيبات جرانيتها أكثر خشونة عموماً وتتفتت بسهولة. وعلاوة على ذلك، فإن هذه الجبال لا تشكل سلسلة جبلية، بل إنها تبدو وكأنها مجزأة ومقسمة ومتراكمة بعضها فوق بعض بحيث تتشكل فيها أحياناً أشكال غريبة جداً، وأعمدة، إلخ. كان الشيخ معي هذا المساء، وقد جلسنا نشاهد هناك تلك الطبيعة الرائعة، ثم نزلنا من تلك الصخور الحادة إلى التلال الرملية الناعمة التي كانت الرياح الصحراوية قد جرفتها إلى ما بين الصخور، وتمتعنا كثيراً ونحن نضرب الرمال بأقدامنا الحافية.

وبعد شرب شاي المساء، ذهبت وحدي إلى القرية التي تقع على ارتفاع أكبر، والتقيت فيها بولدين صغيرين عرضا علي أن يحضرا لي من القرية المجاورة بعض الغوازي[1]. رفضت عرضهما ولكنني تبعتهما إلى القرية وجلست هناك مع رجل عجوز كان جالساً على مقعد منخفض قرب كوخه الصغير والنساء والأطفال من حوله على مسافة قريبة. وكعادة المحليين هنا، كان ألطف وأطيب من شعب مصر السفلى، ولكنه لم يكن عربياً في الحقيقة وإنما بربري. وهو مثل معظم البرابرة، لا يتحدث إلا قدراً يسيراً من العربية. لغتهم غريبة جداً ولا تشبه اللغة العربية أبداً على خلاف ما كنت أعتقد. وهي تشبه التركية تقريباً، موسيقاها لا تختلف عنها إلا قليلاً، ويبدو أنها استمدت عدداً

فنلندا ويتحدث سكانها اللغة السويدية.

(1) جمع غازية، وهي راقصة قد تقدم خدمات أخرى أيضاً

مـن كلماتهـا من التركية. منذ البداية، منذ أن سـمعت اللغـة البربرية في مصـر وأنـا أود أن أتعلمها، ولكننـي لا أملك في سـبيل ذلك لا الوقت ولا الوسـائل، مثلما ليـس لدي الآن لا الوقت ولا الوسـائل للقيام بأي شـيء آخر كذلك. وهذا شـأن حياتي كلها، ولذلـك أعتقد أن حالي هو حـال مقولة (تمخض الجبل فولد فأراً). ملامـح البربر تحكي عن طبع مختلف جداً عن طبع العرب: فهم يتميزون بوجه فروسي عيونه بارزة، مع بعض الملامح الحبشية التي تلاحظ عند النساء بالخصوص.

11/26

كانـت الريح هادئة هذا الصباح. حالما شـربنا القهـوة ذهبنا جميعاً إلى البر، وتوجهنا إلى جزيرة فيلة الصغيرة. مشـيت مع الشيخ في المقدمة، وتفرجـت على الصخـور الجرانيتية الضخمة التي علـى البر في الجهة المقابلـة للجزيرة. كان على الكثير من تلك الصخور كتابة هيروغليفية، ورسـومات تزينها. ولكن شـخصيات الرسـومات هنا أيضـاً قد فقدت وجوههـا على أيادي المتوحشـين. وبينما نحن ننظر باسـتغراب للكتل الصخرية الضخمة، جاء كلا الألمانيين فانضممت إليهما، لكن الشـيخ تخلـف عنا. وذلك ربما لأنـه لا يريد أن يراه الناس مع الفرنجة. تجولنا على امتداد الشاطئ المتعرج متوجهين إلى الجزيرة، ووجدنا في الأخير القارب الذي سنستقله لعبور المضيق. كان القارب عديم الشكل تماماً، عالياً، متهالكاً، مصنوعاً من جذوع الأشـجار. ويدل كل شـيء على أن سـكان المنطقة ليسـوا أهـل بحر ولا إبحـار. فحتى مراكـب التجديف القزميـة التـي يصنعهـا فلاحونـا الفنلنديون مـن سـكان الداخل أفضل وأكثر راحة من هذه السفن هنا. ركبنا ثلاثتنا وكان في المركب مجدفان اثنـان وهمـا صبيان صغيـران، إضافة إلى مسـاعد قبطـان أصغر حجماً منهما. ومسـاعدو القبطان هم في العادة الأصغر والأسـوأ. كان مساعد

قبطـان القـارب الذي عبرنا بـه النهر إلى جزيرة إلفنتين طفـلاً عارياً قيل إن عمره ثلاث سـنوات، وكان جالسـاً على مقعد قرب ماسك مجداف المركب إلى أن نودي عليه للعمل. ولكننا وصلنا إلى جزيرة فيلة، وهي جزيرة صغيرة جداً ولكنها جميلة. نمت على الشواطئ الخصبة أشجار النخيل، والكثير من أشجار التمر الهندي التي انتشرت منها رائحة رائعة لم أشم في حياتي مثلها. وعندما توغلنا في الجزيرة قليلاً، وجدنا المعبد القديم الذي يقال إنه من أكثر الأماكن التي بقيت في حالة جيدة كنصب تذكاري من العهود القديمة. بقينا نتفرج أولاً على المعبد الصغير الذي يقـع في مكان أبعد على الشـاطئ، وهو منفصـل تماماً، وكأنه عبارة عن ردهـة للمعبد الكبير. وكان مبنياً فـي معظمه من حجر رملي ربما يكون قد أحضر إلى هنا من مسافات بعيدة، لأن كل الجبال المحيطة بالمكان مـن الجرانيت. كان المعبد يبدو وكأن الأشـغال بـه لم تكن قد اكتملت بعـد، إذ لـم يُزيَّـن مـن الجـدران إلا جـدار واحد فقـط؛ وجزئيـاً فقط؛ بالرسـومات والكتابـة الهيروغليفية. وكانت قبعـات الأعمدة الصغيرة علـى شـكل أشـجار النخيل، أو على شـكل قبـب، أو أزهـار اللوتس. عمـل ممتاز ودقيق جداً فضلاً عن كونه بحالة جيدة جيداً. لكن الأيادي الشرسة كانت قد طالت بعضه فدمرته.

جلسنا هنا طويلاً، إما داخل المعبد الصغير، أو في الخارج في أروقة الأعمدة الصخرية التي أقيمت على الشاطئ في وقت مضى، وأصبحت الآن فوق خط الماء بكثير. ثم دخلنا إلى المعبد الكبير. ومن المسلَّم به عمومـاً أنه يعتبر أفضل مبنى محفوظ من العصور القديمة، وهو ما يبدو جليـاً لنا كذلك. وكانـت ألوان قبعات الأعمدة في أحد أجزاء المبنى لا تـزال واضحة: الأخضـر، والأزرق، وما إلى ذلك. وكانت الرسـومات المعبـرة عـن أشـجار النخيـل وكذلـك نبـات اللوتـس، مطليـة باللون الأخضـر بإتقان شـديد. وأعتقد أن هذه الرسـومات تبـدو جميلة، على

الرغم من أنني لا أريد الدفاع عن استخدام الألوان في النحت أو في الهندسة المعمارية. ولكن رأيي هذا لا يتعلق إلا بالفن اليوناني الذي كان يستخدم الرخام الأبيض الجميل الذي لا يمكن للألوان إلا تشويه جماليته، ولكن الحجر الرملي المصري مسألة مختلفة. كما أن الرسوم الجدارية على السقف والجدران، وكذا الكتابة الهيروغليفية أيضاً لا تزال واضحة كذلك. لا بد أن منظر هذه الألوان المشرق عندما كانت جديدة كان منظراً مذهلاً حقاً يمزج بين عدة أشياء. لكن تعدد الألوان الذي يمزج بين المرح والفكاهة، لا يتوافق بأي حال من الأحوال مع فكرتنا عن الجمال البديع. وكانت القاعات الكبرى في الجزء الأوسط من هذا المعبد الواسع بحالة جيدة جداً، يمكن الوصول إليها عن طريق درج لا زال في أحسن حالة وكأنه بني بالأمس، لو أنهم فقط نظفوا الغبار الناعم الذي يكسوه بسبب استعماله. ويمكن للمرء أن يرى من أعلى برج البوابة كل المعبد، فيحصل بذلك على أفضل تصور لطراز هذا البناء. كانت ثمة صخور هائلة مثيرة للإعجاب في كل مكان، انتزعتها الطبيعة من الصخرة الأم، وراكمتها بعضها فوق بعض. كما كانت الآثار المتبقية عن الأزمنة القديمة وعن الفترة العربية متناثرة هنا وهناك، مثل المسجد المتهالك الذي يقال إن بانيَه هو بلال، مؤذن النبي. وكان المعبد، الذي أقف الآن في أعلى مكان فيه، قد أقيم على شكل شاطئ جزيرة صغيرة متعرجة. ونظراً لتعرج شاطئ الجزيرة، فإن شكل المبنى نفسه كان مثل كتلة دائرية مقوسة قليلاً. ولذلك كان السقف مائلاً ويعطي انطباعاً اصطدامياً إلى حد ما عند مشاهدته برسوماته من الداخل. في الواقع، كانت القاعة الرئيسية لهذا المبنى تُتخذ كنيسة في القرون المسيحية الأولى. وكان من الممكن رؤية بعض الصلبان التي نُحِتَت على الأعمدة بطريقة غير متقنة بعد مسح بعض الكتابات الهيروغليفية المصرية أو بعض الرسومات ووضع الصلبان مكانها.

أعتقـد أن الفضـل في الحفاظ علـى حالة المعبد الجيدة هـذه يعود إلى هذه المسألة. وكانت الغرف الداخلية الأكثر قداسة حالكة السواد ليس فيهـا أي نوع من النوافذ، ولذلـك فإنها كانت تُضاء في العصور القديمة بالمصابيح أو بالشموع ربما. وكانت الأجنحة المختلفة تغطي مسافات واسعة، وتتألف من أروقة أعمدة مفتوحة، ولكن جزءاً منها لم يكن بناؤه قـد اكتمل بعـد، فيما بُني على الجزء القديم جـزء آخر يتكون من بيوت من الطين منهارة تماماً، تشـبه بيوت العـرب الطينية العادية. ربما تكون هـذه الأنقاض الحديثة والقبيحة مـن مخلفات بلدة صغيرة. ومع ذلك، فإنني لا أعتقد أن العرب قد عاشـوا هنا. وذلك لأنه لديهم أدنى سـبب للاسـتقرار فـي هذا المـكان، لأن الجزيـرة صغيرة جداً بحيـث يمكنها بالـكاد أن توفـر ما يكفي من الرزق لعائلة واحـدة، ولَو كان العكس هو الصحيح، لبقي هنا بعض السـكان، على ضفـاف النهر على الأقل لهذا السـبب بالتحديـد. ولكـن لا أحد يعيش هنا الآن. بـل على العكس من ذلـك، يبـدو لـي أن هذه أنقاض بعـض الكهنـة أو الرهبان المسـيحيين والتـي تعود للفترة التي حُوِّل فيها هذا المعبد الوثني القديم إلى كنيسـة مسـيحية. فربما قد احتقرها أولئك الكهنة أو الرهبان بحماستهم الدينية الفارغة، ومن ثم فكروا بأنهم ليسـوا بحاجة إلى هذا المعبد الوثني، في الوقـت الذي كان فيه الإغريق والرومان يظهـرون مثل هذه المباني كل التقديـر والاحترام. لم أتمكن مـن تمييز تلك الأعمدة الفريدة المدفونة تحـت هذه الأنقاض القبيحة. وليس هناك شـك في أن أية حكومة أكثر أهمية كانت ستأمر بإخراجها وربما ترميم المعبد كله وإعادته إلى حالته الأصلية. أعتقد أنه من الرائع مشـاهدة الكتل الضخمة التي تتكون منها هذه المباني الهائلة؛ والنظر إلى تلك الأعمدة الثقيلة والبديعة المتناسبة معهـا، والتفكيـر في الوقت نفسـه في تلك الرسـومات المصـورة بدقة فائقـة، والتـي خلقـت بالتأكيد فـي الجزء الداخلـي من المعبـد انطباعاً

رفيعاً. من خلال القدر الضئيل الذي أستطيع تقييمه، يبدو أنك تجد عند المصريين القدماء شيئاً سامياً رفيعاً حتى في بداياتهم البسيطة، وهذا لا يزال بادياً في عرب مصر الحاليين ولو بقدر قليل. لم أكوِّن بعد فكرة جيدة عن البناء حتى الآن، ولكن يجب تأجيل القيام بذلك لرحلة العودة. وقبل ساعات قليلة من منتصف النهار، وصل مركبنا، ركبنا في الجزيرة على متن السفينة وأبحرنا.

12/4

في الصباح رأينا أمامنا معبد أبو سمبل الصخري الكبير، وبدت تماثيله العملاقة هائلة بالفعل رغم أننا كنا ما نزال على مسافة بعيدة جداً. استغرق وصولنا إلى هناك وقتاً طويلاً، لأنه كان ينبغي سحب السفينة من الشاطئ. ذهبنا أولاً إلى المعبد الشمالي الأصغر الذي يقع على الشاطئ مباشرة، بحيث ترتفع مياه النهر عند المد مقتربة منه جداً بالتأكيد. وقد كان المعبد بحالة جيدة عامةً، وكذلك الشأن بالنسبة للتماثيل المنحوتة في الصخر على جانبي البوابة. وبعد أن ألقينا نظرة سريعة على أجزاء المعبد الداخلية، وعلى رسوماته وكتاباته الهيروغليفية البديعة في معظمها، تمشينا على كتل الرمال الناعمة الضخمة المتراكمة بين الجبلين متجهين إلى الجبل الذي حفر فيه أحد المعابد. وقفت مفاجأً ومذهولاً أمام التماثيل العملاقة الهائلة التي على جانبي البوابة. ولكن التمثالين اللذين على اليمين كانا مدفونين تحت الرمال بالكامل تقريباً، ولم يظهر من أحدهما إلا رأسه فقط. أما التمثالان اللذان على الجانب الأيسر، فكان المجاور للباب منهاراً تماماً، فيما بقي الثاني في حالة جيدة للغاية. وربما يصل ارتفاع هذه التماثيل العملاقة بقدر بيت ضخم بثلاثة طوابق. ورغم حجمها الهائل، إلا أن ملامح الوجه فيها نبيلة وجميلة جمالاً كاملاً، والأمر نفسه يقال عن باقي أعضاء أجسامها

الأخرى عند رؤيتها من مسافة بعيدة مناسبة. وكانت الرمال المنجرفة إلى الأسفل تغطي جزءاً كبيراً من المدخل. ومع ذلك، بقي عند الباب مكان كافٍ للدخول إلى الداخل. وكان قبطان السفينة بالأمس قد قال بأن الناس يتعمدون إسقاط الرمال إلى الأسفل حتى يضطر الزوار لأن يطلبوا منهم إزاحتها من الطريق مقابل أجر عالٍ. لكنني لم أر أحداً يفعل ذلك الآن على الأقل. وكان في الرواق المؤدي إلى الأجزاء الداخلية من المعبد أربعة تماثيل ضخمة لرجال ملامحهم نبيلة وجميلة للغاية، لكن كان في ملامح وجوهها شيء يشبه ملامح اليهود. وعلى الرغم من أن هذه التماثيل لم تكن بضخامة التماثيل الخارجية، إلا أنها كانت ضخمة إلى حد ما، كما أنها منحوتة بدقة وجمالية متناهية وبقيت محفوظة بشكل جيد عموماً. ويؤدي الممر إلى قاعة المعبد الكبيرة ذات الأعمدة الكثيرة، ومنها تصل إلى قدس الأقداس، وهي غرفة صغيرة فيها مصطبة يجلس عليها أربعة تماثيل متخذين الوضع الأوروبي وليس الوضع المصري. وكانت هذه التماثيل منحوتة بالحجم الطبيعي تقريباً، ولكنها لم تبق بحالة جيدة بنفس الدرجة التي بقيت عليها غيرها. وعلى جانبي هذه القاعة الصغيرة ثمة غرف جانبية كثيرة، معظمها صغيرة جداً، وربما تكون مجرد أماكن لحفظ الجثث المحنطة. لم يكن ثمة سوى غرفة واحدة كبيرة وطويلة، ولكنها لم تكن قد جهزت بعد على ما يبدو. وكانت الجدران مغطاة بالكامل تقريباً بالرسومات وبالكتابة الهيروغليفية. وبينما نحن نتجول في المكان، أراد الطبيب أن يسرد علينا بعض التفسيرات التي تعلمها من ابن عمه، وعندما لم يأبه أحد بالاستماع إليه، وجه شرحه كله لخادمه الذي كان يمسك له بالمصباح، وكان دائماً على استعداد ليقول: (سي سينيوري[1]). كان يشرح كذلك لأفراد طاقم السفينة الذين جاؤوا إلى

(1) جملة إيطالية معناها (نعم سيدي) أو (أمرك سيدي).

هنا ليتفرجوا، ولكن هؤلاء الرجال لم يبدوا أي اهتمام بالاستماع إليه. وقف مهرِّجنا علي أمام أحد التماثيل، وتظاهر بأن التمثال قد أساء له فردَّ عليه صاحبنا بعنف شديد إذ رماه بالحذاء وأمطره بالشتائم. ولكن، وعند خروجنا، بدأ الرجال يوزعون نكتهم ومزحهم على الشخصيات النسائية الصغيرة الجالسة عند قدم التماثيل العملاقة. فأخذوا يلمسونها في كل جانب ويغدقون عليها القبلات أيضاً. وأخيراً، صعد كل من علي وإسماعيل معاً إلى التمثال العملاق الذي بقي بحالة جيدة، وبدآ يمثلان دور أستاذ أعمى يحب أحد تلاميذه ويداعبه. كانت سخريتهما فاحشة بعض الشيء، ولكنها كانت مضحكة. أما ساتلر فقد جلس منهمكاً برسم المعبد، وأكمل عمله في الوقت المناسب تماماً عندما بدأت الرياح تهب.

12/5

أبحرنا طوال اليوم وسط ريح قوية ثابتة أخذتنا إلى وجهتنا دون حوادث ولا مغامرات وأوصلتنا وقت صلاة المغرب إلى وادي حلفا.

12/6

في صباح اليوم التالي، وبعد أن شربنا القهوة على الفور، استقللنا القارب الصغير الذي كان بالقرب منا، وذهبنا على متنه إلى الشاطئ المقابل. لما وصلنا توجهنا إلى الشلال المتدفق بالقرب من جبل (أبو سيري). وكانت المنطقة كلها عبارة عن صحراء قفراء، رمالها ناعمة جداً تغوص فيها الأقدام بسهولة، من الصعب جداً اجتيازها. كما كانت القمم الصخرية ترتفع هنا وهناك، وكان معظمها من الصخور التي تفتتت أو الصخور السهلة التفتت. وذلك لأنها من الحجر الرملي الهش الذي يمكن تفتيته باليد، والذي يشبه كتلة من طين النيل التي

تصلبت وصارت صخراً. كانت طبقات الصخر المختلفة تومض في أماكن كثيرة بألوان زاهية، فكان لونا وردياً في أماكن، وأزرق مختلطاً بأحمر في أخرى، ورمادياً يميل إلى البياض في بعض الأماكن الأخرى. التقطت بعض الصخور، وقمت بحكها بصخر آخر فتفتَّتت وتحولت إلى ما يشبه طحيناً ناعماً صالحاً للاستعمال كرمال للكتابة. أعتقد أن الشعاب الصغيرة، التي تشكل الشلال في حد ذاته، تكونت من الصخر الرملي الأحمر، على الرغم من أنها ذات لون أسود براق ظاهرياً وذلك يعود على الأرجح إلى تأثير المياه والجو، وربما بسبب الطين الذي ظل موجوداً حولها باستمرار لقرون عديدة. في بعض الأماكن ترك النهر طينه الخصب على طول الشواطئ وبين الصخور السوداء البراقة، فنمت هناك أشجار التمر الهندي، وأشجار النخيل وبعض النباتات والشجيرات، بحيث أصبحت الشعاب والشواطئ جميلة ومريحة للنظر، حتى وإن لم يمكن مقارنتها بالشلال في أسوان. صعدنا إلى جبل أبو سيرين الذي يرتفع عمودياً فوق أكبر شلال. وقد حفر عدد لا يحصى من الزوار أسماءهم هنا.

أضفت الرياح الشمالية الغربية القوية برودة على حرارة شمس منتصف النهار وجعلت الجو ألطف. فقد أصبح جو اليوم معتدلاً كما يكون أيام الصيف عندنا عادة، على الرغم من أن تاريخ اليوم هو السادس من كانون الأول / ديسمبر. وهو أمر لم أكن لأصدقه لو لم أكن أعرف بالفعل أنه صحيح. جلست طويلاً أتمتع بالجو وبالمنظر الجميل، في حين جلس ساتلر على مقعده يرسم المناظر الجميلة التي في الجانب الشمالي من وادي حلفا، والشلال الواقع في تلك الجهة. وكان قاربنا قد وصل إلى مصب الشلال ووقف هناك في انتظارنا. وعندما انتهى ساتلر من عمله في نحو الساعة الثانية والنصف، توجهنا نحو النهر قاصدين العودة. استغرق الطريق إلى هنا من مكان إرساء

سفينتنا مروراً بالاصطبلات التي أنشأها الباشا لنقل مواشيه ساعتين من السير على الأقدام في مسار وعر وشاق جداً عبر الجبال، وعبر رمال ناعمة جداً تغوص فيها الأقدام بسهولة. لكن رحلة العودة لم تستغرق أكثر من نصف ساعة. وبعد أن ودعنا الشلال الذي ربما لن أعود إليه أبداً، ولن أشتاق إليه على الإطلاق، صعدنا على متن القارب، ووصلنا إلى السفينة على الساعة الرابعة تقريباً. وعندما انتهى الشيخ من شراء التمور التي ينوي توزيعها على أصدقائه بعد عودته إلى القاهرة، بدأنا رحلة العودة.

12/7

وصلنا ظهراً إلى معبد أبو سمبل مرة أخرى. قفز ساتلر على الفور وبدأ يرسم المعبد الكبير. أما أنا فذهبت لمشاهدة المعبد الأصغر أولاً. في القاعة الكبيرة الأولى ثلاثة صفوف أعمدة من كلا الجانبين تدعم السقف ابتداء من الباب، وعلى كل عمودين متوازيين وجهان يحدق كل واحد منهما بالآخر. وثمة باب صغير يؤدي إلى ممر بين الأعمدة والجدار، والممر بدوره يؤدي إلى دهليز ضيق طويل يحتوي على غرفة داخلية صغيرة مكعبة الشكل تقريباً. وفي مكان أعمق قليلاً، ثمة صورة مشوهة لإله على شكل طائر غريب أو حيوان آخر. ويؤدي هذا الدهليز إلى غرف أو سراديب صغيرة منحوتة في الجدران الصخرية. وقد غطيت الأعمدة والجدران برسومات منقوشة في الصخور وفي الجص معظمها جميلة ومتقنة جداً، ويظهر في معظمها الفرعون سيزوستريس العظيم وهو يقدم قرباناً للآلهة معقوفي الأنوف. ولكنني لن أقوم بأي محاولة لوصف هذا المعبد، فقد أسال العديدون مداداً كثيراً في وصفه وبجميع اللغات. إن أجمل ما هنا وما في النصب التاريخية المصرية القديمة عموماً تلك التماثيل العملاقة الواقفة مصطفة ثلاثة على كل

جانـب من جانبي الباب والتي نحتت في الجدار الصخري لبرج البوابة العاليـة وكأنهـا جوانب للمسـلات. وكان جانب المسـلة هـذا، أو هذا العمـود مغطى بالكتابات الهيروغليفية الكبيرة. ولكن الرسـومات التي رسـمت عليها تعرضت للتخريب، فبعض الشخصيات فقدت ذراعها، وبعـض الشـخصيات الأخرى فقدت سـاقها وما إلى ذلـك. لكنني مع ذلـك لم أقع في غرام هذا المـكان، ولا في غرام أي من الآثار المصرية مثلما شـغفت بآثار العصور الكلاسـيكية القديمة، أو الأعمال الفنية في عصرنـا، وذلـك لأنني لا أرى في تلك الآثـار أي جمالية بالمعنى الذي نفهمه نحن من هذه الكلمة.

في المسـاء نشـب نزاع بين محمد وخادمنا جيوفاني من جهة وعده رجـالاً مـن أفراد طاقم السـفينة حـول مـا إذا كان أي منهـم يجرؤ على دخول المعبد الكبير في جنح الظلام. وفي خضم هذا النزاع القائم على التحدي اقترح أحد الرجال دخول المعبد ليلاً إذا أدى له الباقون عشرين بياسـتراً، ولكن ذلك لم يضع حداً للنزاع. بصراحة هناك شـيء غامض ومثيـر للخـوف في هذه المعابد مثلما هو الأمر فـي الكنائس عندنا، في حين أن قضاء الليل في مسـاجد العرب أمر لا يخيف أحداً. حكى أفراد طاقم السفينة أن هذه التماثيل العملاقة، كانت أشخاصاً حقيقيين عاشوا في العصـور القديمة، ولكن الله عاقبهم على شـرهم فأماتهم وجعلهم على صورة الحجر التي هم عليها الآن. وأضافوا بأنهم عندما كانوا على قيد الحياة كانوا بهذا الحجم الهائل، لأننا نعرف بأن البشـر في العصور السـابقة كانوا عمالقة. لم يأت الشيخ إلى المعابد بل اكتفى بالبقاء على الشـاطئ ومشـاهدة التماثيل العملاقة من هناك. وهو لم يشـأ أن يذهب حتى إلى المعبد الصغير، بل بقي كعادته يكتب التعليقات الهامشية على الأربعين بيتاً شعرياً التي تعالج قواعد اللغة العربية.

بعد أن شربنا القهوة، سارع ساتلر بالصعود إلى المعبد الكبير لإكمال رسوماته. انتظر الدكتور إلى أن فرغت من درس الألفية مع الشيخ، ثم صعدنا إلى المعبد ومعنا بعض الحطب وبعض الحشائش اليابسة التي جمعناها. أشعلنا النار في إحدى الغرف حتى نتمكن من دراسة رسوماتها ولوحاتها بشكل صحيح. ولكن، سرعان ما اكتشفنا أن النار لم تجد نفعاً يذكر، وأنه لم يكن هناك شيء جدير بالرؤية لأن اللوحات الجدارية قد شوهت بشكل فظيع، وخاصة تلك التي على الجدار الأيمن. وهكذا اكتفينا بمشاهدة لوحات القاعات الكبرى ولا سيما تلك التي في القاعة الأولى، والتي هي الأهم والأجدر بالاهتمام. ويمكن رؤية رسومات هذه القاعة بشكل جيد في ضوء الشمس أو في ضوء النهار الذي يدخل القاعة من باب صغير. تعرفت هنا على العديد من اللوحات التي وصفها الآخرون من قبل، مثل اللوحات التي تمثل الفرعون سيزوستريس وهو في مجلس التشاور يقرر في أمر الحرب، ويغادر إلى ساحة المعركة. كان مكان المعركة مليئاً بأسلحة المصريين وأسلحة الأعداء. فرعون يقطع رؤوس العديد من الآسيويين ورؤوس العديد من الزنوج، ويمسك بخصلة من الشعر تتدلى منها الرؤوس. يسحق برجله رأس أحد المهزومين ويدوس على قدمي مهزوم آخر، ويغرز رمحه في صدر آخر، ويستقل عربته الحربية مع ثلاثة من أولاده ويذهب إلى المعركة. وكان كل هذا جميلاً نوعاً ما، ولو أن الصور كانت مدمرة في عدة أماكن. أما بالنسبة للجمال، بمفهومنا نحن، فلا يمكنني اعتبار هذه الرسومات جميلة، ولا يمكنني أن أتحمس لها قيد أنملة. كما أنني لا أستطيع أن أجد فيها أية متعة فنية حقيقية. يتشكل المعبد إجمالاً من قاعة كبيرة هي أول ما يراه الزائر، وتقف على كلا جانبي مدخلها أربعة تماثيل عملاقة فقدت بعض أعضائها، ولكنها مع

ذلـك ذات ملامـح نبيلة وجميلة. ثم تأتي بعد ذلـك غرفة أصغر، مربعة الشـكل تقريباً وأخرى مسـتطيلة الشـكل أمام قدس الأقداس. وأخيراً، علـى الجـدار المقابل للبـاب تأتي أقصى غرفـة صغيرة مقدسـة مربعة الشكل، على جدراها مصطبة تجلس عليها أربعة تماثيل لآلهة بالحجم الطبيعي البشري، تمتد أقدامها إلى الأرض، وأمامها حجر مذبح صغير في الوسـط. ولكن لحق التماثيل وحجر المذبح ضرر ملحوظ. وتؤدي الغرفتان المركزيتان إلى غيرها مـن الغرف الصغيرة المنخفضة الواقعة داخل الجبل.

ومـرة أخـرى، فـإن أكثـر مـا أعجبنـي هنـا هـي التماثيـل العملاقة التـي تقف شـامخة على جانبي المدخـل مثنى مثنى، وكذا بـرج البوابة المنحوتة في الجدار الصخري. وفوق الباب مباشـرة، يقف إله الشمس رع والشـمس فوق رأسه وفوق ملامحه الحيوانية. وكانت مجموعة من القـردة في هيـأة جلوس قد نُحتت فـي الأزمنة الغابرة في حاشـية البناء المنحوتـة بدورها في الصخر. ولكن لم يتبقَّ الآن من تلك القردة كثيرة العـدد سـوى الجزء الأسـفل من جسـمها. وكان التمثـال الواقف على أقصـى يمين التماثيـل الأربعة مدفوناً في الرمال لغايـة رقبته، بحيث لم يبـدُ منـه إلا الـرأس. أردت قيـاس أنفه فوجـدت أنه بطـول ذراعي من الإبـط إلـى أقصى الوسـطى[1]. أما وسـطى التمثـال الثانـي إلى حدود الأظافـر فكان طولها سـت قياسـات[2] عندما قسـتها عـن طريق تمديد مـا بين إبهامي وسـبابتي قدر ما اسـتطعت. هذه التماثيـل لا تبدو كبيرة بشكل رهيب بالمقارنة مع الجبال العالية التي نحتت فيها. ولكنها تبدو عملاقـة بالمقارنـة مع الباب الذي تحيط بـه وبالمعبد الذي يفترض بها حمايته. توجد عند أقدامها شـخصيات نسائية صغيرة جميلة جداً. وقد

(1) الأصبع الأوسط.

(2) 90 سنتيمير.

نُقِش على بعض أعضائها أسماء أوروبية، بما في ذلك اسم إيطالي كتب صاحبه أنه وصل من لابلاند[1]. استلقيت على الرمال الناعمة الدافئة، وتفرجت على التماثيل العملاقة، وعلى الكتابة الهيروغليفية بينما كان ساتلر يضع مخططات للمعبد. وقضيت يوماً سعيداً من أيام الجنوب الكسولة. أكمل ساتلر رسم المعبد الكبير ظهر اليوم، وأكمل رسم المعبد الصغير عند غروب الشمس. وعندئذ فقط كان بإمكاننا أن نغادر ذلك المكان. ولكن الرياح الشمالية التي هبت طيلة اليوم كانت ما تزال مستمرة، بحيث إننا فضلنا أن نرسو للمبيت بعد مسافة قصيرة.

مقتطفات من رؤوس أقلام[2] يوم 18/ 12/ 1844

من الجهة الشرقية لرواق الأعمدة هناك واحد وثلاثون عموداً. رأس إيزيس وطوله ستة أمتار يوجد بالقرب من الشاطئ. كلها مكتملة في الجهة الغربية، لحقت بواحد منها على الأقل أضرار بالقرب من الشاطئ. في آخر الممر مسلة واحدة صغيرة فقط [غير واضح] بين العمود الخامس والسادس كرة جناح. ستة من أعمدة إيزيس في أعلى برج البوابة، زخرفة غير متناسبة مع زخرفات الممر الأخرى وتشكل جناحاً مغلقاً. بين أعمدة إيزيس حجر لم يكتمل بناؤه مغطى كلياً بالرسومات وبالكتابة الهيروغليفية. أعمدة إيزيس تقف على القواعد في زاوية حادة تقريباً. تغطي الممر بأكمله صخور عملاقة تتقاطع طولياً مع صخور عملاقة أخرى. تمت تسوية جوانب الأعمدة ونحتت عليها نصوص بالكتابة الهيروغليفية. على الحافة لوحات سقف عريضة

---

(1) كتب نص بالإيطالية يقول (ارلو فيدوا الإيطالي الذي جاء من لابلاند). وكان فيدوا قد زار لابلاند سنة 1818 ونقش اسمه في أبي سمبل في أبريل 1820.

(2) هذه رؤوس أقلام كتبها والين. لذلك فإن معظمها مبهم وملخص لدرجة قصوى. المعقوفات واردة بهذه الطريقة في النص الأصلي.

إلـى حد مـا، وعلى الجانب الآخـر صخرة نحتت طوليـاً وصنعت منها حاشية البناء على شـكل متموج. جدران الممر الداخل مغطاة بالكامل بالرسـومات وبالكتابة الهيروغليفية. الممر الشرقي لم يكتمل بناؤه. لم تكتمـل منـه إلا الأعمدة السـتة الأولى فقـط. في الجانـب الغربي تمتد الممرات إلى غاية النهر الذي يغسـل الجدار. في الجانب الشرقي غرفة جانبية كبيرة مغطاة بالكامل بالرسـومات، كما يبدو واضحاً من الجدار الـذي بقي بحالة جيدة. لـرواق الأعمدة الغربي نافـذة تطل على النهر. أعمدة الممر الشـرقي سـتة عشـر [غير واضح]؛ يبدو من الممر الغربي أن كلا الممريـن كانـا يحتويـان علـى أعمـدة أكثـر. في الممر الشـرقي منافـذ كثيرة مـن بينها كرة جنـاح [غير واضح] ولكن ربمـا تم ذلك في وقـت لاحق. لأنـه في الداخل غير مدهون وغير مرسـوم. هنا باب آخر فيـه أربعة أحجـار زاوية. ليـس اثنين، بل الكثير ليسـت كلهـا معاً [غير واضح].

12/23

كانت عقارب السـاعة تشـير إلى منتصف الليل تقريباً عندما وصلنا إلى إسنا مدينة حوريات مصر، وخاصة أشهرهن (صفية[1]) ذائعة الصيت.

12/24

فـي اليـوم التالي خرجت أنا والطبيب في جولـة في المدينة للبحث عن بيت صفية. وسرعان ما التقينا في الشارع بصبي أخذنا إلى بيتها. ولكننا علمنا عند بابها بأن عندها ضيفاً باياً تركياً من علية القوم، فطلبت منا أن نعود إليها عند صلاة المغرب، لأنها عندئذ سـتكون قد ودعت ضيفها. وهكـذا عدنا أدراجنا. عاد الدكتور إلى السـفينة، وبقيـت أنا أتجول في

(1) معروفة بين الرحالة الغربيين باسم كوشوك هانم.

المدينة. وعندما سمعت أذان صلاة الظهر، أسرعت إلى السفينة لتناول الغداء.

وعندما فرغنا من الأكل، جاءنا مرسال من صفية يقول إنها الآن على استعداد لاستقبالنا. نزلنا من السفينة وذهبنا لاصطحاب ساتلر المعتكف في المعبد وذهبنا ثلاثتنا عند الحوريات. مررنا بساحة ضيقة، ووصلنا إلى غرفة أضيق أرضها مغطاة بسجاد بالٍ. وكان ثمة رواق صغير قبل غرف الضيوف، وضع فيه سرير ساحر تحيط بها ستائر بيضاء. دخلنا إلى الديوان وجلسنا. جلست مُضيفتنا الجميلة على الأرض ومعها ثلاث فتيات أخريات، وأيضاً رجلان على رأسيهما عمامتان بيضاوتان يعزفان على آلة الرباب التي تصدر صوتاً يشبه المواء. وكان لكل فتاة دربوكة تقرع عليها على وقع عزف الكمان. كما كُنَّ يرافقن العزف بغناء جماعي وبصوت أجش. ولكنهن توقفن بعد مدة قصيرة، وسألن عما إذا ما كنا نريد أن نشرب بعض العرق. رفضنا كلنا، لكنهن قلن بأنهن سيشربن، وبأن الغناء والرقص لا يستقيم دون عرق.

كنا قد التقينا بجيوفاني وبمساعد القبطان عندما وصلنا إلى الميناء، ومسكناهما بالجرم المشهود يشربان قنينتي عرق سرقاهما منا. أمسكناهما والقنينتان فارغتان تقريباً، وكانا لا يزالان يهزان رأسيهما من مذاق العرق الذي لم يعجبهما على ما يبدو. فأرسلناهما إلى السفينة.

كان غناء الفتيات بعيداً كل البعد عن الجمال. وبالكاد تمكنت من تحملهن وهن مستمرات في الغناء بصوت قبيح أشبه بالعويل. وما زاد الطين بلة هو صوت الرباب النائح ووقع الدربوكات المروع. لم تشارك مُضيفتنا صفية التي كثُر مدحها الفتيات الغناء فهي لا تحسنه حسب قولها. وبعد انتهاء الفتيات من الغناء، بدأ عرض آخر: الرقص. بادئ ذي بدء، أدت إحدى الفتيات رقصةً فيها حركات إباحية، إذ لم ترقص بقدميها وإنما بخاصرتها. لم يكن رقصها سيئاً ولكنني رأيت أفضل منه

في حفلات رقص (الخول) في القاهرة. ثم قامت صفية لترقص بعد أن لفت خصرها أولاً بوشاح من الكاشمير الباهض الثمن. وعلى الرغم من أن رقصها لم يكن جميلاً كرقص سابقتها، إلا أنها على ما يبدو كانت تتوقع بأن جمالها وزهوها المصطنع كفيلان بالتعويض تماماً عن نقص مهارتها. غير أن جمالها وزهوها لم يشفعا لها عندنا، ولم يجعلانا نتحمس. وعندما لاحظت ذلك بنفسها، توقفت عن الرقص. ثم جاءت راقصة ثالثة، ولكنهن عجزن كلهن عن إلهامنا أو الترفيه عنا. مللنا تماماً من عروضهن هذه فما كان منا إلا أن غادرنا المنزل.

لم نستمتع بتاتاً بهذه الزيارة كلها باستثناء أننا نستطيع الآن القول بأننا رأينا أشهر غوازي مصر. أعطينا كل واحدة منهن خمسة فرنكات، ولكنهن كنَّ غير راضيات عن ذلك، وكنَّ ينتظرن على الأقل ضعف هذا المبلغ على الأرجح. كان موقفي هو الأصعب لأنني كنت أكثر من فهم شتائمهن وعبارات تذمرهن، ولكنني مع ذلك لم أستطع إعطاءهن المبلغ الذي أردنه، ولو أنهن ألحين في طلبه بشدة. لم يتبقّ شيء من جمال صفية المشهود، ونظرتها الحزينة الهادئة، وأنفها منقطع النظير، وصفاتها الجميلة الأخرى التي عدَّدها (هايلبرونر) بشاعرية وهو يصفها. هذا إن كانت هذه الخصال قد وجدت يوماً ما، فمن يدري؟ ربما تكون أنياب الزمن قد قرضتها خلال السنوات الخمس التي مضت على زيارة (هايلبرونر)! قد تكون ملامح وجهها على قدر من النبل والإباء، إن لم تكن فيها بعض شذرات البساطة والابتذال. إذا تحمل المرء عناء مواصلة التحقق والتأكد من أمرها بعد خيالات الانطباع الأول، فإنه لن يجد في ملامحها شيئاً مُميَّزاً في رأيي. فهي بيضاء على نحو غير عادي، لون بشرتها مختلف تماماً عن لون بشرة باقي النساء هنا عامة. فقد كانت تضع حمرة الوجنتين على خديها، وهو أمر غير معتاد هنا. أما قوامها فقد كان جميلاً جداً

ولـو أنها رفيعة وليســت رشـيقة مثلما كنـت أودُّ. ذلك أنها أســمن مما أتوقعه من حســناء شـرقية. ثيابها فاخرة وكلها من الحرير، وحتى إن لم تكن كل مجوهراتها حقيقية فإن ملابســها فخمة وباهظة الثمن. وكانت تترك مســافة كبيرة بينها وبين راقصاتها وكأنها تريد أن تبدو أعلى درجة منهن. وكانت فتياتها من نوع النســاء المصريـات العاديات تماماً، على الرغـم من أنهن كنَّ يرتدين ثياباً من الحرير الفاخر. وكان عازفا الرباب كذلـك مـن النوع المعتاد الـذي كثيراً ما يراه المرء فـي القاهرة، وكانت أصـوات آلاتهما فظيعة. لم أسـتمتع بتاتاً لا بالعـزف ولا بالرقص. كان ينبغي ترتيب المسـألة بشكل مختلف تماماً بحيث لا تكون أمراً مدفوع الأجر، لأن الفنانيـن عندنا أيضاً لا يقدمون فنهـم بالأمر ولا بالمال، أو ينبغي على الأقل إلهامهم وتشـجيعهم حتى ينســوا أنهم يتلقون أجراً أو يُدفعون دفعاً لتقديم عروضهم. ولكن رفيقي سفري لم يفهما ذلك، بل كانا يطلبان ويسـتعجلان الفتيات لإظهار مهاراتهن وكأنهما يطلبان من البحارة اسـتعمال مجاديفهم. نشـب بيني وبين الدكتور نقاش وشـجار حول هـذا الموضوع لكنني تركت الأمر عند ذلـك الحد. فأنا الآن كما حـدث في كثير من الأحيان، أدفع ثمن الذهاب مع الآخرين وعدم فعل مـا أريده وحـدي. ها نحن على أي حـال قد رأينا ما ينبغـي رؤيته، وإذا كنا لـم نتمكن من رؤيته بالطريقة الصحيحة، فإن رفيقيَّ سـعيدان بأنهما يسـتطيعان القول إنهما مطلعان على الأمر، على الرغم من أنهما سخرا في كثير من الأحيان من السـياح البريطانيين، الذين يسارعون من مكان إلـى مكان لكي يقولوا إنهــم زاروا تلك الأماكن. أمـا الألماني فيتجول فـي نفس المكان مـدة طويلة، يبحث فيه ويقدم نظريات بشـأنه ويحس بأنــه يعـرف الكثير عنه، وبأنه شـاهد ما فيه عن كثـب، وحصل على كل الانطباعـات والأفـكار الجيدة. علـى الرغم من أنه ربما يكـون قد اتبع نظريـة خاطئة ولـم ير ولو لمحةً واحدة بشـكل صحيـح. يمكننا الآن أن

نقـول بأننـا قمنا بزيـارة الراقصة الجميلـة، التي تعد أشـهر الغوازي في مصر وفي أوروبا.

وبعـد أن خرجنا مـن عند الراقصة، اندلع نقاش حـاد بين الألمانيين استمر إلى ما بعد الظهر. لم أكلف نفسـي عناء المشـاركة في نقاشهما فذهبـت أتجول في جميع أنحـاء المدينة بطرفيهـا، ولاحظت أن البربر الفقـراء الذيـن يعتبـرون شـبه منبوذين قد اسـتقروا فـي كلا طرفيها في أكواخ بائسـة منخفضة. وفـي الجانب الجنوبي من المدينة، عند سـفح التلـة التـي بنيت عليهـا المدينة، رأيـت أكواخاً وأكشـاكاً مؤقتة يبدو أن معظمهـا مقاهٍ. كان الكثيـر من مرتادي هذه المقاهي مـن المبعدين عن القاهـرة، ومعظمهـم من كاهنـات فينوس السـابقات العجـزة. وكانت من بينهن امرأة وقحة بغيضة وسـمينة فـي منتصف العمر، كانت تدخن بيبة سـيئة الصنع، وتضايقني بالإلحاح علـي بالذهاب معها عند صفية. ومع ذلك فقد تخلصت منها بسـرعة وبسـهولة عندما أجبتها بقسـوة ثم واصلـت رحلتي. ومع ذلك فقد اسـتغربت كثيراً أن هـذا المكان الذي تأتي إليه كل مطرودات مصر من الخليعات لا يعج بمثل هؤلاء، فهن لا يتجولن في الشـوارع ولا يعرضن أنفسـهن. وعموماً فهن لسن كثيرات في الشوارع، وحتى عندما يخرجن، فإنهن لا يكنَّ إلا في الجهة الغربية من المدينة. أعتقد أنني رأيت الكثيرات منهن في قنا. بحيث كنَّ يجلسن عنـد أبوابهـن ويضايقن المارة. وبعد أن بلغ منـي التعب مبلغه من كثرة التجول، جلست في إحدى مقاهي الساحة العديدة.

12/26

وصلنا إلى الأقصر وبقينا في سـفينتنا الراسـية وقتاً طويلاً. وما إن نزلنا مـن السـفينة حتى أخذ سـاتلر أدوات الرسـم وهـرع إلـى الكرنك. أما أنا فجلسـت أدخن البيبة وأشـرب القهوة قبل أن أغـادر. جلبت الرياح

القويـة معها الرمال والغبـار، وجعلت رحلتي إلـى الكرنك غير مريحة تمامـاً. وعندما وصلت إلى هناك، تمشـيت بين الآثار الكثيرة والكبيرة. لم أكتشف عظمة هذه الآثار حقاً إلا الآن، وذلك لأن ما رأيته حتى الآن في بلاد النوبة يبدو لي تافهاً للغاية، وكأنه مجرد لُعَب بالمقارنة مع هذه الآثار الحقيقية العظيمة التي بقيت هنا في مدينة الكهانة هذه التي كانت مركزاً حقيقياً لمصر القديمة. ولكن تلك الآثار منتشـرة الآن على نطاق واسـع لدرجة أنني لا أملك أدنى فكرة عن خريطة موقع المبنى ولا عن المباني الخارجية العديدة، أوالأبراج والبوابات التي كانت تشكل نسقاً فـي القديم، ولكنها الآن تنتشـر في جميع أنحاء المـكان، لأن الزمن أو أيـادي التخريب قـد امتدت إليها، وهدمت الأسـوار والجدران الرابطة بينها. جميع الأبعاد والنسب هنا كبيرة، بما في ذلك الأعمدة والبوابات والتماثيل العملاقة، بحيث يشعر المرء وهو يتجول في هذا المكان بأنه قزم كالطفلِ الصغير. لم يسبق لي أن رأيت مثل هذه الأعمدة الضخمة، وخصوصـاً الأعمدة الاثني عشـر التـي تقف في الممر الرئيسـي لردهة المعبد الضخمة، إذ كان ثمة ستة أعمدة على كلا الجانبين. صعدت إلى أعلى برج البوابة عبر الدرج المنحوت على الجدار ووقفت أتفرج على الهضبـة العالية الواسـعة، وعلى الأراضي الزراعيـة الخضراء المحيطة بهـا، والتـي كانت الجبـال تحيط بهـا كحافـة خارجية مـن كل جانب. أصبحت المنطقة الأثرية الشاسعة كلها بالقرب مني. فكان الأقصر يبدو مـن بعيد. وعلى الجهة الأخرى من النهر العريض والنبيل، بدت كورنو وأنقاض أخرى. كانت ظلال الجبال وألوانها بدرجاتها المختلفة تخلق منظراً جميلاً ومثيراً للاهتمام بشـكل خاص، كما هو الحال هنا في كثير مـن الأحيان عند غروب الشـمس. لكـن الرياح العنيفـة كادت تقتلعني مـن مكاني، وكادت تمنعني من مشـاهدة المكان الأكثر كلاسـيكية في مصر، وربما في العالم بأسره. وبعد أن نزلت إلى الأسفل، بدأت رحلة

العودة، ولكنني مررت في طريقي بمخيم الغجر على ما أعتقد. وكانت هناك فتاة سمراء جميلة جداً. استمتعت معها بوقتي مدة نصف ساعة. بعد الظهر بعد أن شربنا الشاي، وصلت سفينتان تحمل كلاهما العلم البريطاني مثل سفينتنا. وكانت سفينة أخرى قد وصلت قبلهما وعلى متنها إنجليزيان اثنان، أي أن هنا ما مجموعه أربع سفن إفرنجية الآن.

12/27

جلست في مقصورتي مدة طويلة، إلى أن أبحرت السفينة الإنجليزية عائدة إلى القاهرة. تفرجت قليلاً من نافذتي على بهلوانيين جاؤوا إلى السفن الأوروبية للحصول على القليل من المال عن طريق تقديم عروضهم. لكن عروضهم لم تكن جيدة حيث كان بإمكاني أنا أيضاً القيام بتلك الحركات، كان أحدهم يسير على يديه، ثم يتشقلب في الهواء، ويقفز من خلال عجلة حديدية كان صديقه العجوز يضعها على رأسه، وما إلى ذلك. وبعد وقت قصير، جاءت راقصة مع فتاتين بربريتين وفتاة عربية صغيرة. رقصت الفتيات على وقع الدفوف، ولكن حتى عرض الفتيات لم يكن جيداً، إلا أنه أعجبني أكثر من عرض البهلواني، وذلك بسبب ملابس الفتيات الجميلة، وبسبب طبيعتهن الفريدة، وخاصة أصغر الفتيات البربريات التي جذبت انتباهي بنهديها الكبيرين، وبرشاقة جسدها، وجمال وجهها. بقيت في الداخل الصباح كله، وكنت أشعر بالبرد إلى حد ما. وعند الظهيرة غادرت السفينة وذهبت مرة أخرى لمشاهدة آثار الكرنك الرائعة. تجولت هناك، وفسحت المجال لعيني للاستمتاع بالخصوص بردهة المعبد الضخمة التي لا نظير لها في العالم كله، بأعمدتها العجيبة المئة والأربعة والثلاثين.

12/31

ذهبت إلى الشاطئ وعبرت النهر إلى الأقصر في زورق صغير عالٍ كان يعج بالركاب حتى إنني خشيت أنه سيغرق في الطريق. ولكننا تمكنا من العبور لحسن الحظ. وعندما وصلت، ذهبت لرؤية تلك الراقصة البربرية الصغيرة التي أعجبت بها كثيراً. اليوم حصل لي ما يحصل لي دائماً مع جميع الفتيات اللواتي تعرفت عليهن من قبل: مللت من حلاوتها وضجرت منها مثلما ضجرت من قبل من جميع أخواتها. لقد رقصت لي وغنت وفعلت كل ما في وسعها لإرضائي، ولكنني مللت لهذا السبب بالذات ربما. وهكذا ذهبت من عندها بسرعة وتوجهت إلى السوق، لأن اليوم كان يوم سوق. اشتريت بعض الأشياء الصغيرة للاستعمال الخاص، واشتريت بعض المؤونة للرحلة، ثم عدت إلى السفينة عند صلاة العصر.

1845 /1 /1

استيقظنا في وقت مبكر جداً، وتمنينا لبعضنا عاماً جديداً سعيداً، ثم توجه ساتلر إلى جورنو على الفور ليقوم ببعض الرسومات. ركبت أنا والطبيب، كل على حماره، وذهبنا للقاء ليبسيوس. في الطريق، انضم إلينا شخصان بروسيان[1] كانا في إحدى السفن الراسية قرب سفينتنا. حظينا باستقبال حار في الفيلا الفخمة التي بنيت في الأصل من قبل ويلكنسون، والتي كان يسكن فيها (هاي) والكثير من علماء الآثار المصرية المشهورين الآخرين. والآن يسكن فيها (ريتشارد لبسيوس) الذي قد يكون الأعظم والأشهر من بين هؤلاء العلماء. ويرفرف الآن فوق الفيلا علم أبيض يحمل علامة النسر البروسي. هنا تبادل الجميع عبارات التهاني بالعام الجديد والتمنيات، وبدا لي في ذلك ما في

(1) من بروسيا. اسم المقاطعة الألمانية التي أطلق عليها لاحقاً اسم «بروسيا الشرقية».

الألمان عامة من (تآلف غير متآلف). وأخيراً خرج ليبسيوس من غرفته وهو يرتدي معطفاً حريرياً وطربوشاً أحمر ليبادلنا تهاني العام الجديد. إن في هذا الرجل عامة تواضع وجمالية، فليس فيه شيء من تصنع أشباه العلماء ولا ثرثرتهم. فكل ما فيه يبين بوضوح أنه عالِمٌ عميق، انشغل بعلمه تماماً فنسي كل ما يتعلق بالتوق إلى الشهرة الذي يتعلق به الكثيرون من أشباه العلماء. اقتصرت المناقشة على الأمور المعتادة، وعلى جمال جو صباح السنة الجديدة على غير العادة، وعلى المناظر الجميلة التي تطل عليها هذه الفيلا الواقعة في أعلى الجبال على غير العادة كذلك.

كان الصباح جميلاً جداً بالفعل: لم تكن الشمس قد أصبحت حارة وحراقة بعد، وكانت الرياح الشمالية الباردة التي هبت بالأمس قد هدأت واستقرت تماماً، فأصبح الهواء نقياً كما تكون أجمل صباحات الصيف عندنا، بحيث كنا نطل على هضبة خضراء واسعة مشرقة أيما إشراقة. وازدهر القمح الأخضر في جميع أنحاء الأراضي الممتدة إلى غاية حدود حافة الصحراء. ووقفت تماثيل سلامات بارزة وسط هذه السجادة الخضراء، تمثالا ممنون العملاقان شماخ وتماخ اللذان تدل أعضاؤهما المنهارة أو المهدّمة بما عليها من كتابة هيروغليفية، ونقوش يونانية، ولاتينية، وإفرنجية، على التحايا التي قدمها هذان التمثالان لمختلف الشعوب. وتلوح على جانبيهما معاً، على مسافة مناسبة، تحت جبال الصحراء العظيمة ذات لون الرمال معابد الرامسيوم الشامخة، وتظهر مدينة هابو. وبعدهما، يبدو جورنو. وفي الجانب الآخر من النهر، تلوح أبراج بوابات الكرنك العديدة، والأقصر بأعمدته الكثيرة، وكلاهما محاط بسجادة خضراء. وعلى امتداد هذا المنظر الشاسع من الجبال الهائلة، تبرز ثلاث قمم شاهقة في طيبة، مدينة الإله عمون. وقفنا على ذروة الجبل نتفرج على هذه

اللوحة الفنية التي قد تكون واحدة من أجمل اللوحات الفنية في العالم. ارتفعت فوقنا قمم الجبال الشامخة ذات الشكل البرجي التي يرتاح بين ظهرانيها أقوى ملوك مصر القديمة وملكاتها في قبورهم. كل نظرة تلقيها على هذه الجبال والشعاب تصادف قبراً أو مغارة، كانت مسكناً للأحياء أو للأموات في الأزمنة الغابرة، ولكنها الآن أصبحت مسكناً للعرب. لكن أجمل وأروع ما رأته عيناي هنا هو نهر النيل في حد ذاته. فهو يسير بين حقولهم الخضراء متموجاً بلونه الأزرق الداكن المشرق. فعندما تنظر إلى الماء من الأعلى يكون لونه الأزرق من أنقى ما يكون، فهو يكاد يشبه البحر الأبيض المتوسط، حتى وإن بدا رمادياً عن قرب. يتعرج النهر كثيراً في هذه الأنحاء، ويحيط بجانبي الجزيرة، ويبدو واسعاً وعظيماً كالبحيرة. وقفت هناك طويلاً أستمتع بهذا المنظر الرائع، وبجو الصباح الحلو وشبه المعتدل والمنعش في الوقت نفسه. وبين الحين والآخر يزعجني صوت الألمان وهم يعبرون عن إعجابهم بصيحات مفعمة بالنشوة: جميل، جميل جداً، رائع! إلخ.

طلب منا لبسيوس أن نذهب لمشاهدة حيواناته: قرد صغير أحضروه من سيناري، وسحلية، وتمساح صغير. وقد نلت إعجابه لأنني لمست حيواناته باليد المجردة دون أدنى خوف. وبعد أن قضينا بعض الوقت هناك، بدأ القداس الذي أقيم بمناسبة العام الجديد والذي ترأسه شتراوس، أحد الألمان من السفينة الراسية بجانب سفينتنا، نجل قسيس الملك في برلين. فضلت عدم المشاركة في هذا القداس، وركبت ظهر حماري وذهبت لمشاهدة تماثيل سلامات ومعبد الرامسيوم. تمشيت هناك بعض الوقت وتفرجت على اللوحات والأعمدة، ثم جلست أتحدث مع سائق الحمير، العجوز الطيب الذي حكى لي كيف أن الكفار في القديم كانوا يعبدون هذه التماثيل العملاقة. وكان أعظمها تماثيل معبد الرامسيوم الجرانيتية المنهارة التي كنا جالسين عليها الآن.

وكان سائق الحمير هذا، مثل الكثير من زملائه، قد تعلم عدة جمل سمعها من العلماء الأوروبيين، الذي قضوا فترات طويلة هنا وأجروا دراسات وأبحاثاً في هذا المكان. بل إنه كان يعرف العديدين بالإسم، مثل (سالت)، و(بلزون)، و(شامبليون). وهكذا بعد أن انصرم هذا الصباح، عدت عند ليبسيوس الذي كان قد دعانا لتناول العشاء عنده. ولكنني لم أجده، حيث كان قد ذهب مع معظم أفراد المجموعة إلى العساسيف، بحيث لم أجد عنده إلا ساتلر ورسامَيْن من أعضاء البعثة البروسية. وأخبرني أحدهما عن رحلتهم إلى بلاد النوبة وكان رجلاً لطيفاً.

ما إن عاد لبسيوس حتى جلسنا إلى مائدة العشاء. بعد ذلك عرضت علينا لوحة هزلية لأحد رسامي المجموعة الذي أدرج فيها جميع أعضاء البعثة، والذي رسم فيها كل ما كانوا يفعلونه. إذ رسمهم وهم يتسلقون أحد الأعمدة المصرية الضخمة، ويحدقون فيها ويرسمونها. وكان ذلك العمود وسط أشجار النخيل في منظر نهري جميل. كما أضاف المهندس إلى اللوحة قصيدة فكاهية قصيرة، تتنافس حقاً في درجة هزليتها مع اللوحة نفسها. وكان يتطرق بإشارت خفيفة إلى نقاط ضعف أعضاء البعثة بطابع هزلي مرح. كانت اللوحة والقصيدة كلتاهما جيدتين للغاية، وقد استمتعنا كثيراً بهما معاً. في الواقع أعد ذلك العمل هدية لليبسيوس بمناسبة عيد ميلاده الذي كان قبل أيام قليلة. ولكنهم قرؤوا القصيدة بصوت عال وبأسلوب ألماني متصنع ومتكلف من أجلي. وبعد أن شربنا القهوة ودخَّنَّا البيبة، غادرنا جميعاً، وكنا أحد عشر شخصاً، عبرنا الجبال وتوجهنا نحو وادي الملوك للتمتع بتلك المناظر الرائعة من أعلى القمم الشامخة. فيمكن من هناك رؤية ذلك المنظر الجميل بأكمله: الوديان الجبلية الرائعة من جانب، ووادي الجبال العجيب أو وادي الموت من الجانب الآخر. فهناك لا

يرتـاح فقط ملوك القدمـاء العظام في قبورهم المنحوتـة في الجبال في عمـق قصور فخمة، وإنمـا الطبيعة برمتها تبدو ميتـة ومدفونة في طريق جبلي على شـكل تابوت. ذهبنا إلى بعض مقابر الملوك، واستمعنا إلى ملاحظات ليبسـيوس وتفسـيراته القصيرة؛ التي كانـت في ذات الوقت جميلـة وبسـيطة؛ عن الشـخصيات المبينة فـي تلك المقابر. سـراديب القبـور الفخمـة تبدو الآن أجمـل ما يكون، وذلك لأننـا كنا نحمل معنا الكثير من الشـموع، مما مكّننا من رؤية رسـومات السـقف أو الجدران ودراسـتها على ضوئها السـاطع على الفور. الآن أيضاً، مثل المرة التي جئـت فيها مع سـاتلر إلى هذه القبور، فإن أكثر مـا أعجبني هنا هو تلك الرسـومات المنحوتة على الصخر بخفة وليـن، وكذا الجدران الجيرية البيضاء الجميلة التي تنافس الرخام في الجمال، وتفوقه من حيث اللين. كما أعجبتني الرسومات التي لم يكن صاحبها قد انتهى منها بعد، والتي كانت كثيرة هنا على طول الجدران، وكانت تُرسَـم بالطباشـير الحمراء أولاً، ثم تُرسَـم وتُنقَش بعد ذلك باتباع تلـك الخطوط. على الرغم من السهولة واللامبالاة الظاهرية التي تبدو على رسومات الجدران، إلا أن في تلك الرسـومات؛ الكبيرة والصغيرة على حد سواء؛ ثقة مُمَيَّزة ودقة شـديدة. كانت الألوان لا تزال طرية ومشـرقة جداً، وكأنها رسـمت في الآونـة الأخيرة فقط وليس منذ ثلاثة آلاف سـنة. وهنا أيضاً كان أكثر ما أزعجنـي صوت الألمان وهـم يعبرون عن إعجابهـم بصيحات مفعمة بالنشـوة: ما أجملها، ما أروعها، كم هي طرية هذه الألوان! إلخ. ولكن تعليقـات ليبسـيوس القصيرة والهادئة، والتي لـم تكـن فيها تنهدات ولا صيحـات، عوضـت إعجـاب زملائه السـطحي. وكان رفيقاه، الرسـام والمهنـدس المعمـاري، دائمـي الحيويـة والبشاشـة، وأكثـر ظرفـاً من الألمـان عـادة. ولكنهما لـم يتخليا عن حماسـتهما فـي أي وقت، ولم يتوقفا عن المرح والمزاح ولا سـيما رسام المناظر الطبيعية، وهو رجل

سـمين دؤوب على الهزل، على الرغم من أنه لم يكن ينجح في الإتيان بنكـت جيدة إلا نـادراً. مكثنا في المقابـر إلى الغروب تقريبـاً، ثم قفلنا راجعين، ودَّعتنا جماعة ليبسـيوس، واستدارت متجهة إلى منزلها نحو الجبـال. وعندها قَبَّل الألمان بعضهم بعضـاً. لا أنكر أنني تقززت جداً من هذا التقبيل المتبادل ولم أشـارك فيه. رافقنا الأسـتاذ نفسـه، مترجم الكتابـة الهيروغليفية العظيم، ومررنا بطريق جميل حقاً يؤدي من وادي الموت إلى الجبال المحيطة بها غريبة الشكل. وكانت قمم هذه الجبال تتمتع الآن بأشـعة الشـمس الآفلـة وضوئها الشـاحب الأصفر الذهبي.
كان مـزاج ليبسـيوس جيداً ونحن نتمشـى، فتحدث معي وسـألني عن مخططاتـي المتعلقـة برحلاتي، ثـم أخبرني بأنه ينوي السـفر إلى قُصَيْر وإلى سـيناء. وعندما صعدنا إلى السفينة، شرب معه الجميع إلاَّي كأساً من الشـمبانيا. وبعد أن تمنى لنا بحرارة رحلة سـعيدة، نزل من السـفينة وتوجـه نحو المنزل. وهكذا بعد أن دفعنا أجرة سـائقي الحمير، وأجرة الحارس الليلي، أبحرت سـفينتنا مواصلة رحلتها نحو القاهرة. وهكذا مرَّ أول يوم من العام الجديد بعد ليلة مريحة نسبياً، على الرغم من أنني ما زلت لا أفهم الألمان وما زلت غير قادر على التكيف مع طبيعتهم.

العودة إلى القاهرة والاستعداد لأول رحلة صحراوية

عاد الموكب إلى القاهرة ليلة الرابع عشر من كانون الثاني/ يناير سنة 1845 بعد رحلة دامت شهرين ونصف. فشرع والين، بعد عودته مباشرة، يستعد للسفر إلى شبه الجزيرة العربية بما يستدعيه ذلك من اتخاذ دليل من البدو، واستئجار جمال، وشراء أدوية ومستلزمات الطريق. لم يكن صاحبنا يعتقد أن اللغة ستشكل عائقاً غير أنه أدرك، عندما اختلط بالبدو، أنه لم يكن يفهم كلمةً واحدة مما كانوا يقولون.

مذكرات 15/ 1/ 1845

كدت أتجمد من البرد في غرفتي الصغيرة الباردة طوال الليل، فأنا لا أتذكر أنني شعرت بالبرد لهذه الدرجة في أي وقت مضى في بلادنا فنلندا الباردة والمثلجة. ولذلك كان من الصعب علي النهوض والوقوف على قدمي، ولكن لم يكن عندي خيار آخر عندما أيقظني الشيخ قائلاً بأن القهوة جاهزة. كدت أتجمد من البرد وأنا أغتسل، وكنت أسمع صرير أسناني وكأنني في قبو رطب بارد. كان شعوراً كريهاً للغاية. ذهبت إلى المدينة لعلَّ المشي يجلب لي الدفء. كان كل شيء على حاله، وكنت أشعر بنفس انعدام الراحة الذي ما فتئت أشعر به في الآونة الأخيرة على أي حال. كان الشيخ علي قد سمع عن رحلتنا آلاف القصص التي كانت الناس تحيكها في غيابنا، من قبيل أننا ذهبنا إلى سيناري للبحث عن كنز، فإذا كان في جبهة أحد ما شريان دموي وذهب في رحلة بحث عن كنز، فإن ذلك الشريان سينفرج في المكان

الـذي دفن فيه الكنز، وهذا ما حدث لنا نحن حسـب ما يقولون. ذهبت إلـى الحمام عند الظهر، وبقيت هناك حتى صلاة العصر، ثم ذهبت عند الحلاق لأحلق شـعري بعد ذلك. مرَّ النهار كريهاً جداً ولم يكن المساء أفضـل على الرغم من أنني أنفقت الكثير مـن الوقت في المقهى الكبير في الاسـتماع إلى الراوي العظيم الشيخ إسـماعيل. اللعنة! لا أزال لا أفهم كلامه جيداً على الرغم من أنني أعتقد أنني تقدمت كثيراً في إتقان اللغـة العربية، بل وأصبـح الكثيرون يلقبونني (المصـري) بفضل لغتي الممتازة.

2/3

ذهبـت عنـد الظهيرة للقاء برونير الذي كان قد عاد لتوه من زيارة تفقدية للمرضـى. وقـد رافقني إلـى بيت فريسـنل، وكان هذا الأخير مشـغولاً مـع (ڤريـدي) في أمـر يتعلق بكتابـة تقرير رحلـة ما. تركنـي برونير مع فريسـنل وڤريـدي وذهب. فطلبـتُ منهما المشـورة بشـأن رحلتي إلى شـبه الجزيرة العربية وطريقة القيام بها. وأشـارا علي بالذهاب أولاً إلى دمشـق، ومرافقة القافلة الذاهبة من هناك إلى مكة. كما قدما لي النصح والمشـورة بشـأن عدد من المسائل الأخرى أيضاً. قد تكون جميع تلك النصائح مفيدة جداً، لكنهما لا يعرفان شيئاً عني ولا عن حالتي المادية، ولذلـك فإننـي لـم أتمكن من الاسـتفادة مـن نصائحهم كمـا ينبغي. أما فريسـنل فكان مهذبـاً كعادة الفرنسـيين، بالإضافة إلى كونـه طيباً مثلما يكون العلماء الحقيقيون عادة. وقد اسـتقبلني أحسـن اسـتقبال. ولكنه لـن يبقى هنا مـدة طويلة، فهو ينوي السـفر إلى أوروبا فـي أقرب وقت ممكن، لسـوء حظي. إنه أكبر سـناً ممـا كنت أتصور، وربمـا يكون ابن خمسـين سـنة تقريباً. ولكنه لا يزال نشـيطاً ونابضاً بالحياة كالفرنسيين علـى الأقل، علـى الرغم من أنه، مـن حيث طبعه، غير مُتَّقِـد وغير مثير

للاهتمام بشكل خاص. ولكن طريقة كلامه صاخبة بعض الشيء، وهو أمر لم يعجبني في الحقيقة. وهو يتكلم اللغة العربية أفضل وأحسن من أي أوروبي آخر سمعته، ولكنه لا يحسنها تماماً كما كنت أتوقع من باحث مثله عاش هنا مدة اثنتي عشرة سنة وكرس نفسه تماماً لدراسة هذه اللغة. كان كلامه متكلفاً من ناحية النطق ومن ناحية اختيار الكلمات. كما أن وقع مخارج الحروف عنده على الأذن يبدو مُلَقَّناً وغير طبيعي. بالإضافة إلى ذلك، فإن في طبعه شيئاً غريباً نوعاً ما نادراً ما يُلاحظ في الفرنسيين. وقد تنبأ لي بأن رحلاتي ستكون مُوَفَّقة للغاية، وذلك بفضل مظهري غير الأوروبي الذي يشبه التتار نسبياً رغم أن أنفي يبدو قوقازياً في رأيه، وكذا بفضل الطبع الشرقي الذي اكتسبته. تحدث فريسنل كثيراً عن الكيفية التي ينبغي علي القيام برحلتي وِفْقَهَا، ولكنه لم يعطني أي نصائح يمكنني الاستفادة منها. لقد لاحظت الآن أيضاً، وهو نفس ما لاحظته عدة مرات من قبل، أن ما حك جلدك مثل ظفرك، وأن المرء أفضل مستشار لنفسه. قضيت معه نحو ساعة، وبعد ذلك ذهبت إلى البيت.

15/2

بقيت مستيقظاً معظم الليلة من شدة العواطف التي حركتها فِيَّ الرسائل التي وصلتني من المنزل. ومع ذلك، استيقظت في وقت مبكر، وحضرت مشروب الكاكاو الساخن الذي أصبح الآن منذ عدة صباحات غذائي الوحيد تقريباً بعد أن مللت من المأكولات الدهنية التي يقدمها المطعم الذي أتردد عليه. وصل الشيوخ علي وعبد الله ومحمد من مسجد الغمري في وقت مبكر كما اتفقنا على الذهاب معي في رحلة صغيرة إلى القرية. اقترحت عليهم أن نذهب إلى الروضة خلال النهار للجلوس تحت أشجارها الجميلة وعلى أرضها الشهيرة؛

وبدا لي أن الشيخ علي والآخرين متفقون معي في الرأي. ولكن الشيخ علـي بدأ منذ الأمس يقول بأنه ينبغي علينا الذهاب إلى شـبرا والوقوف عند حقل البرسـيم في مكان ما في الطريق، وقد مال الجميع اليوم لهذا الاقتراح أكثر. وبما أن المكان بالنسبة لي غير مهم، قررنا من ثم الذهاب إلى شـبرا. أسـتغرب كثيراً عدم اكتراث الناس هنا بالروضة، وأتسـاءل عن تلك الأحكام المسبقة الشعبية بشأنها، فالروضة بلا شك هي أجمل مكان للسـكن هنا. فالشـيخ علي لم يكن قد زارها من قبل إلى أن ذهب معـي في الصيـف الماضي (ليلة النقطة)، والشـيخان الآخران لم يزورا الروضة على الإطلاق، وربما لن يزوراها أبداً. ربما يكون مرد هذا إلى أن جزيـرة النيل هذه المعروفة على نطاق واسـع بعيـدة عن القاهرة إلى حد ما، ولكن السـبب الأساسـي هـو أن المناظر الطبيعيـة فيها حدائقية وبطـراز أوروبي تماماً. ولكـن ربما لا يكون الطـراز الأوروبي للمكان هـو مـا يجعلهم ينفـرون منه، وقـد يعود إلى أحـد التناقضـات العديدة الموجـودة في الطبيعة الشـرقية. فعلـى الرغم مـن أن المظاهر والترف والأبهة تترك في الشرقيين أثراً عميقاً، ورغم أنها من المبادئ الأساسية في إدارة الدولة، إلا أن الشـرقي يكره الترف في حياته اليومية، فلا ترف ولا أبهـة مهما كان ذلـك يضمن راحة الحياة، فهـو لا يحب الترف ولا يسـتخدمه، ما لم يكن يرغب في الظهور على وجه التحديد. وعندما لا تكـون هناك حاجة لترك انطباع جيـد أو إحداث أثر عميق في الآخرين، فإنـه يكره التـرف والأبهة من صميـم قلبه، فهو لا يسـتمتع بتواجده في بيئة نظيفة ومرتبة على الإطلاق، بل يفضل بيئة وسـخة وفوضوية بعض الشـيء، باسـتثناء ما يدعوه الدين فيه إلى النقاء. ومـن ثم فإن العربي لا يسـتمتع بتواجده في حديقـة مرتبة، لا يأبه بالجلـوس على مقاعدها أو في ممراتها الرملية؛ بل يفضل أن يجلس على كتلة من العشب الأخضر المزدهر أو على الأرض سـواء كانـت عارية، أو مغطاة ببعض الرمل أو

التربـة. حُبُّه للأرض وللتربة والرمل هو من بقايا عشـق البدو للصحراء على الأرجح. مهما يكن السبب، فإنني فهمت بما يكفي أن شيوخي لا يريدون الذهاب إلى الروضة.

أحضر الشـيوخ معهم سلة صغيرة، فيها بعض الخبز والبيض وقليل من الزبدة. أعتقد أنهم اتفقوا معاً حسب ما سمعته من الشيخ علي، على التكفـل بكل متطلبـات وجبتنا الخفيفة. ولكن سـرعان ما اكتشـفنا أننا بحاجـة إلى المزيد من الخبز والتمر والفحـم وما إلى ذلك. إضافة إلى القهوة والسـكر والشـاي، وهو ما تكفلت أنا به. كان خادمي إبراهيم قد جمـع تلك المواد ومجلداً من مجلـدات (ألف ليلة وليلة) وانطلقنا إلى وجهتنا بعد ذلك. سـرنا مسـافة قصيرة على طريق شـبرا مـروراً بمقهى كبيـر كنـت قد جلسـت فيه مرة مع الشـيخ علي فـي الماضي فـي بداية صداقتنا، واسـتدرنا هنـاك متوجهين نحو حقول البرسـيم الجميلة التي زرعت فيها أشـجار الزيتون وأشـجار المشـمش. تجادلنـا حول مكان جلوسـنا، فالشـيخ علي يريـد دائماً الجلـوس في منطقـة مفتوحة قريبة مـن الطريـق العام، ولا يبالـي أبـداً إن كان المكان أخضر معشوشـباً أم رماديـاً تَرِبـاً. ويا حبذا لو أنه جلس قرب عجلـة مياه، في حين كنت أود أنـا الجلوس فـي مكان ظليل تحت شـجرة، وعلى مسـافة من الطريق. وقـد تحققـت إرادتي هذه المـرة على الأقل، على الرغم من أن الشـيخ كان يهمهم متذمراً. وبعد أن جلسـنا بدأ إبراهيم والشيخ محمد يخفقان البيـض ويحضران لنا عجة البيض والزبدة والتمر، وأكلنا على الفور ثم شربنا القهوة.

وبعـد ذلـك تناوب محمـد وعلي على القـراءة من ألف ليلـة وليلة. كانـت قراءة محمد سـيئة فـي معظمها، ويعـود ذلك جزئيـاً لكون نظره ضعيفـاً، ولقلـة معرفتـه باللغـة، رغم أنه يحفـظ القرآن عـن ظهر قلب، ورغـم أنه فقيـه ممتاز. كانـت القصة عن عاشـقَيْن، وكانت تشـبه قصة

أخـرى كنـت قـد قرأتها في الجـزء الأول مـن الكتاب قبل بضعـة أيام. فهمـت كل ما قرؤوه بيسـر. ولأنني كنت أعرف تسلسـل الأحداث، لم أشـعر بتلك الإثارة المعتادة، بل بدأت أراقب فرح رفاقي والإثارة التي كانوا يشـعرون بها أثناء القراءة. كانوا منغمسين في القصة حتى النخاع، علـى الرغـم من أنهـا كانت قصة بسـيطة جـداً، وحتى إن كانـت بعيدة كل البعـد عـن مواقفهم العادية مـن أمور الحب. كانـوا يصيحون مراراً وتكراراً صيحات من قبيل: (يا ابن الكلب) (يا بنت الكلب)،(بارك الله فيـك)، (الله يلعن أبوك) والكثير من الشـتائم الأخـرى. كانوا ينتقدون شـخصيات القصة حسب توافق طبعها أو عدم توافقه مع عقليتهم. كان الشـيخ علـي يقطع القراءة مـن وقت إلى آخر للضحك أو للسـعال، بل إنـه قطـع القراءة مرة حتى يخفي رغبته في البكاء. وكان الشـيخ محمد، علـى وجـه الخصوص، لا يطيـق صبراً يريـد معرفة تسلسـل الأحداث ونهايـة القصة، لدرجة أنه في كثير من الأحيـان كان يترك الفقرات التي تقـل أهمية وينتقل إلى ما يليها. وكانوا يناقشـون مجريات القصة أحياناً ويتسـاءلون عن تسلسـلها. وعندما كنت ألمح لهم بعـض التلميحات، كانوا يندهشـون من قدرتي على التنبؤ بما سيحدث، أو من قدرتي على الجلـوس بهدوء رغم معرفتـي لنهاية القصة. وعند نهايـة القصة، قاموا بدراسـتها مدة طويلـة، طيلة طريق عودتنـا إلى البيت. كانت المناقشـة مثيـرة جـداً للاهتمام. وكانت تـدور حول المـرأة. كان محمد يقول إنه لـم يعش قط علاقة حـب أفلاطوني مع امرأة مثل تلك التي تحكي عنها القصـة. فعلى الرغم من أنه تعامل مع أجمل نسـاء القاهرة، إلا أنهن لم يوقظن فيه مثل هذه المشـاعر. ولكن عبد الله، وهو أكبرنا سـناً وأسوَأنا فكاهةً، اختلف معه في الرأي، وحكى كيف كانت تربطه بإحدى النساء صداقـة أنظف مما هو سـائد هنا. واسـتدل على ذلك بالحجة الشـائعة التـي مفادهـا أن الناس فـي الماضي كانوا مختلفين تمامـاً عما هم عليه

الآن، إذ كان الشاب يقع في حب المرأة حقاً، ويضحي بحياته لأجلها، بل ويموت عشقاً، وذلك لأن الأسلاف كانوا يتمتعون بالرجولة، وبقوة الإرادة وبالحزم والحسم. أراد الشيخ علي، الذي استمع لهذا النقاش في صمت، أن يدلي برأيه ويقدمه كفتوى، فقال بأن الحب هو أمر مُقدَّر على الإنسان، وما إلى ذلك. ألم يكن الحب الروحي للمرأة موجوداً عند الشرقيين؟ لا أعتقد أن ما يتمتعون به من خصائص يوجب الإجابة بالنفي على هذا السؤال. فقد أغدق الله عليهم من نِعَم الجسم والروح الشيء الكثير، فهل سيحرمهم من نعمة الحب الروحيَ الطاهر للمرأة؟ لا أظن أن الأمر كذلك. بل أفترض بالأحرى بأن دينهم الذي يوجههم في أشياء أخرى عديدة قد وجه طبيعتهم الأصلية إلى اتجاه آخر.

ولكن كان فكري مشغولاً طيلة اليوم ببلدي وموطني وأصدقائي أكثر مما انشغل برفاقي الشيوخ. ولذلك كان استمتاعي بهذه الرحلة كلها أقل بكثير مما كنت سأستمتع بها في ظل ظروف أخرى. وإلى جانب ذلك كان الجو غائماً، بل إن السماء كانت ملبدة بالغيوم بشكل لم تسبق لي رؤيته هنا حتى الآن. والشمس لم تطلع علينا بالمرة، وكنا نتوقع في أي لحظة بدء هطول الأمطار، ولكنها لم تنزل. وبعد أن أدى الشيوخ صلاة الظهر والعصر دون أن أشاركهم فيها، قفلنا عائدين إلى البيت. وكان خادمي إبراهيم طول الوقت رفيقاً في الرحلة أكثر مما كان خادماً، وقد استمع معنا إلى قصة ألف ليلة وليلة بنفس التأثر والشغف. وقد اقترح الشيوخ بأن يأكل معنا، لكنني رفضت ذلك في صمت.

2/16

يوم الأحد. ذهبت لأتمشى قليلاً في الصباح، والتقيت بالقنصل وموظفَيْه القديم تيموفييف، والجديد فرانك. على الرغم من أن اليوم يوم أحد، إلا أن الشوارع كانت مزدحمة وصاخبة في الأزبكية خصوصاً، لأن

الإفرنج كانوا يتنقلون في عرباتهم، أو على ظهور خيولهم أو سيراً على الأقـدام. كما كانت الشـوارع تعج بجميـع أنواع الشـرقيين الذين كانوا يرتدون ملابس مختلفة ومتنوعة، فكان منهم من يرتدي أحسـن الثياب ومـن يرتـدي أسـمالاً باليـة. وبالإضافة إلى ذلـك، كان ثمـة الكثير من المغاربـة العائدين من الحج بأعداد كبيرة. كان الناس أكثر تنوعاً عموماً من أي وقت مضى على الإطلاق. تعودت على حركة الشرقيين البطيئة فأصبحـت الآن أكثـر مـن أي وقت مضى أشـمئز من حركـة الأوروبي الهارعة وطبيعته الْمُستعجلة، ومن سلوك النساء المصطنع والمتكلف، ومـن عطرهن ذي الرائحة القوية. قبل وقـت قصير من صلاة المغرب، ذهبت للقاء برونير فأعطاني رسـالة توصية قصيرة لأسـلمها للمشـرف على المستشفى العسكري السيد (شيدوفو). ذهبت إليه لكنني لم أجده في المنزل.

2/18

نهضـت مبكراً على غير العادة عند شـروق الشـمس. علـيّ تحمل مثل هذه الأشـياء في ظل الإيقاع غير المنتظم الذي أعيشه حالياً. استأجرت حمـاراً، وركبتـه متوجهـاً إلى مستشـفى قصر العينـي. كان الجـو بارداً صبـاح اليوم. وخاصة في هـذا الطريق الذي يمر وسـط حديقة إبراهيم باشـا تحـت ظـل الأشـجار والشـجيرات، حيث كنت أشـعر بـأن يديَّ وقدميَّ قـد تجمدت تمامـاً. وعندما وصلت إلى المستشـفى وسـألت عن (شـيدوفو)، كان عليّ بسـبب ملابس الشـيخ التـي أرتديها، تحمُّل أسـئلة عديدة مـن قبيل (ماذا تريد منه؟)، وما إلـى ذلك. لكنني رفضت الإجابـة عن تلك الأسـئلة واكتفيت بالقول: (هذا ليس من شـأنك). أو شيء من هذا القبيل. أخذوني إلى قاعة كبرى تجلس فيها جماعة كبيرة على الأريكة. وكان (شيدوفو) معهم أيضاً، فنهض واستقبلني وأخذني

لأجلس بجانبه. ثم أخبر الحاضرين عن سبب زيارتي، وطلب من الأطباء العرب الذين تلقوا تعليمهم هنا أن يجهزوا لي مستحضرات الجماجم. وبدأ الأطباء العرب الشباب في التحقيق معي وسؤالي عن أشياء كثيرة. كانوا يتكلمون معي باللغة العربية ويقولون إنني أبدو مثل واحد من علماء جامعة الأزهر. ضايقني ذلك كثيراً، ويجب أن أعترف أنني لو كنت أعرف ظروف هذا المكان مسبقاً ما جئت إلى هنا بنفسي، ولكن لا يجدي الآن إلا التعامل معهم تعاملاً حسناً. تفرق الجمع وعهد بي (شيدوفو)، الذي كان قد عاد لتوه من جولته على المرضى، إلى عناية بعض الأطباء العرب وطلب منهم توجيهي وإرشادي وإطلاعي على المستشفى.

في البداية أخذوني إلى غرفة صغيرة التقيت فيها بشيخ عجوز شريف، وكان جالساً على الأريكة مع أفندي يرتدي ملابس تركية. وكان هذا الأخير هو الدكتور بيرون مدير المستشفى، في حين أن الثاني كان هو الشيخ محمد التونسي. وكان الاثنان جالسين يترجمان أحد الأعمال الطبية الفرنسية إلى اللغة العربية. كنت في حيرة من أمري لمجيئي في مثل هذه الحالة، ولا سيما بسبب الشيخ الذي لم يكن يعرفني مسبقاً لحسن الحظ. وبعد أن جلست هناك مدة وتحملت العديد من الأسئلة، أخذني أحد الأطباء العرب الذي كان قد أقام مدة طويلة في باريس، لجولة في المستشفى. في البداية، ذهبنا إلى جناح تعقد فيه المحاضرات والحلقات التعليمية للطلاب الشباب ولم ندخل إلى إحدى القاعات التي كان فيها عدد كبير من الطلبة الذين كانوا يستمعون لمحاضرة. كانت هناك غرفة مخصصة للتشريح المرضي كذلك، ولكن لم تكن هناك أعمال تحضيرية في تلك الآونة. في إحدى زوايا الرواق، كان ثمة كومة كبيرة من جماجم الحيوانات وأجزائها المختلفة مكدسة بعضها فوق بعض. ولكن يبدو أنها قد وضعت

هنـاك دون أن تجنى منها أية فائدة. مـن هناك توجهنا إلى غرفة الصيدلة الكبيـرة جداً، وكانت أسـماء جميع العلب مكتوبة باللغة الفرنسـية. بدا المختبر وكأنه مبنى مؤقت لا يشـكل جزءاً من المبنى الرئيسي. وكانت الطوابـق العليا مخصصة للمكتبة وللمجموعـات المنتقاة. كانت هناك أعـداد كبيرة من الطيور والتماسـيح وغيرها من الحيوانات المحشـوة. إلا أنها كانت تبدو مهملة، ومعظمها قد فسـد بسـبب الإهمال. شعرت أننـي رأيت مـا يكفي، وبأنه مـن غير اللائـق التجول بمثل هـذا اللباس هنـا، وفـي غـرف المرضى بالخصـوص، رغم أنـه المـكان الذي كنت أود زيارتـه أولاً وقبل كل شـيء. ولذلك اقترحت بـأن ننزل إلى الطابق السـفلي، لكن مرافقي أخذني إلى عند الشيخ التونسي والدكتور بيرون ممـا اضطرني للجلوس هناك وقتاً طويلاً. لم أسـمع أي أوروبي يتكلم اللغـة العربية بطلاقة بيرون؛ لأنه يجد الكلمات المناسـبة بسـهولة تامة وينطقهـا بسلاسـة تامة. ومـع ذلك كان من السـهل أن تسـمع من نبرته أنـه ليـس عربي الأصل، علـى الرغم من أنـه يقيم هنا منـذ زمن طويل، ورغم أنه بذل جهوداً مضنية لتعلم هذه اللغة الشـديدة الصعوبة. ما فتئ الشـيخ يلاحقني بأسئلته العديدة، وبقيت سـيئ المزاج بقية اليوم، وهو ما يحدث لي دائماً عندما أوضع موضع شـك بهذه الطريقة. وعدت في السـاعة التاسـعة إلى المنزل من هذه الزيارة المحرجة جداً عموماً دون الحصول على أي شـيء، باسـتثناء وعْدٍ بالحصول على مسـتحضرات الجماجـم إذا مات أحد المرضى. وهذا أمـر لا يجدر الوثوق به، مثلما لا يجدر الوثوق بوعود مثل هؤلاء عادة.

وعندمـا كنـت أتمشـى في شـارع الموسـكي قبـل صـلاة المغرب بوقت قصير، التقيت بفريسـنل فانضم إلي للتمشي في عدد من الأحياء الهامشـية، فأخبرنـي أنـه بعد نقاشـنا فكر فـي أمر رحلتي أكثر وبشـكل أعمـق، وقـدم لي عـدداً من النصائـح حـول الطريقة التي ينبغـي لي أن

أسلكها عند السفر، وعن القبائل التي ينبغي الذهاب إليها أولاً، وما إلى ذلك. في البداية، يجب علي التعرف على شيوخ القبائل. أحدهم يعيش هنا، والآخر يعيش في الصحراء. ومن بين أهم هذه القبائل، ذكر لي قبيلة الحويتات الموجودة على طريق العقبة. دردش معي كثيراً وعن طيب خاطر. يبدو أنه على دراية جيدة بظروف العيش في شبه الجزيرة العربية.

3/2

اصطحبت فاطمة إلى بيتي؛ إنها شابة جميلة ولطيفة جداً، قد يكون عمرها أربعة عشر ربيعاً. وهي تعجبني كثيراً. سألتني: «هل تحبني؟»، وبعد أن أكدت لها حبي طلبت مني أن أقسم بالله ورسوله أنني أحبها. وبعد ذلك أكدت لي حبها، وعندها سألتها: ما هو الحب؟ وكيف يتصرف المرء تجاه من يحب؟ فأجابت: (على سبيل المثال إذا كنت تحبني فإنك تنفق علي الكثير من المال، وتشتري لي الكثير من الملابس، وأفعل أنا معك الشيء نفسه؛ هذا هو الحب). على الرغم من أنني مقتنع بأن الغرض من تعريف الحب بهذا الشكل هو الحصول على المال مني؛ إلا أنني مقتنع أيضاً بأن فيه الكثير من الحقيقة أيضاً بالمقارنة مع صورة الحب عند الناس هنا.

3/7

قضت فتاتي الصغيرة الليلة معي، وعلى الرغم من أنني استبعدت مدة طويلة إمكانية أن أعجب بفتاة ما، أو أحب فتاة ما؛ إلا أنه لا بد لي من الاعتراف بأن هذه الفتاة تعجبني.

3/9

في المســاء التقيت بفتاتين من أكثر البغايا بغــاءً وانحطاطاً، وقد تبعتاني إلــى منزلي، وقضيت معهمــا ليلتي ليس لأنني أردت ذلك، وإنما لأجل غرائبيتهمــا. ولكن الليلة كانت بغيضة، وكنت أتمنى عدة مرات لو أنني أستطيع إرسال رفيقتيّ إلى الجحيم.

3/12

التقيــت رجلين فارســيين من الدراويش، انضـممت إليهما في الشــارع، وطلبــت منهمــا مرافقتــي إلــى المقهــى الــذي يقع فــي شــارع الأزبكية الرئيســي. وذلــك لأن أكبرهمــا ســناً أخــرج مخطوطة فارســية جميلة، وهي ديوان الشــاعر حافظ، وبدأ يقرأ منه بصوت عال، وبطريقة الإلقاء الفارسية الحماسية. جلسنا هناك مدة طويلة نتحدث عن مدينتهم بغداد، وعــن أشــياء أخــرى. وكان أحدهمــا صوفيــاً لا يدخن الحشــيش. وقد أخبرنــي أنه انتقــل للعيش في مكة منذ نعومة أظفــاره وأنه لم يبرح تلك المدينة منذ ذلك الحين. ولكنني اســتغربت أنــه لا يتكلم العربية جيداً. وكان رجــلاً قليل الكلام، مظهره غريب وهادئ، ولون بشــرته الرمادي مثير للاشمئزاز، وكانت لحيته كثيفة على نحو غير عادي، وفيها خطوط من الشــيب. ولكــن ذلك المظهر الهــادئ المكلل بلــون الرماد لم يكن سوى غبار فحم يغطي ما تحته من سعير، كما هو الحال غالباً في شباب الشرق. جلس معقود اللسان تقريباً، يتمتم تسابيحه لله بشفتيه فقط وهو يمرر أصابعه على مســبحته، أو يعبر عن موافقته لمضمون أبيات حافظ بهزة من رأســه، على الرغم من أنني لا أعتقد أنه يفهم مضمونها بشــكل جيد. أثار هذا الرجل اهتمامي بشكل كبير، بالكاد تمكنت من رفع عيني عن وجهه الغريب وعن عينيه المزينتين بالكحل. كان الرجلان يتكلمان لغــة قالا إنها تســمى (الســليمانية)، وكانت خليطاً بيــن التركية والعربية

ولكنني لم أفهم منها شيئاً. إن وقع اللغة الفارسية على أذني سحري وفروسي إذا جاز التعبير، فهي تسحرني دائماً كلما سمعتها أو تكلمتها.

3/14

إن فاطمة هي فتاة من أروع وأحب ما يكون، وإن لديها أناقة وحساً سليماً طبيعيين أكثر من معظم النساء الغربيات.

3/16

لقد حل الصيف فعلاً وذهبت معه شهيتي للعمل، فحلاوة حياة الشرق وحلاوة حياة الجنوب قد سيطرتا علي الآن، وهذا ما لاحظته اليوم بوضوح، إذ لم أتمكن من العمل هذا الصباح، وكان علي الخروج من البيت شئت أم أبيت. مرت مجموعة كبيرة من النساء الإنجليزيات اللواتي كن في طريقهن إلى قداس الكنيسة الإنجليزية عند مخرج حيّنا الضيق. وكانت بعضهن جميلات جداً. سعدت كثيراً بالنظر إلى حسناوات أوروبيات بعد أن قضيت وقتاً طويلاً لا أرى فيه إلا المصريات، فبدأت المقارنة بين هؤلاء وأولئك. وربما يقول بعض الناس إن في المرأة الشرقية قدراً أكبر من الجمال الطبيعي، وأن الله منذ البداية قد أغدق على الرجال والنساء في الشرق، على حد سواء، من نعمه أكثر مما أعطى أبناء بلدان الشمال. ولكن الإنسان، مهما يكن جسدياً وروحياً، هو في الحقيقة نتاج ما حققه هو شخصياً وما حققته عائلته؛ إذ لا يكفي أن يبقى كما جاء إلى العالم أو كما شكلته الظروف الطبيعية. فليس بإمكان الفرد فحسب، وإنما العائلة أيضاً، التحرر من القيود الطبيعية بعد مدة طويلة من الكفاح، ومن التخلص من درجات القبح العديدة والفوز على الجمال الأصلي. ولكن هذا الجمال حينئذ يصبح صنعاً بشرياً جمال حرٌّ وواعٍ. وعلى هذا النحو، أعتقد أن هذا

الجمال الذي تخلص من درجات القبح، وامتلك جمالاً مثالياً موجوداً عند الإنجليز كجمال جسدي وروحي. مثل هذا الجمال يدوم طويلاً، أما الجمال الرباني فزائل مثل جميع ما هو طبيعي، وهذا حال جمال المرأة الشرقية وحال تأثير جمالها كذلك. بهذه التأملات، تمشيت وأنا أستمتع برائحة أشجار الأكاسيا في شارع الأزبكية العريض، وتوجهت صوب البهلوانات والمغنيين المتجمعين في هذا الشارع. جلست على الجانب الآخر من القناة في مقهى حنفي أتفرج على الجموع الغفيرة. كان الرجال الكسالى في جميع الأنحاء جالسين على العشب الأخضر أو على التراب نائمين في الشمس أو في الظل يتمتعون بالجو الذي أصبح حاراً مرة أخرى.

كانت الشوارع تعج بأعداد كبيرة من الحجاج العائدين من مكة وهم يرتدون مختلف أنواع الملابس. التقيت باثنين من بخارى، ولكنني فارقتهما بسرعة لأنهما لا يعرفان إلا اللغة التركية. ووجدت الرجلين السليمانيين اللذين تعرفت عليهما من قبل، وكان أحدهما يحمل كتاب (پندنامه[1]). دخلنا معا إلى مقهى حنفي لشرب القهوة، وللقراءة والدردشة. لقد جاء إلى هنا مؤخراً مجموعة من الجنود الأتراك القادمين من القسطنطينية، وكانوا يرتدون السروال الأوروبي ذي الشارات البيضاء والقمصان الزرقاء. لم يسبق لي أبداً أن اعتبرت الزي الأوروبي مضحكاً وقبيحاً حتى الآن عندما نظرت إلى هذا الزي العسكري، هذه القمصان والسراويل لم تصمم بشكل جيد، وهؤلاء الجنود ربما يشعرون بالحرج وهم يرتدون هذا الزي اللاقومي، رغم أنه زي أوروبي حقيقي، ما عدا الطربوش. الناس يسخرون من الجنود عامة، فالرجال العرب يقفون في الشارع يحدقون في الجنود، ويدردش بعضهم مع بعض ويضحكون ملء أشداقهم على الأتراك البُلْه. وصل

(1) باللغة الفارسية تعني كتاب العِبَر لصاحبه سعدي الشيرازي.

الشيخ حسن أبو الغيط المشهور إلى هنا مع أتباعه، فنصب خيامه بمناسبة المولد النبوي. وحيثما ذهب يتبعه الناس، ويحتشدون لتقبيل يده.

بدأت اليوم احتفالات عيد المولد النبوي. وقد أقام الذكرَ أربعة دراويش هم رفاعي، وسعدي وأحمدي وبيومي بعد صلاة العصر مباشرة. شكلوا دائرة كبيرة مقسمة إلى مقصورات، وكانوا يمدون أياديهم ببطء إلى الأمام، ثم يسحبونها ببطء كذلك ويجمعون بعضها مع بعض ثم يصفقون وهم يصيحون طول الوقت لا إله إلا الله. ويروى أن صحابة النبي كانوا يفعلون هذا عندما يخرجون للمعركة. ثم وضع الدراويش أيديهم على أكتاف بعضهم البعض، هزوا رؤوسهم وأجسامهم، وهم يصيحون من أعماق الحلق (الله)، وكرروا ذلك بالتدريج إلى أن رددت الحلقة كلها ذلك. ومن المثير للاهتمام أن تنظر في وضح النهار إلى وجوههم التي كانت تحمل تعابير غريبة من فرط النشوة، وإلى عيونهم المغمضة وإلى ملامحهم المفتولة في أغلب الأحيان. إذا كنت تريد أن تقتنع بأن العرب ما زالوا يتمتعون بالكثير من القوة، وما زالوا قادرين على الإحساس بالنشوة الحقيقية، فلا بد من مشاهدة هذا الذكر والاستماع إليه. فالعربي يثور مثله في ذلك مثل البحيرة العميقة الهادئة عندما تحركها العاصفة، فهي لا تهدأ بسهولة عندئذ.

تمشيت في قلب الاحتفال بالمولد طويلاً وتعشيت في كشك صانع السجق، حيث وضع على قطعة خشبية قطعتي نقانق وبعض الخبز مقابل خمس عشرة قطعة من الفضة، ثم اشتريت من متجر آخر صحناً من الكباب. ما أجمل أن يتمكن المرء من التجول هكذا، مجهول الهوية دون جذب الانتباه إليه في بلد أجنبي وأن يفعل ما يحلو له.

استعجلت اليوم انتهاء الدرس أكثر من المعتاد، لأنني أردت الذهاب للتفرج على الدوسة التي ستعقد اليوم كحسن ختام للمولد النبوي. كان هناك حشد غفير من الرجال والنساء والأطفال. لم يكن الموكب قد بدأ بعد، ولذلك، رحت أروح عن نفسي بالتجول بين النساء، والتفرج عليهن، أو على ما سمحن لأعين المتطفلين برؤيته. ووصل الموكب بأعلامه المرفرفة، وبصفير صفاراته، وبقرع طبوله، واستلقى الدراويش على بطونهم على الأرض. كانت الحشود تزدحم بشكل رهيب، وكان الجنود والعبيد الزنوج يضربون الناس خَبْطَ عشواء بعصيهم فمرة يصيبون رأساً ومرة يصيبون وجهاً غير آبهين بالمكان الذي تقع عليه عصيهم. وقد حظيت أنا أيضاً بضربة صغيرة على عمامتي الكبيرة، وفضلت أن أتحملها دون تذمر ولا نزاع. وأخيراً، تقدمت مجموعة من الناس بدا عليهم الفقر، ويرتدون ملابس شديدة التواضع. انبطحت هذه المجموعة على بطونها في نظام شديد، ثم جاء شيخ عجوز على رأسه عمامة خضراء وهو يمتطي صهوة حصانه القوي الذي كان يقوده رجلان من الجانبين، وكانت الحشود المحيطة تصيح بصوت عال (الله). وبعد مرور الشيخ بحصانه على ظهور المنبطحين على الأرض، هرع المتفرجون إليهم لمساعدتهم على القيام. كانوا مرتبكين للغاية، ولكن لا أعتقد أن ذلك الارتباك كان بسبب ألم دوس الحصان عليهم، وإنما بسبب النشوة الدينية، سواء كانت حقيقية أو مفتعلة. وقد ساعدت أنا أيضاً أحد المنبطحين للوقوف على قدميه، ودعمته بذراعي طويلاً، فوقع بوزنه كله علي، وكان فاقداً للوعي تماماً على ما يبدو. حاولت عدة مرات إيقاظه، لكنه لم يكن يسمع أو يفهم على ما يبدو. وعندما تعبت أخيراً، تركته وشأنه، ولكنه لم يقع كما كنت أتوقع، بل وقف على قدميه، وترنح ببطء ثم ذهب إلى حال سبيله.

وقفت عربات الفرنجة على مشارف المولد وهي تغص بالفرنجة الذين كانوا في كل مكان وسط الحشود يتزاحمون إلى الأمام دون أن يسيء إليهم أحد، ودون أن يتعدى عليهم أحد. ولكن صديقي الإنكليزي هاملتون الذي التقيت به في وقت لاحق هذا المساء، والذي يتصيد مختلف أنواع الأخبار، أخبرني بأن الباشا قال للمشرف العام على المولد: «من الأرجح أن يأتي الكثير من الفرنجة للتفرج، ولكن، لو جاءتني شكوى بإصابة واحد منهم بأذى، فإنني سأفصل رؤوسكم عن رقابكم». بعد انتهاء الدوسة، ذهب الشيخ ومعظم الحشد إلى منزل الشيخ البكري، حيث أقيمت دوسة أخرى على ما أعتقد، ولكنني وصلت إلى هناك بعد فوات الأوان فلم أتمكن من رؤية أي شيء. ومع ذلك، ذهبت إلى الفناء الذي كان غاصاً بالناس. كان هناك الكثير من الفرنجة، ولم يُصب أي منهم بأي أذى على الإطلاق. وضعت أرائك خشبية كبيرة في حديقة البيت الواسعة لكي يجلس عليها الناس للذِّكر على ما يبدو، أو ربما للترفيه. وكان من بين الحاضرين عدد من أكبر شيوخ القاهرة وأهم رجالاتها. لم أبق في الفناء مدة أطول فلم يكن ثمة ما يُرى. بل ذهبت إلى المنزل لأرتاح، لأن حرارة اليوم، واحتشاد الناس كان قد أثار كميات كبيرة من الغبار مما أرهقني وأصابني بالعطش.

وكانت أمسية من أروع ما يمكن، فالبدر كامل تقريباً والجو صيفي دافئ، كما يكون الجو عندنا في آخر ليالي شهر يوليو. لقد نبت العشب في الأزبكية الآن، وتحوَّل السهل الذي كان فيضان النيل قد غطاه إلى مرج ازدهر فيه البرسيم الأبيض الجميل. وقد فاحت من هذا البرسيم ومن أشجار الأكاسيا رائحة طيبة. جلست تحت شجرة واستنشقت تلك الرائحة الطازجة بشهية مفتوحة، وكان هدوء ذلك المكان أفضل من صخب المولد. فرغم أن الدوسة تختم الاحتفال بالمولد، إلا أن

بعض مراسيم الاحتفال تتواصل إلى المساء مثل الذِّكر وقراءة القرآن. وكان الذكر الذي أقيم مساء اليوم في ضريح الشيخ العشماوي متميزاً على وجه الخصوص، وكانت أمام قبره إضاءات وضاءة للغاية. عرجت على الضريح للتعبد، أو بعبارة أخرى، تجولت في الضريح، وقرأت سورة الفاتحة، وجلست في ركن من أركان الضريح أهز رأسي وأتظاهر بقراءة سورة ياسين. وُزِّع الماء على العطشى عند باب الضريح.

3/21

كان الشيخ علي قد سأل بعض شيوخ البدو وتحدث مع بعض البدو عن رحلتي، ولكنه لم يستطع بعد أن يأتي بأي أخبار على وجه اليقين. اتفقنا اليوم بأنني سأذهب إلى هذه الرحلة مرتدياً زياً متواضعاً للغاية، استغرب الشيخ من قراري هذا كثيراً وكان متأكداً من أنني كنت أرتدي زياً تنكرياً هنا أيضاً. ولكنني لا أدري ما الذي كان يدور بخلده بشأني. ولا يسعني إلا احترام حسن تقديره فهو لم يقل شيئاً بشأن تصرفي هذا ولم يسألني عن أي شيء. إن العلاقة التي تربطني به علاقة متميزة جداً، وأنا سعيد أنه تعرف علي بعض الشيء، وتخلص من فهمه الخاطئ لي الذي لم أشارك في تكوينه بالتأكيد بطريقة مباشرة على الأقل. وهو مستعد لكي يتخذ الترتيبات اللازمة لتأمين سفري، ولكي يتمنى لي عون الله والأولياء. لا أستطيع أن أصدق أن يكون كل هذا تصنعاً، وأنه يخفي الخداع في قلبه. مر الدرس بطيئاً اليوم، وذلك بسبب الجو الصيفي الجميل من جهة، وبسبب انشغال فكري برحلتي من جهة ثانية. التقيت مع شخص من كازان، عاد لتوه من زيارته لمكة، فتجولت معه قليلاً في الشارع، وتحدثنا تارة بالروسية وتارة بالفارسية. وفي المساء ذهبت للاستماع إلى شيخ فرقة بيومي، بعد الهرج والمرج الذي أحدثه الاحتفال بالمولد النبوي في جميع المقاهي. وفي الصباح

جاء ڤريدي لزيارتي، لأنني أردت التشاور معه بشأن عدد من الأمور المتعلقة بسفري. ولكن ما يحدث عادة في مثل هذا التشاور للأسف، هو أن صاحب المشورة يحكي فقط عن نفسه وعن أعماله البطولية، وينسى الرد على الأسئلة. لقد لاحظت أن من الحكمة أن تفعل ما يشير عليك به عقلك.

3/22

أخبرني الشيخ علي بأنه تحدث مع بعض شيوخ البدو، وبأنه أعلمهم بأنني أخطط لرحلة تطبيب وتطعيم، فأكدوا له أنهم مستعدون لاستقبالي كأخ، وأنني سأعود ومعي كيس من النقود الذهبية. وعند سؤالهم عن دیانتي، أجابهم الشيخ بأنني مسلم وبأنني صديقه. ثم قالوا له بأن الفرنجة كذلك يسافرون في بعض الأحيان بينهم لتطعيمهم ويُستَقبلون أحسن استقبال، فما بالك بي؟ عندما كان علي يحكي لي ما حدث، كان يؤكد كثيراً أنني قلت له بأنني مسلم، أو ربما تكون شكوكي هي ما يجعلني أشعر بذلك. وقال لي بأنه سعيد بهذه المعلومات، وهذا ما أشعر به أنا أيضاً.

خرجت قبل وقت قصير من صلاة العصر والتقيت بأحد معارفي وهو كاهن يوناني من بلاد الدروز. تجاذبنا أطراف الحديث مدة في الأزبكية. تجولت في ناحية درب مصطفى الذي لم تسبق لي زيارته. والتقيت هناك عدداً من الكهنة الأرمنيين أو اليونانيين، وتحدثت مع بعضهم قليلاً، وقد كانوا ينادونني بلقب (المعلم). ذهبت لزيارة برونير لأطلب منه المشورة بشأن التطعيم، وأخبرني بأن الكثيرين مرضى الآن لأن الجو تغير فجأة، وبأن لديه الكثير من العمل، لكنه لم ينس أن يضيف بأن جميع مرضاه قد تعافوا. من جهتي شعرت بأنني في حالة أفضل وبأنني أتمتع بالشمس وبالحرارة. في المساء جلست تحت

ضوء القمر الكامل والجو الرائع في أحد مقاهي الأزبكية أتمتع بسماء مصر الخلابة منقطعة النظير.

3/31

اندهشت لأنني غضبت من ذهاب فاطمة إلى طنطا لزيارة السيد البدوي، وكذلك لأنني وجدت نفسي مغرماً بها إلى حد ما.

أول رحلة صحراوية

عـرف تاريخ علم الاستكشـاف مجموعة من التصـورات الجغرافية الأسـطورية ذات الأسـماء السـاحرة كشـبه الجزيرة العربيـة وإلدورادو وسـمرقند وشـنجريلا وتمبكتو وشـنادو. بعـض هذه الأماكـن موجود علـى الخريطة وبعضهـا الآخر نتاج الخيال الجامـح. إن لجزيرة العرب مكانتهـا علـى الخريطة وفـي الخيـال كذلك فقـد سـحَرَتْ عقولنا منذ القدم بالمغامرات والتصوف والرومانسـية. وقد اختلفت الأسباب التي استهوت الرحالين واسـتقطبتهم إلى صحراء الجزيـرة العربية الرملية. كان الناس قديماً يشـدون الرحال إلى المنطقة لاقتناء العطور والبخور، وفي عصر الاكتشـافات، لاقتناء التوابل، وبعد ذلك ببضع قرون لاقتناء القهوة والخيول واللآلئ. وقد كان بعضهم يُشَدُّ للجزيرة العربية فقط لأن بها مدناً لا يسـمح بدخولها إلا للمسـلمين فقط. وفي عصر الرومانسـية كان الكثيـرون ممن ضاقت بهـم أرض ثقافتهم التي ولدوا فيها يتجهون إلى الشرق الذي كان يُعدُّ أرض ميعاد التهربية إلى الأحلام والشهوانية.

كمـا أن استكشـافات روسـو أيقظـت في النـاس أسـطورة العصور القديمـة عن «النبيل المتوحش» والشـعوب الطبيعيـة التي كانت تعيش حياة مثالية صافية لا تُقيدها شكليات الحضارة ولا المجتمعات الطبقية. فـي هذا الجو كان البدوي هو «النبيل المتوحش» الذي كان المرتحلون إلى جزيرة العرب يبحثون عنه.

يبدو أن والين لا يختلف عن غيره من رحالي عصره، كما لا يختلف باعثـه على السـفر عـن بواعثهم. فقـد كان الإنتاج الأدبـي لكتاب عصر

الرومانسية قد أسس قاعدة لنظرته عن الشرق منذ وقت مبكر وكانت روايات جوته وروسو وشيلر ووالتر سكوت التاريخية أحب الكتب إلى قلبه. كان والين، ومنذ سنوات دراسته، يستغرب مما يدور في العالم الأكاديمي وبين علماء الأبراج العاجية وكان يريد الخروج من «ترف أوروبا وعجرفتها وتحضرها المصقول زيادة عن اللزوم».

ما إن عاد والين من الصعيد حتى شرع يستعد للسفر إلى شبه الجزيرة العربية بما يستدعيه ذلك من اتخاذ دليل من البدو واستئجار جمال وشراء أدوية ومستلزمات الطريق. كانت فكرة عدم الرجوع إلى أوروبا والاستقرار نهائياً وسط البدو تراوده منذ رحلته الأولى إلى الصحراء. لا بد أن حسناء بدوية كانت تغذي فيه تلك الأفكار إذ إنه، وهو في منطقة حائل، أمضى بضعة أشهر سعيدة ناسياً العالم بأسره يفكر في الزواج بفتاة في الخامسة عشر من العمر وصفها بعبارة «غزالة من أكثر بنات جزيرة العرب رشاقة». كما أنه طلب من حسناء بنت سبعة عشر ربيعاً أن تترك زوجها وتهرب معه مجبرة زوجها على تطليقها ليعيشا سعيدين في القبيلة.

كان خط سير رحلته الصحراوية الأولى: القاهرة في الحادي عشر من نيسان/ أبريل 1845، معان، الجوف، جبة، حائل، المدينة، مكة، جدة، السويس، العودة إلى القاهرة في الرابع عشر من آذار/ مارس 1846.

10/ 4/ 1845 رسالة من القاهرة إلى غابرييل غيتلين

أخي! أنا الآن على استعداد لمغادرة القاهرة غداً والتوجه إلى شبه جزيرة العرب. وقد اتفق الشيخ علي مع شخص من قبيلة التواري سيسافر إلى شبه جزيرة سيناء على أن أذهب معه على ظهر الجمال إلى العقبة، وهي على مسافة خمسة عشر يوماً. كما اتفق معه على أن يواصل الرحلة معي

من هناك، إلى القبائل البدوية، أو أن يعهد بي إلى عناية شيخ موثوق به، ويفضل أن يكون من قبيلة الحويتات التي تنصب خيامها شرق العقبة وجنوبها. وقد تَأكَّد لي أن شيخ قبيلة التواري الذي يعيش هنا هذه الأيام قد وقَّعَ الاتفاق وختَمَه، كما وقع عليه بعض الشهود كذلك، ورئيس دير سيناء، الذي جاء إلى هنا في زيارة للدير اليوناني والذي يحظى بمكانة خاصة لدى القبيلة. وقد أثنى شيخي كثيراً على البدوي الذي سيرافقني فذكر تميزه بسداد الرأي وبكثير من المحاسن الأخرى، لكنني لم ألتق به حتى الآن. توصلتُ من مكتب قنصليتنا برسالة من الحاكم التركي تنص على الموافقة على كتابة رسالة توصية يوضع فيها اسم (حاجي والين)، كما حصلت مثل كل الحجاج القادمين من شبه جزيرة القرم، أو من كازان، على رسالة توصية تخول لي أن أمُرَّ بِحُرِّية بطريق الحج عبر البلاد إلى غاية مكة. يبدو أن رحلتي إلى العقبة آمنة ومضمونة تماماً، ولكن الظروف وحدها هي من سيبث في شأن السفر من العقبة إلى ما يليها. أنوي محاولة السفر من العقبة عبر الصحراء مباشرة إلى غاية الجوف التي تشتهر بأغانيها وشعرها فضلاً عن شهرتها عامة. أريد البقاء هناك مدة من الوقت، ثم أتابع رحلتي إلى الصُّدَيْري التي تزخر بالآثار القديمة المهمة، ثم أمر في طريقي على شَمَر؛ ومن ثم إلى الدرعية، ثم نحو الخليج العربي إلى غاية البصرة التي ستكون أول محطة في رحلتي. أنوي الذهاب من هناك بحراً إلى جدة ثم إلى مصر للتزود بالمال والدواء. ولكنني لست متأكداً من أي شيء ومازلت لا أعرف أي شيء معرفة يقينية. سأسافر طبيباً، ومُلَقِّحاً، وحاجاً؛ البدو واثقون من أنني سأعود من رحلتي محملاً بأكياس من الفرانسيوزيات، أي العملات النقدية من فئة خمسة فرنكات، وبأنني سوف أصبح أخاً لهم، إذا كنت رجلاً عاقلاً ولائقاً. ليست لدي أي توقعات تذكر، ولكنني أستطيع أن أقول بأنني ذاهب إلى هذه الرحلة بمزاج جيد جداً،

وبدون أدنى شعور بالخوف.

بالإضافة إلى الأدوية التي اشتريتها لهذه الرحلة، والتي كلفتني الشيء الكثير، سآخذ معي القليل فقط من المال. فقد أرسلت اثنين وثمانين تَالَراً[1] ألمانيا مسبقاً إلى جدة، وأودعت قرابة ألفين وستمئة بياستر مصري مع بوكتي، أمين القنصلية العام، بالإضافة إلى الأربعمئة وخمسين بياسر المتبقية من الأموال التي أرسلها لي بونسدورف (وليس أربعمئة وخمسة وسبعين كما كنت قد ذكرت خطأً في فاتورتي، لأن سعر الجماجم الأربعة التي حصلت عليها أصبح خمسين بياستر الآن). فهلا أخبرت بونسدورف بهذه المعلومات رجاء؟ وبالإضافة إلى ذلك، سأترك في القنصلية الروسية حقيبة صغيرة مليئة بالكتب والأوراق المتنوعة، معظمها كتب أوروبية، باستثناء مخطوطة قديمة ممتازة جميلة جداً لابن خلكان[2] في تاريخ الأدب العربي، وهي في نحو 1100 صفحة بخط يد رائع ومقروء. وهو كتاب لمكتبتنا، على الرغم من أنني بالكاد كنت أملك من المال ما يمكنني من شراء نسخة من هذا الكتاب بخمسمئة بياستر، إلا أن غرامي بالكتب تغلب علي. وإذا كانت الجامعة في غنى عن هذا الكتاب، فإنه نفيس ذو قيمة. ومن بين هذه الكتب كذلك قاموس بيرسيفال الفرنسي العربي، وكتاب الألفية الذي حققه ساسي، وكلاهما ملك للسانبترسبورغي موهلينسكي، كما أن هناك أيضاً في هذه الحقيبة نسخة من كتاب ابن عقيل، وهي أيضاً للجامعة. وبالإضافة إلى حقيبة السفر المذكورة، هناك أيضاً كيس سفر به بعض أغطية السرير الأوروبية الممزقة. أما ملابسي الشرقية فأعطيتها للشيخ علي. لن آخذ في سفرتي هذه إلا قميصين وقفطاناً وعباءة من

---

(1) (بالألمانية: Taler) هي عملة فضية سكت سنة 1518 وكانت تستخدم في معظم مناطق أوروبا لأربعة قرون تقريباً.

(2) أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان.

الصـوف، وقطعـة كبيرة من جلد الغنم وسـجادة لأفرشـهما على رمال الصحراء كفراش. إذا كان بإمكانك أن ترسـل لـي بعض المال، فأرجو إرسـاله قبـل نهايـة العـام لطفاً. كيفمـا كانت الأحـوال فإننـي لا محالة سـأعود هنا بعد عام تقريباً من الآن. كما أنني كاتبت السيد بوكتي، أمين القنصليـة العـام أيضاً وطلبت منه أن يتكلف باسـتلام أي مبالغ مالية قد تبعث إلَيَّ إلى هنا.

ربما أضطر وأنا بين عرب الصحراء لكتابة مذكراتي بحروف عربية، ولكننـي قد أتحين فرصة لأرسـل لـك بضعة سـطور دون التجرؤ على كتابة رسائل بحروف إفرنجية. لذلك فأنا أفكر في كتابة كل شيء باللغة السـويدية، ولكن بحروف عربيـة، وقد وضعت لنفسـي أبجدية خاصة للتمكـن مـن الكتابة بهذا الشـكل. ربمـا لن تحين لي الفرصة لإرسـال رسائل إليك إلا عندما أصل إلى بلدة ساحلية، ولكنني آمل أن تبعث لي من حين لآخر بعض الرسائل مع إلحاق بعض السطور من والدتي ومن كونـراد. فوقتمـا وأينما وصلتني هذه الرسـائل، فإن ذاك اليوم سـيكون يوم عيد بالنسـبة لي. ولكن إياك أن تصدق أي شـائعات فضفاضة ربما تطلـق حولـي، من قبيل أننـي قتلت أو أشـياء من هذا النـوع، لا تصدق أي شـيء إلا ما تسـمعه مني مباشـرة. أتمنـى من أعماق قلبي أن تسـير الأمـور بشـكل جيد، وبـأن نجتمع معاً مـرة أخرى بعد سـنة واحدة من الآن بصحة وسلامة. لقد التقيت بمرافقَيَّ البدويين الآن، وقد أعجباني كثيراً بصراحتهما الشـديدة، دون إغراقـي بتلك المجاملات والعبارات المنمقة التي مللت منها في القاهرة. اذهب رجاءً عند والدتي، وأخبرها بأنني على أحسـن ما يرام، وبأنني أملك القـوة الكافية لمواجهة متاعب رحلتي المضنية.

بـدأت رحلتـي وغـادرت القاهـرة وقـد رافقني الشـيوخ الثلاثـة الذين عشـت معهـم وحدهم تقريبـاً، وأوصلوني إلى غاية مقبـرة باب النصر، ثم اسـتداروا مـن ثمـة راجعين بعـد أن ودعونـي بالقبـلات، والعناق، وبقـراءة سـورة الفاتحـة. كانـت دهشـتي كبيـرة بـأن رجـال الجمارك فتشـوا أمتعتي عند بوابة المدينة، حتى إنني اضطررت إلى دفع الرسـوم الجمركيـة عـن كميـة صغيرة من البـارود كنت أنـوي أن أقدمهـا للبدو الذين سـأذهب إليهم. بالكاد تقدمنا مسـافة نصف ساعة ثم توقفنا. قال البـدو بأن عليهـم التكفل بعدة أشـياء، وترتيب عدة أمـور، من جملتها جلـب المياه لأنفسـهم، والعلف لجمالهم. طلب منـي مرافقي البدوي إعطـاءه باقـي أجرتـه، لأنـه مـن المتعـارف عليه هنـا في كل مـكان أن تدفـع الأجرة مقدماً. ثم ذهـب بعيداً وتركني وحدي مـع بدوي عجوز وابنـه، وهمـا سيسـافران معنـا كلاهما. بمـا أننا في مواجهة مشـكلات كبيـرة وأخطـار جسـيمة، فإنني أتحمل مثـل هذه المشـكلات الصغيرة بصـورة جيدة جـداً. في أي وقت آخر، وفي ظـروف أخرى من المؤكد أننـي كنت سـأفقد صبـري وأنزعج كثيراً مـن تأخير البـدو للرحلة بهذا الشـكل، ولكن أمامنا رحلـة تعج بالمحن والصعوبـات، ولذلك بقيت صامتـاً، وانتظرت عودة البدو كما ينتظر الطفل. وأخيراً وصلوا في نحو السـاعة الثالثة زوالاً. ومعهم بدوي آخر اسـتأجره أحـد الجنود الأكراد الـذي كان في طريقه لاصطحاب زوجتـه من العقبة، وذلك لأنها كانت عائدة من الحج مع قافلة الحجاج فسقطت من الهودج، وكُسرت رقبتها ممـا اضطرهـا للبقاء في العقبة. بدأ البدو يتحدثـون فيما بينهم كعادتهم بصوت عال. وبما أنني لـم أتمرس بعد على لغتهم، فإنني لـم أتمكن من فهـم موضوع حديثهم جيـداً، ولكنهم في النهاية قالوا بأن البدوي الذي وصل أخيراً هو من سـيصاحبني في رحلتي وليس ذلك الذي دفعت له

أجرة مرافقتي، لأن هذا الأخير سيبقى هنا. اعترضت على هذا القرار بصرامة، فوافقوا أخيراً على أن يتم تنفيذ الاتفاق بالشكل الصحيح كما تقرر في القاهرة. وعندما استقرت جميع الأمور بالشكل الذي يرضاه الجميع، ركبنا جمالنا وبدأنا رحلتنا.

ما زلت لا أعرف البدو، كنت أعتقد أن كلمتهم ووعودهم يمكن الوثوق بها. ولكن البدوي يوافق على جميع طلباتك في المدينة، ويعدك بفعل كل ما تريده، وبتوجيه مطيته إلى أي مكان تريده، ببطء أو بسرعة، والسير لمسيرات قصيرة أو طويلة، وأي شيء تطلبه منه، ولكن عندما تصبح وحدك معه في الصحراء، فإنه يفعل كل شيء حسب إرادته هو فقط، وليس مثلما تريد أنت ولو أنك استأجرته لخدمتك. مشينا ساعة تقريباً حتى غروب الشمس، ووصلنا إلى سهل بين الجبال نزلت فيه قافلة كبيرة من العرب. وكانت هذه القافلة تحمل سلعاً من السويس، وتوقفت لقضاء الليلة هنا وللراحة، وستتابع رحلتها في صباح اليوم التالي إلى القاهرة. لم يسبق لي النوم في مخيم عربي من قبل، ولا رؤية الصحراء الحقيقية، ولذلك، فإن الوضع كان جديداً بما يكفي لإثارة اهتمامي ولإدخال السرور إلى قلبي. قام البدو بإشعال النار بإحراق روث الجمال الجاف، وكان أطفالهم السُّمر يركضون نصف عراة بين حيوانات الصحراء الممتعة التي كانت تجتر علفها القليل الذي قدمه لها أصحابها. أما البدو أنفسهم فاستلقوا على الرمال الدافئة يدردشون ناسين حرارة اليوم الحارقة ومتاعب الرحلة. كل هذه المناظر التي كانت جديدة علي حتى الآن تركت فِيَّ انطباعاً حسناً وعميقاً. جعلني هواء الصحراء المنعش، الذي اختلط مع رائحة حقول مصر الخصبة، وهذه السماء الصافية أشعر بسلام وهدوء كانت متاعب الرحلة وهمومها قد كدرت صفوهما من قبل. نمت الليلة كلها على رمال الصحراء الرملية بهدوء وسلام.

رسالة بعثت إلى غابرييل غيتلين من دلاغة 28-30/ 4/ 1845

كان اليوم الموالي أول يوم سفر فعلي. وكان أكثر ما يخيفني قبل الرحلة هو ركوب الجمل الذي قال الكثير من المستكشفين إنه يستوجب تدريباً كثيراً واستعداداً جيداً غير أنني، لحسن الحظ، أحسست بالألفة فوراً على صهوة الجمل فكانت التجربة ممتعة جداً. ربما كان السبب هو أنني كنت أتدرب على تلاوة القرآن على يد شيخي عندما كنت في القاهرة مؤخراً وقد كان شيخي يحثني على أرجحة رأسي وجسدي على وقع القراءة وتمايلي آنذاك في وقعه مماثل لتمايل الجمل في سيره. كان الجمل يسير ببطء شديد دون توقف منذ طلوع الفجر تقريباً إلى حدود العاشرة أو الحادية عشرة. وعندها تناولنا الفطور فشربنا الكثير من القهوة واسترحنا بعض السويعات بينما كانت الإبل تأكل من عشب الصحراء الجاف القليل أو تقضم العشب من الأكياس المربوطة بأفواهها. وبعد ساعتين أو ثلاث من الراحة، تابعنا رحلتنا إلى غروب الشمس. وهكذا مر اليوم تلو الآخر برتابةٍ لو لا أن للصحراء تأثيراً رائعاً لا يترك مجالاً لنفاد الصبر أو الملل. هنا يتعلم المرء الصبر بشكل عجيب فلا أذكر لحظة واحدة شعرت فيها بالضجر.

الترحال في الصحراء يشبه الإبحار في أشياء شتى. إذ ينبغي على المرء أن يحمل معه كل ما يحتاجه فلا آبار ولا أماكن للاستراحة في الطريق وإذا لم يكن المرء برفقة من يعرف الطريق كان مصيره الموت المحتوم. كما أن الرياح تهب في الصحراء بقوة. فقد كانت الرياح الشمالية الشرقية أو الرياح الشمالية الغربية تهب بقوة طول الرحلة. وفي إحدى الليالي تحولت الريح إلى عاصفة حقيقية أجبرت الجمال على الوقوف ضد رغبتنا وأجبرتنا على النزول عن مطايانا والبحث عن ملاذ من الكثبان الرملية المتحركة. في الواقع، لم تكن تلك العاصفة شديدة بشكل استثنائي ولا كان فيها ما تشتهر به ريح السموم من

جوانـب مرعبـة. وقـد كنت بـادئ الأمر مسـتاء عندما علمـت أن رفيق رحلتي جندي تركي، لكنني أدركت أنه مختلف عن أبناء جلدته عموماً وعرفت أنه كردي الأصل وأنه عاش طويلاً في مصر واندمج مع أهلها. وهكـذا فإن رحلتي كانت مرضيـة من كل الجوانب وعلـي أن أقرّ بأنها لـم تكن متعبة ولا مملـة البتة، بل على العكس من ذلك كانت منعشـة. وكيـف لا ينتعـش المرء في جو البيـداء العليل وروائحهـا العذبة. ليس فـي الصحـراء روائح زنبـق الوادي الأثيريـة، ولا نداوة غابـات التنوب والبتـولا التي فـي بلادنا. وبدل ما عندنا من روائح البلسـان القوية نجد فـي الصحراء روائح طيبة جداً تنبعث من نباتاتها القليلة الهزيلة الجافة. وعادة ما تمتزج هذه الروائح بفعل الرياح القوية فتُحوِّل الجو الحار إلى أمـر ممتع. أما في الأيام التي لا تهـب فيها الرياح، فإن الحرارة تفوق ما يُطيقـه المرء غيـر أنها، لحد الآن علـى الأقل، لم تكـن بالقدر المضني الـذي ترقبته. كنـت أخجل وأنا ابن شـمال أوروبا البـاردة المثلجة، أن أعتـرف بأنني خـلال هذه الرحلة عانيـت من البرد أكثر ممـا عانيت من الحـر. ففي منتصـف النهار، كانت درجـة الحرارة عادة مـا تتراوح بين الثلاثيـن والخمس وثلاثين درجة في الظل، ولكنها كانت تنخفض عند طلـوع الشـمس إلى ما بين العشـر والخمس عشـرة درجـة. وبالإضافة إلـى ذلك، فقد كان الندى الكثيـف يبلل الملابس التي أتقمط فيها ليلاً. كنـت أكَـوِّمُ فوقـي كل ما كان معي مـن ملابس ولكـن دون جدوى، إذ كنت أسـتيقظ في الصباح وأنا أرتعد من البرد. أما البدو فكانوا يذهبون إلـى مضاجعهم وهـم لا يرتدون إلا قميصاً ولا يتغطون إلا بغطاء كتاني خفيف، ولكنهم لم يكونوا يشـتكون من البرد بقدر ما كنت أنا أشـتكي منه، في حين أنهم كانوا يشـتكون من حرارة الشمس في منتصف النهار أكثـر منـي. كما أنهم كانوا يسـيرون حفاةً علـى أرض تغطيها حجيرات صغيـرة حـادة تكوي من فرط حرارتها. إنهم متمرسـون أشـداء بكل ما

تحمله الكلمة من معنى ويتمتعون بقدرة هائلة على التحمل تكشف عنها أجسادهم شديدة السمرة والمكشوفة لأشعة الشمس الحارقة. ويتخذون من الرمال الباردة المبللة بالندى مضاجع لهم ليلاً يذهبون إليها شبهَ عراةٍ.

مررنا بالسويس دون التوقف هناك، واصلنا السير إلى الأمام مباشرة ووصلنا في السابع عشر من الشهر الجاري إلى النخل، وهي محطة تتوقف فيها قوافل الحجاج، وبمثابة قلعة صغيرة كذلك. ولكننا لم نسلك طريق الحجاج بل سلكنا طريقاً أقصر، وأكثر جنوبية، ولكننا عرجنا على أجرود كما يفعل الآخرون (وأجرود حصن مماثل قرب السويس)، وتوقفنا في النخل لسقي الإبل وللتزود بالمياه. تحمل المياه في الصحراء في قِرب جلدية عملية ومناسبة جداً لأنها تحافظ على المياه منعشة دائماً، رغم أنها لا تحفظ نظافتها تماماً، فقربتي كانت جديدة وجيدة جداً، ولكن جدارها الداخلي مسح بالقطران مؤخراً فكان في الماء نكهة القطران، وكان يخرج سميكاً وقذراً. لو كنت في المنزل أو في أي مكان آخر لما شربت هذا الماء بالتأكيد. ولكنه هنا كان كالمعدن النفيس، لا يمكنني أن أبدله بكنوز الأرض كلها. كنا قد تزودنا بالكثير من مياه نهر النيل، ولكن البدو بذروها بسخاء العرب المعروف فنفذت مياهنا حتى قبل وصولنا إلى عجرود، وهي أول محطة للتزود بالماء، على مسافة ثلاثة أيام من القاهرة. عانيت من العطش مدة نصف يوم، وعلى الرغم من أن عطشي لم يكن شديداً، إلا أنني مع ذلك تعلمت منه حجم المعاناة التي قد تنجم عن نقص الماء. مياه عجرود مالحة جداً، لا تقل ملوحة عن مياه البحر عندنا، لكنني كنت أعبها عباً عندما وصلنا في المساء، ولم تصبني بأي أذى.

تقع النخل في سهل صحراوي شاسع يستغرق رحلة نصف يوم تقريباً، وفيها حامية عسكرية صغيرة استقبلنا جنودها الذين كان عددهم

يصل إلى عشرين شخصاً على الأكثر، وأحسنوا معاملتنا. ويقيم هناك حالياً بعض شيوخ البدو السوريين الذين ينتظرون وصول المسيحيين المسافرين إلى القدس. ذبحوا لنا خروفاً وأطعمونا طعاماً شهياً. وبدأت رحلتي الطبية هنا. أراد الجميع الحصول على دواء مُسَهِّل، أو على قطرة للعيون، أو ما إلى ذلك، فقد كانوا مرضى جميعهم وأغرقوني بأسئلتهم. دعاني البدو السوريون للذهاب معهم إلى سوريا، وقالوا بأن فيها كل حسن وجميل، وبأنني هناك سأتمكن من كسب المال الذي لن أكسبه من العرب الذين كنت ذاهباً إلى عندهم. وقالوا الكثير من الأشياء التي أحزنني سماعها. كسبت هنا من الدواء عشرة بياسترات، أي حوالي ورقتين ماليتين من فئة روبل وعشرين كوبيلاً.

قضينا الليلة هنا، وفي اليوم التالي، يوم الجمعة، تجمع الرجال وروحوا عن أنفسهم بممارسة الرماية. لم يكونوا رماة ماهرين، وأعتقد أنني كنت أستطيع أن أسخر منهم بسهولة، ولكن لعن الله قصر نظري الذي وقف حاجزاً دون تجربة بندقياتهم الطويلة. لم أكن أحمل أي أسلحة معي. سمع رفيقي الكردي أن زوجته قد غادرت العقبة، وأنها مرت من هنا منذ بضعة أيام، ومن ثم فإنه لم يعد بحاجة لمواصلة رحلته، فقرر العودة إلى القاهرة غداً. وبما أن البدوي الآخر الذي كان معنا ذهب إلى قبيلته للقاء زوجته منذ يوم الخميس، وكان قد وعد بالانضمام عند عودته إلينا هنا في النخل في اليوم الموالي، ولكنه لم يصل حتى الآن، فإنني قررت أن أتابع رحلتي مع شيخ عائد من النخل إلى العقبة. وكان هذا الشيخ من قبيلة هايوي التي نصب معظم أبنائها خيامهم في وادي التيه في اتجاه العقبة وكذا في الجنوب في اتجاه الطور. وكان مع هذا الشيخ رجل آخر من القبيلة نفسها. انطلقنا من النخل ليلة الجمعة كل منا على ظهر جمله. لاحظت على الفور بأن

رفيقَيْ رحلتي لطيفاَن جداً، ويمكن الوثوق بهما، وكنت مرتاحاً جداً لهذا التغيير.

يتملكني الاكتئاب لأنني، على الرغم من كوني قد أنفقت أزيد من سنة أجدُّ وأكدُّ في تعلم هذه اللغة العربية الصعبة المنال بحماس شديد، وعلى الرغم من أن البدو كانوا يطلقون علي اسم «المصراوي» الفخري واسم «ابن البلد» الذي ينم عن تأدبهم ومدحهم لي، فلم أكن أفهم من لغة البدو شيئاً. أفهمهم عندما يتحدثون إلي أو إلى أحد سكان الحضر، ولكنني لا أفقه شيئاً عندما يتحدثون فيما بينهم، وبالكاد أفهم وبمشقة الأنفس عما يتحدثون. ومن ناحية أخرى، فإن سماع حديثهم يثلج صدري لأن لغتهم لا تزال كلغة القرآن تقريباً. فطريقة نطقهم الأصيلة تسمح بسماع كل حرف بكل بوضوح. تتسم لغة البدو بنبرات خاصة وباتساق في النغمات فهي تنم عن الرجولة من جهة، وعن بساطة أطفال من جهة أخرى وهو سر سحرها وجاذبيتها.

إن البدوي حسب ما رأته عيني حتى الآن، رجل لا يمكن للمرء إلا أن يحبَّه من صميم القلب، فهو يتسم ببساطة تلقائية ويخلو من أي كبر أو خيلاء. كما أنه رجل مستقيم يروق لي كثيراً ويتفق مع طبعي. إضافةً إلى ذلك فإنه يمكن الوثوق به ثقة عمياء إذا ما وعد بشيء، وعندما تقاسمه الخبز والملح يصبح أخاً حقيقياً. ولكنني لن أقول أكثر من هذا فما يدريني لو أنني أغير رأيي فيهم على المدى البعيد. البدويان اللذان رافقاني يستحقان كل ثناء على إخلاصهما وأمانتهما زيادة على مرحهما وكثرة كلامهما، فهما لم يكفا عن الكلام ولو للحظة واحدة طول الرحلة.

وصلنا إلى مخيم شيخي يوم الأحد، 20 أبريل، بعد أن مررنا عند منتصف النهار بوديان الصخور الكلسية العميقة الغريبة في مناطق كريس ووادي التيه. لا جدوى من محاولة وصف منظر هذه الجبال

والوديـان الغربيـة. مـن الواضح في كل مـكان هنا بأن هـذه الأنحاء قد شـهدت تقلبات وتغيرات عجيبة وعظيمة أعطت لهذه المنطقة شـكلها الحالـي. وادي التيـه، الذي أتفرج عليه في هذه الآونة، يشـبه في منظره مجرى نهر عميق جاف يحيط بشـاطئ صخري ترتفع وسطه هنا وهناك شـعاب صخرية. تنمو في قاع مجرى النهر الآن بعـض النباتات القليلة فقـط، ولكـن الـوادي عـادة مـا يكون في هـذا الوقـت أخضـر وخصباً كالمرج. في السـنة الحالية لم تنزل أمطـار على الإطلاق، ولذلك، فقد جـف كل شـيء تماماً. كل الجبـال هنا عارية تماماً ليـس فيها أي بصمة خضراء، وذلك لأنها أساسـاً من الحجر الجيري. لكن أشكالها الغريبة وجدرانها المخططة بشكل غريب وكأنها نصوص مكتوبة تترك انطباعاً رائعاً. وهي حقاً لا تحتاج إلى غطاء أخضر لتكون جميلة.

وعندمـا وصلنـا في المسـاء، اسـتقبلنا أبناء الشـيخ ورحبـوا بنا. لم تنصب هنا خيام، أو بيوت، كما يسـميها البدو، بل كانوا يعيشون هنا في الهـواء الطلـق، وذلك لأنهم اضطروا هذا العام للتنقـل أكثر من المعتاد بسبب شح الحبوب وجفاف المراعي. نشرنا بُسُطنا، وما كدنا نوقد النار حتـى جاء جميع الرجال المخيمين هنا لتحيتنا بقبلتين على الخدين مع تكـرار القبلة الأخيرة وأحداث صوت. أنـواع المجاملات المعتادة في القاهـرة وعنـد الفلاحين غير موجـودة هنا. والناس هنا يجلسـون على ركبتيهم وكاحليهم، والجمال أيضاً تجلس هكذا، وبدؤوا يتحدثون عن الصحراء وعن شـؤون العرب ويشـربون القهوة بكميات كبيرة. تدخين البيبـة أمر نادر هنا لأن الناس هنا فقراء، وليس من السـهل بالنسـبة لهم الحصول على التبغ. كان واحد منهم فقط يملك رأس بيبة خزفية تشـبه تمامـاً بيبة زبد البحر عندنا، لكنه وضـع التبغ في رأس البيبة، إذ لـم يكن لبيبته ذراع بطبيعة الحال، ودخنها من المكان الذي نضع نحن التبغ فيه.

ذبح مُضيفي ومرافقي خروفاً صغيراً لإعداد عشـاء الأسرة بأكملها،

وتجاذبنا أطراف الحديث بحميمية. وكانت أمسية رائعة للغاية: كان البدر تاماً تقريباً، وكان يضيء بنوره المبهر على الصخور الكلسية ذات الأشكال الغريبة. وكانت ثمة صخرة كلسية فوقنا بالضبط قد يصل ارتفاعها قرابة أربعمئة قدم. جلسنا كلنا في حلقة، وفي وسط الحلقة تضطرم النار التي أوقدت من حشائش الصحراء وجذور الشجيرات اليابسة، والتي كانت تحترق تماماً مثل النباتات المخروطية[1] عندنا. ولكننا لم نكن بحاجة لا لحرارتها ولا لضوئها لأن الجو كان دافئاً مثل أيام الصيف الجميلة عندنا، والقمر كان مشرقاً بنوره الزاهي بحيث كان من الممكن قراءة أصغر النصوص على ضوئه. في الواقع، كانت هذه أول ليلة أقضيها في الصحراء، ومع سكان الصحراء، لا أعتقد أنني قضيت أسعد ولا أحلى من هذه الأمسية. لا أدري ما الذي حل بي، أهو سحر التجربة الجديدة أم مذاق حياة الأولين المفعم بطعم الحكايات الخرافية الساحرة. يمكنني القول بأن البدوي يبقى بداخله كالطفل الذي لم يخضع لأي تعليم ديني، فهو ليس مسلماً ولا مسيحياً، ولا وثنياً، ولا تابعاً لأي دين، ليس له دين على الإطلاق؛ إلا إذا كان ينتمي إلى طائفة ما. كان هذا حال أولئك الذين تعاملت معهم وقضيت معهم وقتي حتى الآن على الأقل. كانوا حوالي خمسة عشر رجلاً، لم يكن أحد منهم يستطيع قراءة سورة الفاتحة، ناهيك عن أداء الصلوات الخمس، لم يكن أحد منهم يعرف أن القرآن هو وحي الله لنبيهم، ولا غير ذلك. وعندما قلت لهم بأنهم ليسوا مسلمين ولا يستحقون هذا الاسم، فإنهم أجابوني بجوابهم المعهود: (يا حول الله). وعندما أضحك عليهم وعلى بساطتهم الصبيانية، فإنهم كانوا يضحكون معي. وبعد ذلك استدعوا الجميع وطلبوا مني أن أعلمهم سورة الفاتحة وبعض الآيات الأخرى، والصلاة، وأثنوا على نقاء إسلامي. ولكن، لا ينبغي أن نعتقد

(1) مثل الصنوبر والسرو والتنوب.

بـأن كونهـم غير مبالين بالديـن يجعلهم يحبوننا نحن المسـيحيين على عكس أهل الحضر من علماء المسـلمين. فكلمة (نصراني) شـتيمة هنا أيضاً كما هـو الحال في المدن، وهـم لا يدخرون الكلمات القدحية في حق النصارى. ولكنني أعتقد أن البدو أكثر تسـامحاً من سكان المدينة، بل إنني أعتقد أن المسيحي إذا جاء إلى هنا وهو على اطلاع جيد باللغة العربيـة، وعلى دراية بفضائل البدو ومناقبهم (مثل الكرم والشـجاعة)، فإنه سيستقبل استقبالاً حسناً. لا أعتقد أن كراهيتهم للمسيحيين تعشش حقاً في قلوبهم مثل سكان المدن، وإنما هي هراءٌ يرددونه، معظم أسبابه عائدة إلى الإشـاعات الغريبة العجيبة التي يسـمعونها عن المسـيحيين مـن قبيل أن رهبان دير سـيناء قـادرون على منع المطر أو جلبه حسـب هواهـم، وبأنهم قادرون علـى توجيهه إلى المكان الـذي يريدونه. كما أنني سـمعت من بعض البدو الذين رافقوا المسـيحيين المسـافرين إلى سـيناء أو سـوريا، وكانوا يشـيدون بلطفهم وكرمهم، ولكن المسيحيين فـي الوقت نفسـه موضع سـخرية البـدو بسـبب طاقياتهـم المضحكة، وبسبب نسائهم اللواتي لا يحتجبن.

لقـد أقمـت هنـا في مخيم البـدو الآن ما يقـرب من ثلاثـة أيام، وقد قضيت هذه الأيام كسـولاً عاطلاً شـأني في ذلك شأن مضيفي البدوي. اتفقت أخيراً مع الشـيخ سـالم، الذي أتى بي إلى هنا من النخل على أن يرافقنـي عبر العقبة ويأخذني إلى الشـيخ الحسـين أبو نجاة شـيخ قبيلة علـوان. ومـن هناك تكـون أمامي رحلة ثمانيـة أيام إلى الجـوف مروراً بنواحـي قبيلـة الغـزا وقبيلـة بني سـحر. أمامـي رحلة نحو خمسـة أيام للوصول إلى ديار الشيخ الحسين.

غادرنا ديار الشيخ سـالم يوم الأربعاء، الثالث والعشرين من أبريل، ومررنـا بوادي التيه، وبعـده مررنا بوادي عربة. وهكذا كنت قد سـرت مسـافة طويلة من الطريق نفسـه الذي سلكه بنو إسـرائيل عندما خرجوا

مـن مصـر. عرجنا مـن وادي عربـة إلـى الـوادي الجانبي المتفـرع منه واتجهنـا نحو غرندل، وعبرنا الجبال الشـاهقة مـدة يوم ونصف وكنت حتـى الآن أصعـد إلى أعلاهـا. كانت هذه الجبال من الصخر الكلسـي ومـن الصخـر الرملـي، وهي ذات شـكل غريـب جـداً، وكأن جدرانها مـن الرخـام الأبيض، والأحمـر والأزرق والأحمر. وكان الشـيخ يبقى مسـتيقظاً طيلة يومين اثنين خوفاً من اللصوص، ولكن شيئاً لم يحدث. كان وادي موسـى علـى بعـد بضعـة أيام سـفر فقـط، لكنني لم أسـتطع الذهاب إلى هناك لأنني أردت الوصول إلى شبه جزيرة العرب بسرعة، ولأن القبائل الشمالية كانت متطاحنة فيما بينها.

وصلنـا إلى خيـام قبيلة الحويتات في الثامن والعشـرين من الشـهر الجاري، بعد رحلة يوم ونصف صعبة وشاقة في وديان غرندل ودلاغة. وأنـا أجلس الآن هنا أكتب والعاصفة تهب فوق هذا الجبل الذي جئت إليـه تاركاً ورائي نحو خمسـة عشـر رجـلاً بدوياً بعد أن جلسـت معهم مدة أربع سـاعات تناولنا فيها الطعام، وشربنا القهوة ودردشنا. ويسمى شيخهم الشيخ حميد أبو سلمان. وصلنا إلى هنا قبل الحسين أبو نجاة، وبما أن الشيخ حميد هذا يعجبني جداً، فإنني سأدعه يأخذني إلى معان، وهي محطة اسـتراحة الحجاج السوريين، وتبعد عن هذا المكان مسافة يوميـن. يقـال هنا إن عنيزة وعـدداً من قبائل الشـمال الأخرى متطاحنة مـع قبيلـة الحويتـات والقبائل التـي تربطها بهـا علاقة قرابـة، كما يقال إنهـم خاضوا معركة مؤخراً تكبدت فيها هذه الأخيرة خسـائر جسـيمة. ومـع ذلك قيـل لي بأن رحلتي إلى الجوف آمنـة تماماً، وذلك لأن قبيلة شرارات التي ترافقني في رحلتي هي قبيلة غير منحازة. سأبقى في معان ثمانيـة أيام أو عشـرة أرتاح فيها من رحلتي في نهاية أول شـطر منها. لا أسـتطيع أن أقول إنني شـعرت بالتعب أو بالإرهـاق، ولكنني كنت آمل التوقف بعض الوقت حتى أسـتطيع كتابة مذكراتي عن هذا الشـوط من

الرحلة، قبل أن أبدأ بنسيان الأشياء، لأنني لم أكن أتمكن من الكتابة إلا خلسة.

صباح هذا اليوم هو آخر صباح في شهر أبريل، ومقياس الحرارة عندي يقول إن درجة حرارة الجو تشير إلى سبع درجات فهرنهايت. يمكنك أن تتصور بأنني أشعر بالبرد، على الرغم من أنني تغطيت بقطعة من جلد الغنم أعطانيها مضيفي. ليت هذه الرسالة تصلك في نهاية المطاف ولا تضيع في الطريق! لدي الكثير من الأشياء التي أود كتابتها ولكن البرد، ووضعية جلوسي غير المريحة، والشيخ هايوي الذي يستعجل العودة كلها أسباب تحول دون ذلك. فلتتقبل إذن تحيات قلبية خالصة من صديقك الذي أصبح الآن حقاً يبدو مسلماً حقيقياً تقياً، وشيخاً عالماً لا يثير أدنى شك أو شبهة (على قدر ما لاحظته). وداعاً!

4/ 7/ 1845 رسالة إلى غابرييل غيتلين من الجوف

أخي! آخر رسالة أرسلتها لك كانت من جبال شَراعا الشاهقة والباردة في أبريل الماضي، وآمل أن تكون قد وصلتك بالفعل، على الرغم من أنها مرت من يد بدوية إلى أخرى، أو على الرغم من أنها على الأرجح استقرت في الكثير من الجيوب البدوية قبل أن تجد طريقها إليك. بعد أن أعطيت الرسالة إلى الشيخ البشوش هايوي بيوم واحد لكي يوصلها، خرجت أنا في رحلتي تجاه الشرق مع دليلي الجديد الشيخ حميد، شيخ قبيلة عمران، إضافة إلى مرافقَيْن آخرَيْن مسلَّحَيْن. فهناك خوف عظيم هنا من خطر القبائل العدوة، ومن العصابات التي تتنقل في الصحراء لاصطياد الضحايا. وقد حدثت هنا في الآونة الأخيرة معركة بين البدو المنتمين لقبائل الحويتات وعمران وبعض القبائل الأخرى من جهة؛ وبين عنيزة وبني عدوان وآخرين من جهة أخرى. وكان سبب

التطاحن هو الصراع على ملكية المراعي الجيدة. وإلى يومنا هذا لا تزال ثمة عصابات صغيرة تجوب هذه المنطقة على ظهور الجمال أو الخيول لاعتراض المسافرين أو البدو الذين تربطهم بهم علاقة عداوة. وما انفك البدو يرهبونني بهذه العصابات، ولكنهم كانوا يخيفونني بالعفاريت والأشباح أيضاً، ولذلك فإنني سأبقى ثابتاً على قراري بالذهاب مباشرة إلى معان دون أن أسلك طريقاً أطول إلى الشوبك رغم كونها أكثر أماناً.

وهكذا بدأنا رحلتنا في فاتح ماي، وكنا نسير ببطء. وعلى طول الطريق، كنا ننزل عند بعض الفلاحين الذين يتخذون من هذه الجبال مسكناً لهم. إن ظروف عيشهم أمر لا يمكن لأي أحد أن يحسدهم عليه بالتأكيد. فهم يعيشون حياة شبه فلاحية، وشبه بدوية، يضطرون فيها إلى دفع ضرائب ثقيلة لجميع شيوخ البدو الذين يتجولون في مناطقهم. ورغم أن هؤلاء الشيوخ يجبون ضرائب كثيرة من هؤلاء الفلاحين، إلا أنهم يحتقرونهم كثيراً، وعادة ما يأتون بخيولهم ويتركونها تقتات من برسيم الفلاحين الشحيح. وعلى الرغم من أننا كنا على مسافة عشر ساعات فقط من معان، إلا أن رحلتنا استغرقت يومين كاملين، وذلك لأننا كنا نتوقف باستمرار لكي نسأل الفلاحين عن الطريق. وفي ليلة اليوم الثاني، غادرنا خيام الفلاحين، وعبرنا السهول التي ما بين معان والجبال في ظلام الليل. وكان مرافقاي يحملان فتيلاً مشتعلاً طول الوقت لأجل سلاحيهما، لأنهما يحتاجان إلى الفتيل المشتعل لإشعال بارودهما. لم أشعر بالخوف بتاتاً، حيث جلست على ظهر جملي هادئاً تماماً، في حين أن مرافقيَّ كانا يركضان هنا وهناك إلى كل هضبة وكل تلة يراقبان المنطقة. أما بالنسبة لي، فإن الصحراء تعطيني شعوراً رائعاً بالطمأنينة والسلام النفسي، فالمرء هنا يشعر في كل حركاته وسكناته بالحاجة لأن يردد عبارة لا إله إلا الله بكل ذلك المعنى الواسع الذي

تحمله هذه العبارة عندما يقولها العربي.

وصلنا إلى معان في منتصف الليل تقريباً دون أن يصيبنا أي أذى خلال الرحلة. وهناك توقفنا عند شيخ إحدى المدن، الشيخ أحمد القباع الذي ذبح لنا كبشاً، وقدم لنا القهوة، ثم قدم لنا عشاء لذيذاً. في غضون ذلك حضر إلى هناك معظم سكان المدينة، وجلسنا نحن مع مجموعة من نحو ثلاثين شخصاً مشكلين حلقة كبيرة تتوسطها نار موقدة وُضعت عليها ركوة القهوة التي حُضِّرت بنكهة القرنفل. كان الجمع الغفير يرصدني ويحدق فِيَّ وكأنه يشتبه في أمري، مما جعلني أشعر بإحراج شديد. وهذا هو السبب الذي جعلني أعتقد أنني كنت محظوظاً عندما أخذني مضيفي إلى غرفة صغيرة على السطح حاولت فيها أن أكتب رسالة إلى شيوخي في القاهرة ورسالة إلى القنصلية لأخبر الجميع في بعض السطور القليلة بوصولي السعيد إلى معان، لكنني كنت أفتقر إلى الهدوء. حيث كان مضيفي وابنه الصغير يركضان هنا وهناك، ويأتيان إلي مراراً وتكراراً، لدرجة أنني تمكنت بصعوبة شديدة من كتابة بضعة أسطر باللغة الفرنسية لأمين القنصلية، أدرجتها في الرسالة التي كتبتها باللغة العربية والتي وجهتها لشيوخي في القاهرة. وهكذا، أخذ الشيخ حميد، شيخ قبيلة عمران الرسالة وبدأ رحلة العودة في تلك الليلة ذاتها بعدما فرغنا من الأكل ومن شرب القهوة في وقت متأخر من الليل.

وفي صباح اليوم التالي بدأ الأهالي يتوافدون علينا إلى أن تجمعت المدينة كلها تقريباً عندنا. وذلك لأن الجميع سمعوا بأن طبيباً قد جاء إلى هنا، فقضيت اليوم كلها في فحص العمي، والمشلولين، والعُرج، والمجروحين، وما إلى ذلك. ولست بحاجة لأن أشرح بأن هذا العمل كان مملاً ومقرفاً بالنسبة لي. كنت أنتظر الحصول على غرفة خاصة حتى أتمكن من نيل قسط من الراحة، وكذلك لتدوين ملاحظاتي

ومذكراتي، ولكن ذلك لم يحدث. كنت أتوقع أن أتمكن من البقاء هنا بهدوء مدة من الوقت قد تتراوح ما بين عشرين وثلاثين يوماً. في اليوم الأول استطعت أن أتخذ من تعبي من الرحلة عذراً للبقاء وحدي، ولكنني كنت مضطراً في اليوم التالي لفتح صندوق أدويتي، وتقطير قطرة العيون لهذا وذاك. وكان أكثر ما أزعجني هو العشرون أو الثلاثون شخصاً الذين يجلسون بجانبي ويحدقون في صندوق أدويتي الذي أثار إعجاب الجميع رغم كونه متواضعاً للغاية، ولكنهم هنا عادة ما يعجبون بكل ما هو ليس قديماً أو مغبراً مثل أدواتهم.

معان هي مدينة صغيرة فيها قرابة مئتي بيت مبنية من الطوب في وسط الصحراء، ولكن فيها عين ماء مهمة، ومجرى ماء آخر صغير، يتدفق من مكان صخري يبعد عن المدينة بضع ساعات، ويخرج على شكل قناة صغيرة تشبه المزرابات عندنا. وبفضل هذه المياه يسقى عشرون بستاناً تقريباً فتؤتي ثمارها المختلفة التي يعتبر رمانها بالخصوص الأفضل في العالم. وفي ما خلاف ذلك يتم استيراد كل المواد الغذائية الأخرى من سوريا أو من مصر. جميع سكان المدينة يبيعون بعض الأشياء الصغيرة ويتعاملون مع عرب المنطقة في التجارة، كما يقايضون الرصاص وبعض الأدوات الصغيرة الأخرى بالصوف. وهناك قرية صغيرة فوق الجبال، تبعد قرابة ربع ساعة عن المدينة، وتسمى المغارة. وفيها الكثير من البساتين والمياه، وهي تنتمي إلى معان. وتزدهر التجارة خلال الأيام الثلاثة التي تتوقف فيها قافلة الحجاج السوريين هنا في رحلتها إلى مكة. أما باقي أيام السنة، فيقضي الناس معظمها في كسل وضجر. لا أود أن أكون ناكراً للجميل بلومهم على كل شيء، وذلك لأنهم كانوا مضيافين للغاية معي. وعند كل وجبة، كان أحدهم أو الآخر يدعوني إلى منزله ويقدم لي قصعة كبيرة من الأرز أو غيره، رغم أنني لم أكن أخرج من عندهم قبل أن أقدم لمضيفي القليل من الملح الإنكليزي،

أو ثنائي طرطرات البوتاسيوم، أو قطرة العيون أو ما إلى ذلك. ولكنني أحس من كلامهم واستقبالهم بأنهم يرحبون بي. وقد أرسلوا لي مرسالاً يحثني على البقاء عندهم، وقالوا إن بينهم الكثير من المرضى الذين يمكنني معالجتهم، ومن ثم كسب المال بشكل جيد هنا. إضافة إلى أن جميع العرب الذين يسكنون في المناطق المجاورة سيأتون إلى هنا للتطبيب، وما إلى ذلك. إنهم لا يدركون بأن هذا بالضبط هو أقل ما أتمناه، وأنه أشد ما أخشاه. ومع ذلك فأنا أرغب في البقاء هنا مدة، خاصة بعد أن أصبح لي معارف جيدة هنا، مثل فقيه شاب يعمل إماماً في مسجد المدينة، كان قبل بضع سنوات قد تخرج من جامعة الأزهر في القاهرة، وكان قد تتلمذ على يد محمد عياد وآخرين. ولكن، وبعد بضعة أيام من وصولي، أراد الشيخ أحمد القباع الذي عهد بي إليه، الذهاب كعادته في هذا الوقت من كل عام عند البدو لشراء الإبل التي يأخذها إلى القاهرة بعد ذلك، ويبيعها هناك ويجني منها ربحاً يُقدر بمئة بالمئة. وبما أن الفرصة سانحة لمرافقته في السفر بين البدو، وبما أنني لا أريد أن أبقى شهرين كاملين في معان في انتظار عودته، فإنني قررت الذهاب معه على الفور.

بعد التشاور والمناقشة والمفاوضة حول الشروط، خرجنا من معان في صباح اليوم الخامس من مايو، وكنت سعيداً جداً بالجلوس مرة أخرى على ظهر البعير والتوجه إلى الصحراء. في اليوم نفسه، قبل ساعتين من غروب الشمس، وصلنا إلى عين ماء رائعة تسمى أُذْرُح، بالقرب منها أنقاض مدينة قديمة واسعة جداً. ويبدو من خلال البنايات والأبراج المنهارة جزئياً بأنها أنقاض مدينة رومانية، ولكنني لم ألاحظ أي أثر لأية رسومات ولا أية كتابات. لم أتمكن من التجول هناك لأكثر من نصف ساعة لكيلا أثير شكوك مرافقي الجدد الذين أكدوا لي بأن ثمة كنوزاً لا حصر لها مدفونة في هذا المكان، ولكن الجن تحرسها،

وأنـه لا يتمكـن من العثـور عليها إلا شـخص متعلم يعـرف كيف يزيل السـحر عن المـكان. وبما أن هذا المكان واضـح ويمكن الوصول إليه بسـهولة، فإننـي لـم أكترث لمغـادرة هذه الآثار، حتـى وإن لم يكن أحد قد وصفها بعد.

فـي المسـاء وصلنا إلى مكان أول قبيلة بدويـة. يجب أن تعرف بأننا اتجهنا من معان إلى جهة الشـمال لا جهة الشـرق، كما قد تتصور على أسـاس خريطة شبه جزيرة العرب. فهم هنا يضطرون للمرور عبر طرق ملتوية طويلة، وذلك لأن ثمة جماعات كثيرة من لصوص البدو تجوب السهول الصحراوية التي بين معان والجوف، وتترصد مسافري القبائل المعادية طول الوقت لسلبهم ونهبهم. ولذلك فإن مرافقي كان يعتقد بأنه من الحكمة أن يكون خط سـفرنا عبر قبائل الحويتات، وقبائل الحجايا والشـرعة وغيرها من القبائل البدوية المنتشرة على التلة الشرقية إلى أن تسنح لنا فرصة جيدة لعبور السهل.

وهكـذا عبرنا من مخيـم عربي إلى آخر، ولم نكن نسـير بين القبائل عادة إلا ثلاث أو أربع ساعات في اليوم، وكنا نقضي الليل في خيامهم، كمـا أننـا قضينـا يوماً مـن أيام سـفرنا عند إحـدى القبائل. كنت أسـافر بوصفـي طبيبـاً، وكان علـيَّ كلمـا دخلت خيمـة واسـتقريت فيها أفتح صنـدوق أدويتـي وأحضِّر الأدويـة وقطرات العيـون أو ما شـابه. وبما أن الطـب ليس مهنتـي الحقيقيـة، فإنني كنت في معظـم الوقت أخجل مـن أخذ مقابـلاً على خدماتي الطبيـة، خاصة أنني لم أكـن أتوقع جني الربـح منذ البداية، وأيضاً لأنني كنت أريـد، من قبيل العرفان بالجميل، تعويـض مـا أبداه العرب نحوي مـن كرم وضيافة بخدماتـي هذه. ذلك أنهـم رحبوا بنا ترحيباً حاراً وكانوا مضيافين للغاية، ونحروا لنا أغنامهم وقدمـوا لنـا القهوة وحليب النـوق اللذيذ. ولكن كرمي هذا سـرعان ما أثار شكوكهم، فبدؤوا يقولون إنني لست مثل الملقحين الذين زاروهم

من قبل، وقيل إنني إما إفرنجي يرتدي زياً تنكرياً، وإما جاسوس أرسله الباشا إبراهيم أو الباشا عباس، غير أنهم لم يشتبهوا في أمر إسلامي. لم أبال البتة بما قالوه، وكنت أتمدد وسطهم كلما شرعوا في ترديد مثل هذه الأحاديث، وكنت أصم أذني وأنام في الخيمة وأترك لمرافقي مهمة الدفاع عني. وقد دافع عني باستماتة لأن سمعته مرتبطة إلى حد كبير بسمعة الرجل الذي يرافقه. ومرةً طلب مني أحد أهم شيوخ قبيلة عمران الذي كثيراً ما رافق الرحالة الأوروبيين وسافر معهم إلى البتراء أو إلى القدس، النطق بالشهادتين. وعندما رددت الشهادتين بصوت ثابت ومطرد، اعتذر مني، وطلب مني أن أسامحه على شكه فِيَّ، وقال بأنني بالتأكيد شيخ فقيه من خريجي الأزهر. ثم طلب مني بجدية أن أكتب له بعض الأحجبة له ولماشيته، وأن أكتب له حجاباً خاصاً لحصانه. ليست هذه هي المرة الأولى التي حصل لي فيها شرف أداء مثل هذه المهمة، إذ كان علي النزول عند طلبات الناس للظهور بمظهر الشيخ الفقيه. ولكنني لم أكن أعتبر بأن كتابة الأحجبة والتعاويذ مهمة تستحق مني أن أخرج قنينة الحبر، فاكتفيت بالكتابة بقلم الرصاص، وهذا ما أثار استغراب الناس كثيراً فبدؤوا يتعجبون كيف أنني أستطيع الكتابة بعصا خشبية بسيطة فقط دون حبر ودون قلم. كنت أكتب الكثير من هذه الأحجبة التي يحملها الناس لتحميهم من مختلف أنواع الشرور، وكنت أكتبها باللغة السويدية ولكن بحروف عربية. وكنت أكتب أي شيء يخطر على بالي والبدو من حولي يحدقون فِيَّ.

كانت أكثر الأمراض التي يأتي الناس إلي طلباً لعلاجها هي العجز الجنسي والعقم، وخصوصاً العقم. وعادة ما كان الناس يأتون إلي ويقولون لي بأن المريض كان قد عانى من هذا المرض منذ ثلاث أو أربع سنوات وأنه لم يستطع الإنجاب بعد ذلك، وكان آخرون يأتون لأنهم لم يسبق لهم الإنجاب، وأشياء من هذا القبيل. كان علي معالجة

مثل هذه الحالات وغيرها. كان بعض المرضى يأتون إليَّ من مسافة يوم كامل طلباً للعلاج. وكنت أقول لهم أي شيء يخطر على بالي من قبيل (هذا أمر الله) أو أن الشفاء ليس بيد البشر، ولكن ذلك لم يكن يجدي شيئاً، فكانوا يطلبون مني أن أكتب لهم التعاويذ والأحجبة. وشعرت في الآونة الأخيرة بأن عليَّ أن آخذ منهم أجراً لدحض الشكوك. وقد استفدت من ذلك على عدة مستويات، فالناس لم يعودوا يزورونني لطلب العون بنفس الأعداد الكبيرة، فضلاً عن أنني تمكنت من تجميع كيس جيد من الزاد لرحلتي يتضمن الزبدة والطحين وبعض أنواع الحليب المجفف التي يمكن استعمالها أثناء الرحلة لتحضير الفطائر بإضافة بعض الماء إليها. ولا أخفي عليك بأن أَخْذَ أجري منهم كان بالنسبة لي مهزلة تثير اشمئزازي، لكن ما باليد حيلة. كما أنني لم أكن أضع لنفسي حدوداً وأنا بين البدو، بل إنني كنت أطلق العنان لمزاجي السيء وأصرخ فيهم، وعندما كان بعضهم يكثرون الحديث عني للآخرين، فإنني لم أكن أتوانى عن توجيه الشتائم لهم ونعتهم بالكلاب واللصوص. ويؤكد بوركهارت بأن نعت البدو باللصوص هي إهانة كفيلة عادة بجعلهم يخرجون الخناجر من أغمادها. كما كنت أحياناً أرسلهم إلى حال سبيلهم، وأضربهم على ظهورهم إذا اقتربوا أكثر من اللزوم من صندوق أدويتي الذي كنت أضعه في المحرم أي في جانب الخيمة الخاص بالنساء حيث كنت أزن الأدوية وأحضرها. في البداية كانوا يعاملونني مثل أي مُداوٍ من المداوين العاديين الذين تعودوا عليهم، ينادونني باسمي ويطلبون مني أن آتي إليهم، لكنني علمتهم عادات وأساليب جديدة في التعامل. فأصبح الجميع، سواء كان شيخاً أم شاباً، من العلية أم من الدون، أي كل من يأتي لزيارتي يقبل أصابعه بعد أن يلمس لحيتي بواسطتها. اضطررت للتعامل بهذا الزهو على الأقل مع البدو الساكنين قريباً من المدن. أما خارج عملي

كطبيـب، فكنت أفضل أن أتعامـل معهم على أنني واحد منهم. وبفضل تعاملـي هذا كنت أُستَقبل في خيامهم على أني شـيخ وفقيه ورع، دون تلك الشكوك التي كانت لهم بشأني في البداية عند وصولي.

لا يمكنني أن أتخيل أي شـيء أسـوأ من اليوم الذي وصلت فيه إلى خيامهم. عادة ما يُناخ الجمل أمام خيمة شيخ القبيلة، ثم تفرغ حمولته وتدخل إلى الخيمة، وبعد ذلك يسـلم الوافدون على أهم من يجلسون داخـل الخيمة بقبلتيـن على الخدين ثم يجلسـون. ثم يتبـادل الجانبان التحيـات والمجامـلات المعتـادة مـع هـز الرأس قليـلاً، ومن ثـم تبدأ الأسـئلة: مـن أيـن جئتم؟ إلى أيـن تذهبـون؟ لكنني لا أجيـب أبداً عن هذه الأسـئلة، بل أترك دليلي الحكيم يتكلف بذلك، غير أنه ينبغي علي الحديث بلغة العيون، وذلك لأن الجميع يحدقون في مظهري الغريب، وفي لون بشـرتي الشـاحب. كان علـي أن أجيب كل هـذه النظرات إما بنظرات حازمة محدِّقة، أو بالضحك، أو بالسـخرية، أو ما إلى ذلك من أنواع الأساليب التي تستطيع عيناي استعمالها. وفي الوقت نفسه، كانوا يقدمـون القهـوة باحتفالية شـديدة مـن البداية إلى النهايـة، حيث يكون التحميـص، ثم الطحـن في المهراس، وأخيراً الطهـي. وبعد أن يوضح رفيقي للبدو الفضوليين بأنني طبيب، وبأنني أحمل معي وسائل العلاج التي تشفي مختلف أنواع الأمراض، يبدأ هؤلاء البدو في الاقتراب مني واحداً تلو الآخر، يلقون عليَّ في البداية نظرات شك وريبة، ثم يبدؤون في سرد ما يشتكون منه من داء، ويسألون إن كان عندي له دواء. عادة ما يكون الجواب بالإيجاب على هذا السـؤال هو الطريقة الأفضل، لأنني كنت أعرف بأنني لن أضطر لإثبات الأمر في الحال.

ولـم يكن الرجـال وحدهم من يطلبون مشـورتي، بل كانت النسـاء أيضـاً يحترمنني من خلال الثقة التي يضعنها فِـيَّ. وبما أنني كنت أترك صنـدوق أدويتـي فـي جانب النسـاء من الخيمـة، فإن ذلك سـهَّل عليَّ

التواصل معهن إلى حد كبير، وغالباً ما كانت جميع نساء المخيم يحطن بي، ويروّحن عني من خلال حكاياتهن المسلية والمضحكة عن همومهن ومشكلاتهن. وبما أنني كنت بالنسبة لهن شخصاً غريباً آتياً من القاهرة البعيدة، فإنهن لم يكن بحاجة لأن يأبهن بي، فكن يبقين وجوههن مكشوفة أمامي دائماً. وقد رأيت فيهن العديد من الجميلات الممتلئات، ولكنني لم أر فيهن أي واحدة يمكنني أن أسميها (حسناء مثالية)، ولا حتى أولئك اللواتي كن ذوات جمال أوروبي. ولم تكن أي منهن مغرية ولا لعوباً مثل نساء مدن الشرق عموماً. كما أن في ملامح بنات الصحراء وسلوكهن بعض الملامح الرجولية تقريباً، ولا شك أن ذلك راجع إلى طريقة تربيتهن القاسية. ذلك أنهن منذ نعومة أظافرهن، يتعودن على الذهاب لرعي الماشية تحت أشعة الشمس الحارقة دون وقاية، ويذأبْن على حمل القِرَب الثقيلة، وعلى القيام بأعمال شاقة أخرى. لذلك فهن رشيقات الجسم وسريعات العقل، إضافة إلى طبعهن الأبي. كنت أتحدث معهن بحرية تامة، وكنت أمازحهن بموضوع الزواج الذي يشكل الموضوع المفضل لديهن هنا، كما هو الحال في أماكن أخرى. كما أنهن لسن مقيدات ولا مذلولات مثل نساء المناطق الحضرية. بل على العكس من ذلك تجد أن لديهن سلطة كبيرة على الرجال، ولكن بقدر أقل مما لنساء معان والجوف. لم تكن لديهن إلا رغبة واحدة، وهي أن يكون لهن أطفال، وكلما كان لديهن أكثر، كان ذلك أفضل. فلا تجد هنا أحداً أتعس من رجل عقيم أو امرأة عقيمة. وقد كنت شاهداً على شكاوى كلا الجانبين ومعاناتهما الداخلية، واضطررت لكتابة عشرات التعاويذ والأحجية علاجاً لها.

إن البدو أناس ذوو طبع غريب، فهم جميعاً ودون استثناء إما أطفال أو شيوخ، لا تجد بينهم شباباً ولا فتياناً، والغريب في أمرهم أنهم يولدون ثم يكبرون ويصبحون شيوخاً، ولكنهم في نهاية المطاف يصبحون

أطفالاً؛ وذلك لأن الأطفال الصغار والشبان يتصرفون تصرفات الشيوخ، فيما يتصرف الشيوخ مثل الأطفال عندنا. هناك طريقتان للتعامل معهم، إما أن تعطيهم السكر وتقول لهم كلمات حلوة، أو أن تتصرف معهم بحزم، وبشدة الرجال. والأسلوب الأخير أفضل حسب تجربتي. ولكنني حتى الآن لم ألتق بأي واحدة من القبائل القوية. فهذه القبائل ليست إلا قبائل صغيرة، لم يتبق لديها من الطبع البدوي إلا القليل. وهذا يرجع جزئياً إلى سلطة حاكم مصر محمد علي، وجزئياً إلى التفاعل مع المدن المجاورة. وعندما كنت ألوم هؤلاء البدو على فضولهم وفقدانهم لطبعهم البدوي، فإنهم كانوا يعترفون بأنفسهم بأنهم ليسوا بدواً حقيقيين، وبأنني لن ألتقي أبناء الصحراء الأقحاح حتى أنزل في ديار قبائل عنيزة والرولة. وبصفة عامة فهم أناس كثيرو الكلام، ولطيفون، وودودون، وهم كرام لا يبخلون بما يملكونه عن الآخرين، ويقاسمون الغير أي طعام لديهم. كما أن الضيافة والكرم من شيمهم ومن طبعهم، يمارسون كرمهم بتلقائية بحتة دون أن يجعلوك تحس بفضلهم عليك.

لقد سرنا حتى الآن مدة أربعة عشر يوماً نحو الشمال، نتنقل من مخيم إلى آخر، نأكل ونشرب مما جاد علينا به كرم البدو فقط، ولم نضطر إلى الآن إلى فتح كيس زادنا. وحيثما حللنا، كان البدو يذبحون لنا شاةً، وهو طعامهم اليومي تقريباً، أو يقدمون لنا قصعة كبيرة من الفتة، وهي عبارة عن خبز يفتتونه ويضعون عليه الزبدة. لم نكن الضيوف الوحيدين الذين ينزلون عند البدو، بل كان في كل يوم وفي كل خيمة ضيوف بدو يجولون المنطقة ويعَوِّلون على كرم إخوتهم. ولا أذكر في أي وقت مضى أنني تناولت الطعام في خيمة بدوي مع مجموعة أقل من خمسة عشر إلى ثلاثين شخصاً. وخلال هذا الوقت كنا قد طوينا وراءنا رحلة أربع ساعات إلى مدينة الطفيلة الصغيرة. والتقينا هناك عند

قبيلة الحجايا بثلاثة رجال من قبيلة شرارات كانوا يستعدون للخروج إلى الجوف لبيع الصوف.

نزلنا ضيوفاً على شيخ قبيلة الحجايا الشاب واللطيف للغاية، وبعد أن ارتحنا عنده أياماً قليلة، واستعلمنا عن قطاع الطرق الصحراوية - تماماً كما تفعل السفن الساحلية الصغيرة قبل الإبحار - غادرنا القبيلة في الثامن عشر من مايو في الصباح الباكر قبل شروق الشمس، وكانت هذه الخيام هي آخر خيام نراها قبل بحور من الرمال، وبعدما سرنا مسافة ساعتين، وصلنا إلى سهل شاسع في آخره جبال منخفضة. كانت قافلتنا الصغيرة تتكون من ستة جمال وخمسة رجال، ثلاثة منهم فقط كانوا مسلحين بالبنادق. ولأننا كنا نخشى الوقوع فريسة لقطاع الطرق، فإننا كنا نسرع الخطو ولا سيما في الأيام الأولى، وقطعنا مسافة ثلاث عشرة ساعة ونصف دون توقف تحت الحرارة القاسية، وببطون فارغة. وصلنا مساءً إلى بركة ماء بعيج، وكان ثمة قطيع إبل يتكون من نحو ستين جملاً. ويمكنك أن تتخيل نوعية ماء البركة بعد أن عبَّت منها الجمال، وخلطت مياهها بالرمال وبغيرها من الأشياء، ولكنني لم أستطع مقاومة رغبتي في العوم فيها. قضينا الليلة هنا، وفي الصباح ملأنا قربنا الفارغة بماء البركة التي لم تصْفُ خلال الليل. وواصلنا رحلتنا نحو الشرق، وعبرنا سهلاً صحراوياً موحشاً. كنا ننتظر بفارغ الصبر الوصول إلى المياه بعد مسافة ثلاثة أيام. مر اليوم الموالي إلى المساء بشكل جيد: كانت الرياح الشمالية الغربية قد لطفت الجو، وكانت وجبة الفطور الثقيلة صعبة الهضم التي تناولناها عند نبع بعيج قد ساعدتنا على تحمل عناء اثنتي عشرة ساعة من الرحلة، وعلى ابتلاع الماء الرملي ذي المذاق السيء. وبعد حلاوة الليلة وبرودتها، حضَّرنا وجبة الفطور وتناولناها بشهية مفتوحة ونحن لا نزال نطرد النوم عن عيوننا، والأحلام الحلوة التي رأيناها على رمال الصحراء تقوينا.

كانت الحرارة قاسية جداً اليوم. لم تهب الرياح بتاتاً مما جعل الجو خانقاً، وقد أرهقتنا الحرارة بالفعل منذ الساعة الثامنة صباحاً، رغم أن الجو في الأيام العادية لا يصبح خانقاً إلا ابتداء من منتصف النهار. وما إن سرنا مسافة بضع ساعات حتى بدأت أشعر أنني في حالة سيئة للغاية، ربما بسبب الفطور الثقيل والمياه الرملية. كنت أعاني من الإسهال ومن القيء الشديد، وكانت معاناتي فظيعة. جالت بخاطري فاكهة مصر الرائعة، وخصوصاً البطيخ، وجالت في فكري مياه النيل العذبة طيلة الوقت، وأدركت الآن حقاً توق الإسرائيليين لمصر خلال عبورهم الصحراء. وبينما كنت أتقيأ على ظهر البعير، كان رفيقاي يمتطيان صهوة جمليهما هادئين بشوشين يضحكان على ضعفي، أو على سوء قدرتي على تحمل شمسهم الحارة. إلى جانب ذلك كان علينا الإسراع حتى نصل إلى المياه في وقت أقصر وذلك رفقاً بأنفسنا وبجمالنا. لا أعتقد أنني ذقت من الآلام الجسدية أشد مما أذوقه الآن، ولا أعتقد أن محاولة وصف معاناتي ستُجدي أية فائدة. لحسن الحظ لم تدم النوبة المرضية إلا أربع ساعات، رغم أن حلقي ظل جافاً وظمئاً مدة طويلة، وعبثاً حاولت تهدئة الألم عن طريق شرب مائنا السيئ. وعند الظهر بدأت الرياح تهب، ولكنها كانت من الجنوب ومن الشرق. لقد كانت رياح السموم الساخنة، وكانت تهب وكأنها آتية من فرن ورشة زجاج. ولم تهب الرياح الشمالية الغربية إلا عند غروب الشمس فصار الجو بارداً. كان البدر تاماً تقريباً، وكانت ليلة من أجمل ما يمكن لليالي الشرق أن تكون، شعرت بالانتعاش وكأنَّ رياح بلدي تقوِّيني، وابتهجت تحت سماء الشرق، وفكرت بأن ليلة كتلك تستحق أن أذوق من أجلها عذاباً كالذي ذقته اليوم. ولكننا لم نبق إلا بضع ساعات في مخيمنا في وادي سرحان، حضرنا القهوة وسط شجيرات الرتن العطرة الرائعة وحضرنا العشاء. واصلنا الرحلة في برودة الليل حتى نصل إلى مكان المياه في

اليـوم الموالي. كانـت فكرة الوصول إلى الماء هذا المسـاء لكي نروي عطشنا ونستأصله مـن جـذوره فكرةً ساعـدتني على تحمل أعباء اليوم بمزاج جيد بعض الشـيء، رغم أنني لم أذق طيلة اليوم إلا بضع فناجين من القهوة التي كان ينبعث منها طعم مياهنا السيء.

وصلنا عند غروب الشمس إلى بئر صديع، ولكننا كنا لا نزال نخشى قطاع الطرق، ولذلك أزلنا الأحمال عن جمالنا على مسـافة لا بأس بها مـن البئـر قبل أخذها إليه لتشـرب. أخـذت كوبي القصديـري ولحقت بالجمـال. كانـت البئر محفورة عميقاً في تربة رمليـة وعرة، وكان البدو قد أشادوا بمائها طيلة اليوم. ملأت كوبي من الكيس الأول الذي أخرج مـن البئـر للإبل وشـربت، ولكـن يمكنك أن تتخيـل خيبة الأمـل التي شعرت بها منذ أول رشفة عندما تذوقت الماء فوجدته مراً رغم أنه كان صافيـاً، وهكذا تبـددت آمالي التي علّقتها طيلة لحظات اليوم السـاخنة للوصـول إلى المياه العذبة. لم أملأ كوبي مـرة ثانية لكنني وضعت كل آمالي في صباح الغد حين نصل إلى بئر الواسط الرائعة، ولكن طعم ماء بئر الواسـط كان مراً وسـيئاً هو الآخر، ولـم يكن حـال بئر صبيحاء التي وصلنا إليها في ما بعد أفضل من حال البئرين السابقين. وقد التقينا عند بئر صبيحاء هذا بخمسـة قطاع طرق جـاؤوا من الجوف، وبقوا هنا مدة سـبعة أيام في انتظار فريسة. ولكنهم كانوا من إحدى القبائل المتحالفة مع قبيلة الشـرارات، ولذلك فإنهم لم يكونوا يسـتطيعون نهبنا، بل إنهم انضمـوا إلينـا، وعـادوا معنا إلـى الجوف التـي وصلنا إليهـا يوم الأحد الخامس والعشرين من ماي بسلام، ودون أي مشكلات أخرى باستثناء العطـش الـذي عانينـا منـه. ولكـن رجـال قبيلة الشـرارات اسـتطاعوا تعويضنا عن معاناتنا. ذلك أن ثلاثة منهم روحوا عنا من خلال حديثهم المسـلي، ومزاحهم فيما بينهم، وأنشـدوا عـدداً لا يحصى من القصائد والأغاني، ولـم يكن يبدو عليهم التضرر من المياه سـيئة الطعم، ولا من

الرحلة المضنية.

دفاعاً عن نفسي، لا بد لي من الإشارة إلى أن الأماكن الموحشة بهذا القدر في شبه الجزيرة العربية قليلة جداً، ونادراً ما نسافر اثنتي عشرة أو أربع عشرة ساعة دون أن نستريح. كما أن في وادي سرحان العديد من الآبار ذات المياه الجيدة، ولكن الحرارة الشديدة هذا العام، وخاصة الآن والتي بدأت هذا الصيف، تسببت في شح العشب والمراعي، مما اضطر قبيلة الشرارات التي تتجول عادة هنا للانسحاب إما إلى الجوف أو إلى معان. ومن ثم فإن الآبار لم تستخدم، وبقيت المياه واقفة مما جعل طعمها يسوء أو يصبح مراً، ولذلك فإن تلك المياه التي كانت من قبل ذات مذاق ممتاز أصبحت الآن سيئة للغاية.

وفي الخامس والعشرين من مايو، وصلنا ظهراً إلى تلة تطل على منطقة الجوف كلها وعلى الجبال المحيطة بها. وكانت فرحتي لا توصف لرؤية شجيرات وأعشاب قصيرة وجافة بعد رحلة عشرين يوماً في الصحراء لم أر فيها إلا سهولاً رمادية أو سوداء. وهاأنذا الآن أتمكن من رؤية بساتين النخيل ذات الشكل نصف الدائري التي كانت تحتوي على آلاف الأشجار التي تتخللها بعض المباني ذات اللون الرمادي الذي يشبه لون الصحراء. وقد شعرت بذات القدر من الفرحة عندما وصلنا إلى منزل الشيخ، فتمكنت أخيراً من إرواء عطشي بالمياه العذبة، وملء بطني بأفضل أنواع التمور التي أكلتها في حياتي. عندما يصل المرء إلى بيت العرب، يستقبل دائماً استقبالاً حاراً ومضيافاً جداً، ويطعَمُ أفضل أنواع الطعام، ولكنه عندما يفارقهم لا يلاحظ أي نوع من أنواع الوداع تقريباً، بل إن المضيف قد لا يقول للضيف أي عبارة من عبارات الوداع عندما يركب الضيف على ظهر بعيره، على عكس ما يفعلونه عندما يفد عليهم، إذ يتم استقباله بالقبلات والكثير من المجاملات، ويذبح له خروف وما إلى ذلك. وهذا ما كان من أهل

الجوف الذين هم شبه حضر وشبه بدو، ولكنهم قد حافظوا على معظم العادات البدوية.

استقررنا في الجزء الأبعد من الجوف في ناحية الغرب في نصف الدائرة التي تشكلها المدينة عند المنحدر الشمالي للجبل الذي يشار إليه عموماً باسم الغرب. والشيخ الذي استقبلنا في منزله يسمى ابن أعيان بن كعيد. وكان ابنه أحد قطاع الطرق الخمسة الذين التقينا بهم عند بئر صبيحاء، ولكنه الآن أطعمنا في منزله بدلاً من والده الذي كان في جبل شمر في حائل في تلك الأثناء. كما يقيم ثمة الآن عبد الله أبو الرشيد، وهو شيخ وهابي تقع تحت سلطته الجوف، وشمر، والعديد من المدن العربية الأخرى إلى غاية المدينة وينبع.

كنت أواجه الآن باعتباري طبيباً أوقاتاً سيئة للغاية، وذلك لأن زنجياً زارهم هنا قبل شهر وادعى أنه طبيب يستطيع معالجة جميع أنواع الأمراض عن طريق فتح القرآن فقط. وقال لهم إنه كان متزوجاً من جنية، وبأنه عاش معها ست سنوات تحت الأرض، وحكم سبعين ألفاً من سلاطين الجن. وقد تمكن بهذا النوع من الكلام من خداع هؤلاء الناس البسطاء فاختلس منهم قرابة أربعمئة بياستر (أي مئة ورقة من فئة الروبل)، وهو ليس مبلغاً زهيداً هنا، غير أن أحداً لم يشفَ من مرضه. ولكن الناس اكتشفوا خداعه بعد أن استمر في هذه المهزلة الواضحة مدة ستة أسابيع، وكان كل يوم يعد المتعطشين للذهب بإخراج الكنوز التي لا تقدر بثمن، والمدفونة هنا في بلدهم منذ فجر المسيحية، والتي يحرسها الجان. ومن العجيب والغريب أنه لا يزال إلى الآن يقيم هنا بين ظهرانيهم، يعيش عالة عليهم بعد أن بدد أموالهم. وكان أكبر مبلغ حصل عليه هذا المحتال هو ثمانون بياستراً أخذها من أحدهم إضافة إلى قفطان يستر به أسماله. وبسبب هذا الرجل، الذي قال إنه مغربي، على الرغم من أنه كان أسود زنجياً، فإن الناس هنا اعتقدوا

أنني أنا أيضاً محتال مثله. ولذلك عانيت في الأيام الأولى من وصولي من العديد من الأسئلة المربكة بخصوص سنوات دراستي في الأزهر، وبخصوص أمور أخرى. إلا أنني سرعان ما تمكنت من إقناعهم بأنني لست مثل ذلك المغربي، وخصوصاً بعدما خلعت أكثر من نصف دزينة من الأسنان التي نخرتها التمور. ثم بدأت الحشود تتوافد علي كالعادة، وبدأت أفحص مختلف أنواع المرضى، مما حرمني من أية لحظات هادئة هنا أيضاً. وكان العرب الكسالى يستلقون على بطونهم ويسترخون في غرفتي طيلة اليوم يدردشون ويتسامرون. ولكنني الآن تعلمت وسائل أفضل للتخلص من مرضاي، فقد تعلمت من العرب عبارتهم التقليدية: غداً، إن شاء الله، والأفضل من ذلك، أنني لم أكن أقدم لهم أية خدمة دون مقابل. ومع ذلك فإنني كنت أعاني طيلة اليوم من رفقتهم، ومن حرارة الشمس الحارقة. ولكن في المساء كان عدد كبير من شبان القرية يتجمعون ويجلسون على الرمال، ينظمون وينشدون القصائد واحداً بعد الآخر على إيقاع عزف الربابة المتواضع، وكان ذلك يخفف عني وينسيني أعباء اليوم. ولكن لا بد لي من الاعتراف بأنني لم أكن أفهم مضمون القصائد لأنهم هنا يتحدثون لهجة غريبة عجيبة.

وهكذا قضيت في الغرب ستة أيام فرحة وحزينة في الوقت نفسه، ثم طلب مني شيخي أن آتي إلى الجزء الآخر من الجوف، إلى مدينة تسمى خذما لرؤية أحد المرضى. وهناك التقيت بأحد علية شيوخ قبيلة الرولة، وكان على فراش المرض بحاجة إلى مساعدة طبية. كان هذا الرجل لا يزال بكامل قوته، ربما يكون قد تجاوز الثلاثين بقليل، لكنه لم يحظ بوريث على الرغم من أنه اتخذ ست زوجات، وأنفق خيوله وجماله على المحتالين المتنقلين الذين كانوا قد وعدوا بعلاجه من مشكلته. وكان قد سافر منذ شهرين مسافة ستة أيام من نقرا السورية

حيث كان يحل ويرتحل مع قبيلته، وجاء إلى هنا لشراء التمور. وكان المحتال المغربي الذي ذكرته سابقاً قد خدع الشيخ، وأخذ منه ستين بياستراً، ووعده بأن يعالج عقمه خلال ثلاثين يوماً. ولكن وبعد أن مرت هذه المدة دون حصول الشيخ على مبتغاه، فإن مشكلته بدأت تضايقه مرة أخرى، وازدادت عنده مشكلة البواسير سوءاً، وتفاقمت على شكل طفح جلدي ودرنات وعجرات انتشرت في جسمه كله، وذلك راجع ربما لأنه غيَّر حياة الصحراء بترحالها بحياة الجلوس بهدوء في خيام الجوف. ولأنني أحببته مثلما أحببت مدينة خذما كلها، وخصوصاً خطيبها، أي الشيخ الإمام الذي بدا لي شخصاً مثيراً للاهتمام، وهو شيخ وهابي أرسله أبو راشد إلى هنا لكي يحث أهل هذه المنطقة على الصوم وأداء الصلاة واحترام الشعائر الدينية الأخرى، استجبت لدعوة الآخرين للانتقال إلى هنا حتى أكون على مقربة من المريض الجديد، وفي الوقت نفسه، حتى أتمكن من الإقامة بالقرب من الشيخ الوهابي الذي ذكرته آنفاً وبالقرب جماعته.

وهنا في مدينة خذما تغير مجرى حياتي. فالصلاة التي كنت قد أهملتها معظم الوقت في الغرب، أصبحتُ أؤديها هنا إماماً للمصلين خمس مرات في اليوم. في المساء الأول، عندما اجتمعنا على الرمال للاستمتاع بهذا المساء المنعش الرائع، سألتهم عما إذا كان هناك أحد يعزف على الربابة، فكان جوابهم: نحن مسلمون، ولسنا كسكان الغرب الكفار الذين لا يصلون ولا يصومون. وقد طلبتُ من شيخ وهابي يعرف القراءة والكتابة أن يصف لي ظروف الحياة في الجوف، ويقدم لي بعضاً من المعلومات الشحيحة التي لا تزال محفوظة في الذاكرة الشعبية عن ولادة المدينة وسكانها الأولين. ويقال إن ولادة المدينة حدثت في زمان سليمان، أو في رواية ثانية تتطابق إلى حد كبير مع الرواية الأولى، حدثت حوالي ثمانمئة سنة قبل ميلاد المسيح،

لم أسمع أبداً أي مسلم يستخدم مثل هذا التعبير الزمني من قبل. هنا، مثلما هو الأمر بين العرب عامة، نادراً جداً سماع الحكايات القديمة أو القصص التي تحكي عن أزمان ما قبل النبي محمد.

سرعان ما أصبح ذلك الشيخ خادماً متواضعاً لي، ربما لأنني وعدته بأن آخذه معي إلى القاهرة عند عودتي من مكة. وذلك لأنه يتوق إلى القاهرة مثلما يتوق التلميذ المتعطش للمعرفة إلى المدرسة، وذلك لأنه يريد الحصول على عدد من الكتب، ولمتابعة دروس الأزهر. حتى إنني أقنعته بأن يكتب لي بعض الأشعار البدوية الحديثة، فضلاً عن ترجمتها وشرحها لي، رغم أن عملاً من هذا القبيل لا يليق بإمام مسلم ورع في رأيه، ولكنه فعل ذلك من أجلي. وهو يحفظ القرآن عن ظهر قلب، ولكنه ليس على دراية لا بقواعد اللغة ولا بعلوم اللغة. ولكنه مع ذلك أفضل من التقيت بهم هنا، وقد شرح لي المذهب الوهابي بعض الشيء. غير أن المذهب الوهابي على ضوء شرحه ليس شيئاً جديداً، وذلك لأن الهدف منه هو العودة إلى الإسلام الأصلي ببساطته. ولكنه وقبل كل شيء، ينتقد بشدة متبعي غيره من المذاهب في أنهم يتخذون الأولياء والأنبياء وسطاء بينهم وبين الله. ولذلك فإن الوهابيين يعتبرونهم مشركين ووثنيين، ولا يفرقون بينهم وبين المسيحيين تقريباً. كما أنني لاحظت أن الوهابيين لا ينفرون من المسيحيين مثلما لاحظت في بقية المناطق.

وفي مقابل الخدمات التي أسداها لي الشيخ، علَّمته هو وبعض الطلاب الآخرين أساسيات الحساب، من قبيل العدّ، وسرد الأرقام فقط، وتعبت كثيراً في هذه المهمة. وقد استغربت كثيراً في أن العرب يجدون صعوبة في فهم العلاقات الرياضية على الرغم من أنهم يفكرون بسرعة وذكاء كبيرين. كما كنت أعتني طول الوقت بمريضي شيخ قبيلة الرولة. بدأ الطفح الجلدي يختفي، وبدأت آلام البواسير تخف كذلك،

ولكـن حرارتـه ارتفعت بعـد ثمانية أيـام وأصبحت تبدو عليه بأشـكال مختلفة ومتنوعة. وبقي مريضي طريح الفراش مدة أربعة أسابيع كاملة، وكان يتحسـن يوماً ويسـوء آخر فيشـكو من نوبات في القلب تارة وفي المعـدة تـارة أخرى، وغالبـاً ما كان قومه يخشـون أن يلقـى حتفه على فـراش المرض. وقـد أقلقني هذا جداً، وقضيت عدة ليال سـهراناً نادماً علـى أخطاء علاجية ارتكبتهـا. ولكن طبيعته البدوية الجيدة، وجسـمه الذي لم تفسـده الأدوية سـاعداه على التغلب على مرضه، وقد وعدني الآن بناقة نبيلة أجرة على مجهودي وأدويتي. وسـوف أسافر على ظهر هذه الناقة بعد عشرة أيام تقريباً، وأذهب برفقة الشيخ الوهابي إلى جبل شـمر للقاء عبد الله أبو الرشـيد، الحاكم الوهابـي الذائع الصيت الذي يحكم الجوف، وشـمر، والذي يمتد حكمه إلى المدينة تقريباً. يبدو أن علـيَّ صيـام رمضان أثناء مدة مقامي عنده. لا أعـرف حتى الآن إلى أي وجهة سـتأخذني رحلتـي، إما نحو الغرب مرة أخـرى مع الحجاج إلى مكة والمدينة، أو نحو الشرق إلى الخليج العربي.

وهاأنـذا الآن في جوف العالم كما يقولـون عن الجوف. معي قرابة خمسـين روبلاً فضية، وهو مبلغ متواضع، لكنـه ينبغي أن يكفيني لغاية نهايـة العام. بعد أن تعلمـت العيش من الضيافـة العربية وبعد حصولي على هذه الناقة، أتمنى أن أتمكن من توفير تلك المبالغ المالية التي كنت أدفعها في البداية. أما ما عدا ذلك، فإنني تمتعت بكامل الصحة والعافية طول الوقت، على الرغم من اختلاف أسلوب الحياة حسب نمط عيش القـوم الذيـن كنـت أنزل عندهـم وأعيش بينهـم. هنا في الجـوف، كان نظامي الغذائي هو أسـوأ نظـام غذائي عرفته في حياتـي كلها، حيث لم يكن يحتوِ إلا على التمور تقريباً. وبما أنني أصبحت أرفض أن أستيقظ قبل سـاعةَ من شـروق الشـمس لأداء صلاة الصبح، فإنني كنت أصحو مـع الشـمس، وأذهب إلى نبع خذما، وأغتسـل ثم أصلـي إذا كان هناك

أشـخاص آخرون عند النبع، وإلا فإنني لم أكن أصلِّ. كانت المياه نقية للغايـة وجيدة رغم أن حرارتها كانت تصل إلى تسـع وعشـرين درجة، ولكنهـا بعـد تبريدها في القـرب الجلدية تصبح مياه شـرب رائعة. ولم أكـن أعود من هنـاك إلا إذا جاء أحـد الأهالي يطلب مني ومن شـيخي الوهابي أن نذهب معه، ويأخذنا إلى منزله لتناول التمور كوجبة إفطار. هذه التمور كانت سـتكون في بلادنا أفضل وألذ حلوى تُجَمِّل المائدة، ولكنني هنا على اسـتعداد لاستبدالها بالبطاطا بكل سرور. فالتمور هي غذائـي الوحيـد طيلة اليوم وإلى غاية المسـاء، حين كنا نذهب إلى بيت أحـد مـا لنأكل نوعاً من العصيدة تشـبه تماماً عصيدة الشـعير عندنا، مع فـارق واحد أنها بـدون حليب ولا زبدة. كما أنهـم أحياناً يقدمون لحم الإبل مرة في الأسـبوع أو أكثر، وفي بعـض الأحيان يقدمون الخبز. أما القهوة فتقدم طيلة اليوم في الباحة، وباستمرار تقريباً.

كان الأهالـي الذيـن تشـق مياه نبع خذمـا بسـاتينهم يطعمون جميع الضيوف، وكثيراً ما كنا نجلس لتناول وجبة ما في جماعة تتراوح ما بين عشرة وخمسة عشر شخصاً في وقت واحد. وهذا النوع من الطعام ليس مغذيـاً ولكنه يملأ البطـن بحيث يظل منتفخاً طوال اليـوم. ولهذا النوع من الطعام تأثير سـلبي جداً على الأهالي، بحيث إنني لم أر أي شخص هنـا تقريبـاً لا يعاني من أحد أمراض الكبد، أو البواسـير، إضافة إلى أن لون بشرة الجميع هنا أصفر شاحب. لم ألاحظ آثار هذا النظام الغذائي السلبية عليَّ حتى الآن، ولكن بقائي هنا مدة أطول قد يكون أمراً ضاراً. بل إن الضرر قد حدث بالفعل إلى حد ما، وذلك لأن الناس هنا يعيشون حيـاة خاملـة جداً، ففـي البداية عندمـا كنت لا أزال خجـولاً، كان عدد كبير من الرجال والنسـاء يقضون وقتهم معي طيلة اليوم. وكانت النساء يتعاملن مع أزواجهن معاملة قاسـية، فيجلسن مع الرجال وهن يكشفن عـن وجوههن، ويدخـنَّ ويدردشـن. ولكنني الآن تعلمـت أنني عندما

أمل من رفقتهم، أصرفهم بكل بساطة: الرجال والنساء على حد سواء. وكان هذا هو السبيل الوحيد حقاً للحصول على بعض الهدوء الذي تمتعت به مؤخراً. ولكنني لم أتمكن من القيام بعملي إلا نادراً، وأعتقد أنني قد أصبت بعدوى الكسل المحلي، فضلاً عن أن الحرارة الشديدة لم تكن تلهم أحداً على العمل. حيث كانت درجة الحرارة تصل ظهر كل يوم إلى أربعين درجة مئوية. أما الصباحات الباردة، فكنت أقضيها عادة في علاج الشيخ المريض أو في رعاية المرضى الآخرين. في حين أن المساءات هي الوقت الذي يجتمع فيها جميع أهل القرية معاً للدردشة، وأنا لم أكن أريد أن أفوت فرصة كهذه للترويح عن النفس. وفي الليل يكون الظلام حالكاً، ويحلو النوم على الرمال الناعمة تحت سماء الشرق الرائعة، وأنا لم أكن أريد أن أحرم نفسي منه بالعمل.

اللغة هنا تكاد تكون مثل لغة القرآن تماماً. طريقة النطق ممتلئة ومبهمة قليلاً، كما ينطق الأطفال الصغار عندنا. طبع الناس بسيط جداً وطفولي، وليس لعوباً مثلما في المدن عامة. وخير دليل على ذلك هو أن الناس لا تعتبر كتاب ألف ليلة وليلة الذي لدي منه نسخة هنا، كتاباً ذا قيمة، ولكنهم يفضلون نمط قصص الحكمة القصيرة التي تحكى على لسان الحيوانات، ويحبونها حباً جماً. أما علاقتهم بالتجارة والمال ففيها غدر واشتهاء.

والشيء نفسه يقال عن التذلل والتزلف أمام أصحاب السلطة، ولكنهم من جميع النواحي الأخرى يتمتعون في سلوكهم بحرية كاملة. وهم يتعاملون في الأمور الدينية بحماس شديد، وخاصة فيما يخص أداء الصلاة وصيام رمضان، لكن مَثَلَهُم في ذلك مثل الفريسيين أكثر منه مثل المؤمنين الحقيقيين، تلك الصيحات التي كنت أسمعها في القاهرة باستمرار من قبيل ذكر اسم الله واسم عدد لا يحصى من الأولياء لا تسمع هنا إطلاقاً. والشيء نفسه بالنسبة للمجاملات، وإن

كانوا هنا أيضاً يمتثلون لشكل من أشكال آداب المعاملة، وكذلك الأمر بالنسبة للبدو.

وبما أن هؤلاء الناس وهابيون فإنهم ينتقدون التبغ بشدة، ويعتبرونه إثماً وحراماً، ويقدحون في المدخنين، ويسمونهم (شرابين). وعلى الرغم من ذلك فإن العديد من الناس هنا يدخنون. لم أجلب معي تبغاً من القاهرة؛ بل قررت الإقلاع عن التدخين بالمرة. وعندما كانوا يسألونني في البداية عن السعوط، كنت أجيب ببراءة تامة أنه يصنع من التبغ، ولكنني الآن تعلمت الرد بعبارة (الله أعلم)؛ فهي واحدة من العديد من العبارات التي تكفيك هم الإجابة، وتسكت السائل، والتي للعرب منها الكثير، وتنقذ من الآلاف من المواقف الحساسة ومن الأسئلة غير المرغوب فيها. ومن أفضل تلك العبارات وأكثر ما ساعدني على الخروج من عدد لا يحصى من المواقف المحرجة هي (كله نصيب)؛ فعند سماعها يسكت كل السائلين عادة، ويجيبون (هو صادق) أو بلهجة المحليين (هو صادتج). وعندما يسألونني عن وجهة رحلتي كنت أجيب (الله الميسر) أو شيئاً من ذاك القبيل. هنا في الجوف، كنت أرتدي ملابس البدو التي هي قميص فضفاض وطويل من العنق إلى الكاحل، وعلى الرأس (الكافية) العادية، وهي منديل سميك مستطيل الشكل، من نسيج به لونان الأحمر والأخضر، يطوى على شكل مثلث، ويربط على الرأس برباط عمامة صغير. وأنا أرتدي فوق قميصي قفطاناً.

من غير المرجح أن نصل إلى البصرة خلال هذه الرحلة، بل سأدخر زيارة تلك المدينة لرحلة أخرى أقوم بها عبر سوريا، ثم أسافر من البصرة إلى عمان والمهرة بحراً. ولكنني أعلم أنني أخطط هنا لرحلات المستقبل، دون أن أعرف إن كانت أجنحتي ستُقص قريباً. أرجو منك أن ترسل هذه الرسالة إلى والدتي وإلى كونراد رغم أن الأخبار التي

أسعفني الوقت لتجميعها فيها قليلة. وأتمنى أن تكونا جميعاً بخير وعلى خير.

ملحوظة: هذا أثر ختمي، وقد نقشت عليه العبارة التالية: توكل على المعطي عبده ابن ولي السعمي[1] (والسعمي هذه إشارة إلى فنلندا). كنت في البداية قد اخترت اسماً غير مناسب، لأن الولي هو صفة من صفات الله، وهو الاسم الذي يطلقه الناس عادة على الأولياء. ولذلك، فقد غيرته وأنا أعيش بين البدو باسم عبد الوالي، وهو اسم أطلقه علي الأهالي المحليون، وهو اسم مناسب جداً، لأن كلمة عبد غالباً ما توضع قبل إحدى صفات الله في أسماء الرجال.

(1) فنلندا باللغة الفنلندية هي سُوامي.

زيارة مكة والمدينة

في الثلاثين من شهر آب/ أغسطس سنة 1845، تابع والين رحلته من الجوف إلى جبة التي وصل إليها في الخامس من أيلول/ سبتمبر، وأمضى فيها أسبوعين تقريباً قبل أن يتابع سيره إلى حائل حيث يستقر الشيخ عبد الله ابن الرشيد، أهم شيخ بدوي في وسط الجزيرة العربية وقد وصل إليها في الواحد والعشرين من أيلول/ سبتمبر.

لعل أكثر المناطق إثارة لاهتمام الإنسان الغربي هما المدينتان المقدستان مكة والمدينة، فزيارتهما غير ممكنة، ورحلة جميع غير المسلمين إليهما تنتهي قبل بضعة عشر كيلومتراً خارج المدينتين.

في الواقع إن القرآن يحرم دخول الحرم المكي على المشركين فقط وليس على أهل الكتاب، كما ورد في الآية الثامنة والعشرين من سورة التوبة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾. ولكن تعميم تحريم دخول مكة على جميع غير المسلمين لم يأت على ما يبدو إلا في القرن السادس عشر، وذلك لأسباب اقتصادية على الأرجح. يبدو أن تجار التوابل الأوروبيين بدؤوا يحاولون الاقتراب أكثر من منتجي التوابل الأوليين، وكانوا يعتبرون مكة منطقة تجارية؛ إلا أن إغلاق هاتين المدينتين في وجه هؤلاء التجار لم يضمن للمسلمين السيطرة على تجارة التوابل. وذلك لأن بارثولوميو دياز أبحر حول رأس الرجاء الصالح، وفتح الطريق البحري إلى الشرق الأقصى في 1488، وبعد

مرور عشر سنوات أبحر فاسكو دي غاما إلى الهند، فَفتح بذلك الطريق البحري إلى جزر التوابل في وجه الأوروبيين.

ويعتبر الحج خامس أركان الإسلام. وتجب فريضة الحج مرة واحدة في العمر على كل مسلم يستطيع تحمل تبعاتها مادياً وجسمانياً. وإضافة إلى لقب الحاج، فإن هذا الأخير يحظى باحترام كبير في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

كان على كل من أراد زيارة مكة أو المدينة من غير المسلمين أن يقول بأنه يريد تأدية مناسك الحج. وهذا يستلزم معرفة طرق التعبد الإسلامية، وعادة ما يستلزم ذلك شيئاً من التمويه. زيارة هاتين المدينتين كانت تعد اختباراً للرجولة ومظهراً من مظاهر الشجاعة والدهاء. وقد نجا من تلك المغامرة المئات، وربما الآلاف، من المغامرين المجهولين، والقليلون فقط كتبوا عن تجربتهم.

وقد أثارت زيارة والين لمكة اهتماماً واسعاً لدى الأجيال الفنلندية التي جاءت بعده. وقد بولغ في أهمية زيارته تلك بالمقارنة مع باقي إنجازاته، وبُخِس عدد من زاروا المدينة من قبله. أما والين نفسه فيؤمن بأن من زاروا مكة قبله من الأوروبيين يُعَدون على أصابع اليد الواحدة غير أنه لم يذكر أسماءهم، ولو أنه كان يقرأ ما كتبه بوركهاردت في وصفه لرحلة حجه عام 1814.

وعندما زار الشهير بورتون مكة بعد ثماني سنوات من زيارة والين لها، كان مُطلعاً على زيارة سبعة آخرين، على الأقل، قبله. ويُعدد هوغرت، في الكتاب الذي نشره سنة 1904 بعنوان اختراق الجزيرة العربية، تسعة أسماء لأشخاص زاروا مكة قبل والين وكتبوا عن زيارتهم تلك. ونعرف اليوم أن عدد من زاروا المكان يفوق البضعة عشر على الأقل. وعلى الرغم من هذا كله، فإن مستشرقاً قديراً مثل كنوت تالكفيست ذكر، عندما كتب عن والين سنة 1903، أنه لم يسبق

والين إلى مكة إلا أوروبيان اثنان. وأكد ذلك جوران شيلدت في مقدمة كتابه «عين في الصحراء» الذي جمع فيه بعض رسائل والين ومذكراته ونشره سنة 1976. بل إن جريدة «أخبار اليوم» السويدية نشرت نقداً للكتاب المذكور عنونته كالتالي: «جورج أوغست والين: أول أوروبي في مكة».

لا بد أن فكرة الوصول إلى تلك المكانة الرفيعة والفريدة بسبب زيارة المدينتين المقدستين كانت تشجع والين نفسه، لكنه كان يدرك أيضاً أن تجربة تأدية مناسك الحج والحصول على لقب «حاج» سيدر عليه فائدة في الرحلات اللاحقة.

رسائل حررت في 3/29 وفي 8/29 وأرسلت من القاهرة إلى غيتلين

استأجرت كوخاً صغيراً بني في حديقة، وكنت أسكن فيه، وأحضر فيه الطعام برفقة درويش فارسي. ولأن الناس هنا يعيشون في مستوى مادي أعلى مما في الجوف، فإنني أنفقت بعض المال في شراء بعض الملابس، إذ إنني لم أستطع أن أمشي بين الناس مثلما كنت في الجوف، فلم يكن بإمكاني المشي حافي القدمين، بل اضطررت لشراء نعلين وملابس جديدة بدل قميصي الطويل الذي أصبح مجرد أسمال رثة. كما أن معدتي التي أرهقتها التمور كانت هي الأخرى تطالب بنظام غذائي مختلف. ذلك أنني كنت أعيش في الجوف على التمور والعصيدة حصرياً تقريباً ولم نكن نأكل هناك لحم الجمال صعب المضغ إلا أربع مرات تقريباً في الشهر فقط. ولكنني حصلت في حائل على لحم الغنم وجميع أنواع الخضروات، بحيث كنت أُقبِل على هذا الغذاء الذي يلائمني أكثر وآكله بنهم شديد مثل بدوي جائع. كما أن المناخ هنا صحي أكثر منه في أي مكان آخر، إضافة إلى أن الغذاء الجيد والماء العذب والهواء النقي عوامل جعلتني أتحسن كثيراً. أصبح باقي

العالم بالنسبة لي نسياً منسياً، وكنت أميل أحياناً لاقتراحات الناس المتكررة بالاستقرار والعيش هنا، واتخاذ زوجة منهم. وقد عرض علي أحد شعراء نجد الأكثر شهرة أن أتزوج ابنته، وهي غزالة عربية رشيقة في الخامسة عشرة من عمرها، ولكن الله أراد غير ذلك.

درست وضعي فوجدت أن زاد سفري بدأ ينفد، بحيث ينبغي عليَّ الإقلاع عن فكرة السفر عبر نجد كلها حتى الخليج العربي. فحتى لو كان معي من المال ما يكفي لسفري إلى غاية القطيف، أو حتى إلى البصرة، فكيف يمكن لي السفر بعد ذلك وأنا خالي الوفاض، بلا مال وبصندوق أدوية فارغ تقريباً؟

كانت لدي خطط كثيرة، من بينها العودة إلى مصر. ولكن الدرويش الفارسي بذل قصارى جهده لإقناعي بالذهاب إلى مكة للحج. وبعد أن تعارفنا أكثر، أخبرني عن ظروف حياته بمزيد من التفاصيل، وقال لي بأن والده كان رجلاً ذا مكانة عظيمة، لكن الإنجليز قتلوه في كابول، فأنقذ هو جزءاً كبيراً من كنوز العائلة، وحافظ عليها في بغداد حيث يعيش الآن في سلام مع أمواله، ولكنه يود الخروج إلى الحج سيراً على الأقدام كدرويش متواضع في سبيل الله. في الواقع ليست لدي رغبة في السفر بهذه الطريقة، ولا برفقة قافلة الحجاج، لأنني قد أتعرض للخطر، فلا أجني من رحلتي أية فائدة. ولكن الطرق المؤدية إلى أماكن أخرى غير آمنة أيضاً في هذا الوقت. وذلك لأن قطاع الطرق واللصوص والمحتالين يتجمعون على طول مختلف أنحاء الطرق التي يستخدمها الحجاج للسطو عليهم ونهبهم.

في منتصف تشرين الثاني / نوفمبر، وصلت قافلة من بغداد كانت تضم قرابة ألف وخمسمئة جمل، وعدداً كبيراً من الحجاج من كل حدب وصوب، معظمهم شيعة فارسيون، وعرب عراقيون. ولهذا قررت أن أذهب برفقة هذه القافلة إلى المدينة على الأقل. ومن هناك

يمكنني أن أحول وجهتي إلى حيث أريد بعد ذلك، إما إلى مكة أو إلى ينبع، ومن هناك، أتابع الرحلة بحراً. وبدأت رحلة القافلة من هنا في العشرين من تشرين الثاني / نوفمبر، وكانت رحلة شاقة ومُضنية، إذ اضطررت لأن أختبئ من أمير القافلة عبد الرحمن مساء (وهو ابن عم ابن الرشيد) حتى لا يطلب مني أن أدفع خمسين أو مئة روبل فضياً، لأنه طلب من الفارسيين مئتي روبل فضي ليأخذهم من مدينة مشهد علي العراقية إلى مكة ذهاباً وإياباً. كنا نمشي بخطوات سريعة طوال الرحلة، ولكننا لم نعان لا من الجوع ولا من العطش، لأن الأمطار الغزيرة جعلت الماء متوفراً في جميع الأنحاء. وقد رأينا بحيرات كبرى عديدة، بل وبعض الجداول الصغيرة الجارية ذات المياه الصافية والنظيفة جداً. وحتى الحرارة لم تعد خانقة كما كانت من قبل، على العكس من ذلك، فإننا كنا نرتجف من البرد ليلاً لأن درجة الحرارة في الليل كانت تنخفض إلى ثمانية تحت الصفر. وصلنا إلى المدينة بعد مسيرة ثمانية أيام، وزرنا هناك قبر النبي، وقبر خليفته أبي بكر وقبر ابنته فاطمة. إن المسجد النبوي، أو حرم الرسول، هو أكبر وأجمل مسجد رأته عيناي؛ على أرضيته سجاجيد رائعة. أما المياه التي تعد ثمينة في جزيرة العرب فهي متوفرة في المدينة وبوفرة. ولكن المدينة نفسها لا تعدو أن تكون مجرد مدينة صحراوية صغيرة.

وهنا كنت في حيرة من أمري مرة أخرى، لا أعرف إلى أين أتجه. فمن جهة، كنت متعباً جداً وضَجِراً للغاية من أعباء رحلة القافلة المُضنية. ومن جهة أخرى، سمعت بأن الطريق إلى ينبع يعج بقطاع الطرق، وهكذا فإن عبوره يقتضي الانضمام إلى قافلة كبيرة. كما لا يمكنني أن أبقى في المدينة ومحفظة نقودي فارغة. ولذلك كان عليَّ مواصلة رحلتي إلى مكة مع القافلة التي بدأت رحلتها بعد أن ارتاحت يوماً واحداً. وفي ظهيرة يوم السبت، التاسع والعشرين من

تشرين الثاني / نوفمبر، غادرنا المدينة، ووصلنا في المساء إلى قرية صغيرة تسمى الأحساء تقع على مسافة خمسة كيلومترات من المدينة. وهناك، لبسنا ثوب الإحرام، وهو قطعتان من القماش طولهما يتراوح بين ثمانية وعشرة أذرع، يأتزرُ الرجل بأحدهما ويرتدي الآخر بحيث يلقيه على عاتقه. ولا يجوز استعمال أي لباس آخر عدا الإزار والرداء، لا غطاء رأس، ولا حذاء، حيث لا يرتدي الحاج إلا نعلاً إذا لم يكن يحبذ المشي حافياً. وقبل ارتداء ثوب الإحرام، استحم الجميع (اتباعاً للسنة النبوية) في بركة صغيرة من مياه الأمطار الصافية، واستغرق ذلك المساء كله. قضينا هنا ليلة قلقة جداً مثل باقي ليالي الرحلة، وذلك لأن قطاع الطرق البدو كانوا يختبئون في كل مكان لسرقة ما يمكنهم أن يسرقوه. والغريب أنهم كانوا في كثير من الأحيان يتمكنون من سرقة جمال جاثية على ركبتيها بجانب أصحابها. واليوم أيضاً كان بعض قطاع الطرق قد تسللوا إلى المخيم عند الغسق، وأخذوا معهم حوالي عشرة جمال، ومشوا بها مسافة طويلة في السهل قبل أن يكتشف أصحابها السرقة. وهكذا دبت الحركة في المخيم، فهب الرجال مسلحين، واقتفوا أثر قطاع الطرق، وأدركوهم عند سفح الجبل، وأعادوا الإبل المسروقة بعد تبادل إطلاق النار من كلا الجانبين. وكان هذا يحدث كل ليلة تقريباً، فكل ليلة يتم إطلاق النار إما على قطاع طرق حقيقيين أو وهميين.

وعند شروق شمس صباح اليوم التالي، لما غادرنا الأحساء وصعدنا إلى أعلى تلة صغيرة، صار الجميع يرددون تلك الكلمات التي رددوها وهم يلبسون ثياب الإحرام البيضاء الجديدة وهي (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لاشريك لك). كان الكثيرون يرددون بعد التلبية بعض الأدعية الأخرى بنشوة عارمة جعلتني أنضم إليهم بالترديد. تحررت الآن من حيرتي وترددي،

ولـم يعد أمامي أي طريق آخر غير السـفر مباشـرة إلـى مكة مهما يكن، ولذلك رددت التلبيـة مع الآخرين من صميم القلب والحنجرة: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لاشـريك لـك). كان منظـر قافلـة الحجـاج الآن غريباً جـداً، فالجميع يرتـدون الملابس نفسـها، ولذلك فإن المثل القائل بـأن «الناس تُعرف من ملابسـها» لم يكن صحيحاً في هذه الحالة، فذلك الدرويش، الذي لم يكن فيه ما يثير الاهتمام إلا ملابسه الرثة، يمشي الآن جنباً إلى جنب مـع رجل غنـي كان الناس من قبـل يعجبون بعمامته الفخمة، أو بشـاله الكاشـميري باهـض الثمـن، فأصبح من الصعـب للمـرء أن يعرف مَنْ مِنهما الدرويش ومن الغني.

كمـا كان منظر الرؤوس المحلوقة مثيراً للاهتمام بالقدر نفسـه، ولو كان بونسـدورف هنا، لكان قد سـجل ملاحظاته علـى تلك الجماجم، وحلل من خلالها شخصيات أصحابها. من جهتي صرت بعد أيام قليلة مـن التدرب أسـتطيع أن أفـرق بين الـرؤوس الفارسـية والعربية، وبين رؤوس أهـل العـراق ورؤوس أهل نجد دون صعوبـة بمجرد النظر إلى شكل جماجمها. ولكن المرء يمل من كل شيء يتكرر باستمرار. تعبت جـداً من العبـارات التي تردد باسـتمرار، وسـئمت من منظـر الرؤوس العاريـة. وبـدلاً من ذلك، سـعدت بمنظر البحر الذي مشـينا على طول شـاطئه بضعـة أيام، ولو أننا كنا على بعد مسـافة غير قصيـرة منه؛ فهواء البحـر المالـح المنعش الذي اعتـدت عليه منذ نعومـة أظافري، والذي حرمت منه الآن مدة سـنتين، أنعشـني بشـكل لا يوصف. أصبح السفر في ثوبنا الجديد شـاقاً حقاً حيث كنا خـلال الليل نرتجف برداً، ونعاني خـلال النهـار من أشـعة الشـمس الحارقة التي تسـلخ رؤوسـنا العارية لدرجة ظهور تقرحات جلدية عليهـا. وعندما غادرنا الحجاز، ارتفعت درجـة الحـرارة، ولـم نعد نتبلل مـن الزخـات المطرية التـي ما برحت

تتهاطل علينا طيلة رحلتنا، ولم نعد نعاني من البرد في الليل.

وصلنا إلى مكة في السابع من كانون الثاني / ديسمبر عند الزوال. وقد نزلت في كوخ من القش مع المجموعة المرافقة لي، والمتكونة من أربع رجال وامرأتين، ودفعنا قرابة خمسة روبلات فضية مقابل السكن مدة أربعة عشر يوماً. كانت أول مهمة قمنا بها هي زيارة المسجد الحرم الواسع مثلما يفعل الحجاج عادة. غسلنا أثواب إحرامنا التي اتسخت في الطريق الطويل في قرية وادي فاطمة الصغيرة التي تبعد عن مكة بمقدار بضع ساعات، وتوضأنا في نبعها الدافئ، ومن ثم فإن الاغتسال لم يتطلب منا مجهوداً خاصاً. ذهبنا إلى المسجد، وتوقفنا عند بوابته أمام فناء مستطيل كبير ورددنا عبارة: (اللهم إن البيت بيتك، والحرم حرمك). ثم ذهبنا إلى مقام إبراهيم، وصلينا ركعتين هناك، ثم حان بعد ذلك وقت الطواف حول الكعبة سبع مرات. وكان ثمة شيخ يطوف بنا، ويردد عبارات وأدعية تطلب من الله أن يقبل منا الحج، رددناها وراءه ونحن نحاول أن نتقدم إلى الأمام وسط الحشود الغفيرة يمسك بعضنا بأيدي بعض بشدة. وفي كل مرة كنا نمر فيها بالركن اليماني، أي بالركن الجنوبي من الكعبة الواقع في اتجاه اليمن، كنا نمسح على الجزء الحديدي منه بأيدينا ثم نمسح على وجوهنا. وفي الطواف السابع والأخير، توقفنا عند الركن الشرقي الذي يوجد فيه الحجر الأسود. وكانت الحشود تحاول طيلة الوقت تقبيل الحجر الأسود الصغير الخشن الذي تم غسله بماء الياسمين. وعلى باب الكعبة، القريب من الزاوية الشمالية الشرقية للبناء، وقف عدد من العبيد السود الذين كانوا يمسكون بسياط جلدية يجلدون بها الحشود بقسوة كلما كثر عدد المتهافتين على الحجر الأسود. ومع ذلك فقد تمكنت مرات عديدة من تقبيل الحجر الأسود دون أن تصيبني أية جلدة. ويقال إن ثمة من يسرقون الناس في هذا المكان، فقد أكد بعض الناس أنهم وقعوا

ضحايا سرقة، وهم يقبلون الحجر الأسود. ثم ذهبنا إلى عين قريبة تسمى زمزم، وهناك أعطينا بعض النقود للعامل على البئر حتى يسحب لنا منها دلواً من الماء، وهكذا تمت أول زيارة تشرفت بها في بيت الله.

والآن ينبغي السعي بين الصفا والمروة الواقعتين بين التلال القريبة من المسجد. ويمر بين هذين الصخرتين المقدستين شارع بحجم شارع المتنزه في هلسنكي، ينبغي الجري على طوله ببطء مع ترديد بعض العبارات أو الأدعية، أو الجري في صمت. والسعي سبع مرات، وينبغي التوقف في كل مرة عند الصفا وعند المروة، والصعود قدر قامة عند كليهما لترديد الأدعية، أو للاستماع إليها من فم الآخرين، إن لم تكن مألوفة. ومسار السعي غاص بالحشود لدرجة أن على المرء أن يكون حريصاً جداً حتى لا يقع من شدة تدافع الناس. رأيت الكثير من الوجوه الدامية التي كان أصحابها قد سقطوا وجرحوا. وهكذا أتيت إلى نهاية الطقس الأول، ولكن هذه الطقوس تتكرر مرات عديدة بعد ذلك، والعديد منها تُكرر كل يوم.

وفي اليوم التالي أي في الثامن من كانون الأول / ديسمبر، ذهب الحجاج في أول الليل فرادى إلى منى التي تبعد عن مكة بأقل من خمسة كيلومترات، وقضوا الليلة هناك. ومنى واد كبير مستطيل الشكل تحيط به الجبال، وفي كلا طرفيها ما يشبه مدينة صغيرة، قفرة وغير مأهولة إلا خلال الأيام التي يقضيها فيها الحجاج هناك. وفي صباح اليوم التالي، ذهب الجميع إلى الوادي الكبير الذي يقع فيه جبل عرفات. وكان الجبل الآن شامخاً في حلته الخريفية الخضراء الجميلة جداً. وهناك، استقرت المجموعات تحت ظلال الشجيرات لتحضير الفطور. يفرح العربي فرحاً عارماً بتحضير طعامه بنفسه عند السفر، وهو لا يدع زوجته ولا أية امرأة أخرى تقوم بهذه المهمة طيلة الرحلة. وبعد انهماك الجميع في مثل هذه الانشغالات لغاية منتصف النهار، صعدوا إلى التلة الصغيرة

القريبة من جبل عرفات، وانتظروا موعد صلاة العصر هناك. وعند حلول موعد صلاة العصر، ركب الجميع جمالهم وتوجهوا إلى الجبل وبقوا جالسين في الصحراء هناك بلا حراك حتى غروب الشمس. وعرفات جبل منخفض له قمتان، وهو مملوء بالحصى مختلفة الأحجام. ويوجد بناء يشبه البرج في أعلى الجبل يسمى المنبر، يقرأ الإمام الخطبة منه، رغم أن الكثيرين لا يتمكنون من سماع ولو كلمة واحدة مما يقوله. وكان هذا هو الحدث المتوِّج للرحلة كلها، التي جاء من أجلها آلاف الناس من أقاصي الأرض: يتعلق الأمر بالوقوف، أو الوقفة بعرفات.

وأخيراً عندما أعلنت طلقة المدافع عن غروب الشمس، انطلقنا جميعاً عائدين، دون أي نظام. وكان أبناء قبيلة شمر وغيرهم من أبناء نجد في طليعة الركب على صهوات جمالهم السريعة، وقد كنت من بينهم، ونادراً ما عانيت على صهوة مطية بهذا الشكل. فانطلاقة الجمل وحدها تهز الجسد هزاً، فما بك بالجمل عندما ينطلق في عدوٍ سريع. إن عَدْو الجمل بمثابة زلزال حقيقي ساحق وخطير على قليلي الخبرة. ورغم أنني لم أتزحزح عن سرجي، إلا أنني خشيت أن يتعثر جملي في حلكة المساء مثلما حدث للعديد من الجمال. كما أنني خشيت على جسدي الذي أضنته الرحلة بالكامل وأرهقته، خاصة بعد أن زُلزل الآن بشكل جعلني أحس بأن أعضائي ستنفصل عنه. لحسن الحظ، لم يدُم عَدْو الجمل إلا أقل من ساعة، ووصلنا إلى المزدلفة حيث سَبَيت الحجاج. هنا جمع كل حاج قرابة سبعين حصى صغيرة قبل ذهابه إلى النوم. رجاءً أخْبِرْ إمام التتار الفنلندي أنني سأحضر له زجاجة من ماء زمزم، وبعض حجارة المزدلفة. وفي اليوم التالي عدنا إلى منى، حيث كان علينا أن نذبح أضحية ونوزع لحمها على الفقراء. وبالإضافة إلى هذه الأضحية، نحر الكثير من الناس الماعز والأغنام وطهوا لحومها

ويبّسوها تحت أشعة الشمس ليتزودوا بها في الأيام التي سيقضونها في مكة.

وبعد ذلك خلعنا ثياب الإحرام ولبسنا ملابسنا العادية، وبدأت أيام التسوق التي تشكل للكثير من الناس الهدف الرئيسي من هذه الرحلة كلها. نشر الناس بضائعهم في المتاجر الصغيرة أو على الأرض في الساحة المفتوحة. وكانت البضائع المعروضة من كل أنحاء العالم، ولكنها كانت تفتقر لذلك الغنى والتنوع الذي كنت أتوقعه، أو الذي رأيته في أسواق القاهرة أو القسطنطينية. ومع ذلك فقد استمتعت بالتجول والتفرج على ممثلي مختلف الشعوب الذين تدفقوا إلى هنا من أقاصي الأرض. قضينا العاشر، والحادي عشر والثاني عشر من كانون الأول / ديسمبر في منى، ولم تكن إقامتي فيها مريحة، إذ لم يكن لدينا خيمة، وكانت الشمس تلسعنا طيلة اليوم، فيما كان المطر يبللنا بالكامل ليلاً. بالإضافة إلى أعداد الذبائح الهائلة التي فاحت منها رائحة كريهة، فضلاً عن انعدام النظافة في المكان، وهو أمر لا يمكن للمرء تصوره ما لم يره بأم عينيه. وفي الليلة التي ما بين الحادي عشر والثاني عشر من كانون الأول / ديسمبر، أطلقت طلقات المدافع والصواريخ وغيرها، لتتويج الفرحة وإعلان انتهاء الحج.

وفي الثاني عشر من كانون الأول / ديسمبر، بدأنا رحلتنا إلى مكة، حيث بقي معظم الحجاج فيها أربعة عشر يوماً إضافية، بهدف التجارة غالباً. لم يكن معي من المال عند عودتنا إلى مكة إلا روبل فضي ونصف، ولذلك فإنني كنت مجبراً على المغادرة. مكثت بضعة أيام فقط كي ألقي نظرة فاحصة على مكة وعلى المسجد الحرام. وقد بدا هذا المسجد فريداً من نوعه، ومختلفاً عما يراه المرء عادة في بلاد الشرق، فهو مبني بأنماط متعددة تميل إلى الطراز الهندي الصارخ أكثر ما تميل إلى الطراز العربي الحقيقي. توجد رائحة كريهة هنا وفي

المدينة كلها، ويسود انعدام النظافة، وذلك لأن الجبال العالية تحيط بالمدينة مما يحولها لمكان مغلق من جميع الجهات. وتصادفك هنا وهناك جثة حمار أو جمل أو حصان. ولكن المسجد كان بمثابة نقطة مركزية تدور حولها جميع الأحداث، وقد قضيت معظم وقتي فيه. كان الطواف حول الكعبة في نظري احتفالياً جداً، خاصة وأن الناس كانوا يطوفون على شكل دوائر، وليس في صفوف كالمعتاد في الصلاة.

وكانت أروقة الأعمدة تغص ليلاً بالنائمين من الدراويش أو غيرهم. ولكن وعلى الرغم من كثرة الحشود، إلا أنني لم أشاهد في المسجد ازدحاماً شديداً على الإطلاق إلا عند الطواف بالكعبة أو عند تقبيل الحجر الأسود. وفي الخامس عشر من ديسمبر، ذهبت إلى مكة لتوديع المسجد بتكرار الطقوس الأولى مرتدياً ثوب الإحرام كما يفعل الحجاج.

أنا الآن مسرور وراض عن رحلتي لأن كل شيء مر أحسن مما كنت أجرؤ على تمنيه. وقد أديتُ جميع مناسك الحج التي ينبغي للحاج المسلم تأديتها في مكة والمدينة. ولكنني لا أنفي أنني كنت أعاني من قلق شديد، وخوف مروع طيلة الرحلة. لم أمكث في مكة مدة طويلة بسبب خوفي الشديد وبسبب وفاضي الخالي، إضافة إلى الدمامل وبعض الحمى التي ضايقتني كثيراً. وكنت أعلم من قبل بأن أي ضعف جسدي بسيط قد يتحول في جو مكة شديد الحرارة إلى مرض قاتل، وهذا ما كنت أراه يحدث هنا يومياً. ومع ذلك فإنني أديت جميع مناسك الحج وأصبحت أستحق لقب (حاج) عن جدارة. وبالإضافة إلى ذلك، يمكنني أن أفتخر بكوني واحداً من الأوروبيين الثلاثة أو الأربعة الذين تجرؤوا على القيام بهذه المغامرة، كما أعتقد أن الرحالين اللاحقين سيجنون فائدة حقيقية من تجربة الحج التي خُضْتُها.

وصلت إلى جدة في منتصف ديسمبر، وفي جيبي قرابة خمسة

وأربعين كوبيلاً (لاحظ سعر صرف الروبل)، ولكنني لحسن الحظ حصلت هناك على المال الذي أرسل لي من القاهرة مع تاجر يوناني. اضطررت للبقاء في جدة مدة شهر تقريباً. وكنت خلال هذه المدة أروح عن نفسي من خلال التفرج والدردشة مع جميع أنواع الناس الذين تدفقوا إلى هنا الآن بعد انتهاء الحج للعودة إلى بلدانهم عن طريق البحر. وباستثناء أوروبا، ليس هناك بقعة من العالم ليس لها من يمثلها هنا. ما أكثر اللغات المختلفة التي يسمعها المرء هنا، وما أكثر مخارج الحروف الغريبة، والغنية الرنانة! ولأنني كنت أرتدي ملابس درويش رثة، وأنتعل نعلاً قديماً أصفر، فقد استمتعت أكثر برفقة الدراويش الذين كانوا هنا بأعداد كبيرة، وخصوصاً من بلاد فارس ومن مختلف بلدان الهند.

وأخيراً وجدت عبَّارَةً جيدة إلى حد ما، وركبت على متنها برفقة درويش فارسي جديد من كابول سيسافر معي باعتباره خادماً لي ورفيقاً لسفري. أما صديقي الفارسي القديم فقد ذهب في اتجاه آخر نحو البصرة. استغرقت رحلتنا من جدة إلى السويس ستين يوماً كاملة رغم أن هذه الرحلة لا تستغرق بالباخرة إلا ثلاثة أيام. كنت أشعر خلال هذه الرحلة بالبرد الشديد وبالضجر القاتل، كما أنني كنت أشعر بالخوف كذلك، ليس من البحر، وإنما من قلة خبرة البحارة العرب ومن طريقة إبحارهم الخرقاء، وكذا من التلال الرملية التي لا تعد ولا تحصى، والتي تمتد على طول الساحل، والتي كنا نحتمي بها ووراءها كل ليلة، وكنت أخشاها أكثر مما أخشى عواصف أعالي البحار وأمواجها. لكن الله يحمي السفهاء، وقد انحفرت حكمة العرب القائلة بأن المكتوب ما منه مهروب نوعاً ما في ذهني الآن. كنت أبقى مستلقياً في المقصورة أجُرُّ حبال الصبر، وأحتسي قهوة الحلم وأردد عبارة لا إله إلا الله دون القدرة على لمِّ شتات أفكاري. كنت أتمنى لو أنني استطعت قضاء

وقتي في الكتابة، وفي تحرير رسـالة مفصلـة لك، ولكنني كنت محاطاً بثمانيـة شـيوخ متشـددين من مكـة، لم يذكـروا المسـيحيين إلا ودعوا عليهـم بلعنة الله. كمـا كان رفيق مقصورتي فقيهاً مغربيـاً وقوراً، وكان معنـا كذلك مسـلمان يونانيان من جزيـرة كريت، بالإضافـة إلى رفيقي الدرويـش الفارسـي. وأخيـراً وصلنا إلى السـويس وحمدنـا الله على وصولنا إلى وجهتنا سـالمين. وكانت عبّارتـان انطلقتا معنا من جدة قد غرقتـا. وهذا عـدد قليل، لأن الناس أكدوا لي بأنه نـادراً ما تغرق خلال السنة الواحدة أقل من ست أو ثماني أو عشر سفن، ويغرق معها ثلاثمئة أو أربعمئة من الركاب. وبعد أن نلنا قسـطاً من الراحة في السـويس مدة ثلاثة أيـام، بدلنا العبارة بسـفينة الصحراء، واسـتقليناها متوجهين نحو بيتي الشرقي: القاهرة، حيث استقبلني فيها شيخي وغيره من الأصدقاء استقبالاً حاراً في الرابع عشر من مارس [1846].

ضيق ذات اليد والرحلة الصحراوية الثانية

كان والين يفكر في كيفية تمويل إقامته في الشرق الأوسط لغاية آخر سنة 1848 قبل أن يشد الرحال إلى الصحراء للمرة الأولى. فقد قدَّر أن المنحة التي حصل عليها ستكفيه لغاية سنة 1845، وكان قد بعث رسالة إلى القاهرة سأل فيها غيتلين أن يتحرى ما إذا كان في استطاعة الأصدقاء في هلسنكي جمع ستمئة أو سبعمئة روبل فضية يعيش بها لغاية نهاية 1846 حيث يمكنه حينها طلب منحة السفر التي تُعلن عنها الجامعة كل خمس سنوات. وعندما رجع من مكة، وجد ألف روبل فضية بانتظاره في القاهرة كان غيتلين بالفعل قد تركها له.

وفي فاتح آب/ أغسطس، وقبل آخر أجل لتقديم طلبات منحة السفر (نهاية تشرين الأول/ أكتوبر 1846)، قدم والين طلب المنحة إلى القنصلية الروسية في القاهرة. وبما أن البريد كان بطيئاً وغير مضمون فإن والين أرسل نسخة من طلبه عبر القنصلية ذاتها ولكن شاءت الصدف أن الرسالتين كلتيهما بقيتا في مكاتب وزارة الشؤون الخارجية في سان بيترسبورغ ولم تصلا إلى هلسنكي حتى بداية شباط/ فبراير 1847. ولكن ولحسن حظ والين، فإن لجنة المنح بالجامعة راودها الشك فيما إذا قد تم الإعلان عن طلب المنحة كما ينبغي أم لا، فأعلنت عن فتح باب الطلبات مرة أخرى في شهر شباط/ فبراير وبذلك استطاعت اللجنة النظر في طلب والين.

بدأ والين طلبه بوصف لرحلته الصحراوية وذكر أنه أصبح على دراية أكبر بلغة القوم وسماتهم، كما ذكر كذلك أنه حصل على معلومات جغرافية وأخرى عامة مفيدة وجديدة غير أن الرحلة لم تكن إلا محاولة

أولى وتجربة تُهيؤه للرحلات المقبلة الممكنة.

«أما عن تلك الرحلات التي أريد أن أقوم بها في السنوات المقبلة، فإن أغلبها سيكون إلى المناطق الداخلية لجنوب شرقي جزيرة العرب ونجد. [...] وحسب ما أخبرني به القنصل الفرنسي فرسنيل يوجد في المهرة، التي لم يزرها ولا أوروبي واحد حتى الآن، عدد كبير من الآثار والمنقوشات بلهجة اللغة الحميرية القديمة التي لم يسبق له معرفتها من قبل. لأتمكن من القيام بهذه الرحلات، ينبغي أن أغير مكان إقامتي من القاهرة إلى البصرة. لعل الوصول إلى تلك المناطق يكون أسهل عن طريق الخليج العربي. زيادة على ذلك، فإن كل من يأتي من القاهرة مباشرة إلى جزيرة العرب يثير شكوك سكانها. فالوهابيون يعرفون تمام المعرفة ما يسود في مصر من نزعة تحررية فيما يخص الأمور الدينية، وهم يستنكرون ذلك كما يستنكرون أفكار كل من يختلف عنهم في الاعتقاد. لهذا السبب، سأذهب في بداية السنة القادمة إلى دمشق عبر القدس، ومن ثم إلى بغداد والبصرة عبر الصحراء وأقاليم البلقان ونقرة الشام المجهولة. وسأزور من هناك (إقليم الأحساء المشهور بثرائه وبإبداع شعبه الفني إلى الآن، ثم أزور المناطق المتاخمة لنجد. وسوف أقطع الصحراء إلى عمان ومنها إلى المَهرة إن سمحت لي الظروف بذلك، وإلا سأعود إلى البصرة وأتابع طريقي بحرا إلى مسقط أو إلى مدينة من مدن عمان الشاطئية. لعله من الضروري الإقامة مدة أطول في مدينة المهرة ولو أنني لا أعتقد أنه بإمكاني تقدير مدة الإقامة مسبقاً. سأرحل بعد ذلك من هناك إلى صنعاء عبر مرتفعات الأحقاف لكي أسد الفراغ الذي تركه السيدان أرنود وڤريدي السنة الماضية (ربما سنة 1843) في رحلتهما في اليمن. بعد ذلك أتبع الطريق الذي يؤدي، حسب ما وصل إلى سمعي، مباشرة من وسط الصحراء عبر وادي الدواسر إلى الرياض حيثُ يسكنُ سَيِّدُ النجد فيصل ومن ثم أتبع طريق الحج إلى الحجاز. وهكذا أكون باتباع خط سير مثلث الشكل قد زرت

أهم أقاليم جزيرة العرب حتى يتسنى لي تحديد أماكن هذه المناطق بالنسبة لبعضها البعض بأكبر دقة يمكن الحصول عليها في غياب الرصد الفلكي. وبما أن هذه الرحلات ستستوجب الوقت والمال الذي ستقدمه الجامعة القيصرية، فإنه سيكون علي فيما يبدو العودة إلى أرض الوطن بعد الوصول إلى الحجاز.

لم يطلب المنحة هذه المرة، بالإضافة إلى والين، غير باحث واحد هو: «ك. ف. فون فيلبراند» المساعد في قسم الطب السريري. رغم أن مجلس المنح كان يُقدِّر إنجازات والين ويثمنها إلا أن عشرة من أعضائه صوتوا لصالح فون فيلبراند فيما صوت السبعة الباقون لصالح والين. وكان أهم دافع لتصويتهم ذاك هو أن والين كان قد حصل على منحة السفر مرة وأنه سيكون من الجور أن يتمتع وحده، ولمدة عشر سنوات، بمنح السفر القليلة التي توفرها الجامعة.

كان أكثرُ معارضي حصول والين على منحة السفر شدةً من المصوتين على فون فيلبراند هو عالم اللغة اللاتينية ج. ك. لينسين الذي أثنى على مرشحه وانتقد بشدة شخص والين وإنجازاته. وذكر أن رحلة فون فيلبراند رحلة علمية محضة تتطلب بحثاً حثيثاً وجاداً وأنها لا ترتبط بالخيال ولا بأحلام اليقظة، ولا بأي شيء يتعلق بطبيعة شخصية تميل إلى المغامرة. وكان أكثر المدافعين عن والين هو البروفيسور نرفاندر الذي كان يعتقد أن رحلات الاستكشاف في شبه الجزيرة العربية، لأهميتها وصعوبتها، تضاهي تماماً في قيمتها رحلات الاستكشاف في إفريقيا، أو رحلات اكتشاف الطريق البحري الشمالي، التي كانت ذات شعبية كبيرة آنذاك. إلا أن إنجازات والين لم تكن لتصمد إذا ما قورنت بإنجازات كارستين نيبوهر أو فورسكول أو بوركهاردت.

يبدو، من خلال مراسلات من عاصروا لينسين، أن الكثيرين في الأوساط الجامعية كانوا يشاطرونه الرأي؛ إذ إن هيرمان شيلغرين، الذي خلف والين كبروفيسور للغات الشرقية، كتب رسالة للبروفيسور ج تنغستروم في نيسان/ أبريل 1848 يقول فيها:

سيغيب كاسترين ووالين لسنوات. ماالذي يفعله والين بحق السماء؟ من يعرف! لا بد أنه كان يفعل شيئاً ما طيلة هذه السنوات. ولكن، لماذا لا يبدي من عمله شيئاً؟ من حق الجامعة، التي صرفت على رحلته عشرين ألف روبل، أن تطالب بنتائج ملموسة لهذه الرحلة.

فأجاب تنغستروم قائلاً:

أشاطرك الرأي فيما يتعلق بوالين. إن مَرَدَّ عدم توافرنا على نتائج ملموسة لرحلات والين ليس توخيه الدقة بقدر ما هو اهتمامه أكثر، وربما فقط، بالمغامرات وبمحاولاته المفعمة بروح المخاطرة مرة تلو الأخرى، وبالبطولة الفارغة من أي فحوى أو هدف.

توجهت رحلة والين الصحراوية الثانية صوب صحراء سيناء وفلسطين وسوريا. وفي السابع من كانون الأول/ ديسمبر 1846 سافر إلى القاهرة واتجه إلى دير القديسة كاترين ووصل إليه في الثامن عشر من الشهر نفسه. كان قد طُلب منه، عندما كان في هلسنكي، الاطلاع على بعض الكتب القديمة المحفوظة في الدير، ولذلك فقد أنفق بعض السويعات للتعرف على بعض المخطوطات العربية به. كانت المكتبة في نظره كإسطبل فسيح بكتبها الممزقة البالية المغبرة وكانت السويعات التي قضاها فيها بالنسبة له مضيعة للوقت.

قبل ذلك ببضع سنوات فقط، كان الألماني كونستانتين تيشندورف قد وجد في المكتبة نفسها المخطوطة السينائية، وهي من أقدم مخطوطات الكتاب المقدس المكتوبة باليونانية والمنقولة في القرن الرابع. وكان الجزء

الذي يخص العهد القديم منها يتكون من مئة وتسع وعشرين رقاقة حصل منها تيشندورف على ثلاث وأربعين رقاقة، فيما بقي الباقي في الدير بعد أن أدرك الرهبان قيمتها ولم يستطع تيشندورف نسخ باقي رقاقات العهد القديم والجديد إلا عام 1859.

لقد تساءل بعضهم عما إذا كان بإمكان والين العثور على الرقاقات الست والثمانين التي خلفها تيشندورف وراءه وربما حتى الحصول عليها، غير أن ذلك لا يبدو محتملاً إذ إن تيشندورف نفسه رجع إلى الدير سنة 1853 كذلك للبحث عن الرقاقات، ولم يجدها في أي مكان آنذاك.

بعد شبه جزيرة سيناء تابع والين رحلته إلى مكة التي كانت وجهة سفره ذاك. إن الأديان السماوية الثلاثة تلتقي مع بعضها. لذلك فإن بعض المناطق مقدسة في نظر أصحاب هذه الديانات الثلاثة وكانت زيارة هذ المناطق المقدسة أساس هذه الرحلة. قفل والين عائداً من القدس في العاشر من نيسان/ أبريل سنة 1847 عبر الناصرة وجبل الشيخ (جبل حرمون) إلى دمشق حيث مكث عشرة أيام، ثم ركب البحر من بيروت متجهاً نحو الإسكندرية. وقد أجبر على البقاء فيها تسعة أيام، إذ فرض عليه الحجر الصحي بها، ثم عاد إلى القاهرة في الرابع عشر من حزيران/ يونيو عام 1847.

رسالة حررت في 3/ 3/ 1847 وأرسلت من القدس إلى غيتلين

ألقينا نظرة على بعض بساتين الدير المحاطة بعناية كبيرة، وفيها أشجار الزيتون والبرتقال والرمان والنارنج وغيرها من الأشجار الأخرى. مررنا بمكان كان فيه بيت هارون، وقبل بضع ساعات من غروب الشمس، وصلنا إلى سور الدير العالي. وكان دليلي البدوي يُرفِّه عني طيلة الوقت بحكايات عن الدير وسكانه، وبالإشادة بسخائهم وتساهلهم مع الغرباء الذين يزورونهم، لكنه أضاف: (أنت مسلم، والمسيحيون

من أشد أعداء الإسلام. سبحانه محنن القلوب، فليحنِّن الله قلوبهم عليك!). ودعاني باستمرار لأن أصعد إلى جبل موسى وأصلي هناك بخشوع، وأطلب من الله إرسال الحياة (المطر) لهذه الأراضي الجافة، ولأهلها الذين يتضورون جوعاً لأن جبل موسى هو جبل الصلاة، ولأن الله يسمع دعاء أصحاب القلوب الطاهرة. كما قال لي أيضاً إن لرهبان الدير كتاباً يسمى «كتاب المطر»، وأن كل الصلبان التي يضعونها في أعلى التلال تمنع المطر من السقوط. حاولت إقناعه بأن اعتقاده خاطئ، وبأن الله لم يكن ليضع مثل هذه القوة بيد إنسان بأي حال من الأحوال، وبأن الرهبان يحتاجون إلى المطر لكي يروي حدائقهم تماماً مثلما يحتاج البدو إليه، ولكنني لم أتمكن من إقناعه. فهو يعتقد بأن المسيحيين لا يحتاجون إلى المطر، وبأن الرهبان يقومون بشتى الحيل لتفريق السحب وطردها عن قبة السماء.

بنيت بوابة الدير الرئيسية تحت سقف يبلغ علوه تقريباً مقدار قامة ثلاثة رجال فوق سطح الأرض. وأخرج بعض الرهبان رؤوسهم من فتحة في البوابة، وألقوا علينا التحية، ثم سألوا من أين جئت. قلت له بأنني من القاهرة، وبأنني جئت الآن من السويس، وكذا بأنني أحمل معي رسالة لرئيس الدير. وعندها دلّوا لي إلى الأرض حبلاً في آخره خطاف حديدي كبير، فثبّتُّ عليه الرسالة التي أحملها. وعندما رفعها الرهبان إليهم، سمعت أحدهم يقول بتحسر: (بالعربية!). اختفت رؤوس الرهبان من فتحة البوابة، وجلست أنا على صخرة كبيرة في انتظار قرار الرهبان بالقدر نفسه من القلق الذي كنت أنتظر به نتائج الامتحانات. ومع ذلك لم أكن أنتظر وحدي. وذلك لأن العديد من العرب كانوا قد تجمعوا هنا وبعد أن أخبرهم دليلي من أكون، أحضروا مجموعة كبيرة من الأطفال وأتوا بهم إلي، وكانوا يرفعون الأكمام عن سواعد الأطفال، ويطلبون مني أن أفحص ندوب التلقيح التي عليها

وأخبرهم هل أطفالهم محميون من عدوى الجدري أم لا. وفي غضون ذلـك، ظهرت رؤوس الرهبان مـرة أخرى في فتحة البوابـة ودَلّوا ببطء حبـلاً أقوى وهم يهمهـون ويطلبون من دليلي البـدوي أن يربط أمتعتي فـي آخره. وبعدما سـحبوها إلى الأعلى، أنزلوا حبلاً آخـر ثخيناً مطوياً ثلاث أو أربع مرات، جلسـت عليه، ثم سُـحبتُ إلـى الأعلى وأنا أدعم نفسي بوضع قدمي عرضَ السور حتى لا يصطدم به جسدي.

دخلـت إلى فنـاء أرضيـة معبـدة بالحجـارة، وألقيـت التحية على الرهبـان الذيـن ردوا علـي بمثلهـا. كان أحدهـم رجلاً عجـوزاً لحيته بيضـاء طويلـة (عرفـت لاحقاً أنـه أمين صنـدوق الدير)، سـألني بلغة عربية ركيكة لماذا لم أحضر الرسـالة مـن دير القاهرة، وأكد لي أن هذه هـي المرة الوحيدة التي لم يحترم فيها القاعدة التي تقول بأنه ينغي على كل من يريد دخول هذا المكان أن يأتي برسالة من دير القاهرة. وبما أنه كان يجـد صعوبة كبيرة في التكلم باللغة العربية، وكنت أنا أجد صعوبة كبيـرة في فهمـه، فإنه طلب باللغة اليونانية من أحـد الرهبان الحاضرين الجلوس معي على الأريكة، حيث اجتمع عدد من الرهبان حولي وكان من بينهم بعض من تقدم بهم العمر من ذوي اللحى الشـيباء الوقورين. كمـا طلب منه أن يسـألني عن وطني باللغة الروسـية. وهكذا جاء ذلك الراهـب وحيانـي بالروسـية وسـألته عـن المقاطعـة التي أنحـدر منها. وكان هـو نفسـه من بلغاريـا، ولكنه أقام وعمل منـذ وقت طويل في أوديسـا وفي تاغانروغ، وفي أجزاء أخرى من روسـيا، وكان يتقن اللغة الروسية تماماً. لقد قلت له إنني من الدوقية الفنلندية، الخاضعة للحكم الروسـي، وبأن مسقط رأسي قريب جداً من سان بترسبورغ، وبأن لغتي الأم هي اللغة الفارسـية، وأنني عشـت مدة طويلة في مصر، وأنني الآن ذاهـب لزيـارة جبل موسـى. بدا لـي أن إجابتـي كانت مرضية بالنسبة للرهبـان، فترجمهـا للحاضرين باللغـة اليونانية، وعبّـر لي عن مختلف

أنواع المجاملات الشرقية، حيث رحَّب بي للإقامة بين ظهرانيهم يوماً أو سنة، أو طول العمر إذا أردت، وأن الدير وكل ما فيه تحت تصرفي، إلخ.

والرهبان حسب قوله يعيشون معاً كالإخوة، لا يفرقون واحداً منهم عن الآخر. ومع ذلك فقد لاحظت في كثير من الأحيان أن الراهب الذي يحرس البوابة ينحني أمام رئيسه في المساء وهو يعيد إليه المفاتيح، ولا أعتقد حقاً أنه من اللائق أن يتصرف الإخوان مع بعضهم بهذه الطريقة. ولكن المساواة غير موجودة في أي مكان في العالم، لا بين أبناء الصحراء البدو، ولا بين الإخوة في الدير. فالأعمال الشاقة (كنقل المياه مثلاً) هي مهمة يتكلف بها بعض العرب الذين يطلق عليهم اسم عرب الجبال، فهم نصف بدو ونصف فلاحين، ويعملون في الدير بالتناوب رغم أن لهم بعض قطعان الغنم الصغيرة. ومعظمهم أشخاص غير محبوبين يتحدثون لغة عربية ركيكة مختلطة بالكثير من الكلمات اليونانية التي سمعوها من الرهبان، وكذا بعض العبارات العربية التافهة التي يتفوه بها الرهبان عند تواصلهم معهم. لم أزر مكتبة الدير إلا مرة واحدة فقط. ووجدتها تشبه إسطبلاً فسيحاً فيه أكوام كبيرة من الأوراق والغبار، بحيث إنني فزعت من المكان للغاية. ولم تكن المخطوطات العربية التي ألقيت عليها نظرة خاطفة إلا ترجمات لمختلف أسفار العهد الجديد فقط، ومعظمها كان في حالة سيئة جداً، ولا أتذكر أن أياً منها نالت إعجابي. ولكنني لم أنسَ نصيحة أمين مكتبة الجامعة بلومكفيست الذي حثني على البحث في المكتبات الرهبانية القديمة، ولكن، بعد بضع ساعات من الجهد غير المجدي، شعرت بغبار الأوراق التي كنت أقلبها فوق الرفوف يسد حلقي، فيئست وحررت الراهب من مهمة حراسته لي البائسة. لقد أمضيت هنا أكثر من أسبوع حينها، وعلى الرغم من أنه لم يكن ينقصني

أي شـيء، إلا أننـي لا أسـتطيع أن أنكـر أن حياة الدير رتيبـة في نظري. فلم يكن بإمكاني أن أذهب إلى خارج أسـوار الدير دون أن أتسـبب في إزعاج الرهبان. وبالإضافة إلى ذلك فإن برفقة الرهبان لم تعـد تعجبني مع مـرور الوقت، خاصـة أنهم يتحدثـون العربية بركاكة شـديدة تكاد تمزق أذني.

ولـم أكـن أتمتـع بالهـدوء فـي غرفتي إلا فـي أوقات القداسـات اليوميـة الثلاثة، على السـاعة الثامنـة صباحاً، وفي الرابعـة زوالاً، وفي منتصف الليل. وذلك لأن الكثير من الرهبان كانوا يأتون للتحدث معي، ومـن ثم يعيقـون عملي المفيد. كما أن البـرد كان يزعجني كذلك، لأن الجبال العالية لا تسـمح لأشـعة الشـمس بدخول الدير إلا في منتصف النهـار. وعلى الرغم مـن أنني كنت أرتدي جميـع الملابس التي كانت معـي، وألبـس الجـوارب التي لـم أسـتعملها قط في أي بـلاد من بلدان الشـرق، إلا أننـي كنت أعانـي من البرد باسـتمرار، إلا فـي الليل عندما كنت ألف نفسـي بغطائي بشدة. وكانت غرفتي في الممر الشرقي حيث توجد العشرات من غرف الضيوف، وكانت ثلاث أو أربع منها قد أُثِّثَت مؤخـراً للفرنجة الذيـن يتزايـد عـدد الوافدين على هـذا المكان منهم عاماً بعد عام. لم تشـرق الشـمس هنـا إلا وقتاً قصيراً، وحتى إشـراقتها القصيـرة هـذه كانت بـاردة بحيث لـم تكـن كافيـة لإعطـاء الـدفء. اشـتقـت مـرة أخـرى لحرية الصحـراء المفتوحـة، ولأبنائها البسـطاء ولذلك طلبت من الرهبان أن يطلبوا لي جملاً لكـي أذهـب على ظهره إلـى العقبة. نصحني الكثيـرون بتجنب هذا الطريق لأنـه طـويـل وغير آمن، وحافل بالأخطار، ولاسـيما بالنسـبة لمن يسـافر وحـده، ولكنني تمسكت برأيي.

مذكرات 15/ 2/ 1847

وصلت إلى القدس قبيل صلاة العصر، بعد أن قطعت مسافة ثماني ساعات على ظهر الجمل من مدينة الخليل. ولم نتمكن ونحن في الطريق إلى هذه المدينة المقدسة من التمييز بين مناظرها إلا قبل نصف ساعة فقط من وصولنا. كانت المناظر جميلة في رأيي، ربما لأن عيني لم تر منذ مدة طويلة إلا مناظر صحراء شبه الجزيرة العربية. وذكرتني بساتين الزيتون وحقول الحبوب المزدهرة في بيت لحم، والتلال المغطاة بأشجار البلوط بالخصوص، بالصخور الفنلندية المغطاة بأشجار العرعر. لا يمكنني أن أدعي بأنني تحمست بشكل خاص، ولكنني لا أنكر أنني كنت أشعر بسلام خاص وأنا أقترب من المدينة التي حكمها داود وسليمان التي تعتبر مهد ديانتنا، هذا المهد الذي وُضعت عليه اللبنة الأساسية للحضارة التي نملكها الآن في شموليتها.

كان اليوم مشمساً جميلاً، لم يكن لا ساخناً ولا بارداً. وكانت أعداد كبيرة من المسيحيين قد تجمعت في التلال الواقعة خارج المدينة للاحتفال ببداية الصوم غداً. جلسوا في دوائر صغيرة يدخنون البيبة ويحتسون القهوة، منهم من يغني ومنهم من يجلس صامتاً، ولكن كل شيء كان يدل على أن الوقت وقت احتفال. ولولا أن إجراءات الجمارك والحجر الصحي كانت قد استحوذت على فكري، ولولا أن الخوف من الاستجوابات المقرفة كان يشغل بالي لكنت استمتعت من صميم قلبي بهذه المرحلة الاحتفالية لدى وصولي إلى أقدس مدينة في العالم. صعدنا إلى تلة عالية نسبياً، ودخلنا من باب الخليل، أي من بوابة بيت لحم. ركب كل منا على جمله ولم يوقفنا أحد، وظننت أنني قد نجوت من جميع المقابلات والأسئلة، إلا أن رجلاً أبكم وأصم أخذني إلى الجمارك وهو يصدر أصواتاً صاخبة كتلك

التي يصدرها إخوته الصم البكم عادة. وكانت الجمارك عبارة عن كوخ صغير يشبه مقصورة الحرس الروسي. ولكن الزيارة كانت سهلة للغاية، ولم أبذل فيها أي جهد تقريباً. استأنفنا رحلتنا بسرعة على طول الشوارع الضيقة التي تدفقت عليها الدماء المسيحية بكثرة وفي كثير من الأحيان.

3/3

رأيت أمام باب دمشق عدداً كبيراً من المسلمين، معظمهم من الرجال ولكن كانت بعض النساء من بينهم أيضاً. كما كان هناك درويش كان يخرج عبارة لا إله إلا الله من أعماق حلقه أو رئتيه، وهو يضرب صدره بقوة لدرجة أنه كان يصدر صوتاً قوياً. وقد رأيت مثل هذه الاحتشادات على طول الرحلة وإلى غاية الشيخ الجراح. وسمعت من أحدهم بأن الناس تجمعوا لاستقبال بعض الحجاج العائدين من مكة إلى هذه المدينة. ورغم كوني مسلماً، إلا أنني لا أرغب في الاحتكاك بالشيوخ العاديين، ولذلك، فإنني أجَّلت البحث عن قبور الملوك إلى مرة أخرى. اختلست النظر إلى العديد من حسناوات هذا المكان. لكنني رأيت أجمل منهن في المدينة، ولا سيما اليونانيات. وأنا حقاً لا أعرف أيهن أفضل لرجل عازب مثلي، هل المحجبات أم مكشوفات الوجوه. ولكن أين رأيت أجمل النساء على الإطلاق؟ في مصر أم في شبه الجزيرة العربية أم في بلاد النوبة أم في بلاد الزنوج أم في البلاد الأوروبية؟ أنا نفسي لا أعرف الجواب عن هذا السؤال. رأيت في بلاد النوبة نساء على قدر من الحسن (فتاة قنا النوبية!!) اعتقدت حينها أنني لم أر مثلها من قبل، وهذا ما أشعر به الآن أيضاً هنا. الحمد لله الذي لم يحدد الجمال بأي تعريف خاص.

هبت اليوم رياح باردة جداً، وكان مزاجي سيئاً، ولذا فإنني سرعان

ما عدت إلى المنزل وقضيت فيه بقية المساء. ولكنني عرجت أولاً على كنيسة القيامة، وصعدت إلى الكنيسة الصغيرة التي تقع في المكان الذي علق فيه السيد المسيح على الصليب. هذه الكنيسة الصغيرة تقع على اليمين، وثمة أخرى على اليسار في المكان الذي وُضع فيه الصليب بين اللصين[1]. ويقال إن في جهة اليسار صدعاً في الصخر، ولكنني لم أره. كما كان ضريحاً أول ملكين صليبيين: غوتفريد وبالدوين هنا في الأعلى. لكنهما دُمِرا ولم يعد لهما وجود الآن. وبعد ذلك، تمشيت حول الكنيسة اليونانية، وهي فخمة أكثر من كونها جميلة. توجد هنا كنوز عظيمة وثروات كبيرة. والكنائس في أيامنا تشبه الغرف الخاصة. الحمد لله أن الزمن الذي كانت فيه أماكن الصلاة، أو بالأحرى أماكن السحر والفتنة، تستدعي الزينة بالذهب والفضة قد ولى. جلست في البيت طيلة المساء أشرب الشاي، وأغرق في بحر من الأفكار ومن الشوق. لم أتمن في أي وقت مضى صديقاً أو رفيقاً لرحلتي من أبناء بلدي كما أتمنى الآن.

3/27

وكانت في كنيسة القيامة حشود غفيرة لأن اليوم عشية عيد الفصح. رأيت رجلاً بدوياً يتسول هناك. وعندما سألته من يكون، فقال إنه مسيحي، وعندما شككت في مسيحيته، رشم على صدره علامة الصليب. كانت مدينته تعاني من الفقر بسبب الجفاف وقلة الغيث مما اضطره هو وآخرون لمغادرة منطقتهم والمجيء إلى هنا للتسول. وهم الآن ينوون الذهاب إلى بيت جالا للعيش هناك في أحد بيوت الضيافة. وقد حجَّ إلى هذه الكنيسة الكثيرون ممن لم أتمكن

(1) حسب العقيدة المسيحية، كان صليب المسيح في الوسط بين صليبين علق عليهما لصان يشار إليهما عادة بلص اليمين ولص الشمال.

من التعرف على جنسياتهم لا من خلال مظهرهم ولا من خلال لغاتهم. وقد لفتت انتباهي بشكل خاص مجموعة أعتقد أنها من سوريا، لكن أفرادها لم يكونوا يتحدثون اللغة العربية، وإنما لغة غريبة أخرى لم أتمكن من تحديدها أبداً. وقد فتنتني وسحرتني مسيحية حبشية جاءت إلى هنا برفقة مجموعة من اليونانيات وكانت تتكلم لغتهن.

تجولت في الحي اليهودي الذي كان اليوم يحتفل بالسبت، فأذهلني جمال امرأة يهودية لدرجة أنني تسمرت في مكاني. ولكن ربما تكون أجمل النساء هنا الفلاحات. أولئك النساء الحسناوات مكشوفات الوجوه اللواتي أراهن كل يوم وكل ساعة يجعلن الدماء تغلي في عروقي للأسف. كان علي أن أشتري بعض الملابس الجديدة بدل هذه الملابس القليلة والتعيسة التي يمنعني ضيق ذات اليد من تغييرها. فالفقر والسعادة لا يجتمعان في أي بلد. وفي الوقت الحاضر، هناك الكثير من السياح الإنجليز الذين يتجولون هنا. لا أستطيع أن أصف مدى التأثير القبيح الذي تركه الإنجليز في نفسي بملابسهم، ومظهرهم، وبسلوكهم على وجه الخصوص. آه، آه من تلك اللحظة التي سأعود فيها مرة أخرى إلى بلاد أصحاب الرؤوس الحمر والعيون الزرق! وفي الوقت نفسه، كل عزيز عندي في تلك البلاد يجتذبني إليها من خلال أصوات الحوريات!

رسالة حررت في 10/ 8/ 1847 وأرسلت من القاهرة إلى غيتلين

ما رأيته بعيني خلال الجمعة العظيمة، وفي سبت عيد الفصح، وفي عيد الفصح عموماً، إضافة إلى القصص التي تكاد لا تصدق التي سمعتها عما يحدث هنا كل عام من أعمال مفزعة، وعن فساد الكنيسة، كلها أمور جعلتني أتوق للخروج من المدينة المقدسة في أقرب وقت

ممكـن، لأن كل يـوم يمر عليَّ هنا هو يوم لا يطـاق. وعلاوة على ذلك فـإن جميـع الأجانـب بـدؤوا يغـادرون المدينة منـذ ثاني يـوم من عيد الفصح فأصبحت هذه المدينة التي كانت حتى الآن حيوية، مدينةً مقفرةً وحزينـة وميتـة بمجرد نهاية العيـد، خصوصاً أن سـكان المدينة أغلقوا أبـواب منازلهم لكي يحسـبوا بهدوء المبالغ التي تمكنـوا من نهبها من الحجاج المساكين.

لقد تشـرفت بزيارة مدن الشرق الثلاث الأكثر قداسة، مكة والمدينة والقـدس. لا يمكننـي ألا أقارن مـا رأيته في مكة بما رأيتـه في القدس، عندمـا قارنـت بين طبـع أهل هذيـن المدينتيـن وبين طقوسـهم الدينية (مهما كان الفرق بين هذين الدينين عميقاً من حيث أفكارهما الأساسية، كالفرق الشاسـع الذي بين الشـرق والغرب)، لاحظت أن في الكنيسـة المسيحية الشرقية، وفي الممارسات والعادات السورية إجمالاً، الكثير من الأمور التي تبناها نبي الإسـلام. شـعرت أن هناك الكثير من الأشياء التي تشـدني في أحدهما أكثر من الآخر، ولكن أيضاً العكس بالعكس، بحيث شـعرت أنه من الصعـب علي أن أقرر أيهما أحـب إلى الله، هل هو من يغتسـل بميـاه زمزم ويزور مكـة ليركع في بيت اللـه، أم هو ذاك الـذي يذهب إلـى القدس، ويزور قبر الابن، ويرسـم علامـة الصليب، ويقَبِّل اللوح الرخامي بعد أن يغتسـل في نهر الأردن. لم أعرف الإجابة عن هذا السـؤال إلا بسـؤال آخر هو: سـواء كنت مسـيحياً أو مسلماً بم سـينفعك حجك إلى مكة أو إلى القـدس، ما لم تكن حياتك كلها حجاً إلـى الله؟ بم سـتنفعك ترنيمـة أو صلاة، أو زيارة لكنيسـة، مـا لم تكن حياتـك كلهـا حمداً وتسـبيحاً لله، وما لـم يكن كل جهـد تبذله صلاةً، وكل يـوم مـن عمـرك هو يوم أحـد أمام اللـه؟ ومن هنا فـإن دينه مجرد احتفاليـات؛ ولذلك فإن لهؤلاء القوم كثيـر من الدين، والقليل جداً من الأخـلاق، فيمـا تنعدم عندهـم الخصوصيـة على الإطـلاق. فمن يكدّ

أكثر في صلاته، ومن يسرع أكثر في تمرير أصابعه على مسبحة الصلاة يكون الأفضل ويحظى بتبجيل أكبر. زهو الفريسيين هذا يجعلني أنفر من خلق أي معارف أو علاقات جديدة هنا. لا أحمل في يدي مسبحة، وأتقزز من الصرخات المتوجهة إلى الله ورسوله الآن بعدما ذهب سحرُ الجِدَّة.

الرحلة الصحراوية الثالثة

كان مسار الرحلة الصحراوية الثالثة كالتالي: الانطلاق من القاهرة في الرابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر 1847، المويلح، تبوك، تيماء، حائل، النجف، بغداد، كرمنشاه، أصفهان، شيراز، بشير، البصرة، بغداد، دمشق، بيروت، الإسكندرية، القاهرة (فاتح يونيو/ حزيران 1849).

من ناحية علمية، هذه الرحلة كانت أكثر رحلات والين عطاءً فهو أول من وصف الطريق من البحر الأحمر إلى تبوك والطريق إلى حائل عبر تيماء. كان والين يريد متابعة طريقه إلى الرياض عبر عمان وساحل جنوب الجزيرة العربية لغاية عدن غير أنه سمع في حائل أن أمر خلفيته الأوروبية قد انكشف فعزا ذلك إلى كونه قد اضطر وهو في القاهرة إلى أن يطلب من الحاكم المصري محمد علي توصية إلى جزيرة العرب عن طريق القنصل الروسي. وقد تلقى والين تلميحات بأنه سوف يُقتل إذا تابع طريقه إلى الرياض. لذلك فقد اتجه إلى بغداد ومنها شد الرحال إلى بلاد فارس ومكث بها مدة أربعة أشهر.

ذهب والين إلى بلاد فارس حتى يقيم في بلادٍ دَرَسَ لغتها وأدبها في الجامعة ولم تكن له أية أهداف علمية من رحلته تلك. وكانت معظم مذكراته تقارن بين العرب والفرس وتنتهي لصالح العرب على طول الخط تقريباً من جهة، وتتأمل مظاهر الشيعة المختلفة من جهة أخرى. وقد زار والين قبور أعظم شعراء فارس كسعدي (توفي سنة 1292) وحافظ (توفي 1389) المدفونين بأرض شيراز.

يخلد المستكشف اسمه في التاريخ إذا كان أول من زار مكاناً ما أو أوَّل من مر بطريق ما. لذلك فإنه من المؤسف أن خطة والين بالسفر من الرياض إلى عمان لم تتحقق. الربع الخالي هو أوسع صحراء رملية في الكرة الأرضية وقد كان البريطاني برترام توماس أول غربي يتمكن من عبوره، ولم يتسن له ذلك إلا في بداية العقد الثالث من القرن العشرين. لو كان والين قد تمكن من متابعة طريقه من حائل كما خطط للقيام بذلك لكان اسمه قد دخل التاريخ باعتباره واحداً من أهم مستكشفي جزيرة العرب.

رسالة حررت في 14/ 12/ 1847 وأرسلت من القاهرة إلى غيتلين

رغم مرضي، إلا أنني سهرت طيلة الوقت في تنظيم أمور الرحلة واستعداداتها. على الرغم من أن استعداداتي قد لا تكون على نطاق واسع جداً، كما قد تُخَمِّن، إلا أنها قد جلبت لي كمية لا تصدق من النزاعات والمشكلات. ينبغي معرفة الظروف المحلية، ومعرفة أنه من الاستحالة أن تثق في الحرفيين، ومعرفة بطء الشرقيين لكي تحصل على فكرة عن الأمر. إذا لم تكن تريد أي شيء آخر غير ما يباع في المتاجر، فمن السهل عليك تلبية احتياجاتك، ولكنك إذا كنت ترغب في شيء آخر يعتبر غير عادي هنا، فعليك أن تركض من مكان لآخر لأسابيع عديدة لكي تجعلهم يتحركون ويبدؤون العمل مهما سهل ذلك العمل. فالأبناء لا يستطيعون أن يفعلوا أي شيء لم يفعله الأسلاف. وإذا كان أحدهم مختلفاً عن الباقين، ويقف على قدميه للقيام بشيء جديد، فإنك سوف تحتاج أولاً لقضاء ساعات طويلة تشرح له فيها ما تريده حتى يتمكن من فهمك، وعندما ينتهي العمل، فإنه عادة ما يكون أخرقَ وقبيحاً جداً لدرجة أنه عديم الفائدة. فالمصري في أيامنا يفتقر إلى المهارات الحرفية، وهو أمر ربما ورثه من أسلافه بدو الصحراء،

وليس من البناة القدماء.

ولكن كل شيء الآن مثلما أريده. وقد حزمت في الكيس الجلدي الصغير الذي صنعه لي صانع السروج الألماني معدات القهوة الخاصة بي، من محمصة ومهراس، وأكياس القهوة، وأشياء صغيرة أخرى مثل ركوة كبيرة من أجل تحضير الشاي أو مقدارات أصغر من القهوة. ولكن هذه الركوة فاخرة تعجبني، ولكنني أخشى أن يعجب البدو بها أكثر من اللزوم. وقد أنقصت من الأدوية التي في صندوق أدويتي للمرة الثالثة لدرجة أن الصندوق أصبح أقل من نصف قدر ما أخذته معي في رحلتي الأولى. فكرت بالفعل في تركه تماماً، وهو ما سيكون أفضل حل لأن الصندوق دائماً ما يثير الشكوك في الصحراء، لأن الناس لا يصدقون بأنه يحتوي على أي شيء آخر غير الذهب الصافي، ولكنني لم أتخذ هذا القرار بعد. ومن ضمن الملابس التي أخذتها معي قميصان طويلان، وزوج سراويل داخلية واسعة، أنوي استعمال أحدهما في المناطق القريبة من مصر لأن استعمال الرجل للسروال الداخلي في الصحراء يعتبر عيباً، ويعتبر أمراً لا يناسب إلا النساء فقط. وقد قررت استعمال قفطاني القديم، على الأقل إلى أن أشتري واحداً جديداً في الصحراء، والأمر سيان بالنسبة لمعطفي اليوناني القديم الذي كانت له قيمة لا تقدر بثمن خلال رحلتي إلى سوريا، لأنه لا يمرر لا البرد ولا المطر ولا الريح. أما فراشي فسيكون هو سجادتي القديمة وقطعة جلد الغنم. وأنا بحاجة إلى قربة ماء جديدة، وإلى إناء شرب جلدي لأصب فيه ماء الشرب ذي الأهمية الكبيرة. مؤونتي للأيام القادمة وافرة، ولكن مهما أخذ المرء من مؤونة وافرة، إلا أنها لا تكفي في الصحراء طويلاً، ولكن بإمكاني أن أحصل على الخبز والتمر أثناء الرحلة.

عندما يعزم البدوي على الخروج في رحلة طويلة، يفحص بإبهام يده كل جانب من جوانب سنام جمله أولاً فإن وجده كبيراً وممتلئاً وليناً

طاب نفساً واستبشر برحلة موفقة إذ إنه يدرك أن سفينته الغالية ستصبر وإن شح عشب الصحراء وجف ماؤها لأن سنام جمله بمثابة مخزن داخلي مهم يكونه في الأيام السمان ليقتات منه في الأيام العجاف. كل بدوي يعزم على الخروج إلى الصحراء يعمل، بطريقته الخاصة طبعاً، على تنمية سنام جمله. لا بد أن مَنْ يشتاق للخروج إلى الصحراء القاحلة ذات الهواء العليل يكون قد سئم من حياة المدينة الخاملة وتعابير وجوه سكانها الناعمة وكلامهم الحضري المعسول، وملَّ من الطعام الشهي عامة. أنا الآن أريد، ومن صميم فؤادي، الخروج إلى الصحراء. لم تعد صحتي الآن كما كانت عليه، ولكنني أخرج الآن إلى ربيع الصحراء الندي وليس إلى صيفها الجاف.

كانت حياتي رائعة في مصر الخصبة الخضراء خلال هذه الأشهر الخمسة. على الأقل، أشبعت تماماً جميع احتياجاتي، وكنت في الأيام الأخيرة ألتهم ما لذ وطاب من عنب، ورمان، وموز، وأناناس، وغيرها من الملذات، ولذلك فأنا أنتظر بكل سرور استبدال البرتقال المصري بتمور شبه الجزيرة العربية. وهكذا فإن لدي الآن شعوراً مماثلاً لسنام البعير، حيث إنني على استعداد تام للخروج إلى هذه الرحلة الصحراوية الطويلة. ولكن البدوي - بالإضافة إلى تأكده من سنامه - يحتاج إلى التأكد من نُبل نسل جمله، وهذا أيضاً متوافر لدي. ذلك أنني كابنٍ لفنلندتنا الفقيرة وكشخص ترعرع فيها، أعتبر نفسي أخاً لابن الصحراءِ النبيل الفقير، وابناً للقبيلة نفسها تقريباً. أما فيما يتعلق بالمال المنقول، فسوف أحمل معي كل المبلغ الذي أملكه والذي يقدر بثلاثمئة روبل فضية، وقد غيرتها إلى داكوتات[1] وتالرات نمساوية وإلى نقود ذهبية تركية. وسوف أخبئ معظم المبلغ (الآن كما فعلت في رحلتي السابقة)

(1) الداكوت هي عملة تجارية ذهبية كانت تستعمل في عدد من الدول الأوروبية قبيل الحرب العالمية الأولى.

في علب قصديرية أضعها في صندوق أدويتي داخل قاعِهِ المزدوج. إذا سارت الأمور بشكل جيد، فإن هذا المبلغ سيكفيني في الصحراء مدة عام أو ربما عامين. ولكن إذا كان سوء الحظ من نصيبي فإنه مبلغ كبير جداً تكون خسارته أمراً جللاً. أنا غاضب لأنني لم أستطع أن أترك أي قدر منه هنا على سبيل الاحتياط. فإذا توقفت رحلتي في بدايتها لسبب ما، أو إذا اضطررت للعودة إلى مصر بجيب فارغ، فإنني حقاً لا أعرف كيف سأعيش إلى أن يصلني الغوث من الوطن. ولكنني الآن سأنطلق على أمل أن تكون رحلتي رحلة سعيدة، أو على الأقل على أمل أن تكون رحلة الذهاب أسهل وأكثر تفاؤلاً من رحلة العودة. فعندما يصل المسافر إلى عرض البحر، وعندما يختفي الساحل عن الأنظار، فإن البحار لا يتمنى العودة إلى الميناء الذي انطلقت منه رحلته.

محطة التوقف الأولى في الاتجاه الذي اخترته هي قلعة المويلح الصغيرة الواقعة على ساحل شبه الجزيرة العربية. أما عن كيفية الوصول إلى هناك فالأمر عندي سيان، سواء عن طريق البحر من السويس أو من طور، أو من العقبة عن طريق البر، كما أنني لم أقرر في هذا الأمر بعد. ومع ذلك، فأنا أرغب كثيراً في الذهاب إلى طور، وذلك لأنني أود قضاء بضعة أيام هناك لأستجمع قوتي في هدوء بالاستحمام في مياه حمام موسى[1] الدافئة، والاستحمام في مياه البحر الباردة في انتظار وصول سفينة ما. كنت أفضل الذهاب من المويلح عبر الصحراء مباشرة نحو حجر أو مدائن صالح. ولكن يبدو أنني مجبر على أن أسلك الطريق الأكثر شيوعاً عبر تبوك، ثم أتبع طريق القافلة السورية إلى أن أصل إلى مدائن صالح. ولن يفصلني من هناك عن تيماء الشهيرة بتمورها، والتي يحكمها سيد بني شمر إلا مسافة يومين فقط من السفر. ولا يستغرق

---

(1) مكان يقع شمال مدينة طور سيناء بنحو ثلاثة كيلومترات، وتتدفق المياه الساخنة من خمس عيون في هذا الحمام.

السفر من المويلح إلى تيماء سوى نحو عشرة أيام، لكنه طريق خطرة جداً، وأنا أخشى سلوكها كثيراً. وذلك لأن قبائل بدو مختلفة عديدة تعيش هناك بعضها وسط بعض، وكثير منها يعاني من الفقر ومن السمعة السيئة. كما أنني أخشى أن أتصادف مع قافلة الحجاج العائدة من مكة، وذلك لأنها عادة ما تستقطب اللصوص وقطاع الطرق الذين يتربصون بها لنيل «ما قد يسبغ الله عليهم من نصيب ومن مسروقات». ولكنني سأكون آمناً نوعاً ما عندما أصل إلى تيماء، ولو أن عبد الله بن الرشيد، سيد قبيلة شمر، الذي كان من أكثر العرب نفوذاً قد مات الآن حسب ما سمعت خلال رحلتي الأخيرة، وقد خلفه ابنه الصغير. ويستغرق السفر من تيماء إلى حائل خمسة أيام. وأنا أنوي البقاء بحائل بضعة أيام أرى فيها أصدقائي القدامى، ومن ثم أواصل رحلتي نحو الشرق. أُفضِّل أن أسافر في الصحراء مروراً بسدير مباشرة، أو أن أسلك الطريق الاعتيادي المؤدي عبر القاسم إلى الرياض التي يحكمها فيصل بن تركي. وهو من قبيلة سعود، والحاكم الأعلى على نجد كلها. وقد أعطاني أحد الشيوخ الفقهاء الذي يسكن هنا رسالة لأسلمها لفيصل بن تركي، ولاثنين من الشيوخ الفقهاء المنتمين إلى قبيلة عبد الوهاب. وتربط هذا الشيخ الفقيه بأحد هذين الأخيرين صلة قرابة. ولذلك، فإنني آمل الحصول على استقبال جيد هناك، لأنني سأتمكن، إن تم ذلك، من البقاء هناك مدة طويلة لمتابعة دروس مسجد الرياض. أعتقد أنني سأبقى هناك طوال صيف سنة 1848.

أنوي، إذا سنحت لي الفرصة، أن أقوم بجولة في بغداد والأحساء والبحرين، وربما أصل إلى صحراء الجنوب الكبرى الفارغة نفسها، التي أعتقد أنها تقع بين نجد واليمن. وعندما أشفي غليلي فيها، سأتوجه إلى البريمي، ومن هناك مباشرة إلى المهرة تاركاً عمان على يساري. وهكذا فإنني لا أنوي زيارة مسقط ولا أي مدينة أخرى من

مـدن عمان، ولكن الله وحده يعلم ما الذي سـيحدث. وكل ما أريد أن أفعلـه هناك هو معرفة أية لغة يتحدث الناس في الجبل الأخضر فقط لا غيـر. قد تكون لغة المنطقة هي لغة جنـوب الجزيرة العربية القديمة أي اللغـة الحميرية، ولكنني لا أثق بخبرة ويلشـتيدت في اللغة العربية لأنه يـرى أن هـذا احتمال وارد رغـم أنه لا يعرف اللغـة الحميرية. إذا مرت الأمـور كما نحب ونشـتهي فـي المهرة، فإنني سـأبقى بها مـدة طويلة. ولأننـي مثـل الجميـع، لا أعرف عن هـذا البلـد إلا القليل جـداً، فإنني لا أسـتطيع أن أذكر اسـم المـدن التي قد أقيـم بها. أنوي تجنب السـفر على طول السـاحل قدر الإمكان. وإذا قضيـت صيف 1849 هناك دون مشاكل، فإنني سأكتفي بهذا القدر فيما يخص هذه الرحلة، وأغادر شبه الجزيـرة العربيـة. إذا نجـا المال المخصـص لهذه الرحلـة من مخالب العـرب فإنه سـوف يكـون قد نفـذ عندئذ، وسـوف تكون ملابسـي قد أصبحت أسـمالاً بالية، ولذلك فإنني أعتقد أنني عندئذ سـأفضل السفر بـراً إلى المخا، على الرغم من أنني قد أود المرور بحضرموت وبوادي دوعـن دون إثارة انتباه سـكانها الشَّـكَّاكيـن المرتابيـن. وقـد تزايدت كراهيتهم وريبتهم، وبلغت أقصاهـا بعـد الشغب الذي أحدثه الإنجليز فـي عدن، وبعد رحلـة ڤريدي التي علموا أثناءها أنـه أوروبي متنكر في زي شـرقي. لذلك أعتقد أنني سـأذهب من المهـرة إلى عدن عن طريق البحـر على الأرجح، وأتوجه إلى مصر على متـن باخرة أنجليزية. هذه إذن هـي تخميناتي التقريبية لرحلتي، ولكن عواقب الأمور وكل شـيء آخر هو بيد الله.

لقـد أنفقـت الأربعمئـة وخمسـين بياسـترا التـي أعطانـي إياهـا بونسـدورف من أجل اقتناء المجموعة التشـريحية، فاشـتريت لكم من عنـد رايمونـد أوديسـكالش مجموعة من الهيـاكل العظميـة التي تضم تمسـاحين اثنين، وابن آوى، وثعلباً، وغـزالاً، وضبعاً وقطة برية، فضلاً

عـن مومياء واحدة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن لديه لأجلكم جمجمتين، واحدة ليوناني، والأخرى لزنجي، إضافة إلى جمجمةٍ لمومياء.

رسالة حررت في 8/ 2/ 1848 وأرسلت من بغداد إلى غيتلين

فـي الرابع عشـر مـن كانـون الأول، خرجت مـن القاهرة عنـد الزوال، ولكننـي لم ألـقِ نظـرة وداع علـى الأهرامات حتـى الصبـاح الموالي، وعندها أصبحت الصحراء أمامي.

ومـع ذلـك فإننا لم نتقدم هذا اليوم أكثر مـن كيلومترين من المدينة. ومـع حلـول الظـلام التحقنا بجماعـة من بدو تـوارة التي ينتمـي إليهم دليلـي. وتقضي هـذه القبلية البدوية وغيرها مـن القبائل الأخرى فصل الشـتاء بأكملـه هنا فـي ضواحي المدينـة للتمكن من نقـل البضائع بين القاهرة وبين السـويس، وذلك أنهم هم أنفسـهم، وأسـرهم، وجمالهم يعيشـون بشـكل حصري تقريباً على مداخيل نقل البضائع. هذه القبيلة البدويـة هـي الأفقر من بين جميـع القبائل، ولكنها أيضـاً أفضل القبائل التـي رأيتهـا علـى الإطلاق. وقـد طهونا هنـا اللحم الذي اشـتريناه من المدينـة، وحضرنـا من مرقـه طبقاً يعتبـره العرب أفضـل الأطباق على الإطـلاق وهو الثريد أي الفتة التي تحضر عن طريق نقع الخبز في مرق اللحـم وتحويلـه إلى عصيدة. ولـم يتوقف البدو عن الثنـاء علي وعلى كرمـي بعد أن أشـبعوا بطونهم من هـذا الثريد، وشـربوا القهوة، وذلك لأننـي أطعمتهـم اللحم الـذي لم يذوقوه منذ شـهور عديـدة. كما أنهم تمنـوا لـي مراراً وتكـراراً رحلة ناجحة وموفقة. لا يشـكر الشـرقي أبداً بالطريقة التي يشـكر بها الغربي. فنحن نقول بوضوح: «شـكراً لك»، أو شيئاً من هذا القبيل، ولكن العربي لا يستخدم مثل هذه التعابير أبداً، بل إنه يوجه شكره لله الذي وجه الْمُتَصدِّق لهذه الوجهة السديدة، أو يدعو الله بأن يغدق على الْمُتَصدِّق المزيد من النعم والخيرات.

وقد أسعدني أن أعود إلى الصحراء وإلى أبنائها البسطاء. نمت بهدوء كطفل صغير، دون أن أرى في منامي حلماً، ودون أن أفكر في الرحلة التي تنتظرني. ولكن الحشرات ذكرتني بأنني لا أزال قريباً من المدينة. وسننضم في اليوم التالي إلى قافلة البدو التي تنقل الفحم إلى السويس لحساب شركة البواخر البريطانية. والناس في هذه المناطق عادة لا يفضلون السفر وحدهم، حتى وإن لم يكن ثمة أي خطر من شأنه أن يهدد الرحلة. لا بد أن يكون له رفقة، فليس هناك ما يخاف العربي منه مثل الشعور بالوحدة. ولهذا السبب فإننا بقينا إلى ظهر اليوم التالي في انتظار أن تصبح القافلة جاهزة، وعندها غادرنا. وقد بلغ عدد الجمال قرابة عشرين جملاً، وكانت كلها محملة بحمولة ثقيلة من الفحم، مما جعلها تسير ببطء شديد بحيث إننا لم نصل إلى السويس إلا بعد خمسة أيام.

ليس ثمة الكثير مما يمكنني أن أحكيه عن هذه الطريق، فهي مملة في معظمها على الرغم من أنها أصبحت الآن أفضل إلى حد ما. وذلك لأن ثمة عدداً من البرك الصغيرة المتجمعة على طول الطريق بفضل المطر الذي نزل في الأيام الأخيرة. لم أكن قد رأيت أي نقطة ماء في هذه الطريق من قبل. وقد سُرَّ البدو جداً عندما رأوا الماء، فانطلقوا بالحمد وبالدعاء بأن ينزل الله المزيد من الغيث، وبأن يحيي الأرض الميتة. كان البدو يسألون كل من يقابلونهم في الطريق عن الأماكن التي نزل فيها المطر، وعن الأماكن التي برقت فيها السماء. وقد التقيت أنا أيضاً بعدد من الأشخاص الذين تعرفت عليهم خلال رحلاتي السابقة من رجال قبيلة هايوي، الذين قالوا بأن المطر قد نزل في أراضيهم هذا العام، وطلبوا مني أن أزورهم في الربيع لمعالجة مرضاهم. أصبحت أعرف ظروفهم بشكل أفضل الآن، ولذلك فقد سألتهم هل سقط المطر في بعض المناطق المعينة التي نصبت فيها بعض القبائل البدوية المعينة

خيامها، وسألتهم عن صحة بعض الشيوخ المعينين، وما إلى ذلك. ورغم أن هذا قد يبدو أمراً تافهاً، إلا أنه أمر مهم جداً عند البدو، وهم يقدرون أكثر فأكثر أي شخص يرون أنه على علم بأراضيهم وبأحوالهم.

وفي ما عدا ذلك كانت الرحلة رتيبة ومملة برتابة جولات الصحراء على الأقل. استيقظنا عند شروق الشمس، وحملنا البضائع على ظهور مطياتنا بعد أن أعددنا القهوة والإفطار، ونصبنا خيامنا عند غروب الشمس للمبيت وأعددنا القهوة ووجبة العشاء. الآن ولأننا في فصل الشتاء، لم نعان من الحرارة أو من العطش. وقد احتميت بمعطفي اليوناني الدافئ من برودة الليل القاسية. أما رفاق سفري فاشتكوا بصوت عال من البرد وعانوا منه كثيراً، ولكن هؤلاء المساكين لم يكونوا يملكون أي نوع من أنواع الغطاء.

وهكذا وصلنا إلى السويس، ونصبنا خيامنا خارج المدينة لأننا لم نكن بحاجة إلى أي شيء من السويس. ذهبت إلى هناك لشراء القليل من اللحم من أجل وجبة العشاء، ولاستكمال مؤونة سفرنا، وشراء الأشياء الناقصة منها التي تناولناها خلال الرحلة. وعندما دخلت من بوابة المدينة، أوقفني حارس البوابة، وهو من جنود محمد علي، وطلب مني التذكرة، أي جواز السفر الذي أصبح الآن موضة. كان يمكن للمرء، حتى الآن، السفر بحرية تامة في مصر وفي أغلب بلدان الإمبراطورية التركية الأخرى ودون أن يسأله أي أحد أية أسئلة، ولكن هذا العصر الذهبي قد مضى وولى، وذلك لأن محمد علي الذي أصبح يتبنى تدريجياً جميع طرق الأوروبيين، قد تبنى هذه الطريقة في بلاده. وهم متشددون جداً في هذا الأمر، خصوصاً أنهم الآن يعتمدون حالياً نظام السجلات العامة والتعداد السكاني ليس في قرى مصر ومدنها فحسب، بل وفي جميع مناطق البدو التابعة لمناطق حكم محمد علي. كنت أدرك هذا الأمر إدراكاً تاماً، ولذلك اقتنيت هذه التذكرة في

القاهرة. واسمي في جواز سفري هذا هو عبد المولى، وهو اسم سماني به الشيخ المسلم الذي أعطاني رسالة توصية موجهة إلى فيصل بن سعود، والسبب في ذلك أن وهابيي نجد لا يؤمنون بالأولياء، ولذلك فإن اسم ولي ولا اسم عبد الوالي الذي كنت أعرف به في نجد كلاهما لا يناسبانني. وقد طلبت أن يُكتب اسم عبد المولى في جواز سفري حتى لا يكون لي اسمان مختلفان.

وعند وصولي إلى السويس، سألني الجنود بنبرة رسمية: من أين أنت؟ (فأجبت: من القاهرة) أين سائق جملك؟ (فأجبت: وما شأنك به؟). كان من الواضح أن هذه الإجابة أغضبته، فطلب مني جواز سفري. ناولته جواز سفري وقلبه من جميع الجهات ثم قال إنه لا يشبه نوع الجوازات التي يحملها القادمون من القاهرة عادة (وذلك لتخويفي فقط حتى أعطيه بعض النقود)، وكرر أسئلته من أين؟ إلى أين؟ فأجبته: هل أنت حمار أم ماذا؟ ولماذا تقف على بوابة المدينة وتطلب جواز السفر وأنت لا تفقه منه شيئاً؟ لماذا تسأل كل هذه الأسئلة وعندك كل الأجوبة عليها في جواز سفري؟ وهكذا سمح لي بالمرور، ولم يُطلب مني تقديم جواز سفري بعد ذلك. وسرعان ما انتهينا من أشغالنا في المدينة، وكنا مستعدين لمواصلة الرحلة عند الزوال. بقيت الآن مع دليلي وحدنا، وذلك لأن قافلة البدو التي كانت تنقل حمولة الفحم، حملت من هنا حمولة من القهوة وقفلت راجعة للقاهرة، ومع ذلك كان من حسن حظنا أننا تمكنا من إعادة جمل هارب لصاحبه، وهو من بدو جبل الطور.

وصلنا إلى قرية طور يوم عيد الميلاد. وهي قرية صغيرة مملة، معظم سكانها من المسيحيين الذين ينتمون إلى الكنيسة اليونانية، ومعظمهم من أصل يوناني. وهناك كنت في البداية أتردد على ما يسمى بحمام موسى كل يوم، وهي عين مالحة، تصل درجة حرارة مياهها الكبريتية

السـاخنة جداً إلى تسع وعشرين درجة مئوية تقريباً. ولكن وبما أن هذه العيـن تبعد عـن القرية بنحـو نصف سـاعة، وبما أنني لـم ألاحظ على جسـدي أي تأثير من ميـاه الحمام، فإنني انتقلت بعد ذلك للاسـتحمام فـي البحـر، فكان مفعول مياه البحر أكثر وأفضـل، وذلك لأنني اعتدت عليها. دأبت على الذهاب للسباحة، عدة مرات في اليوم، وكنت أقضي معظـم وقتـي وحدي فـي شـقتي الخاصة، وهي لحسـن الحـظ أفضل مسـكن حصلت عليه خلال رحلاتي كلها. قضيت هنا فترة عيد الميلاد حسـب تقويمنا نحن وحسـب تقويم اليونانيين كذلـك. وقد مرت فترة العيد بهدوء تام، ودون أن يلاحظها أحد من أهل هذه القرية الصغيرة.

وقـد غادرت طور في الثالث عشـر من يناير، بعـد أن مكثت بها مدة طويلة. كان طريقنا على مسـافة قريبة من شـاطئ البحـر، وبدأنا نقترب تدريجيـاً مـن الجبال بحلول المسـاء، وتابعنا المسـير في صبـاح اليوم التالي في المنطقة نفسـها. وقبل فجر اليوم الرابع عشـر مـن يناير، رأينا منظـراً مذهـلاً لأكثف وأحلـك الغيوم التـي رأيتها في حياتـي، وكانت تقـف كجدار يتبع السلسـلة الجبلية، وكان البرق يظهـر بينها بين الحين والآخـر، وبعـد ذلـك كان الرعـد يـدوي بصوت لـه صدى يتـردد عبر الجبـال. كان المنظر مثـل لوحة جميلة حقاً لرسـامين عن موضوع (ثم قال الله ليكن نور، فكان نور[1]). توقعنا تساقطات مطرية غزيرة، ولكن الشـمس المشـرقة فرقت جدار السـحب السـميكة تدريجياً، ولم تنزل علينا إلا رشـة خفيفة مع الريح الجنوبية الشـرقية. وكنا الآن أيضاً نسـير ببـطء، ونتوقف بين الحين والآخـر لإعداد القهوة التي كانت أهم بكثير بالنسـبة لصديقي مما كانت بالنسـبة لي. كما أننا جمعنا أوراق أشـجار الأكاسـيا الخضراء لنقدمها للإبل حتـى تقتات بها. وقد كبرت جماعتنا فـي الطريق، وأصبحنا خمسـة رجـال وثلاثة جمال. وقـد خصصنا يوم

(1) آية من الكتاب المقدس: الإصحاح الأول الآية 3.

الخامس عشر من يناير بالكامل للراحة، وحللنا ضيوفاً على عائلتين عربيتين فقيرتين، ووصلنا في يوم السادس عشر من يناير إلى قبيلة دليلي. وكانت قبيلته تتكون مما مجموعه عشرون إلى ثلاثون خيمة، ولكن أراضيهم لم تكن قد اخضرت بعد، ولذلك فإن مراعيهم كانت فقيرة، ولم يكن عندهم حليب، وكانوا فقراء لا يعيشون إلا على الذرة التي اشتروها من القاهرة فقط. وكانوا يطحنون حبوب الذرة، ويحضرون منها عصيدة يتناولونها الآن بدون حليب ولا زبدة.

كنا على مسافة رحلة نصف يوم تقريباً من البحر، ولأنني كنت سائراً في الاتجاه المؤدي إلى البحر، فقد فارقت العرب في اليوم التالي، ووصلت في السابع عشر من يناير إلى البحر ومنطقة شرم الشيخ. كان هناك مكانَا رسْو جيدان، أحدهما مخصص للسفن الكبيرة، والثاني مخصص للقوارب الأصغر. كما كانت ثمة بئر مياهها مالحة جداً وسيئة المذاق مثل جميع الآبار التي تقع على شواطئ البحر. لم يكن يعيش هناك سوى بعض الصيادين القلائل، وهم أربعة أو خمسة بدويين تدهورت حالهم بعد فقدانهم لكل مواشيهم، فذهبوا إلى ساحل البحر ليعيشوا على الصيد، وعلى ما قل من رسوم الموانئ أو رسوم إرساء السفن التي يطلبونها من السفن التي ترسو هنا أحياناً. ويطلب البدو مثل هذه الرسوم في أماكن إرساء السفن الأخرى على طول البحر الأحمر. عهد بي دليلي إلى صيادين اثنين، أحدهما عجوز اعتلى بياض الشيب لحيته، وأصابه الخرف من فرط الجوع، والشيخوخة، وآلام التهاب المفاصل. وكان ابنه شاباً قوي البنية يعيل نفسه ووالده من عائدات الصيد. لم تكن في المنطقة منازل ولا خيام، ولذلك اخترت لنفسي مكاناً في أحد الجبال لأحتمي من البرد ومن الريح الشمالية. فرشت سجادتي هناك، وضعت حقائبي على الأرض، وأعددت لنفسي مكانا في الهواء الطلق، على الأرض الجافة، وأنا لا أعرف طول المدة التي

سأقضيها هنا. كان الرجل العجوز مشلولاً تقريباً، وكان يحرس أمتعتي كلما ذهبت إلى مكان آخر، فضلاً عن أنه كان رفيقاً دائماً لي، وإن لم يكن رفيقاً مثيراً للاهتمام لأنه شيخ طاعن في السن، نال منه الخرف ما ناله، ولم تكن في الحديث معه أي متعة تذكر، ولكنه أمين وأهل ثقة، في حين أن ابنه كان يخرج إلى الصيد طيلة اليوم. وكانت أدوات الصيد التي يستعملها هي إبرة عُوِّجت وحُوِّلت إلى خطاف، وحبل كان يرميه من الشاطئ إلى البحر أبعد ما يمكن، ثم يجره إلى الخلف. ولذلك، فإن صيده كان هزيلاً جداً، إذ إنه نادراً ما كان يجلب معه في المساء أكثر من ثلاث أو أربع سمكات، وهو قدر لا يكاد يكفينا نحن الثلاثة.

كنت أعيش في هذا المكان حياة غريبة جداً أشبه ما تكون بحياة الإنسان القديم. فكنت أقضي أيامي كلها شبه عار، أسبح في البحر عدة مرات في اليوم، وأجوب الشاطئ الصخري بمنحدراته الحادة المطلة على البحر، وأبحث عن بحارة. نادراً ما مر يوم دون أن ترسو سفينة ما هنا، لكن تلك السفن كانت آتية كلها من الجنوب ومتجهة نحو الشمال. وكان جميع الصيادين المحليين يأتون من قريب ومن بعيد، ويتجمعون حول تلك السفن إما لمقايضة أسماكهم بالقليل من الطحين أو الأرز أو التبغ، وإما لتسول هذه البضائع. وعندما كانت إحدى السفن تبحر دون أن ترسو في هذا المكان، فإن بعض الأهالي كانوا يسبحون نحوها مسافات طويلة، ويضعون ما يحصلون عليه منها على سليلة مثبتة على رؤوسهم. إن منظر مجاعة الناس في هذه المنطقة منظر فظيع، فالكثير منهم لم يذوقوا الخبز عدة أيام، وعندما كنا نجتمع لشرب القهوة فأعطي مضيفيَّ بعضاً من خبزي، فإنهما كثيراً ما كانا ينظران إلي بأعين غيورة، لكنني أنا نفسي لم أكن أملك إلا كيس طحين صغير، وهنا لا يمكن للمرء شراء أي شيء. ومع ذلك فإنه لم يكن أي منهم يجلس

لتناول أي وجبة من الوجبات دون أن يدعو جميع الحاضرين لمقاسمته أكله القليل قائلاً: بسم الله. والجميع هنا يقولون هذه العبارة، حيث إن العرب يعتقدون بأن عدم توجيه الدعوة للمارة وللحاضرين لمشاركتك الطعام هو أكبر دليل على الوثنية أو المسيحية، ولكن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد شكليات بين العرب، على الأقل في الحياة اليومية بين أهل المنطقة، وذلك لأن المدعو لمشاركة الطعام لا يستجيب عادة للدعوة، على الرغم من أن الغرباء مثلي نادراً ما يرفضونها. ولذلك فقد اتخذت قراراً بعدم قبول دعوة أي شخص، إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك. وهكذا فإنني لم أكن أقدم فتات طعامي إلا لهذين الشخصين اللذين كانا بمثابة أهلي هنا. الحضري يغلق أبوابه، والبدوي يختبئ غالباً في خيمة النساء لكي يتمكن من تناول طعامه بهدوء. وقد رأيت مرةً بدوياً يخفي إناء الطعام حتى لا يراه وافد عليه، ولكنني لم أر قط أي عربي ينسى أن يقول بسم الله داعياً من يراه يأكل لمشاركته طعامه. لكن الضيافة العربية ليست صارمة بالشكل الذي يتصوره الناس عموماً، وذلك لأن لها ما يقننها من القواعد والاستثناءات الكثيرة التي أفضل ألا أسردها الآن.

قضيت ستة أيام في هذا المكان البائس. وخلال ذلك الوقت لم تأت إلى هنا إلا السفن التي تقل الحجاج العائدين من الحجاز والمتجهين نحو السويس. ومن الشائع جداً أن بعض الحجاج الذين يصابون بالإرهاق والضجر من رحلة بحرية طويلة ومضنية يرسون هنا، ويستأجرون الإبل من البدو (الذين عادة ما يخبرهم الصيادون عن قدوم سفينة الحجاج وعن عدد ركابها) فيتابعون رحلتهم من هنا إلى طور براً، ومن ثم يواصلون طريقهم إلى القاهرة. وقد وصلَت العديد من قوافل الحجاج هذه إلى طور عندما كنت أقيم هناك. وها أنا أرى إحدى تلك القوافل تخرج من هنا الآن وهي تحمل الحقائب والأمتعة، ومياه

زمزم، وغير ذلك من الأشياء التي يعود بها الحجاج عادة من الحجاز.

وأخيراً رسا هنا قارب صغير في الثاني والعشرين من يناير، وكان لبدوي يعيش في قبيلة المزيني، وكان عائداً الآن من المويلح. وقد كانت الحركة نشيطة جداً بين هذه الشواطئ وبين الضفة الشرقية باستمرار. وكان معظم المبحرين من عرب المزيني أو الحتايمي الذين كانوا يأتون في قوارب صغيرة تشبه مراكب رمي الشباك عندنا. وكانوا يأتون إلى الساحل الغربي، الذي استغربت عندما سمعتهم يسمونه بر العجم، وهم يجلبون من أعالي النيل القمح والذرة لأنفسهم وللعائدين إلى المويلح في هذا الوقت مع قوافل الحجاج. خلال إقامتي في شرم، كانت كل هذه القوارب تذهب إلى الضفة الشرقية للتجارة مع الحجاج. وكان هذا القارب أول قارب يعود من هناك. وبما أنني فقدت الأمل في العثور على قارب يأخذني إلى الشاطئ الآخر في الوقت الراهن، وسئمت حياة الإنسان القديم هنا في شرم، إضافة إلى أن كيس مؤونتي من جهة أخرى بدأ يفرغ، وجدت أن أمامي خيارين: فإما أن أطلب من صاحب القارب أن يأخذني إلى الشاطئ الآخر، أو أن استأجر جملاً وأسافر على صهوته حول خليج العقبة. وهكذا، ذهبت إلى التحدث إلى قبطان المركب الذي كان يستعد لإرساء مركبه في انتظار الرحلة المقبلة. كان مستعداً للعودة إلى الوراء، لكنه في البداية طلب مئة وستين بياستراً كمقابل. كنت على استعداد للتضحية بمبلغ كهذا في أسوأ الأحوال، على الرغم من أنني لا أدفع عادة إلا خمسة أو عشرة بياسترات، لكنني حاولت بعض حيل التجارة الشرقية أولاً، على الرغم من أنني لا أحب القيام بذلك. اقترحت مبلغاً ما، سكت وذهبت بعيداً. دعاني ثلاث أو أربع مرات للعودة، وفي النهاية استقر الأمر على خمسة وتسعين بياستراً، واتفقنا على الخروج للرحلة في اليوم التالي.

في صباح الخامس والعشرين من يناير، رسونا في ميناء المويلح

الفقيـر. ولأن لصاحب القارب هنا أصدقاء وأقارب من قبيلة بني عقبة، فإنـه دبَّـر لي من خـلال معارفه مأوى أنـزل فيه، وهو كـوخ صغير مبني من سعف النخيل يسمونه بكَّارْ. وكان مضيفي غلاماً بدوياً في الخامسة عشـر مـن العمر، ومضيفتي هـي والدته التي كانت امـرأة مرحة ونظيفة وثرثـارة جداً. وهذه المدينة هي نقطة توقف قوافل الحجاج الذاهبة من مصـر إلى مكة، ولذلـك يوجد بها حصن وحامية عسكرية ضعيفة كما هـو الحال في جميع الأماكـن الأخرى المماثلة. ولكن أغلب سـكانها هم من البدو الذين يعيشون في الخيام أو في الأكواخ المبنية من سعف النخيل. وهـم يملكون مزارع نخيل كثيرة جداً، كما أنهم عادة ما يملكون قطعاناً من الماشـية أيضاً، يخرجونها في الربيع إلى المراعي الواقعة في الصحراء القريبة، فيعيشون حينئذ طريقة عيش هي عبارة عن حياة وسط مـا بين الحيـاة البدوية والحياة الحضريـة. إن حدائـق المدينة وموقعها السـاحلي، وقربها من الجبال هي أمور تجعـل منظرها أجمل بكثير من معظـم المناطق الأخـرى الواقعة في هـذه الأنحاء. وتُعـزى أهمية هذه المدينـة إلى كونها المكان الذي تتزود فيـه قبائل البدو الرحل المحيطة بها بالمؤونة، كقبائل الحويتات، وبني عقبة، وجزء كبير من قبيلة معازة، وهي قبائل تتنقل في الأراضي التي تمتد من مناطق سوريا وغزة وصولاً إلى مناطق حصمة، وإلى غاية المناطق الشـرقية من السلاسـل الجبلية. ويقتني سـكان مدينة تبوك الواقعة في طريق الحجاج السـوريين، جزءاً مـن ضرورياتهـم مـن المويلح. ولكـن جميع السـلع غاليـة الثمن هنا، وتصـل إلى ضعـف أثمان السـلع في بلـدة الواعي القريبـة، وذلك لأن الميناء المحلي سـيئ، ولأنـه لا يقع على الطريق البحـري الواصل بين الحجاز ومصر.

قررت أن أقضي سـتة أو عشرة أيام هنا على أي حال، أجمع خلالها معلومـات عـن علاقات مختلـف القبائـل بعضها ببعـض، وأضع على

أساس تلك المعلومات خطة سير رحلتي. وقد تمكنت من القيام بهذه المهمة بسهولة. وذلك لأنني نزلت ضيفاً على عائلة بدوية، ولأن ركوة قهوتي كانت ساخنة طوال اليوم، فإنني كنت أستقبل باستمرار ضيوفاً من بدو المناطق القريبة الذين كانوا يأتون إلى هنا لقضاء مصالحهم. وهكذا تحول كوخي المبني من سعف النخيل إلى نزل تقريباً، إذ إنني لم أكن أبقى وحدي لا ليلاً ولا نهاراً. وكان من بين البدو رجل في منتصف العمر اسمه الحسن، وهو من قبيلة بني عقبة الصغيرة التي كانت تحكم مدينة المويلح من قبل، وكانت قديماً أقوى قبيلة في المنطقة، ولكنها تفرقت الآن في مختلف الأطراف، فتقلص حجمها وأصبحت صغيرة جداً. كان هذا الرجل من أذكى البدو الذين التقيت بهم وأكثرهم حكمة، فضلاً عن أنه كان يعرف حياة المدينة وعاداتها. وقد وعد بأن يأخذني إلى تبوك متى أردتُ. فالطريق من هناك آمنة، ويمكن الوصول عبرها بسهولة إلى تيماء، وإلى منطقة شمر، ثم إلى نجد. كما يمكنني الذهاب عبر طريق أخرى إلى الواغي، ومنها إلى العَلا، ثم إلى نجد عبر مدائن صالح. ولكن الطريق الأولى أفضل، وأسهل وأكثر أمناً. ولكن الحسن سيذهب أولاً إلى بيته لرؤية أسرته التي تعيش في خيمة على بعد مسافة يوم من المدينة، وسيعود بعد عشرة أيام، في مطلع الشهر لاصطحابي. اتفقنا على هذا الأمر ثم غادر. لكنني لم أبق بمفردي، لأن البدو كانوا يستعملون كوخي نزلاً أو مقهى. وعندما كانوا يفارقونني، كانت مضيفتي الأرملة تجلس معي، وتسليني بحديثها. وكانت صحبتها تعجبني كثيراً وتوافق ذوقي إلى حد كبير، ولكنني عادة ما كنت أحظى بصحبة أكبر عدداً وأسوأ. فمنذ اليوم الموالي لوصولي، جاء شابان لزيارتي، وهما ابنا سيد المدينة، ادعيا أنهما جاءا يطلبان مني استشارة طبية، ولكنهما جاءا للتجسس على الأرجح. ومع ذلك فإنهما كانا غير مؤذيين، ولم يشكلا لي أي تهديد، ولكنهما للأسف كانا قد تعلما

من خلال زياراتهما القصيرة للمدن تعاملات أبناء المدن وأساليبهم اللغوية التي يعتبرونها أكثر تحضراً. في حين أنني شخصياً سئمت من مثل تلك الأساليب بعد أن غادرت القاهرة بوقت قصير، وتكيفت مع اللهجة البدوية الأبسط والأكثر متعة.

وبعد مرور يوم واحد عن زيارتهما، تلقيت دعوة للذهاب إلى الحصن لزيارة القائد وشرب القهوة عنده. في الحقيقة لم تكن لدي أية رغبة للقيام بزيارات المجاملات، لأنني كنت أعرف أنني لن ألتقي هناك إلا بالأتراك الذين كنت أحاول ما أمكن تجنب صحبتهم، ولكنني لم أجد أي ذريعة أتذرع بها لرفض الدعوة، فذهبت إلى الحصن. ويعد هذا الحصن أكبر الحصون المشيدة على طرق قوافل الحجاج، ويقال إن السلطان سليم هو من بناه، ولكنه الآن أصبح متهالكاً، مثل كل شيء في الإمبراطورية التركية. استقبلوني في الرواق الذي يلي بوابة الحصن، وهو عادة ما يكون أفضل مكان في البناء، لأن التيار الهوائي الذي يدخل من الباب الأمامي يجعل المكان بارداً. وكانت ثمة مقاعد مثبتة على طول جدران هذه القاعة، وهي ما يسمى بالمصاطب جمع مصطبة، وتفرَشُ بالسجاجيد. وقد اجتمع هناك أربعة أشخاص: قائد الحصن وبعض شخصيات المدينة البارزة. بعد إلقاء تحية سلام قصيرة، جلست في المكان الذي أشاروا لي بالجلوس فيه، ورحبوا بي ورددوا عبارات المجاملات المعهودة، وكنت أنظر إليهم وأنا أجيب عن عبارات المجاملات تلك، لأنني كنت أعرف جيداً أنهم دعوني إلى هنا لكي يطرحوا علي أسئلة معينة. وكان على يساري رجل عجوز إلى حد ما، لحيته كثيفة لامعة سوداء، وأنفه طويل، ملامحه حادة وإن لم تكن جميلة ولا معبرة: ملامح السلالة العثمانية القحة. وعلى يميني، جلس شاب أشقر عيناه منهكتان وخداه ضامران مما يشير إلى حالة صحية سيئة، وإلى مرض باطني عنده. كان منظره الحزين يذكرني

بالتتار في بلادنا. وجلس بجانبه في زاوية المصطبة شاب ذكرني وجهه الدائري البشوش بالفيلسوف اليوناني أبيقور. وفي زاوية المصطبة المقابلة جلس شاب آخر تدل لحيته السوداء الرقيقة على أنه عربي، وتدل ملامحه الرقيقة المميزة على ذكاء طبيعي.

وبعد الانتهاء من المعاينة الخارجية من جانبهم أيضاً، وبعد أن أفرغوا جعبتهم تماماً من عبارات المجاملات، بدأ الرجل العثماني بطرح الأسئلة، فسألني إن كنت أتكلم اللغة التركية. وهذا السؤال يزعجني دائماً، ولكنني تهربت منه، كما أفعل عادة، وسألته إن كان هو يتكلم الفارسية. ولكنني أجبت عن السؤال الموالي بسرور أكبر، حول ما إن كنت أتكلم اللغة العربية، بالعبارة البدوية القحة: بلى والله. فسأل العثماني، الذي يبدو أنه يتزعم الأمر كله، من أين أنا، فقلت إنني من كازان المنضوية تحت الحكم الروسي، عاصمة التتار الروسيين، فسألني عن أخبار القوقاز، وبالخصوص عن الشيخ شامل الذي كثر الحديث عنه هنا. لم أكن أعرف عن هذا الرجل إلا ما سمعته عنه من قصص أسطورية كان المسلمون يرددونها، ولكنني لم أستطع مقاومة رغبتي في الاحتيال على هذا العثماني الساذج، فحكيت له قصصاً مذهلة، وحاولت إثارته قليلاً من خلال وصفي لضعف السلطان أمام قوة روسيا، وما إلى ذلك. صدرت منه بعض التعبيرات الدالة على وقع المفاجأة، وانتقل تدريجياً للسؤال عن مهنة التطبيب التي أزاولها. وختم الموضوع بسؤال ما إذا كان لدي دواء يخفف ألم سن متسوسة تضايقه. لم أكن أريد تبذير الدواء الذي أدَّخره لنفسي، فنصحته بخلع السن المتسوسة، وعرضت عليه خلعها بمفتاحي. كما استشارني التتاري بشأن الكثير من الأمراض، فقدمت له أحسن النصائح التي استطعت تقديمها، ولكنني كنت واثقاً من أن حله الوحيد هو أن يترك جميع همومه لعناية الله. أما اليوناني فلم يطرح أية أسئلة، واكتفى بترجمة

بعض التعابير العربية التي لا يفهمها الآخرون وشرحها لهم. هذا هو دور اليونانيين عموماً عندما يكونون في خدمة الأتراك: دور الخادم والمترجم. أما العربي فترك أمور التطبيب جانباً وسألني عن وجهتي فقط، وعندما ذكرت أنني ذاهب إلى نجد وأنني أقصد حاكمها فيصل، فإنه أراد أن يعرف سبب سفري إلى هناك، فأجبته باقتضاب بأنني ذاهب للقاء فيصل، وبأنني أحمل له رسالة من رجال القاهرة.

أرسل لي الحسن العقبي رسالة مفادها أنه سيصل إلى هنا في اليوم التالي. وصل كما وعد، وغادرنا المويلح في العاشر من فبراير/ شباط بعد أن مرضت فيها مدة ستة عشر يوماً. سلكنا في البداية طريق الحجاج، ولكن سرعان ما ابتعدنا عنه وعن شاطئ البحر، وصعدنا إلى منطقة من الصخور الرملية الصغيرة الواقعة بين الشاطئ وبين الأخاديد الجبلية الجرانيتية العالية. ألقيت من هنا آخر نظرة على البحر الذي قضيت على شواطئه أوقاتاً طويلة، وكنت أحس بشيء من القلق. وذلك لأن المسار الذي رسمته لرحلتي سيجعلني أطوي مسافات طويلة لا شيء فيها مؤكد، قبل أن أعود إلى ساحل البحر. وعندما غابت الشمس، وصلنا إلى خيمة دليلي الواقعة في واد صغير، بين الصخور الرملية المنخفضة. ولأن قبيلة دليلي كانت تملك الكثير من الإبل، ولكنها لم تكن تملك إلا عدداً قليلاً من الأغنام بالمقارنة مع جارتها، فإن مضيفي لم يجد حيواناً مناسباً كي يذبحه ترحيباً بي، فقدم لي بدلاً من ذلك قصعة كبيرة من حليب الإبل الذي تعلوه الرغوة، إضافة إلى طبق من عصيدة الأرز. قررنا البقاء هنا بضعة أيام، وهذا يناسبني تماماً، لأن الخراج الذي كنت أعاني منه لم يُشْفَ حتى الآن، ولذلك فإنني كنت بحاجة للراحة. وبالإضافة إلى ذلك فإنني أود أن أتمتع مرة أخرى بفرح العيش في الخيمة البدوية، كما أنني لاحظت أيضاً أن دليلي وضع في حسابه الاستفادة من خدماتي الطبية.

عندما أردنا أن نتفق حول أجرة الجمل، قال إنني لست مسافراً عادياً، وأنني قد أضطر على طول الطريق للنزول عند هذه القبيلة أو تلك باعتباري طبيباً وملقحاً، ولذلك فإنه أراد مني مبلغاً أكبر من المعتاد. أجبته بأنني لا أنوي بأي حال من الأحوال أن أجني المال من العرب، إضافة إلى أنهم لا يملكون مالاً، وأنا لا أستطيع أن آخذ زبدة أو رأس ماشية مقابل خدماتي الطبية. ولذلك، فإنني أنوي السفر إلى تبوك مباشرة، ما لم يكن الحسن نفسه يريد التوقف في مكان ما في الطريق. ومع ذلك فقد وعدته بالبقاء في خيمته بضعة أيام لتلقيح أطفاله، ومحاولة معالجة زوجته من داء الحمى، وهو مرض شائع في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، ولا سيما في منطقة المويلح. ومنذ اليوم الموالي، كان علي إخراج وسائل التطعيم التي اشتريتها في القاهرة لتلقيح عشرات الأطفال هنا. لا أعرف أي شعب آخر في بلاد الشرق كلها يحرص على تلقيح أطفاله مثلما يحرص البدو على ذلك. وربما يكون سبب حرصهم هو أولاً وقبل كل شيء النتائج التي توصلوا إليها (والتي لاحظت في كثير من الأحيان أنها نتائج صحيحة) والتي مفادها بأن من يصاب في طفولته بالجدري يفقد القدرة على الإنجاب. وهذا الأمر يُعَد أكبر كارثة يمكن أن يتخيلها البدو. وقد جاء أول مُلَقِّح إلى البدو منذ عقد واحد من الزمن، ومُذّاك والبدو يحرصون على تلقيح أطفالهم إما لبعضهم البعض، أو من خلال مُلَقِّحين يأتون إليهم من أماكن أخرى، ومعظمهم من المسيحيين المصريين أو السوريين. ولكن، وبما أن الحفاظ على صلاحية مواد التطعيم في حرارة الصحراء القاسية أمر يكاد يكون ضرباً من ضروب المستحيل، فإن كثيراً من هؤلاء المُلَقِّحين أصبحوا محتالين في نظر هؤلاء العرب الذين يصعب عليهم وضع ثقتهم في أحد. فهم يعتبرون كل وافد جديد محتالاً جاء ليسلبهم أموالهم فقط، دون أن يهتم إن كان التطعيم سيجدي نفعاً أم لا.

لهذا السبب أخبرتهم بأنني لن أتقاضى أي أجر حتى يروا تأثير اللقاح، فكسبتُ بذلك ثقتهم. ولكن يبدو أن مواد التطعيم القاهرية ضعيفة، أو أنها فقدت قوتها خلال الرحلة التي دامت شهرين (حتى وإن كنا في فصل الشتاء)، لأن التطعيم لم يؤثر في أي طفل باستثناء ابن مُضيفي.

وفي ما عدا ذلك فقد تمكنت من التمتع بشيء من الهدوء، وذلك لأنني تعلمت تدريجياً كيف أخيف من يريدون الاستفادة من خدماتي الطبية لإبقائهم بعيدين عني. فعلى الطبيب في هذه المناطق أن يكون غشاشاً ومحتالاً لاستقطاب المرضى، ويجب عليه أن يقسم لهم بأنه يستطيع أن يشفيهم من أمراض الروماتيزم والنقرس المزمنة في يوم أو يومين. في حين أن الطبيب يتخلص ممن يتهاطلون عليه لطلب المساعدة إذا قال لهم بأن العلاج سيطول عشرين أو ثلاثين يوماً. ولكن إذا حدث ووافق أحدهم مع ذلك على مثل هذا العلاج الطويل، فإنني كنت ألجأ لمختلف أنواع الأعذار والذرائع، وأقول بأنني لا أستطيع أن أمكث عندهم كل تلك المدة الطويلة. وهكذا تملصت من معالجة مضيفتي من مرض الكبد بإعطائها أحد الأدوية لا تضر ولا تنفع. ومضيفتي هذه امرأة شابة إلى حد ما، على قدر كبير من الطيبة، تقدم لي وعاء من الحليب يومياً لكي أحضر به عصيدة الأرز. وقد طلب مني مضيفي ألا أخجل لا منه ولا من ضيوفه، فإذا لم يعجبني أكلهم، يمكنني تحضير وجباتي بنفسي، وأن أُعِدَّ ما أريده كما كنت أفعل في المويلح. غير أن الضيف في الخيمة البدوية عادةً لا يعد طعامه بنفسه. وإن فعل، فإنه يكون قد أتى جُرماً كبيراً في حق المضيف، وتسبب في إهانة شنيعة للعائلة المضيفة، ويكون قد انتهك قوانين الضيافة انتهاكاً. لا يسمح البدو لبعضهم بهذا أبداً، ولكنهم يسمحون ببعض الاستثناءات بالنسبة لضيوفهم من سكان المدن.

يمكن للحضري عادة أن يتنصل من واجب استضافة البدو في

المدينـة ويمكنـه على المنوال نفسـه تحضيـر طعامه مـن زاده الخاص (علـى ألا يكـون ذلك ضد رغبـة مضيفه) رغم أن الحضري يستحسـن التمتع بكرم الضيافة الذي يشـتهر به البدو. وقد آثرت أن أحضر طعامي من زادي الخاص لسـببين: أولهما أنني فضلـت ألا أثقل على مضيفي، وثانيهمـا أنه كان يَشُـقُّ علـي التعود علـى نظام الصحـراء الغذائي وهو قدر من الحليب، يقدم في زبدية خشـبية كبيرة عند شـروق الشمس قبل إخـراج الجمـال إلى المرعـى، وصحن من المكللة يقـدم بعد منتصف النهـار. والمكللـة تتكون من خبز تـم طهيه في الرماد ثم كسـره وإذابته في الحليب أو الماء ولـم أكن أحب هذه الأكلة. أما طعام المسـاء فكان صحنـاً من الأرز المطبوخ والممزوج بالبازلاء يُطرى بشـيء من الزبدة ويقدم عند غروب الشمس.

في الصباح كنت أحصل على زبدية من حليب النوق الرائع فأرتشف منـه رغوته التي تشـبه القشـدة المخفوقة عندنا ثم أتركـه لبعض الوقت إلى أن أحضر الخبز وأطهوه على نار القهوة وبعد ذلك أشرب الحليب مـع الخبـز. كنت أحيانـاً أمـزج القهوة مـع الحليب والسـكر كما نفعل فـي بلادنا، مثيـراً بذلك عجـب كل الحاضرين، ثم أتناولهـا مع الخبز. كنـت أحظى وحدي تقريباً بشـرف تقديم القهوة. ذلك الشـرف يحظى بـه كل ضيفٍ وافدٍ على خيمة بدويٍّ. وقد كانت ركوة القهوة تظل على النـار طيلـة النهار تقريبـاً رغم أنني لم أكـن أقدم القهوة عـادة غير ثلاثة مـرات في اليوم؛ مـرة في الصباح، ومرة في منتصف النهار، وأخرى في المساء. ولكن عندما كنا نأتي على الركوة الأولى، كنا نحضر ركوتين أو اثنتين أخرتين من الثفل وكان البدو يشربونها هي الأخرى بشهية كبيرة. لـم يكن أحد يتقـن تحضير القهـوة وتتبيلها بالقرنفل وحـب الهال كما ينبغي غيري. لذلك فقد كنت أحظى بشـرف طحـن البن وطهيهِ والذي لا يليـق عـادة إلا بالمضيـف غيـر أننـي كنـت أفضـل، بعد أن أسـكب

لنفسي فنجاناً من القهوة، أن أحيل الركوة على مضيفي ليتولى هو تقديم القهوة للحاضرين في فناجين صغيرة. وعلى المرء أن يكون عارفاً بقواعد تقديم القهوة فحتى في خيمة الصحراء وبين الإخوان المتساوين ينبغي احترام نظام الأسبقية. ومن غير اللائق تقديم أول فنجان لشخص لا يستحق ذلك الشرف. وقبل ساعتين من غروب الشمس، حضرت عشائي الذي كان عصيدة أرز طهيته في الماء واللِّبأ[1] مع بعض الزبدة.

كان الضيوف ينزلون عندنا بشكل دائم. لم يمر علينا يوم دون أن يزورنا عدد قليل أو كثير من الضيوف. غالباً ما تُستَغَلُّ الضيافة العربية استغلالاً سيئاً، فهناك من يرحلون من قبيلة ويحلون ضيوفاً على أخرى، فيعيشون هكذا عالة على الآخرين. ومن بين القبائل التي ارتبطت سمعتها بمثل هذه التصرفات أذكر قبيلة عمران. وقد نزلوا ضيوفاً علينا في يوم من الأيام، وجاؤوا منذ شروق الشمس دون خجل، ومكثوا في خيمتنا طوال اليوم. لكن وعلى الرغم من سلوكهم الوقح الذي عبر الجميع عن استيائهم منه لاحقاً، إلا أن مضيفي وغيره من أفراد القبيلة أكرموهم عن طيب خاطر، ليس فقط بالقهوة والسجائر، التي تكاد تكون ملكية مشتركة للجميع، وإنما بالحليب وبالطعام كذلك. وعندما انصرف الضيوف، لُمْتُ مضيفيَّ عن استيائهم من الضيوف، وقلت له بأن طرد الضيوف فوراً أفضل من إكرامهم وشتمهم فيما بعد، فأجاب بأنني على حق، وبأن هؤلاء الطفيليين كانوا يستحقون الطرد، لكن الضيف ضيفٌ مهما كان، وإكرامه واجب عليهم كعرب.

ربما كنت تتساءل لماذا أردد كلمة «العرب» كثيراً، ولكن البدو كذلك يرددون هذه الكلمة كثيراً في كلامهم، فإذا أرادوا مثلاً أن يقولوا «نحن

(1) الحليب الذي يصدر من ثدي الأم أو من أنثى الحيوان في الأيام الأولى التي تلي الولادة مباشرة، وهو غني بالبروتينات والأملاح وفقير إلى الدهن والكازيين.

الآن في فصل الصيف» فإن سكان الحضر يقولون «الدنيا قيظ»، ولكن البدو يقولون «العرب في قيظ»، وهم يستعملون دائماً كلمة «العرب يفعلون كذا» للتعبير عن صيغة المبني للمجهول. عندما نقول نحن على سبيل المثال «يُقال»، يقول البدو «العرب يقولون»، ولكنهم لا يقصدون بكلمة «العرب» أي مجموعة أخرى غير البدو، ولا يُعَدُّ سكان المدينة من «العرب» وإنما هم غرباء عنهم. ولا بد لي أن أضيف أنني كنت أسمع هنا الكثير من الانتقادات عن الضيوف بعد رحيلهم، ذلك أن كرم الضيافة الذي يقدسه أهل الصحراء عادة بشكل مطلق لا يخلو من بعض الاستثناءات. أغلب الرجال الذين أعيش بينهم هنا أفضل من بدو الصحراء الداخلية، لأنهم اعتادوا أكثر على عادات المدينة وغرائبها، وكانوا يتركونني بسلام على عكس من التقيت بهم في الطريق آجلاً. فهم على سبيل المثال، لم يكونوا يستلقون على بساطي كما كان يفعل غيرهم من البدو، ولم يلبوا قط دعوتي لتناول الطعام، بل كانوا يكتفون بما فضل من طعامي.

كان لمضيفي طفلان: ابنة ذكية تبلغ من العمر سبع سنوات، وابن في الخامسة من العمر، بالإضافة إلى أطفال آخرين أكبر سناً. وكنت أمازح الصبي أحياناً وأناديه بالفلاح، وهي شتيمة بشعة عند البدو. وعندما يغيب الكبار، كان هذان الطفلان يمتطيان عصاً يتخيلان أنها حصان، أو جمل بالأحرى، ويدخلان بها إلى الخيمة ويمثلان دور ضيوف نزلوا في ضيافتي. فكنا نسلم على بعض بالقبلتين المعتادتين على الخدين، ونتبادل عبارات المجاملات المتداولة، ونسكب بعض الماء على بقايا البن، ونقدم القهوة، ونتخيل أن في الصحون الفارغة أكلاً فنأكله. ثم نبدأ الحديث كالمعتاد: أي بلاد بعيدة جاءت بك؟ هل سمعتم في الطريق أصواتاً بشرية أو رأيتم علامات؟ وبالإضافة إلى ذلك، نطرح أسئلة حول المراعي، وفي أي الوديان توجد المراعي؟ ونسأل ما إذا

كانت تلك المراعي أصلح للماشية أم للجمال، وغيرها من الأمور التي كان الأطفال يعرفون الإجابة عنها بالدقة نفسها التي يجيب بها الكبار. ثم كانا يودعانني ويرحلان على مطيتيهما، ويعودان من جديد مراراً وتكراراً بلا كلل. إن الأطفال مخلوقات بشوشة وبريئة في كل مكان في العالم!

وإضافة إلى هذا الفرح البريء الذي كنت أحس به في هذه المسرحية، فإنني كنت أتمتع كثيراً بالاستماع إلى اللغة العربية وهي تخرج من فم طفل بصوت طفولي نقي. يبدو لي أن الأطفال والصغار عموماً يتكلمون بأنقى وأوضح نطق، وذلك لأنهم مثل من يريد أن يتعلم لغتهم، فهم أيضاً يحاولون تعلمها، وهم يتحدثون بطريقة أكثر وضوحاً، وأكثر بطئاً من الكبار. فالكبار يتقنون اللغة تماماً، ولذلك فَهُم يهمهمون مخارج حروفها نظراً لانشغالهم أو لامبالاتهم. ومن الواضح أنني، وأنا أحاول تعلم لغات أجنبية، قد لاحظت صدق مارتن لوثر حين قال: لا ينبغي لمن يرغب في تعلم اللغة الألمانية أن يحدق في الحروف اللاتينية، بل عليه التوجه إلى السوق والاستماع إلى الأولاد وهم يتجادلون، وإلى الأمهات وهن يثرثرن مع أولادهن وما إلى ذلك.

قبل أن أترك موضوع البدو جانباً، أود أن أذكر لك أنني أديت في إحدى المرات عَمَلَ المأذون (حتى وإن كان لهذا الطقس مفهوم يختلف عن مفهومنا) إذ زوَّجتُ شاباً وشابة. ليس من الضروري في الإسلام أن يحضر الطرفان معاً، بل يكفي حضور العريس وحده، وحضور وكيل العروس. العروس فتاة لم يسبق لها الزواج، ولذلك فهي لا تُسأل عما تريده أو عما إذا كانت موافقة. كان طقس الزواج بسيطاً جداً وتم في دقائق معدودة، ولكنني ندمت على ذلك في اليوم الموالي. أنا عقدت قران فتاة (لم أرها من قبل) على شاب لا تحبه القبيلة ولا تقدره، إضافة إلى أن مظهره غير مريح للغاية. ولكنني التقيت بشاب حسنٍ عند العائلة

التي كنت أقيم عندها، وهو ابن أخ مضيفي. وقد تصادف أن التقيت به في اليوم الموالي عند الجبال وكنا وحدنا، فأخبرني بخجل شديد وبطريقة غير مباشرة أنه كان يعشق الفتاة التي عقدت قرانها بالأمس، وأن له أسباباً تجعله يعتقد أن الفتاة كانت تبادله الشعور. وأكد لي أنه لم يخبر أحداً بما قاله لي الآن. وسألني هل أعرف أي وسيلة لنقض زواج الأمس، وقال إنه كان بإمكانه الزواج من الفتاة بسهولة لأن صداقها لم يكن سوى جملين، خاصة أن أسرة الفتاة لم تكن موافقة على العريس. لو أنه تمكن من إيجاد الشجاعة ليقول شيئاً لوكيل الفتاة، وعمها، ولكن الخجل منعه عن الكلام. شعرت بأسف شديد لأن هذا الشاب لم يخبرني بهذا الموضوع قبل عقد القران، فلقد كان بإمكاني ترتيب الأمر بالتأكيد بطريقة تنتهي لصالح هذا الشاب الولهان. ليس هذا فحسب، بل إن أمراً كهذا كان سيجعل سمعتي بين البدو تتحسن أكثر وأكثر، ولكن هل من حيلة الآن؟ ما باليد حيلة إلا الحيلة التي يستعملها العرب في مثل هذه الحالات: كتابة تعويذة، حجاب، ينغص على الزوج حياته الزوجية، فيضطر بالتالي للتطليق. وذلك لأن العادات هنا مختلفة تماماً عما هي عندنا. فقد جرت العادة عندنا على أن يخرس من كان ينافس العريس على خطبة العروس تماماً في يأس، ويتنازل عن آماله كلها مهما كان عشقه للعروس، وحتى لو كان شغفه بها قد وصل حد العبادة، أما هنا فإن الشاب يبذل جهداً أكبر للحصول على الفتاة بعد زواجها، حيث إنه يسعى لتطليقها من عريسها. ومن جملة الأمور التي قد يقوم بها الشاب العاشق للحصول على معشوقته كتابة تعويذة لشل قدرة العريس الجنسية (أو ربطه كما يقولون هنا وقضبه كما يقول أهل نجد)، وقد سمعت قصصاً غريبة كثيرة عن هذا الأمر. ففي نجد، يقومون بدهن نِعليْ العريسين بدم حيوان، ثم يربطون الحذائين معاً ثم يدسانهما تحت وسادة فراش الزوجية لشل القدرة الجنسية للعريس

المحسود. إن الإيمان بمفعول السحر يؤثر في هؤلاء الناس ذوي الحساسية العالية تأثيراً يفوق الوصف. وهكذا وجدت نفسي مضطراً لكتابة تعويذة لهذا البدوي الشاب، وهي واحدة من العديد من التعاويذ الذي بدَّدتُ فيها ورقي في شبه جزيرة العرب. ولكنني لا أعرف ما كان مصير هذا الشاب، لأنني غادرت المنطقة بعد ذلك بوقت قصير. أعتقد أنه سيُوفَّق في الموضوع في النهاية، لأن مظهره وأشياء أخرى كثيرة فيه ستكون لصالحه، ولأن الزيجات هنا تعقد بسهولة وتُفسخ بسهولة.

أمضيت هنا بين هؤلاء العرب تسعة أيام في جو من المرح، ثم بدأت أشعر بالرغبة في مواصلة رحلتي. ولذلك كنت أطلب من صديقي الحسن التأهب للسفر كل يوم. وفي العشرين من فبراير، ذهبنا إلى أعماق الصحراء.

وفي السابع والعشرين من فبراير، وصلنا إلى أرض حصمة، أي المنطقة التي تقيم فيها قبيلة معازة. وذهبنا في زوال اليوم ذاته عند سليم المريض، وهو كبير شيوخ هذه القبيلة الكبيرة، وربما يكون الرجل الأكثر نفوذاً في هذه الأرجاء. حسبتُ الخيام المنصوبة هنا فوجدتها أكثر من ثلاثين خيمة. ومعظم الخيم هنا كبيرة، وقد لاحظت أنها مقسمة إلى ثلاث غرف، وهو أمر لم أره من قبل في المناطق التي زرتها في فصل الربيع الحالي. وبعد أن شربنا القهوة، ونلنا قسطاً من الراحة من عبء الرحلة، دعيت أنا والحسن لتحية مضيفنا. كان الشيخ مستلقياً في مركز خيمته الكبيرة، ومغطىً بسجاجيد وملابس أهداه إياها زعيم قافلة الحجاج السورية عندما كان الشيخ سليم دليله في رحلته من معن إلى بركة المعزِّم، وهي نقطة توقف ترتاح فيها القوافل. يبدو أنه رجل في الخمسين من العمر، اعتلى الشيب نصف لحيته، ملامح وجهه حادة، وخداه ضامران، وأنفه طويل جداً. كما يبدو رجلاً ذا مزاج سيئ مما يدل على طبع متقلب، وعن قلة صبر. لاحظت عليه منذ النظرة

الأولى علامات أمراض الرئة: تورم الساقين، سعال حاد وخانق عادة، قوة خائرة بالكاد تكفي للجلوس في سريره، وكادت تنفد خلال حديثنا المطول. وعندما سألته كيف عرف المرض طريقه إليه، تأكدت من صحة تشخيصي، وتأكدت أكثر عند استماعي إلى صدره، وذلك لأن نبضه الضعيف كان بسرعة مئة وعشرين مرة في الدقيقة الواحدة. وفي ذلك الوقت كان كل الرجال قد اجتمعوا، وكان علي فحص الأعراض بحضورهم، وقد سبب ذلك كثيراً من الإزعاج لي وكذلك للمريض الذي تعب كثيراً من ذلك فخارت قواه ونام في فراشه عاجزاً. والشيء الذي أغضبني أكثر هو تنافسهم على طرح كم هائل من الأسئلة حول المرض، وتكرار الأسئلة نفسها مرة أخرى من قبيل: كيف هو؟، من أين جاءه المرض؟، أليس هذا المرض هو السقوى؟ (يقصدون جرعة الحب التي سقته إياها إحدى نسائه والتي قد تكون تسببت في مرضه) وما رأيي أنا في الموضوع؟ إلخ. وقد أخرستهم بإجابتي عندما قلت إن رئتي الشيخ قد دُمِّرَتا، وتنبأت لهم بنبؤة قاسية للغاية لخصتها في جملة (الله كريم). فكرت عندئذ في أستاذي إلمون، وتمنيت لو أنه كان هنا ليعاني من ضغط هؤلاء القوم ذوي الأسئلة الكثيرة.

وعندما خرجنا من عند المريض لتناول طعامنا، قلت للحسن أنه ليس ثمة شيء يمكن القيام به لعلاج المريض، وبأنني أعتقد أن موته وشيك لا محالة، وبأن بقاءنا في هذه القبيلة يكاد يكون عديم الجدوى، ومن ثم فإنه سيكون من الأفضل مواصلة الرحلة إلى تبوك في اليوم الموالي. وقد أخبر الحسن ابن أخ الشيخ سالم وصهره صقر الذين اتفقا معي أن أبقى إلى جانب الشيخ مهما كان الأمر، وقد نشأ في نفسي تجاه الشيخ احترام وتوقير. ثم طلب مني الشيخ سالم بنفسه وبإصرار ألا أتركه حتى يموت أو يتعافى، وأضاف: (كما كان سيفعل أي من البدو في هذه الحالة)، وبأنه إذا أتى الله بشفائه على يديَّ، فإنه سيمنحني

كل مـا يملكه من خيـول وجمال. ليس هذا ما أسـعدني، ولكنني نزلت عند طلبهم بالبقاء لأنني فرحت بالعيش في خيمة بدوي مع بدوٍ أقحاح وأغنيـاء. وقد هيّأتهم لتقبل ما سـيحدث في المسـتقبل، وقلت لهم بأن الأمل في تحسـن سـالم مفقود، حتى لا يتهمونني بالتسـبب في وفاته. كمـا طلبت منهم على أي حال أن يأخذوني إلى تبوك متى طلبت ذلك، أو أن يأخذونـي إلـى غايـة تيمـاء إذا مكثت عندهم مدة أطـول. وهكذا وعدتهم بالبقاء معهم مؤقتاً بهذه الشروط.

أراد الشيخ، إذا ما تحسَّنتْ حالته، أن يركب مطيته ويأتي معي بنفسه عنـد فيصل أو إلى أي مكان أريد. وكان هذا هو التعويض الوحيد الذي طلبتـه منه. وبعدما اتفقنا على كل شـيء، قفل الحسـن راجعـاً بعد يوم واحد، ورافقه في سـفره رجل اعتلى الشـيب لحيته، كان قد جاء يبحث عـن جمـل ضاع منـه فـي المرعى قبـل شـهر. وكان حاجاً مثلـي ومثل الحسـن. وقد أصابته قشعريرة عندما سـمع بأنني لم أتمكن من الصلاة منذ عشرين يوماً لأن ملابسي لا تزال ملطخة بدماء الخراج الذي أعاني منـه، وليـس هناك ماء لأغسـل به ملابسـي، والصلاة لا تجـوز لي بهذه الملابس المتسخة.

بقيـت وحدي عنـد مريضي النائم على فـراش الموت، وعند هؤلاء النـاس الغربـاء المحيطيـن بي. ولكـن البدو متشـابهون فـي كل مكان تقريباً، سـرعان ما يصبحون أصدقاء وأشقاء. وعلاوة على ذلك، فإنني أحظـى هنـا باحترام كبيـر، ليس باعتباري طبيباً فحسـب، بـل أيضاً لأن قهوتي الجيدة متاحة للجميع دائماً. لحسن حظي أنني لا أدخن، وذلك لأننـي لو كنت جئت بحمولـة قافلة كاملة من التبغ لما كانت لتكفي كل هؤلاء البدو، وخاصة هنا في هذه القبيلة.

ومع ذلك فقد بدأت أفعل ما بوسعي لترتيب أمور حياتي وأمور حياة المريـض. حتـى الآن كانت شـقة البيت، أي غرفة الضيـوف، في جناح

خيمة سالم، توجد بجانب غرفة المريض، ولكنني طلبت نقلها إلى خيمة أخرى، قائلاً بأن ذلك ضروري جداً حتى يحصل المريض على بعض الهدوء، ولكي أنال أنا الآخر شيئاً من الهدوء. حاولت التخلص من كل الضوضاء والضجيج، ولكن دون جدوى! فضلاً على أن الناس كانوا يريدون دائماً أن يطلبوا من الشيخ الحكيم المشورة حول الطرق وغيرها من الأمور، كما كان الجميع يرغبون في لقاء هذا الرجل العجوز المحبوب والتحدث معه، حيث إن غرفة المريض كانت غاصة بالناس الذين يرهقون الشيخ بالأسئلة من الصباح حتى الليل. وكما كنت أفعل عند قبيلة العقبي، كنت أعد طعامي هنا أيضاً بنفسي بل وأعدُّ طعام المريض كذلك. فعندما لاحظت أنهم كانوا يستخدمون هنا أواني نحاسية لم يتم تغليفها بالقصدير لسنوات طويلة، وربما لم يتم غسلها أبداً منذ شرائها، ويزيدون الطين بلة بنقع الخبز الثخين الذي تم طهيه في الرماد في كميات هائلة من الزبدة واللبن، أُجبرتُ على أن أقول لهم بأن مثل هذا الأكل غير صالح للمريض على الإطلاق. وبما أنني كنت قد أخرجت قدري الخاص من حقيبتي ذات مرة، وحضرت فيه الطعام، فأعجب الشيخ سالم كثيراً، فإنني صرت منذ ذلك الحين طبيبه وطباخه في الوقت نفسه.

في البداية أخذ العلاج يجدي نفعاً، بحيث إنني تمكنت بفضل الأدوية المضادة للالتهاب من جعل نبض المريض ينخفض إلى خمس وثمانين أو تسعين نبضة في الدقيقة، كما أنني تمكنت من السيطرة على الإسهال نوعاً ما عن طريق المحافظة على أسلوب حياة روتيني أكثر. أصبح الرجل العجوز يتمكن من الجلوس في السرير في وضع مستقيم رغم أنني منعت عنه ذلك، يدخن البيبة ويدردش مع الحاضرين، بحيث أصبح للناس بالفعل أمل في شفائه. كنا إلى حدود ذلك الحين، نخرج راكبين على ظهور الخيل، لمدة ساعتين إلى أربع ساعات في اليوم،

إلا أن سالماً لم يعد يكتفي بالركوب لأقل من ست إلى عشر ساعات، ولذلك فإنه وعلى الرغم من ضعفه، كان يضطر للجلوس على ظهر الجمل طوال اليوم، وتحمل طريقة سيره الهزازة المضنية. بالإضافة إلى أنه ما إن شعر بالتحسن حتى بدأ يشرب حليب الإبل بكميات كبيرة ويرتكب غير ذلك من أخطاء الحمية الجسيمة دون علمي. وكانت نتيجة ذلك أن تدهورت حالته مرة أخرى بعد ثمانية أيام، فدخل في غيبوبة، وفقدت أنا كل أمل في شفائه، واكتفيت بعلاجه بالطرق الخارجية فقط، مثل الحجامة وإفرازات الخنافس.

وبينما كنت أشرب القهوة، ارتفعت أصوات كل النساء بالعويل في غرفة المريض: مات سالم. وكان قد تعرض أثناء تناول الطعام لنوبة سعال خانقة، فنام في فراشه، وسحب آخر نفس. أنهى موت سالم مهمتي هنا، وعلى الرغم من أن أرملة المتوفى أرادت مني البقاء، والزواج من ابنتها، فقد طلبت من صقر أن يأخذني إلى تبوك. لم يعارضني البتة، فخرجنا في الخامس عشر من آذار / مارس، برفقة شاب بدوي مسلح طلب منه صقر السفر معنا. فالبدوي لا يحب السفر وحده، ولا يحب السفر مع غير البدو، بل إنه دائماً يتوق إلى برفقة بني جلدته.

تعتبر تبوك مدينة صغيرة، ليس فيها إلا نحو مئة كوخ طيني صغير، ولا يبرر وجودها إلا قوافل الحجاج السورية فقط. يوجد بها حصن صغير، وعدد سكانها سبعة أشخاص (نعم، سبعة) من الرجال الذين لا شغل لهم على مدار العام إلا حراسة المؤونة التي جيء بها إلى هنا لتلبية احتياجات قوافل الحجاج. قضيت هنا أسبوعين تقريباً، وانتظرت كل يوم أن يأتي بدوي ما ليوصلني إلى تيماء. شيخ المدينة هو رجل شاب وسيم، عاداته إغريقية محضة. وقد عاد عندما كنت هناك من رحلة موفقة، ومعه شخصان من قبيلة بالي. أحدهما يدعى عقيل

ويشتهر بكونه رجلاً جديراً بالثقة. ولذلك حاولت أنا ومُضيفي، الرجل الطيب، إقناع عُقيل بأن يأخذني إلى تيماء. واجهتنا في البداية بعض الصعوبات، لأنه لم يأت بجمله الخاص، كما أن رفيق سفره جاء بجمل وحيد كان عليهما أن يضعا على ظهره الحمولة المكونة من الملابس وغيرها من البضائع التي كانا ينويان أخذها معهما للبدو. ولكن رتب هذه المسألة في نهاية المطاف، فانطلقنا في الخامس من نيسان / أبريل زوالاً من تبوك، وسط ضباب كثيف لا يمكن اختراقه، بحيث لم يكن لدينا أدنى سبب للخوف من أن يتعرض لنا أحد في الطريق. وبالإضافة إلى البدويين المذكورين، صاحبنا بدوي شاب آخر من قبيلة الشراري البدوية الفقيرة.

كنا نمر في طريقنا بهضاب جدباء لا تسر الناظرين، تتخللها هنا وهناك بعض الجبال مخروطية الشكل، وتحيط بها بعض الصخور السوداء على مسافات مختلفة وكأن السماء أمطرتها يوماً ما، إلى درجة أنني لم أر في حياتي كهذا المنظر البُركاني من قبل. وفي الثامن من أبريل، نزلنا إلى المناطق الداخلية التي تقع جنوبها أرض النفود الواسعة، أو الجو كما تسمى، وهناك وصلنا إلى مراع خصبة حقاً. كان من المفروض أن نجد هناك مخيماً للبدو، ولكن رفاق رحلتي كانوا قد غابوا عن ديارهم مدة ثمانية أيام فرحلت قبيلتهم في تلك الأثناء إلى مكان آخر. ولذلك فإننا لم نكن نعرف أين يمكننا العثور عليها. لم يكن بإمكاننا فعل أي شيء عدا ما يفعله البدو في مثل هذه الظروف: اقتفاء آثار الماشية، والمشي وراءها للحاق بالأهل. واقتفاء الأثر وملَكَةُ تفسيره في الصحراء أمر ذو أهمية حيوية، ومن ثم فإن العرب يتمكنون من خلاله من اللحاق بأهلهم لدى عودتهم من رحلاتهم، ويتمكنون من خلاله من تفادي الأعداء، أو ملاحقتهم؛ ويتمكنون من خلاله من البحث عن الجمال الهاربة. إنهم قادرون على فك رموز هذه الطلاسم

الرتيبة وفهمها، الأمر الذي يستعصي على أي أحد آخر. وبينما كان اثنان منا يتجولان لاقتفاء الآثار، لمحا من بعيد، وبمحض الصدفة، قوماً وإبلاً، فصاحا بنا أن أنيخوا الجمال، كما يفعلون عادة عند مواجهة خطر محدق. أنخنا الجمال وانبطحنا نحن جميعاً أرضاً لمراقبة القوم المشتبه بأمرهم. يتمتع جميع البدو بحدة البصر، فهم أبصر خلق الله عن بعد بحيث يتمكنون من رؤية الأشياء على مسافات طويلة بشكل لا يصدق. وبما أنني أعاني من قصر النظر فإنني لا أستطيع مقارنة بصري ببصرهم، فكثيراً ما يرون الأشياء عن بعد نصف ساعة قبل أن أكتشف أنا أن ثمة شيئاً ما. ولكن الرؤية عن قرب ضعيفة عندهم، لأنني لا أعتقد أنني رأيت أي رجل أو امرأة منهم يتمكن من إدخال الخيط في عين إبرة متوسطة الحجم دون بذل مجهود كبير. كما أنهم يتمتعون أيضاً بقوة حاسة الشم، بحيث إنهم يشمون رائحة النار قبل أن أشمها أنا بخمس دقائق، ولكن قوة سمعهم ليست أفضل من المعتاد، لأنني غالباً ما أسمع الأصوات قبلهم، وأتمكن من تميز مصدرها بدقة أكبر.

راقب الرجال الهدف المُشتَبَه بأمره بعناية شديدة، ورأوا مجموعة من المُرَدَّفات، أي مجموعة من الجمال التي يركب كل واحد منها رجلان اثنان، مما يدل على أنهم في رحلة غزو. ولكن سرعان ما لاحظ الرجال أن قطيع الجمال متفاوت الارتفاع، فبعضها طويلة القوائم، وبعض الآخر منخفض القوائم، مما يشير إلى أن ذلك قطيع من الإبل والأغنام. وهذا معناه أن هؤلاء القوم قد يكونون قبيلة راحلة إلى مكان ما، وربما يكونون هم بالذات من نبحث عنهم. وسرعان ما تأكد هذا الافتراض. لذلك أوقفنا الجمال على قوائمها، وتابعنا رحلتنا. وبعد أقل من نصف ساعة، وصلنا إلى العرب المشتبه في أمرهم، وكانوا قد توقفوا لتوهم، وبدؤوا ينصبون خيامهم. وكانت هذه القبيلة البدوية هي قبيلة ابن شامة ذائعة الصيت، وهم من بدو بالي الذين كنا نقصدهم.

كان لمضيفي أولاد من بينهم ابنة تبلغ من العمر سبعة عشر أو ثمانية عشر ربيعاً، وقد كانت قد تزوجت منذ ثلاث سنوات خلت من ابن عمها الشاب الذي يسكن في الخيمة المجاورة لخيمتنا. وقد كانت الفتاة أجمل ما رأت عيني على الإطلاق رغم أنها لم تكن بالحسناء العربية بل ربما أقرب إلى حسناء أوروبية لبياضها، ولم تكن عيني قد وقعت على مثلها بين نساء الشرق. وكانت تقضي معظم يومها في خيمتنا، وهكذا تعرفنا بعضنا على بعضنا الآخر، فأخبرتني أن زوجها يهددها باتخاذ زوجة ثانية لأنها لم تنجب له إلا بنتاً واحدة خلال ثلاثة سنوات من زواجهما. وقد أخبر الرجل زوجته الشابة الجميلة التي تدعى عمشة أنه يريد زوجة تنجب له أولاداً كثيرين. لم تحب عمشة هذا الأمر بطبيعة الحال فطلبت مني النصيحة حول طريقة تُثْني بها زوجها عن نيته. وكنا نخوض لأيام عديدة في هذا الموضوع وفي موضوعات أخرى فقد فقدت صوابي لدرجة أنني سمحت لإحساس طالما طردته من فكري بالتسلل إلى قلبي. احزر القرار الذي توصلنا إليه! بأن نهرب سوياً وتهرب من زوجها وأهلها ونذهب إلى قبيلة أخرى ونجبر من هناك زوجها على تطليقها ونسترضي والدها إن كان قد غضب، ثم نتزوج ونرجع إلى قبيلتنا فنعيش فيها بسلام. يبدو أن هذه الأشياء لم تكن نادرة الحدوث في الصحراء رغم أنني أدرك تمام الإدراك أنني لا أستطيع القيام بمثل هذه الأشياء. كان من الممتع تقليب مثل هذه الأفكار الرومانسية - الصحراوية في فكري واستنتاج بعض الاستنتاجات التي قد تكون خيمة الصحراء قد ألهمتني إياها: «ما الذي يربطني بأوروبا التي أصبحت غريباً عنها؟ قد أعيش ما تبقى من حياتي هنا وسط أبناء الصحراء وأقتني قطيع أغنام وآنس بظروف الحياة البسيطة في الصحراء بعيداً عن تفاهة أوروبا وتحضرها المتفاخر به والمنمق. في الواقع ربما لا أستطيع تحمل حياة الصحراء وربما لا يستطيع أحد فهم ظروفها

فهماً تاماً إلا إذا كان قد ولد وشب فيها، إضافة إلى أنني كنت قد اطلعت عن قرب على عيوب البدو ونقاط ضعفهم لدرجة تجعلني أعتقد أن الحياة وسطهم ستصبح صعبة على المدى البعيد.

لقد أقمت هنا الآن مدة ثمانية أيام سعيدة جداً بين هؤلاء الرجال الذين كانوا نموذجاً حقيقياً للرجولة لا من حيث مظهرهم، ولا من حيث طريقة تفكيرهم، وكذا من حيث سلوكهم تجاه الآخرين. كما قضيت وقتاً ممتعاً أيضاً مع أفضل الأطفال الذين التقيت بهم، وتمتعت بطعام طبيعي للغاية، حيث كنا نعيش على حليب النوق على وجه الحصر تقريباً. لذلك فقد تطلبت مني مغادرة هذا المكان بذل الكثير من الجهد، وعقد العزم للقيام بذلك مرة بعد أخرى. ولكن لا بد لي أن أواصل رحلتي مهما كان الأمر. خرجنا يوم الأحد السادس عشر من أبريل على ظهور ستة جمال في مجموعة تتألف من تسعة رجال سيأخذونني أولاً إلى تيماء بقيادة عقيل، ثم يتابعون طريقهم في رحلة غزو إلى منطقة قبيلة شرارات. وعلى الرغم من أننا لم نكن قليلي عدد، إلا أن الرجال كانوا يخشون من مخاطر الرحلة. وقد أكّد الرجال على أساس ما رأوه من أثر أنني لو كنت خرجت للسفر مع عقيل قبل ثلاثة أيام (كما كنا ننوي) لكنا بلا شك قد وقعنا في يد جماعة عنيزة الذين عادوا لتوهم من رحلة غزو.

ولكننا تابعنا رحلتنا بسلام ووصلنا في التاسع عشر من أبريل إلى تيماء، وهي مدينة صحراوية ذات أهمية كبرى، وهي مزروعة بأشجار النخيل الكثيرة جداً، وتعد تمورها أجود التمور على الإطلاق. وقبل ساعات قليلة من وصولنا، كان رجل يدعى بشير قد وصل إلى هنا من القاهرة، وهو من عبيد الباشا عباس، وكانت مهمته نقل قطيع من الخيول النجدية من حائل لسيده، وكان على وشك مواصلة رحلته من هنا إلى مصر. لم أكن أحب أن ألتقي بهذا الرجل إطلاقاً، ولكنني لن

أتمكن من تجنبه الآن، ولذلك قررت الذهاب للقائه، وإرسال رسالة معه إلى القاهرة. ولكن بينما كنا نشرب القهوة مع مضيفنا الجديد في تيماء، جاء رجل لم يكن يعرف عنه أحد شيئاً، إلا أنه كان من قوم البشير. كان متعجرفاً ومتغطرساً، تماماً كجميع رجال الباشا الشرقيين وضيعي المكانة، وبدأ يسألني من أين جئت؟ وإلى أين أنا ذاهب؟ من أكون؟ وما إلى ذلك. وبعد ذلك، بدأ يلوم مضيفي البدويين على أنهم يرافقون أياً كان في أراضيهم، دون الاستفسار عنه، معرضين بذلك البلاد للخطر. انزعجت كثيراً من أسئلته فقلت له: «ومن تكون أنت حتى تعتقد أن من حقك أن تسألني بهذا الشكل؟» فاستشاط غضباً، ووضع يده على قبضة خنجره وأجاب: «أنا أخدم عباس باشا، الذي تزعم أنت كذباً أنك من رجاله». وضعت يدي على قبضة مسدسي تحت العباءة، ولكنني أجبت بهدوء تام: «سلوكك يكشف أنك كاذب، لأنه لا يناسب خادم عباس باشا. كما لم يسبق لي أن ادعيت أنني خادم للباشا. فأنا والحمد لله، لست خادماً لأي أحد غير الله. أحضر إلى هنا ذاك الذي ادعى غير ذلك حتى أقيم البرهان على كذبه. وما شأنك أنت بي وبمرافِقَيَّ؟ أنا لست بمتشرد ولا هارب، والترخيص الذي منحني إياه محمد علي يشهد على ذلك».

وكان سبب زيارة الرجل وسبب طريقة كلامه الفظة هو أنه بعد وصولي إلى تيماء برفقة ثمانية رجال، بدأ سكان المدن الصغيرة يذيعون أخباراً من قبيل أنني من رجال عباس باشا، وأنني أحمل معي عشرة صناديق من الذهب، وأتوجه بها إلى نجد لشراء عدد من الخيول لسيدي. وقد التقيت في الطريق بالفعل ببعض رجال هذا الباشا. وهذا الأخير هو الرجل النافذ الوحيد في مصر الذي لديه علاقات مع شبه جزيرة العرب، لكنني في الواقع لم ادَّعِ أبداً أنني من رجاله، بل إنني على العكس كنت أنفي علاقتي به دائماً عندما كنت أُسأل عنها بشكل

مباشـر. ومع ذلك ذهبت على الفور للقاء بشـير، فوجدته رجلاً محترماً وخلوقـاً، بقـدر مـا كان الرجل الآخر وقحـاً وفظاً. كتبتُ رسـالة باللغة العربيـة، وأعطيته إياها لإيصالها إلـى القاهرة (وربما تكون قد وصلتك بالفعـل) ودعـوتُ أصدقائـي فيهـا أن يتكفلوا بـدرء الشـائعات الدنيئة التي قد تنتشـر حولي. وذلك لأنني خشـيت العواقـب الخطيرة التي قد تترتـب عن لقائي هذا. كان هناك رجال من حائل يرافقون بشـيراً، وهـم سـيعودون قريباً جداً من مصر، ولذلك اعتبرت أن من المرجح جداً أن يسـألوا عني في القاهرة، وربما يصلون إلى حائل قبلي. في هذه الحالة لـن يكـون ظهري محمياً، ولهـذا كانت بعض الخطـط المختلفة تجول فـي فكـري. فعلاوة على ذلك لا يمكنني أن أعـرف أي نوع من الأوامر يمكن لعباس نفسـه أن يرسـلها إلى حائل، فهو إن لـم يكن يعرفني بعد (وأنا لا أعتقد ذلك)، فإنه من الآن فصاعداً سوف يسعى للحصول على معلومـات دقيقة عنـي. لا يمكن الوثوق بالأتراك. لكن الشـيء الوحيد الذي يمكنني القيام به الآن، هو التعجيل بالرحيل.

في السـادس والعشـرين من أبريل، غـادرت تيماء برفقـة بدوي من قبيلة بشـر. وقضيت اليوم الموالي معه عند بدو فقارا. وبينما نحن هناك انضم إلينا ستة عشر رجلاً قدموا من القاهرة. وكانوا من رجال فيصل بن سـعود من الرياض، وكانوا قد غادروا ديرتهم قبل سـبعة أشهر لإيصال خيول قدَّمها سـيدهم هدية لعباس باشـا في القاهرة. في البداية سـاروا عبـر طريق الحجاج إلـى مكة، ومن ثم إلـى القاهرة مـع قافلة الحجاج المصريـة. وهـم الآن عائدون إلـى ديارهم في الرياض بعد أن انتهوا من مهمتهـم. وبما أن طريقنا كان واحداً، فقد انضممنا إليهم. وكان قائدهم شـاباً، خلوقاً، وكيّسـاً يدعى هزاع، كان من السـهل عقد صداقة معه كما هـو الحـال مع العرب بصفـة عامة. وهكـذا بدأنا الرحلـة، وكنا جماعة كبيـرة، فبالإضافة إلى مرافقينا الذين سـبق أن ذكرتهـم، انضم إلينا عدد

مـن بدو فقارا، وشـيخهم الأعلـى، وكان مجموع المنضميـن إلينا اثني عشـر شـخصاً. وفي الطريق تعرفنا بعضنا على بعضنا الآخر عن كثب، فاتضـح أن أحـد المنضميـن إلينا من عبيد عباس باشـا أيضـاً، وهو في طريقه إلى فيصل فقط لشـراء فرس اشتهرت بكونها الأفضل في جزيرة العرب كلها، وهي حالياً ملك لشـيخ قبيلة دويش الكبيرة. فكرت بأنني لـن أتمكـن من الوصول إلى فيصل في صحبـة أفضل من صحبة هؤلاء الرجال، لذلك طلبت منهم أن أرافقهم حتى نهاية رحلتهم. لم يعارضوا أبـداً، لكنهم قالـوا (معنا خبـرك) أي أنهم يعرفونني. فـي البداية ظننت أنهم سمعوا عني من العرب الذين قدمت من عندهم، ولكن علمت في وقت لاحق أن هذه العبارة تُفهَم بطريقة مختلفة. وقد قال هزاع، من بين العديد من الأخبار الأخرى التي قالها، أن جميع الفرنجة قد نقضوا عهد ملوكهم، باسـتثناء الإنجليز الذيـن ظلوا على ولائهم لملكتهم، ولكنني لـم أفهـم ذلك إلا بعـد وصولي إلى بغداد. كنا نسـرع أثنـاء رحلتنا أكثر من اللزوم تقريباً، وذلك لأننا كنا نسـير سـيراً سـريعاً ليس خلال النهار فحسـب، وإنما خـلال جزء مـن الليل كذلـك، لكي يصـل رجال نجد التواقين إلى العودة إلى أرضهم الفقيرة في أقرب وقت.

وصلنـا إلـى حائـل في الثانـي من مايـو. وبمـا أن هذا المـكان كان مألوفـاً لـدي بفضل رحلتي السـابقة، فقد اسـتقررت عند الرجل نفسـه الذي أسـكنني عنده في المرة السـالفة. وسـرعان ما انتشـر خبر مجيئي في المدينة، وبالكاد تمكنا من شـرب قهوة الترحيب بنا، حتى نزل عليَّ العديـد مـن الضيوف، مـن بينهم أبرز رجـال المدينة (أميـر الحجاج)، رئيـس قافلة حجاج بغداد. وقال لي إن سـلفه وشـقيقه الـذي كان يقود قافلـة الحجيـج عندما أديـت فريضة الحج مشـلول الآن، ولا يسـتطيع تحريـك رجليـه بتاتاً، وأنه كان قد سـافر إلى بغـداد للبحث عن طبيب، ولكنـه قفـل راجعـاً دون الحصول على مـراده، وهو الآن فـي الطريق،

وسيصل إلى هنا خلال بضعة أيام. وطلب الأمير مني عدم اللحاق بمرافقِيَّ والبقاء هنا لمعالجة المريض أو لفحصه على الأقل، ووعدني بأن يأخذني على أي حال، وفي أي وقت أريد، إلى فيصل الذي قال إنه على اتصال مستمر به، إلخ. كل هذا لم يؤثر فِيَّ على الإطلاق، وذلك لأنني أتجنب جميع أنواع المرضى ما استطعت. لكننا سمعنا خبراً، تبين فيما بعد أنه كان خبراً كاذباً، مفاده أن فيصل الآن ليس في دياره لأنه خرج في رحلة غزو ضد قبيلة وادي دواس. كان على مرافقِيَّ اللحاق بسيدهم إذن، ولهذا السبب لم يعد بإمكانهم الذهاب معي مباشرة إلى الرياض عبر القاسم. وبما أن طريقنا لم يعد واحداً، زيادة على أن سيرهم السريع كان شاقاً جداً بالنسبة لي (لأنني لم أتمكن من التفرج على مناظر المنطقة، ولم أكن أريد التفرج ونحن نسير سيراً حثيثاً، كما أنني لم أتمكن من الدردشة مع البدو عن ظروف العيش في المنطقة)، فقد قررت البقاء هنا بضعة أيام للراحة، ويبدو أن هذا القرار كان قراراً موفقاً عموماً على أساس ما حدث بعد ذلك.

غادر مرافقِيَّ، ووصل المريض بعد يومين، ومعه طبيب عربي التقى به في البصرة يفترض أنه سيداويه. وكان الطبيب المصري في الحقيقة فلاحاً من صعيد مصر، ولكنه كان قد قضى عشرين عاماً مسافراً عبر البلاد. وكان تشخيصه لحالة المريض كالتالي: كان المريض خلال إحدى الغارات قد سقط من صهوة حصانه على عبد جني (والجني أحد الأرواح التي يُعتقد أنها تسكن في كل زاوية)، فكسرت ساق الجني تحت وزن الحصان، ولذلك فإن الجني قد شل كلا رجلي المريض تعويضاً عما جرى له. وقد صدق الجميع تشخيصه هذا. وقد طلب الطبيب من العبد الجني أن يكتفي بكسر ساق رجل عبد (حسب ما تنص عليه الشريعة الإسلامية)، ولكن الجني لم يوافق. وعندما لاحظ الطبيب أن الجني باقٍ على حاله ولن يستسلم، طلب مهلة شهر يسعى

خلالها إلى مساعدة المريض، وإلى مصارعة الجني لإعادة الأمور إلى نصابها. ثم بدأ العلاج باختيار صبي في الثانية عشر من العمر، وإلباسه الكفن، ووَضْعِه في غرفة مغلقة مظلمة يفترض أن الجن يعيش فيها، وينبغي للفتى أن يسأل ذلك الجن عن مرض المريض، وعن سبل علاجه. وبعد بضع ساعات، يُخرج الفتى من الغرفة ويحرر من سجنه، فيُؤكِّد أنه رأى هناك مختلف أنواع المخلوقات والرؤى، لكنها رفضت جميعها التحدث أو الإجابة عن أسئلته. ومن ثم أصبح الطبيب في وضع حرج، وأصبح مجبراً على علاج المريض بطرقه الخاصة. وفي أحد الأيام، طلب حمامة، وفي يوم آخر طلب أرنباً برياً، ثم طلب بومة وما إلى ذلك من الأشياء التي استعملها غذاء للمريض ودواء له في الوقت نفسه. ولكن هذا الأخير لم يتحسن بعد انصرام شهر. ولكنهم لم يلجؤوا إلي، وهكذا نجوت من جميع الاستشارات، باستثناء عدد قليل من الأشخاص الذين استشاروني حين انتابتهم الريبة في أمر طريقة العلاج التي اتبعها ذلك الطبيب.

خلال هذه المدة جاء لرؤيتي أخو أمير هذه الناحية، وهو شاب يدعى ميتيح، كنت قد تعرفت عليه بالفعل عندما جئتُ إلى هنا المرةَ الماضية. وقد جاء في المقام الأول للتفرج على مسدساتي التي كان جميع من يراها يمدحها ويصف روعتها. ولكنهم هنا، كما هو الحال في أماكن أخرى كذلك، يميلون إلى ترك الموضوع الرئيسي إلى الأخير، ويبدؤون بالموضوعات التافهة. ولذلك فإنه بدأ بالحديث بإعرابه أولاً عن دهشته من حظي الجيد، حيث إنني لم أقع ضحية غزو قط، ولا سجين قبيلة حتى الآن. في الواقع نادراً ما تمتع مسافر بهذا القدر من الحظ، خاصة إذا كان يسافر على نطاق واسع في أراضي العرب. وأضاف أن المناطق التي أعزم السفر إليها ليست آمنة بالقدر نفسه الذي عرفته حتى الآن، وأنني على الأرجح لن أغادر القاسم دون

التعـرض للنهب، هذا إذا تمكنت من الوصول إلى هناك أصلاً، ذلك أن مناطـق حكـم فيصل التي جاء لتـوه منها، هي مناطق تسـودها الفوضى وانعدام الأمن، ولذلك فقد نصحني بألا أذهب إليها. وبعد ذلك سألني عن مسدسـاتي، وتفرج عليها بدهشـة كبيرة، ثم طلب مني أن أبيعها له. رفضت وقلت له بأنني أنوي تقديمها هدية لفيصل. بعد مغادرته، طلب التحـدث إلـى مضيفي على انفراد، وأرسـل لـي عبره النصيحـة التالية: «قـل له ألا يذهب إلى عند فيصل بأي حـال، لأن فيصل وقومه يزدرون كل شـيء قادم من مصر ويرتابون فـي أمره. وفضلاً عن ذلك، ليس ثمة لهـذا الرجل مكان ولا شـغل في أرض فيصل علـى الإطلاق، فأنا على يقين أنه سيقتل هناك لا محالة، إما بالسيف أو بالسم. وقل له أخيراً، إننا نعلـم (معنا خبر) أنه مسـيحي، ولكنه ابن حلال. ولهذا السـبب نحترمه ونقدره، ولهذا السـبب أيضاً أرسـل له هذه النصيحـة الأخوية». أرَجِّحُ أنـه عـرف هذه المعلومة الأخيـرة لأنني قبل مغادرتـي للقاهرة كنت قد تقدمت بطلب لمحمد علي من خلال قنصلنا العام، للحصول منه على رسـالة توصية أذهب بها إلى شـبه جزيرة العـرب. ولكن الحاكم رفض طلبـي، في حين أن حفيـده عباس وافق عليه. ومـن المحتمل أن يكون هذا الأخير قد أخبر كلاً من هزاع وابن الرشيد بالأمر.

لم يزعجني من الرسـالة كلها إلا أنهم يعرفون كوني مسيحياً، لأنهم إذا كانوا يعلمون ذلك حقاً، فإن فيصل سـيكون على علم بهذه الحقيقة دون شـك. هـذه المعلومة جعلتني أفقد هدوئـي، وأفكر في العديد من الخطط في عجز شـديد. وفي النهاية توصلت إلى قرار مفاده أن أذهب من هنا مباشـرة إلى بغداد، ثم أكتب من هناك رسالة إلى القاهرة أتقصى فيهـا الموضوع، وأطلب المزيد من المعلومـات عن أمري. وبعد ذلك أقرر إن كنت سأذهب للقاء فيصل أم لا. فبغداد ليست بعيدة من هنا عن طريـق النهـر ثم عن طريق البحـر إلى القطيف. والمسـافة من هناك إلى

الرياض لا تستغرق سوى خمسة أيام.

خرجنا في رحلتنا بعد عشرة أيام، ولم نواجه صعوبات كبيرة، إلا أن أسداً أخاف جمالنا في إحدى الليالي فراحت تعدو بسرعة فائقة. لكن الأسد لم يهاجمنا نحن، رغم أن هذا قد حدث كثيراً في السابق على ما يبدو. كما أننا لمحنا مرةً عدداً من البدو من بعيد، ولكننا اختبأنا في الوقت المناسب، فلم نضطر لمواجهتم. لن أتمكن الآن من تزويدك بمزيد من التفاصيل عن هذه المرحلة التي كانت بعيدة كل البعد عن الرتابة، ولن أتمكن الآن كذلك من وصف رفاق سفري الذين كانوا من البدو الممتازين.

وفي الخامس عشر من يونيو، وصلنا إلى مشهد علي[1]. كنت بحاجة للراحة هناك بالفعل، وذلك لأن السفر وموجة الحر الشديدة كانا قد استنفذا قوتي بالكامل. إضافة إلى أن الجلوس على ظهر الجمل يشبه التعرض لضرب مبرح، زيادة على الخراج الذي بدأ يظهر مرة أخرى. أما ما عدا ذلك، فكنت أشعر هنا وكأنني في عالم آخر: لا ترى هنا الطبع العربي في أي مكان، وذلك لأن الطبع الفارسي هو السائد. ويشكل الفرس هنا نسبة كبيرة من السكان، وقد بنوا مسجد ضريح علي وعملوا على تزيينه بما يتناسب مع ذوقهم بأبهى اللوحات الفنية، بحيث إن المكان يفتقر للبساطة العربية المثيرة للإعجاب. لاحظت هنا كما لاحظت في بغداد لاحقاً، أن هذه المساجد كانت على ما يبدو نموذجاً لكنائسنا الروسية، أو أن ثمة علاقة ما تربطهما على الأقل، ذلك أن فني الرسم والنحت يشيران إلى وجود علاقة قرابة ما مع العالم الغربي بأسره. لا يزدهر شيء في المدينة كلها، فهي تقع وسط الصحراء، وكل شيء يجلب إليها من أماكن أخرى، وهذه المدينة الجديدة نسبياً

(1) ما يعرف اليوم بالنجف.

قد نمت حول ضريح علي، ويعزى بقاؤها إلى ضريح علي كذلك. ويتجمع الشيعة الفرس والعرب هنا في ضريح علي للصلاة، وهم يعتبرون أنفسهم محظوظين إذا ماتوا هنا. مجانين! ولكننا جميعاً لا نعيش في نهاية المطاف إلا على جنون الناس، فمجانين الناس هم من شيدوا على الأرض كل عظيم ورفيع. ورغم أن ثمة علاقة كراهية عنيفة تربط السنة بالشيعة (وهم يعتبرونني من السنة)، إلا أنني تمكنت من الحصول على مسكن عند عائلة شيعية عربية، حيث أسكنوني وسط نسائهم كأنني من العائلة. ولكن موجة الحرارة الشديدة التي دامت أربعة أيام اضطرتني لمغادرة هذا المكان، ومتابعة رحلتي مرة أخرى.

رسالة من بغداد إلى غابرييل غيتلين في 13/ 9/ 1848

وصلت إلى بغداد، مدينة الخلفاء الشهيرة في الخامس والعشرين من يونيو. كنت أراقب المدينة وأنا على ظهر مطيتي هذا الصباح للحصول على نظرة عامة، لاعتقادي أنها ستبدو عن بعد تقريباً كالقاهرة، أو القسطنطينية، أو كأي مدينة أخرى من مدن الشرق: بانوراما المآذن والقباب والبيوت العالية. لكنني لم أُمَيِّز عن بعد إلا بساتين النخيل مترامية الأطراف، وهي تشبه كثيراً تلك التي تنمو حول المدن الصحراوية الكبرى مثل مدينة الكفر. وبعد مسافة طويلة، لم أرَ مآذن المدينة القليلة المنخفضة. لا أعرف ما إذا كان هذا بسبب قصر نظري، أم بسبب أن بساتين النخيل العالية أخفتها عن الأنظار. كما أنني لم أرَ أي مبان أخرى إلا عندما أصبحت أسير وسطها. أما هذا الصباح، فقد سرنا على طول مجاري المياه، وبمحاذاة فروع الفرات الصغيرة التي تقطع الأراضي. ورغم أن معظم الحقول كانت محصودة الآن، إلا أن هذه المجاري المائية السخية أعطت انطباعاً بأن تربة هذه الأراضي خصبة، خصوصاً بعدما تعودت عيناي في الصحراء على الرمال الصفراء

الجافة. إن نهر النيل العظيم وواديه الخصيب يتقلص بالمقارنة مع العراق ومياهه وحقوله إلى العدم. وصلنا أخيراً، ودون المرور عبر أية بوابة أو أي شيء من ذلك القبيل، لاحظت فجأة أنني أسير في الشوارع الضيقة التي كانت على جوانبها بيوت منخفضة فقيرة تعيسة مبنية من الطوب القديم غير المصبوغ، وهي تراث ورثته المدينة عن القرون القديمة التي تعتبر الأفضل. نزلت من على مطيتي وتوجهت نحو الخان الواقع أمام محطة القافلة، واستأجرت هناك غرفة ليس في جدرانها أي فتحات أخرى غير الباب، وكان الهواء داخلها عفناً وفاسداً، وكانت الرائحة ثمة كريهة مثل رائحة الجلود التي دُبِغَت للتو. ولكنني كنت بحاجة للخلود للراحة بعد مدة طويلة من السفر على ظهور المطايا، وبما أنني لم أنم منذ ليلتين، فإنني خلدت للنوم على الفور، ولو أنني كنت غارقاً في العرق، ولم أستيقظ إلا في وقت متأخر في الزوال.

مضت عشرة أيام وأنا خَدِرٌ خامل بسبب الحر الشديد، قبل أن أتمكن أخيراً من الذهاب لمقابلة القنصل الفرنسي جيوفروي. وقد أخبرني عن الاضطرابات الكبيرة التي اجتاحت أوروبا في سنة 1848 خلال المدة القصيرة التي قضيتها في الصحراء. وقد تعرفت عنده على شيخه البغدادي الذي يتكلم العربية والتركية والفارسية بطلاقة، وهو يتكلم جميع هذه اللغات بنفس طلاقة تكلمه اللغة الأم. وقد تمكنت بمساعدته من الحصول على غرفة في محطة قافلة أخرى. وكانت لهذه الغرفة فتحة بمثابة النافذة تطل على النهر. وهي لم تكن بالنسبة لي مجرد مدخل للضوء فحسب، بل إنني كنت أفتحها وأفتح الباب أيضاً حتى أحصل على تيار هوائي، رغم أن الهواء في العصر كان حاراً وملوثاً للغاية لدرجة أنني كنت أضطر لدرئه عني بالستارة.

لم يكن في هذه المحطة إلا الفرس، ومعظمهم حرفيون من شيراز.

وكان أقرب جيراني نجار ورسامان. وكان أحد الرسامين رجلاً لائقاً وفناناً، وهو ينتج أدوات الكتابة الفارسية بإتقان وباحترافية عالية، وهو يزينها بالورود والعنادل بجمالية تضاهي عمل أي رسام أوروبي. كنت أقضي كل وقتي تقريباً برفقة هؤلاء الثلاثة دون أن يحدث بيننا أي خلاف. ويشتهر الفُرس بحسن الخلق والتهذيب على نطاق واسع، وأهل نجد تضرب بتهذيبهم الأمثال. وعادة ما أحس هنا برفقة الفرس أنني وسط الأوروبيين.

ويبدو لي أن العودة في وقت قريب إلى أوروبا أصبحت أمراً ضرورياً، حيث إنني بدأت أنسى تدريجياً معرفتنا وطموحاتنا، كما أنني أخشى أن أكون قد استلْهمتُ الشيء الكثير من الحياة الشرقية التي قضيتها هنا أحياناً عن طيب خاطر، وأحياناً مضطراً من قبل الظروف. لقد أصبحت رحلتي، بل حياتي كلها تقريباً مثل لحاف مصنوع من الكثير من الرقع المختلفة – أو مثل رداء درويش، ينبغي مواصلة ترقيعه برقعتين إضافيتين: واحدة من فارس، والأخرى من اليمن. وأنا ما زلت لا أعرف حتى الآن ما مدى ملاءمة هذه الرقع للرداء، لكنني أخشى ألا تزيده هذه الرقع إلا اختلاطاً فقط. لقد قضيت في بغداد الآن ما يقرب من ثلاثة أشهر، وكم طال انتظاري لرسالتك خلال هذا، ولكن هيهات! ألم تكتب لي، حتى وإن كنت قد طلبت ذلك منك في رسالة القاهرة. أم أن أحد مكاتب البريد فضَّل عدم تسليم الرسالة إليَّ؟

بعد غد، وهو الخامس عشر من سبتمبر، سوف أتوجه نحو بلاد فارس مع الرسام الفارسي، محمد علي الشيرازي، الذي ذكرته سابقاً، وسأسافر عبر كرمانشاه وهمذان إلى أصفهان وشيراز، وكذلك إلى أبي شيرين والبصرة بعد ذلك. لست واثقاً تماماً مما إذا كان من الصواب القيام بمثل هذه الرحلة (التَنَزُّهية) التي لا تتفق مع المسار الأصلي لخطة سفري، ولكنني أعتقد أنها ضرورية الآن بالخصوص لأسباب

عـدة: فأنـا أولاً وقبـل كل شـيء أحتاج لاستنشـاق هواء أنعَـشَ وأبرَدَ، وذلك لأن صحتي تأثرت بمناخ بغداد الجهنمي. وثانياً، لأنه لا يحسُـن بي الذهاب إلى البصرة، ولا إلى سـواحل الخليج العربي إلا بعد بضعة أشهر، لأن موجات داء الحمى متفشية هناك الآن. وثالثاً، لا أستطيع أن أحرم نفسـي مـن رؤية بلاد فـارس، ولا من فرحة التمـرس على لغتها، خصوصاً وأن رفيق سـفري علـى دراية كبيرة بالأدب الفارسـي. أعتقد أن الرحلـة كلها إلـى غاية البصرة ستسـتغرق مئة يوم، وسـتكلف قرابة مئـة روبـل فضية. وسـوف أصل إلى هناك مـع نهاية هذا العـام. حينئذ، لـن يكون قد بقي في جعبتي شـيء من المال، ولكن القنصل الفرنسـي هنـا جيوفروي أعطاني صكاً بمئة تالر نمسـاوي، ويمكنني سـحبها من نائبـه العـام في البصرة. وأنوي السـفر بهذا المبلغ مـن المال إلى عدن، وربمـا القيام كذلك بجولة عبر شـبه جزيرة العـرب. على أي حال، فأنا أنـوي الكتابـة إليك من البصـرة. أما إذا بقيـتُ مكتئباً كما أنـا الآن هنا، فإنني لا أعتقد أنني سـأبقى طويلاً في شـبه جزيـرة العـرب. قرأت في الصحـف الفرنسـية أن الكوليرا تستعِرُ في بلادنا، وهذا الخبر يُتعسـني أكثر من أي شـيء آخر. كيـف حال أمي وشـقيقتي والآخرين؟ لم أتلقَّ منهم بأي رسالة منذ سنة كاملة.

رسالة من بغداد إلى غابرييل غيتلين في 15/ 4/ 1849

لم أعتقد أنني سـعدت يوماً بمغادرة مدينة مثلما سـعدت بمغادرة مدينة بغـداد الآن[15/ 9/ 1848]. أنـا الآن أتجـول مسـروراً (كعادتـي كلمـا خرجت مسافراً) في برودة الليل، وأتذكر وطني الذي ابتعدت عنه أكثر، وأفكر في هذا البلد الذي أتوجه إليه، والذي سمعت عنه الشيء الكثير. وأفكر في رونق الأدب الفارسـي الْمُبهرَج. أتوقع أن أرى بلداً يشـع من جمـال طبيعتها رونق يضاهي روعـة أدبها، وعلى الرغم من أنني أعرف

بالطبع بأن هذا ليس وقت تفتح الورود، إلا أنني كنت آمل الحصول من بلاد الورود والعنادل على حصاد وفير. لم تكن عيناي منذ وقت طويل قد رأتا إلا بحر رمال الصحراء، مصر الرتيبة رغم ثرائها، وسهول العراق العربية المنخفضة. ولهذا، فإن نفسي وجسدي على السواء يريدان الوصول إلى المناطق الجبلية الأكثر إثارة للاهتمام. ومع ذلك، فإن عليَّ الآن السفر عبر أراضي العراق المملة: وهي سهول صحراوية جافة وجدباء أعتبرها أقل إثارة للاهتمام من صحراء شبه الجزيرة العربية الصخرية. ولأن رفاق سفري الأكراد يرغبون في حمل بعض البضائع على ظهور مطياتهم، فقد سلكوا طريقاً مختلفاً عن ذلك الذي يسلكه معظم الشيعة الفرس الذين يحجون كل عام بالآلاف إلى ضريحي علي والحسين للقيام بالزيارة، ولتقديم احترامهم في الأماكن التي سقط فيها كل من علي والحسين شهيدين، فهم يكنون لهما كل احترام. لقد اختار رفاق سفري الطريق الشرقية، وهي أقصر ولكنها جبلية وأقل استواء بكثير من غيرها. سرنا قسماً كبيراً من الرحلة خلال الليل مثلما يفعل الفرس عادة، أما خلال النهار، فخلدنا للراحة. ووصلنا إلى قرية صغيرة تسمى بلادروز، ولها اسم أكثر شيوعاً هو بيرزيروت.

لم نسمع خبر وفاة شاه فارس محمد مؤخراً، إلا بعدما وصلنا إلى هناك، ولم نسمع كذلك بأن كل الطرق غير آمنة ولا أن البلد كله «يأكل نفسه»، كما يقولون باللغة الفارسية. قال لي رفيق سفري محمد علي إن حق الحصول على تاج الملك في بلاد فارس، منذ العصور القديمة وحتى أيامنا هذه، أمرٌ يقرر بشأنه بالسيف. فصاحب أطول سيف هو من يحصل على التاج. ولكن بما أن الشائعات لا تزال جديدة لم تُطلق إلا حديثاً، فإننا لم نُرِدْ أن نسمح بإخافتنا. بل إن البعض كانوا يقولون بأن هذه الشائعات تنشر فقط حتى يتم تحصيل ضريبة كفن الشاه من

الشعب، مثلما كان الشاه محمد نفسه قد فعل بالفعل أربع مرات من قبل. كما جاء شيوخ القبائل الكردية كذلك إلى هنا لتكذيب تلك الشائعة، وأضافوا كان الخبر صحيحاً، لما كنا نحن قد تمكنا من مواصلة رحلتنا بأمان، لأنهم هم أنفسهم كانوا سيكونون أول من يتربص على جنبات الطريق بالمسافرين لنهبهم. وبعد تفكير طويل، قرر رجالنا الأكراد العودة إلى ديارهم عبر الصحراء القفراء؛ وحثونا على أن نختار بين التزود بما يكفي من الخبز والماء مدة ثلاثة أيام ونغادر صحبتهم، أو البقاء هنا في انتظار معلومات أكثر، إذا كنا لا نجرؤ على تعريض أنفسنا لخطر السطو، ولا نريد تكبُّد معاناة الجوع والعطش ليوم أو يومين، أو العودة إلى بغداد. علمنا لاحقاً أن الشائعات كانت صحيحة، وأن الشاه الجديد قد اعتلى العرش بالفعل.

كان لدي ما يكفي من الرفاق هنا، مثل درويش تركيٍّ وصل من إيريفان، رفَّه عنا إلى حد كبير من خلال حكاياه وأغانيه. وعلى الرغم من أنه كان فقيراً معدماً، وأن الجزء الأيمن من جسده كان مشلولاً، إلا أنه كان يملك مخزوناً لا ينضب من القصص، واللطف والود، وروح الدعابة، بشكل لا مثيل له. وكان رفيق سفري محمد علي أيضاً يُحسن سرد القصص بحيث كنا نجلس للاستماع إلى قصصه إلى وقت متأخر من الليل. كثيراً ما كنت أقارن بين مهارات رواة القصص العرب وبين مهارات رواة القصص الفرس. وبعد طول المقارنة والتمحيص، خرجت باستنتاج أفضلية العرب في هذا الفن كذلك. ذلك أن رونق الأسلوب الفارسي الطنان يبدو صارخاً أمام الأسلوب العربي البسيط ذي الطبيعة المتواضعة. فالفارسي يُنمِّق كل شيء ويغنيه، ويَمُطُّ حتى أكثر الكلمات سطحية وتفاهة مَطاً متغطرساً، وذلك ليخدع قصيري النظر الذين لا يرون إلا البريق الخارجي فقط. أما العربي فينطق حتى أجمل الكلمات، وأنبل الأفكار بصوت ثابت، دون تنميق ولا تزويق،

وهو متأكد أن (الجميل لا يحتاج إلى تجميل).

على كل حال، كنت أتمتع بوقتي منشغلاً بنشاطات كثيرة، خاصة وأنني أملك كتباً، وأستمتع بقراءتها (بفضل تربيتي الأوروبية!). فالشرقيون نادراً ما يجدون متعة في الكتب. فالشرقي لا يستمتع أبداً بالجلوس وحده لقراءة كتاب. فمتعته الحقيقية، بالإضافة إلى مزاولة عمله، تكمن في مجرد المحادثة والدردشة. وقد سمعت مؤخراً من جندي مصري عجوز بهذا الشأن قولا حكيما: (إننا لا نملك في نهاية المطاف إلا لغتنا).

تخيلت الرحلة وكل ما آمل رؤيته من خلال ما وصفه لي رفاق سفري وحكوه. ولو أنني حُرِمت من ذلك كله لكانت العودة إلى بغداد البغيضة أبغض وأصعب شيء إلى قلبي. وقد فارقت رفيقيَّ الفارسيَّيْن على مضض، إذ كان من المستحيل بالنسبة لهما العودة إلى بغداد. وذلك لأنهما كانا قد باعا معدات الرسم وكل ما يملكانه لتسديد ديونهما، فأصبحا بذلك خاليَيْ الوفاض تماماً، ولا يملكان حتى المعدات الضرورية لممارسة مهنتهما. وكان أحدهما بالخصوص، نصر الله، قد أفلس تماماً، ولم يكن يملك لدى خروجنا للرحلة أكثر من وعد قطعته على نفسي بإيصاله إلى كرمنشاه. إنه مثال ممتاز على طيش الفرس وقلة تفكيرهم عند خروجهم للرحلة: فبعد أن باع أو قايض كل ما يملكه في بغداد، وبعد أن دفع ثمن الرحلة، سافر ضيفاً علي، وليس عنده من الملابس إلا ما يرتديه، وليس معه من المال إلا نحو خمسة روبلات. ورغم أن له صديقاً في كرمنشاه، إلا أنه كان يَجدُر به، وهو في الربيع الأربعين من حياته، أن يكون قد تعلم أنه لا ينبغي الثقة كثيراً بصديق فارسي.

يحب معظم الفرس التجوال كثيراً، ويسعدون بالسفر إلى أقاصي الأرض. في حين أن المرء نادراً ما يلتقي بالعرب خارج بلادهم، إلا

فـي بعـض المناطق الحدودية، أو في القسـطنطينية مؤخـراً، ولكنهم لا يسافرون إلا لقضاء غرض محدد أو مهمة معينة. أما الفرس فتجدهم في كل مكان، يتجولون بلا هدف ولا غرض، وهم يرتدون ثياب الدراويش أو الشـحاذين. وحتى الحج إلى أماكن الشـهداء، الذي يقوم به أكثر من مئة ألف فارسـي في تقديري المتواضع، ما هو إلا ذريعة لإشـباع الرغبة في التجوال. فعلى الرغم من عشـق الفرس لوليَّيْهم علي والحسين، إلا أننـي لا أتصـور أن كل هـذه الأعـداد الكبيرة من النـاس الذين يحجون عاماً بعد عام، ويتكبدون عناء عدة أشهر من السفر، يفعلون ذلك بدافع من الوازع الديني فقط. خاصة أنهم يعرضون أنفسـهم لمخاطر عديدة، وللأمراض والمضايقات. وقد سـمعت في القافلة التي انضممت إليها فـي نهاية المطـاف أن الكثيرين يندمون ويعدون بأنهم لن يسـافروا مرة أخرى أبداً.

ليـس من السـهل على الفارسـي العودة إلـى بلاده كمـا كنت أعتقد فـي البدايـة. وحتى إن لم يعد ثمة سـبب لخوفه من الاضطهـاد، إلا أنه يفضل البقاء في بلد أجنبي لسبب آخر. عندما يعود الفارسي إلى مسقط رأسـه، يتوقع جميع أصدقائه أن تكون معـه هدية يتذكرهم بها. وبما أن ثمـن كل هـذه الهدايا غالباً ما يتجـاوز مقدرة الحاج، فإنـه يفضل البقاء بعيداً واحتمال لوعة الحنين إلى الوطن عن العودة إلى دياره دون هدايا وسماع الشكاوى بشأن هذا الإهمال.

وصلنا إلى كرمنشـاه قبل نحو سـاعة من غروب الشـمس، ومنذ أن بدأنا نمشـي في الشـوارع الضيقـة متوجهين نحو المـكان الذي اختاره قائدو القافلة محطة للقافلة، بدأ بعض الفضوليين الفرس يسألون عني، وكان فضولهـم هـذا يفوق فضول العرب بكثير. عندما كنت أمشـي في الشـارع، كان الكثيرون يسـألونني من أين جئت، فكنت أكتفي بالقول: من بغداد، إذ يمكن أيضاً أن يُفهم السؤال هكذا: من أين قدمتم؟ وهكذا

نجوت من المزيد من الأسئلة إلى أن وصلنا إلى محطة القوافل، وهي مبنى قديم متهالك، أتعس حالاً من مبنى محطة القوافل الذي أقمت فيه في بغداد، أو أي محطة أخرى رأيتها على طول الطريق. هناك التقيت أولاً برجل سمين ذي لحية فارسية طويلة كثيفة، قال إنه رجل جمارك وطلب تفتيش أمتعتي، ولكنني أخبرته أنني مدرس لغة عربية من مصر (وهذا ما رددته خلال الرحلة كلها)، فعدل عن الفكرة. وبعد ذلك بُليت بشاب في العشرين من العمر، سألني أولاً عن مصر باللغة الفارسية، ثم سألني باللغة العربية ما إذا كنت سنياً أو شيعياً. وهذا سؤال يطرحه كل فارسي بعد التعارف مباشرة. لا أزال أتذكر في بغداد كيف أن تاجر الشاي الفارسي (الذي يتجول في الشوارع ببراد نحاسي كبير فوق آنية بها فحم)، سألني السؤال نفسه عندما كنت أشرب شايه الذي تفوح منه نكهة القرفة القوية في زاوية الشارع. وأذكر أيضاً كيف أن صديقي الرسام نصر الله الشيرازي، عندما دخل إلى غرفتي للمرة الأولى في محطة القوافل سألني ذاتَ السؤال بعد العديد من المقدمات الفارسية المزخرفة. لا يمكنني ألا أبتسم وأنا أتذكر الآن كل هذه المرات التي سئلت فيها ذات السؤال الذي يطرحه علي هذا الشاب الفضولي الآن، لكن ابتسامتي أغضبته. ولكنه لم يكتف بهذا السؤال، بل بدأ نقاشاً طويلاً عن الأئمة الاثني عشر، وعن (الكلاب) الثلاثة، وعن الإمام المهدي، الإمام الأخير الذي لا يزال حياً، وعن غير ذلك من الخرافات التي يؤمن بها الناس هنا. وكان مسك الختام أن هذا الشاب تمنى أن أغير ديني خلال رحلتي وأصبح مسلماً حقيقياً. فأجبته بعبارة تحتمل معنيين قائلاً: (أنا وقدري في يد الله)، وأنهيت بذلك الحديث.

كم من مرة تحملت فيها مثل هذا الاستجواب خلال رحلتي! فأنت هنا لا تستطيع أن تردع الفضوليين كما هو الحال في أوروبا، بل عليك أن ترد على أسئلتهم بحلم وبكلمات رقيقة، ودون غضب، سواء كان

السائل راشداً أم طفلاً. فمن حق كل واحد طرح الأسئلة والحصول على إجابة شافية للغليل، على الرغم من أن سؤاله قد ينطوي على ما يُشينك. وعلى الرغم من أن احترام الكبار أمر سائد في الشرق كما يُقال، إلا أنهم يتساهلون مع الأطفال هنا أكثر بكثير مما نتساهل نحن معهم.

جاء رفيق سفري الذي ذهب مع قائدي القافلة إلى محطة أخرى لزيارتي، وقد انتقلتُ إلى المحطة التي يقيم فيها عندما حل الظلام. وكانت تلك المحطة أيضاً قديمة ومهجورة، ولكنها كانت أفضل بكثير من تلك التي نزلت فيها. كانت جميع المحطات الأحدث والأفضل غاصة بالأعداد الكبيرة من الحجاج العائدين الذين اضطروا للبقاء هنا بعد سماعهم شائعات وفاة الشاه. وفي اليوم التالي ذهبت مع رفيقي لنتمشى في المدينة، فلاحظت حقيقة أنني وصلت إلى بلاد جديدة. إن منظر بيوت الطين البائسة، والشوارع القذرة، والأنقاض منظر مألوف، ولكن كل شيء هنا يعطيني انطباعاً مختلفاً تماماً عما سبقت لي رؤيته في شبه جزيرة العرب. إن مظهر الأهالي ووجوههم القاتمة من فرط استعمال الأفيون كان منظراً مُرَوِّعاً ذكرني باليوم الذي دخلت فيه غرفة الجثث للمرة الأولى. في حين أن منظر آخرين من ذوي الأجساد السمينة الخرقاء، والخدود الحمراء المكتنزة جعلني أستحضر في ذهني الولائم وزجاجات النبيذ. ذكرتني الأسواق المغطاة بأنني جئت إلى بلاد ينبغي فيها الاحتماء من المطر والعواصف ومن كل ما تجود به السماء، أكثر مما ينبغي الاحتماء من أشعة الشمس الحارقة. كان السطح يحجب عني منظر السماء الجميل، فكنت أشعر خلال جولتي كلها أنني أمشي في ممر أحد المنازل. تسلبني مثل هذه الأسواق المغطاة دائماً ذلك المرح الذي يشعر به من يتمشى في شوارع المدن الفارسية. توجد مثل هذه الأسواق في مصر أيضاً، ولكنها هناك أعلى

وأوسع، وتحمي من لفحات الشمس بينما تسمح لما يكفي من ضوء النهار بالدخول عبرها. أما في بلاد فارس، فهي مثل الأنفاق، لا يمكن الدخول إلى ظلامها دون أن تشعر بالضيق وأنت تترك الهواء المنعش وأشعة الشمس خارجها. كما أن الطين يتراكم فيها ولا يجف بسبب الظل، الذي يتسبب السقف في وجوده، مما يجعلك تدرك بأنك لست بداخل منزل.

السوق إذن هو مجال وسط بين البيت والشارع، ولكنه بُني بطريقة ترضي الشرقي تماماً، لأنه بمثابة بيته ومقر عمله في الوقت ذاته. أما بيته الفعلي فلا يذهب إليه إلا ليأكل ولينام. ومثل هذه الأسواق كثيرة جداً في كرمنشاه، ولكن نسبة كبيرة منها خرِبَةٌ. في السنة الماضية قام قائد أو حاكم تركي عيّنه الشاه محمد بأعمال تخريبية هنا لقهر أنفة الشعب الكردي فدمر الأسواق والمناطق السكنية، وحجز الممتلكات وما إلى ذلك مما تقوم به الحكومة التركية عادة. لذلك تسود بين الناس كراهية مستعرة تجاه أي شيء تركي، بحيث تعرَّض الأتراك الذين كانوا معنا في القافلة نفسها للاضطهاد والإهانات والهجومات، عندما غامروا بالخروج إلى الشوارع. أثناء رحلتنا إلى هنا، عندما كنا نمر بالقرى وبخيام الرعاة، كانت النساء والأطفال يتجمعون حولنا ويحدقون فينا. وكان الأتراك يتعرضون للمضايقة في أغلب الأحيان. بل إن جماعة من الأطفال كادت تفتك بأحد الأتراك ذات مرة، لولا أن شرازياً رحيماً أنقذه من أيدي مضطهديه الصغار المتعصبين حين وجه لهم كلمات طيبة. وقد لاحظت كراهية الشعب الفارسي للأتراك في المدن الأخرى كذلك، وإن لم تكن بدرجة الحدة نفسها التي كانت عليها هنا. قد تكون هذه الكراهية منتشرة في جميع أنحاء بلاد فارس، وربما حتى في كل بلاد الشرق، التي تمكن الأتراك من اختراقها. عادة ما كنت أسمع جميع أبناء الشرق يشتمون الأتراك ويعبرون عن كراهيتهم الشديدة

لهـم. والنـاس هنـا في بلاد فارس سـعيدون مـن أعمـاق قلوبهم الآن، لأن الشـاه الجديد يفضل الفرس الأقحاح على الأتراك. وقد بعث الآن قـادة اختارهـم من الفرس الأقحـاح إلى كل المحافظـات، في حين أن الشـاه محمد فعـل عكس ذلك، ولهذا السـبب فقد وضعه الشـعب في مثـواه الأخير باللعنات، (وهم يتمنون أن يحترق قبر والده أيضاً)، وهـم يؤكدون أنه تسبب في خراب بلاد فارس.

ولكـن ليس الفـرس والأتراك فقط هم ممن يكـره بعضهم بعضاً، إذ يمكنني القول إن كل شعب من شعوب بلاد الشرق يكن نوعاً من العداء القومـي تجـاه الآخر، بل إن أبناء الإقليم الواحد قـد يكنون العداء تجاه أبناء الأقاليم الأخرى. فالتركي لا يطيق العربي ولا الفارسـي، والعربي والفارسـي لا يطيقان التركي. والعربي لا يرتاح لرفقة الفارسي ويسميه عجميـاً، والفارسـي لا يرتاح مع العربي. والسـوري لا يحب المصري وينعته بشتيمة حرامي، وهذا الأخير لا يحب برفقة السوري، ويعتبره غبياً وسـاذجاً. وابن الصحراء ينفر من كليهما وينعتهما بالفلاحين أوبسكان المدينة. وسـاكن أصفهان يعتبر شـيراز قرية ويعتبر سـكانها مغفلين أو لصوصاً، في حين أن الشـرازي يعتبر سـكان أصفهان محتالين وبخلاء ماكرين. ومن الصعب معرفة أسـباب هذه الكراهية بين الشـعوب وبين الأقاليم، ولكن السبب الرئيسي راجع بلا شك إلى كون اختلافات اللغة أو اللهجـة أقوى مما عندنا: (إننا لا نملك فـي نهاية المطاف إلا لغتنا)، كما قال الجندي المصـري العجوز. فهذه الجملة حقيقية على أكثر من صعيد في بلاد الشـرق. فجميع النزاعـات تُحَلُّ هنا عن طريق اللغة، إذا لم يستخدم العنف الصريح. فالقلم الذي يلعب دوراً مهماً عندنا ليست له هنا قيمة تذكر، هذا إن كانت له قيمة أصلاً. في حين أن الفصاحة ذات قيمة كبرى، ولكن الفصاحة ليست كما نفعل نحن حين نقف على أعلى المنبـر ونقـرأ في ورقـةٍ خطاباً قد كُتب مسـبقاً. بل الفصاحـة أن يتمكن

المرء من التحدث بوضوح في أي موقف كان، وأن يعرف كيف يكسي الأفكار كلمات جلية ويعبر عنها بعبارات يمكن استعمالها في أي إقليم (ويسمى ذلك الكلام بالحكم في مصر)، فيتمكن من إقناع جميع مستمعيه. في الواقع هذه المهارات اللغوية والكلامية ملكة يتميز بها أهل الشرق عن أهل الغرب. فبينما نادراً ما تجد بيننا من يمكنه التحدث بحرية وبلغة جميلة، فإن هذه القدرة أمر شائع جداً هنا، ويتميز بها حتى أبسط الناس وأقلهم ثقافة. لكن هذه الموهبة ضرورية هنا أكثر من أي مكان آخر، لأنها هي ما يُمَكِّن البائع من خداع المشتري أو العكس، والمثل يقول: (التجارة شطارة). وبفضل هذه الموهبة يذيع صيت الشيخ الفقيه، ويتحايل القاضي على القانون، ويُهدِّئ خطيب الجمعة الأمة المضطربة (خاصة في بلاد فارس)، وبواسطتها يكتسب شيخ القبيلة هيبة ونفوذاً في قبيلته، بل إن هذه الموهبة هي سلطته ونفوذه وسلاحه بالأحرى، لأنه لا يملك سجناً، ولا سوطاً، ولا مشنقة. وهذا كله يُلَخَّص في عبارة واحدة: (إننا لا نملك في نهاية المطاف إلا لغتنا في بلاد الشرق).

إن لم يتمكن التركي من فهم اللغة العربية أو الفارسية، فإنه سيتعب سريعاً من المناقشات المطولة التي لا يمكنه استيعاب دقتها فيلجأ لاستعمال سوطه. وعندما يلجأ الفارسي إلى المجاملات وعبارات الخطابة الفارغة التي ينفثها من فمه مثل نفخات دخان الأرجيلة، فإنه سيصيب العربي بالصداع. وإذا اعتدل الفارسي في جلسته لكي يبدأ في سرد قصص الحيوانات بهدوء تام، وليكسي حكمته ونصائحه بثوب الحكايات، فإن العربي الذي ينفر من التّلَكُّؤ ويكره الملل سوف يطلق الريح لساقيه. وعندما يجلس العربي الورع التقي، ويمسك البيبة في فمه، ويبدأ حديثه الرفيع عن القدر، وعن إرادة الله التي لا تتغير، فإن الفارسي الذي يؤمن بأن الإنسان مُخيَّر وليس مسيراً سوف يتدخل،

ويتهم العربي بالهرطقة والبدعة. وعندما يتكلم المصري فيمط في نطقه ويأخذ راحته في ذلك موجهاً حديثه لسوري جبلي تُطيل لغته وتُلَحِّن الكلام أكثر، أو عندما يسعى حجازي يدعي التقوى إلى كسب مصداقية لكلامه ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وغيرها من نفحات العلوم وهو يناقش عراقياً لا يفقه شيئاً في تراكيب اللغة القديمة مثلما يفقه فيها المصري، وقد أدخل على لغته بعض الملامح الغريبة باعتبار حدوده الجغرافية، أو عندما ينطلق لسان البدوي الطفولي بتراكيبه الطويلة وكلماته وعباراته القصيرة... فلا أحد من هؤلاء سيفهم الآخر فهماً صحيحاً. وإذا فهموا ما قاله بعضهم لبعض، فإنهم لن يفهموا ما الذي قصدوه. والمرء لا يرتاح مع برفقة من لا يفهمه، وعدم الارتياح لا يبعد عن النفور إلا بمسافة قصيرة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن دائرة أفكارهم ضيقة بحيث إنهم يعرفون شؤون إقليمهم أو مدينتهم عن كثب، ولكنهم بالكاد يعرفون أي شيء عن المناطق المجاورة، وربما لا يأبهون بها كذلك، مما يؤدي إلى نقص كبير في الموضوعات المشتركة التي يمكن مناقشتها. فما الذي يتبقى غير التاريخ وأساطيره. وهذا في الواقع هو موضوع الحديث الوحيد بين أبناء المناطق المختلفة في معظم الأحيان. نادراً ما تجد من يستمتع بتدارس كتاب قديم مثل الملحمة الوطنية شاهنامه أو الحديث عن كتاب الشاعر الكبير سعدي. وهذا أمر لا يلجؤون إليه عادة إلا عندما لا يجدون أي شيء آخر يفعلونه (وتجد هذه الخاصية عند الفرس أكثر مما تجدها عند العرب).

قضينا ستة أيام كاملة في كرمنشاه. وكان قائدو القافلة يؤكدون في كل يوم أننا سنواصل رحلتنا في اليوم الموالي. وفي الرابع والعشرين من الشهر الجاري، خرجنا عند الفجر، وتلاشت فجأة كل أحاسيس الرعب التي كانت تسيطر على فكرنا من تأثير الخوف من النهب عندما بدت أمامنا الأراضي الفسيحة. وما إن خطوت بضع خطوات

خارج بوابة المدينة حتى استعدت هدوء بالي، كما جرت العادة خلال مغامرات رحلتي. كانت أول محطة توقفنا فيها هي بيستون[1]، وهي من أعلى الجبال في بلاد فارس، ومكان موت فرهاد[2] الشهير في القصص القديمة. فهذا هو المكان الذي وصله فيه خبر موت شيرين الكاذب، فتملكه اليأس لدرجة أنه رمى فأسه في الهواء فشطر جمجمته. وقد نُقِشت على الصخور الملساء نقوش طويلة بحروف حديثة وجميلة، وعلى جانبي النقش توجد كثير من الصور. وأعتقد أن ثمة كتابة مسمارية على أعلى النقوش. وقد أضرَّت الأحوال الجوية بتلك الصور التي فقد بعضها أنفه أو انمحى تماماً تقريباً. وقد ذكر من كانوا معنا في القافلة أن سبعة دراويش نحتوا تلك الصور على الصخور من أجل المتعة فقط. وأضاف آخر أن النقش القديم الواضح أعلى اللوحة إنجليزي، وحكى كيف أن أحد القناصل الإنجليز يأتي إلى هنا كل عام من بغداد، ويمضي هنا بضعة أيام لدراسة النقوش، والبكاء على الزمن القديم الذي كان فيه هذا البلد جزءاً من الإمبراطورية العظيمة. وهذا هو المعتقد السائد في بلاد الشرق. فحيثما وُجدَتْ نقوش قديمة يهتم بها الأوروبيون، إلا واعتقد الناس أنها كُتِبَتْ بلغة الأوروبيين حين كانت البلاد تحت سيطرتهم، ويعتقدون أن الفرنجة يأتون إلى هنا لنقل هذه التعازيم لكي يستعملوها مع تعازيم وشعوذات أخرى لإخراج الكنوز المخبأة تحت نصوص التعازيم هذه، وكذا لتحرير الأرواح الشريرة أو القوى الطبيعية التي ظلت سجينة حتى الآن بفضل قيود نصوص التعازيم تلك. وكان ثمة صور أخرى حفرت أعلى الجبل عل جدار الجبل الأملس. وكانت جموع كبيرة من الدراويش والمسافرين مع القوافل يزدحمون هناك للتفرج على هذه الآثار القديمة. أذهلني هذا، لأنني أعرف أن العرب

(1) بلد تقع غرب مدينة كرمانشاه معروفة بتماثيلها المنحوتة في الصخر.
(2) قصة حب فرهاد وشيرين من أشهر قصص الحب في الأدب الفارسي.

يفضلون إشعال النار والجلوس حولها لشرب القهوة على أن يرهقوا أنفسهم بالتسلق الشاق إلى أعلى الجبل. ولكن هؤلاء الفرس جلسوا على الحجارة وحكوا ما يعرفونه عن المكان، سواء عن زمن فرهاد أو عن زمن الإنجليز. وعندما سمعت من قصصهم تلك أن الأوروبيين قد نقلوا هذه النقوش والكتابات من قبل، توقفت عن المحاولة، خصوصاً وأنا قصير نظر، ولا يمكنني في الوقت نفسه أن أضع النظارات الطبية على أنفي، وعمامة الشيخ البيضاء فوق رأسي. لم أتمكن من الاقتراب بما يكفي من النص لمحاولة قراءته. ولم يكن لدي لا الوقت ولا الوسائل للتخلف عن القافلة والبقاء هنا لأحاول القراءة بالاقتراب من النقوش عن طريق بناء سلالم وتسلقها.

جلسنا عند شجيرات صغيرة، قال عنها العارفون من المسافرين رفقتنا إنها أشجار نمت هنا على قبر فرهاد وشيرين المشترك. ذلك أن شيرين عندما جاءت إلى هنا للبحث عن حبيبها فرهاد، وجدته جثة هامدة، وبجانبه سيف. كانت حزينة ويائسة فأمسكت السيف وشقت به صدرها الملتهب بالحب، وأسلمت الروح في أحضان حبيبها. السلام على ثَرَى المجنونين! ولكن شرقيي اليوم هم على قدر من الحكمة بما يكفي على الأقل لعدم ممارسة مثل هذه الرياضة. وفي الوقت الحاضر، أصبحت في هذا المكان محطة للقوافل أيضاً حرصاً على راحة السياح؛ فضلاً عن قرية بدوية ليس فيها بيوت، ولا خيم في الواقع. فقد وضعوا بناء متكوماً عند قاعدة جدار الجبل، ونشروا أغطية سوداء من اللحاء والقش صنعوا منها ما يشبه السقف. وفي بعض الأماكن المتفرقة، كدسوا الحجارة بطريقة ما للحصول على جدار إضافي، بالإضافة إلى جدار الجبل الطبيعي.

وفي الأسفل، عند الهضبة الفسيحة التي نصبنا خيامنا فيها، كان ثمة طاحونة ماء عند غدير صغير، تدور فتسقي الأرض. لم أر طواحين

المياه في شبه جزيرة العرب، ولكنها كثيرة جداً هنا. وقد مررنا على الكثير منها ونحن في طريقنا من بغداد. وبالإضافة إلى ذلك، كان في جميع أنحاء السهل الواسع عدد لا يعد ولا يحصى من الأعمدة المكسورة الجميلة الملقاة على الأرض والباقية شاهداً على أوقات أفضل صارت بين طيات الماضي. فقد تكون من بقايا معبد، أو مكان للعبادة، أو مدينة أو قلعة. ولكننا الآن لا نرى منها إلا تلك الصخور المتراكمة والتي كانت جزءاً من هيكل بناء ما.

نشأت بيني وبين مسافرين آخرين صداقة سفر هنا. كان أحدهما تاجراً ولد في أصفهان، ولكنه عاش مدة طويلة في كرمنشاه، في حين أن الآخر تاجر خردة شيرازي. وقد أعطي الأول لقب الحاج، لأنه ولد يوم وقفة عرفات. ويحمل الثاني لقب الكربلائي، لأنه حج إلى كربلاء حيث دفن الحسين حفيد النبي. وأود أن أذكر أنه في بلاد فارس، وفي المدن العربية أيضاً، يجب دائماً استخدام اللقب عند الحديث مع غرباء كما نفعل عندنا. فلا يمكن هنا أن تفعل مثلما هو الحال في الصحراء، حيث يمكنك أن تنادي أحدهم، على سبيل المثال، محمداً أو أحمد فقط حتى وإن كان من أعلى القوم منزلة، بل يجب استخدام لقب الحاج، أو الشيخ، أو الأفندي محمد. كما يمكن استخدام ألقاب مثل الكربلائي، أو النجفي، أو المشهدي (وهو من زار مشهد، مكان استشهاد الإمام رضا في خراسان)، أو ملا[1] (وقد حصلت على شرف هذا اللقب)، أو آغا أو مرزا. إن استخدام الاسم مجرداً من أي لقب هو دليل على فظاظة كبرى. أما في الصحراء، فثمة وسيلة أخرى للتصرف بلياقة، وذلك بتسمية الشخص نسبة لابنه أو ابنته. فمن كان ابنه يسمى محمداً، سمي أبا محمد، وهو الاسم الذي حظيت به. وإذا كان الوليد البكر فتاة ذات جمال، أو ذات ميزة أخرى ترفع من قدرها، أو إذا كانت

(1) ملا: فقيه عند بعض الطوائف الإسلامية.

متزوجة من شيخ بارز، فإن الأب ينادى نسبة لابنته، فأبو عمشة على سبيل المثال، كان اسماً لائقاً عند بدو بالي. وأحياناً، ولا سيما في نجد، يسمى الشخص نسبة إلى شقيقته المحبوبة أو المحترمة. على سبيل المثال، أخو نورا، كان اسم الشيخ الأعلى لقبيلة شمر. وكان أسلوب الصحراء هذا يتطلب من الزائر الغريب مجهود تكرار اسمه لأن البدو يرددون اسم الشخص الذي يتكلمون معه ويذكرونه بعد كل أربع أو خمس كلمات. أول شيء يسأل عنه البدوي عند لقاء الغريب هو اسمه. وسرعان ما ينساه، لا سيما إذا كان اسماً غير مألوف لأهل الصحراء، فيضطر خلال حديثه معك أن يكرر السؤال عنه مراراً وتكراراً، بحيث إنني كنت غالباً ما أكرر اسمي باستمرار إذا كنت أتحدث مع بدوي أزوره لأول مرة. أما هنا في بلاد فارس وفي بعض المدن التركية-العربية، فينجو المرء من ذلك. فخلال رحلتي في بلاد فارس، كنت أتعامل مدة طويلة مع بعض الناس دون أن يعرفوا اسمي ودون أن أعرف اسمهم، وهو أمر يُعدُّ ضرباً من ضروب المستحيل في الصحراء. وهذا هو حالي الآن أيضاً مع رفاق سفري الجدد: فهم ينادونني بلقب ملا، وأنا أناديهم بلقب الحاج والكربلائي، ونحن لا نعرف بعضنا إلا بهذه الألقاب.

ومرة أخرى طرح السؤال نفسه: أي الطرق ينبغي لنا أن نسلكها؟ فالطريق المباشر هو الذي يمر عبر گلپايگان والخميني. ولكن سيد البختياريين نفسه يتواجد في الوقت الراهن في گلپايگان، ومعه بضع مئاتٍ من خيرة فرسانه. ومن شأن هذا الطريق أن تأخذنا مباشرة إلى العدو وتضعنا بين فكيه. ولهذا السبب، حاول قائد القافلة إقناع الآخرين باختيار الطريق الآخر الذي يستغرق يومين إضافيين والذي يتجه شمالاً، والذي سيمكننا من الابتعاد عن المضطهدِين المحتملين. كان الآخرون ضد هذا الاختيار، ولكن الأمر الأكثر خطورة هو البقاء

هنـا، لأن الأهالي هنـا على علاقة ودية جداً مع البختياريين ورئيسـهم. وكنا نخشـى أن يرسلوا له رسـولاً للحصول على حصة من الغنيمة بعد أن ينهبنا. لذلك، اضطررنا إلى المغادرة في صباح اليوم الموالي، ودعا البعض إلى تحميل المطايا منذ المسـاء، ونزع الأجراس عنها، والتسلل بهدوء دون إثارة انتباه الرعاة. ولكنني لم أرتح في نومي هذه الليلة، ليس بسبب الخوف فحسب، وإنما أزعجني صهيل المطايا واجترارها ونحن تحت سقف واحد، وكذا ثرثرة قائدي القافلة، وصوت الأرجيلة، وبكاء الأطفـال، لأن قافلتنا كانت تضم النسـاء والأطفـال أيضاً. وفي الصباح غادرنـا مكان مبيتنا وتوجهنا إلى مخيم الحمولة، حيث كان أحد قائدي القافلة قد نصب خيمته لحراسـة المكان. وجدناه جالساً إلى جانب نار يتصاعـد منهـا الدخـان، وذلك لأنه حاول إشـعالها من خشـب رطب. كان يرتعـد من البرد والمـرض، لأنه أصيب منذ بدايـة الرحلة بنوبة من البرد، وكان يسـعل سـعالاً حاداً. أعدَّ لنفسـه بعض الماء السـاخن فقط وهو مريض ومستاء، فالماء الساخن هو الدواء التقليدي هنا في مواجهة أمراض الصدر والنزلة.

وهكـذا كنا فـي الطريق قبل بـزوغ الفجر، وسـرعان مـا وصلنا إلى مفتـرق طـرق، يـؤدي أحـد طرقه إلـى الجنـوب الشـرقي، والآخر إلى الشمال. استدار جزء من القافلة في أحد الاتجاهين، فيما استدار الجزء الآخر إلى الاتجاه الآخر. شـرع قائدو القافلة يصيحون: (إلى الأمام!)، (عـودوا!)، ونشـأ ارتباك كبير، وبدأ قائدو القافلة يتشـاورون فيما بينهم بينمـا توقفت المجموعة. ولكن ما الذي يريدون إضافته إلى ما توصلوا إليـه فـي ليلة أمـس؟ كان أحدهم قد رأى في المنام أنـه يقف في مفترق الطرق، ورأى درويشاً جالساً على قارعة الطريق فنصحه بتجنب الطريق الجنوبي-الشرقي، وقال له إن وحشاً سيبتلعه هناك. لكن بعضهم الآخر رأى حلمـاً مختلفـاً، وحكـوه للجميع. وفي النهاية قـرر الجمع اللجوء

إلى القرآن وطلب العون من الله. وأخذوا مصحفاً من أحد الملالي[1]، أو من زوجته لأنها هي من كانت تحتفظ به. ركب الملا مع زوجته على الهودج، ونوى قائد القافلة الاستخارة. فتح المصحف عشوائياً وقرأ من الصفحة اليمنى أول آية كاملة فيها. إذا كان تفسير الآية إيجابياً، فهو فأل خير، والعكس صحيح. بدا من الاستخارة الآن أن علينا اتباع طريق الشمال، وتجنب الطريق الجنوبي. ومن يستطيع أن يعارض هذا القرار؟ وقع الاختيار على الطريق الشمالي. يلجأ الناس في بلاد فارس لاستخارة القرآن هذه في كل أمر. ويقال إنه عندما يُأتى للحاكم أو للقائد بمجرم وُجِد متلبساً، فإن الحاكم مع ذلك يلجأ للاستخارة لمعرفة ما إذا كان ينبغي له معاقبة المتهم أم لا. في الصباح لاحظت أن عدة مسافرين كانوا يفعلون الشيء نفسه، حيث يمسك شخص ما المصحف ويرفعه إلى الأعلى، فيمشي المستخير من تحته، ثم يقبل المصحف ويلمس به جبينه قبل وضعه في علبته. وقد رأيتهم يفعلون ذلك كلما أخرجوا المصحف أو وضعوه جانباً. لكن العربي لا يفعل مثل هذه المهزلة. وهكذا خرجت القافلة وسارت إلى الطريق الشمالي، باستثناء عدد قليل ممن كانوا راجعين إلى ديارهم في الخميني، إذ كان عليهم ومن ثم التوجه ناحية الجنوب الشرقي.

وصلنا في التاسع من نوفمبر إلى أصفهان بعد أن سرنا مسافة سبعة عشر يوماً من كرمانشاه إلى هناك. لا أعرف حقاً متى ومن أين دخلت إلى المدينة نفسها، وذلك لأنني تجولت لساعات طويلة بين الأنقاض وبين البيوت الطينية المهجورة والمتهدمة. وحتى عندما وصلت إلى الشوارع التي فيها متاجر، اضطررت مرة أخرى للمرور بأنقاض الأمس التي اعتادت عيناي على رؤيتها في جميع الأنحاء. ثم وصلت أخيراً إلى شارع تجاري عادي، وإلى أكبر سوق مفتوح رأيته في حياتي.

(1) جمع ملا.

تجنبنا تفتيش الجمارك باعتبارنا حجاجاً، ونزلنا في محطة قوافل جيدة نسبياً، ثم اشترينا من السوق بعض لوازم الطعام الجيدة، وشيئاً من البطيخ الأصفهاني، الذي يشاد بجودته في كل أنحاء بلاد فارس، وجددنا نشاطنا من رحلتنا الليلية.

جلست في مكان إقامتنا وحدي ساعة من الزمن تقريباً، وجاء لرؤيتي شاب في السابعة عشرة من العمر، ملامحه تنم عن ذكاء. وبعد أن ألقى عليّ تحية السلام، وبعض المجاملات التي لم يبد عليه أنه يقصدها عموماً، سألني: من أين أتيت؟ (فأجبت: من مصر.) ما مذهبك؟ (فأجبت: سني.). ومن ثم بدأ استجواباً واسع النطاق حول الشهادة وقواعد اللغة العربية: ما هي الكتب التي قرأتها؟ وماذا أحمل معي؟ وماذا يدرسون في مصر عادة؟ وما إلى ذلك. وخلال المناقشة أحسست مرات عديدة أنني أرغب في الرد عليه بحدة، مثلما كان أي أوروبي قد فعل، ولكنني لم أفعل، وذلك لأن ملامحه المتميزة شفعت لسلوكه الفضولي من جهة، ومن جهة أخرى، بدت طريقته الجدية جداً في طرح الأسئلة مضحكة جداً بالنسبة لي مما جعلني أتركه يستمر. كنت أجيب عن أسئلته المتحذلقة، إما مباشرة أو عن طريق التمويه عندما حاول أن يوقعني في فخ انتمائي للمذهب السني، ويحاول إثبات هرطقتي. كان واحداً من أولئك التلاميذ الذين تقابلهم في كل مكان من العالم، والذين وصلوا إلى أقسام التعليم العليا فأصبحوا يعتقدون بأنهم يستطيعون من خلال دروس الفلسفة والنحو القليلة التي يعرفونها أن يقفوا في وجه معلميهم ومقارعتهم. في نهاية المطاف، تعبت من معلم المعلمين هذا فصحت فيه بحدة، ولكنه لدهشتي الكبيرة، لم يشعر بالإهانة ولم يغضب مني، بل إنه أصبح وديعاً ومتواضعاً. كما أنني استغربت كثيراً من كثرة الكتب التي أخبرني أنه استعملها لدراسة قواعد اللغة العربية. في الواقع لقد سأل في هذا المجال، وفي عدة

مجالات أخرى من مجالات العلوم الإسلامية عدداً كبيراً من الفقهاء.

ففي مصر على سبيل المثال، قلما تلتقي بشاب في عمره يكون قد قرأ أكثر من الأجرومية والكفراوي. أما هذا الشاب فهو على دراية بالألفية وبالمغني، وبكثير من الكتب التفسيرية لهذه المؤلفات. علاوة على أنه قرأ كتباً في التفسير، وفي فقه الشيعية. إن نسبة تعلم الناس في بلاد فارس عموماً أكثر بكثير من نسبة تعلم أهل البلاد العربية التابعة اليوم للحكم التركي. كثيراً ما ترى هنا الأب يحمل على ظهره ابنه الرافض للمدرسة ويأخذه إليها غصباً. أما في مصر، فإن الأب أحياناً هو من يمنع ابنه المتعطش للقرآن وللعلم من الذهاب إلى جامع الأزهر للنهل من علمه. ولكنك تجد في مصر عدداً أكبر من حفظة القرآن الذين يحفظون القرآن كله عن ظهر قلب، ويتلونه كله دون خطأ. وتجد عدداً أكبر من الحفظة في شبه الجزيرة العربية كذلك عما تجده في بلاد فارس. ولكنك تجد هنا من جهة أخرى، عدداً أكبر بكثير من الملمين بمختلف فروع الفقه. لم تتح لي بعد فرصة اختبار مدى دراية الفرس بكل ما درسوه من فروع الفقه، وبمدى فهمهم لها، ولكن لدي أسبابي لأتوقع بأن العرب تعمقوا فيها أكثر. فهم على الأقل يحفظون كل ما يقرؤونه عن ظهر قلب، في حين أن الفرس عموماً لا يحفظون عن ظهر قلب. كما أنك قليلاً ما تجد في جميع الطبقات الاجتماعية الفارسية من لا يعرفون القراءة والكتابة، أما عند العرب، فربما تجد واحداً فقط من عشرة هو من يعرف القراءة والكتابة. وللفرس، أكثر من العرب، قصص وأدب قديم من العصور السابقة للإسلام، وبعض الملحمات الوطنية الوثنية البطولية، التي لا تزال تحكى على نطاق واسع وبإعجاب كبير.

بينما كنت أتحدث بتحضر مع الشباب ميرزا علي، تجمعت حولنا مجموعة كبيرة من الرجال والأطفال، وأحد رفاق سفري الذي كان قد عاد لتوه من زيارة لأقاربه. وكان قريب له قد جاء معه إلى هنا وطلب مني

أن أحـزم أمتعتـي وأذهب معهم إلى بيتهم. لم تُجْدِ أي من ذرائعي، ولم تَجِـدْ أيٍ من المجاملات الكثيرة التـي تعلمتها من الفرس آذاناً صاغية. اضطررت إلى الذهاب إلى بيتهم. أعترف بأن محطة القوافل بسـردابها الضيـق المظلم الذي نزلت فيه لم تكـن مريحة، لأن كل قائدي القوافل يجلسون معنا هنا يتسامرون من الصباح إلى المساء وهم ينفثون الدخان من الأراجيل، ويشـربون القهوة أو الشـاي، ويسـتدفئون حول نارنا في المسـاءات البـاردة. لا يمكـن رفـض مثل هـذه الزيارات فـي العادات والأعراف الفارسـية. ولـم تكـن لدي رغبة في طرد قائـدي القوافل من باب المجاملة معهم كرفاق سـفر. لو كانوا عرباً لكنتُ فعلت ذلك دون أدنـى تردد. ولكنني كنت سـأتمتع برفقـة العرب أكثـر بالتأكيد. ونتيجة كل ذلـك، وعلى الرغم من أن روحـي روح دراويش، وعلى الرغم من أننـي أحب معاشـرة جميع فئـات الناس، فإنني كنـت أتعامل مع قائدي القوافـل الفرس على أنهم لا يعدون أن يكونوا مأجورين، في حين أنني في الصحراء كنتُ أعتبر رفاق سـفري أصدقاء حميمين مخلصين. وقد لاحظت أيضاً أنه إذا كنت تريد أن ترتاح مع هذين الشـعبين، فيجب أن تعاملهما وفقاً للقاعدة التالية: عامل الفرس كمأجورين، وعامل العرب كأصدقاء.

انتقلنـا إلـى منزل خاص بالقـرب من محطة القافلـة، وحصلنا هناك علـى غرفة كبيرة نوعاً ما لها سـاحة خاصة بهـا، صهريج مياه خاص بها (وهـو فـارغ حالياً)، ولها أيضاً خزان ميـاه مغلق خاص، ومطبخ خاص بها كذلك إضافة إلى مختلف أسـباب الراحـة الصغيرة الأخرى. وكان هـذا البيـت ككل كبيـراً جداً، مثل بيـوت معظم عائـلات أصفهان ذات المـال والنفـوذ الحالية أو السـابقة: تعيـش في هذا البيت ثماني عشـرة أسـرة، وكلهـم من عائلـة واحدة. ولكل عائلة سـاحة خاصـة، وحديقة خاصـة، وغير ذلك مـن المرافق، التي تعتبر من ضروريـات البيت هنا.

وقد كان هذا البيت أشبه بمدينة صغيرة. هذه هي العادة هنا، فعادة ما تنشأ أعمال الشغب والمشاجرات الجماعية، ومن الضروري في هذه الحالة أن تكون الأسرة موحدة، وأن يكون أفرادها قريبين من بعضهم البعض. وكانت هذه المنازل العائلية المنفصلة الصغيرة مرتبط بعضها ببعض من خلال بعض الممرات الضيقة التي بنيت عليها سقيفات. إن السير هنا يشبه تماماً السير في ممرات قلعة سوامين لينَّا[1] المظلمة. وكانت الحدائق كبيرة وواسعة بما يكفي لزراعة القمح والخضر فيها. كما كان لكل ساحة منفصلة صهريج مياه واحد أو أكثر، تجري منه المياه، وكذا الكثير من صهاريج المياه المغلقة. وعادة ما تكون خلوت خانه في مركز سكن العائلة، وبعيداً ما أمكن عن الشارع وعن المنازل المجاورة، وهناك يجتمع أفراد العائلة للتمتع بالمساء، إضافة إلى أنها هي غرفة الضيوف، ولذلك تجدها غرفة البيت الأكثر تزييناً.

كانت غرفتنا جميلة حقاً، وفيها نافذة كبيرة جداً تغطي أحد الجدران الأربعة تماماً. وكانت فيها الكثير من المربعات الزجاجية الصغيرة الملونة أو القاتمة. وتسمى مثل هذه النافذة، وأحياناً الغرفة كلها، أوروسي، وهي استعارة من الجارة التي تحد بلاد فارس من الغرب، والتي عادة ما تُؤخذ منها الكثير من الاستعارات اللغوية. وقد زُيِّنت الجدران بعدد من المرايا الصغيرة المثبَّتَةِ عليها، والتي يحب الناس في بلاد فارس تزيين الغرف المهمة والمباني العامة بها. وكانت الأرض كلها مغطاة بسجادة كبيرة بها زخارف حمراء حمتنا من البرد. وهذه الغرفة هي حقاً أفضل وأريَحُ مكان أقمت فيه منذ وقت طويل، ولكننا لم نستطع البقاء فيها بهدوء. فبالإضافة إلا أنهم أسكنوا فيها معنا مسافراً ثالثاً، فإن الكثير من أفراد هذه العائلة الكبيرة، والعديد من معارف رفيقي سفري كانوا يزوروننا باستمرار. كما أن الصغير ميرزا

(1) جزيرة فنلندية تسمى اليوم 'سوامين لينَّا' أي 'قلعة فنلندا' (بالفنلندية Suomenlinna).

علي، الذي كلفه والده بمساعدتي في كل ما أحتاج، لم يتركني ولو لحظة واحدة، إلا عندما كان يذهب لتلقي دروسه. بل إنه أهمل الكثير من دروسه لكي يبقى ملازماً لي. إن الشرقي لا يفهم أن شخصاً ما قد يريد أن يبقى وحده، وأن يهب لنفسه لحظة من الوقت. ولذلك فهو يلازم ضيفه كظله حيثما حل أو ارتحل، بسبب طيبة قلبه، وخوفه من أن يتسلط الملل على الضيف.

في المساء عادة ما يتجمع في غرفتنا خمس عشرة إلى عشرين رجلاً للتسامر ولقضاء الوقت. ويحاولون سحبي إلى ساحة المعركة لكي يطعنوا في معتقداتي الدينية. ولكن عندما لاحظ ميرزا علي ووالده أنني لا أحَبِّذ الخوض في الصراعات الدينية، فإنهما كانا متخلقين بما فيه الكفاية لتغيير موضوع النقاش. وعلى الرغم من تفاهة البادئين بالحديث، إلا أنهم كانوا يفهمون الإشارة ويتبعونها. ومن جهتي، فقد انتقدتُ انعدام الأصالة عند الفرس، حيث إنهم تخلوا عن لغتهم، وراحوا يسعون لتعلم لغة أخرى، وعندما فشلوا في القيام بذلك، عمدوا إلى خلط اللغات بعضها ببعض وكانت النتيجة هي هذا الهراء الذي يتكلمونه. وكان الجواب الأكثر شيوعاً عندهم هو أن اللغة الفارسية في الأصل كانت لغة خامة، وأنها أصبحت الآن أكثر حلاوة وفصاحة (بالفارسية: شيرين، فصيح). ولكن أحدهم، كاتب أدب شاب اسمه سيد، عزا سبب ما حدث للغة الفارسية للملالي، لأن بلاد فارس كانت في العصور القديمة أكثر حضارة من الآخرين. بحيث إن الأنبياء والرسل الذين ظهروا في البلاد الأخرى على سبيل المثال، لم يجرؤوا على المجيء إلى هنا، لأنهم كانوا يعرفون أن الإيرانيين متفوقون في العلوم وفي الفنون. كما أن الإفرنج كانوا يأخذون عن إيران جميع أساليب الحضارة التي رفعت مكانتهم الآن عن باقي الشعوب الأخرى. والهنود أيضاً أخذوا عن إيران. ولكن نبينا ظهر

بعد ذلك في البلد المجاور، وهو بطل لا يمكن لأحد رفضه، وغزا بلاد فارس برسالة واحدة أرسلها إليها. وهكذا بدأ ملالينا يخلطون غريب الكلمات باللغة الأصلية، لأنهم كانوا يريدون في البداية تعلم الدين الذي كان قد جاءهم من الخارج. ولكن هذا العلم، والرغبة في التألق به، جعلاهم ينشرونه عن طيب خاطر في كل مكان، وينشرون معه المصطلحات المرتبطة به. وهكذا وصلت هذه الكلمات الأجنبية تدريجياً إلى فم الجمهور وتجذرت فيه تجذراً عميقاً، بحيث أصبح من الصعب اجتثاث جذورها دون حرث الأرض وقلبها كلها. كان هذا جواب سيد، ولكنني أعتقد أن القلة القليلة فقط تشاطره الرأي.

لم يكن مضيفي نفسه يسمح لابنه ميرزا علي بدراسة شاهنامه، أو فرهنك، أو أي أعمال أدبية قديمة أخرى. فاللغة العربية في رأيه كافية، وهي كل شيء. وإذا تعلم الصبي العربية، فإن معرفة الفارسية ستأتي تلقائياً. فمثلما كانت لغات أوروبا في الماضي بحاجة إلى انتظام اللغة اللاتينية، ومثلما أصبح الفرنسي يدرك في أيامنا أن لغته التي تفتقر تراكيبها لليونة بعباراتها المعيارية المتغزلة، وأصبح يدرك أكثر حاجة لغته إلى روح اللغة الألمانية وحيويتها، وإلى ما تتمتع به هذه اللغة من ليونة وعمق. وبالمعيار نفسه يمكن القول إن اللغة الفارسية السكرى التي وصلت إلى أقصى درجات الثمالة، هي بحاجة ماسة بالتأكيد لكأس من المياه من نبع اللغة العربية النقي الصافي. ولكن الفرس لم يفهموا قيمة هذا العلاج، بل إنهم لم يتذوقوا إلا الرغوة الطافية على السطح فقط، ورفضوا المياه العذبة التي لم يعجبهم مذاقها، فلم تزدد ثمالتهم إلا حدة.

ولا تقدم وجبة العشاء عادة إلا بعد ما يتفرق الجمع أو يستعد للافتراق. في الأيام الأولى وقبل أن أعرف أن بإمكاني أن آكل وجبة خفيفة في السوق، أو في المساجد أو في المدارس القرآنية، كنت أشعر

خلال النهار بجوع شديد. هنا، كما هو الشأن في كل مكان تقريباً في بلاد فارس دون استثناء، تتكون وجبة العشاء من أرز پلو، الذي يحبونه هنا حباً جماً. ولكنهم لا يحضرون منه عصيدة مثلما يفعل سكان شبه جزيرة العرب، وإنما يصفّون الماء بعد غليه بحيث يمكن تمييز كل حبة من حبات الأرز عن بعضها. وهذا هو الطبق الوطني لبلاد فارس، فهو بمثابة المعكرونة في إيطاليا، وشرائح اللحم في انجلترا. إنه الأكل الرئيسي في المطبخ الفارسي. أعتقد أن المطبخ الفارسي، بطريقة أو بأخرى، هو مرجعية لغة البلاد وأدبها. فالشاعر الفارسي لا يعبر عن أي فكرة بطريقة مباشرة وواضحة، وإنما يلفها بأثواب من الاستعارات والكنايات الملونة والمزركشة. وهكذا فإنه يستر الفكرة بحيث تختفي رائحتها، ولا يبقى شيء يمكن للقارئ أو للمستمع إضافته من خياله. والشيء نفسه يقال عن الطباخ الفارسي، فهو أبداً لا يقدم أي طعام كما هو نقياً غير مزيف. بل إنه يضيف إليه كماً هائلاً من التوابل، وكلما كثرت التوابل، كان ذلك أفضل، بحيث تختفي النكهة الحقيقية، وإلا فإنه يضيف الكثير من المواد الأخرى، ويطبخ الطعام لزمن طويل إلى أن يفقد كل قوته. والفارسي يطبخ اللحم على سبيل المثال من الصباح حتى المساء، وعندما يقدم الطبق يكون اللحم ذائباً وسط كم هائل من الخضر، والمشمش المجفف والتين أو غيرها من الفواكه، وتكون فيه نكهة حلوة أو حامضة، بحيث إن المرء لا يعرف ما الذي يأكله. ورغم لذة أرز پلو، إلا أنه يأتي متبلاً بالكثير من الهيل والزنجبيل والفلفل وغيرها من التوابل. لا يتحمل الفارسي المسكين سماع الحقيقة كما هي، بل ينبغي دغدغته بالجمل البراقة. وبطنه المسكين أيضاً يحتاج إلى توابل لكي ينتعش، فهو لا يتحمل الغذاء القوي النقي كالعربي. ومع ذلك فإن الطباخ الفارسي يتوق لسماع عبارات الثناء على مهاراته في الطبخ. وأتذكر أنني مرة أكلت وجبة في إحدى القرى، فلم يتوقف

مضيفـي لعـدة أيام عـن التحقيق معي حـول الأكل بعد ذلـك: ألم يكن الطبق الذي أكلته عندنا طبقاً ممتازاً؟

رغم أن رفيق سـفري رجل متفتح وغير سـطحي بالمرة، إلا أنه كان يرتاب في أمري جداً إذا نسـيت لمرة واحدة أن أثني على أي طبق أعده لنا. والفارسي يأكل أيضاً أكثر بكثير من العربي، ولعل السبب الأساسي فـي ذلـك هو كون مناخ بـلاده أبرد. وأنا شـخصياً لا أتذكـر أنني أكلت فـي أي بـلاد من بلاد الشـرق بهذه الشـهية المفتوحة كمـا آكل في بلاد فارس. ولكن الفارسي دقيق جداً فيما يتعلق بنظامه الغذائي، فهو يريد، كما يقولون بالفارسية أن يتناول الطعام وفقاً للقواعد الطبية. وكل واحد يعتقـد أنـه طبيب بالقدر الذي يسـمح له أن يفرق بيـن الصالح والطالح بشـأن صحته. وكل واحد منهم يعرف طبيعة جسـمه، أهو حار أم بارد، أهـو رطـب أم جاف، ويعرف أيضـاً نوعية الفاكهة أو الطعـام، أهو حار أم بـارد، رطـب أم جـاف، وما إلـى ذلك. فعلى سـبيل المثـال، إذا كان الشخص ما صفراوياً (حار وجاف) فإنه لا يأكل من الأكل إلا ما يعتبره بـارداً ورطبـاً. وإذا كان دموياً (حار ورطب) فإنـه لا يأكل من الأكل إلا ما يعتبره بارداً وجافاً. وإذا كان بلغمياً (بارد ورطب) أو سـوداوياً (بارد وجاف) فإنه لا يأكل من الأكل إلا ما تكون له خصائص متضادة. وعلى هذا الأسـاس، بنيت جميـع العلوم الطبية تقريباً في بـلاد فارس، وربما في سائر بلاد الشرق الأخرى، فكل العقاقير وكل مادة غذائية تجمع بين خاصيتيـن من هـذه الخصائص. وعلى نحو مماثل يُعتَقد أن كل جسـم بشـري يجمع بين خاصيتيـن من هذه الخصائص، ويعتقد كل شـخص أنه يعرف جسـده من خلال تجربتـه من جهة، ومن خلال حكم الطبيب مـن جهة أخرى. ويمتنع الفارسـي، في مرضه وصحته، بعناد عن تناول أي نـوع مـن أنواع الغذاء، إذا كان يعتقد أن له خصائص طبيعته الخاصة نفسها. من المضحك أحياناً متابعة إلى أي مدى يصل هذا الحذر.

يوجـد بجـوار قصر الحاكم مسـجد على أسـواره العديـد من الآثار العميقـة لقذائـف المدفعية. ففـي الأيام الأولـى التي تلت وفاة الشـاه، اتحـد أهل شـيراز مع رئيس القبيلـة المجاورة، وتمـردوا على الحاكم، فوجَّه هذا الأخير مدفعيته إلى المسـجد المجاور الذي كان المتمردون قـد فروا إلى سـطحه وأطلقوا النار من أعلاه. وقـد قُتِل بعضهم في هذه المناوشـات، ودُمِّرت منازل، ونُهبت بعض شوارع السوق، وخصوصاً سـوق الوكيـل الشـهيرة، وهي أفضل سـوق فـي بلاد فـارس كلها على الإطلاق. كان جنود الحاكم قد داهموها وسرقوا منها بضائع بقيمة ستين ألف روبل، ثم أضرموا النار في المكان، وأحرقوا كل شيء يمكن للنار التهامـه. ويعتقد الفرس، مثل الشـرقيين الآخرين عموماً - رغم أن هذا قد يبدو غريباً في بلد الشـرق الاستبدادية الصارمة - أن جميع الحكام، مـن الشـاه حتى أدنـى خدمه، هم طغاة ظلمة لا يسـعون إلا لاسـتغلال البلاد وتعذيب الفقراء فقط. والشعب لم يعد يعتبر الشاه إماماً، ولـم يعد يعتـرف بأنه خليفة، مثلما لا يعترف بالسـلطان التركـي كذلك. ولذلك فعندمـا انتقل الشـاه - ظل الله على الأرض الـذي لا يحتمي به أحد - إلـى الرفيق الأعلى، تمرد جميع سـكان الحضر علـى حكامهم، وغالباً مـا كانوا يزهقـون أرواحهـم، إلا إذا كان لديهم الوقـت الكافي للفرار، أو إذا كان لديهـم مـا يكفـي مـن القوات للدفـاع عن أنفسـهم. وبما أن الجميـع يعلمون أن القارب لا يسـير في الاتجـاه الصحيح دون توجيه، فإنهـم نصَّبوا إماماً معروفـاً بتقواه يحترمه الجميـع، لأن نموذج الحكم الثيوقراطي لا يزال يسكن فكر الشرقيين المحافظين، وهـم ينفذون هذه الفكرة في الدولة، كمحاولة لا واعية، لأن الدين مهما تشـوَّه، فهو روح كل حياتهم ومضمونها.

في الثامن عشر من نوفمبر واصل والين رحلته من أصفهان متوجهاً نحو شيراز، حيث وصل في نهاية الشهر، بعد مروره ليلاً بقلب مُوجَع على آثار برسيبوليس التي كان يود أن يراها من أجل مقارنتها مع الآثار المصرية.

نحن الآن في شهر محرم، الشهر الأول في السنة الهجرية 1265. ولشهر محرم والشهر الذي يليه (صفر) قدسية خاصة عند الشيعة وخاصة العشرة أو الثلاثة عشر يوماً الأولى من شهر محرم. وذلك لأن الحسين، حفيد النبي محمد الذي يعتبره الفرس في مقام القديس، استشهد في العاشر من محرم. ولكن هذه الأيام تعتبر (أياما سوداء) من ناحية أخرى. ومن ثم فإن الفرس لا يقومون خلالها بأي أمر من أمور الدنيا مثل التجارة، والسفر، ولا يشربون خلال أي يوم من هذه الأيام الثلاثة عشر نبيذاً ولا أي مسكر آخر. ويقضي الناس هذه المدة في التوبة والاستغفار، وفي مختلف العبادات والشعائر الورعة الأخرى. ومنها مثلاً ما يسمى التعزية والروضة. التعزية هي تمثيلية تصوِّر استشهاد الحسين ومن خرج معه من أصدقاء وجنود إلى الكوفة للقتال. والروضة هي وعظة تُقرأ جهراً وتصف ما حدث للحسين في تلك الأيام، وكذا تلك المدة من التاريخ الإسلامي. وتُعرض التعزية في مبنى أو خيمة أقيمت خصيصاً لهذا الغرض يسمونها (تكية). أما الروضة فيمكن قراءتها في أي بيت. تشتهر أصفهان بموكبها الاحتفالي الذي ينظم في عيد الأضحى، في العشر من ذي الحجة، اليوم الموالي ليوم عرفات، (الذي لم نشهده للأسف)، وكذلك طهران وشيراز بالخصوص تشتهران بالتعزية والروضة. وقد كان رفيق سفري قد هيّأني عندما كنا في بغداد لما سأفرح برؤيته هنا.

وهكذا ذهبنا في الثامن من محرم إلى واحدة من تلك المباني المؤقتة الثلاثة عشر التي نصبت هذا العام في المدينة إحياء لذكرى

الشهداء. دخلت إلى ذلك المبنى المنصوب في الساحة الواسعة، وكان يشبه البنايات المؤقتة التي تُنصب في عيد الفصح في ساحة القديس إسحاق في سان بترسبورغ. ولاحظت في الداخل بأن جدار المبنى الداخلي مغطى كلية بثوب أسود بطريقة تزينية، كما أنه مقسم إلى مقصورات يصل علوها إلى المرفق تم تغليفها بالأبيض مما يشكل تبايناً لونياً جميلاً مع الخلفية السوداء. وكانت بعض المرايا الصغيرة تزين ما بين المقصورات، كما أن تلك المرايا نفسها كانت تزين الأقواس القوطية التي توجد أعلى مداخل المبنى. كما زُخرِفت ألواح السقف برسومات لمختلف أنواع الحيوانات أكثرها طواويس. وكان بين ألواح المقصورات وبين السقف فضاء مفتوح امتدَّ حول الغرفة بأكملها، وكان الضوء يدخل منه إلى المبنى. وقد نُصِبَت في مركز القاعة خشبَةٌ تشغل نصف القاعة تقريباً، وكانت بين هذه الخشبة وبين المقصورات مسافة ثلاثة أذرع تقريباً. وكانت على يمين جدار المقصورات خشبَةٌ أصغر إضافة إلى منبر. وفي الجدار المقابل كان ثمة رف مُدَرَّج يأخذ مساحة أكبر ويشبه الرفوف التي يرُصُّ عليها التجار البضائع. وكان هذا الرف مليئاً بالمرايا، ومختلف أنواع القناني والأواني الزجاجية والكريستالية الأخرى التي عرضت فيها بعض ورود الموسم وغيرها من الزهور. وكان منظر التشكيلة منظراً جميلاً يسر الناظرين.

عندما وصلنا إلى هناك، كانت معظم المقاعد قد شُغِلَت، كنا في حيرة من أمرنا، وشرعنا نبحث بين المقصورات علنا نعثر على مكان. وعندها تقدم نحونا شخص يبدو أنه من المسؤولين على التنظيم وأخذنا بمنتهى اللياقة إلى إحدى المقصورات التي كانت فيها أماكن شاغرة. لم تكن التعزية قد بدأت بعد، ولكن انتباه الناس اتجه إلى الملا الذي وقف إلى المنبر وقرأ وصْفًا عن المراحل التي مر بها الشهداء إلى أن جاء دور قارئ آخر. وسرعان ما غرق صوت الفقهاء الأجش في

صدى صوت الأبواق. سكت الشعب عندما بدأ المسؤول عن التنظيم يلوح بيديه ويطلب من الجميع الانضباط. كل شيء يدل على أن الحفل «سيبدأ الآن». في البداية، سُمعت من خارج المبنى صرخات تعلن اقتراب الحرب، ثم دخل محاربان، هما الحسين والعباس، يمتطيان حصانين جميلين ويرتديان أزياء يفترض أنها أزياء عربية. وبعد أن جعلا الحصانين يمران بالممر الضيق المحيط بالخشبة الكبيرة، ترجلا وهما يحملان السيف والدرع في يديهما على خشبة المسرح، كما يدخل العربي خيمته، وتركا الحصانين للخادم. ثم دخلت فاطمة ابنة النبي إلى الخيمة، وكان من يمثل دورها رجل يرتدي زي امرأة، ثم جاء ثلاثة أطفال، وبدأ العرض. بدأ الممثلون باستظهار بعض الآيات أو قراءتها من ورقة (الأمر الذي بدا وكأنه أوبرا أو ميلودراما). وكانت الآيات تعبر عن المعركة التي أمامهم ضد سكان الكوفة وغيرهم. ثم تغير المشهد إلى مشهد وداع، وبدأ الممثلون يضعون على رؤوسهم تبناً، ويدور بعضهم حول بعض على النمط الفارسي وهم يعبرون عن عواطفهم، ويتنبؤون باقتراب خطر محدق، ويحثون على تجنب القتال.

في الحقيقة، أنا لا أعرف قصة تلك الأيام، وليس لدي الآن أيضاً أي كتب عنها. كما أنني لم أفهم شيئاً من تلك اللغة التي استعملوها في الغناء بأسلوب جميل للغاية. تحركت مشاعر الناس من شدة التاثر بالتمثيلية العاطفية ومن كلماتها الحساسة، وذرفوا الدموع وارتفع نواحهم. بكى رفيق سفري هو الآخر بكاء مراً. ولكن حان وقت خروج المحاربين إلى المعركة. ركب الفارسان مرة أخرى على ظهر حصانيهما الذين سيقا لهما، وسارا حول الممر الضيق وأشهرا سيفيهما في وجه أهل الكوفة اللذين وقفوا يتصدون لهما بالدروع. ثم عادا بعد ذلك إلى الخشبة لسرد الأحداث، ثم انطلقا مرة أخرى للقتال، ولكن هذه المرة سارا على الأقدام وهما يجلجلان الدروع. وفي النهاية عاد

العباس مبتور الذراع، واستلقى على الخشبة حيث التف حوله باقي الممثلين في بكاء ونواح.

كان العرض جيداً جداً وأعجبني عموماً، ولكن ثمة شيء واحد أرفضه: المسرحية ليست عربية البتة. فالعربي لا ينهار أبداً عند الفراق، ولا يكون عاطفياً عندما يودع النساء والأطفال، كما أنه لا يعانقهم ولا يلاطفهم، إلا عند الجلوس معهم بعد عودته إلى دياره بسلام، وهم يستدفئون حول موقد النار ويشربون زبدية من الحليب. علاوة على أن العربي لا يستسلم للتخمينات السوداوية بشأن ما ينتظره، أو أنه على الأقل لا يتحدث عن ذلك بصوت عال، لكنه قد يتذكر تلك العلامات لاحقاً. كما أن الملابس كذلك كانت أغلى وأكثر بهرجة مما يرتديه العرب عادة. ولكن من جهة أخرى، يعتبر مثل هذا التباهي ضرورياً دائماً في المسرح. فالقيصر الذي في مسرحية شكسبير ليس رومانياً. فلو قُدِّم الحسين العربي للفرس في بساطة العربي، فإنه بالتأكيد لن يجعلهم يذرفون أية دموع. كل شيء هنا يذكرني بأوروبا، وشعرت أنني رأيت الآن عروضنا المسرحية، ورأيت نموذج مسرحنا الأول.

ولكن لا بد لي أن أضيف أن أكثر ما أعجبني في التعزية الفارسية أنني لم أرَ هنا ذلك الشيء الذي يضايقني دائماً في عروضنا المسرحية: وهو المبالغة في إثارة الشفقة وتحريك المشاعر مما يجبر المتفرج على تحويل نظره عن الخشبة، أو إغلاق عينه تماماً. كان كل شيء هنا في حدود المعقول، إذ لم تكن ثمة مبالغة في حركات الفم واليدين. فلا هي بالكثرة المفرطة، ولا هي بالقلة المجحفة، وكأنهم درسوا نصائح هاملت لممثليه مؤخراً. زيادة على ذلك، فإنني لم أفوت متعة غالباً ما كانت أكبر متعة بالنسبة لي في المسرح الأوروبي، وهي فن المسرحية داخل المسرحية في المشهد الذي فشلت فيه المقاومة، فجاء الأشرار يدلون بتصريحات ساخرة عن المعركة. لم يكن في المكان توزيع

خاص للمقاعد حسب التسلسل الهرمي للمكانة الاجتماعية: كان الدخول مفتوحاً في وجه الجميع بكل حرية، وكان الناس جالسين بشكل فوضوي، وحتى المشروبات كانت مجانية. وكان الخدم يحضرون الأراجيل والقهوة وعصير الليمون الممتاز، ويوزعونها على الجميع مجاناً. ولكن المتوددين للقديسين من الأتقياء الذين موّلوا كل شيء يرجون ثواباً من الشهداء. وفي ختام العرض تم عرض مختلف أنواع الحيل والجمباز: قدم الرجال حركات الحفاظ على التوازن من خلال الإمساك بحربة طويلة بين أسنانهم، ثم وضعوها على الأنف أو الجبين. كما أبانوا عن قوتهم برفع أكياس كبيرة مملوءة بالماء، وما إلى ذلك. ولكن هذا لم يثر اهتمامي بعد الذي شاهدته في العرض السابق.

ذهبت إلى البيت وأنا سعيد جداً بأمسيتي، لأن ما شاهدته للتو هو أفضل ما يمكن للمسافر أن يراه في بلاد فارس، وقد تجاوز كل توقعاتي المتصلة بعروضهم المسرحية. سمعت أن التعزية ليست شكل الدراما الوحيد في بلاد فارس. يبدو أن لهم مجموعة من الفنانين الفارسيين الذين يسمونهم المقلدين، والذين يقدمون عروضاً، معظمها هزلية، عن فئات المجتمع المختلفة، وكذا مشاهد كاملة عن الحياة العامة أو الخاصة. وتعد دعوة هذه الفرق للقيام بعروض في المنازل طريقة تسلية لها شعبية واسعة، ولكنني لم أتمكن من رؤية مثل هذه العروض. وقد حرمني ضيق الوقت، والقلق، ونفاد موارد السفر من هذه المتعة، ومن الكثير من المتع الأخرى. كما أنني لم أتمكن من التفرج على التعزية إلا مرة واحدة، على الرغم من أنني طلبت من رفيق سفري أن يأخذني لرؤيتها خلال اليومين المتبقيين من أيام عيد عاشوراء، إلا أنه ارتأى أن ذلك ليس من الحكمة في شيء. وذلك لأن الزحام عادة ما يكون شديداً، ولا سيما في الأيام الأخيرة، إضافة إلى خطر اندلاع أعمال الشغب، أو المواجهات الدامية، بالإضافة إلى السرقات. وهكذا كانت

المأسـاة الفارسـية الأولى التي تفرجت عليها هي المأسـاة الأخيرة في الوقت نفسه.

ومـن ناحيـة أخرى، أتيحت لنا فرصة الاسـتماع إلى قـراءة الروضة فـي اليـوم الموالـي. وكان العرض الذي وقـع عليه اختيارنـا من تنظيم (جديد)، وهو رجل كان يهودياً ودخل الإسـلام. زعم رفيق سـفري أن سـبب دخوله في الإسلام هو إيمان داخلي عميق. من الحماقة الاعتقاد بـأن يهوديـاً غليظ الرقبـة يتخلى عن دينـه بدافع من ضميـره فقط! لعل سـبب دخوله في الإسـلام أنه قد جمع المال الكثير من المسـلمين، ثم تـرك ديـن آبائه خوفـاً من أن يطمع سـكان الحضـر فـي ممتلكاته. فهو بدخولـه فـي دينهم، أصبح قادراً على الحفاظ علـى كنوزه. لا أعتقد أن ثمـة ما يجعل اليهودي على الأقل يتخلى عن دين آبائه. ذهبنا إلى منزل اليهـودي المرتد، فدخلنا من البوابة، ومشـينا عبر ممر فيه ظلام دامس، بالـكاد تمكنـا من صعود درجـه الضيق، ومنـه ولجنا إلـى باحة صغيرة معبـدة بالحجارة، يغطي معظم مسـاحتها صهريجا ميـاه، وتزينها بعض النباتـات التي نمت بين الحجارة، وبعض الأزهـار المزروعة في جرارٍ وفـي أوانٍ زجاجية. وتحيط بالباحة غرف سـكنية تطل نوافذها الكبيرة على الفناء. ولكن تلك النوافذ كانت غير متوازنة بالمرة، فكانت إحداها في الأعلى، والأخرى في الأسـفل. وكانت فتحات النوافذ من شبابيك خشبية جميلة، كما هو معتاد في جميع أنحاء الشرق وخاصة في مصر. وكانت في إحدى الغرف ما يسمى بالأوروسي كذلك، أي تلك النافذة ذات المربعات الزجاجية الملونة.

كان فـي الفنـاء الكثيـر من الرجـال الذين جلسـوا على السـجاجيد المنشـورة علـى الأرض، كما كان عـدد كبير منهم جالسـين في الغرف أيضـاً. وكان المـلا يقـرأ مـن أعلـى المنبـر خُطبة عـن التاريـخ الديني الفارسـي على جمهور المستمعين المهتمين جداً بالموضوع. أرشدونا

إلى مكاننا، وكان في أكبر وأجمل إيوان، في الأوروسي الذي سبق أن ذكرته. كانت تلك النافذة الكبيرة مفتوحة الآن مثل جميع نوافذ البيت الأخرى. وكانت اللوحات الجميلة تزين الجدران، وكان الأصفر هو اللون الرئيسي الذي يشرق منها. كما عُرضت على طول الجدار مجموعة من الأواني التي وُضِعَت على الأرض في صفين. وكانت أطباق كريستالية غريبة الشكل، وعدد من القنينات طويلة العنق وغيرها. وكانت في كل آنية من هذه الأواني باقة من الزهور. كما كان في بعض تلك الأواني بعض الفواكه الموسمية مثل البرتقال والنارنج، وما إلى ذلك. وفي ما بين الصفين بقيت مساحة ضيقة، فوضعت فيها أراجيل لها خراطيم جلدية طويلة على كلا جانبي الأواني، وكانت في الغرفة ثلاثون أرجيلة وزعت بالتساوي على الجانبين. وسرعان ما جاء الخادم لفتح غطاء كل أرجيلة من الأراجيل، وإعادة ملئها بالتبغ وإشعالها مرة أخرى بإضافة الجمر إليها، كما أنه كان أحياناً يغير ماءها أيضاً. وكان كل شخصين يدخنان أرجيلة واحدة، ولكن، وبما أن عدد الأراجيل في الغرفة كان ثلاثين، فإن أصوات فقاعات المياه كانت تحدث موسيقا خاصة جداً.

تناوب ثلاثة ملالي على المنبر دون توقف، وقرؤوا قصصاً فارسية عن شهدائهم إما من كتاب روضة الصفا لصاحبه مير خواند، أو من غيره من الكتب، أو من نصوصهم الخاصة بهم (ولكن هذا الأمر الأخير كان نادراً). كان الملالي في بعض الأحيان يقرؤون بصوت الواعظ المشتكي والممل، وأحياناً يقرؤون بنشاط وبصوت عادي، وأحياناً بطريقة الفرس المنفعلة. كان المستمعون يجهشون بالبكاء ويعلو عويلهم. وكنت منزعجاً جداً من الرجل الذي يجلس إلى جانبي، والذي كان يضرب بيديه على ركبتيه باستمرار وبقوة وهو يبكي وينتحب، ويمسح على لحيته الحمراء المخضبة بالحناء. ولم

يتوان مضيفنا المرتد عن تحريك رأسه بحركات حزينة، ولا عن مسح عينيه أو تغطيتهما بمنديل أبيض، ولا عن تنظيف أنفه من المخاط في المبصقة المصنوعة من الزجاج الأخضر، والتي يستعملها الفرس بشكل شائع. وعندما وصل الملا في خطبته لموضوع الشهيد الحسين، وصاح بطريقة مثيرة للشفقة قائلاً: «لم يبق إلا يوم واحد فقط! لم يبق إلا هذه الليلة، وبعدها سنفقد الحسين! لقد سكت بلبل حديقة ورود كربلاء». فانضم إليه الجمهور كله يشاركه الصياح بصوت خافت مكبوت قليلاً: «يا حسين! يا حسين!». وكرر هذا مدة ربع ساعة، وهو يرافق صياحه بالضرب على صدره في جانب القلب. وبعد أن خارت قواهم، كانوا بحاجة إلى أرجيلة تنعشهم، فجاء الخدم بالأراجيل مرة أخرى، وبعد وقت قصير، قدمت القهوة للجميع، وكان عددهم قرابة مئتي رجل تقريباً.

جلست هناك لمدة ثلاث ساعات تقريباً، وكانت ركبتي المسكينتين قد تخدرتا وتخشبتا دون أية فائدة تذكر، لأنني لم أجد ما كنت أريده، ولأن قراءة الروضة كانت مملة بالنسبة لي. عندما تفرجت على التعزية، شعرت أنني أرى انعكاساً شاحباً لما كان الفرس عليه في العصور القديمة، أو لما يمكن أن يكونوا لا يزالون عليه. ولكنني هنا أرى ما الذي صنعه الإسلام بالفرس الذين تربوا على يد الفقهاء. وما شأن الفرس بالإسلام؟ فالإسلام يلائم الصحراء وأبناءها، ولكنه لا يلائم أي أحد عداهم. فمهما كدَّ الفارسي واجتهد في الصلاة والامتثال لأحكام الدين، إلا أن البدوي الذي يعيش أيامه لا يؤدي الصلاة، ولا يصوم رمضان يبدو مسلماً حقيقياً أكثر من الفارسي وأفضل منه. شعرت بملل شديد من هذه القراءة، وكنت سعيداً جداً عندما حان وقت المغادرة، وذلك بعد أن قدم الخدم لكل واحد من الحاضرين كوباً من الشاي الذي وضع فيه الكثير من السكر، والكثير من القرفة

والليمـون. وقد أُقيمت مثل هذه الروضة مرة فـي كل بيت تقريباً خلال هذيـن الشـهرين، فهي تنتقل من منـزل إلى منزل، ولا تُقـام في المنازل فحسب، بل في الشـوارع أو في المساجد أيضاً. ويمكن تنظيمها داخل خيمة أو في مبانٍ تُنْصب حسـب الطلب لهـذا الغرض، وعادة ما تغطى جدرانها بأقمشـة سـوداء. وتنتشـر مثل هذه الخيم أو المباني في جميع أنحـاء بلاد فارس. ولكن قراء شـيراز ومغنيها هم الأكثر شـهرة، لا من حيث الصوت وطريقة القراءة، ولا من حيث تنظيم الحفل بأكمله. وهم طبقة خاصة جداً من الناس، مثل حفظة القرآن القاهرة.

على بعد نحو ثلاثة أميال من المدينة، يقع قبر الشـاعر الكبير الشيخ سعدي بالقرب من قرية سعدي الصغيرة. على الرغم من أنه كانت لدينا كل الأسباب التي تجعلنا نخاف من اللصوص، إلا أنني ذهبت إلى هناك مع رفيق سـفري، وثمانية مـن أصدقائه. كانت الجبـال القريبة من القبر تحيط من ناحية الشـمال بالسـهل الواسـع الذي تقع عليه المدينة. وقد مررنـا في الطريـق ببيت صيفي صغير مُزَيَّنٍ يقع فـي حديقة مورقة، كان بدو البيلي قد دمروا قسماً كبيراً منه قبل بضعة أيام، كما دمروا الحديقة التـي بنـي عليها أيضـاً. وكانوا قـد نزلوا في هـذه الأنحاء، واسـتعملوا البيت الصيفي إصطبلاً لخيولهم، وكسروا أشجار الحديقة ليستعملوها كحطـب. وقـد رأينا هؤلاء البدو مـن بعيد، وهم لا يزالـون يقيمون هنا في خيام بيضاء (وليس في خيام سود كباقي البدو عامة) بعد أن حاربوا حاكم شيراز السابق، ولكن زعيمهم أعاد تطوينها تدريجياً الآن.

عندمـا وصلنـا إلى ضريح الشـيخ سـعدي الـذي يقع في بناء يشـبه المسـجد وتحيـط به الحدائـق، لاحظنـا أن أهـل القرية قد بنـوا حائطاً لإقفـال باب الضريح خوفاً من أن يتسـلل البدو إلـى داخل المكان، هنا أيضاً، لقطع الأشـجار العالية واسـتعمالها حطباً. ولكن الحارس الذي هو من معارف رفيق سفري القدامى أخذنا إلى الضريح باستعمال طريق

ملتوٍ يمر عبر المنازل والفناءات. يقال إن سعدي كان يُقيم هنا، بعيداً عن المدينة. وهو يرتاح الآن داخل إيوان[1] في قبر مستطيل الشكل بني من رخام رديء تشقق بعض الشيء. وكانت الجدران ملطخة بالكامل بالأبيات الشعرية، ومعظمهما عبارة عن مقتطفات من قصائد سعدي، كتبها الزوار الفرس معبرين عن مشاعرهم تجاه سعدي. كان الزوار الفرس يتهاطلون إلى هنا طول الوقت جماعاتٍ جماعاتٍ، منها الكبيرة ومنها الصغيرة، للتمتع بالهواء الطلق، وشرب لبن هذه القرية الشهير. إن هذا المكان هو بالتأكيد خيار جيد للترفيه عن النفس، ليس لأنه جميل بشكل خاص، وإنما بسبب هذا الرجل الذي يرقد رفاته هنا. إن الزائر هنا لا يشم بفضل طبيعة المكان رائحة العفن أو رائحة الموت التي تفوح من قبور أولياء المسلمين عادة. بل إنه لا يشم إلا عطراً أبدياً يفوح من ديوانَيْ الشيخ سعدي المزدهرين على الدوام البوستان والكلستان[2]. من الصعب قراءة سورة الفاتحة هنا كما تقتضي زيارة المقابر عادة. لكن المرء يحس برغبة جامحة في أن يصيح مثلما صاح هذا الشيخ النبيل الذي يرتاح هنا: «وليس البلبل هو الذي يسبح وحده فوق الورود، ولكن كل شوكة لها هي الأخرى لسان تسبح به!» إن حب الفرس لشيخهم النبيل وتقديرهم له أمر يثلج الصدر حقاً، على الرغم من أن بعض الملالي يلعنونه فقط لاشتباههم في أنه كان سنياً.

في الواقع كانت هذه القرية صغيرة وفقيرة، وحتى اللبن لم نجده فيها. ولكننا جددنا نشاطنا ببعض الرمان اللذيذ على كل حال. سرنا بمحاذاة سفح الجبل لمشاهدة بعض أماكن الترفيه الأخرى. تفرجنا على حديقة باغي شاه الفخمة، المزروعة على رصافتين اثنتين. وكانت

---

(1) الإيوان هو قاعة قد تكون مصفوفة بأعمدة أو مسقوفة بثلاثة جدران فقط والجهة الرابعة مفتوحة.

(2) ديوان البستان وديوان حديقة الورود.

إحدى الرصافتين أعلى بكثير من الثانية. أما حديقة باغي ناف الشهيرة التي زرعت في سبع رصافات فإننا لا نستطيع زيارتها لأنها بعيدة جداً عن طريقنا، كما أننا لسنا في موسم الحدائق الآن. ويتردد سكان المدن كثيراً على هذه المناطق للتجول فيها. وقد أخبرني رفيق سفري بحماس شديد عن مدى جمال هذه المنطقة في الربيع، فعندئذ لا تزدهر الحدائق فحسب، وإنما تكتسي جميع السهول والجبال، من السفح إلى الذروة حلة من الخضرة البهيجة، وتلبس ثوب عيد الربيع، أي عيد رأس السنة - وهو في مارس في إيران - فيصاب الناس بالثمالة دون نبيذ، وذلك بفعل ازدهار الطبيعة فقط.

وبعد ذلك ذهبنا إلى مكان أكثر انخفاضاً يقع فيه ضريح خوجه حافظ الذي يتنافس مع سعدي على المكانة التي يحتلانها في قلوب الفرس، مثلما هو الحال بالنسبة لشيلر وغوته في ألمانيا. ويقع القبر في مركز المقبرة الغاصة بأجمل شواهد القبور. ويتميز قبره من غيره من القبور بشاهده الرخامي البديع الفخم ناصع البياض الذي نقشت عليه جمل بالخط الفارسي، وتلك الجمل تغطيه بالكامل. وقد بُني بجانب المقبرة مبنى يتصل بحديقة تنمو فيها أشجار سروٍ كثيفة. وهناك، شممت مرة أخرى رائحة الجثث، إذ كانت ثمة جثتان ملفوفتان بعناية، وموضوعتان في إحدى غرف المبنى في انتظار نقلهما إلى كربلاء ليُدفنا هناك. ثم عدنا إلى المدينة بعد أن قضينا يوماً لطيفاً في الهواء الطلق دون أن نتعرض لمضايقات قطاع الطرق. ولكن هذا اليوم على ما يبدو سيكون آخر الأيام اللطيفة، لأن الجو الآن تغير وساء للغاية. فالسماء الآن تمطر مطراً وصقيعاً وثلوجاً. ولذلك فضلت أن أحبس نفسي في غرفتي المظلمة بمحطة القوافل. في الحقيقة لم أتمكن من إغلاق الباب علي، لأن ذلك يكفي لإيقاظ الشكوك عن امتلاك كنوز عظيمة. لذلك اضطررت إلى ترك الباب مفتوحاً، وترك نفسي فُرجَةً

لجميع المارة. أشعلت فحماً في آنية طينية، وأعددت القهوة والشاي، وتمتعت بقراءة أنوري سهيلي[1] الذي كنت قد اشتريت في أصفهان نسخة منه طبعت في تبريز.

كان العديد من أصدقاء رفيق سفري يأتون لرؤيتي من وقت لآخر. أما هو فكان يقضي كل يومه تقريباً في المدينة مشغولاً بأمورنا المشتركة أو بأموره الخاصة. ولكنه لم يكن يجرؤ على تركي وحدي في الليل لأنه كان يخاف علي من اللصوص، رغم أنه كان يتلقى الكثير من الدعوات إلى شتى الولائم في المساء وفي الليل. وعلى الرغم من أننا كنا معاً طوال الطريق من بغداد إلى هنا، إلا أننا لم نتمكن من البقاء على انفراد أبداً. ولذلك فإن الفرصة لم تُتَح لي بعد لمناقشته مناقشة صريحة، وها هو الآن يخفف وطأة المساءات الطويلة بفتح موضوع الاختلافات بين السنة والشيعة، وموضوع الإسلام بصفة عامة. إن الفرس متذبذون وغير متأكدين من إيمانهم، على عكس العرب الراسخين في عقيدتهم. إن عدد العقائد في بلاد فارس يكاد يكون كعدد سكانها. فما يسمى بجماعة العارفين الكبيرة هم ملاحدة، أو عقلانيون بالأحرى. وهم يعترفون بجميع الأديان، ولا ينكرون وجود الله بأي حال من الأحوال، ولكنهم يعتبرون أن جميع الأديان جيدة. وعكسَ المسلمين عامةً، فهم لا يتوانون عن الاختلاط بجميع المختلفين معهم في الرأي، كما أنهم لا يأبهون بمعظم الشعائر الدينية كصوم رمضان أو تحريم الخمر. وقد أكد لي رفيق سفري في عدة مناسبات أثناء حديثنا أنه لا يزال غير متأكد أية طائفة من الطوائف أو أي دين من الأديان هو الدين الحق، وأنه يحاول منذ مدة طويلة العثور على شخص ليرشده إلى الطريق الصحيح. لو كانت مكانتي هنا مختلفة، لكان بإمكاني أن أجعله يعتنق أي دين شئت. أعتقد أن هذا هو حال معظم الفرس.

---

(1) تعرف باسم كليله ودمنه.

نظـراً لعلاقتنـا مـع بعـض، أنـا باعتبـاري سـنيـاً وهـو باعتبـاره شيعيـاً، فـإن العديـد من مثـل هـذه المناقشـات كانـت تحرجني. ولذلـك، فإننـي حاولت تغييـر موضوع النقاش، والحديث على سـبيل المثـال عن المهـارات المختلفـة التي تثيـر اهتمامه على مـا يبدو. فقد أخبرني مثلاً أنه يريـد أن يعـرف كيفيـة إعداد مستخلص النعناع، وكيفية تحضير بعض العقاقير الأخرى، وكيفيـة صناعة الفضة، والنيكل، وحبر الطباعـة، والزجـاج، والمرايا، ومـا إلـى ذلـك. وعندمـا لم أكن أوفَّق فـي توضيـح هذه الأمـور بالنحو الذي يرضيه ويشـفي غليلـه، فإنه كان يعتقد أن السـبب الحقيقـي هو غيرتي أو عدم رغبتي فـي توضيحها له. فـي الواقع كان موضوع أسـئلته هـو الموضوع الذي يـؤرق بلاد فارس وجميـع بلاد الشـرق: الكيميـاء وصنع الذهـب. كما يبدو أنـه كان منذ بدايـة الرحلـة يعتقد أنني أعـرف كيفية صنـع الذهـب، وكـان يتمنـى أن يتعلـم منـي هذه المهارة القيمة، ولذلك فقد سـاء مزاجه لأن أمله لـم يتحقق. وقد خَبِرت سوء مزاج الكثير من الشرقيين الآخرين للسبب نفسه.

كان علينـا أن نُعجّـل بمواصلة الرحلـة دون رؤيـة كل الأماكن التي تستحق الزيارة. إن أكثر ما يحزنني هو أنني لـم أتمكن من رؤية مؤسسات الرياضة البدنية (زورخانه) المنتشـرة في جميع المدن الفارسـية، وهي ليسـت مخصصـة فقـط لأولئك الذيـن يمارسـون الجمبـاز كمهنة، بل مخصصة لسـائر أنواع الناس، وحتى المرضى منهم. كانت هذه الغرف مغلقة الآن بسبب الاضطرابات التي شهدتها البلاد. كما أنني لـم أتمكن من حضور أي أمسـية غنائية أو راقصة، ولـم أتمكن من دخول أي مكان تشـرب فيه الخمور نظراً لحرمة هذه المدة، وكذا بسـبب الاضطرابات التي شـهدتها البلاد. وهكذا انصرمت مدة سـبعة عشـر يوماً في شيراز، ولـو كنت قـد جئت في فصل آخر، لكنت قد تمكنـت من القيام بالكثير

من الأشياء. ولكنني أعتقد أنه في ظل هذه الظروف، يجدُر بي أن أغادر هذا المكان.

وصلنا إلى أبي شيري في الثالث والعشرين من ديسمبر في منتصف النهار. وهكذا أصبحت على ساحل البحر مرة أخرى. وما أطول الطريق التي قطعتها لأَصِلَ إلى هنا من الساحل البحري الذي كنت فيه في مثل هذا اليوم من العام الماضي! وعلى أي ساحل بحري سأقضي فترة أعياد ميلاد في العام المقبل1849! ولكن، عند القدوم إلى مدينة شرقية غريبة، لا يكون عند المرء وقت للتفكير. علينا الآن أن نبحث عن سقف نحتمي به من زخات المطر التي تنزل واحدة بعد الأخرى، ووجدنا محطة للقوافل. ليس في بلادنا إصطبل ولا زريبة قذرةٌ قذارةَ هذه الغرفة التي حصلنا عليها هنا، والتي وُجدت لضمان راحة المسافر!

وهكذا قضيت في أبي شيري فترة أعياد ميلاد من أسوأ ما يكون، واستقبلت العام الجديد 1849 بمزاج سيء للغاية، وذلك لأنني اضطررتُ لانتظار مواصلتنا الرحلة مدة طويلة جداً، وهو الأمر الذي جعل صبري ينفد كالعادة. ولم أركب البحر تاركاً بلاد فارس ورائي إلا في السابع من يناير. إذا كنت تريد أن تعرف رأيي في هذا البلد، فربما تكون قد استنتجت مما قلته سابقاً أنني لم أحِبَّ الفرس. ذلك أن هذا الشعب هو أكثر شعوب الشرق التي التقيتها فساداً وسطحية. وهو مثل الرجل العجوز، الذي يصبغ لحيته بالحناء، وذلك لأن الفارسي يعيش شبابه ميتاً وبروح فقيرة كالعجائز، ولكنه عندما يلاحظ أن بياض الشيب قد اعتلى لحيته السوداء، يتأسَّف على ما ضاع منه من الوقت، ويحاول عبثاً أن يعيد الزمن إلى الوراء بمختلف الحيل. أما العربي فيعتبر شيب اللحية وقاراً ودليلاً على أنه لم يضيع شبابه في الخيال والترهات. ولكن بلاد فارس متقدمة من حيث العلوم والفنون التي قد تكون إرثاً ورثته عن أجدادها القدماء. ومع ذلك فإن ذلك التقدم هو

بمثابة نصف تحضر، وهو من الهمجية أسوأ. فهو كالعلم بالقاموس، يزول ولا يبقى منه شيء لا للروح ولا للطبع. إنه انعكاس حقيقي لصلاة الشرقي الذي يعتقد أن الله سيقبل منه صلاته لو أنه توضأ قبل أدائها كما ينبغي، واحترم جميع قواعدها، وقرأ الآيات القرآنية بشكل صحيح، حتى وإن سها أثناء صلاته. أما العربي فإنه يمضي في طريقه إلى الأمام، على الأقل في الصحراء، وهو ليس بحاجة لأن يخجل من إسلامه، وهو يبقى على إسلامه إلى الأبد حتى وإن جعلتَه يعتنق أي دين آخر. كما أنه لا يخجل لا من الفقر، ولا من أمجاده الغابرة، لأنه يحافظ على بعض نضارته دائماً. أما الفارسي المسكين فقد هجر عصور مجده القديمة، وتخلى عن لغته ودينه. لقد باع للعربي بكوريته مقابل ثمن بخس. وحرث أرضه مدة ألف سنة بمحراث غريب لا يقوى على دفعه، فغطت الأعشاب الضارة حقله تماماً. فهل يا ترى سيتمكن من جديد من الإمساك بمحراثه الفارسي، أو اقتناء واحد جديد وحديث تماماً؟ إن قلب مثل هذا الحقل الفاسد من أعماقه سيتطلب منه الكثير من الجهد.

أما الفائدة التي جنيتها من رحلتي، فهي أنني لم أستعد صحتي وقوتي التي أنهكتها وأضعفتها حرارة بغداد تماماً إلا بعدما استنشقت هواء جبال بلاد فارس المنعش. فقد جعلني جوها أستعيد نشاط جسدي وروحي، على الرغم من أن الدوخة المتكررة التي أشعر بها تشير إلى أن كبدي قد لا يكون على ما يرام. أما الفائدة الملموسة، فهي أنني تمكنت الآن من قضاء مدة زمنية قصيرة في ذلك البلد الذي أهتم بأدبه، وتمكنت من الاختلاط بشعبه. وذلك لأنه لا يمكن البتة فهم لغة قوم أو أدبهم حقاً إلا إذا عاشرتهم في بلادهم، وكنت على اتصال وثيق معهم. ورغم أنني تعرفت على الكثير من الفرس في بغداد، فإنني أخطأت تماماً في الحكم عليهم وتقييمهم. فالأمم تشبه

الأفـراد، وهؤلاء ينبغـي أن تراهم في أماكنهم: يجب أن ترى القسـيس فـي المنبر، والإسـكافي وهو أمام قالب الأحذية. كما أن الشـعوب في بلدانهـا، لا تخجل من إظهار نفسـها على حقيقتها. ذلـك أن الناس في البـلاد الأجنبية لا يظهـرون إلا جوانبهم الإيجابيـة، ويخفون الجوانب السـيئة أو يغطونهـا بطلاء من الذهـب. وهذا ينطبق تمامـاً على الفرس خـلال هـذه المدة التـي قضيتهـا معهم. فعندما يسـود الخـوف وينعدم الأمن، وتصاب حكومة المملكة بالشـلل، يبدو الشـعب عارياً تماماً لا يستره شـيء، لأنه لا يكـون بحاجة لأن يقلـق من النظـام ولا من لجام السـلطة. علـى الرغم من أن الوقـت الذي قضيته هنـاك كان قصيراً، إلا أنني أحرزت تقدماً ملموساً في اللغة الفارسية، لم أكن لأحرزه بسنوات الدراسـة الطويلة. فثمة أشـياء كثيرة في الأدب الفارسي لـم أكن أفهمها مـن قبل، إذ كنت أعتبرها غيـر طبيعية أو غير مفهومة، وقد أصبحت هنا أراها طبيعية وبسيطة، وجزءاً من طبع الشعب وتفكيره.

وهـا أنا وحـدي مرة أخرى. صعدت على متن سـفينة صغيرة تشـبه سـفن روزلاغ السـويدية، إلا أن شـراعها مثلـث الشـكل كالشـراعات الخرقاء المستعملة في جميع أنحاء الشرق. وقد كان لي الكثير من رفاق السفر، لأن نحو عشرين شخصاً من المسلمين الهنديين الذين كانوا في طريقهـم لزيارة الأماكن المقدسـة تزاحموا في مطبخ السـفينة الصغير. صعدت أنا إلى السـطح برفقة سـتة أشخاص من أهل شوشتر، فيما كان وسـط السـفينة من نصيب خمسـة دراويش جلسـوا فوق البضائع. وقد اسـتأجرت أحـد هؤلاء الدراويـش ليقدم لي بعض الخدمـات من قبيل أن يطبخ لي العصيدة، ويحضر لي الشـاي، ويسـاعدني في ما أحتاجه. وكان الطاقـم يتكون من سـتة أشـخاص، معظمهم من الزنـوج، بما في ذلك القبطان، على الرغم من أن سفينة كهذه في بلادنا لا تحتاج إلا إلى رجلين فقط.

كان الطقس جميلاً وهادئاً عندما أبحرنا لدرجة أننا اضطررنا لسحب السفينة، ولكن الرياح الشمالية الشرقية البطيئة أخذتنا مع حلول الليل إلى جزيرة خرج[1] الصغيرة فأبحرنا على جنباتها متوجهين إلى عرض البحر. ثم تحول اتجاه الرياح نحو الشمال في وقت لاحق، ثم زادت قوتها تدريجياً وأصبحت عاصفة هوجاء قادتنا أبعد فأبعد فوق الأمواج التي كانت تصير أعلى وأعلى. أصيب الركاب بدوار البحر، واستلقى الجميع (ما عداي أنا وأفراد الطاقم)، وغطوا وجوههم بثيابهم، لكيلا يروا الأمواج العالية، وكانوا ينهضون من وقت لآخر إلى الحافة للتقيؤ. ومع ذلك، فإن البحر لم يزدد إلا هيجاناً، وبين الحين والآخر، كانت المياه تدخل إلى السفينة. وعندها كان القبطان يقول لرجاله: «يا الله، ما هذه الأمواج العالية؟». كان بالقرب من سفينتنا سفينة فارغة من أية حمولة، فصاح بنا قبطانها: «ماذا نفعل؟ إننا لهالكون لا محالة في هذا البحر الهائج!». بصراحة، بالكاد تحملت سفينتنا الضعيفة قوة الرياح وعلو الأمواج على الرغم من أننا لم نفتح إلا الشراع الأمامي لكي يقاوم الرياح بشكل أفضل. وإذا تفاقم الوضع، فمن يدري ما الذي سيحدث لنا في هذه الرحلة. وعلى الرغم من الخطر المحدق بنا، إلا أنني أمعنت النظر في المسافرين، وتعجبت من طبعهم وسلوكهم. كل ذلك الصخب الرهيب الذي كان الهنديون قد أحدثوه من قبل قد تحول الآن إلى صمت قاتل، لم يكن يقطعه إلى بكاء طفل صغير. وسكتت أصوات الشوشتريين الثرثارين الآن، ولم يكن يصدر منهم من حين لآخر من تحت عباءاتهم إلا (يا خدا[2]!). وكان الدراويش فوق البضائع خائري القوى، ما عدا عجوزاً لحيته بيضاء كان يخفف عنهم. وحتى الزنوج سقطوا على أرضية السفينة وانكمشوا داخل معاطفهم، ولم يكونوا

(1) بالفارسية: جزيره خارك.

(2) عبارة بالفارسية معناها: يا إلهي!

يحاولون الوقوف إلا عندما يسمعون صوت القبطان يأمرهم بإصلاح الشراع، أو إفراغ السفينة من مياه البحر. كان كل شيء ميتاً، لم يكن أحد ينبس ولو بكلمة واحدة، لم تظهر لا علامات الحياة ولا علامات الخوف، لم تسمع أية صلاة، لا أحد غير الهندي العجوز ذي اللحية البيضاء الذي ظل جالساً يردد بعض الكلمات المبهمة. كنت جالساً في الجزء الخلفي من الدفة، كنت مستعداً لأي شيء، وربما كنت أنا الآخر ميتاً كالآخرين، ولكنني على الأقل لم أصب بدوار البحر، بل ظللت ممسكاً بحزم بكلتي يديّ حتى لا أرتمي في البحر عندما ترتطم الأمواج العالية بالسفينة. تذكرت خروج السفينة من هافر، وتذكرت كيف تجمع الركاب جميعهم وأصيبوا برعب شديد مع أول موجة قوية، وبدؤوا في الصراخ والبكاء. الأمور هنا في الخليج العربي تختلف تماماً!

كان النهار يشرف على الانصرام، وكان الميناء لا يزال بعيداً، ثم غابت الشمس وراء الغيوم القبيحة. لم تكن لا العاصفة قوية بشكل خاص، ولا هيجان البحر مفزعاً بشكل خاص. وقد رأيت عواصف أقوى بكثير، ولكننا الآن على متن سفينة شرقية، وبين يدي بحارين شرقيين لا أثق في مهاراتهم في الإبحار. وعند غروب الشمس، أمطرت السماء مطراً خفيفاً، وهدأت الرياح مع حلول الظلام، على الرغم من أن هيجان البحر استمر. استلقيت على جنبي واستسلمت لنوم عميق، على الرغم من أن الحياة دبت في بعض المسافرين فبدؤوا يحدثون ضوضاء قوية. في الصباح، استيقظت على صياح المراقب الذي أعلن أننا نبحر في منطقة مياهها ضحلة، ولاحظت أن الماء عكر بالفعل على الرغم من أننا مازلنا بعيدين عن اليابسة. أصبح الطقس جميلاً الآن، وتحسن مزاج الركاب. وخرجت من مطبخ السفينة امرأة هندية شابة وهي تحمل بين ذراعيها طفلتها الصغيرة التي أسلمت الروح بالأمس. ثم غسلت الجثة الصغيرة بالماء، ولفتها في قطعة من القماش، وألقت

بها في البحر. وبعد لحظات جاء العجوز الهندي السالف الذكر وهو يسحب جثة شقيقته، غسلها ولفها بالقماش بسخاء، ثم ألقى بها في البحر، بعد أن اغتسل من النجاسة التي يعتبر المسلم أن لمس الجثث يحدثها. يعتبر الفرس الأمة الهندية عموماً من أوسخ الشعوب في العالم، وما رأيته في مطبخ السفينة الذي كانوا يسكنون فيه لا يدحض هذه الفكرة أبداً.

وبعد ذلك بدأنا نرى جزءاً من اليابسة نمت عليه الكثير من أشجار النخيل، وسرعان ما وصلنا إلى مصب شط العرب. هذا النهر الكبير والرهيب يذكرني بمصب نهر النيل، ولكن الشواطئ هنا منخفضة بشكل لا يصدق بحيث يصعب أن أسميها شواطئ، فلا هي بالمياه ولا هي باليابسة، وإنما شيء وسط بينهما مثلما تكون الشواطئ عند ارتفاع مياه المد. خرجنا مبحرين بفضل رياح قوية، وكلما توغلنا أكثر، كلما رأينا عدداً أكبر من غابات النخيل الواسعة. وفي المساء وصلنا إلى فم أحد فروع نهر كوران. وهذا النهر الكبير ينبع من بلاد فارس ويصب بالقرب من مدينتي شوشتر وديسفولي. بعض البضائع التي كنا نحملها هي ملك للركاب الشوشتريين العائدين مع السفينة الآن إلى ديارهم. ولذلك كان علينا التوقف في مدينة مُعَمُّورا الفارسية-العربية الصغيرة لإنزال بضائعهم. انضممت هنا إلى رفيق سفري المسلم في حمد الله وشكره على فضله علينا، لأننا اجتزنا تجربة بحرية خطيرة، وهو سبب وجيه لنكون سعداء لنجاتنا، خاصة أن بعض الشائعات قالت بأن السفينتين اللتين أبحرتا قبلنا بوقت قصير، واللتين لم أوفق في الصعود إلى أي منهما بمحض الصدفة، غرقتا أو ضلتا الطريق. حمدت الله حمداً كثيراً خاصة لأنني عدت سالماً معافى من بلاد فارس، ولأنني ابتليت في سري بشعور غريب سببته الإشاعة التي انتشرت عندكم على أنني قُتِلتُ في بلاد فارس هذه، ولم يفارقني ذلك الشعور طيلة إقامتي

هنـاك. كما سـرني أنني تمكنت مرة أخرى من رؤية ليالي شـبه الجزيرة العربية المقمرة الجميلة التي كنت أشتاق إليها في بلاد فارس.

بقينـا في الميناء يوم الجمعة الحادي عشـر من يناير، بسـبب زخات المطـر المتكـررة التـي منعتنـا مـن الإبحـار، وعندهـا وصلـت باخـرة بريطانيـة صغيـرة من بغداد، ربما تكون سـفينة البريد. وبعد أن سـلمت هـذه الأخيـرة البريـد إلى سـفينة إنجليزيـة لها ثلاثـة صـوارٍ، كانت قد خرجت من أبي شـيري في اليوم نفسـه الذي وصلتُ فيـه أناَ إلى هناك، صعد إلى الباخرة شـيخ مـن مدينة مُعَمُّورا، وقد أخـذه الطاقم من قبيل المجاملـة فـي جولة قصيرة بالسـفينة علـى طول النهـر. وعندها تجمع كل سـكان القريـة على الشـاطئ للتفـرج على السـفينة، وانضـم إليهم كذلـك جميـع الذين كانوا على متن السـفن الراسـية في المينـاء ما عدا العجوز الهندي، الذي اعتاد في مسـقط رأسه كلكتا على رؤية مثل هذه السـفن. وقد علَّق قائلاً: «بمثل هذه الحيل يتمكن الإنجليز من غزو كل الدول». لم يكن يعرف اللغة الفارسـية جيـداً، ولذلك فإنني لـم أفهم ما الـذي قصـده عندما قال «مثل هـذه الحيل». هل قصد السـفن البخارية أم المدافـع (التـي أطلق منها البحارة البريطانيـون عدة طلقات نارية في كلا اليوميـن)، أم أنـه قصد مثل تلك الجولات القصيـرة التي ينظمونها لشـيوخ القرى والمدن. سـألته عـن رأي الهنديين فـي البريطانيين وفي إدارتهـم في الهند. وكان جوابه حسـب ما فهمـت أن الفرنجة ظالمون. عندمـا يصل الغربـي إلى إحدى بلاد الشـرق، ويزرع فيهـا حدائق غنَّاء فـي أراضٍ ظلـت إلى ذلك الحيـن أراضي بـور مُهمَلـة، أو عندما يعيد بنـاء المـدن المدمـرة، ويوفـر للبلاد الأمـن والنظـام والسـلام، ويقدم الحماية من المسـتبدين والمضطهدين، ويقدم للشعب كنوز حضارته، فينصب نفسـه سـيداً علـى البلاد التي أنعشـها بفضل تفوقه، فينسـحب الحكام السـابقون المتعجرفون إلى ظلام جحورهـم ليحزنوا على أيام

الماضي، مثل معلم مدرسة خرج تلميذه عن طوعه بعصيانه له، وهو يهدد ويتوعد مثل هانيبال، أو يبدأ في الغليان كالطفل الغاضب الذي لا حول ولا قوة له. وعندئذ ينظمون القصائد عن ظلم الحاكم الجديد، أو يغنون لطميات[1] عن حلاوة الأيام الخوالي، التي كانوا ينعمون فيها بأشعة الشمس وبحياة هنيئة ومريحة، أو كانوا يفوزون بكل شيء أو يخسرون كل شيء بضربة واحدة من ضرباتهم العنيفة وغير المشروعة. ولكن كيف يمكن أن تفهم تلك الكراهية العميقة التي يكنها الشرق للغرب؟ ومن يستطيع أن يحاول التخفيف من وطأتها؟ أقول، واحد فقط، وهو محمد علي حاكم مصر، وإذا ما تجاوزت شكاوى أصدقاء النزعة الإنسانية في أوروبا، فإنني أعتقد أن بإمكاني القول إن الخطب والمواعظ لا تجدي نفعاً هنا، لأن العصا والسوط الذي تمكنَّا نحن تدريجياً من التخلي عنهما لا يزالان ضروريين للغاية في الشرق ولو أنني أهتزُّ من فرط النفور والتقزز في كل مرة أرى فيها قدمين حافيتين تُجلدان. بالكاد كنت قد انتهيت من حديثي مع الهندي العجوز، عندما أبحرت كلتا السفينتين الإنجليزيتين. أبحرت سفينة البريد إلى البصرة، والباخرة انطلقت في اتجاه أبي شيري. وعلى الرغم من أنني لم أعقد أي آمال على أي شيء، إلا أنني بدأت منذ تلك اللحظة أشعر بالوحدة أكثر من أي وقت مضى. وقد فارقني الدرويش الذي استأجرته لخدمتي خلال الرحلة الآن، لأنه وصل إلى مسقط رأسه، وقد سررت في عز وحدتي برؤية سفينتنا ترفع المرساة وتغادر الميناء.

وصلنا إلى البصرة في زوال يوم الأحد الثالث عشر من يناير. وفي وقت مبكر من صباح اليوم الإثنين، اقتربت من سفينتنا مجموعة من القوارب العربية الصغيرة، فركبت أحدها، ووصلت إلى المدينة عبر قناة صغيرة. كان عليَّ الذهاب على الفور إلى شارع السوق لتغيير القليل

(1) أغاني لطم وتحسر على ما فات.

من المال حتى أتمكن من دفع أجر المجدِّف، وأجر الرجل الآخر الذي حمل أمتعتي إلى محطة القوافل التي نزلت فيها. ومن ثم فقد سنحت لي فرصة مشاهدة المدينة في الحال. لا تعدو البصرة الآن أن تكون كومة روث تحيط بها غابات النخيل الرائعة، ولم تُزرع ثمة أية أشجار أخرى. تظهر هنا وهناك بعض المنازل وبعض المساجد المتداعية التي كانت مآذنها المائلة المزينة بلوحات خزفية فارسية، وجدرانها المنهارة تحذر المارة من الاقتراب منها. في كومة الروث هذه، كانت مجموعة من الزنوج مع أسيادهم ينعمون بأشعة الشمس في كسل تام، كما كان ثمة عدد من الفرق العسكرية التي جُمِّعت من مختلف الأجناس من العرب والفرس والألبانيين، والأتراك والمصريين، وما إلى ذلك. إن البصرة هي حصيلة كل الفساد والشر الذي رأيته في حياتي كلها. لن أحاول أن أعطيك صورة عنها، لأن ذلك سيكون عديم الفائدة، لأن قلمي تعب من الكتابة عن الأنقاض، كما أعتقد أنك أنت قد تعبت من القراءة عنها. تعبت عيناي من رؤية الدمار والخراب طول الوقت وفي كل مكان. لقد أصابتني القشعريرة وأنا أتجول في البصرة، فابتهلت إلى الله بأن يخرجني من هنا قريباً، فكل ما أتمناه هو مغادرة هذا المكان الآن. فإما أن أذهب إلى الصحراء أو أن أعود إلى أوروبتي.

لقد استجاب الله لدعائي! كنت أترقب أن أحصل على بعض المال لأن ما كان معي قد نفد تقريباً. وكنت أترقب رسالة منك وأخرى من القاهرة. وقد عشت على هذا الأمل في بلاد فارس، وقضيت العديد من اللحظات المعتمة أفكر في ذلك. ولذلك سارعت بالطبع للقاء الرجل المسيحي الشرقي الذي من شأنه أن يفتح لي أبواب هذه الجنة، وهو جرجس، الأمين العام للقنصل الفرنسي. وحتى أعطيك صورة دقيقة عن الجانب الذي أصبحت عليه أموري، علي أن أبدأ من نقطة أبعد. حين ذهبت لأول مرة للقاء القنصل الفرنسي جيوفروي في بغداد،

أخبرني أنه تلقى مؤخراً من القاهرة رسالة من السيد بوكتي أوصاه فيها بي، وحثه على وجه الخصوص، إذا لزم الأمر، أن يعطيني ما أحتاجه من مال مقابل صك يرسله له إلى القاهرة. فيأخذ بوكتي من صندوق إيداعي المبلغ الذي يكون القنصل قد أقرضني إياه، ويقوم بإرساله إلى شقيق جيوفروي الذي يعيش في اللاذقية في سوريا، والذي يعد أحد شركاء أعمال بوكتي. وبالفعل عرض عليَّ جيوفروي مالاً، ولكنني رفضت عرضه المهذب هذا، لأنني لم أكن بحاجة للمال حينها. ولكن وعندما بدأ صيف بغداد يرهقني، قررت الذهاب في رحلةٍ إلى بلاد فارس، وحسبت المال الذي أحضرته معي من القاهرة، فوجدت أن معي ثمانية وأربعون داكوتاً؛ أي مئة وعشرين تالراً نمساوياً. وهذا يعني أن هذا المبلغ يكفي للخروج إلى تلك الرحلة، ولكنه غير كافٍ لعودتي من هنا إلى مصر. ولهذا السبب، قصدتُ جيوفروي، وطلبتُ منه إقراضي مئة تالر نمساوي، أسحبها في بندر عباس، لأنني رأيت أنه ليس من الحكمة أن أحمل ذلك المبلغ عبر بلاد فارس. وقد وافق على القرض على الفور، ولكنه لم يتمكن من إرسال المبلغ إلى بندر عباس، لعدم وجود وكيل للقنصلية الفرنسية هناك، ولا في أبي شيرين ولا في أي مكان آخر في بلاد فارس. وكانت البصرة هي المدينة الوحيدة التي يتواجد فيها وكيله الفرعي، والتي يمكنه من إرسال المال إليها بسهولة. وبعد أن فكرتُ في الأمر ملياً، طلبتُ منه أن يصدر القرار بسحب المبلغ في البصرة، فرتب الأمر كالتالي: أعطيته نسختين من إيصال بمئة تالر نمساوي، وأعطاني هو بالمقابل رسالة توصية كتبها مترجمه مراد (فرنسي وُلد ونشأ في بغداد) إلى جرجس، وحثَّه فيها بجميل العبارات على أن يدفع لي (الرسالة تشير إلي باسم الشيخ عبد المولى) المبلغ مقابل إيصال يتم إرساله إلى بغداد، وتحضير صَكٍّ لشخص ما حتى يصرفه جيوفروي. وكانت هذه الرسالة، كما قلت، بخط، السيد دي

مراد، وتحمل توقيعه، ولكن السيد جيوفروي هو من سيصرف الصك. لقد وثقت كثيراً في خبرته في إدارة الأمور، وكنت أعرف القليل جداً عن علاقاته مع وكيله في البصرة، فلم أُعَلِّق على هذه الترتيبات أي تعليق. تمت صياغة الرسالة في نسختين: أرسلت الأولى إلى جرجس على الفور، وحملتُ الثانية معي بإخلاص عبر بلاد فارس، وعبر البحر.

وعندما وصلتُ إلى هنا كان أول ما أردت القيام به هو، كما قلت، البحث عن السيد جرجس، وقد وجدته في الشارع، في المكان الذي ينبغي دائماً البحث عن الشرقي فيه. أعطيته الرسالة، فبدأ يتعجب في البداية من أنها لم تكن مختومة، ثم ألقى عليها نظرة وطلب مني العودة بعد ساعات قليلة إلى بيت دلني عليه. عندما ذهبتُ إلى البيت المذكور وطرقت، خرج جرجس هذا وأغلق الباب في وجهي، ثم توجَّه إلى الشارع وهو يسألني في الوقت نفسه أليس معي رسالة من السيد جيوفروي نفسه؟ أجبته بالنفي، فقال إنه في تلك الحالة لا يستطيع إعطائي المال، وذلك لأن من كتب هذه الرسالة ليس هو الشخص نفسه الذي سيدفع المبلغ في بغداد. وعبثاً شرحت له أن مراد هو أمين جيوفروي ومترجمه، وأنه لا يستطيع كتابة أي حرف دون الحصول على إذن من رئيسه وأمر منه، وأنه سيتسبب في تأخيري هنا وفي ضياع وقتي وفي مشكلات كبيرة، وما إلى ذلك، ولكن دون جدوى. وبينما كنا نتحدث، وصلنا إلى محل إقامتي في محطة القوافل، وهناك جلس وبدأ يُوضِّح أن جيوفروي نفسه لم يعبر يوماً ما عن احترامه له برسالة يكتبها بخط يده هو. وأضاف أنه منذ مدة طويلة كان وكيل جيوفروي، وبأنه لم يتسبب له في الخسارة، وغير ذلك من الأمور التي لا تتصل بي ولا بأمري. وبعد أن أفرغ كل ما في جعبته، بدأ يطري عليَّ ويقول بأنني رجل عاقل لم يطلب منه المستحيل. ثم قال بأن العالم كله سيسخر من لحيته (ومسح على لحيته القصيرة التي بدأ الشيب يعتليها)، لو أعطاني

ذلك المبلغ من المال مقابل مثل هذه الرسالة، خصوصاً وأنه لا يريد أن يتابع الناس هنا وهناك لتحصيل المبلغ بعد ذلك. كان سلوكه شائناً في رأيي، فلم تكن لدي القدرة على مناقشته أكثر، ولا على محاولة الدفاع عن قضيتي. وصلنا إلى استنتاج مفاده أن أكتب في اليوم الموالي إلى بغداد، وأن أبقى هنا في انتظار الجواب، الذي قد يصل بعد ثمانية عشر يوماً. وفي اليوم الموالي قدمت له رسالة ليبعثها إلى جيوفروي، ولم أرَه بعد ذلك مدة طويلة.

وبعد ذلك حبستُ نفسي في غرفتي، وبدأت كتابة هذه الرسالة لك، وكرستُ وقتي للدراسة. ولكن وضعي كان يائساً. لم يتبق معي من أموال السفر إلا داكوتين وما يقرب من تالرين، وهو مبلغ قد يكفي لشهور إذا تجرأت على استخدامها، ولكنني لا أملك الجرأة على صرفها. فأنا لا أكف عن التخمين: فماذا لو توفي أحدهم؟ وماذا لو لم تصل أموالي؟ وربما يكون بوكتي قد أرسل إلى جيوفروي رسالة يطلب منه فيها ألا يعطيني المبلغ. وكان أشد ما استغربت له هو أن جرجس قال إنه كتب مرتين إلى بغداد يطلب المزيد من المعلومات، ولم يتوصل بأي رد. ولذلك ارتأيت أن من الحكمة المحافظة على الموارد المادية الحالية حتى أتمكن من العودة إلى بغداد في أسوأ الأحوال. فثمة نحو عشرين أوروبياً على الأقل يمكنني أن أجمع منهم أموالاً لسفري، أو أن أفعل مثل الفرس فأبيع كل ممتلكاتي القليلة المتبقية، مثل الساعة، وأدوات الجراحة وغيرها. من حسن حظي أنني عندما كنت في شيراز، اقتنيت الكثير من المواد الغذائية استعداداً للرحلة البحرية، ولذلك فإن معي الآن من الأرز والطحين ما يكفي لشهرين. وهكذا بدأت أعيش على كيس مؤونتي، ولكن الحطب والماء والشموع وأجرة مكان إقامتي أمور ستترتب عنها بعض النفقات. كنت أحرم نفسي من كل شيء، فأشرب القهوة أو الشاي بدون سكر، وأذهب للنوم في وقت

مبكر لتوفير الشموع، وتجنب لقاء جميع معارفي الذين لا يمكنني الآن لقاؤهم، والمشي بمحاذاة متاجر الفواكه خالي الوفاض، وارتداء الملابس القذرة لأنني لا أملك المال لتنظيفها، أو أغسلها بنفسي بالماء الساخن من دون صابون، وأترك شعري يطول لتوفير أجرة الحلاق، وهلم جرا.

هذه ليس أول مرة أعاني فيها من أشياء مثل هذه خلال رحلاتي، ولكن روحي كانت سليمة حينئذ. نعم! أتذكر كم مرة كان طعامي قطعة خبز جاف فقط، وشرابي طيلة اليوم مياه مالحة ومرة. ولكنني كنت أسعد من كرويسوس، ملك ليديا الثري! وكنت أضع رأسي على الرمال في الصحراء بقلب ممتن راض، وأحمد الله. أما الآن فأنا تعيس ومكتئب، ولا أفكر إلا في أشعار التذمر التي ينظمها شعراء الفرس. أوه! من المُروِّع أن يضطر المرء للسفر بهذه الطريقة! والأسوأ من ذلك أنني لم أتلق أي أخبار عن عائلتي لمدة سنتين! وبحق السماء قل لي! هل يكلّفك إرسال رسالة لي كنوز الأرض؟ أم أن جميع رفاق الجامعة قد نسوني؟ هل أستحق منكم مثل هذه المعاملة؟ أم أنكم تعتقدون أن لا شغل لي إلا قطف الورود في بلاد الورود؟ لا على الإطلاق، وذلك لأن في الورود أشواكاً كثيرة تَخِزُني بالتأكيد. ولهذا فإنني أشعر أنني لا أستحق أن يقوم أصدقائي أيضاً بزرع المزيد من الأشواك في طريقي، فهذه الأشواك لا تَخِزُني فحسب، وإنما تشل حركة قدمي أيضاً، وتمنعهما من الذهاب حيث ينبغي لهما أن يذهبا. ولكن لي الله!

قضيت في البصرة أربعة وثلاثين يوماً من الألم الذي يفوق كل وصف، ثم علمت بأن جيوفروي قد توفي في بغداد. كان هذا الخبر المحزن قد وصلني في السادس من شباط / فبراير مع باخرة إنجليزية، ثم سمعته بعد ذلك من جرجس في الحادي عشر من فبراير. كان هذا

الأخير يتهرب مني طول الوقت، ولم ألتق به في الشارع إلا مرتين، ومرة حاولت الاتصال به فذهبت لرؤيته في بيته فزعموا أنه ليس موجوداً. لم أكن أعرف ما الذي عليَّ أن أفعله لدى سماعي هذا الخبر. حتى ذلك الحين كنت أشغل نفسي بكتابة هذه الرسالة، أو أعزي نفسي بالتكاسل على الطريقة الشرقية. ولكن الدم الأوروبي قد دبَّ فِيَّ الآن، ودفعني إلى مغادرة غرفتي القذرة التي لم يعد السلام يعرف فيها إلَيَّ طريقاً، فخرجت للتجول في البساتين وفي غابات النخيل. إنني تعيس، وحتى النوم الذي كنت أتمتع به بلا حدود قد فارق جفوني الآن. معظم مواد مؤونتي الضرورية تقلصت، مثل الزبدة، وأولاً وقبل كل شيء، السعوط. كان عليَّ إعداد عطوسي بنفسي، ومن ثم فإنني كنت أجلس وأدلك التبغ وعيناي مغرورقتان بالدموع، لأنني لا أتذكر يوماً واحداً من أيام حياتي بهذا البؤس، لدرجة استنفاد هذه المادة التي تعتبر من حاجياتي اليومية الحيوية. ولكن عملي الشاق تُوِّج بالنجاح، وحصلت على أفضل عطوس استعملته مدة طويلة. لا يمكنني وصف كل هذا البؤس والكرب الذي عانيت منه في البصرة. ولا يسعني إلا أن أحمد الله الذي أبقاني صحيحاً معافى، لأنني لو كنت رقدت على فراش المرض، لكان قد تحول بالتأكيد إلى فراش موتي. فالناس يقولون عامة أن طريح الفراش في البصرة لا يخرج إلا إلى قبره.

ومع ذلك وصلت إلى هنا سفينة هولندية محملة بالقهوة جاءت من باتافيا، فصعدت إليها لأتحدث مع قبطانها. لا أستطيع أن أصف لك مدى سروري عندما رأيت الأوروبيين مرة أخرى، وكدت أطير فرحاً عندما سمعت على متن السفينة بحارين يتكلمان باللغة السويدية، لغتي الأم التي لم أسمعها منذ خمس سنوات. ولكن هذه الفرصة لم تتح لي إلا مرة واحدة فقط، لأن السفينة واصلت رحلتها في ذات اليوم الذي زرتها فيه.

وأخيراً، في التاسع من مارس عادت الباخرة البريطانية إلى هنا، وأحضرت لي معها الآن رسالة من بوكتي كُتِبت في القاهرة، وأُرِّخت بتاريخ الرابع عشر من أغسطس من العام الماضي، أي أنها بقيت مدة طويلة في بغداد. كان من الممكن تماماً إرسالها من قبل إلى البصرة. كما تلقى جرجس رسالة أشاد فيها صاحبها بقراره بألا يعطيني المال. وبالإضافة إلى ذلك طلبت الرسالة من جرجس أن يخبرني بموت جيوفروي، وبأن يخبرني بأن خليفته، شون دي دوك شام أمور، لن يتمكن من إعطائي أي أموال. لم يمنحني أحد شرف التوصل برد خاص على الرسالة التي كنت قد أرسلتها لجيوفروي. ولم تكن الرسالة التي تلقاها جرجس تحمل بين طياتها أي أمل عن اتخاذ أي نوع من التدابير التي من شأنها مساعدتي للخروج من هذه الورطة. كانوا سيتركونني لا محالة أموت جوعاً. ما العمل إذن؟ لم تخطر على بالي فكرة مواصلة الرحلة إلى مسقط أو عدن على الإطلاق، فأموالي قد نفدت، والموسم أصبح في نهايته. لهذا قصدتُ قبطان الباخرة الإنجليزية، وطلبتُ منه أن يأخذني إلى بغداد، إذ إنني كنت قد عقدت الآمال على تدبُّر أمري هناك بطريقة أو بأخرى، أو السفر كدرويش شحاذ في أسوأ الأحوال إلى الموصل أو إلى سوريا. كان من المحرج للغاية عرض قضيتي على الكابتن جونز، لأنني كنت يائساً جداً، ولكنه قرر أن يسمح لي بالسفر معه.

غادرنا البصرة في الحادي عشر من مارس. كنت أود أن أحكي لك أكثر حول هذه الرحلة الممتعة، وعن المكانة التي تمتعت بها بين البحارة الإنجليز في السفينة، ولكن مساحة الورق لا تسمح بذلك. سأكتفي بالقول بأنهم في البداية كانوا محتارين بشأن الطريقة التي ينبغي لهم التعامل بها معي، ولكنهم كلهم ومن دون استثناء كانوا مهذبين للغاية تجاهي منذ أول يوم. وأنا سعيد الآن بهذه الرفقة

الأوروبية أكثر من أي وقت مضى، ولاسيما مع هؤلاء الرجال النبلاء حقيقة. ووصلت فرحتي ذروتها عندما التقيت على متن السفينة برجل سويدي من رونابي، تكلمت معه بلغتي الأم. يمكنني أن أحكي لك لاحقاً عن كل هذه الأمور عندما نجلس إلى مائدة فنلندية، أما الآن فليست لدي الفرصة للقيام بذلك. إن الإنجليز أشهم شعب في العالم، ويأتي الفرنسيون بعدهم دائماً فيما يخص اللياقة والتهذيب. سيستغرق السفر بين نهر دجلة العظيم وبين شواطئه غير المزروعة، أو بالأحرى شواطئه التي كانت تزرع قديماً والتي تحولت إلى صحراء جرداء، ستة أيام. ولم أكن قد قضيت أياماً سعيدة مع الأوروبيين مثل هذه منذ أن تركت وطني الحبيب.

ما إن وصلت إلى بغداد حتى ذهبت على الفور للقاء خليفة جيوفروي، شون دي دوك. عندما كان جيوفروي لا يزال على قيد الحياة، كان قد أرسل نسخة من الأمر بالدفع إلى شقيقه الذي لا يزال يعيش في سوريا، وأنا أحمل نسخة من هذه الوثيقة. أما الرسالة التي كتبتها لجيوفروي من البصرة فإن خلفه لم يقل أنه توصل بها. ومع ذلك، فإنه كان سخياً بما يكفي لإعطائي خمسين تالراً ستكفيني لغاية حلب حيث سأتمكن من الحصول من أخ جيوفروي على النصف الآخر من المبلغ الذي تنص عليه وثيقة الأمر بالدفع. كما أنني أنوي كتابة رسالة لبوكتي أطلب منه فيها إرسال المال إلى هناك. ومع ذلك، فإن الذهاب إلى شبه جزيرة العرب لم يعد في حسباني. دراسة اللغة الحميرية وغيرها من القضايا التي كانت تجول في خلدي ذهبت جميعها أدراج الرياح. وأنا الآن أشعر بشعور فلاح وقع منه وعاء الحليب في الشارع على الحجارة فانكسر. عليَّ العودة إلى مصر عبر الموصل وحلب وبيروت. سأضطر لأن أدير ظهري للشرق، وأن أنظر إلى قلاع السحاب التي بنيتها وهي تتحطم في زوبعة الحياة الباردة. وذلك لأن نفسي تتمزق إلى أشلاء في

مواجهة هذا المصير القاسي الذي علي احتماله. ينبغي أن أعود إلى الوطن لأنال قسطاً من الراحة. كنت في بغداد قد تعرفت على مجموعة من الإنجليز النبلاء. فقد قرأت في مجلة لوجورنال أزياتيك[1] عند السيد راولينسون مقالاً يشيد بكتاب النحو الفارسي الذي ألفتَه. السيد رولينسون هو القائم بالأعمال الإنجليزي، وهو مستشرق بارز، ومترجم مشهور للكتابة المسمارية. لقد استقبلني الجميع هنا بمنتهى اللطف، لدرجة أنني أجد صعوبة في العودة إلى حياتي الشرقية الباهتة. يتحول الطريق الآن باتجاه الغرب، وباتجاهكم، وباتجاه بلدنا الحبيب. ولكن هل سأصل هناك بوجه مشرق أم بوجه قاتم؟ ذاك أمر عليكم تقييمه بأنفسكم، لا تنقصني الإرادة ولكن الضعف والوهن قد بلغا مني مبلغهما. سأسافر الآن إلى مصر، وآمل الوصول إليها في مطلع حزيران / يونيو.

وأنا أكتب هذا الخطاب، تدور في ذهني ألف خطة وخطة تدارستها مع الإنكليز ونحن نحتفل سوياً، ولكن خلاصة كل شيء هي أن أذهب في الخامس عشر من أبريل مع قافلة البريد الإنجليزية مباشرة من دمشق عبر الصحراء، وإذا لم ينهبني العرب خلال هذه الرحلة سأواصل نحو بيروت، وأوروبا. أرجو أن تكتب لي في أقرب وقت مع ذلك إلى مصر، حيث يفترض بي البقاء فيها حتى نهاية يوليو.

رسالة كتبت في 12/ 6/ 1849 إلى غابرييل غيتلين من القاهرة

تنبأ لي بعضهم بأنني لن أستطيع تحمل هذه الرحلة الصحراوية المضنية التي تشق الصحراء عبر الطريق الذي تقطعها القوافل عادة في عشرين أو ثلاثين يوماً، والذي تقطعه عربة البريد الإنجليزية في ثمانية أو تسعة أيام. وفي ما عدا ذلك، فإن البدو كانوا قد نهبوا جميع عربات البريد

---

(1) Asiatique Journal

الإنجليزية الأربع الأخيرة. وكان سائق آخر عربة من هذه العربات الأربع قد اضطر، بعد أن فقد كل شيء ما عدا حقيبة البريد، أن يهيم على وجهه أربعة أيام دون طعام ودون ماء، وبعد وصوله إلى شاطئ الفرات، وبعد أن سلم حقيبة البريد بأمانة إلى زميله ليتابع الرحلة بها إلى بغداد، سقط ميتاً بعد ثلاثة أيام بسبب إجهاد رحلة الصحراء وويلاتها. مثل هذا المصير لم يكن يشغل بالي بتاتاً، وذلك لأن نفسيتي كانت متعبة جداً لدرجة أنني كدت أتمنى لنفسي مثل تلك العاقبة. وبالإضافة إلى ذلك، فإنني كنت أعرف حدود طاقتي جيداً: أستطيع تحمل كل ما يستطيع البدوي أو الجمل تحمله.

في السابع عشر من نيسان/ أبريل، خرجت أقصد بغداد يرافقني في رحلتي بدوي واحد يدعى حمد من قبيلة عقيل. امتطى كلٌّ منا جملاً وحيد السنام (ذلول) ولم يكن معنا من الزاد إلا ما يكفي لتسعة أيام. كان على رأس كلينا كافية بدوية تتدلى منها خيوط طويلة وفي أيدينا عصي مناسبة تلاعبها أناملنا برشاقة كما يفعل البدو عادة لو أن ملابس رفيقي كانت مهلهة كحال البدو عادة عند السفر. وقد أوصلنا رفاقه إلى بداية الطريق وودعونا بعبارة «مع السلامة» في حين أنني اكتفيت بوداع الفارسي الذي قطع معنا بعض المسافة والدمع في عينيه، وداعاً شكلياً. امتطينا الجمال التي سارت بهدوء واتزان عابرين سهول العراق التي تقطعها العديد من القنوات الصغيرة التي تصب المياه الفائضة من نهر دجلة في حقول القمح النضرة.

سرنا دون توقف طول النهار وعند الغروب أكلنا البقسماط المهروس والمنقوع في الماء، والمخلوط بالزبدة والسكر، والمتبل بالقرفة ثم تابعنا مسيرنا في هدوء المساء إلى منتصف الليل. ارتحنا أربع ساعات ثم استيقظنا في الصباح وامتطينا جَمَلَيْنا وحيدي السنام على الفور.

عـادة ما يكون امتطاء الجمل في اليـوم الأول من الرحلة ممتعاً جداً فـي نظري إذ يتم خلاله التعرف على طبيعة الجمل حتى يمكن التحكم فيـه. لا يكـون التعـب ولا الجوع قد عرفـا طريقهما إليـه، إذ إن الجمل فـي الحالتيـن يصبح عبئاً على مـن يمتطيه. كان جملي وحيد سـنام من الحجاز وكان رشيقاً وهادئاً في سيره لدرجة أنه من الممكن أن «تشرب علـى ظهـره فنجان قهـوة» ولكنه لـم يكن يقـدر على السير بخطوات سريعة ومتزنة كإبل نجد ذات السنام الوحيد. بما أن جمل حمد كان من نجـد، فإن جملي بقي في المؤخرة بخطواته القصيرة بلا حول ولا قوة، يحاول اللحاق بالجمل الذي يسبقه فكان الموقف مربكاً جداً لأن كلينا تعـب ولأنني كنت مضطـراً للبقاء في أعقاب رفيقـي معظم الوقت بدل أن أكـون إلى جـواره. يركب أبناء الحضر عادة فـي أعقاب البدو لذلك فقـد كان حمـد يخاف لـو أن أحد قطاع الطرق يدرك كونـي من المدينة من خـلال آثار جملينا فيتحمـس لاقتفاء أثرنا. حاولت قدر المسـتطاع تدريب جملي على السير بخطى أسرع كما أن حمد كذلك حاول ولكن مجهوداتنا ذهبت سـدى لأن الكائنات الحية في الشرق سواء كانت من بني البشـر أو من بني الحيوان تتشـبث بما تعلمته في الصغر تشـبثاً أشد من تشبث بني جلدتنا.

شـربنا حليـب النـوق فـي خيـام العـرب ولكننـا لـم نحصـل علـى المعلومات التي أردنا الحصول عليها، في حين أن مضيفينا كانوا يلحون إلحاحاً شـديداً في الاسـتعلام كلما صرنا على مسـافة أبعـد من بغداد. وكان الفيضـان العـارم لنهري دجلـة والفرات الذي أقلق سـكان بغداد على مصير مدينتهم المتداعية مرتين خلال إقامتي بها، أكثر ما سُئلنا عنه ولـو أن الكثيرين سـألوا عن هـدف رحلتنا وعن محتـوى جرابي. كنت أجيب عن أسئلة السائلين بإيماءات وكلمات لا تعني شيئاً وكذلك كان رفيق رحلتي يفعل، إذ لم يكشـف لأحد عن وجهتنا ولا عما في جعبتنا

من زاد وكان يسر لي بانزعاجه من فضول البدو ويحثني على ألا أبوح لهم بأي شيء قائلاً: «بالله عليك يا حاج أن تركب جملك وتسير به إلى جواري، ولا تدعه يتخلف عن جملي كما يفعل أهل الحضر. غط الجزء الأسفل من وجهك بالكافية حتى لا يعرفك الناس، فمن يدري لو أن كلباً جائعاً يتحمس لاقتفاء أثرنا وسرقة متاعنا ليلاً.» فأجبته قائلاً: «قاتل الله هذه الكلاب ولكن يا حمد! لا خوف منهم مادمنا هنا أما إذا جاء أحد اللصوص ليلاً فإننا سنكون لهم بالمرصاد.»

يتحدث البدوي كثيراً خلال سفره فإن كان معه من يفهم لغته وظروفه لم يسكتْ ولو لحظة واحدة طيلة النهار. إن طبيعتي لسوء حظي مناقضة تماماً لأنني بالإضافة إلى كوني قليل الكلام، فإنني أتكلم بشكل أقل في مثل هذه الرحلات المضنية.

ارتحنا في حقول القمح الجميلة على شاطئ النهر، وعلى الرغم من البرودة وكثرة الذباب، فإنني نمت نوماً هادئاً كالطفل الصغير طيلة الليل. وعندما استيقظت في الصباح، وجدت كل أجزاء جسمي التي لم تكن مغطاة بالثياب قد غُطِّيت باللذعات والحُوَيْصلات وصارت حمراء تماماً، ففهمت إلى أي درجة كان نومي ثقيلاً. كان لدينا متسع من الوقت للنوم هذه الليلة، وذلك لأن المراكبي الذي كان سينقلنا لم يأت حتى الساعة الثامنة صباحاً. وعلى الرغم من أن الكثيرين كانوا قد تجمعوا على الشاطئ ليعبروا النهر مثلنا، إلا أن المراكبي ظل في مكانه إلى منتصف النهار ينتظر المزيد من الركاب. كان علينا أن نتأفف ونتذمر كي نجعل هذا المراكبي المتخاذل يقلع. وبعد أن تمكنا من إركاب جمالنا على المركب، وقد تمكنا بصعوبة كبيرة من إصعاد جملي بالخصوص، فهو وحيد سنام صغير السن، وغير معتاد على الإبحار. ركب المركب ما يقرب من ثلاثين شخصاً، إضافة إلى عدد من الحمير وجملين وحيدي سنام. كان الجميع يشتكون من

ثقل الحمولة، ويثيرون ضجيجاً كثيراً، ويدلون بآرائهم حول حركة المركب، ويصيحون بأعلى أصواتهم إلا أنا، لأنني كنت حينئذ أنظر إلى بدوية حسناء كانت تقف بجانبي. ولم أستفق من أحلام يقظتي إلا عندما صاح بي المراكبي: (تذكرة) يقصد جواز سفري، الذي كان يريد رؤيته على ما يبدو قبل أن يدعني أنزل من السفينة. لحسن الحظ كنت أحمله معي فأريته إياه، ولكننا عندما عبرنا الفرات بأمان، أوقفنا تركي على الساحل وطلب هو الآخر أن يرى تذكرتي. أريته إياها وقلت له بإننا في عجلة من أمرنا وبأننا لا نريد أن نتأخر. فأجابني بأنني أستطيع أن آخذ أوراقي من الغرفة المؤقتة المنصوبة في مكان ما هناك، وحاول أن يجعلني أذهب معه إليها. اتخذت الحيطة عندما كنت في بغداد، وطلبت منهم أن يضعوا ختماً على جواز سفري التركي من أجل رحلة بلاد فارس، ولكنني لم أبال بإحضار شهادة طبية لكي أطلع عليها مسؤولي الحجر الصحي في بغداد. ولذلك كان علي الآن أن أتشاجر مع المسؤول التركي، واضطررت لتهديده باللجوء إلى القائم بالأعمال الإنجليزي إذا أوقفني. وبعد أن طرح علي بعض الأسئلة المملة ربما في محاولة منه لابتزاز بعض المال مني، اضطر لوضع ختمه على تذكرتي ولتركي أذهب إلى حال سبيلي لمتابعة رحلتي.

هنا على الضفة الغربية للنهر كان المنظر يشبه كثيراً منظر شبه جزيرة العرب: كانت السلاسل الجبلية والمناطق الصخرية تقسم بحر الرمال الشاسع إلى جزر ومنخفضات صخرية، وكانت الروض أي النباتات القليلة بمثابة تموجات وتعرجات تشبه الغطاء النباتي في سوريا أكثر مما تشبه الغطاء النباتي للأراضي الداخلية. ولكن الطبيعة هنا لم تكن مثيرة للاهتمام بقدر ما كانت الطبيعة في غرب شبه جزيرة العرب. إن الصخور الجرانيتية الضخمة التي في غرب شبه الجزيرة العربية كجدار مقابل البحر، والسلاسل الجبلية البركانية المتوجهة نحو المنطقة

الداخلية الجنوبية الشرقية هي بالنسبة لي بمثابة ورشة شكلت فيها قوى الطبيعة شبه جزيرة العرب الحالية.

كما أن بحار الرمال التي في المنطقة الوسطى من شبه الجزيرة العربية، أو رمال النفود هي من أروع ما يكون بالمقارنة مع التربة التي نمشي عليها الآن. ولكنني ابتهجت لرؤية الصحراء مرة أخرى. لا أدري ما مصدر ولعي بالصحراء، فأنا أعرفها بما يكفي لكي لا أتوقع منها إلا الجوع، والعطش، والشمس الحارقة، وانعدام الظل، والخوف من أن يُلقي أصدقائي البدو بقبضتهم علي، وينهبونني بلا رحمة، ويتركونني لأموت جوعاً، أو يتركونني أتخبط وحدي وأقاوم الطبيعة التي تضاهي في قسوتها أبناء الصحراء. ولكنني أفضل أن أترك ورود بلاد فارس، وترف بغداد الإنجليزية، وأطباق اللحم المصرية لأذهب إلى الصحراء.

وفي الرابع والعشرين من نيسان/ أبريل، تابعنا رحلتنا وسط حقول خصبة جداً، وبدأت جبال سوريا تبدو لنا عن بعد كما أن الجو هو الآخر صار عليلاً. ووصلنا إلى أرض الشام قبل ثلاث ساعات من الغروب وهناك، رأى حمد من أعلى هضبة، جماعةً من العرب على ظهر نحو عشرين جملاً تتجه نحو الجنوب الغربي. وإذ به، بينما هو يخبرني بذلك وأنا أسأله أسئلة كثيرة، يرى الجماعة تحث جمالها على التوجه نحونا مباشرة، فقال لي فجأة وهو يأمر جمله بالإسراع في الحين ذاته: «إنهم يهاجموننا». وكأن جمالنا أحست بالخطر الذي يحدق بنا إذ أخذت تعدو من تلقاء نفسها بسرعة فائقة، ولم يكن علينا إلا التمسك بسروجنا. لم أكن أريد الهرب، ولكنني فعلت اقتداء برفيقي وهكذا مرت عشر دقائق على ملاحقة عدونا لنا ملاحقة حثيثة، ورأيت الرجال وراءنا يشيرون إلينا بكوفياتهم وسمعتهم يقولون: «ورأسك يا راكب الجمل ارجع!» أو « ورأسك انزل عن جملك!». هكذا يصيحون عندما يعزمون على النهب، فإن لم يستجب المطَارَدُ لما أمر به المُطَارِدُ فإن

هذا الأخير يطلق عليه النار أو يرميه بسهم عادة. أجاب حمد بالسؤال المعهود: «بيد مَن مِن الرجال سيصير جملي؟» فأجاب واحد ممن كانوا على مسافة قريبة منا: «بيد رميح بن هليل الخداري». ما إن سمع حمد الاسم حتى عرف الرجل فاستوقف جمله. أسرع المطاردون إليه وحيَّوْهُ بضربات لطيفة بعصا صغيرة تسمى «قناة» مقبضها جزء من جذر شجرة ثم شرعوا ينهبونه. لكن حمد أخبرهم أنه من قبيلة عقيل وأنه هو نفسه من هاجموه ونهبوه مرتين من قبل عندما كان ينقل البريد، فرقوا له وتركوه بسلام.

وقد أدركَني المطاردون أنا الآخر بعد مدة من الحادث السابق فاستوقفت جملي واستدرت نحوهم، وكان أربعة أو خمسة منهم على ظهور جمالهم ومثلهم عدد يسيرون على الأقدام. وقد حيوني أولاً بضربات خفيفة من عصاة قناة على كتفي، وبعد أن نزلت عن ظهر جملي التف القوم حولي فأخذ كل واحد منهم يخطف لنفسه شيئاً من أغراضي، فانتزع أحدهم عقالي والآخر كوفيتي والثالث عباءتي وهكذا. وقد تشاجروا على الحقيبة النوبية المعلقة في عنقي تحت ملابسي والتي كانت تحمل ساعتي وبوصلتي والإذن بالمرور وبعض الروبلات الفضية والأشياء الصغيرة الأخرى. لحسن حظي، كنت قد أرسلت ما تبقى من نقودي مسبقاً من بغداد. أخذ الرجال يتنافسون على تلك الحقيبة حتى كادوا يخنقونني بشريطها لولا أنني نزعتها عن رقبتي. أما عباءتي فأخذها مني غلام لا يتجاوز الأربع عشرة ربيعاً عندما خلفها الباقون وراءهم، أو أنني تركتها له على الأصح عن طيب خاطر. وهكذا بقيت واقفاً تحت رحمة البرد والمطر، وأنا لا أرتدي غير قميص وسروال داخلي ممزق ولكن الموقف كان في نظري من التسلية بمكان، فانفجرت ضاحكاً الشيء الذي أثار استغراب البدو فقالوا: «والله إن هذا البائس ليضحك!» سألتهم أليسوا من قبيلة

روالة لأن لباسهم ولسانهم يدل على ذلك، لكنهم قالوا إنهم من قبيلة سبع وأنهم جاؤوا من نواحي حلب ويقصدون خيامهم في حوران. لا يجيب البدوي على مثل هذه الأسئلة بصدق أبداً إلا إذا خاف أن يُكشَف كذبه. ثم سألونا بدورهم، وكأنهم أعز أصدقائنا وكأن شيئاً لم يحدث، عن منطلقنا ووجهتنا وعن بعض القبائل وأماكن تواجد الماء والكلأ وعن قبيلة رفيقي وغير ذلك. أجبت على كل تلك الأسئلة أجوبة أشفت غليلهم إلا بشأن سؤالهم الأخير. راوغت في الإجابة لأنني لم أكن أعرف الجواب الذي يريده حمد. كان أكثر ما أرادوا معرفته هو محتوى جرابي الذي استغربت أنهم لم ينهبوه، كما أنهم سألوا عن كمية الزاد التي نحملها في رحلتنا. في تلك الأثناء انضم إلينا أحد الرجال الذي كان يطوف حول حمد، ورق لي حين رأى عُرْيي فأعطاني جلد شاةٍ لأستدفئ وأستر به نفسي.

وبعد أن طرح عليَّ هذا الرجل بعض الأسئلة التافهة، امتطى صهوة جملي، وأمرني أن أركب وراءه ثم تحركنا جميعنا. وكنت أحاول تجاذب أطراف الحديث معه خلال الرحلة وسؤاله عما حدث، لكنه أجابني باقتضاب شديد وبطريقة جافة كما يفعل البدوي عادة مع سكان الحضر، ثم طلب مني التزام الصمت بعد أن أكَّد لي أن أغراضي لن يصيبها مكروه بحول الله. علمت على الأقل أن القوم من قبيلة روالة، فلم أعد أخشى شيئاً، ذلك أنني كنت قد عالجت أحد علية شيوخ قبيلتهم «حطاب بن شعلان» من داء عضال في منطقة الجوف فصار لي منذ ذلك الحين بمثابة الأخ. كان حمد يعرف هؤلاء القوم وكان قد شارك الكثير منهم الخبز والملح، وهكذا لم يعد من حق البدو حسب قانونهم أن ينهبونا. وكان هذا ما أثار أعصابهم خاصة أن جرابي كان مليئاً بالأشياء التي كانت تروق لهم. كانوا يعبرون عن انزعاجهم بضربات بعصا قناة على ظهر حمد الذي كان يمتطي الجمل وراء

رميح بن الهليل، وكان القوم يصيحون فيه: «لعن الله أباك يا ابن الكلب! إنك كاذب! لست عقيليًا. كيف تعرفنا أيها الملعون؟» أجاب حمد قائلاً: «إنني الآن بين أيديكم فافعلوا بي ما شئتم، وأنا عُقيلِيٌّ وأنا من نهبتم في المهيور ومن أمسك بواحد منكم في سوق العصر بدمشق فزججت به في السجن وقبع في غياباته إلى أن أرجعتم لي كل ما سلبتمونيه.» صاح الرجال: «هكذا إذن! أهكذا تعاملنا يا ابن الكلب!» ورافقوا كلماتهم بضربات بالعصا على كتف حمد الذي بقي صامداً شجاعاً. لحسن الحظ،كان على كتفيه جلد شاة سميك يحميه. ثم سألوني عن قبيلة حمد وعن رفقتنا بهذه الرحلة، وهو أمر كانوا يريدون استبعاده حتى يحق لهم أن ينهبوني وينهبوا ما في شوال حمد من رسائل وغير ذلك. كان السائلون يحشرون أيديهم في جرابي ويغرفون من السكر الناعم الذي كان فيه إلى أن أتوا على آخر ذرة منه.

طلبت أن نتوقف لتحضير القهوة والتحدث في أمور الأعمال، ولوضع حد للوابل المتواصل من الأسئلة التي يطرحونها ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الكتب على الأقل. لذلك عرضت عليهم أن أطلعهم على كل ما يحويه جرابي شيئاً شيئاً. وكنت قد وضعت أهم أوراقي في أظرفة وأودعتها شوال البريد توخياً للحذر. لم يلق طلبي جواباً غير أمر بالتزام الصمت، لكنهم وقبل غروب الشمس بقليل، قرروا التوقف أخيراً وتفرقوا في مجموعات من خمسة أو ستة أشخاص. سارعت مجموعات تحضير الأكل بإشعال النار وتحضير الخبز من أجل العشاء فيما اجتمع القادة للتشاور، وسرعان ما استدعوني وكانت لجنة المستشارين تضم أربعة بدويين ورفيق رحلتي. كانت ملابسي السليبة وسطهم فطلبوا مني استردادها على الفور. وهكذا ارتديت قفطاني وعباءتي وجلست على ركبتي مع المستشارين. سألوني بعد ذلك عما كان في جرابي ولما سردت ما تذكرته من الأشياء ردوها لي. لم يعثروا

طبعاً على قطعتي النقود الفضية التركية. ربما ضاعت في الرمال بسبب عجالة بداية النهب أما القطع الذهبية التي كنت قد لففتها في أوراق ودسستها في الحقيبة النوبية فلم يكتشف الناهبون أمرها. وقد أخرجتها من الحقيبة على مرأى من الحاضرين الذين كاد الطمع يشع من عيونهم لدى رؤية الذهب. لم تزل هناك أشياء كثيرة ناقصة لذلك عرض علي أحد البدو أن يصاحبني في جولة وسط البدويين للبحث عما تبقى من أشيائي. حصلنا على الأغراض واحداً تلو الآخر باللين حيناً، وبالقوة والشجار حيناً، وقد نفعنا في ذلك حسد العرب لأن الواحد منهم لا يقبل للآخر بشيء بقي هو دونه. وبعد نزاع طويل، استرجعت علبتي الفنلندية المصنوعة من خشب الباتولا التي أحبها كثيراً، والتي كنت أحفظ فيها السعوط حتى أتمتع بعد صيام طويل بقبضة منه. كان أكثر ما أردت استرداده هو المفكّرة التي صنعتها بنفسي، والتي كنت قد دونت فيها رؤوس أقلام عن رحلتي وملاحظات عن درجات الحرارة منذ بداية السنة. وقد فقدت أشياء صغيرة كثيرة كبوصلتي وسكيني الصغير وما إلى ذلك، ولكنني استرجعت معظم أغراضي.

بعد أن فرغ الرجل الذي صاحبني في جولةِ استرجاعِ ممتلكاتي من مهمته، طلب لنفسه العباءة التي كنت قد استرجعتها للتَو فأعطيتها له عن طيب خاطر. استدعى الرجل حمدَ ليشهده على أنني أعطيته إياها طوعاً لا كرهاً، فأعلنت ذلك على مسمع المستشارين بطريقة احتفالية. في الحقيقة لقد عَوَّضني الاطلاع لأول مرة على عملية النهب والسلب عن فقدان بعض الأشياء الصغيرة. وكنت سعيداً أن الأمر انتهى هذه النهاية السعيدة. وهكذا استرجعت أغراضي والتحقت بالرجال الذين أنتمي إليهم فدعوني لتناول العشاء الذي حضروه من طحيني وتمري وزبدتي.

تحولت ظلمة العشية إلى ظلام وشرع الكل يستعد لمتابعة المسير.

حمَّلنا المطايا وامتطينا صهوتها كلٌّ في اتجاه ولكن الرجليْن اللذين أؤتُمِنا على أغراضي كانا لطيفين جداً تجاهي لدرجة أنهما صاحبانا بعض الوقت. توجست خيفة من لطف هؤلاء البدو وسط الصحراء ولكنني تركت أحدهما يركب ورائي على ظهر جملي. أثناء الرحلة، سألني الراكب ورائي قائلاً: «لم أعطيت عباءتك لسبتان؟ لم يُرْجِع لك إلا جزءاً من أغراضك في حين أننا نحن حرسناها طول الوقت وحميناها من البدو الطماعين، إلا أنك لم تجُد علينا بشيء. لا أطلب الكثير إن طلبت القطع الذهبية التي بحقيبتك.» رفضت طلبه ووضحت له موقفي وبعد خمس دقائق، توقفنا لكي نفترق لأن من أوصلوني أرادوا اللحاق بركب قومهم. انتهى النزاع بتنازلي عن القطع الذهبية لأحدهم وعن كوفيتي البديعة للآخر كما أنني أدركت بعد ذلك أنني فقدت بساطي وقِدْري وأغراضاً أخرى صغيرة. بعد تلقُّف ما حصلا عليه، انطلقا مسرعين وهما يقولان: «احمدا الله أنكما لم تقعا في يد رجال قبيلة بشر. لو كنتما قد وقعتما في أيديهم لكانوا قد تركوكما عراةً دون مطايا ودون ماء أو زاد لتتابعا طريقكما إلى دمشق سيراً على الأقدام. احذرا فقد تصادفانهم في طريقكما عند سفح الجبل الأسود الكبير.» وكانا يلحان علي بشكل خاص أن أتبعهم إلى ديرتهم لأسلم على أخي الشيخ حطاب. وكنا على مسيرة يوم واحد من خيامه فقالوا: «تأكد أنك إذا تابعت رحلتك مع رفيقك هذا فإنك ستقع في قبضة بني بشر لا محالة، ولربما أزهقوا روحك.» طلبت منهم أن يبلغوا سلامي للشيخ حطاب ووعدتهم أنني سأزوره بعد أن أقضي بضعة أيام في دمشق وهكذا افترقنا.

لم نكن قد ابتعدنا بعد عن مسامع القوم حين صاح حمد فِيَّ قائلاً: «أعماهم الله! حثَّ جملك على الإسراع فإنني أخشى أن يعود من لم يحصل منك على شيء ليسلوبك بالقوة.» وانطلق بجمله في سرعة

الريح، فانطلقت أنا الآخر على إثره وسط الأحجار والنباتات وفي حلكة الليل. ثم خففنا سرعتنا بعد حوالي ربع ساعة وقال حمد إنه لا يستطيع متابعة السير هذه الليلة لأن سائر أعضاء جسمه تؤلمه جراء ضربات العصا العديدة. وهكذا تهيأنا للنوم، ورغم أن الليلة كانت باردة والأرض كانت مبللة من المطر الذي نزل في المساء، وعلى الرغم من أنني فقدت بساطي الرائع ولم أفترش إلا الأرض، إلا أنني نمت جيداً إلى حد ما بالنظر إلى ما لقيناه في هذا اليوم الحافل بالأحداث.

لحسن الحظ لم نلتق لا رجال قبيلة بشر ولا غيرهم. ركبنا وسرنا دون توقف نحث مطياتنا على العدو بسرعة إلى أن وصلنا إلى دمشق بعد منتصف النهار بقليل في السادس والعشرين من أبريل. وقد قضيت أربعة عشر يوماً في دمشق بين بدو عُقيْل، وكانت تلك مدة راحة كنت بأمس الحاجة إليها بعد الرحلة الصحراوية.

وفي العاشر من ماي غادرت دمشق، ومررت مرة أخرى بالوادي الذي فيه عين فيجي الرائعة. وقضيت يوماً واحداً في قرية صغيرة قرب العين، ووصلت يوم الإثنين الرابع عشر من الشهر الجاري إلى بيروت. وفي السادس عشر من الشهر الجاري، غادرت بيروت على ظهر باخرة فرنسية متوجهاً إلى الإسكندرية. ولكنني وضعت في الحجر الصحي هناك إلى غاية السادس والعشرين من الشهر الجاري. وقد منعتني حالتي الصحية والأشخاص المحيطون بي من إتمام هذه الرسالة في الإسكندرية رغم أنني بدأتها هناك. وصلتني رسالة أخرى منك في السادس والعشرين من أبريل 1848، كما وصلتني رسالة بورجستروم التي أرفق بها رسالة من والدتي حررت في التاريخ نفسها. وفي اليوم الذي أفرج عني فيه من الحجر الصحي، غادرت الإسكندرية ووصلت إلى القاهرة في فاتح يونيو. عندما ستصلك هذه الرسالة، سأكون مبحراً على الأرجح في أمواج البحر الأبيض المتوسط متوجها إلى لندن لكي

أعود من هناك إلى فنلندا.

بعد أن حررت الرسالة أعلاه، توصلت في الحادي عشر من الشهر الجاري برسالتك المحررة في تاريخ التاسع من أبريل، وقرأت فيها بدهشة وحزن شديدين عن الخسارة الكبيرة التي تكبدتها جامعتنا، إذ إن من بقي في وطنه الأم قد توفي، فيما وصلت أنا إلى الميناء بسلام بعد أن حللت وارتحلت في بلاد العرب، وقاسيت من الجوع والعطش، رغم أنني اضطررت لرمي أمتعتي في البحر عندما اشتدت العاصفة خوفاً من غرق السفينة. لقد قررت السفر إلى لندن لتحسين مهاراتي قدر الرغبة والاستطاعة في هذه اللغة التي هي الأحب إلى قلبي، وفي أدبها الذي هو الأفضل على الإطلاق بالنسبة لي.

العودة إلى أوروبا

كان والين، وهو يشق أوروبا عائداً إلى بلاده، يفكر طول الوقت في علاقته بهذه القارة التي وجد نفسه عائداً إليها، وفي علاقته بالشرق الذي تركه خلفه. وقد التقى في السفينة التي كانت تقله من الماينز إلى كولن بجماعة من المهاجرين الذين كانوا في طريقهم إلى أمريكا.

مذكرات 21/ 9/ 1849

معظم هؤلاء المهاجرين إلى أمريكا هم من الفلاحين، ويبدون في غالبيتهم أناساً طيبين. ولا أنكر أن منظرهم جعلني أحس بحزن غريب. إنهم في نظري من تلك العينات من الناس الذين سئموا من أوروبا، وإن لم يكن سأمهم هذا من طبيعتها، وإنما من قهر الظروف، وقد شعرت أنا نفسي، على الأقل لبعض الوقت، بأنني لم أعد أنتمي إلى أوروبا، وبأنني أستطيع أن أدير لها ظهري دون تردد ودون ندم، ليس لأذهب مع هؤلاء المهاجرين إلى أمريكا وإنما لأقضي بقية حياتي في بلاد الشرق.

رغم أنني عادة أستمتع بالإبحار، إلا أنني شعرت بملل لا يطاق، وقضيت معظم رحلتي نائماً. بعد جبل دراخنفيلس[1]، بدأت التضاريس تصبح أكثر انخفاضاً، فقد وصلنا الآن إلا سلسلة جبال زيبن يبرج، التي كانت أعلى المناظر الجبلية حتى الآن، والتي انتهت فيها الجبال والتلال الشاهقة التي كانت تتبع النهر لغاية الآن، وتبدو سواء

(1) أحد الجبال في سلسلة زيبن جيبيرج الجبلية في ألمانيا.

مـن قريب أو بعيد متاخمة للمناظر الطبيعية. ولكنها مع ذلك بقيت وقتاً طويلاً تبدو لنا من بعيد منظراً جميلاً وراءنا. وظلت تبدو لنا حتى عندما مررنـا ببون، وكان دراخنفيلس يبدو لنا أعلـى قمة طيلة الرحلة. وصلنا إلى كولن على الساعة الخامسة تقريباً، وبعد أن وجدت غرفة في فندق، ذهبـت علـى الفور لرؤية الكاتدرائية الشـهيرة. وجدتها بسـرعة، ولكن رغـم أن بعـض أجزائها أعجبتنـي، إلا أن منظرها العام لـم يكن جميلاً لأن كل مـكان فيهـا كان يصـرخ دالاً على أن كثيراً مـن أجزائها لم تكن قـد اكتملت بعـد. وبالإضافة إلى ذلـك، كانت الكاتدرائيـة محاطة من كل جانب بمختلف أنواع المباني، مما حال دون الحصول على صورة عامـة عنها. قررت إرجـاء زيارتها إلى الغد، وذهبت لجولة في المدينة. كانت معظم الطرقات التي مررتُ بها ضيقة ومتسخة للغاية، فيما كانت المتاجر فخمة وفاخرة وخاصة محلات بيع ماء الكولونيا. هرج ومرج. وحسـب ما لاحظتـه، هناك الكثير من بنات الليل هنـا، وهن لا يحاولن إخفـاء هويتهـن أو وضعهـن. بل إن الأسـوأ من ذلك أننـي كنت حيثما ذهبـت يتـم إيقافي من طرف رجل ما يسـألني عما يمكنـه عرضه علي، وعن أي نوع من الفتيات الجميلات أريد، وإن كنت أريد أن آخذ بعض مـاء الكولونيا معي كتـذكار، وإن كنت أريد الذهاب إلى المسـرح، هل تريد شيئاً أنبل؟ وإذا ما كنت بحاجة إلى خادمة، يا لهؤلاء الشحاذين!

ثم بدأت أسأل عن المسرح فسمعت أنهم سيعرضون أوبرا بيتهوفن فيديليو هذا المساء. ركضت في اتجاه المسرح بأسرع ما يمكن، سألت كل من صادفتهم في طريقي ووصلت إلى المكان أخيراً في بداية العرض الرائع. فاتتني موسـيقا المقدمة لكنني كنت سـعيداً لأنني لـم أفوِّت أكثر من ذلك. لقد قضيت هنا أمتع أمسـية منـذ عودتي إلى أوروبا. يا لي من معتـوه! لم أسـتطع أن أحبس دموعي التي سـالت على خدي وحجبت عن عيني البصر، وعندها اعتراني الشـك باسـتطاعتي تـرك أوروبا بقية

حياتي. يا لي من معتوه! كيف يمكن لأحاسيسي أن تتقلب بهذا الشكل؟ أين حداثة إيطاليا وفرنسا من فيديليو؟ الحزن والفرح والشر والاعتراف بالجميل، أين يمكن للمرء أن يجد وصفاً لكل هذه الأحاسيس بهذه الطريقة؟ لقد كان العرض رائعاً وخاصة الأوركيسترا، فأنا لا أتذكر أنني سمعت عزفاً أفضل من هذا العزف بحيث لم يكن العزف يغطي على صوت المغني إلا نادراً، بل إن الأوركيسترا كانت تعزف بشكل أفضل من المغني أحياناً على ما أعتقد. أما وصلات الغناء فكانت جيدة رغم أنها لم تكن بارعة، إذ كانت تتحول إلى صياح أحياناً. وكان أكثر ما نال إعجابي هو دور فيديليو، ودور السجين، ودور حارس السجن، أي الأدوار الرئيسية. كانت أدوار الكورال جيدة، وكذلك موسيقا المقدمة في المشهد الثاني التي كانت رائعة وجميلة جمالاً ساحراً، وقد حازت عن استحقاق على تصفيقات حارة جداً. كان الجمهور يصفق أكثر من اللزوم بحيث إنه كان أحياناً يزعج العرض الموسيقي الرائع أو يقاطعه. لم يكن في القاعة جمهور كثير إذ إن المقصورتين الأوليين كانتا فارغتين تماماً تقريباً فيما كانت ردهة المسرح مليئة عن آخرها، أما الشرفة والمقصورة الثالثة فكانتا تغصان بالجنود البروسيين. أهذا كل ما تجذبه أوبرا ثاني أكبر موسيقي في ألمانيا من جمهور؟ أهكذا يعاملون أرقى وأنبل موسيقا في البلاد؟ أما المسرح نفسه فكان جميلاً ولائقاً رغم صغره. وبالإضافة إلى المقصورات الفارغة، لم تكن ثمة إلا ثلاثة صفوف فارغة. وكان على جنبي الأوركيسترا تمثالان أحدهما لموزارت والثاني لشيلير. لو كنت صاحب القرار لوضعت تمثال جوته بدل تمثال شيلير.

إن كنت قد سئمت من الأنقاض والآثار الكثيرة التي ما فتئت عيني تقع عليها في كل مكان في المدن الشرقية، فإنني سئمت أكثر من منظر الترف والرفاهية الفارغة التي تذوب في حبال سحرها أوروبا المزهوة.

لـم يكن هذا وحده ما أثار دهشـتي، فما أسـتغربه أكثر هـو طبيعة الناس المتكلفـة والمتصنعة. أسـتطيع تحمل هـذه الطبيعة فـي إيطاليا نوعاً ما لأن شـعبها قد حافظ على روح دعابة تبدو في كل شـيء رغم السطحية العامة، أما فظاظة الألـمان فهي لا تطاق.

لندن والعودة إلى هلسنكي

ينبغي على السيد أوريانا أوكوستي والين العودة من رحلته التي دامت أربع سنوات. لقد خصصت المعونة المادية التي كان والين يتمتع بها وهو يسافر بين مصر وشبه جزيرة العرب للدكتور ك. و. ويلبراند. سوف نحصل بعد عودة والين إلى الوطن على الكثير من المعلومات الجديدة والمهمة التي اكتشفها في شبه الجزيرة العربية الغامضة. إن أسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن يترك والين، مثل غيره من الشباب المهمين، بلده لعدم توافر مكان يليق به في الجامعة.

هذا الخبر، نُشر في جريدة (سواميطار) قبل (4/ 5/ 1847) ثلاث سنوات من موعده. في الحقيقة لم يعد (الرجلُ المهم) إلا عندما توفر له (مكان يليق به في الجامعة). كان أستاذ والين وصديقه بروفيسور اللغات الشرقية غابريال غيتلين قد قدم طلب ترشيحه لمنصب بروفيسور تفسير الكتاب المقدس وعُيِّنَ في المنصب بالفعل في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1849. كان والين قد وصل في تشرين الأول/ أكتوبر إلى لندن، وقد توصل فيها برسالة من غيتلين يطلب منه فيها الرجوع إلى أرض الوطن لأنه المرشح الوحيد الذي تتوافر فيه شروط منصب بروفيسور اللغات الشرقية الذي أصبح شاغراً. كان والين الذي كان يمقت فكرة العودة مباشرة من مصر إلى شتاء شمال أوروبا، يريد البقاء في لندن لبعض الوقت للانكباب على دراسة اللغة الإنجليزية التي كان يحبها حباً جماً آنذاك وللتعمق في الأدب الإنجليزي الذي كان يعتبره أفضل أدب على الإطلاق.

من لندن، قدم والين طلب ترشيحه لمنصب حُدِّدت الكفاءات المطلوبة لـه سـنة 1828، كمـا خُلـق إذ ذاك للهدف نفسـه مفهومٌ سُـمِّي بمفهوم حق الترشيح.

كان ينبغي للمرشـح أن يكون حاصلاً على دبلوم الدراسـات العليا وأن يكـون قـد حضـر أطروحـة دكتـوراه مقبولـة، وكان الشـرطان كلاهما غير متوافريـن في والين. ولكن البنـد 212 جاء لصالح واليـن وطبقاً لهذا البند فإنه يحق للمرشح الذي لا تتوافر فيه الكفاءة الشكلية تقديم طلب الترشيح إذا كان مشـهوراً عامة بكفاءته العلميـة. وكان والين، من خلال رحلاته، قد حقق هذه السمعة وسـط المستشرقين الألمان والأنجليز. لذلك فقد أُجْمِع على أن البند 212 متوافر فيه وأن له حق الترشـيح ولم يتقدم أي مرشـح آخر غيره.

اضطر والين خلال إقامته بلندن إلى التفكير في موضوع لأطروحته. كان من الممكن أن يكون تحضير أطروحة منصب بروفيسـور سـهلاً لأن لوالين قـدراً كبيـراً من المـواد المتعلقـة بلهجات جزيـرة العرب وهـو مجال كان قـد تطرق لـه بجدارة في أطروحته السـابقة، أي أطروحـة محاضر جامعي، بمعلومات أقل. رفض والين هذه الإمكانية الأسهل والأكثر ملاءمة له، ربما كاحتجـاج، معللاً رفضه ذاك بأنه لا يمكـن للمرء أن يجد لبحث جديد كل الجدة كهذا طريقة تقديم أكاديمية ترتكز على أسس.

وهكـذا قرر ترجمة ديوان الشـاعر الصوفـي العربي ابـن الفارض الذي حققه عبد الغني النابلسي إلى اللغة اللاتينية.

كمـا أن والين كتب في لندن تقريراً عن رحلتـه الصحراوية الثالثة باللغة الإنجليزيـة قرأه في اجتمـاع الجمعية الملكية الجغرافيـة المنعقد في الثاني والعشـرين مـن نسـيان/ أبريل 1850. عندمـا كان واليـن فـي بغـداد، التقى بالقنصل البريطاني هنري رولنسـون، وهو دبلوماسـي كان يُعرف باسـم أب

علوم الآثار والعلوم الآشورية. وكان هذا الأخير قد استعلم بعد رجوعه إلى لندن عما إذا كان والين يريد العودة إلى شبه الجزيرة العربية وكتب عندها قائلاً:

لا يتبادر إلى ذهني، وأنا أفكر في الخاصيات الضرورية في مستكشف شبه الجزيرة العربية، إلا اسمان اثنان لا ثالث لهما، وهما بوركهاردت ووالين. والرجلان متشابهان في أشياء كثيرة كاللياقة البدنية الحديدية، والقدرة على التعايش مع جميع الظروف، والعزيمة التي لا تنثني، ورباطة الجأش الركينة. كما أن كلا الرجلين يتقن اللغة العربية كما يتقن لغته الأم، وكلاهما يفضلان هدوء الصحراء على ضوضاء المدن الغاصة بالناس، ويُؤْثِران خيمة البدوي المتواضعة على القصور الأوروبية. لو سنحت للسيد والين فرصة العودة إلى جزيرة العرب يوماً ما، فإنني أتنبأ له بنتائج مهمة. فهو الأوروبي الوحيد الذي يستطيع في اعتقادي عبور الصحراء دون الخوف من عراقيلها وصعوباتها.

كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد انتهت من تحضير خريطة شبه الجزيرة العربية في عام 1850، غير أنها لم تكن أدقَّ بكثير من سابقاتها، وعندما علمت الشركة بأن والين في لندن، قررت تحسين الخريطة على الفور. وهكذا زود والين الشركة بقائمة دقيقة بأسماء الأقاليم التي مر بها وبالمسافات التي تفصل بينها. إلى جانب ذلك حضر والين مختارات من الأغاني البدوية التي جمعها في الصحراء قصد نشرها وبعث بها مترجمة إلى اللغة الألمانية، ومذيلةً بتعليقات إلى عالم اللغة العربية فلايشر الذي كانت له مكانة ريادية آنذاك لكي ينشرها في المنشور الدوري الذي كان يشرف عليه.

مذكرات 10/ 8/ 1849

بقيت في القنصلية مدة قصيرة، وأخبرتهم عن صندوق سفري الذي بقي في ساوثمبتون، سألت عن السفن الفنلندية وعن الربابنة الفنلنديين فحثوني أن أذهب عند أونونيوس، فهو فنلندي وهو أفضل من يستطيع الإشارة علي في هذا الأمر. وهو يسكن في مكان قريب جداً، ذهبت لزيارته ووجدت عنده رباناً فنلندياً عرفني من خلال الرسائل التي كنت أبعثها خلال رحلتي. وقد كانت عنده لي رسالة من فيكلوند الذي سافرت معه من مارسيليا إلى القسطنطينية. وبعد ذلك جاء ربان آخر فقضيت الوقت مع أبناء وطني. ما أغرب هذا الأمر المسمى الانتماء إلى وطن واحد! كما أنني تكلمت لغتي السويدية مع السويديين، ولكن الأمر مختلف. هل كل الشعوب هكذا، أم أن هذا العيب، أو الفضيلة، لا توجد إلا في الفنلنديين؟ إن ما يتميز به الفنلنديون من انعدام اللباقة في المسائل التافهة، وقوتهم وثباتهم في ما هو قريب من قلوبهم كان أمراً واضحاً وضوح الشمس في كل كلمات هذين الفنلنديين اللذين التقيت بهما هنا وفي كل حركاتهما وسكناتهما. كنت أريد أن أمسكهما من عنقيهما وأخنقهما رغم أنهما غريبان عني؛ ولكن ما منعني هو ذلك الخوف الأخرق الذي أتميز به كفنلندي من أن أجعل من نفسي أضحوكة. جلست هناك مدة، وأحسست بإحساس ما يختلج في صدري. خرجت وذهبت إلى دكان (أبيت) العربي، وتركت له رسالة بعثها له أخوه من القاهرة، وسمعت اللغة العربية مرة أخرى وتكلمت بها. يا لي من معتوه! الآن أيضاً أحس بشيء ما يختلج في صدري، ومع مخارج الحروف المألوفة والحبيبات على قلبي، سرح خيالي في المناظر الشرقية والصحراوية، فلم أعرف أيهما أحب إلى قلبي: لغتي الأم والفنلنديان اللذان تركتهما ورائي، أم هذا العربي الذي أجلس معه الآن ولغته العربية. خرجت من الدكان فرحاً مسروراً، وتجولت في

طرقـات لندن، لكن فكري كان مع الشـيوخ والبـدو. وبما أنني الآن في لنـدن، فإنني قررت أن أتجول في أنحاء المدينة وسـط الهرج والمرج. وفـي النهاية عدت إلى البيت. وفي الطريق، اسـتوقفتني واسـتدرجتني لافتة كتب عليها (فنجان قهوة من الموكـا الأصيلـة جاهز طول الوقت) فدخلـت إلى المقهى الصغير، وشـربـت فنجـان قهـوة، ولكن الموكا الأصيلة كانت مخيبة للآمال.

10/11

دخلـت اليوم إلى المتحف البريطاني بعد أن ذهبت لتسـليم رسـالة من القنصلية لفورشال الذي استقبلني أحسن استقبال، وطلب من مساعده الشـاب مرافقتي إلى قاعة المجموعـات المختارة، وبعد ذلك إلى قاعة القـراءة. ألقيـت نظرة سـريعة علـى المجموعات المصرية والآشـورية حتى لا أضيع وقت الشـاب، ولكننـي قضيت وقتاً أطول بين التوقيعات والأختـام ومجموعات الكتب النادرة، ولكنني حاولت الإسـراع هناك أيضـاً حتى لا أؤخـر مرافقي. وفي النهاية أخذني إلى قاعة القراءة حيث أعطونـي قائمة بالمخطوطات العربية، فشـرعت أنظر فيها عسـاني أجد فيهـا ما أبحث عنه، ولكنني لم أجد شـيئاً يذكر. عوملت معاملة حسـنة للغايـة مـن جميع مـن التقيت بهم هنـاك، تلك هي الطيبـة واللباقة التي يتميز بها الإنجليز. جلسـت هناك لغاية الساعة الرابعة عندما دق جرس إقفال المكتبة. وعندئذ ذهبت لأتمشـى في شارع أوكسفورد، ثم عدت إلـى البيـت. كان الجو بارداً، ورغم أن البرد لم يكن قارسـاً إلا أن الجو كان سيئاً. أصبحت أشعر بالملل عند العائلة التي تضيفني، لم أعد أطيق نساء أوروبا. يا إلهي! ماذا سيكون مصيري وكيف يمكنني أن أتحمل أن أعيش بقية حياتي في بلاد الغرب؟

رسالة كتبت في 26/ 10/ 1849 إلى غابرييل غيتلين من لندن

أفكر في الذهاب إلى أوكسفورد حيث توجد مجموعة شرقية أفضل لكي أرى ماذا يمكنني أن أجده هناك إذا سمحت لي بذلك الموارد المادية. ربما توجد في لندن كنوز أكثر ولكنني لم أجد شيئاً بعد. إذا كان بإمكانك أن تبعث لي إلى هنا تلك المجلات التي نشرت رسائلي فابعثها لي رجاء، فقد أحتاجها لكي أتمكن من نشر مقالة ما. تعرفت هنا على تاجر يوناني جاء من القاهرة، وهكذا فإنني لا أزال أتكلم لغة الشرق رغم أن حلمي بالسفر عبر أوروبا برفقة بدوي لم يتحقق.

رسالة كتبت في 6/ 3/ 1849 إلى غابرييل غيتلين من لندن

ربما ينبغي لي أن أنشر بعض الأغاني مع مقدمة وملاحظات باللغة العربية التي أصبح استعمالها أسهل بكثير بالنسبة لي من اللغة اللاتينية. في ظل الظروف الراهنة، لم أعد أعرف ما الذي يجدر بي القيام به: من الصعب جداً الجلوس لكتابة مقال ينشر في تسايتشريفت[1] فلايشر، لأنني أحتاج إلى الكثير جداً من الوقت والكتب والهدوء حتى أكتب عن لهجة نجد وباقي مناطق شبه جزيرة العرب كما أريد. أنا متأكد من أنني أستطيع تصحيح بارسيفال وكتابه الجديد في النحو، وكذا كتباً مشابهة أخرى. ولكنني لا أريد أن أجبر نفسي على القيام بعمل بشكل مستعجل، كما أنني أريد الاطلاع على ما كتبه علماء اللغة العربية السابقون. أما إرسال مقطع قصير من أغنية أو من رسالة إلى ألمانيا فيبدو لي كلاماً فارغاً، ومع ذلك فإنه من الممكن نشر أغنية من أغاني الصحراء مع ملاحظات هامشية عن خواصها ومميزاتها. ولكنني بدأت أضجر من اللغة الألمانية ولم أعد أحب الكتابة بها. ثمة فكرة أخرى تراودني هذه الأيام، وهي أن أكتب عن رحلتي الأولى باللغة الفرنسية

(1) كلمة بالألمانية معناها (مجلة).

وأبعث مقالي إلى إحدى الجمعيات العلمية في باريس، كما يمكنني أن أرفق المقالة برسم بالكتابة الحميرية، مثل تلك الحروف المقطعة التي أرفقتها بمقالي الذي كتبته بالإنجليزية. وهكذا فإن هذا المقال سيتضمن الكثير من المعلومات عن الأماكن والقبائل البدوية، ولكنه سيتطلب الكثير من الوقت. لو استطعت الكتابة بلغتي الأم لكان الأمر أسهل وأمتع بكثير، وذلك لأن إجبار الأفكار على الخروج بلغة أجنبية يشبه المشي بحذاء ضيق، إذ لا يتمكن مرتدوه من المشي مسافة طويلة.

وهكذا فإنني لا أعرف ما الذي ينبغي القيام به، وذلك لأن المال الذي معي لن يكفي إلا حتى نهاية شهر أبريل، وعندئذ سأكون مجبراً على العودة إلى فنلندا. ولذلك ينبغي أن أنتهي من كل أشغالي قبل ذلك. إذا كان سادة الجامعة يريدون أن يجبروني على شيء ما، فإنني سأتزود باللامبالاة الشرقية، وإن كانوا غير محتاجين لخدماتي، فإنني لا أنوي أن أفرض نفسي عليهم. في رحلة حياتي كان لي هدف واحد: الوصول إلى منابع الصحراء البعيدة قبل نهاية اليوم، ولكن الجوع نال من جملي، ونبض الدهن من سنامه، وخدعني السراب، فنزلت جائعاً وعطشاناً، ولكنني حافظت على هدوئي مثل البدوي، وقلت الحمد لله، وقضيت الليلة في المكان الذي فاجأني فيه الليل، في حفرة حفرتها في الرمال في انتظار ما سيقضي به الله عند الفجر: الحياة أم الممات.

التحضير لرحلة جديدة ـ سوء التفاهم وسياسة القوى الكبرى

سافر والين من لندن إلى سان بيترسبوغ ومنها إلى هلسنكي التي وصل إليها برفقة مستشار الدولة شيوغرن في الخامس عشر من حزيران/ يونيو سنة 1850 بعد غياب طال سبع سنوات تقريباً. وفي التاسع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر، ناقش والين أطروحته. وقد كتب المقرر والينيوس، الذي كان أحد أساتذة والين، في تقريره القصير إن الأطروحةَ رسالةٌ جيدة ومقبولة في اللغات الشرقية. غير أن ما كان يقال في ممرات الجامعة كان أقل إيجابية، إذ إن كاسترين قال إنه يستطيع كتابة مثل تلك الرسالة في بضعة أيام. أما والين نفسه فلم يكن يعتبر الأطروحة أكثر من مسألة شكلية لم يرد أن يبذل فيها أي جهد إضافي وقد نُصِّب الرجل أستاذاً للغات الشرقية في بداية 1851 بعد استيفاء باقي الشروط الشكلية.

يبدو أن والين كان قد قرر وهو في لندن أنه لن يبقى في أوروبا. لذلك فإنه ما إن وصل إلى هلسنكي حتى أخذ يحضر بحماس شديد لرحلة جديدة أشمل من سابقتها. معتبراً على ما يبدو، كل ما أنجزه إلى ذلك الحين مجرد إعداد لاستكشافات قادمة.

لم يمض على رجوع والين إلى هلسنكي إلا بضعة أسابيع حتى سمع، بشكل غير رسمي، من لندن أن الجمعية الملكية الجغرافية مستعدة لدفع جزء من تكاليف الرحلة إلى جزيرة العرب إذا كانت لديه رغبة في السفر. كان الحديث آنذاك عن رحلة تدوم بضعة سنوات وعن تكاليف تقدر

بثلاثمئة جنيه. وقد أرسل نورتون شاو، أمين الجمعية، رسالةً مؤرخة بتاريخ الخامس من آب/ أغسطس عام 1850 يحدد فيها أن العرض يخصُّ رحلة تدوم سنتين وأن البريطانيين سيسهمون في تمويلها بمئتي جنيه. رفض والين العرض رأساً فهو لم يعد يريد الخروج في رحلة «هراء» لا تدوم إلا سنة أو سنتين يَحولُ فيها نقص الوقت والموارد مجدداً دون تحقيق مخططاته كما حدث في الرحلات السابقة بالضبط. كان والين يُقَدِّرُ أن رحلته الجديدة ستتطلب ست سنوات على الأقل، وأنه يحتاج في البداية إلى سنة من أجل الاستعدادات المختلفة ثم يمكث في جزيرة العرب خمس سنوات.

الآن وقد بدا أن الموارد القادمة من بريطانيا غير كافية لمثل هذه الرحلة الشاملة، فقد اتصل رئيس الجمعية الجغرافية بالدوق قسطنطين، رئيس الجمعية الجغرافية القيصرية الروسية، لاقتراح تمويل مشترك لرحلة والين. وقد استعلمت سان بيترسبورغ من والين عن مخططاته فبعث والين برسالة إلى نائب رئيس الجمعية الجغرافية القيصرية الروسية الجنرال مورافيوف في السادس من أيار/ ماي 1851 يسرد فيها مخططاته ويحدد فيها شروطاً لسفره:

عطلة مدفوعة الأجر من منصب بروفيسور بجامعة ألكسندر لمدة ست سنوات.

أربعمئة جنيه استرليني سنوياً لتغطية نفقات الرحلة.

الأدوات العلمية الضرورية.

دفع الديون المستحقة جراء الرحلات السابقة وتقدر بألف ومائتي روبل فضي.

كان مخطط الرحلة الذي قدمه والين هذه المرة مشابهاً إلى حد كبير للذي قدمه آنفاً. تمنى والين الوصول إلى مصر في آخر صيف 1852 حيث

كان ينوي أن يبدأ رحلته الاستكشافية من ساحل البحر الأحمر ويعكف على دراسة آثار مرحلة ما قبل الإسلام في الحجاز فيتجه بعد ذلك إلى نجد حيث يحكم الوهابيون ويحاول مجدداً من هناك السفر إلى الرياض والربع الخالي. قد يزور بغداد بين الحين والآخر، ثم يقوم بتلك الرحلة التي لم يتمكن من القيام بها في المحاولة السابقة أي زيارة عمان والمهرة واليمن ليرجع من عدن إلى أورروبا أو يتابع الإقامة بمنطقة من مناطق جزيرة العرب وذلك مشروط بما يريده مُمَوِّلو الرحلة وبحالته الصحية والمادية.

وقد قررت إدارة الجمعية الجغرافية القيصرية الروسية في اجتماعيها المنعقدين في الخامس عشر من أيار/ مايو 1851 قبول شروط والين رقم 2 و3 و4 أما مسألة العطلة المدفوعة الأجر فبقيت قيد البحث. كما قررت الإدارة دعوة والين للانضمام إلى الجمعية بصفة عضو عامل، وبررت قبولها بكون الأمر قليل التكلفة إذ إن مجمل تكاليف الرحلة خلال الست سنوات لن يتجاوز ألفين وستمئة روبل فِضِّي حسب حسابات الجمعية.

وبعد بضعة أسابيع سنحت لوالين الفُرصة لسرد مخططات رحلته للدوق قسطنطين، رئيس الجمعية الجغرافية القيصرية الروسية خلال زيارة هذا الأخير لهلسنكي. عند وصوله إلى فيابوري، دعا الدوق قسطنطين والين إلى باخرته في الحادي عشر من حزيران/ يونيو عام 1851 لمناقشة أمور الرحلة، وقد كان الدوق حسب معلومات والين مستشرقاً هو الآخر يعرف اللغة التركية على وجه خاص. وفي الشهر نفسها حصل والين على عطلة مدفوعة الأجر من منصبه لمدة ست سنوات وكانت تلك سابقة من نوعها في تاريخ الجامعة. وامتدت العطلة المدفوعة الأجر إلى فاتح كانون الثاني/ يناير من عام 1858. زيادة على ذلك، منحت جامعة ألكسندر والين ألف روبل فضي كمعونة للرحلة.

على الرغم من كل شيء، كان والين متحفظاً بشأن اشتراك الجمعية الجغرافية الروسية في تمويل رحلته، إذ إنه كان يعتقد بأن الروس لا يعرفون

ولا يفهمون الصعوبات التي تواجه المسافر إلى شبه الجزيرة العربية. لكن والين أصبح أكثر تفاؤلاً بعد لقائه بالدوق قسطنطين رغم أنه كتب للدكتور شاو رسالة تمنى فيها ألا يثار هرج ولا مرج حول رحلته القادمة. حيث إنه إذا أصبح في علم الجميع أنه يسافر إلى الصحراء تحت حماية بريطانيا وروسيا فإنه حتماً سيشرب آخر فنجان قهوة في حياته في القاهرة عند عباس باشا.

وفي حزيران/ يوليو 1851، أخبر والين الجمعية الجغرافية الروسية أنه لن يستطيع، على الأقل في الوقت الراهن، قبول الألف روبل الفضية الممنوحة كمعونة للرحلة لأن الجمعية لم تكن قد أفصحت بعد عن موقفها من أهداف والين. وعندما طلب الدوق قسطنطين معرفة الوقت الذي سيصل فيه والين إلى سان بيترسبورغ للاتفاق نهائياً بشأن رحلته إلى جزيرة العرب، فإن والين بعث يقول: «إذا كانت الجمعية ترى التباحث معي بشأن الرحلة ضرورياً فإنني أرى من واجبي إعلامكم بأنه ينبغي توفير ما يستلزمه السفر إلى سان بيترسبورغ من موارد بطريقة أو بأخرى. فمنذ تنصيبي بروفيسوراً [...] حصلت على ما إجماله خمس وثمانون روبلاً فضياً، وهو مبلغ لا يسمح لي بالتفكير في السفر.»

بَحثَت إدارة الجمعية موضوع رسالة والين في اجتماعها المنعقد في السادس والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1851، وقررت إعلامه بأنها موافقة على جميع شروطه وأن عليه الحضور إلى سان بيترسبورغ في أقرب وقت ممكن مع منحه مئة روبل لتغطية تكاليف السفر. كما قامت الإدارة بإرسال ملخص لمحضر الاجتماع إلى لندن وطلبت من الجمعية الجغرافية البريطانية توضيح موقفها من أهداف رحلة والين.

عندما وصلت قرارات الجمعية الجغرافية الروسية إلى علم والين، كان متيقناً من أنه قد تمت الموافقة على شروطه الشيء الذي يظهر من رسالته التي حررها في فاتح تشرين الأول/ أكتوبر 1851 باللغة الفرنسية وأرسلها

إلى الجمعية. ولا يمكننا إلا أن نتخيل غبطة والين عندما أعطته الجمعية الجغرافية البريطانية مطلق الصلاحيات بشأن خط سيره واختيار الأماكن التي يريد استكشافها.

ما إن انتهى الفصل الدراسي الخريفي بجامعة ألكسندر حتى سارع والين بالسفر إلى سان بيترسبورغ. وقدم لإدارة الجمعية الجغرافية في السابع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر 1851 وأثناء الحديث، تبين لوالين أنه قد تولّد بينه وبين الجمعية سوء تفاهم فظيع. حيث إن والين أثناء سرده لشروطه في رسالته لنائب رئيس الجمعية الجنرال مورافيوف قد نسي إدراج كلمة «سنوياً» في الشرط الثاني وهو ينقل رسالته إلى صيغتها النهائية. وهكذا فإن الرسالة التي توصلت بها الجمعية كانت تقول بكل بساطة «أربعمئة روبل». لا عجب إذن أن الجمعية استغربت كون رحلة الست سنوات غير مكلفة.

المسألة مثيرة للاهتمام بشكل خاص لأن الجمعية انتبهت لهذا الخطأ قبل عدة أشهر من وصول والين وبشكل أدق في السادس والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1851. فلِمَ لم يتم إعلام الرجل من قبل بهذه المشكلة التي تتوقف عليها الرحلة؟

وعندما تبين من الحديث أن الجمعية لم تكن تستطيع أو تريد تغيير القرار الذي اتخذته من جهةٍ، وتبين من جهة أخرى أن والين لن يستطيع القيام برحلته بهذه الموارد التي تم منحها إياه، فإن نائب رئيس الجمعية الجنرال مورافيوف عرض حلاً وسطاً بدا وكأنه أمرٌ خُطط له بدقة مسبقاً: كان على والين أن يتعهد لدى عودته من شبه الجزيرة العربية بالقيام برحلة استكشاف أخرى إلى العالم الإسلامي بآسيا الوسطى وهي منطقة كانت روسيا تنوي التوسع فيها. وكانت الرحلة الاستكشافية تلك ستتوجه إلى مناطق كابول وهرات وبلخ وسمرقند وبخارى وخوارزم.

في الواقع كانت الجمعية الجغرافية الروسية قد ذكرت لوالين، منذ بداية

1851، أن هنـاك الكثيـر من الأراضـي التي لم يتم استكشـافها داخل حدود الإمبراطوريـة الروسـية أكثـر بكثير مما في شـبه الجزيرة العربيـة أو غيرها. وهذا يدل بوضوح على أهداف روسـيا التوسـعية في آسـيا الوسطى. والآن في كانون الأول/ ديسمبر 1851 أعلم والين بوضوح أنه بإمكان الجمعية أن تعيـد النظر في قرارها وتمنحه مـا يحتاج إليه من موارد للقيام برحلته إن هو تعهد باستكشاف آسيا الوسطى كذلك.

لم تكن تلك هي أول ولا آخر مرة تحاول فيها السلطات الروسية استغلال الفنلنديين في أعمال اسـتعلامية في آسـيا الوسـطى. ففي سـنة 1802 أرسل ألكسـندر الأول ج.م. سـبرينجتبورتين في رحلة طويلة إلى الدولة العثمانية إلى حدود الصين وبلاد فارس. وبعد بضع سنوات، خرج أ. أ. تيسليف إلى منطقة بايكال إلى حدود سـيبيريا ومنغوليا لإعداد خرائط المنطقة. وتندرج الرحلات الاستعلامية التي قام بها كل من فيلهيلم ساندمان (1901 – 1908) وكارل جوستاف مانرهايم (1906 – 1908) بعد ذلك في ذات مضمار لعبة السلطة هذه التي تهدف في عمقها إلى السيطرة على الهند وآسيا الوسطى.

كان ما اصطلح عليه «اللعبة الكبرى» في القرن التاسـع عشـر يعتبر أهم الصراعات السياسـية الدولية متعددة المراحل من أجل السـيطرة على آسيا الوسـطى. كانت روسـيا تحـاول الوصول إلـى مناطق الميـاه الدافئة باتجاه الهند التي طالما تَصارَعَ الفرنسـيون والبريطانيون حول السـيطرة عليها منذ منتصف القرن الثامن عشـر. ورغم أن شـبه الجزيرة العربيـة لم يكن فيها ما يجعـل تلـك القوى الكبرى السـالفة الذكر تطمح إليـه، إلا أنها لم تكن من منظـور «اللعبة» منطقة عديمـة الأهمية وذلك نظراً لموقعها الجغرافي. كان أهـم أهداف نابوليـون بونابارت، عندمـا وصل في 1798 إلى الإسـكندرية لاسـتعمار مصر، هو قطع خطوط مواصلات البريطانييـن إلى الهند غير أن هذه العملية باءت بالفشل رغم أنها لم تكن الوحيدة من نوعها، إذ إن الكثير من المستكشـفين الذين سـافروا إلى شـبه الجزيرة العربية في القرن التاسع

عشر كانوا في الحقيقة جواسيس بعثتهم بريطانيا أو فرنسا أو روسيا.

وقد كانت هناك محاولات لربط اسم والين بهذه «اللعبة الكبرى» بعد موته. من بين من حاولوا ذلك المستشرق الانجليزي دافيد جورج هوجارت الذي قدم عام 1904 فرضية مفادها أن محمد علي كان قد أرسل والين مبعوثاً خاصاً له إلى جزيرة العرب لمراقبة الوضع السياسي وعلاقات السلطة بها. غير أنه لا وجود لأي استنادات تدعم فرضية هوجارت هذه. إن سمعة والين في الشرق الأوسط وفي المملكة العربية السعودية بالخصوص جيدة جداً، والسبب الرئيسي في ذلك هو بالتحديد كونه لم يعرف كرجل يعمل لحساب القوى الكبرى بل كحاج كان قد اعتنق الإسلام.

كان والين في البداية راغباً في توسيع مخططه لأن ذلك سيضمن له العودة إلى شبه الجزيرة العربية. وقد أخبر الجنرال مورافيوف بذلك. غير أنه عدل عن تلك الفكرة بعد رجوعه إلى هلسنكي وتفكيره في الأمر، فقرر أن يرفض هذه الرحلة التي تربط الاستكشاف العلمي بالاستعلام العسكري. وقد برر والين أسباب رفضه في رسالة كتبها للكونت موهلينسكي في كانون الثاني/ يناير 1852 ومن بين تلك الأسباب أن رحلته إلى آسيا الوسطى ستتطلب سنتين على الأقل من مجمل الخمس سنوات المخصصة للرحلة بأكملها. وهكذا لن يبق لرحلته إلى جزيرة العرب غير ثلاث سنوات، وهي وقت قصير جداً. بالإضافة إلى ذلك، ذكر والين أنه لا يعرف لغات آسيا الوسطى بما فيه الكفاية. لم يكن والين يريد الذهاب إلى آسيا الوسطى بصفة عامة كما يبدو من رسالته التي قال فيها:

«عندما زرت بلاد فارس زيارة خاطفة في 1848، لم أكن أحس إلا بازدراء شديد تجاه ذلك الشعب الذي يفتقر إلى الذوق والأخلاق، والذي يشبه في طريقة تفكيره وطبعه وظروف حياته في أغلب الظن تلك الشعوب التي ينبغي أن أتوجه إليها. بالمقارنة مع الحب والاحترام

الذين أكنهما للبدو النبلاء الفرسان، لا أستطيع إلا أن أفكر في الخوف والاشمئزاز الذي أحس به بشأن تلك الأخطار والمغامرات التي سيزج بي إليها وسط البلوش والأفغان والتركمان الغاشمين. وعندما يفتقر المسافر إلى الرغبة والتفاني فإنه من الصعب توقع أية نتائج.»

وكتب والين رسالة إلى شاو في لندن بعد أن رفض القيام برحلة آسيا الوسطى يسرد له فيها مسرى محادثاته مع الجمعية الجغرافية الروسية مستغلاً الفرصة لانتقاد الجمعية الجغرافية البريطانية كذلك:

«جون بول، ممثل شركة الهند الشرقية البريطانية، في هذه الكوميديا متعددة الجوانب، يمثل، وفي منتهى النبل، دورَ الرجل الشهم تجاه دب الشمال. يعتقد جون بول أنه وجد الرجل المناسب لتحقيق مخططه الحبيب فيبعث ذلك الرجل معززاً بالكلمات الجميلة والتوصيات المنمقة إلى روسيا لتكسُّب ما يتطلبه تحقيق مخططه من موارد. إذا قدَّرنا ما طلبتُه من مال لهذه الرحلة لمدة ست سنوات بأربع وعشرين ألف روبل تقريباً فإن بإمكاننا أن نجزم بأن روسيا وفنلندا قد منحتاني اثني عشر ألف وتسعمئة وخمسين روبلاً أي أكثر من النصف من أجل تحقيق هذا المشروع الذي يهم بريطانيا أكثر بكثير مما يهم هذين البلدين. في حين أن بريطانيا لم تَجُدْ إلا بألف ومئتين وسبعين روبلاً فضياً. لنرى هل تقوم بريطانيا بمنحي ما تبقى من المال الذي أحتاج إليه أم لا.

وهكذا انتهت مباحثات والين مع كل من الجمعية الجغرافية الروسية والجمعية الجغرافية البريطانية. رغم أن مصالح هاتين القوتين العظمتين المتصارعتين حول السيطرة على آسيا الوسطى لم تتعارض بشأن شبه الجزيرة العربية، إلا أن حسدهما وريبتهما تجاه بعض قد عرقلا فيما يبدو

مباحثات مشروع كان من المفترض له أن يكون مشروعا مشتركاً.

وهكـذا يبدو أن خطـأ والين الذي ارتكبه وهو ينقل رسـالته إلى صيغتها النهائية تسـبَّبَ في القضاء على أمله بالقيام برحلة جديدة إلى شـبه الجزيرة العربيـة. على ضوء الرسـائل والوثائق التي بين يدينـا، أتجرأ وأزعم أن كل شيء يدل على أن الجمعية الجغرافية الروسية لم تكن تبحث إلا عن ذريعة تجعل والين يوافق على الخروج في رحلة اسـتعلامية إلى آسيا الوسطى من شـأنها أن تـدر عليها نفعـاً أكبر. إذ إنـه لا طائل لوالين من البحث في سـان بيترسبورغ عن نية حسنة أو عن تفهم لمقاصده.

ومـن ناحيـة أخرى، فإنني علـى اسـتعداد أن أجزم بأن الرحلة الأشـمل التـي خطـط لها والين كانت سـتتحقق عاجلاً أو آجلاً بتمويـل إنجليزي لو أنـه بقـي على قيد الحياة. مـن الصعب أن نصدق أنه لم يكـن هناك من يريد الاسـتفادة من علم والين وخبرته. وقد عرض السـير رودريك مورشيسـون فـي أيار/ مايـو 1852، بعد أن اسـتعرض مباحثات واليـن المُحبطة مع كلتا الجمعيتيـن، رغبتـه الشـديدة في أن تقوم شـركة الهنـد الشـرقية البريطانية بشـراكة مع الحكومـة البريطانيـة بإيجاد حـل لتمويل رحلتـه. وكان والين في نظر مورشيسـون، «بفضل تمرسه الطويل، ابناً حقيقياً للصحراء. وربما يكون الأوروبي الوحيد الذي يمكنه، بفضل علمه وتجربته الميدانية، تسليط الضوء على مراحل تكون شـبه الجزيرة العربية التي تعد من الأهمية بمكان من منظور تاريخ الإنسانية.»

فـي أيلول/ سـبتمبر عام 1852، قرر ريتشـارد فرانسـيس بورتون، الذي كان ناراً على علم في الهند، والذي كانت شـخصيته تقترن بالنهضة والذي اشـتهر في جملة ما اشـتهر بـه بترجمته لكتـاب «ألف ليلة وليلـة» إلى اللغة الإنجليزية، القيام برحلة شـاملة إلى شـبه الجزيرة العربية بمبادرة من السير رودريك مورشيسـون رئيس الجمعية الملكية الجغرافية على أغلب الظن. المخطط الذي قُدِّمَ في تشـرين الأول/ أكتوبر مشـابه فـي عمومه للمخطط

الـذي كان والين قد قدمه قبل سـنتين للجمعية الجغرافيـة. لا يمكن إقصاء فكرة أن السـير رودريك كان يريد إرسال بورتون في رحلةٍ كان ينوي القيام بهـا واليـن الذي كان آنذاك قد انتقل إلى الرفيـق الأعلى. أما أمر عدم تحقق رحلة بورتون فذاك شأنٌ آخر.

علـى الرغـم مـن أن مصالـح روسـيا وبريطانيا لـم تتعارض بشـأن شـبه الجزيـرة العربيـة، إلا أنه يمكننا أن نتخيل ردود فعل البريطانيين لو أن والين كان قـد وافق على الذهاب إلى أفغانسـتان. كان سـيكون مـن العبث انتظار تمويل مثل تلك الرحلة من شـركة الهند الشـرقية البريطانية. كما يمكننا أن نتخيل ما الذي كان سـيلحق بوالين لو أنه، عندما اندلعت حرب القرم، كان يحل ويرتحل داخل آسيا كمبعوث يخدم أهداف الروس والبريطانيين على السواء.

إن مراسـلات واليـن بعد عودتـه إلى هلسـنكي تدعو لافتـراض أن هذا المستكشـف الذي سُـحِر بصحـراء جزيرة العـرب وتولع ببدوهـا لـم يكن ينـوي العودة إلـى أوروبا من رحلتـه الثانية في بلاد الشـرق. إذ إنه كتب في مذكراتـه وهـو لا يزال في لنـدن عن رغبته الجامحة فـي أن يهبه الله إمكانية إخلاد رأسـه للراحة على رمال الصحراء. وقد كتب والين لشـاو في الثالث عشر من كانون الثاني/ يناير عام 1851 يقول:

[...] أحدِّثُ نفسـي بمخططات مفادها أن أحقق في أقرب وقت ممكن مـا اعتبرتُه طول الوقت رسـالة حياتي الأساسـية، وأقصـد بذلك فرصة العـودة إلى بلاد الشـرق وصحراء الجزيرة العربيـة على الأخص [...]. قد أعود إلى هناك بطريقتين: إما بصفة مستكشف أوروبي للقيام بدراسة علمية لأراضي شـبه الجزيرة العربية التي لـم يتم استكشافها بعد، وأترك

نتائج بحثي لمريدي العلم وخاصة منهم الجمعيات العلمية في لندن [...] أو لهدفي الشخصي لآخذ كفايتي من طبيعة الصحراء المنعشة، والتمس منها ملجأ من جو أوروبا المُضني، فأجد في أسلوب حياة البدو الحر السعيد المنطلق راحةً من تفاهة الغرب وتمسكه بأعراف فارغة. يمكنني أن أحيا مثل بدوي حر وسط رجال الصحراء الأحرار. من السهل علي أن أدير ظهري للغرب وأولي وجهي صوب الشرق. وهذا ممكن في أي وقت، وسوف أفعله لا محالة عاجلاً أو آجلاً.

موت والين وَصِيتُه بعد موته

انتقل والين إلى رحمة الله في الثالث والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1852 في ليلة عيد ميلاده الواحد والأربعين ببيته بهلسنكي. إلى أي حد ساهمت العراقيل التي واجهها في مباحثاته في موته السابق لأوانه؟ سؤال من الصعب الإجابة عنه. ويبقى سبب الوفاة مجهولاً لأن تشريح الجثث للتحقيق في سبب الوفاة لم يكن أمراً معمولاً به آنذاك. ورد في التقرير الطبي أن سبب تلك الوفاة المفاجئة هو تمزق شريان القلب الذي كان قد توسع كثيراً. ويلاحظ من مَحَاضِر المجلس الجامعي غياب والين عن محاضراته مرات عديدة خلال شهر تشرين الأول/ أكتوبر، كما أن أصدقاءه كانوا قد لاحظوا اصفراره وهو ما قد يشير إلى أحد أمراض الكبد الذي قد يكون أصابه في الصحراء.

عرض جوران شيلدت سنة 1976 زعماً مفاده أن ما قضى على حياة والين هو «رغباته الجنسية الدائمة» أي أنه أصيب بمرض الزهري خلال أحداث باريس المذكورة. لا شيء مما نعرفه يدعم هذا الطرح، وإذا كان والين قد أصيب بمرض الزهري خلال رحلته، فإنه يكون قد أصيب به في القاهرة على الأرجح. لا طائل من أن يستشف المرء من أحداث باريس

أكثر مما كتبه س.ج. إلمجرين عام 1864 عنها:

ليلة الثاني أو الثالث من أيلول/ سبتمبر، انقض المحتال الذي قابله والين على هذا الأخير غدراً، وانهال عليه ضرباً ثم سلبه كل شيء وتركه شبه عارٍ. بقي والين شبه عار ملقىً على الأرض وهو يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة في طريق مغلق كان الرجلان يسيران فيه. وتم نقله من ذلك المكان إلى المستشفى حيث بقي عدة أسابيع ليعالج من جروح عديدة في رعاية أناس غرباء.

سمع إلمغرين أيضاً من مصدر ما أن شخصاً يدعى بلوم يعمل في السفارة السويدية بباريس كان قد ساعد والين. ولقد فقد المستشفى التي يرجَّحُ أن والين نقل إليه ملفات مرضاه خلال ما يسمى بثورة كومونة باريس عام 1871.

لم تكن أهداف والين قومية كأهداف بني جيله من الباحثين والمستكشفين الفنلنديين. لم تكن رحلته ولا أهدافها ولا معناها تَلْقَى تفهُّماً في بلاده خلال حياته. وهذا ما يظهر من الحادث الذي عرفته جامعة هلسنكي خلال حفل توزيع الشهادات في حزيران/ يونيو عام 1850. كان من بين المدعوين والين الذي كان قد عاد قبل بضعة أيام إلى هلسنكي. وأثناء الحديث، تحمس ج. ف. سنيلمان لمقارنة إنجازات والين بإنجازات كاسترين، وكان سنيلمان يعتقد أن إنجازات الأول أهم من إنجازات الثاني، لدرجة أنه من فرط انفعاله أشار بيده فأسقط طبق والين من يده.

عند التمحيص في تاريخ والين العلمي، نجد أنه يبرز على شكل ظواهر متفرقة. رحلاته لم تجعل الناس تتسابق نحو الشرق الأوسط، إذ إن

العمل الميداني الأكاديمي لعالمنا لم يزل في مجال القومية الرومانطيقية. لم يعمل والين محاضراً جامعياً إلا بضعة فصول دراسية. لذلك، فمن الجلي أن تلك المدة لم تكن كافية لخلق مذهب خاص به ولا للحصول على أتباع. كما أن اهتمام طلبته كان مُنصبًا على «شخصيته العربية» أكثر منه على تعليمه.

وقد اقترح والين عام 1851 إعادة النظر في مهمات منصبه التدريسية وذلك بتحويل تدريس اللغة العبرية إلى كلية اللاهوت فيهتم بروفيسور اللغات الشرقية بتدريس لغات العالم الإسلامي الأساسية العربية والفارسية والتركية. تم قبول الاقتراح في السنة الموالية، ولكن عندما لوحظ أن التغيير سيأثر على دراسات اللغات السامية المقارنة، أعاد لاجوس العبرية إلى جانب العربية عام 1867. ينقسم كرسي والين في يومنا هذا إلى قسمين: كرسي بروفيسور اللغة العربية والدراسات الإسلامية من جهة، وكرسي بروفيسور الفيلولجيا السامية من جهة أخرى.

لا تذكُر الإصدارات الدولية المتخصصة والين عامة إلا في جملة أو جملتين أو تمر على ذكره مرور الكرام في الحواشي. وهذا مفهوم لأن مكانة الباحث والمستكشف تُحَدَّد من خلال ما نعرفه عن أعمالهما وقد بقيت معظم مذكرات والين مكتوبة باللغة السويدية بعيداً عن متناول الباحثين الدوليين. إذ لم يصدر إلا تلك المقتطفات السالفة الذكر من الأشعار البدوية باللغة الألمانية والتي عمل والين بنفسه على إخراجها في (1851 – 1852) إضافة إلى مقالين باللغة الانجليزية الأول بعنوان: «رؤوس أقلام مأخوذة خلال رحلة عبر جزء من جزيرة العرب عام 1848» وقد صدر في 1851 والثاني بعنوان «قصة رحلة من القاهرة إلى مكة والمدينة عبر السويس وعربة وطفيلة والجوف وجبة وحائل ونجد في 1845»، وقد نشرته الجمعية الملكية الجغرافية في دوريتها عام 1854

(بعـد وفـاة والين). هذان المقـالان يختلفان عن مخطوطـات والين كما أن الناشـر كان قد زودهما بما يسـميه والين «حواشـي وملحوظات تلميذية». وقـد صدر مقال آخر عن الكتب الاستكشـافية الصادرة في الدورية نفسـها عـام 1855 بعنـوان «قصـة رحلة مـن القاهرة إلـى القدس عبر جبل سـيناء» نشـرته جريـدة مورغونبلاديت عـام 1847 فقام أمين الجمعية نورتون شـاو بترجمته من السـويدية. وما عدا ذلـك، نـذكـر مقالتيـن علميتين ناقصتيـن كـان هيرمـان شـيلغـريـن (1822 – 1856)، الذي شغل كرسـي بروفيسور اللغـات الشـرقيـة بعد والين، قد أعدهما للنشر وهما «عن أصوات العربية وتدوينها» (1855 و1858) وكذا «ملاحظات حول لغة البدو» (1858).

كان والين قد أخبر نورتون شـاو أنه بصدد الإعداد لسـرد رحلاته باللغة السـويدية يوجَّـهُ للعمـوم. وقد عثر في مـا خلفه والين مـن أوراق عن بداية هذا السرد الذي حققه ب. أ. شاومان بهدف النشر عام 1853 بعنوان «رحلة جورج أوغسـت واليـن الأولى من القاهـرة إلى صحراء جزيـرة العرب في أبريـل 1845». ممـا يـدل علـى أبعاد هذا السـرد أن وصف الأسـبوع الأول مـن رحلـة واليـن جـاء فـي 118 صفحة وسـت صفحـات من الحواشـي. مـن المثير للانتبـاه أن يعمل والين، وهو الذي يسـتغرب من علماء الأبراج العاجيـة، على إبراز أكاديميته للعموم في حذلقـة مقصودة بإدراج جزئيات لا نهاية لها.

هذا لا يعني أن الكتاب غير ذي قيمة. إذ إن خط سير الرحلة الصحراوية الثالثة التي جعلت من والين أول أوروبي يقطع شـمال شبه الجزيرة العربية، كان سبب حصوله على الكثير من التقدير والتكريم؛ إذ حصل على الجائزة الكبـري للجمعيـة الملكيـة الجغرافية عـام 1850 وعلـى الميداليـة الفضية الكبـرى لجمعية باريس الجغرافية في العام نفسـه. غير أن أهم ما أسـهم به والين من منظور عمله هو ما تتضمنه مذكراته ورسائله التي تعد بمثابة نبع لا

ينضب للحياة اليومية في مصر وشبه الجزيرة العربية وبلاد فارس في العقد الرابع من القرن التاسع عشر.

نشر الباحث البريطاني م. تراوتز مقالا عام 1932 بعنوان مصيب هو «مستكشف منسي لجزيرة العرب: ج. أ. والين». وسلط تراوتز في بداية مقاله الضوء بجدارة على أهمية والين وعلى الأسباب التي أدت إلى تعتيم مكانته في تاريخ استكشاف شبه الجزيرة العربية:

لكل عقد من عقود القرن التاسع عشر اسم بارز: والين في العقد الرابع، بورتون في العقد الخامس، بالغراف في العقد السادس ودوتي في العقد السابع. ويرجع الفضل لثلاثة من المذكورين في تزويدنا بما نعرفه عن الأجزاء الوسطى من شبه الجزيرة العربية في الماضي القريب. ربما أبالغ لو قلت إن اسم والين قد طواه النسيان تماماً فربما الأجدر أن أقول إنه دُفن في أرشيف إصدارات الجمعية الجغرافية المغبرة وفي الكتب التي تتطرق لاستكشاف شبه الجزيرة العربية. وجل ما تحمله هذه الكتب مما كُتب عن الرجل معلومات خاطئة.

دفن جورج أوغست والين في مقبرة هيتانيمي بهلسنكي. وعلى ضريحه صخرة ضخمة طبيعية كتب عليها بحروف لاتينية جورج أوغست والين وبحروف عربية الاسم الذي تسمى به: عبد الوالي. فقط لا غير.

شيعت جنازة والين في التاسع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر وقد حمل اتحاد طلبة غرب فنلندا نَعْشَهُ من وسط المدينة إلى مقبرة هيتانيمي حيث قام الكورال الأكاديمي بأداء بعض الترنيمات كما ألقى صديق والين الأستاذ غابريال غيتلين كلمة التأبين. وقد حضر الجنازة من أقارب والين والدته وأخته نتاليا.

وبعد مرور ثماني سنوات على وفاة والين، وبالضبط يوم الثلاثاء 23/ 10/ 1860، وضع نصب تذكاري على قبره. وغنى اتحاد الطلبة أغنية كان الطالب جوزيف يوليوس فيكسيل قد ألفها لهذه المناسبة. وبعد ذلك، ألقى ب. أ. شاومان كلمة أكد فيها أهمية النصب التذكاري.

وبعد بضعة أيام، كتب شاومان في 29/ 10/ 1860 مقالاً يجدر الاقتباس منه لبلاغته من جهة، ومن جهة أخرى لأنه يبرز روح العصر بشكل استثنائي عكس الاستغراب الذي عادة ما وُوجِه به والين:

«لِـمَ حُفر والين في ذاكرة الإنسانية؟ ألأنه كان كاتباً كبيراً أثر بكتاباته في تطور وتثقيف بني جلدته؟ لا إطلاقاً. قليل فقط هم من يبدون إعجاباً بكتاباته في أرض الوطن. إن عدداً كبيراً من كتاباته لم ينشر بعد، أو أنه لا يزال دفين الدوريات العلمية الدولية بعيداً عن متناول أيادينا. أم أنه كان وطنياً كبيراً لا ينبض قلبه إلا للوطن الأم ولرفاهه؟ ولا حتى هذا. إذ إنه يكاد يكون غريباً في وطنه وكان فؤاده يشده إلى مكان آخر، بعيداً عن وطنه وعن قارته بأسرها إلى صحراء شبه الجزيرة العربية. أين تكمن عظمته إذن؟ أجرؤ على القول أنه كان أعظم شاعر أنجبته فنلندا. كان شاعراً خلّف لنا ملحمة رغم أنه لم يكتب بيتاً شعرياً واحداً. هذه الملحمة هي حياته التي تضم أحداثاً غنية ومغامرات وغرائبية وعجائبية تفوق خيال بني البشر. لقد كان شاعراً، على الرغم من أنه لم يقف على خشبة مسرح ولا خط بقلمه شخصيات. قدم لنا شخصية أكثر واقعية وأكثر أصالة، بل وأكثر نبلاً وقوة من أكثر الشخصيات مثالية في شعر أشعر الشعراء. هذه الشخصية هي شخصيته هو.

عندما نقوم بحصيلة ختامية لاستكشاف شبه الجزيرة العربية على ضوء

علـم العقد الأول من القرن الواحد والعشـرين، يمكننـا أن نجزم أن من بين مستكشـفي شـبه الجزيرة العربية أربعة أسماء لأشـخاص أضافوا لمعرفتنا معلومات عن جغرافية شبه الجزيرة العربية، وعن لغتها، وعن حياة سكانها البـدو الرحـل، وظروفهـم المعيشـية. هـؤلاء الأربعة هـم يوهـان لودفيك بوركهـاردت، وجورج أوغسـت والين، وشـارلز مونتاغي دوتـي في القرن التاسـع عشـر، وويلفريد تيسـيغر في القرن العشـرين. يمكننا أن نذكر اسم والين دون أن نُتَّهَمَ بالقومية، ولكن على اعتبار أن تقدير مكانته يتوقف على معرفة اللغة السويدية. ولا يسعنا إلا أن نتمنى أن يصل وصفه إلى القراء في جميع أنحاء العالم عن طريق الترجمة إلى مختلف لغات العالم.

المحتويات

عاشق الصحراء

جورج أوغست والين: حياته ومذكراته

هذا كتاب يتضمن تجارب رحالة فنلندي عشق الصحراء وعشق البدو، إلى درجة أنه ترك سهولة العيش في بلاده فنلندا، وسافر إلى الشرق لينهل من منابعه. رجل ترك العيش بين أهله وإخوانه، وآثر على ذلك مرافقة الشرقيين من مختلف الفئات والشرائح والمستويات التعليمية، كان يسجل ملاحظاته ومذكراته أولاً بأول، ويتأمل حياة الشرقي بما فيها من حلو ومر.

هذه هي المرة الأولى التي تترجم فيها مذكرات هذا المستشرق الغربي إلى اللغة العربية، كي نرى من خلالها كيف كان الغربي ينظر إلى حياة الشرقيين في القرن التاسع عشر، وهي تعطينا فكرة أوضح عن أنفسنا؛ لأنها قد تكون أكثر موضوعية من نظرتنا نحن. فقد يرى المرء في عيون الآخر ما لا يراه في مرآته. لننظر إلى صورتنا في مرآة الآخر حتى نتعلم كيف نتعامل معه ومع أنفسنا.

قد تجد بين طيات هذا الكتاب أحكاماً قاسية عن الشرق والشرقيين، ولكنك ستجد فيه أفكاراً تغني طريقة تفكيرك، وتجعلك تنظر إلى مواضيع شتى من زاوية مختلفة، وذلك لأن سلوكيات الشرقيين عامة والعرب خاصة لا يمكن أن تلاحظ موضوعيا من قبل الذات فقط، بل لا بد من مساهمة ملاحظات العين الأجنبية حتى تقود المقارنة بين وجهتيْ النظر هاتين إلى تكوين حكم موضوعي.

55 درهماً



إصدارات
esdarat
دار الكتب الوطنية



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY